UNIVERSAL
LIBRARY
OU-234260
UNIVERSAL
LIBRARY

(فهرسة الجزء الحادى عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير)

صحيفة	
٢	ذكر حصر المسترشد بالله الموصل
٣	ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة
٣	ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجى
٣	ذكر عدة حوادث
٤	(سنة ثمان وعشرين وخمسمائة)
٤	ذكر ملك شمس الملوك شقيف تيرون ونهبه بلاد الفرنج
٤	ذكر عود الملك طغرل الى الجبل وانهزام الملك مسعود
٥	ذكر حصر اتابك زنكى آمد وملكه قلعة الصور
٥	ذكر ملك زنكى قلاع الاكراد الحديدية
٥	ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشى
٦	ذكر عدة حوادث
٧	(سنة تسع وعشرين وخمسمائة)
٧	ذكر وفاة الملك طغرل وملك مسعود بلاد الجبل
٨	ذكر قتل شمس الملوك وملك أخيه
٨	ذكر حصر اتابك زنكى دمشق
٩	ذكر قتل حسن بن الحافظ
١٠	ذكر مسير المسترشد الى حرب السلطان مسعود وانهزامه
١١	ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله
١١	ذكر مسير السلطان سنجر الى غزنة وعوده عنها
١٢	ذكر قتل دبيس بن صدقة بالتاريخ
١٢	ذكر حصر عسكر يحيى المهدية
١٣	ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة
١٣	ذكر ملك الفرنج حصن روطة من بلاد الاندلس
١٤	ذكر حصر ابن ردمير مدينة افراغة وهزيمته وموته
١٤	ذكر عدة حوادث
١٤	(سنة ثلاثين وخمسمائة)
١٤	ذكر الحرب بين عسكر وعسكر السلطان
١٥	ذكر اجتماع اصحاب الاطراف على حرب مسعود ببغداد وخروجهم عن طاعته
١٥	ذكر ملك شهاب الدين حمص
١٦	ذكر الفتنة بدمشق
١٦	ذكر غزاة العسكر الاتابكى الى بلاد الفرنج
١٧	ذكر وصول السلطان مسعود الى العراق وتفرق اصحاب الاطراف ومسير الراشد بالله الى الموصل
١٧	ذكر خلافة المقتفى لامر الله
١٩	ذكر عدة حوادث
١٩	(سنة احدى وثلاثين وخمسمائة)
١٩	ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود
٢٠	ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان
٢٠	ذكر فتح المسلمين حصن وادى ابن الاحمر من الفرنج
٢١	ذكر حصار زنكى مدينة حمص
٢١	ذكر ملك زنكى قلعة بعرين وهزيمة الفرنج
٢٢	ذكر خروج ملك الروم من بلاده الى الشام
٢٢	ذكر عدة حوادث
٢٢	(سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة)

صحيفة	
٢٢	ذكر ملك اتابك زنكى حمص وغيرها من عمل دمشق
٢٣	ذكر وصول ملك الروم الى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين
٢٥	ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الامراء
٢٥	ذكر قتل الراشد بالله
٢٦	ذكر حال ابن بكران العيار
٢٦	ذكر قتل الوزير الدركزينى ووزارة الخازن
٢٧	ذكر عدة حوادث
٢٨	(سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة)
٢٨	ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزمشاه
٢٨	ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد
٢٨	ذكر ملك زنكى بعلبك
٢٩	ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده عنها
٢٩	ذكر عدة حوادث
٣٠	(سنة أربع وثلاثين وخمسمائة)
٣٠	ذكر حصار اتابك زنكى دمشق
٣١	ذكر ملك زنكى شهرزور واعمالها
٣١	ذكر عدة حوادث
٣٢	(سنة خمس وثلاثين وخمسمائة)
٣٢	ذكر مسير جهاردانكى الى العراق وما كان منه
٣٢	ذكر عدة حوادث
٣٣	(سنة ست وثلاثين وخمسمائة)
٣٣	ذكر انهزام السلطان سنجر من الاتراك الخطا وملكهم ماوراء النهر
٣٦	ذكر ما فعله خوارزمشاه بخراسان

صحيفة	
٣٦	ذكر عدة حوادث
٣٧	(سنة سبع وثلاثين وخمسمائة)
٣٧	ذكر ملك عماد الدين اتابك زنكى قلعة اشب وغيرها من الهكارية
٣٧	ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب
٣٨	ذكر عدة حوادث
٣٨	(سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة)
٣٨	ذكر صلح الشهيد السلطان مسعود واتابك زنكى
٣٩	ذكر ملك اتابك بعض ديار بكر
٣٩	ذكر أمر العيارين ببغداد
٣٩	ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزمشاه
٣٩	ذكر عدة حوادث
٤٠	(سنة تسع وثلاثين وخمسمائة)
٤٠	ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية
٤١	ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين على كوجك قلعة الموصل
٤٢	ذكر عدة حوادث
٤٢	(سنة أربعين وخمسمائة)
٤٢	ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان
٤٣	ذكر استيلاء على بن دبيس بن صدقة على الحلة
٤٣	ذكر عدة حوادث
٤٤	(سنة احدى وأربعين وخمسمائة)
٤٤	ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب
٤٤	ذكر حصر زنكى حصن جعبر وفتحه
٤٥	ذكر قتل اتابك عماد الدين زنكى وشئ من سيرته
٤٦	ذكر ملك ولديه سيف الدين غازى

صحيفة	
	ونور الدين محمود
٤٦	ذكر عصيان الرها لما قتل اتابك
٤٧	ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الاندلس
٤٧	ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الري
٤٨	ذكر عدة حوادث
٤٨	(سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة)
٤٨	ذكر قتل بوزابة
٤٩	ذكر طاعة اهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها
٤٩	ذكر حادثة ينبغي ان يحتاط العاقل من مثلها
٤٩	ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الاندلس
٥٠	ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي عدة مواضع من بلاد الفرنج
٥٠	ذكر أخذ الحلة من علي بن دبيس وعوده اليها
٥٠	ذكر عدة حوادث
٥١	(سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة)
٥١	ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بافريقية
٥٢	ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي
٥٣	ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العزيمة
٥٤	ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الامراء ووصولهم الى بغداد وما كان منهم بالعراق
٥٥	ذكر انهزام الفرنج بالغرى
٥٥	ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها

صحيفة	
٥٦	ذكر ملك الفرنج مدنا من الاندلس
٥٦	ذكر عدة حوادث
٥٦	(سنة أربع واربعين وخمسمائة)
٥٦	ذكر وفاة سيف الدين غازي بن اتابك زنكي وبعض سيرته وملك اخيه قطب الدين
٥٧	ذكر استيلاء نور الدين على سنجار
٥٧	ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار
٥٨	ذكر عود جماعة من الامراء الى العراق
٥٨	ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية وهزيمة الفرنج
٥٩	ذكر الخلاف بين صاحب صقلية وملك الروم
٥٩	ذكر عدة حوادث
٦٠	(سنة خمس واربعين وخمسمائة)
٦٠	ذكر أخذ العرب الحاج
٦١	ذكر فتح حصن فامية
٦١	ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها
٦١	ذكر ملك الغورية هراة
٦٢	ذكر عدة حوادث
٦٢	(سنة ست واربعين وخمسمائة)
٦٢	ذكر انهزام نور الدين من جوسلين واسر جوسلين بعد ذلك
٦٣	ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الاندلس
٦٣	ذكر عدة حوادث
٦٤	(سنة سبع واربعين وخمسمائة)
٦٤	ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حماد
٦٤	ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة
٦٥	ذكر وفاة السلطان مسعود وملك

صحيفة

ملكشاه محمد بن محمود

٦٦ ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج

٦٦ ذكر الحرب بين سنجر والغورية

٦٧ ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين

٦٨ ذكر ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد

٦٨ ذكر ملك شهاب الدين الهاوور

٦٩ ذكر انقراض دولة سبكتكين

٦٩ ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة

٦٩ ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان

٧٠ ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلاد الهند

٧٠ ذكر ظفر الهند على المسلمين

٧٠ ذكر ظفر المسلمين بالهند

٧١ ذكر عدة حوادث

٧١ (سنة ثمان واربعين وخمسمائة)

٧١ ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم

٧٥ ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها

٧٥ ذكر ملك ايتاخ الري

٧٥ ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس

٧٥ ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن

٧٦ ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم

٧٦ ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة

٧٧ ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان

٧٧ ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت

صحيفة

وعودهم عنها

٧٧ ذكر عدة حوادث

٧٧ (سنة تسع وأربعين وخمسمائة)

٧٧ ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز

٧٨ ذكر وزارة الملك الصالح بن رزيك

٧٩ ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا

٨٠ ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق

٨١ ذكر قصد الاسماعيلية خراسان والظفر بهم

٨١ ذكر ملك نور الدين تل باشر

٨١ ذكر عدة حوادث

٨١ (سنة خمسين وخمسمائة)

٨٢ (سنة احدى وخمسين وخمسمائة)

٨٢ ذكر عصيان الجزائر وافريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم

٨٣ ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل

٨٤ ذكر حصر نور الدين قلعة حارم

٨٥ ذكر وفاة خوارزم شاه اتسز وغيره من الملوك

٨٥ ذكر هرب السلطان سنجر من الغز

٨٥ ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد أبيه

٨٥ ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد

٨٦ ذكر حصر السلطان محمد بغداد

٨٧ ذكر عدة حوادث

٨٨ (سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة)

٨٨ ذكر الزلازل بالشام

٨٨ ذكر ملك نور الدين حصن شيزر

٩٠ ذكر وفاة الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة

صحيفة

٩٠ ذكر وفاة السلطان سنجر
٩٠ ذكر ملك المسلمين مدينة المرية وانقراض دولة الملثمين بالاندلس
٩١ ذكر غزو صاحب طبرستان الاسماعيلة
٩١ ذكر أخذ حجاج خراسان
٩١ ذكر الحرب بين المؤيد والامير ايناق
٩٢ ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزى
٩٢ ذكر ملك نور الدين بعلبك
٩٢ ذكر عدة حوادث
٩٣ (سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة)
٩٣ ذكر الحرب بين سنقر وارغش
٩٣ ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطانى
٩٣ ذكر معاودة الغز الفتنة بخراسان
٩٤ ذكر أسر المؤيد وخلاصه
٩٥ ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم الى نيسابور
٩٥ ذكر حصر صاحب حتلان ترمذ وعوده وموته
٩٦ ذكر عود المؤيد الى نيسابور وتخريب مابقى منها
٩٦ ذكر ملك ملكشاه خوزستان
٩٦ ذكر الحرب بين التركمانى والاسماعيلة بخراسان
٩٧ ذكر عدة حوادث
٩٧ (سنة أربع وخمسين وخمسمائة)
٩٩ ذكر ايقاع عبد المؤمن بالعرب
١٠٠ ذكر غرق بغداد
١٠١ ذكر عود سنقر الهمذانى الى اللحف
١٠١ ذكر الفتنة بين عامة استراباذ
١٠٢ ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد ابن ملكشاه
١٠٢ ذكر أخذ حران من نور الدين ودمها

صحيفة

اليه
١٠٢ ذكر عدة حوادث
١٠٣ (سنة خمس وخمسين وخمسمائة)
١٠٣ ذكر مسير سليمان شاه الى همذان
١٠٣ ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين
١٠٣ ذكر وفاة الخليفة المقتفى لامر الله وشئ من سيرته
١٠٤ ذكر خلافة المستنجد بالله
١٠٥ ذكر الحرب بين عسكر خوارزم شاه والاتراك البرزية
١٠٥ ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة
١٠٥ ذكر الحرب بين شاه مازندران وبغمر خان
١٠٦ ذكر وفاة خسرو شاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده
١٠٦ ذكر الحرب بين ايناق وبغراتيكين
١٠٦ ذكر وفاة ملكشاه بن محمود
١٠٧ ذكر عدة حوادث
١٠٧ (سنة ست وخمسين وخمسمائة)
١٠٧ ذكر الفتنة ببغداد
١٠٧ ذكر قتل ترشك
١٠٧ ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لارسلان
١٠٨ ذكر الحرب بين ابن آق سنقر وعسكر ايلدكز
١٠٩ ذكر الحرب بين ايلدكز واينانج
١٠٩ ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد
١١٠ ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها
١١٠ ذكر خلع السلطان محمود ونهب طلوس وغيرها من خراسان
١١٠ ذكر عمارة شاذياخ نيسابور
١١١ ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك

صحيفة	
١١٢	ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد
١١٢	ذكر حصر المؤيد شارستان
١١٣	ذكر ملك الكرج مدينة انى
١١٣	ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى
١١٣	ذكر عدة حوادث
١١٤	(سنة سبع وخمسين وخمسمائة)
١١٤	ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها
١١٤	ذكر اخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها اليه
١١٥	ذكر حصر نور الدين حارم
١١٥	ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكى
١١٥	ذكر الحرب بين المسلمين والكرج
١١٦	ذكر عدة حوادث
١١٧	(سنة ثمان وخمسين وخمسمائة)
١١٥	ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده
١١٧	ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف
١١٨	ذكر ملك المؤيد اعمال قومس والخطبة للسلطان ازسلان بخراسان
١١٨	ذكر قتل الغز ملك الغور
١١٩	ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج
١١٩	ذكر اجلاء بنى أسد من العراق
١٢٠	ذكر عدة حوادث
١٢٠	(سنة تسع وخمسين وخمسمائة)
١٢٠	ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين الى ديار مصر وعودهم عنها
١٢٢	ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم
١٢٣	ذكر ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضا
١٢٤	ذكر أخذ الاتراك غزنة من ملكشاه وعوده اليها
١٢٤	ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشئ من سيرته
١٢٦	ذكر اجلاء القارغلية من وراء النهر
١٢٦	ذكر استيلاء سنقر على الطالقان وغرشستان
١٢٦	ذكر قتل صاحب هراة
١٢٦	ذكر ملك شاه مازندران قومس وبسطام
١٢٧	ذكر عصيان غمارة بالمغرب
١٢٧	ذكر عدة حوادث
١٢٧	(سنة ستين وخمسمائة)
١٢٧	ذكر وفاة شاه مازندران وملك ابنه بعده
١٢٧	ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها
١٢٨	ذكر استيلاء المؤيد على هراة
١٢٨	ذكر الحرب بين قلج ارسلان وبين ابن الدانشمند
١٢٨	ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج ارسلان
١٢٩	ذكر عدة حوادث
١٣٠	(سنة احدى وستين وخمسمائة)
١٣٠	ذكر فتح المنيطرة من الفرنج
١٣٠	ذكر قتل خطلوبرس مقطع واسط
١٣٠	ذكر عدة حوادث
١٣١	(سنة اثنتين وستين وخمسمائة)
١٣١	ذكر عود أسد الدين شيركوه الى مصر
١٣٢	ذكر ملك أسد الدين الاسكندرية وعوده الى الشام
١٣٢	ذكر ملك نور الدين صافيثا وعرمة
١٣٣	ذكر قصد ابن شنكا البصرة
١٣٣	ذكر قصد شملة العراق
١٣٣	ذكر عدة حوادث
١٣٣	(سنة ثلاث وستين وخمسمائة)
١٣٣	ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم

صحيفة	
	قطب الدين فى البلاد
١٣٤	ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة
١٣٤	ذكر عدة حوادث
١٣٥	(سنة أربع وستين وخمسمائة)
١٣٥	ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر
١٣٥	ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور
١٣٨	ذكر وفاة أسد الدين شيركوه
١٣٨	ذكر ملك صلاح الدين مصر
١٤٠	ذكر وقعة السودان بمصر
١٤٠	ذكر ملك شمسة فارس واخراجه عنها
١٤١	ذكر ملك ايلدكز الرى
١٤١	ذكر عدة حوادث
١٤٢	(سنة خمس وستين وخمسمائة)
١٤٢	ذكر حصر الفرنج دمياط
١٤٢	ذكر حصر نور الدين الكرك
١٤٣	ذكر غزوة اسربة نورية
١٤٣	ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام
١٤٣	ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى وملك ابنه سيف الدين غازى
١٤٤	ذكر حالة ينبغى للملوك أن يحترزوا من مثلها
١٤٤	ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش
١٤٥	ذكر وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده
١٤٥	ذكر عدة حوادث
١٤٥	(سنة ست وستين وخمسمائة)
١٤٥	ذكر وفاة المستضىء بالله
١٤٦	ذكر ملك نور الدين الموصل واقرار سيف الدين عليها
١٤٧	ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح

صحيفة	
	ايلة
١٤٨	ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة
١٤٨	ذكر عدة حوادث
١٤٨	(سنة سبع وستين وخمسمائة)
١٤٨	ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية
١٥٠	ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا
١٥١	ذكر غزوة الى الفرنج بالشام
١٥١	ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده
١٥١	ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزم شاه
١٥١	ذكر عدة حوادث
١٥٢	(سنة ثمان وستين وخمسمائة)
١٥٢	ذكر وفاة خوارزم شاه ايل ارسلان وملك ولده سلطان شاه وبعده ولده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه
١٥٦	ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج
١٥٦	ذكر مسير شمس الدولة الى بلاد النوبة
١٥٦	ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم
١٥٧	ذكر وفاة ايلدكز
١٥٧	ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها
١٥٧	ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس
١٥٨	ذكر نهب نهاوند
١٥٨	ذكر قصد نور الدين بلاد قلج ارسلان
١٥٩	ذكر رحيل صلاح الدين من مصر الى الكرك وعوده عنها

صحيفة	
١٥٩	ذكر عدة حوادث
١٦٠	(سنة تسع وستين وخمسمائة)
١٦٠	ذكر ملك شمس الدولة زيد وغيرها من بلاد اليمن
١٦١	ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين
١٦٣	ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله
١٦٤	ذكر ملك ولده الملك الصالح
١٦٥	ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية
١٦٥	ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها
١٦٦	ذكر عدة حوادث
١٦٧	(سنة سبعين وخمسمائة)
١٦٧	ذكر وصول اسطول صقلية الى مدينة الاسكندرية وانهزامهم منها
١٦٨	ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر
١٦٨	ذكر ملك صلاح الدين دمشق
١٦٩	ذكر ملك صلاح الدين مدينتي حمص وحماة
١٧٠	ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك
١٧١	ذكر حصر سيف الدين اخاه عماد الدين بسنجار
١٧١	ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب
١٧٢	ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين
١٧٢	ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز
١٧٢	ذكر وفاة شملة
١٧٢	ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد
١٧٤	ذكر عدة حوادث
١٧٤	(سنة احدى وسبعين وخمسمائة)
١٧٤	ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين

صحيفة	
١٧٥	ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين
١٧٦	ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها
١٧٦	ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها واقامة غيره
١٧٦	ذكر عدة حوادث
١٧٨	(سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة)
١٧٨	ذكر نهب صلاح الدين بلاد الاسماعيلية
١٧٨	ذكر ظفر المسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين
١٧٨	ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده الى طاعته
١٧٩	ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ
١٨٠	ذكر نهب البتدنيجين
١٨٠	ذكر عدة حوادث
١٨٠	(سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة)
١٨٠	ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة
١٨١	ذكر حصر الفرنج مدينة حماة
١٨١	ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم
١٨٢	ذكر عدة حوادث
١٨٣	(سنة أربع وسبعين وخمسمائة)
١٨٣	ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضا
١٨٤	ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه
١٨٤	ذكر الغلاء والوباء العام
١٨٥	ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين
١٨٥	ذكر عدة حوادث
١٨٥	(سنة خمس وسبعين وخمسمائة)
١٨٥	ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان
١٨٧	ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين

صحيفة

وعسكر قلج ارسلان
١٨٧ ذكر وفاة المستضئ بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله
١٨٨ ذكر عدة حوادث
١٨٨ (سنة ست وسبعين وخمسمائة)
١٨٨ ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عز الدين بعده
١٨٩ ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج ارسلان
١٩٠ ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمني
١٩٠ ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه
١٩١ ذكر عدة حوادث
١٩١ (سنة سبع وسبعين وخمسمائة)
١٩١ ذكر غزاة الى بلد الكرك من الشام
١٩٢ ذكر تلبيس ينبغي ان يحتاط من مثله
١٩٢ ذكر ارسال صلاح الدين العساكر الى اليمن
١٩٢ ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب
١٩٣ ذكر تسليم حلب الى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها
١٩٣ ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومسير صاحبها مع صلاح الدين
١٩٤ ذكر عدة حوادث
١٩٤ (سنة ثمان وسبعين وخمسمائة)
١٩٤ ذكر مسير صلاح الدين الى الشام واغارته على الفرنج
١٩٤ ذكر ملك المسلمين شقيفا من الفرنج
١٩٥ ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن وتغلبه عليه
١٩٥ ذكر اغارة صلاح الدين على الغور وغيره

صحيفة

من بلاد الفرنج واعمالها
١٩٦ ذكر حصر بيروت
١٩٦ ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة
١٩٧ ذكر حصر صلاح الدين الموصل
١٩٨ ذكر ملك مدينة سنجار
١٩٨ ذكر عود صلاح الدين الى حران
١٩٩ ذكر اجتماع عز الدين وشاه ارمن
١٩٩ ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب
٢٠٠ ذكر عدة حوادث
٢٠٠ (سنة تسع وسبعين وخمسمائة)
٢٠٠ ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها الى صاحب الحصن
٢٠١ ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من اعمال الشام
٢٠١ ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام
٢٠١ ذكر ملك صلاح الدين حلب
٢٠٢ ذكر فتح صلاح الدين حارم
٢٠٣ ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك
٢٠٣ ذكر غزو بيسان
٢٠٤ ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب
٢٠٤ ذكر عدة حوادث
٢٠٤ (سنة ثمانين وخمسمائة)
٢٠٤ ذكر اطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم
٢٠٥ ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب
٢٠٥ ذكر غزو صلاح الدين الكرك
٢٠٦ ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها الى اولاد عبد المؤمن

صحيفة

٢٠٧ ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده
٢٠٧ ذكر عدة حوادث
٢٠٧ (سنة احدى وثمانين وخمسمائة)
٢٠٧ ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاه ارمن
٢٠٩ ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن
٢٠٩ ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين
٢١٠ ذكر عود صلاح الدين الى بلاد الموصل والصلح بينه وبين اتابك عز الدين
٢١١ ذكر الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل
٢١١ ذكر ملك الملثمين والعرب افريقية وعودها الى الموحدين
٢١٢ ذكر عدة حوادث
٢١٢ (سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة)
٢١٢ ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز الى مصر واخراج الافضل من مصر الى دمشق واقطاعه اياها
٢١٤ ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل
٢١٤ ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس الى صلاح الدين
٢١٤ ذكر غدر البرنس ارناط
٢١٥ ذكر عدة حوادث
٢١٥ (سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)
٢١٥ ذكر حصر صلاح الدين الكرك
٢١٥ ذكر الغارة على بلد عكا

صحيفة

٢١٦ ذكر عود صلاح الدين الى عسكره ودخوله الى الفرنج
٢١٦ ذكر فتح صلاح الدين طبرية
٢١٧ ذكر انهزام الفرنج بحطين
٢١٩ ذكر عود صلاح الدين الى طبرية وملك قلعتها مع المدينة
٢١٩ ذكر فتح مدينة عكا
٢٢٠ ذكر فتح مجدل يابا
٢٢٠ ذكر فتح عدة حصون
٢٢٠ ذكر فتح يافا
٢٢٠ ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت
٢٢١ ذكر خروج المركيش الى صور
٢٢٢ ذكر فتح عسقلان وما يجاورها
٢٢٢ ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان
٢٢٣ ذكر فتح البيت المقدس
٢٢٦ ذكر رحيل صلاح الدين الى صور ومحاصرتها
٢٢٧ ذكر الرحيل عن صور الى عكا وتفريق العساكر
٢٢٨ ذكر فتح هونين
٢٢٨ ذكر حصر صفد وكوكب والكرك
٢٢٨ ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم
٢٢٩ ذكر قوة السلطان طغرل على قزل
٢٢٩ ذكر ملك شرستى من الهند وانهزام المسلمين بعدها
٢٣٠ ذكر عدة حوادث

(تمت)

الجزء الحادي عشر من تاريخ الكامل للعلامة أبي الحسن علي
ابن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيباني المعروف بابن
الاثير الجزري الملقب بعز
الدين رحمه
الله

(وبهامش هذا الجزء تاريخ أبي نصر العتبي رحمه الله تعالى)

١٤٣٢٩

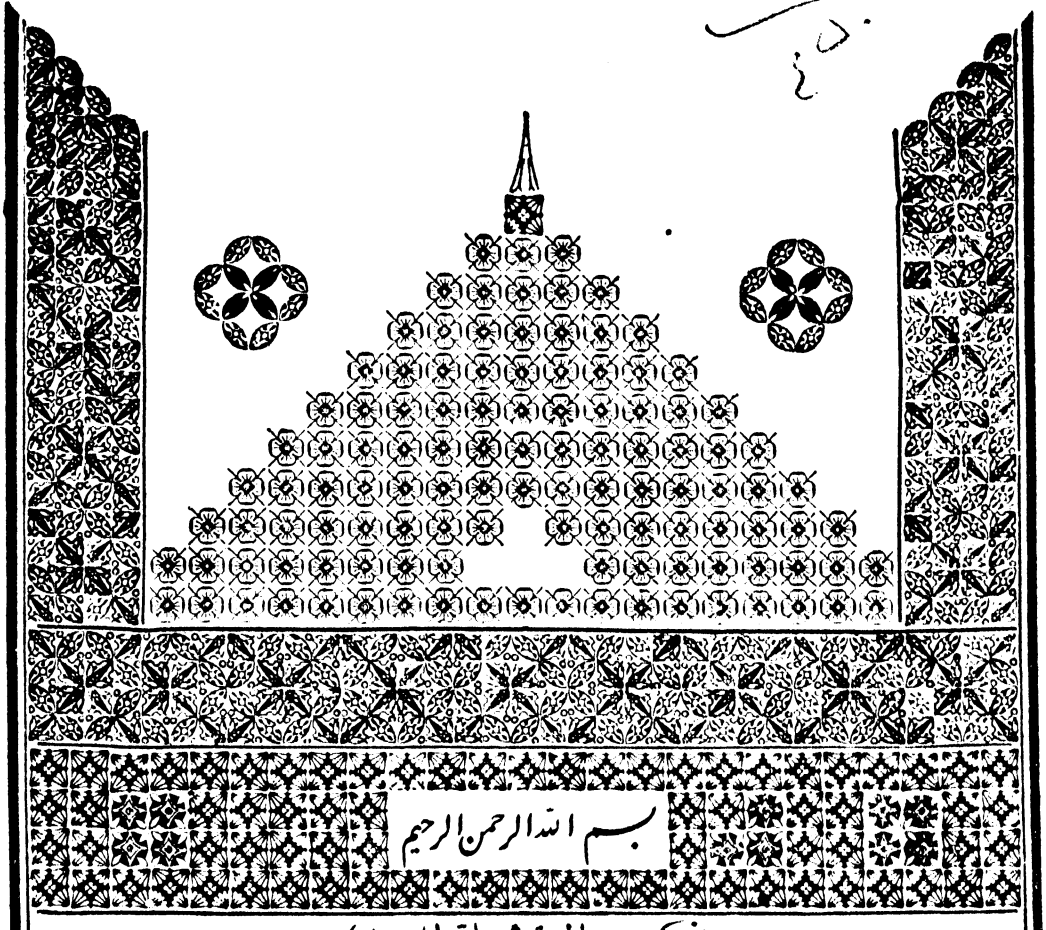

بسم الله الرحمن الرحيم

(ذكر حصر المسترشد بالله الموصل)

فى هذه السنة (٥٢٧) حصر المسترشد بالله مدينة الموصل فى العشرين من شهر رمضان وسبب ذلك ماتقدم من قصة الشهيد زنكى ببغداد على ماذكرناه قبل فلما كان الآن قصد جماعة من الامراء السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه فقوى بهم واشتغل السلاطين السلجقية بالخلف الواقع بينهم فارسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الاسفرايينى الواعظ الى عماد الدين زنكى برسالة فيها خشونة زادها ابو الفتوح زيادة ثقة بقوة الخليفة وناموس الخلافة فقبض عليه عماد الدين زنكى واهانه والقيه بما يكره فارسل المسترشد بالله الى السلطان مسعود يعرفه الحال الذى جرى من زنكى ويعلمه انه على قصد الموصل وحصرها وتمادت الايام الى شعبان فسار عن بغداد فى النصف منه فى ثلاثين ألف مقاتل فلما قارب الموصل فارقها اتابك زنكى فى بعض عسكره وترك الباقى بها مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم فى دولته وامرهم بحفظها ونازلها الخليفة وقاتلها وضيق على من بها واما عماد الدين فانه سار الى سنجار وكان يركب كل ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ومتى ظفر باحد من العسكر أخذه ونكل به وضاقت الامور بالعسكر ايضا وتواطأ جماعة من الخاصين بالموصل على تسليم البلد فسعى بهم فأخذوا وصلبوا وبقى الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشئ ولا بلغه عمن بها وهن ولا قلة ميرة وقوت فرحل عنها عائدا الى بغداد فقيل ان نصرا الخادم وصل اليه من عسكر السلطان وابلغه عن عسكر السلطان مسعود ما اوجب مسيره وعوده الى بغداد وقيل بلغه ان السلطان مسعودا عزم على قصد بغداد فعاد بالجملة وانه رحل عنها منحدرا فى شبارة فى دجلة فوصل الى

*(ذكر انزال اسمعيل من قلعة غزنة) واستنزل الامير سيف الدولة أخاه اسمعيل من قلعة غزنة على أمان بذله وضمان أجله وتسلم منه مفاتيح الخزائن وأحاط بزوايا الاعلاق والدفائن وجبر له كسر حاله وأعاد اليه رونق ماله وجماله وشحن غزنة بثقاته والكفاة من حماته وانحدر الى بلخ فى عامة اوليائه وأنصاره وقد انتظم له ما انتثر بعد أبيه واستقر عليه ماسعى فى تلافيه فنفضت شعاب بلخ وضواحيها بطبقات رجاله وعلامات الاعلام من افياله وكتب الى الامير أبى الحرث بذكر اقباله وحذفه فضل الشغل كان بأخيه عن باله وانه قائم مقام أبيه فى المحاماة عن الدوله والنضال عن الجمله والاقبال على قضاء حقوق ماتعرفه من بركة اصطناع

بغداد

بغداد يوم عرفة

(ذكر ملك شمس الملوك مدينة حماة)

وفى هذه السنة ايضا فى شوال ملك شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها وهى لاتابك زنكى بن اقسنقر اخذها من تاج الملوك كما ذكرنا ولما ملك شمس الملوك قلعة بانياس أقام بدمشق الى شهر رمضان من هذه السنة وسار الى حماة فى العشر الاخير منه وسبب طمعه انه بلغه ان المسترشد بالله يريد ان يحصر الموصل فطمع وكان الوالى بحماة قد سمع الخبر فتحصن واستكثر من الرجال والذخائر ولم يبق احد من اصحاب شمس الملوك الا واشار عليه بترك قصدها لقوة صاحبها فلم يسمع منهم وسار اليها وحصر المدينة وقاتل من بها يوم العيد وزحف اليها من وقته فتحصنوا منه وقاتلوه فعاد عنهم ذلك اليوم فلما كان الغد بكر اليهم وزحف الى البلد من جوانبه فملكه قهرا وعنوة وطلب من به الامان فامنهم وحصر القلعة ولم تكن فى الحصانة والعلو على ماهى اليوم فان تقى الدين عمر بن اخى صلاح الدين قطع جبلها وعملها هكذا فى سنين كثيرة فلما حصرها عجز الوالى بها عن حفظها فسلمها اليه فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح وغير ذلك وسار منها الى قلعة شيزر وبها صاحبها من بنى منقذ فحصرها ونهب بلدها فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله اليه فعاد عنه الى دمشق فوصل اليها فى ذى القعدة من السنة المذكورة

(ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجى)

وفى هذه السنة عبر الى الشام جمع كثير من التركمان من بلاد الجزيرة واغاروا على بلاد طرابلس وعثوا وقتلوا كثيرا فخرج القمص صاحب طرابلس فى جموعه فانزاح التركمان من بين يديه فتبعهم فعادوا اليه وقاتلوه فهزموه واكثروا القتل فى عسكره ومضى هو ومن سلم معه الى قلعة بعرين فتحصنوا فيها وامتنعوا عن التركمان فحصرهم التركمان فيها فلما طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارسا من اعيان اصحابه سرا فنجوا وساروا الى طرابلس وتركه الباقين فى بعرين يحفظونها فلما وصل الى طرابلس كاتب جميع الفرنج فاجتمع عنده منهم خلق كثير وتوجه بهم نحو التركمان ليرحلهم عن بعرين فلما سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم وقتل بينهم خلق كثير واشرف الفرنج على الهزيمة فجمعوا نفوسهم وعادوا على حمية الى رفنية فتعذر على التركمان اللحاق بهم الى وسط بلادهم فعادوا عنهم راجعين

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اشترى الاسماعيلية بالشام قلعة حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون وصعدوا اليه وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم وفيها وقع الخلف بالشام فقاتل بعضهم بعضا ولم تجر لهم بذلك عادة قبل هذه السنة وقتل بينهم جماعة وفيها فى جمادى الآخرة أغار الامير سوار مقدم عسكر زنكى بحلب على ولاية تل باشر فغنم الكثير فخرج اليه الفرنج فى جموع كثيرة فقاتلوه فظفر بهم واكثر القتل فيهم وكان عدة القتلى نحو ألف قتيل وعاد سالما وفيها تاسع ربيع الآخر وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض مماليك جده طغدكين فضربه بسيف فلم يعمل فيه شيأ وتكاثر عليه مماليك شمس الملوك

الرضا واصطفائه وتقديمه على زعماء حشمه وأوليائه فارسل اليه أبو الحسن العلوى الهمدانى فى تهنئته بقدمه واظهار تيمنه بموطئ قدمه وعقد له على بلخ والترمذ وما والاهما وديار بست وهراة وماتاخمهما ودانا هما وتلطف فى الاعتذار اليه من أمر نيسابور حرصا على ترضيه وكراهة لصرف بكتوزون عنها الا بعلة تقتضيه فعلم الامير سيف الدولة ان تلك المناقشة صادرة عن تمويه الحساد وتلبيس المناوين والاضداد وان داء الحقد ليس له علاج وان صلاة النجح بغير فاتحة البرخداج فأرسل الى الامير أبى الحرث ثقته أبا الحسين الحولى بهدايا تضمن بمثلها سمح النفوس ويضيق عن قدرها رحب الصدور ورسم له ان يجعل مسمعه عن تضريب المضربين وتثريب المثربين ويتلطف لاستخلاص سره له واستصفاء محله قبله لترتفع الحشمه وتتأكد العصمه وتستحكم الثقه ويعرفه بأن تخصيصه بعرصات خراسان انما هو من أجل موالاته وحراسة اقطاره ولاياته فلما ورد بخارا أعرض عما وجه فيه وعرضت الوزارة عليه

فاخذوه وقرروه الذى حمله على ما فعل فقال اردت اراحة المسلمين من شرك وظلمك ولم يزل يضرب حتى اقر على جماعة انهم وضعوه على ذلك فقتلهم شمس الملوك بغير تحقيق وقتل معهم اخاه سوبج فعظم ذلك على الناس ونفروا عنه وفيها توفى الشيخ أبو الوفاء الفارسى وكان له جنازة مشهودة حضرها اعيان بغداد وفيها فى رجب توفى القاضى أبو العباس احمد بن سلامة بن عبد الله بن مخلد المعروف بابن الرطبى الفقيه الشافعى قاضى الكرخ وتفقه على أبى اسحق وابى نصر بن الصباغ وسمع الحديث ورواه وكان قريبا من الخليفة يؤدب اولاده وتوفى ابو الحسين على بن عبد الله بن نصر المعروف بابن الزاغونى الفقيه الحنبلى الواعظ وكان ذا فنون توفى فى المحرم وتوفى على بن يعلى بن عوض بن القاسم الهروى كان واعظا وله بخراسان قبول كثير وسمع الحديث فاكثر ومحمد بن أحمد بن على ابو عبد الله الحرانى وهو من اولاد محمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان بن عفان وكان محمد يلقب بالديباج لحسنه واصله من مكة وهو من أهل نابلس وكان مغاليا فى مذهب الاشعرى وكان يعظ توفى فى صفر وفيها توفى ابو فليتة امير مكة وولى الامارة بعده ابنه القاسم وفيها توفى العزيز بن هبة الله بن على الشريف العلوى الحسينى فجأة بنيسابور وكان جده نقيب النقباء بخراسان وعرض على العزيز هذا نقابة العلويين فامتنع وعرض عليه وزارة السلطان فامتنع ولزم الانقطاع والاشتغال بأمر آخرته وفيها توفى قاضى قضاة خراسان ابو سعيد محمد بن أحمد بن صاعدة وكان خيرا صالحا

(ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة)

(ذكر ملك شمس الملوك شقيف تيرون ونهبه بلد الفرنج)

فى هذه السنة فى المحرم سار شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق منها الى شقيف تيرون وهو فى الجبل المطل على بيروت وصيدا وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس وادى التيم قد تغلب عليه وامتنع به فحماه المسلمون والفرنج يحتمى على كل طائفة بالآخرين فسار شمس الملوك اليه فى هذه السنة واخذه منه فى المحرم وعظم اخذه على الفرنج لان الضحاك كان لا يعترض الى شئ من بلادهم المجاورة له فخافوا شمس الملوك فجمعوا عساكرهم فلما اجتمعت ساروا الى بلد حوران فخربوا امهات البلد ونهبوا أماكنهم نهبة وكان شمس الملوك لما رآهم يجمعون جمع هو ايضا وحشد واحضر عنده جمع كثير من التركمان وغيرهم فنزل بازاء الفرنج وجرت بينهم مناوشة عدة ايام ثم ان شمس الملوك نهض بعض عسكره وجعل الباقى قبالة الفرنج وهم لا يشعرون وقصد بلدهم طبرية والناصرة وعكا وما يجاورها من البلاد فنهب وخرب واحرق وسبى النساء والذرية واستولت ايدى من معه من الغنائم واتصل الخبر بالفرنج فانزعجوا ورحلوا فى الحال لا يلوى اخ على اخيه وطلبوا بلادهم واما شمس الملوك فانه عاد الى عسكره على غير الطريق الذى سلكه الفرنج فوصل سالما ورأى الفرنج بلادهم خرابا فافت فى اعضادهم وتفرقوا وراسلوا فى تجديد الهدنة فهادنهم شمس الملوك فى ذى القعدة للسنة

(ذكر عود الملك طغرل الى الجبل وانهزام الملك مسعود)

فى هذه السنة عاد الملك طغرل بن محمد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها واجلى عنها اخاه السلطان مسعود وسبب ذلك ان مسعودا لما عاد من حرب اخيه طغرل بلغه عصيان داود

لموافقة مورده خلوصدرها
عمن يستقل بأمرها ويقوم
بحق الكفالة لها والكفاية
فيها فكان مثله كما قيل
خلت الديار فسدت غير مسود
ومن الشقاء تفردى بالسودد
فاشتغل بالوزاره عن حق
السفاره وأقبل على الامر
بوجه المجد المستبد يريد
سكرما انبنق وانهار عليه
النهر وكتمان مانم عليه
الجهر ولن يصلح العطار
ما أفسد الدهر وانشدنى
المضراب لنفسه فيه
وكأنما ذم الدهر من غير حنكة
ليوسفه والبلعمى وغيره
الى ان رمانا بالغفارى بعدهم
وعاندنا فى عبده وعزيزه
وما قدمها نابابن عيسى وجوره
وفى ابن أبى زيد النخيب وسيره
فلم نرض بالمقدور فيهم فأمنا
بكل كسير فى الورى وعويره
ولما أحس الامير سيف
الدولة بصورة الحال فى
تناقض الآراء وتخاذل
التدبير والاهواء واشراف
الملك على الضياع بمداهنة
النصحاء واعتمادهم صلاح
انفسهم فى وجوه المقاصد
والاغماء عدل الى نيسابور
على ما كان يليه من جماهير
أوليائه وموالية وحين سمع
بكتوزون باقباله تزحزح
عن نيسابور قصدا ابقاء على
عدته وعتاده واشفاقا
على عدد رجاله واجناده

ابن اخيه السلطان محمود باذربيجان فسار اليه وحصره بقلعة روزنزوكان فتحصن بها واشتغل بحصره فجمع الملك طغرل العساكر واستمال بعض قواد مسعود ولم يزل يفتح البلاد فكثرت عساكره وقصد مسعودا فلما قارب قزوين سار مسعود نحوه فلما تراءى العسكران فارق مسعودا من امر انه من كان قد استمالة طغرل فبقي في قلة من العسكر فولى منهزما واخر رمضان وارسل الى المسترشد بالله في القدوم لبغداد فاذن له وكان نائبه باصفهان البقش السلاحي ومعه الملك سلجوق شاه فلما سمع بانهزام مسعود قصد بغداد ايضا فنزل سلجوق شاه بدار السلطان فاكرمه الخليفة وانفذ اليه عشرة آلاف دينار ثم قدم مسعود بغداد واكثر اصحابه ركاب جمال لعدم ما يركبونه ولقي في طريقه شدة فارسل اليه الخليفة الدواب والخيام والآلات وغيرها من الاموال والثياب فدخل الدار السلطانية ببغداد منتصف شوال وقام طغرل بهمدان

(ذكر حصر أتابك زنكي آمد وملكه قلعة الصور)

في هذه السنة اجتمع اتابك زنكي وتمرتاش صاحب ماردين وقصدا مدينة آمد فحصراها فارسل صاحبها الى داود بن سقمان صاحب حصن كيفا يستنجده بجمع عساكره وغيرها وسار نحو آمد ليرحلهما عنها فالتقوا على باب آمد وتصافوا في جمادى الآخرة فاقتتلوا فانهزم داود وعاد مغلولا وقتل جماعة من عسكره واقام زنكي وتمرتاش على آمد محاصرين لها وقطعا الشجر وشعثا البلد ثم عادا عنها من غير بلوغ غرض فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضايقها فملكها في رجب من هذه السنة واتصل به ضياء الدين ابو سعيد بن الكفرتوثي فاستوزره زنكي وكان حسن الطريقة عظيم الرياسة والكفاية محبا للخير

(ذكر ملك زنكي قلاع الاكراد الحميدية)

في هذه السنة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الاكراد الحميدية منها قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما وكان لما ملك الموصل اقر صاحبها الامير عيسى الحميدي على ولايتها واعمالها ولم يعترضه على شيء مما هو بيده فلما حضر المسترشد الى الموصل حضر عيسى هذا عنده وجميع الاكراد عنده فاكثر فلما رحل المسترشد عن الموصل امر زنكي ان تحصر قلاعهم فحصرت مدة طويلة وقوتلت قتالا شديدا الى ان ملكت هذه السنة فاطمأن اذا أهل السواد المجاورون لهؤلاء القوم فانهم كانوا معهم في ضائقة كبيرة من نهب اموالهم وخراب البلاد

(ذكر ملك قلاع الهكارية وكواشي)

وحكي عن بعض العلماء من الاكراد ممن له معرفة باحوالهم ان اتابك زنكي لما ملك قلاع الحميدية واجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد الله صاحب قلعة اشب والجزيرة ونوشى فارسل الى أتابك زنكي من استحلفه له وحمل اليه مالا وحضر عند زنكي بالموصل فبقي مدة ثم مات فدفن بتل توقة ولما سار عن اشب الى الموصل اخرج ولده احمد بن أبي الهيجاء منها خوفا ان يتغلب عليها واعطاه قلعة نوشى وهذا احمد هو والد علي بن أحمد المعروف بالمشطوب من اكابر امراء صلاح الدين ابن ايوب بالشام ولما أخرجه ابوه من اشب استناب بها كرديا يقال له باوا الارجي فلما مات أبو الهيجاء سار ولده احمد من نوشى الى اشب ليملكها فمنعه باوا واراد حفظها لولد صغير لابي الهيجاء اسمه علي فسار زنكي بعسكره فنزل على اشب وملكها وسبب ملكها ان أهلها انزلوا كلهم الى

وكتب الى الامير أبي الحرث بفصوله عن مكانه أخذا بالوثيقة ومحاماة على الحقيقة واحتراسا من غرة اللقاء قبل اختمار العزيمة والرأي فحملته سكرة الحداثة ونزقة الصبا والغرارة وقلة النظر في العواقب وعدم الحظ من التجارب على الاغذاذ الى خراسان فمن أنهضه الامكان بالمساعدة من وجوه خاصته وسائر حاشيته وسار الى سرخس كالسهم صادرا عن وتره والسيل سائلا الى منحدره فعلم الامير سيف الدولة أن قصده اياه من نتائج التغرير وفاتل الرأي والتدبير ومهانة الناصح والمشير اذ لم يكن في منة القوم مقاومته على شدة باسه وملاقاته على قوة مراسه اذ لو قذفهم ببعض رجومه لغادرهم رمادا تذوره العواصف وتقتسمه الشمائل والجنائب لكنه رأى ان يغضي جفن الاحترام ويحمي ستر الاحتشام ويرعى سابق الحق والذمام فخالف طريقه الى مرو والروذ مفرجا له عن نيسابور الى أن يتمكن من ارتجاعها ببينة تشترك في معرفتها القاصية والدانية وحجة على مناويه ومخالفيه تقصورها الحاضرة والبادية عطفا الى قنطرة زاغول

القتال فتركهم زنكى حتى فاربوه واستجرهم حتى ابعدوا عن القلعة ثم عطف عليهم فانهزموا فوضع السيف فيهم فاكثر القتل والاسر وملك زنكى القلعة فى الحال واحضر جماعة من مقدمى الاكراد فيهم باو وقتلهم وعاد عنها الى الموصل ثم سار عنها فى غيبته ارسل نصير الدين جقر نائب زنكى وخرب اشب وخلى كهيجة ونوشى وقلعة الجلاب وهى قلعة العمادية وارسل الى قلعة الشعبانى وفرح وكوشر والزعفران والتى وسروة وهى حصون المهرانية فخربها فملك الجميع واستقام امر الجبل والزوزان وامنت الرعايا من الاكراد واما باقى قلاع الهكارية جبل صور وهرور والملاسى ومابرما وبابوخا وباكزا ونسباس فان قراجا صاحب العمادية فتحها من مدة طويلة بعد قتل زنكى وهذا قراجا كان أميرا قد اقطعه زين الدين على بلاد الهكارية بعد قتل زنكى ولم اعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرته ههنا وحكى غير هذا بعض فضلاء الاكراد وخالف فيه فقال ان زنكى لما فتح قلعة اشب وخربها وبنى قلعة العمادية ولم يبق فى الهكارية الا صاحب جبل صور وصاحب هرور ولم يكن لهما شوكة يخاف منهما عاد الى الموصل فخافه اصحاب القلاع الجبلية فاتفق ان عبد الله بن عيسى بن ابراهيم صاحب الرية والتى وفرح وغيرها توفى وملكها بعده ولده على وكانت والدته خديجة بنت الحسن اخت ابراهيم وعيسى وهما من الامراء مع زنكى وكانا بالموصل فارسلها ولدها على الى اخويها وطلب لها الامان من زنكى وحلفا له ففعل ونزل الى خدمة زنكى واقره على قلاعه واشتغل زنكى بفتح قلاع الهكارية وكان الشعبانى يد أمير من المهرانية اسمه الحسن بن عمر فاخذه منه وقربه منه لكبر وقلة اعماله وكان نصير الدين جقر يكره عليا صاحب الرية وغيرها فحسن لزنكى القبض عليه فاذن له فى ذلك فقبض عليه ثم ندم زنكى على قبضه فارسل الى نصير الدين ان يطلقه فرآه قدمات قيل ان نصير الدين قتله ثم أرسل العسكر الى قلعة الرية فنازلوها بغتة فملكوها فى ساعة واسروا كل من بها من ولد على واخوته واخواته وكانت والدة على خديجة غائبة فلم توجد فلما سمع زنكى الخبر بفتح الرية سره وامر ان تسير العساكر الى باقى القلاع التى لعلى فسارت العساكر فحصروها فرأوها منيعة فراسلهم زنكى ووعدهم الاحسان فاجابوه الى التسليم على شرط ان يطلق كل من فى السجن منهم فلم يجبهم الى ذلك الا ان يسلموا ايضا قلعة كواشى فضت خديجة والدة على الى صاحب كواشى واسمه خول وهرون وهو من المهرانية فسألته النزول عن كواشى فاجابها الى ذلك وتسلم زنكى القلاع واطلق الاسرى فلم يسمع بمثل هذا فقال ينزل من مثل كواشى لقول امرأة فاما ان يكون اعظم الناس مروأة لا يرد من دخل بيته واما ان يكون اقل الناس عقلا واستقامت ولاية الجبال

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اوقع الدانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيرا منهم وفيها اصطلح الخليفة واتابك زنكى وفيها فى ربيع الاول عزل انوشروان بن خالد عن وزارة الخليفة وفيها توفيت ام المسترشد بالله وفيها سير المسترشد عسكرا الى تكريت يحصروا مجاهد الدين بهروز فصانع عنها بمال فعادوا عنه وفيها اجتمع من العساكر السنجرية مع الامير ارغش وحصروا قلعة كردكوه بخراسان وهى للاسماعيلية وضيقوا على أهلها وطال حصرها وعدمت عندهم

فخيم بها امرا عيا لما يستر عنه التدبير ويتكشف عن حقيقته الضمير وبادر بكتوزون الى مناخ الامير أبي الحرث وهناك فائق فى قضه وقضيضه وافه ونفيضه فلما وصل اليه أنكر محله لديه لتقصيره فى حق مقدمه تجناه عليه وشكا الى فائق ما انكره فشكاه اليه فوق ماذكره وتداولا بينهما ذكر معايبه وتقاولا خشونة جانبه وحزونة أخلاقه وضرائبه وأغريا أهل العسكر بخلعه والتماس الراحة منه والاستبدال به فانجروا معهما فى جرير المساعدة حرصا على لذة الاستطراف واغتنانا ما لنهزة الاستضعاف فاستحضر بكتوزون بعلة اجتماع العسكر لهم احتج الى نظر فيه واشارته بوجه الصواب فى تلافيه حتى اذا حضره حصره ووكل به من سمل بصره غيرا وافجيعته بطليعتى حياته احسن ما كان رداء جمال وعمود اعتدال وطلعة هلال وروعة عزة وجلال ولقد أجهش اليه عند الاستسلام فى حاجة له ثلاث خفاف المؤنة عليه منها صيانة من قامت عنه عن ذل المناظرة على مال المصادرة فكايده بخلاف حاجته ونقيض مسئلته

الاقوات فاصاب أهلها تشنج وكزاز وعجز كثير منهم عن القيام فضلا عن القتال فلما ظهرت امارات الفتح رحل الامير ارغش فقيل انهم حملوا اليه مالا كثيرا واعلاقا نفيسة فرحل عنهم وفيها توفى الامير سليمان بن مهارش العقيلي امير بني عقيل وولى الامارة بعده اولاده مع صغر سنهم وطيف بهم فى بغداد رعاية لحق جدهم مهارش فانه هو الذى كان الخليفة القائم بامر الله عنده لما فعل به البساسيرى ماذكرنا وفيها توفى الفقيه ابو على الحسن بن ابراهيم بن فرهون الشافعي الفارقي ومولده سنة ثلاث وثلاثين واربعمائة وتفقه على أبي عبد الله الكازروني فلما توفى الكازروني انحدر الى بغداد وتفقه على ابي اسحق الشيرازى وابي نصر الصباغ وولى القضاء بواسط وكان خيرا فاضلا لا يوارى ولا يحابي احدا فى الحكم وفيها توفى عبد الله بن محمد ابن احمد بن الحسن وابو محمد بن ابى بكر الفقيه الشافعي تفقه على ابيه وكان يعظ ويكثر فى كلامه من التجانس فمن ذلك قوله ابن القدود العالية والخدود الوردية مثلث بها والله العافية والوردية وهما مقبرتان بنهر معلى ومن شعره

الدمع دما يسيل من اجفاني * ان عشت مع البكا فأجفاني
سجني شجني وهمي سمائي * العاذل بالملام قد سماني
والذكر لهم يزيد فى اشجاني * والنوح مع الحمام قد أشجاني
ضاقت بسعاد منيتي اعطاني * والبين يد الهموم قد اعطاني

وفيها توفى ابن أبي الصلت الشاعر ومن شعر يذم ثقيلا

لي صديق عجبت كيف استطاعت * هذه الارض والجبال تقله
* انا أرعاه مكرما وبقلبي * منه ما يتلف الخيال أقله
هو مثل المشيب اكره رؤيا * ولكن اصونه واجله

وله أيضا

سادصغار الناس من عصرنا * لادام من عصر ولا كانا
كالدست مهما هم ان ينقضي * صار به البيدق فرزانا

وفيها توفى محمد بن على بن عبد الوهاب ابو رشيد الفقيه الشافعي من أهل طبرستان وسمع الحديث ايضا ورواه وكان زاهدا عابدا أقام بالجزيرة وهي جزيرة ابن عمر سنين منفردا يعبد الله سبحانه وتعالى وعاد الى آمل وقبره بها

* (ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة) *

* (ذكر وفاة الملك طغرل وملك مسعود بلاد الجبل) *

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود الى بغداد منهزما من اخيه الملك طغرل وان الخليفة اكرمه وحمل اليه ما يحتاج اليه مثله وامره بالمسير الى همذان وجمع العساكر ومنازعة أخيه طغرل فى السلطنة والبلاد ومسعود يعد ويدافع الايام والخليفة يحثه على ذلك ووعده ان يسير معه بنفسه وامر ان يبرز خيامه الى باب الخليفة وكان قد اتصل الامير البقش السلاحي وغيره من الامراء بالخليفة وطلبوا خدمته فاجابهم وصاروا معه واتفق ان انسانا أخذ فوجد معه ملطفات من طغرل الى هؤلاء الامراء بالاقطاع لهم فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أمير منهم

الهابا النار الحسرة فى صدره ومضاعفة ثقل المحنة على ظهره فعل الموتور بما لا شوى له ولا بقيا معه وعمد هو وفائق الى أخيه عبد الملك بن نوح وهو أصغر منه سنا واضعف ركنا فأقاماه مقامه وسدا به مكانه وماج الناس بعضهم فى بعض للفتنة الشاغرة والاحوال المتنافرة ونذر الناس بالامير سيف الدولة انه قد خيم بقنطرة زاغول فكروا على ادراجهم كاليعافير الراعية راعتها الفوارس واحاطت بها الكلاب النواهس حتى أخذوا اقرارهم بمر ووأرسل الامير سيف الدولة الى الكافلين بالتدبير يهجن اليهما ما ارتكباه فى ولى النعمة من ازالة الحشمة واضاعة الحق والحرمة غير ناظرين للدين ولا متحرجين للاسلام والمسلمين ولا متهيئين للاحدوثة الشنعاء على السنة الذاكرين مدى دهر الداهرين وامتدت المراجعة بينهم فى الحادث الكارث وهما يختلانه عن انتهاز الفرصة فيهما واهتبال الغرة منهما تطميعا له عن صاحبهما فى جديد الرعاية ومزيد الولاية وكلاهما بالاحجام على وجه الاحترام طالبته سعادة الجد بالاقدام وحرضته على

اسمه غلبك ونهب ماله فاستشعر غيره من الامراء الذين مع الخليفة فهربوا الى عسكر السلطان مسعود فارسل الخليفة اليه فى اعادتهم اليه فلم يفعل واحتج باشياء فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما نفرة ووحشة اوجبت تاخره عن المسير معه وارسل اليه يلزمه بالمسير معه امر اجزما فبينما الامر على هذا اذ جاءه الخبر بوفاة اخيه طغرل وكانت وفاته فى المحرم من هذه السنة وكان مولده سنة ثلاث وخمسمائة فى المحرم وكان خيرا عاقلا عادلا قريبا الى الرعية محسنا اليهم وكان قبل موته قد خرج من داره يريد السفر لقتال اخيه مسعود فدعاله الناس فقال ادعوا بخير لنا وللمسلمين ولما توفى ووصل الخبر الى مسعود سار من ساعته نحو همدان واقبلت العساكر جميعها اليه واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد وكان قد خرج بحبته هو واهله ووصل مسعود الى همدان واستولى عليها واطاعته البلاد جميعها واهلها

(ذكر قتل شمس الملوك وملك اخيه)

فى هذه السنة رابع عشر ربيع الآخر قتل شمس الملوك اسمعيل بن تاج الملوك بورى بن طغدكين صاحب دمشق وسبب قتله انه ركب طريقا من الظلم ومصادرات العمال وغيرهم فى اعمال البلد وبالغ فى العقوبات لاستخراج الاموال وظهر منه بخل زائد ودناءة نفس بحيث انه لا يأنف من أخذ الشئ الحقير بالعدوان الى غير ذلك من الاخلاق الدنيئة وكره اهله واصحابه ورعيته ثم انه ظهر عنه انه كاتب عماد الدين زنكى انه يسلم اليه دمشق ويحثه على سرعة الوصول واخلى المدينة من الذخائر والاموال ونقل الجميع الى صوبه وتابع الرسل الى زنكى يحثه على الوصول اليه ويقول له ان اهملت المجئ سلمت البلد الى الفرنج فسار زنكى فظهر الخبر بذلك فامتعض اصحاب ابيه وجده واقلقهم وذكروا الحال لوالدته فساءها واشفقت منه ووعدتهم بالراحة من هذا الامر ثم انها ارتقبت الفرصة فى الخلوة من علمانه فلما رأته على ذلك امرت علمانها بقتله فقتل وامرت بالقائه على موضع فى الدار ليشاهده علمانه واصحابه فلما رأوه قتيلا سروا بالمصرعه وبالراحة من شره وكان مولده سابع جمادى الآخرة سنة ست وخمسمائة وقيل كان سبب قتله ان والده كان له صاحب اسمه يوسف بن فيروز وكان متمكنا منه مما كان فى دولته ثم فى دولة شمس الملوك بعده فاتهم بام شمس الملوك ووصل الخبر اليه بذلك فهم بقتل يوسف فهرب منه الى تدمر وتحصن بها واظهر الطاعة لشمس الملوك فاراد قتل أمه فبلغها الخبر فقتلته خوفا منه والله اعلم ولما قتل ملك بعده اخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك وحلف له الناس واستقر له الملك بعده والله اعلم

(ذكر حصر اتابك زنكى دمشق)

فى هذه السنة حصر اتابك زنكى دمشق ونازلها اول جمادى الاولى وسببه ماذكرنا من ارسال شمس الملوك صاحبها اليه واستدعائه ليسلمها اليه فلما وصلت كتبه ورسله سار اليها فقتل شمس الملوك قبل وصوله ولما عبر الفرات ارسل اليه رسلا فى تقرير قواعد التسليم فرأوا الامر قد فات الا انهم أكرموا واحسن اليهم واعيدوا باجمل هيئة وعرفوا زنكى بقتل شمس الملوك وان القواعد عندهم مستقرة لشهاب الدين والكلمة متفقة على طاعته فلم يحفل زنكى بهذا الجواب وسار الى دمشق فنازلها واجفل اهل السواد اليها واجتمعوا

فيها

الانتقام للدين والاسلام ثم رأى ان يزحف عن مقامه الى ظاهر مرو لتكون طائفة الصلح وجاها او سقاهة السيف شفاها ولما تسامع القوم باقباله دب الفشل فى تضاعيف احشائهم وسرى الوهل فى تفاريق اعضائهم واستطار الخوف فى مزاج دمائهم ولما سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا ان لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين فأبى الله الا ان ينتقم منهم بسيف سيف الدولة جزاء عن فعلهم القظيع وخطبهم الشنيع وسعيهم المذموم عند الجميع فصبه عليهم صب عز الى الغيث بنوء المرزمين غير انه غيث قطره عيث وغيم حشوه ضيم وسحاب حمله عذاب وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه أليم شديد وبرز فائق وبكتوزون وأبو القاسم ابن سيمجور بملوا حهم عبد الملك بن نوح وسائر اهل العسكر الى ظاهر مرو مقابلين لعسكر الامير سيف الدولة يعلمان جلادة ويسران بلادة ويقدمان ظاهر العيون ويجمعان خفية الحرب الزبون قد ضاقت عليهم الارض بما رحبت بجيوب الاقطار عليهم

فيها على محاربته ونزل أولا شماليها ثم انتقل الى ميدان الحصى وزحف وقاتل فرأى قوة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتفاقا تاما على محاربته وقام معين الدين أزمملوك جدته طغدكين فى هذه الحادثة بدمشق قياما مشهودا وظهر من معرفته بامور الحصار والقتال وكفايته مالم ير وما كان سبب تقدمه واستيلائه على الامور باسرها على ما نذكر ان شاء الله تعالى فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد بالله وهو أبو بكر بن بشر الجزرى من جزيرة ابن عمر بخلع الاتابك زنكى ويأمره بصلح صاحب دمشق الملك البارسلان محمود الذى مع اتابك زنكى فرحل عنها الليلتين مضتين من جمادى الاولى من السنة المذكورة

(ذكر قتل حسن بن الحافظ)

قد ذكرنا سنة ست وعشرين وخمسمائة ان الحافظ لدين الله صاحب مصر استوزر ابنه حسنا وخطب له بولاية العهد فبقى الى هذه السنة ومات مسموما وسبب ذلك انه كان جريا على سفك الدماء وكان فى نفس الحافظ على الامراء الذين أعانوا أبا على بن الافضل حقد ويريد الانتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه فاستوزر ابنه وأمره بذلك فتغلب على الامر بجميعه واستبد به ولم يبق لابيه معه حكم وقتل من الامراء المصريين ومن أعيان البلاد جمعا حتى قيل انه قتل فى ليلة واحدة أربعين أميرا فلما رأى أبوه تغلبه عليه أخرج له خادما من خدم القصر الاكابر لجمع الجموع وحشد من الرجالة خلقا كثيرا وتقدم الى القاهرة فتقاتل حسنا ويخرجه منها فارسل له جماعة من خواصه وأصحابه فقاتلوهم فانهزم الخادم وقتل الرجال الذين معه وعبر الباقون الى الجيزة فاستكان الحافظ فصير تحت الحجر ثم ان الباقين من الامراء المصريين اجتمعوا واتفقوا على قتل حسن وارسلوا الى أبيه الحافظ وقالوا له اما ان تسلم ابنك الينا لنقتله او نقتلكم جميعا فاستدعى ولده اليه واحتاط عليه وارسل الى الامراء بذلك فقالوا لا نرضى الا بقتله فرأى انه ان سلمه اليهم طمعوا فيه وليس الى ابقائه سبيل فاحضر طبيبين كانا له احدهما مسلم والآخر يهودى فقال لليهودى نريد سما نسقيه لهذا الولد ليموت ونتخلص من هذه الحادثة فقال انا لا اعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الادوية فقال انا اريد ما اخلص به من هذه المصيبة فقال له لا اعرف شيأ فاحضر المسلم وامره بذلك فصنع له شيأ فسقاه الولد فمات لوقته فارسل الحافظ الى الجند يقول لهم انه قد مات فقالوا نريد ننظر اليه فاحضر بعضهم عنده فراوا وظنوه قد عمل حيلة فجروا اسافل رجليه فلم يجر منه دم فعلموا موته ودفن حسن واحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له اخرج من عندنا من القصر وجميع مالك من الانعام والجاموكية باق عليك واحضر اليهودى وقال اعلم انك تعرف ما طلبته منك ولكنك عاقل فتقيم فى القصر عندنا وكان حسن سيئ السيرة ظالما جريا على سفك الدماء واخذ الاموال فهجاه الشعراء فمن ذلك ما قال المعتمد بن الانصارى صاحب الترسل المشهور

لم تأت يا حسن بين الورى حسنا * ولم تر الحق فى دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب * والجور فى اخذ اموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا ادب * تيه الملوك واخلاق المجانين

وقيل ان الحافظ لما رأى ابنه تغلب على الملك وضع عليه من سقاه السم فمات والله اعلم ولما مات

مزرورية * وذيول الخذلان عليهم مجرورة * وبوارح الابادة وجوائح الدمار من كل أوب اليهم محشورة * وظل القوم على علم بانهم يدمرون على الدمار * ويتهافتون تهافت الفراش فى النار * ويقتلون الانصار بسيوف الانصار * كما قال الله تعالى يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين فاعتبروا يا اولى الابصار * وتردد السفراء بينهم وبين الامير سيف الدولة فى مواضعته على سلم يسلمون معها فى العاجل من شدة بأسه * ويفتدون بها من مرارة كأسه * فأحسن الامير سيف الدولة اجابتهم الى مواضعتهم على عمله باستبطانهم للقتل والحيلة * واستشعارهما للغدر والخديعة * الزاما للحجة وطمسا على الشبهة واعذارا الى الكافة * وبراءة من خطة البغى فى دفع المكافة * فما كان الا أن قوضت للرحيل خيامه * ونشرت للقفول أعلامه * حتى ثار أوباش القوم على اثره لانتهاب عسكره يظنون بأنفسهم الظنون * وانما يتجملون المنون * ويدوسون أذناب الاراقم لو كانوا يشعرون * ولما رأى الامير سيف الدولة ركوبهم

حسن استوزر الحافظ الامير تاج الدولة بهرام وكان نصرانيا فتحكم واستعمل الارمن على الناس فاستذلوا المسلمين وسنذكر اخبارهم سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ان شاء الله تعالى

(ذكر مسير المسترشد الى حرب السلطان مسعود وانهزامه)

فى هذه السنة كان الحرب بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود فى شهر رمضان وسبب ذلك ان السلطان مسعودا لما سافر من بغداد الى همذان بعد موت أخيه طغرل وملكها افارقه جماعة من أعيان الامراء منهم برنقش بازدار وقزل آخر وسنقر الخمارتكين والى همذان وعبد الرحمن بن طغايرك وغيرهم خائفين منه مستوحشين ومعهم عدد كثير ومعهم دبيس بن صدقة وأرسلوا الى الخليفة يطلبون منه الامان ليحضروا فى خدمته فقيل له انها مكيدة لان دبيسا معهم وسار والمحوخوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق فارسل الخليفة اليهم سديد الدولة بن الانبارى بتوقيعات الى الامراء المذكورين بتطييب نفوسهم والامر بحضورهم وكان الامراء المذكورون قد عزموا على قبض دبيس والتقرب الى الخليفة بحمله اليه فبلغه ذلك فهرب الى السلطان مسعود وسار الامراء الى بغداد فى رجب فاكرمهم الخليفة وحمل اليهم الاقامات والخلع وقطعت خطب السلطان مسعود من بغداد وبرز الخليفة فى العشرين من رجب على عزم المسير الى قتال مسعود وأقام فى الشفيعى فعصى عليه بكبه صاحب البصرة فهرب اليها فراسله وبذل له الامان فلم يعد اليه وتريث الخليفة عن المسير وهؤلاء الامراء يحسنون له الرحيل ويسهلون عليه الامر ويضعفون عنده أمر السلطان مسعود فسير قدمته الى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا ولم ينكر عليهم شيأ ثم سار الخليفة فامن شعبان ولحق به فى الطريق الامير برسق بن برسق فبلغت عدتهم سبعة آلاف فارس وتخلف بالعراق مع اقبال خادم المسترشد بالله ثلاثة آلاف فارس وكان السلطان مسعود بهمذان فى نحو ألف وخمسمائة فارس وكان أكثر أصحاب الاطراف يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة فتريث فى طريقه فاستصلح السلطان مسعودا كثرهم حتى عادوا اليه فصاروا نحو خمسة عشر ألف فارس وتسلل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقى فى خمسة آلاف وأرسل اتابك زنكى نجدة فلم يلحق وأرسل الملك داود بن السلطان محمود وهو بازذربيجان الى الخليفة يشير بالميل الى الدينور ليحضر بنفسه وعسكره فلم يفعل المسترشد وسار حتى بلغ دايمرج وعبى أصحابه فجعل فى الميمنة برنقش بازدار ونور الدولة سنقر وقزل آخر وبرسق بن برسق وجعل فى الميسرة جاولى وبرسق شراب سلار وغابك الذى كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من محبسه ولما سمع السلطان مسعود خبرهم سار اليهم مجدا فواقعهم بدايمرج عاشر رمضان وانهزمت ميسرة الخليفة الى السلطان مسعود فصارت معه واقتتلت ميمنة الخليفة وميسرة السلطان قتالا ضعيفا ودارت عساكر السلطان حول عساكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرك من مكانه وانهزم عسكره وأخذ هو أسيرا ومعه جمع كثير من اصحابه منهم الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى وقاضى القضاة وصاحب المخزن ابن طلحة وابن الانبارى والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم وانزل الخليفة فى خيمة وغنموا ما فى معسكره وكان كثيرا فحمل الوزير وقاضى القضاة وابن الانبارى وصاحب المخزن وغيرهم من الاكابر الى قلعة سرجهان وباع الباقون نفوسهم بالثمن

دون

*مقطعة الضلال * واقحامهم
مسبعة الآجال * معلقين
بخيوط الرقاب بالحرص
الغالب * والطمع
الكاذب * لا يثنيهم
حلماؤهم عن التسفه والتخبط
* ولا يحميهم كبراؤهم
عن التهور والتورط *
علم ان ذلك أمر يراد *
وداء خلطه البغى والعناد
* وأيقن ان سرهم بالفساد
مغمور * وان السفيه
اذا لم ينه مأمور * وأمر
بالثائرين فجاش اليهم من
حواشى الجيوش من
طبقوهم بالهض والرض *
وأضجعوهم الامن شاء الله
على صعيد من الارض *
واستخار الله تعالى فى الكر
على بغاة السوء محا كما اياهم
الى البيض القواطع *
ومدليا ببينات الرماح
الشوارع * ومعجلا على
الانتصاف منهم بشهادات
النسور والخوا مع *
وأقبل فرتب الجيوش قلبا
كتهلان * وميمنة كرضوى
وميسرة كابان * وحصن
المصاف بزهاء مائتين من
فيلة كرعن الجبال *
اودكن السحاب الثقال
* مغشاة بتجافيف لم يعور
منها غير حدق النواظر *
وحدائد الانياب الفواقر
* تهول ساستها عليها
بمرهفات كالبروق الخواطف

دون الطفيف ولم يقتل في هذه المعركة احد وهذا اعجب ما يحكى وعاد السلطان الى همذان وامر فنودي من تبعنا الى همذان من البغادده قتلناه فرجع الناس كلهم على اقبح حال لا يعرفون طريقا وليس معهم ما يحملهم وسير السلطان الامير بك آبه المحمودي الى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عبيد فقبضوا جميع املاك الخليفة واخذوا غلاتها واثار جماعة من عامة بغداد فكسروا المنبر والشبابيك ومنعوا من الخطبة وخرجوا من الاسواق يحثون التراب على رؤسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات في الاسواق يلطمن واقتتل اصحاب الشحنة وعامة بغداد فقتل من العامة ما يزيد على مائة وخمسين قتيلا وهرب الوالي وحاجب الباب واما السلطان فانه سار في شوال من همذان الى مراغة لقتال الملك داود ابن اخيه محمود وكان قد عصى عليه فنزل على فرسخين من مراغة والمسترشد معه فتردد الرسل بين الخليفة وبين السلطان في الصلح فاستقرت القاعدة على ما نذكره ان شاء الله والله الموفق

(ذكر قتل المسترشد بالله وخلافة الراشد بالله)

لما قبض المسترشد بالله ابو منصور بن الفضل بن المستظهر بالله ابي العباس احمد على ما ذكرناه جعله السلطان مسعود في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وتردد الرسل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وان لا يعود يجمع العساكر وان لا يخرج من داره فاجاب السلطان الى ذلك وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه ولم يبق الا أن يعود الى بغداد فوصل الخبر ان الامير قزان خوان قد ورد رسولا من السلطان سنجر فتأخر مسير المسترشد لذلك وخرج الناس مع السلطان مسعود الى لقائه وفارق الخليفة بعض من كان موكلا به وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلا من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة ومثلوا به فجدعوا انفه وأذنيه وتركوه عريانا وقتل معه نفر من أصحابه منهم أبو عبد الله بن سكينة وكان قتله يوم الاحد سابع عشر ذي القعدة على باب مراغة وبقي حتى دفنه أهل مراغة واما الباطنية فقتل منهم عشرة وقيل بل قتلوا جميعهم والله أعلم وكان عمره لما قتل ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وكانت خلافته سبعة عشر سنة وستة أشهر وعشرين يوما وامه ام ولد وكان شهما شجاعا كثير الاقدام بعيد الهمة واخباره المذكورة ترى على ما ذكرناه وكان فصيحا بليغا حسن الخط واقدر ايت خطه في غاية الجودة ورايت اجوبته على الرقاع من احسن ما يكتب وافصحه ولما قتل المسترشد بالله بويع ابنه الراشد بالله ابو جعفر المنصور ولقب الراشد بالله وكان ابوه قد بايع له بولاية العهد في حياته وجددت له البيعة بعد قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة وكتب السلطان مسعود الى بك آبه الشحنة ببغداد يبايع له وحضر الناس البيعة وحضر بيعته احد وعشرون رجلا من اولاد الخلفاء وبايع له الشيخ ابو النجيب وعظه وبالغ في الموعظة واما جمال الدولة المسترشدي فكأنه كان ببغداد في طائفة من العسكر فلما جرت هذه الحادثة عبر الى الجانب الغربي واصعد الى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز وحلفه وصعد اليه الى القلعة

(ذكر مسير السلطان سنجر الى غزنة وعوده عنها)

في هذه السنة في ذي القعدة سار السلطان سنجر من خراسان الى غزنة وسبب ذلك انه نقل اليه

---

* وصفارات كالزعوق القواصف * وقد نشرت عليها التماثيل السود * كأنها الاساود والاسود * يخيل اضطراب الرياح فيها انها تزحف للإلتهام * أو تنقض لاختطاف الهام * وتعالت عليها أطراف العوامل * فكأنها آجام السواحل * تأويها شياطين الانس فرسانا * وعفاريت الترك والهند مردا وشبانا * تبص عليهم سابغات داود كفضائح الماء تجلوها الشمس سافره * وتزهاها الشمال سائره * قد جعلوا الدروع وقاية للاجسام * وظاهروا عليها بالقلوب حرصا على الانتقام * فهم يأنسون بمباشرة القتال * ومشاورة الاقتال * واستثارة المنايا عن مرابض الآجال * انس العيون بالناسيها الباصرة * والقلوب بالماسيها الحاضرة * ووقف الامير سيف الدولة في القلب بنفسه وأخويه نصر واسمعيل ابني ناصر الدين سبكتكين وعمه بغراجق فكأنما عناه أبو فراس بقوله

علونا دوشنا بأشد منه
وأثبت عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحرا من سلاح
والسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بألسنة الرياح

عن صاحبها بهرام شاه انه تغير عن طاعته وانه قد مد يده الى ظلم الرعايا واغتصاب اموالهم وكان السلطان سنجر هو الذى ملك غزنة وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة فلما سمع هذه الاخبار المزعجة سار الى غزنة ليأخذها او يصلحه فلما رأى الطريق ابعد ادركهم شتاء شديد البرد كثير الثلج وتعذرت عليهم الاقوات والعلوفات فشكا العسكر الى السلطان ذلك وذكروا له ما هم فيه من الضيق وتعذر ما يحتاجون اليه فلم يجب عنه بغير التقدم امامه فلما قارب غزنة ارسل بهرام شاه الى سنجر رسلا يتضرع ويسأل الصفح عن جرمه والعفو عن ذنبه فارسل اليه سنجر المقرب جوهر الخادم وهو اكبر امرائه ومن جملة اقطاعه مدينة الري فى جواب رسالته يجيبه عن العفو عنه ان حضر عنده وعاد الى طاعته فلما وصل الى بهرام شاه اجابه الى ما طلب منه من الطاعة وحمل المال والحضور عنده بنفسه واظهر من الطاعة والانقياد لما يتحكم به السلطان سنجر شيأ كثيرا وعاد المقرب جوهر ومعه بهرام شاه الى سنجر فلما قارب سبق المقرب الى السلطان سنجر واعلمه بوصول بهرام شاه وانه بكرة غد يكون عنده وعاد المقرب الى بهرام شاه ليجيء بين يديه وركب سنجر من الغد فى موكبه لتلقيه وتقدم بهرام شاه ومعه المقرب فلما عاين موكب سنجر والشتر على راسه نكص على عقبيه عائدا فامسك المقرب عنانه وقبح فعله وخوفه عاقبة ذلك فلم يرجع وولى هاربا ولم يصدق بنجاته ظنا منه ان سنجرا يأخذه ويملك بلده وتبعه طائفة من اصحابه وخواصه ولم يعرج على غزنة وسار سنجر الى غزنة فدخلها وملكها واحتوى على جميع ما فيها وجبى اموالها وكتب الى بهرام شاه يلومه على ما فعله ويحلف له انه ما أراد به شرا ولا له فى بلده مطمع ولا هو من تلون صنيعته وتعقب حسنته معه سيئة وانما قصده لاصلاحه فاعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصل ويقول ان الخوف منعه من الحضور ولا لوم على من خاف من السلطان وتضرع فى عوده الى الاحسان فاجابه سنجر الى ان يعيد عليه بلده وفارق غزنة عائدا الى بلاده فوصل الى بلخ فى شوال سنة ثلاثين وخمسمائة واستقر ملك غزنة لبهرام شاه ورجع اليها

(ذكر قتل دبيس بن صدقة بالتاريخ)

فى هذه السنة قتل السلطان مسعود دبيس بن صدقة على باب سرادقه بظاهر مدينة خوى أمر غلاما ارمنيا بقتله فوقف على رأسه وهو يشكت الارض باصبعه فضرب رقبته وهو لا يشعر وكان ابنه صدقة بالحلة فاجتمع اليه عسكر أبيه وعماليكه وكثر جمعه واستأمن اليه الامير قطغ تكين وامر السلطان مسعود بك آبه ان يأخذ الحلة فسار ببعض عسكره الى المدائن وأقاموا مدة ينتظرون لحاق بك آبه فلم يسر اليهم جبنا وعجزا عن قصد الحلة لكثرة العسكر بها مع صدقة وبقى صدقة بالحلة الى أن قدم السلطان مسعود الى بغداد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة فقصده وأصلح حاله معه ولزم باب السلطان ومثل هذه الحادثة تقع كثيرا وهو قرب موت المتعاديين فان دبيسا كان يعادى المسترشد بالله ويكره خلافته ولم يكن يعلم ان السلاطين انما كانوا يبقون عليه ليجعلوه عدة لمقارعة المسترشد فلما زال السبب زال المسبب والله أعلم بذلك

(ذكر حصر عسكر يحيى المهدية)

فى هذه السنة سير يحيى بن العزيز بن حماد صاحب بجاية عسكرا ليحصروا المهدية وبها صاحبها

وآروع جيشه ليل بهيم
وغرته عمود الصباح
صفوح عند قدرته كريم
قليل الصفح ما بين الصفاح
فكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح
وزحف بهم نحو الخصوم
على هيئة وافره * وهيبة
حاضره * فكادت الارض
تمور * والجبال تثور *
والنهار الناهر يحول *
والفلك الدائر يزال ويزول
* وندر القوم باقدامه *
واقبال ألويته وأعلامه *
فقامت عليهم القيامه *
واستفاضت فيهم الحسرة
والندامه * واقبل بعضهم
على بعض يتلاومون عما
بما ارتكبوه من الامر الامر
واجتلبوه من الصيلم الاد
وحفزهم حافز الضرورة *
عن المشورة * ففزعوا الى
الاحتشاد * وبعثوا بالركوب
الى القواد والافراد * وبرزوا
من جدران المدينه * فى
أفواف وأسباغ يوم الزينه
* وهم أكثر ما كانوا قط فى
معركة لحشرهم من أطراف
خراسان وما وراء النهر كل
فارس وراجل * وحامل
عضب أو عاسل * سوى من
استبقتهم تلك الدولة من
كل فحل بازل * وبطل باسل *
وشجاع مقاتل * واقاموا
الصفوف على الموازاة قلبا
لمجتمع الليل * وميمنة

الحسن بن علي بن تميم بن المعز بن باديس وكان سبب ذلك ان الحسن احب ميمون بن زيادة أمير طائفة كبيرة من العرب ومال اليه وأكثر الانعام عليه فحسده غيره من العرب فساروا إلى يحيى بن العزيز باولادهم وجملوهم وهائن عنده وطلبوا منه ان يرسل معهم عسكرا يملكوا المهدية فاجابهم الى ذلك وهو متباطئ فاتفق انه وصله كتب من بعض مشايخ المهدية بمثل ذلك فوثق الى ما أتاه وسير عسكرا كثيرا واستعمل عليهم قائدا كبيرا من فقهاء أصحابه يقال له مطرف بن حمدون وكان هذا يحيى بن العزيز هو واياه يحضرون المعز بن باديس وأولاده بعده فسارت العساكر الفارس والراجل ومعهم من العرب جمع كثير حتى نزلوا على المهدية وحصروها برا وبحرا وكان مطرف يظهر التقشف والتورع عن الدماء وقال انما أتيت الآن لاتسلم البلد بغير قتال فخاب ظنه فبقي أياما لم يقاتل ثم انهم باشروا فاظهر أهل المهدية عليهم واثروا فيهم وتتابع القتال وفي كل ذلك الظفر لاهل البلد وقتل من الخارجين الجم الغفير وجمع مطرف عسكره برا وبحرا ويئس من التسليم وقاتل اشد قتال فهلكت شوانيه شاطئ البحر وقربوا من السور فاشتد الامر فامر الحسن بفتح الباب وخرج اول الناس وحمل هو ومن معه عليهم وقال انا الحسن فلما سمع من يقاتله ذلك سلموا عليه وانهزموا عنه اجلالا له ثم اخرج الحسن شوانيه تلك الساعة من المينا فاخذ من تلك الشوانى اربع قطع وهرب الباقون ثم وصلت نجدة من رجار الفرنجي صاحب صقلية في البحر في عشرين قطعة فحصرت شوانى صاحب بجاية فامرهم الحسن باطلاقها فاطلقوها ثم وصل ميمون بن زيادة في كثير من العرب لنصرة الحسن فلما رأى ذلك مطرف وان النجدات تأتي الحسن في البر والبحر علم انه لاطاقة له بهم فرحل عن المهدية خائبا وأقام رجار الفرنجي مظهرا للحسن انه مهادنه وموافقه وهو مع ذلك يعمر الشوانى ويكثر عددها وآلاتها

(ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جربة)

كانت جزيرة جربة من بلاد افريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها غير ان أهلها طغوا فلا يدخلون تحت طاعة سلطان ويعرفون بالفساد وقطع الطريق فخرج اليها جمع من الفرنج أهل صقلية في اسطول كثير وجم غفير فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها واجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديدا فوقع بين الفريقين وقعات عظيمة فثبت أهل جربة فقتل منهم بشر كثير فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وأطفالها وهلك أكثر رجالها ومن بقي منهم أخذوا لانفسهم أمانا من صاحب صقلية وافتكوا أسراهم وسبيهم وحريمهم والله أعلم بذلك

(ذكر ملك الفرنج حصن روطة من بلاد الاندلس)

في هذه السنة اصطلح المستنصر بالله بن هود والسلطان الفرنجي صاحب طليطلة مدة عشر سنين وكان السلطان قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتالها حتى ضعف صاحبها عن مقاومته لقلة جنوده وكثرة الفرنج فرأى ان يصالحه مدة يستريح فيها هو وجنوده ويعتدون للمعاودة فتردد الرسل بينهم فاستقر الصلح على ان يسلم المستنصر الى السلطان حصن روطة وهو من امنع الحصون واحصنها فاستقرت القاعدة واصطلحوا وتسلمت منه الفرنج الحصن وفعل

كتدفع السيل * وتيسر مشحونة بأشاهب الخيل * وماج الفريقان بعضهم في بعض كالجراد المنتشر ضربا يزيل الرؤس عن العواتق * ويبين الزنود عن المرافق * وطعنا يهتك ودائع الصدور * ويرد مشارع الغموم والسرور * ورشقا يصيب شواكل الابصار * ويطلب وراء الفقار مضجع القرار * واشتدت الحرب حتى تقلصت الشفاه * وتغضنت لجباه * وتقطعت الانفاس * وتحسرت الفرسان والافراس * واغبرت الآفاق * واحمرت الحمالق والاحداق * وخاض الامير سيف الدولة غمرة الحرب يجتذب بالاوهاق * مطالع الاعناق * ويختطف بالارماح * ودائع الارواح * ويفض بالاسياف * مجامع الاكتاف * حتى رويت الارض من بزال الحلوق * وغرقت الحواصل في نواعر الفروق * ودامت على حالها في الاحتدام والاضطرام * والافتراس بانياب الحمام * من حين استقلت الشمس كليلا على الجبل * الى أن نفضت ورساحل الاصل * فاضطرب القوم

المستنصر فعله لم يفعلها قبله احد

(ذكر حصر ابن ردمير مدينة افراغة وهزيمته ووفاته)

وفى هذه السنة حصر ابن ردمير الفرنجى لعنه الله مدينة افراغة من شرق الاندلس وكان الامير تاشفين بن على بن يوسف بمدينة قرطبة اميرا على الاندلس لابيه فجهز الزبير بن عمر اللمتونى من قرطبة ومعه الفا فارس وسير معه ميرة كثيرة الى افراغة وكان يحيى بن غانية الامير المشهور امير مرسية وبلنسية من شرق الاندلس واليه الامر يومئذ الامير المسلمين على بن يوسف فجهز فى خمسمائة فارس وكان عبد الله بن عياض صاحب مدينة لاردة فجهز فى مائتى فارس فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى اشرفوا على مدينة افراغة وجعل الزبير الميرة امامه وابن غانية امام الميرة وابن عياض امام ابن غانية وكان شجاعا وكذلك جميع من معه وكان ابن ردمير فى اثنى عشر الف فارس فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين فقال لاصحابه اخرجوا وخذوا هذه الهدية التى ارسلها المسلمون اليكم وادركه العجب وفقد قطعة كبيرة من جيشه فلما قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم وردبعضهم على بعض وقتل فيهم والتحم القتال وجاء ابن ردمير بنفسه وعساكره جميعا مدلين بكثرتهم وشجاعتهم فحمل ابن غانية وابن عياض فى صدورهم واشتد الامر بينهم وعظم القتال فكثر القتل فى الفرنج وخرج فى الحال اهل افراغة جميعهم ذكرهم وانثاهم صغيرهم وكبيرهم الى خيام الفرنج فاشتغل الرجال بقتل من وجدوا فى العسكر واشتغل النساء بالنهب وحملوا جميع ماوجدوه هنالك الى المدينة من قوت وعدد وآلات وسلاح وغير ذلك وبينما المسلمون والفرنج فى القتال اذ وصل اليهم الزبير فى عسكره فانهزم ابن ردمير وعسكره ولم يسلم منهم الا القليل ولحق ابن ردمير بمدينة سرقسطة فلما رأى ماقتل من أصحابه مات مضجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة وكان أشد ملوك الفرنج باسا وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا كان ينام على طارقته بغير وطاء وقيل له هلا تسريت من بنات اكابر المسلمين اللاتى سبيت منهم فقال الرجل المحارب ينبغى ان يعاشر الرجال لا النساء واراح الله منه وكفى المسلمين شره

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى شعبان زلزلت الارض بالعراق والموصل وبلاد الجبل وغيرها وكانت الزلزلة شديدة وهلك فيها كثير من الناس والله أعلم

(ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان)

فى هذه السنة وصل برتقش الزكوى من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقر على المسترشد من المال وهو أربعمائة الف دينار فذكر انه لاشئ عنده وان المال جميعه كان مع المسترشد بالله فنهب ثم بلغ الراشد بالله ان برتقش يريد التهجم على دار الخلافة وتفتيشها ليأخذ المال فجمع العساكر لمنعها وأمر عليهم كج ابه وأعاد عمارة السور فلما علم برتقش بذلك اتفق هو وبك ابه شحنة بغداد وهو من أمراء السلطان على ان يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد بالله فاستعد لمنعهم وركب برتقش ومعه العسكر والامراء البكجية

وتحمد

فضحة من خزا لمناصل * وضيقا بوخز العوالى والعوامل * وتداعوا بجملة تكشف عنهم غمة القتال * بفصيل الادبار أوالاقبال * فطرحوا الميمنة على الميسرة وهم يظنون وراء ذلك ظنونا * ويخطبون من بنات الامانى أبكارا وعونا * وأبى الله الا أن يعكس عليهم ماظنوه * ويحيق بهم وبال ماسنوه * حين ركبوا من ولى النعمة ماركبوه * اخفارا لذمته * وانكارا لحرمته * واذالة لحشمته * واضاعة لحق نعمته * وألهم الامير سيف الدولة أن يزحف اليهم بسواد موقفه فلم يك الا صدمة واحدة حتى زالت الاقدام عن مقارها * وتهاوت الرقاب عن مزارها * وجعلت تتساقط أشخاص الالوية والمطارد * وتبرد النفوس عن ضرب السيوف البوارد * واستمرت الهزيمة بالظلمة عند اعتكار الظلام * فطاروا بين الاقطار كل مطار * وسفت بهم سافية المدمار والادبار * فلم يلتق منهم بعدها اثنان عند تنازل الاقران * وتناوب الضراب والطعان * ذلك ذكرى للذاكرين * وكذلك

ومحمد بن عكر فى نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فانهزموا عسكر السلطان الى دار السلطان فساروا الى طريق خراسان ثم انحدر بك ابه الى واسط وسار برتقش الى البندنيجين ونهبت العامة دار السلطان

(ذكر اجتماع اصحاب الاطراف على حرب مسعود بغداد وخروجهم عن طاعته)

فى هذه السنة اجتمع كثير من الامراء وأصحاب الاطراف على الخروج عن طاعة السلطان مسعود فسار الملك داود بن السلطان محمود فى عسكر اذربيجان الى بغداد فوصلها فى رابع صفر ونزل بدار السلطان ووصل اتابك عماد الدين زنكى بعده من الموصل ووصل برتقش بازدار صاحب قزوين وغيرهما والبقش الكبير صاحب اصفهان وصدقة بن دبيس صاحب الحلة ومعه عنتر بن أبى العسكر الجاوانى يدبره ويتم نقص صباه وابن برسق وابن الاحديلى وخرج اليهم من عسكر بغداد كج ابه والطرنطاى وغيرهما وجعل الملك داود فى شحنكية بغداد برتقش بازدار وقبض الخليفة الراشد بالله على ناصح الدولة ابى عبد الله الحسن بن جهير استاذ الدار وهو كان السبب فى ولايته وعلى جمال الدولة اقبال المسترشدى وكان قدم اليه من تبكريت وعلى غيرهما من اعيان دولته فتغيرت نيات اصحابه عليه وخافوه فاما جمال الدولة فان اتابك زنكى شفع فيه شفاعة تحتها الزام فاطلق وصار اليه ونزل عنده وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين ابى الرضا بن صدقة الى عماد الدين لتهنئته بالقدوم فاقام الوزير عنده وسأله ان يمنعه من الخليفة فاجابه الى ذلك وعاد الموكب بغير وزير وارسل زنكى من حرس دار الوزير من النهب ثم اصلح حاله مع الخليفة واعاده الى وزارته وكذلك ايضا عبر عليه قاضى القضاة الزينبى وسار معه الى الموصل ثم ان الخليفة جد فى عمارة السور فارسل له الملك داود من قلع أبوابه واخرب قطعة منه فازعج الناس ببغداد ونقلوا اموالهم الى دار الخلافة وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب للملك داود وجرت الايمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكى وارسل الخليفة الى اتابك زنكى مائتى الف دينار ليفرقها ووصل الملك سلجوق شاه الى واسط فدخلها وقبض على الامير بك ابه ونهب ماله وانحدر أتابك زنكى اليه لدفعه عنها واصطلحا وعاد زنكى الى بغداد وعبر الى طريق خراسان وحث على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود وسار الملك داود نحو طريق خراسان فنهب العسكر البلاد ووصلت الاخبار بمسير السلطان مسعود الى بغداد وفارق الملك داود واتابك زنكى فعاد اتابك زنكى الى بغداد وفارق الملك داود واظهر له انه يمضى الى مراغة اذا فارق السلطان مسعود همذان فبرز الراشد بالله الى ظاهر بغداد اول رمضان وسار الى طريق خراسان ثم عاد بعد ثلاثة ايام ونزل عند جامع السلطان ثم دخل الى بغداد خامس رمضان وارسل الى داود وسائر الامراء يأمرهم بالعود الى بغداد فعادوا ونزلوا فى الخيام وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد ووصلت رسل السلطان مسعود يذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده فعرض الخليفة الرسالة عليهم فكلهم رأى قتاله فقال لهم الخليفة وانا ايضا معكم على ذلك

(ذكر ملك شهاب الدين حمص)

فى هذه السنة فى الثانى والعشرين من ربيع الاول تسلم شهاب الدين محمود صاحب دمشق

يفعل الله بالظالمين * وجعل عبد الملك بن نوح الى بخارا ومعه فائق فى اتباعه * واتبذ بكتوزون الى نيسابور فى أشياعه * وأبو القاسم بن سيمجور الى قهستان وقد صاروا حزق مزق وعادوا شذر مذر وأصبح سيف الدولة وقد أنجز الله له وعده * ونصر جنده وجنده * واسعد الله على رغم الراغمين جده * وأعلى يده * وأورى زنده * وساق اليه هدى الملك على غير مهر * سوى الشكر * ولا صداق * سوى الاستحقاق * وورث دولة آل سامان * وملك ديار خراسان * سنة تسع وثمانين وثلثمائة ورأى أن يجعل بكتوزون وأبا القاسم السيمجورى عن التجمع ثانيا * والتحدث بالالتقاء آنفا * فانحدر الى طوس فى البحر الاخضر من رجاله وأفياله وطار بكتوزون بجناح الهرب الى حدود جرجان وقفى السلطان على اثره بأرسلان الجاذب فجعل يطرده طرد الشهب أشخاص العفاريت حتى نفاه من تخوم خراسان وولاه السلطان ناحية طوس ورتبه بها فمن ضم اليه من قواده وسار الى هراة فمطا العالا عمالها *

مدينة حمص وقلعتها وسبب ذلك ان اصحابها اولاد الامير خيرخان بن قراجا والوالي بها من قبلهم ضجروا من كثرة تعرض عسكر عماد الدين زنكي اليها والى اعمالها وتضييقهم على من بها من جندي وعامي فراسلوا شهاب الدين في ان يسلموها اليه ويعطيهم عوضا عنها تدمر فاجابهم الى ذلك وسار اليها وتسلمها منهم في التاريخ المذكور وسلم اليهم تدمر واقطع حمص مملوك جده معين الدين انز وجعل فيها نائبا عنه ممن يثق اليه من اعيان اصحابه وعاد عنها الى دمشق فلما رأى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص عن ايديهم تابعوا الغارات الى بلدها والنهب له والاستيلاء على كثير منه فجرى بينهم عدة وقائع وارسل شهاب الدين الى زنكي في المعنى واستقر الصلح بينهم وكف كل منهم عن صاحبه

(ذكر الفتنة بدمشق)

في هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجند وسبب ذلك ان الحاجب يوسف بن فيروز كان اكبر حاجب عند ابيه وجده ثم انه خاف اباه شمس الملوك وهرب منه الى تدمر فلما كان في هذه السنة سأل ان يحضر الى دمشق وكان يخاف جماعة المماليك لانه كان اساء اليهم وعاملهم اقبح معاملة فكلهم عليه حنق لاسيما في الحادثة التي خرج فيها شمس الملوك وقد تقدمت فانه اشار بقتل جماعة برأيه وبقتل سونج بن تاج الملوك فصاروا كلهم اعداء مبغضين فلما طلب الامان والحضور الى دمشق أجيب الى ذلك فانكر جماعة الامراء والمماليك قربه وخافوه ان يفعل بهم مثل فعله الاول فلم يزل يتوصل معهم حتى حلف لهم واستحلفهم وشرط على نفسه انه لا يتولى من الامور شيأ ثم انه جعل يدخل نفسه في كثير من الامور فاتفق اعداؤه على قتله فبينما هو يسير مع شهاب الدين والى جانبه امير امعه تراوش بحادثه اذ ضربه نزاوش بالسيف فقتله فحمل ودفن في تربة والده بالعقيبة ثم ان نزاوش والمماليك خافوا فلم يدخلوا البلد ونزلوا بظاهره وارسلوا يطلبون قواعد استطالوا فيها فاجابهم الى البعض فلم يقبلوا منه ثم ساروا الى بعلبك وبها شمس الملوك محمد بن تاج الملوك صاحبها فصار وامعه فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم وشرعوا في العيث والفساد واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم واجابتهم الى ما طلبوا واستقرت الاحوال على ذلك وحلف كل منهم لصاحبه فعادوا الى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد وخرج شهاب الدين صاحب دمشق اليهم واجتمع بهم وتجددت الايمان وصار نزاوش مقدم العسكر واليه الحل والعقد وذلك في شعبان وزال الخلف ودخلوا البلد والله اعلم

(ذكر غزاة العسكر الاتابكي الى بلاد الفرنج)

في هذه السنة في شعبان اجتمعت عساكر اتابك زنكي صاحب حلب وحماة مع الامير اسوار نائبه بحلب وقصدوا بلاد الفرنج على حين غفلة منهم وقصدوا اعمال اللاذقية ولم يمكن اهلها من الانتقال عنها والاحتراز فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف وقتلوا وأسروا وفعلوا في بلاد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم وكان الاسرى سبعة آلاف اسير ما بين رجل وامرأة وصبي ومائة الف رأس من الدواب ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم واما ما سوى ذلك من الاقمشة والعين والحلي فيخرج عن الحد واخربوا بلد اللاذقية وما جاورها ولم يسلم منها الا القليل وخرجوا الى شيزر

وتجدد العهد باحوالها * فلم ينشب بكتوزون حين سمع بانتماء عنانه اليها أن كرا الى نيسابور فملكها ثانيا يرى انه يتاصل عن دولة قد حم حمامها * وانقضت أيامها وناحت عليها اصداؤها وهامها * فلم يزد على أن جشم السلطان كلفة الكر عليه قبل أن اطمأنت به قعدته * أو جفت على طرفه لبدته * فخفل عن نيسابور على سمت أبيورد وشد السلطان عليه الطلب فركب المفازة الى مرو مبقيا بالوحا على الحياة * ومستظهرا بالنجاة على النجاة * وخلص الى مرو فيمن أعانهم فراهة المراكب * وقوة الصبر على وعثاء تلك المهارب * ورام أن يملكها ويحتجز بها فمانعه اهلها موالاة للسلطان * وشكرا لما وسعهم من العدل والاحسان * فشن عليهم غارة شعواء * وخبطهم بالسيوف خبط عشواء * وركب مفازة آمل حتى عبر النهر الى بخارا ولما خلت خراسان من بكتوزون واصحابه سرب السلطان ارسلان الجاذب والى طوس الى قهستان لينفضها عن أبي القاسم بن تسيمجور اذ كان يظن

بما معهم من الغنائم سالمين منتصف رجب فامتلأ من الاسارى والدواب وفرح المسلمون بذلك فرحا عظيما ولم يقدر الفرنج على شئ يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزا منهم ووهنا وضعفا

(ذكر وصول السلطان مسعود الى العراق وتفرق اصحاب الاطراف ومسير الراشد بالله الى الموصل)

قيل لما بلغ السلطان مسعودا اجتماع الملك داود والامراء ببغداد على خلافه وخطب الملك داود ابن أخيه السلطان محمود جمع العساكر وسار الى بغداد فنزل بالمكية فسار بعض العسكر حتى شارفوا عسكره وطاردوهم وكان فى الجماعة زين الدين على امير من أمراء اتابك زنكى ثم عادوا ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر فيها وثار العيارون ببغداد وسائر محالها وافسدوا ونهبوا وقتلوا حتى انه وصل صاحب لاتابك زنكى ومعه كتب فخرجوا عليه واخذوها منه وقتلوه فحضر جماعة من اهل المحال عند الاتابك زنكى واشاروا عليه بنهب المحال الغربية فليس فيها غير عيار ومفسد فامتنع من ذلك ثم ارسل بنهب الحريم الظاهرى فاخذ منه من الاموال الشئ الكثير وسبب ذلك ان العيارين فيه وأخذوا أموال الناس ونهبت العساكر غير الحريم من المحال وحصرهم السلطان بقية وخمسين يوما فلم يظفر بهم فعاد الى النهروان عازما على العود الى همذان فوصله طرنطاى صاحب واسط ومعه سفن كثيرة فعاد اليها وعبر فيها الى غربى دجلة وأراد العسكر البغدادى منعه فسبقهم الى العبور واختلفت كلمتهم فعاد الملك داود الى بلاده فى ذى القعدة وتفرق الامراء وكان عماد الدين زنكى بالجانب الغربى فعبر اليه الخليفة الراشد بالله وسار معه الى الموصل فى نفر يسير من اصحابه فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكى بغداد سار اليها واستقر بها ومنع اصحابه من الاذى والنهب وكان وصوله منتصف ذى القعدة فسكن الناس واطمأنوا بعد الخوف الشديد وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف بها الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده انى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الامر فافتوا بخروجه من الخلافة وقيل غير ذلك وسنذكره فى خلافة المقتفى لامر الله وكان الوزير شرف الدين على بن طراد وصاحب المخزن كمال الدين بن البقشلانى وابن الانبارى مع السلطان لانهم عنده مذاسيرهم مع المسترشد بالله فقد حوا فى الراشد ووافقهم على ذلك اصحاب المناصب ببغداد الا اليسير لانهم كانوا يخافونه وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضا واتفقوا على ذمه فتقدم السلطان بخلعه واقامة من يصلح فخلع وقطعت خطبته فى بغداد فى ذى القعدة وسائر البلاد وكانت خلافته احد عشر شهرا واحد عشر يوما وقتله الباطنية على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر خلافة المقتفى لامر الله)

لما قطعت خطبة الراشد بالله استشار السلطان جماعة من اعيان بغداد منهم الوزير على بن طراد وصاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح ان يلى الخلافة فقال الوزير احد عمومة الراشد وهو رجل صالح قال من هو قال من لا اقدر ان افصح باسمه لئلا يقتل فتقدم اليهم بعمل محضر فى خلع الراشد فعملوا محضرا ذكروا فيه ما ارتكبه من اخذ الاموال واشياء تقدح فى الامامة ثم

الظنون فى تدبيره ويطمع فى الارتياش عن تحسيره فواقعه بها وطرده الى نواحى طبس عنها وولى السلطان أخاه الامير نصر ابن ناصر الدين سبكتكين قيادة الجيوش بخراسان ورتبه بنيسابور على ما كان يليه آل سيمجور على قديم الزمان وامتد الى بلخ مستقر أبيه ناصر الدين فاتخذها حضرة الملك ودار السلام ولما انتهى السلطان الى بعض حدود مرو الروذ منصرفه اليها ركب على رسم التصيد فى خف من العدد ومعه أخوه اسمعيل بن ناصر الدين وقائد من قواد أبيه يعرف بنوشتكين كاج قد وتره احساسه بما آل أمره على يده لاغراره كان كأحد رفقائه فى الاثبات والاطلاق والاحسان والارفاق فبينا السلطان فى هزة الاقتناص اذ حانت منه التفاتة فاذا به قابضا على قبيعة سيفه يروم انتضاءه وقد رمى وجه أخيه اسمعيل بطرفه يطالب ايماءه ولاح للسلطان انكار اسمعيل عليه بدلائل رمزه وايماضه وشواهد ارتياعه وامتعاضه غير ان استشارته اياه فيما جناه قد فرشت له بساط التهمة وجرحت منه بجارحة الثقة

كتبوا فتوى ما تقول العلماء فيمن هذه صفته هل يصلح للامامة أم لا فافتوا ان من هذه صفته لا يصلح ان يكون اماما فلما فرغوا من ذلك أحضروا القاضي أبا طاهر بن الكرخي فشهدوا عنده بذلك فحكم بفسقه وخلعه وحكم بعده غيره ولم يكن قاضي القضاة حاضرا فانه كان عند اتابك زنكي بالموصل ثم ان شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد الله الحسين وقيل محمد بن المستظهر بالله ودينه وعقله وعفته ولين جانبه فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وصاحب المخزن ابن البقشلاني وغيرهما وأمر باحضار الامير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي يسكن فيه فاحضر وأجلس في الميمنة ودخل السلطان اليه والوزير وتحالفا وقرر الوزير القواعد بينهما وخرج السلطان من عنده وحضر الامراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذي الحجة ولقب المقتفي لامر الله قيل سبب اللقب انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يلي الخلافة بستة أيام وهو يقول له ان هذا الامر يصير اليك فاقتف بي فلقب بذلك ولما استخلف سيرت الكتب الحكمية بخلافته الى سائر الامصار واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي فارسل الى الموصل وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم علي بن الحسين الزينبي ابن عم الوزير وأعاده الى منصبه وقرر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن وجرت الامور على أحسن نظام وبلغني ان السلطان مسعودا أرسل الى الخليفة المقتفي لامر الله في تقرير اقطاع يكون لخاصته فكان جوابه ان في الدار ثمانين بغلا تنقل الماء من دجلة فلينتظر السلطان ما يحتاج اليه من يشرب هذا الماء ويقوم به فتقررت القاعدة على ان يجعل له ما كان للمستظهر بالله فاجاب الى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله لقد جعلنا في الخلافة رجلا عظيما والمقتفي عم الراشد هو والمسترشد ابنا المستظهر وليا الخلافة وكذلك السفاح والمنصور اخوان وكذلك المهدي والرشيد اخوان وكذلك الواثق والمتوكل اخوان واما ثلاثة اخوة ولوا الخلافة فالامين والمأمون والمعتصم وهم أولاد الرشيد والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد والراضي والمتقي والمطيع بنو المقتدر واما اربعة اخوة ولوها فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يعرف غيرهم وحين استقرت الخلافة للمقتفي ارسل اليه الراشد بالله رسولا من الموصل مع رسول اتابك زنكي وكان كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري فاحضر في الديوان وسمعت رسالته وحكى لي والدي عنه قال لما حضرت الديوان قيل لي تبايع أمير المؤمنين فقلت امير المؤمنين عندنا في الموصل وله في اعناق الخلق بيعة متقدمة وطال الكلام وعدت الى منزلي فلما كان الليل جاءتني امرأة عجوز سرا واجتمعت بي وابلغتني رسالة عن المقتفي لامر الله مضمونها عتابي على ما قلته واستنزالي عنه فقلت غدا اخدم خدمة يظهر اثرها فلما كان الغد حضرت الى الديوان وقيل لي في تعين البيعة فقلت انا رجل فقيه قاضي ولا يجوز لي ان ابايع الا ان يثبت عندي خلع المتقدم فاحضروا الشهود وشهدوا عندي في الديوان بما اوجب خلعه فقلت هذا ثابت لا كلام فيه ولكن لا بد لنا في هذه الدعوى من نصيب لان امير المؤمنين قد حصل له خلافة الله في ارضه والسلطان فقد استراح ممن كان يقصده ونحن باي شيء نعود فرجع الامر الى الخليفة فامر ان يعطى اتابك زنكي صريفين ودرب هرون وجرى ملكا رهي من خاص الخليفة ويزداد في ألقابه وقال هذه قاعدة لم يسمح بها

وبادر السلطان الى مضربه وقد أمر بالاحتياط عليه في وقته وحكم فيه خواص علمائه فاخذته السيوف حتى تطاهرت أعضاؤه وتناثرت عليه أوصاله وأجزاؤه ثم دعا السلطان باخيه اسمعيل فادلى بعذره وبجحد العلم بما أبداه الخائن الخائن من خائنة سره وغدره وجرت مخاوضات ومراسلات اقتضاه آخرها أن يستوثق منه لنفسه وملكه اذ كان لا يلتقي سيفان في غمد ولا يجتمع خليلان في شول وبلغني ان السلطان بعد استنزاله اياه عن القلعة بغزنة بسط منه في بعض مجالس انسه وباحثه بلسان الاستدراج عند حث السقاة عما كان ينويه في معاملته أن لو ملك من أمره ما ملكه هو منه فحملته سلامة صدره ونشوة خمره على أن قال كان رأيي فيك ان أوعز بك الى بعض القلاع موسعا عليك فيما تقترحه من دار وغلة وجوار ورزق على قدر الكفاية دار فلما ارتاب السلطان عند الحادثة به عامله بعين ما نواه وقابله بجنس ما أبداه واستودعه والى البلوزجان أبا الحرث ممكنا مما يشتهيه

لاحد من زعماء الاطراف ان يكون لهم نصيب من خاص الخليفة وكانت بيعة كمال الدين سنة احدى وثلاثين وخمسمائة ولما عاد كمال الدين الشهرزورى سير على يده المحضر الذى عمل بخلع الراشد فحكم به قاضى القضاة الزينبى بالموصل وكان عند اتابك زنكى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيره شرف الدين انوشروان بن خالد وعاد الى بغداد وقام بداره معزولا ووزر من بعده كمال الدين أبو البركات بن سلمة الزرگزينى وهو من خراسان وفيها ثار العيارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها وفتكوا فى البلد ونهبوا الاموال ظاهرا وكثر الشر فقصد الشحنة شارع دار الرقيق وطلب العيارين فثار عليه أهل المحال الغربية فقاتلهم وأحرق الشارع فاحترق فيه خلق كثير ونقل الناس أموالهم الى الحريم الظاهرى فدخله الشحنة ونهب منه مالا كثيرا ثم وقعت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج وبين أهل المأمونية وقتل بينهم جماعة ثم اصطلحوا وفيها سار قراسنقر فى عساكر كثيرة فى طلب الملك داود بن السلطان محمود فاقام السلطان مسعود ببغداد ولم يزل قراسنقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة فالتقيا وتصافوا واقتتل العسكران قتالا عظيما فانهزم داود وأقام قراسنقر باذربيجان واما داود فانه قصد خوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم فبلغت عدتهم نحو عشرة آلاف فارس فقصد تستر وحاصرها وكان عمه الملك سلجوق شاه بن السلطان محمد بواسط فارسل الى أخيه السلطان مسعود يستنجده فامده بالعساكر فسار الى داود وهو يحاصر تستر فتصافا فانهزم سلجوق شاه وفيها توفى محمد بن حمويه أبو عبد الله الجوينى وهو من مشايخ الصوفية المشهورين وله كرامات كثيرة ورواية الحديث وتوفى أيضا محمد بن عبد الله ابن أحمد بن حبيب العامرى الصوفى مصنف شرح الشهاب وأنشد لما احتضر

هاقد مددت يدى اليك فردها * بالعفو لا بشماتة الاعداء

وتوفى أيضا أبو عبد الله محمد بن الفضل بن أحمد الفراوى الصاعدى راوى صحيح مسلم عن عبد الغافر الفارسى وطريقه اليوم أعلى الطرق واليه الرحلة من الشرق والغرب وكان فقيها مناظرا ظريفا يخدم الغرباء بنفسه وكان يقال الفراوى الف راوى رحمه الله ورضى عنه

(ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر تفرق العساكر عن السلطان مسعود)

فى هذه السنة فى المحرم اذن السلطان مسعود للعساكر التى عنده ببغداد بالعود الى بلادهم لما بلغه ان الراشد بالله قد فارق اتابك زنكى من الموصل فانه كان يتمسك بالعساكر عنده خوفا ان ينجد به الى العراق فيملكه عليه فلما أراد أن يأذن للامير صدقة بن دبيس صاحب الحلة زوجه ابنته تمسكا به وقدم على السلطان مسعود جماعة من الامراء الذين حاربوه مع الملك داود منهم البقش السلاحى وبرسق بن برسق صاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همذان فرضى عنهم وأمنهم وولى البقش شحنكية بغداد فعسف الناس وظلمهم وكان السلطان مسعود بعد تفرق العساكر عنه قد بقى معه الف فارس وتزوج الخليفة فاطمة أخت السلطان مسعود فى رجب والصداق مائة ألف دينار وكان الوكيل فى قبول النكاح وزير

ممتعا بمثل ما كان يتوليها فلله هذا الفعال الذى طرز ديباجة الكرم وغبر فى وجه مساعى ملوك الامم وقد يستغرب هذا الاسجاح من وجه وان كان لا يستبدع من آخر لان هناك عاطفة القربى والرحم ولكن الشأن فى الاجانب الذين تغلق رقابهم الاجرام الفادحة والجنايات الفاحشة كيف يسلط فيهم رأيه على هواه ويستبقى الجانى بما جناه فلم يسمع باعف منه فى الجنايات سيفا ولا أحسن على فورة الزلات صبرا واحتج لهذه الخصلة الفاضلة بان الملك الحازم من يسلب الجانى فى حال سخطه ما يمكنه الوفاء بعينه أو بمثله عند رضاه وجرح المال يؤسى بالتعويض والاخلاف فاما النفوس فليس لاتلافها من تلاف

(ذكر الخلع التى أفاضها القادر بالله أمير المؤمنين على السلطان يمين الدولة وأمين الملة أنار الله برهانهما)

أوجب القادر بالله أمير المؤمنين له خلعا لم يسمع بمثلها محمولة من دار الخلافة ولقبه فى كتابه يمين الدولة وأمين الملة لقبا كان مصونا فى صدف الشرف لم تنله أيدى الغاصبة قط على كثرة

الخليفة علي بن ظراد الزينبي والوكيل عن السلطان وزيره الزركزيني ووثق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن دبيس بن صدقة صهريه وحيث سار الراشد بالله من عند زنكي الا تابك والله أعلم

(ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان)

في هذه السنة في جمادى الاولى هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين الله العلوي صاحب مصر وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة وكان نصرانيا أرمنيا فتمكن في البلاد واستعمل الارمن وعزل المسلمين وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والارمن الذين ولاهم وطمعوا فيهم فلم يكن في أهل مصر من أنف من ذلك الا رضوان بن الريحيق فانه لما ساءه ذلك وأقلقه جمع جمعا كثيرا وقصد القاهرة فسمع به بهرام فهرب الى الصعيد من غير حرب ولا قتال وقصد مدينة اسوان فمنعه واليها من الدخول اليها وقاتله فقتل السودان من الارمن كثيرا فلما لم يقدر على الدخول الى اسوان أرسل الى الحافظ يطلب الامان فآمنه فعاد الى القاهرة فسجن بالقصر فبقي مدة ثم ترهب وخرج من الحبس واما رضوان فانه وزر للحافظ ولقب بالملك الافضل وهو أول وزير للمصريين لقب بالملك ثم فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ في اخراجه فثار الناس عليه منتصف شوال في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وهرب من داره وتركها بما فيها فنهب الناس منها ما لا يحد ولا يحصى وركب الحافظ فسكن الناس ونقل ما بقي في دار رضوان الى قصره وامارضوان فسار يريد الشام يستنجد الاتراك ويستنصرهم فارسل اليه الحافظ الامير ابن مصال ليرده بالامان والعهد انه لا يؤذيه فرجع الى القاهرة فحبسه الحافظ عنده في القصر وقيل انه توجه الى الشام وهو الصحيح وقصد صرخد فوصل اليها في ذي القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة كمشتكين فاكرمه وعظمه وأقام عنده ثم سار الى مصر سنة اربع وثلاثين وخمسمائة ومعه عسكر فقاتل المصريين عند باب النهر وهزمهم وقتل منهم جماعة كثيرة وأقام ثلاثة أيام فتفرق عنه كثير ممن معه فعزم على العود الى الشام فارسل اليه الحافظ الامير ابن مصال فرده وحبسه عنده في القصر وجمع بينه وبين عياله وأهله فاقام في القصر الى سنة ثلاث وأربعين فنقب الحبس وخرج منه وقد أعدت له خيل فهرب عليها وعبر النيل الى الجيزة فحشد وجمع المغاربة وغيرهم وعاد الى القاهرة فقاتل المصريين عند جامع ابن طولون وهزمهم ودخل القاهرة فنزل عند جامع الاقمر فارسل الى الحافظ يطلب منه مالا ليفرقه على عادتهم فانهم كانوا اذا وزر واوزير أرسلوا اليه عشرين الف دينار ليفرقها فارسل الحافظ عشرين الف دينار فقسمها وكثر عليه الناس وطلب زيادة فارسل اليه عشرين الف دينار ففرقها فتفرق الناس وخذوا عنه فاذا الصوت قد وقع وخرج اليه جمع كثير من السودان وضعفهم الحافظ عليه فحملوا على غلمانه فقاتلوهم فقام يركب فتقدم اليه بعض أصحابه فرسا ليركبه فلما اراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله وحمل رأسه الى الحافظ فارسله الى زوجته فوضع في حجرها فالقت به وقالت هكذا يكون الرجال ولم يستوزر الحافظ احدا وباشر الامور بنفسه الى ان مات

(ذكر فتح المسلمين حصن وادي ابن الاحمر من الفرنج)

الطلاب وتنافس الملوك في الالقاب فتبوأ سرير الملك واجتاب خلعة المجد وأذاع شعار الطاعة لامير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وقام بين يديه أمراء خراسان سماطين مقيمين رسم الخدمة وملتزمين حكم الهيبة وأجلسهم بعد الاذن العام على مجلس الانس وأمر لكل منهم ولسائر علمانه وخاصته ووجوه أوليائه وحاشيته صحابة يومه من روائع الخلع والصلات * ونفائس الاحبية والكرامات * بما لم يتسع لمثله ملك ملك ولم يف به بعضه ضمير أمير واستجابت خراسان لامره وفرعت منابرها بذكره واتسقت الامور عن آخرها في كنف ايالته واستوسقت الاعمال في ضمن كفالته وفرض على نفسه في كل عام غزوة في الهند ينصر بها الدين ويقمع أعداء الله الملحدين فكتب الله له أجره وأحسن نصره كذلك قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم

(ذكر انصراف عبد الملك بن نوح الى بخارا)

ولما وصل عبد الملك بن نوح الى بخارا في الفل

وفى هذه السنة فى رجب سار عسكر دمشق مع مقدمهم الامير نزاوش الى طرابلس الشام فاجتمع معه كثير من الغزاة المتطوعة والتركمان أيضا خلق كثير فلما سمع القمص صاحبها بقربهم منه ولايته سار اليهم فى جموعه وحشوده فقاتلهم وانهزم الفرنج وعادوا الى طرابلس فى صورة سيئة قد قتلت فرسانهم وشجعانهم فلما عادوا نهب المسلمون من أعمالهم أكثرها وحصروا حصن وادى ابن الاحمر وضيقوا عليه فملكوه عنوة ونهبوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وسبوا الحريم والذرية وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمال جزيل وعاد المسلمون الى دمشق سالمين والله أعلم

(ذكر حصار زنكى مدينة حمص)

فى هذه السنة فى شعبان سار اتابك زنكى الى مدينة حمص وقدم اليها حاجبه صلاح الدين محمد الباغيسيانى وهو أكبر أمير معه وكان ذا مكر وحيل أرسله ليتوصل مع من فيها ليسلموها اليه فوصل اليها وفيها معين الدين أنز وهو الوالى عليها والحاكم فيها وهو أيضا أكبر أمير بدمشق وحمص اقطاعه كما سبق ذكره فلم ينفذ فيه مكره فوصل حينئذ زنكى اليها وحصرها وعاود مراسلة أنز فى التسليم غير مرة تارة بالوعد وتارة بالوعيد واحتج بانها ملك صاحبه شهاب الدين وانها بيده أمانة ولا يسلمها الا عن غلبة فاقام عليها الى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ غرض الى بعرين فحصرها وكان منه ومن الفرنج ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك زنكى قلعة بعرين وهزيمة الفرنج)

وفى هذه السنة فى شوال سار اتابك زنكى من حمص كما ذكرناه وحصر قلعة بعرين وهى للفرنج تقارب مدينة حماة وهى من أمنع الحصون وأحصنها فلما نزل عليها قاتلها وزحف اليها فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وسار وا فى قصفهم وقصيفهم وملوكهم وقسامستهم وكنودهم الى اتابك زنكى ليرحلوه عن بعرين فلم يرحل وصبر لهم الى أن وصلوا اليه فالتقيهم وقاتلهم أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم أجلت الوقعة عن هزيمة الفرنج وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب واحتمى ملوكهم بحصن بعرين لقربه منهم فحصرهم المسلمون ومنع اتابك زنكى عنهم كل شئ حتى الاخبار فكان من به منهم لا يعلم شيأ من أخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده ثم ان القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها من بلاد النصرانية مستنفرين على المسلمين وأعلموهم ان زنكى ان أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت لعدم المحامى عنها وان المسلمين ليس لهم نية الا قصد البيت المقدس فحينئذ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول وقصدوا الشام مع ملك الروم وكان منهم ما نذكره وأما زنكى فانه جد فى قتال الفرنج فصبروا وقلت عليهم الميرة والذخيرة فانهم كانوا غير مستعدين ولم يكونوا يعتقدون ان أحدا يقدر عليهم بل كانوا يتوقعون ملك باقى البلاد بالشام فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم وأذعنوا بالتسليم ليؤمنهم ويتركهم يعودون الى بلادهم فلم يجبهم الى ذلك فلما سمع بقرب ملك الروم من الشام واجتماعه بمن بقى من الفرنج أعطى لمن فى الحصن الامان وقرر عليهم تسليم الحصن ومن المال خمسين ألف دينار يحملونها اليه فاجابوه الى ذلك فخرجوا وسلموا اليه فلما فارقوه بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم وكان لا يصلهم شئ من الاخبار

ومعه فائق وتلاحق به يكتوزون فى أصحابه وأولياء عبد الملك فى مضامته طمعوا آنفا فى الاستقلال * وتكهنوا لانفسهم بطالع الاقبال * وتحدثوا بالاحتشاد لاتف القتال * واخترم من بينهم فائق فى شعبان سنة تسع وثمانين وثلثمائة وهو وجيه الرزمة وطراز الحلة * وعمدة الجملة * والملقب بعميد الدولة * فتمكن الانخزال من صدورهم * وسرى الاختلال فى أمورهم * وانحدر ايلك الخان الى باب بخارا يظهر لعبد الملك وسائر أجناده وانجاده موالاة خداع * واحتيال وموالاة استدراج واغتيال * وهم يظنون استظهارا على ما عراهم * واحتياطا لما يشد عراهم * مغرورين عن واجب الاستبصار * والاحتراس عن حبائل الاوتار * حتى آنسهم بلطائف بره واقباله * وأطمعهم بزخارف أقواله وأفعاله * وركب اليه يكتوزون وينالتكين الفائق وسائر قواد عبد الملك صباح يوم فلما اطمأنت بهم المجلس أمر باعتقالهم والقبض على أصحابهم وذوابهم * واستلاب أسلحتهم وأسبابهم * فلم ينج منهم الا الشارد * والنادر

البيتة فلهذا سلموه وكان زنكى فى مدة مقامه عليهم فتح المعرة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلها وأهل سائر الولايات التى بينها وبين حلب وحماة مع أهل بعرين فى الخزى لان الحرب بينهم قائمة على ساق والنهب والقتل لا يزال بينهم فلما ملك أمن الناس وعمرت البلاد وعظم دخلها وكان فتحا مبينا ومن رآه علم صحة قولى ومن أحسن الاعمال ما عمله زنكى مع أهل المعرة فان الفرنج لما ملكوها كانوا قد أخذوا أملاكهم فلما فتحها زنكى الآن حضر من بقى من أهلها ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم فطلب منهم كتبها فقالوا ان الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التى للاملاك فيها فقال اطلبوا دفاتر حلب وكل من عليه خراج على ملك يسلم اليه ففعلوا ذلك واعاد على الناس املاكهم وهذا من احسن الافعال واعدلها

(ذكر خروج ملك الروم من بلاده الى الشام)

قد تقدم ان الفرنج ارسلوا الى ملك القسطنطينية يستصرخون به ويعرفونه ما فعله زنكى فيهم ويحرضونه على لحاق البلاد قبل ان تملك ولا ينفعه حينئذ المجى فتجهز وسار مجدا فابتدأ وركب البحر وسار الى مدينة انطاكية وهى له على ساحل البحر فارسى فيها واقام ينتظر وصول المراكب التى فيها اثقاله وسلاحه فلما وصلت سار عنها الى مدينة تيقية فحصرها وان اصحابها صالحوه على مال يؤدونه اليه وقيل بل ملكها وسار عنها الى مدينة اذنة ومدينة المصيصة وهما بيد ابن ليون الارمنى صاحب قلاع الدروب فحصرهما وملكهما ورحل الى عين زربة فحصرها وملكها عنوة وملك تل حمدون وحمل اهله الى جزيرة قبرس وعبر مينا الاسكندرية وخرج الى الشام فحصر مدينة انطاكية فى ذى القعدة وضيق على اهلها وبها صاحبها الفرنجى ريمند فتردد الرسل اليهم ومشوا بينهم فتصالحوا ورحل عنها الى بغراس ودخل منها الى بلد ابن ليون الارمنى فبذل له ابن ليون اموالا كثيرة ودخل فى طاعته والله اعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة رابع وعشرين فى ايار ظهر بالشام سحاب اسود واظلمت له الدنيا وصار الجو كالليل المظلم ثم طلع بعد ذلك سحاب احمر كأنه النار اضاءت له الدنيا وهبت ريح عاصفة القت كثيرا من الشجر وكان اشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعده مطر شديد وبرد كبار وفيها عاد مؤيد الدين ابو الفوارس المسيب على بن الحسين المعروف بابن الصوفى من صرخد الى دمشق وكان قد اخرج هو واهله من دمشق الى صرخد فبقوا فيها الى الآن وعادوا وولى ابو الفوارس الرياسة بدمشق وحكم فيها حكما ماضيا وكان ذا رياسة عظيمة ومروأة ظاهرة وفيها كثرت الامراض ببغداد وكثر الموت فجأة بأصفهان وهمذان وفيها سار اتابك زنكى الى دقوقا فحصرها وملكها بعد ان قاتل على قلعتها قتالا شديدا وفيها توفى ابو سعيد احمد بن محمد ابن ثابت الخجندى رئيس الشافعية باصفهان وتفقه على والده ودرس بالنظامية باصفهان وتوفى ابو القاسم هبة الله بن احمد بن عمر الحريرى ومولده يوم عشوراء سنة خمس وثلاثين واربعمائة وهو آخر من روى عن ابى الحسن زوج الحرة وقد روى الخطيب ابو بكر بن ثابت عن زوج الحرة ايضا وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاث وستين واربعمائة

(ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة)

*(ذكر

المبادر * وبلغ الخبر عبد الملك * فوجد عدته قليلة وقوته مستحيلة * فلم يجد غير الاستخفاء حيله * ودخل ايلك بخارا يوم الثلاثاء العاشر من ذى القعدة سنة تسع وثمانين وثلثمائة ونزل دار الامارة وبث على عبد الملك عيون الطلب * وطالع الرغب والرهب * حتى ظفر به فحمله الى أوزكند فبات بها وطفئت بقية الشعلة من دولة آل سامان * بما وراء النهر وأطراف خراسان * فصارت كأن لم تغن بالامس كدأب الدول الماضية * فى القرون الخالية * ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون

(ذكر خروج ابى ابراهيم اسمعيل بن نوح المنتصر وما جرى بينه وبين ايلك الخان بما وراء النهر وبين صاحب الجيش ابى المظفر نصر بن ناصر الدين بخراسان)

كان سبب خروجه انه لما تمكن ايلك الخان من بخارا قبض على ابى الحرث المكسول وعبد الملك وابى ابراهيم المنتصر وابى يعقوب بنى نوح بن منصور الرضى وعلى اعمامهم ابى زكريا وابى سليمان وابى صالح الغازى وغيرهم من

*(ذكر

(ذكر ملك اتابك زنكى حمص وغيرها من عمل دمشق)

وفى هذه السنة فى المحرم وصل اتابك زنكى الى حماة وسار منها الى بقاع بعلبك فملك حصن الجدل وكان لصاحب دمشق وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه وهو أيضا لصاحب دمشق وسار الى حمص فحصرها وأدام قتالها فلما نازل ملك الروم حلب رحل عنها الى سلمية فلما انجلت حادثة الروم على ماذكرناه عاود منازلة حمص وأرسل الى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب اليه أمه ليتزوجها واسمها زمرد خاتون ابنة جاولى وهى التى قتلت ابنها شمس الملوك وهى التى بنت المدرسة بظاهر دمشق المطلة على وادى شقرا ونهر بردى فتزوجها وتسلم حمص مع قلعتها وحملت الخاتون اليه فى رمضان وانما حمله على التزوج بها ما رأى من تحكيمها فى دمشق فظن انه يملك البلد بالاتصال اليها فلما تزوجها خاب أمله ولم يحصل على شئ فاعرض عنها

(ذكر وصول ملك الروم الى الشام وملكه بزاعة وما فعله بالمسلمين)

قد ذكرنا سنة احدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده وشغله بالفرنج وابن ليون فلما دخلت هذه السنة وصل الى الشام وخافه الناس خوفا عظيما وقصد بزاعة فحصرها وهى مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب فمضى جماعة من أعيان حلب الى اتابك زنكى وهو يحاصر حمص فاستغاثوا به واستنصروه فسير معهم كثيرا من العساكر فدخلوا الى حلب ليمنعوها من الروم ان حصروها ثم ان ملك الروم قاتل بزاعة ونصب عليها منجنيقات وضيق على من بها فملكها بالامان فى الخامس والعشرين من رجب ثم غدر باهلها فقتل منهم وأسر وسبى وكان عدة من جرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس وتنصر قاضيها وجماعة من أهلها نحو أربعمائة نفس وأقام الروم بعد ملكها عشرة أيام يتطلبون من اختفى فقيل لهم ان جمعا كثيرا من أهل هذه الناحية قد نزلوا المغارات فدخنوا عليهم وهلكوا فى المغاير ثم رحلوا الى حلب من الغد فى خيلهم ورجلهم فخرج اليهم احداث حلب فقاتلهم قتالا شديدا فقتل من الروم وجرح خلق كثير وقتل بطريق جليل القدر عندهم وعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام فلم يروا فيها طعما فرحلوا الى قلعة الاثارب فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها تاسع شعبان فملكها الروم وتركوا فيها سبايا بزاعة والاسرى ومعهم جمع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وسار وا فلما سمع الامير اسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر الى الاثارب فاوقع بمن فيها من الروم فقتلهم وخلص الاسرى والسبى وعادوا الى حلب واما عماد الدين زنكى فانه فارق حمص وسار الى سلمية فنازلها وعبر ثقله الفرات الى الرقة وأقام بجريدة ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة واما الروم فانهم قصدوا قلعة شيزر فانها من أمنع الحصون وانما حصروها لانها لم تكن لزنكى فلا يكون له فى حفظها اهتمام وانما كانت للامير ابى العساكر سلطان بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى فنازلوها وحصروها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا فارسل صاحبها الى زنكى يستنجده فسار اليه فنزل على نهر العاصى بالقرب منها بينها وبين حماة وكان يركب كل يوم ويسير الى شيزر هو وعساكره ويقفون بحيث يراهم الروم ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم ثم انه أرسل الى ملك الروم يقول له انكم قد حصلتم منى بهذه الجبال فانزلوا منها الى الصحراء حتى نلتقى فان ظفرت بكم ارحت المسلمين منكم وان

باعتقالهم ورسم افراد الاخوة منهم فى حجرة على حدة احتياطا لنفسه بتفريق ذات بينهم عن تمكينهم من اقتضاب الحيل واختلاق الاراجيف وارتقاب الفرص واحتال أبو ابراهيم المنتصر للقاس من معتقله فى زى جارية كانت تفتنا بهم لمطالعة أحوالهم ومراعاة أوقات أقواتهم فكانت حاله فى الخلاص موافقة لحال الكميت حين استغشى ثياب طلقه * وانسل من غمد الاعتقال بمهجته * ثم أنشأ يقول

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل
على الرغم من تلك النوابح والمشلى
على ثياب الغانيات وتحتها
صريمة رأى أشبهت سلة النصل

واستخفى المنتصر بعد خلاصه عند عجوز من أهل بخارا الى ان أيس منه الطلب ثم سار الى خوارزم كالحسام القاضب * بل الشهاب الثاقب * متجردا للانتصار * مستعينا بالله على درك الثار * وتلاحق به من ند وغار * وأنجد وغار * من بقايا الفواد والاجناد السامانية فى أطراف خراسان حتى اجتمع شمله

وكتف خيله ورجله * وركض ارسلان بالواحاجب الى بخارا فبيت الخانية بها تحت الملاحف وشغلهم بحقائق السيوف البوارق * عن مجاز الاحلام الطوارق وقبض على جغر تكين وعلى سبعة عشر نفسا من أعيان القواد الخانية * وحملهم فى وثاق الاسر الى الجرجانية . وأفلت الباقون بجريعة الاذقان * نحو ايلك الخان * فركب ارسلان اكتافهم بحثهم حث الشمال قزع الخريف وطرحهم الى حدود سمرقند مقتفيا آثارهم * وكاسعا أدبارهم * ووافقه بقنطرة كوهك تكين خان فى عسكر جرار نائبا عن ايلك فى حراسة سمرقند وما يليها فانتدب لمناجزته * واستعان بالقل وسائر أصحابه على مبارزته * فنصب له أرسلان وجها وقاحا * وأضرم عليه الارض كفاحا * فولاه ظهر الادبار * واتقاه بعوذة الفرار * وغنم ارسلان ومن معه اموالهم * ورموا بتلك الانفال احوالهم * وعاد ابو ابراهيم المنتصر عند ذلك الى بخارا فاستبشر اهلها جميعا ودنته على مراده وبلغ ايلك الخان خبره فجمع

ظفرتم استرحتم واخذتم شيزر وغيرها ولم يكن لهم قوة وانما كان يرهبهم بهذا القول واشباهه فاشار فريج الشام على ملك الروم بمصافتهم وهو نوا امره عليه فلم يفعل وقال اتظنون ان ليس له من العسكر الا ماترون انما هو يريد ان تلقونه فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حد له وكان زنكى يرسل ايضا الى ملك الروم يوهمه بان فريج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ويرسل الى فريج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم ان ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها فى رمضان وكان مقامه عليها اربعين يوما وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها فسار اتابك زنكى يتبع ساقة العسكر فظفر بكثير ممن تخلف منهم واخذ جميع ماتركوه ولما كان الفرنج على براعة ارسل زنكى القاضى كمال الدين ابا الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى الى السلطان مسعود يستنجده ويطلب العساكر فمضى الى بغداد وانهى الحال الى السلطان وعرفه عاقبة الاهمال وانه ليس بينه وبين الروم الا ان تملك حلب وينحدروا مع الفرات الى بغداد فلم يجد عنده حركة فوضع انسانا من اصحابه يوم جمعة فمضى الى جامع القصر ومعه جماعة من زنود العجم وامرهم ان يثوروا بهم اذا طلع الخطيب المنبر ويصيح ويصيحون معه واسلاماه وادين محمداه ويشق ثيابه ويرمى عمامته من راسه ويخرج الى دار السلطان والناس معه يستغيثون كذلك ووضع انسانا آخر يفعل بجامع السلطان مثله فلما صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم راسه والقى عمامته وشق ثوبه واولئك معه وصاحوا فبكى الناس وتركوا الصلاة ولعنوا السلطان وسار وا من الجامع يتبعون الشيخ الى دار السلطان يستغيثون ويكون نخاف السلطان فقال احضروا الى ابن الشهرزورى فاحضر فقال كمال الدين لقد خفت منه مما رأيت فلما دخلت قال لى اى فتنة اثرت ففعلت ما فعلت شيأ انا كنت فى بيتى وانما الناس يغارون للدين والاسلام ويخافون عاقبة هذا التوانى فقال اخرج الى الناس ففرقهم عنا واحضر غدا واختر من العسكر ماتريد ففرقت الناس وعرفتهم ما امر به من تجهيز العساكر وحضرت الغد الى الديوان فجهز والى طائفة عظيمة من الجيش فارسلت الى نصير الدين بالموصل اعرفه ذلك واخوفه من العسكران طرقوا البلاد فانهم يملكونها فاعاد الجواب يقول البلاد لا شك مأخوذة فلأن يأخذها المسلمون خير من ان يأخذها الكافرون فشمر عنا فى التحميل واذا قد وصلنى كتاب اتابك زنكى من الشام يخبر برحيل ملك الروم ويأمرنى بان لا استصحب من العسكر احدا فعرفت السلطان ذلك فقال العسكر قد تجهزت ولا بد من الغزاة الى الشام فأعد الجهد وبذل الحزم له ولاصحابه حتى عاد العسكر ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء اتابك زنكى واكثروا فمن ذلك ما قاله المسلم بن الخضر بن قسيم الحموى من جملة قصيدة اولها

بعزمك ايها الملك العظيم * تذل لك الصعاب وتستقيم

ومن جملتها هذه الابيات

الم تر ان كلب الروم لما * تبين انه الملك الرحيم
فجاء فطبق الفلوات خيلا * كأن الجحفل الليل البهيم
وقد نزل الزمان على رضاه * ودان لخطبه الخطب العظيم

فحين رميته بك في خميس * تيقن ان ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا * فاحرب لا يسير ولا يقيم
كأنك في الهجاج شهاب نور * توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى * وليس سوى الحمام له حميم

وهي قصيدة طويلة ومن عجيب ما يحكى ان ملك الروم لما عزم على حصر شيز رسم من بها ذلك فقال الامير مرشد بن علي صاحبها وهو ينسخ مصحفا اللهم بحق من أنزلته عليه ان قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني اليك فتوفي بعد أيام

(ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومن معه من الامراء)

لما فارق الراشد بالله أتابك زنكي من الموصل سار نحو اذربيجان فوصل مراغة وكان الامير منكبرس صاحب فارس ونائبه بخوزستان الامير بوزابة والامير عبد الرحمن طغايرك خلخان والملك داود بن السلطان محمود مستشعرين من السلطان مسعود خائفين منه فتجمعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع ليكون أيديهم واحدة ويردوه الى الخلافة فاجابهم الى ذلك الا انه لم يجتمع معهم ووصل الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد باجتماعهم فسار عنها في شعبان نحوهم فالتقوا ببيجن كشت فاقتتلوا فهزمهم السلطان مسعود وأخذ الامير منكبرس أسيرا فقتل بين يديه صبرا وتفرق عسكر مسعود في النهب واتباع المنهزمين وكان بوزابة وعبد الرحمن طغايرك على نشز من الارض فرأيا السلطان مسعودا وقد تفرق عسكره عنه فحملا عليه وهو في قلة فلم يثبت لهما وانهزم وقبض بوزابة على جماعة من الامراء منهم صدقة بن دبيس صاحب الحلة ومنهم ولد اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم وتركهم عنده فلما بلغه قتل صاحبه منكبرس قتلهم اجمعين وصار العسكران منهزمين وكان هذا من اعجب الاتفاق وقصد السلطان مسعود اذربيجان وقصد الملك داود همذان ووصل الراشد بعد الوقعة فاختلفت آراء الجماعة فبعضهم اشار بقصد العراق والتغلب عليه وبعضهم اشار باتباع السلطان مسعود للفراغ منه فان ما بعده يهون عليهم وكان بوزابة اكبر الجماعة فلم يرد ذلك وكان غرضه المسير الى بلاد فارس واخذها بعد قتل صاحبها منكبرس قبل ان يمتنع من بها عليه فبطل عليهم ما كانوا فيه وسار اليها فملكها وصارت له مع خوزستان وسار سلجوق شاه ابن السلطان محمد الى بغداد ليملكها فخرج اليه البقش الشحنة بها ونظر الخادم اميرا لحاج وقاتلوه وكان عاجزا مستضعفا ولما قتل صدقة بن دبيس اقر السلطان مسعود الحلة على أخيه محمد بن دبيس وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر أخا عنتر المقتول بدبره ولما كان البقش شحنة بغداد يقاتل سلجوق شاه ثار العيارون ببغداد ونهبوا الاموال وقتلوا الرجال وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون ارباب الاموال ظاهرا ويأخذون منهم ما يريدون ويحملون الامتعة على رؤس الحمالين فلما عاد الشحنة قتل منهم وصلب وغلت الاسعار وكثر الظلم منه وأخذ المستورين بحجة العيارين فخلا الناس عن بغداد الى الموصل وغيرها من البلاد

(ذكر قتل الراشد بالله)

أحابيش الترك وصفد صفده في العدد الدثر فكر أرسلان بالور راجعا الى المنتصر واقتضاه الاحتياط عند ذلك العبور الى آمل الشط فوافاها وجباها وضاقت به وبعسكره فركب المفازة على سمت ابيورد فملكها وسار عنها قاصدا قصد نيسابور وبها صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين فالتقيا على فضاء بين بغاخى وبشجمة وذلك يوم الاربعاء للبلتين بقيتا من شهر ربيع الاول سنة احدى وتسعين وثلثمائة ودارت عليهما رحا الحرب يفصلون بالبيض البوارق * ما بين الطلى والعواتق * ويضربون مفارق الهام * ضرب القدار نقيعة القدام * ولما اشتدت وطأة الحرب على صحبها * ومرت كأسها على شربها * وتكاثفت جموع أبي ابراهيم المنتصر على صاحب الجيش أبي المظفر اقتضاهم الاحتياط أن يتحيزوا الى جانب هراة انتظار المدد * واستشرافا لمأمول صنع الله في الغد * فحشوا ظهور الخيل * بين ذيول الليل * حتى شابت عليهم لمته بين حدود بوزجان وتمكن المنتصر من نيسابور وانضم اليه من

لما وصل الراشد بالله الى همذان وبها الملك داود وبوزابة ومن معهما من الامراء والعساكر على ما تقدم ذكره ثم سار الى خوزستان مع الملك داود ومعهما خوارزمشاه فقاربا الجزيرة فسار السلطان مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود الى فارس وعاد خوارزمشاه الى بلاده بقي الراشد وحده فلما يئس من عساكر العجم سار الى اصفهان فلما كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخراسانية الذين كانوا في خدمته فقتلوه وهو يريد القيلولة وكان في أعقاب مرض برئ منه ودفن بظاهر اصفهان بشهرستان فركب من معه فقتلوا الباطنية ولما وصل الخبر الى بغداد جلسوا للعزاء به في بيت النوبة يوما واحدا وكان أبيض أشقر حسن اللون مليح الصورة مهيبا شديد القوة والبطش قال أبو بكر الصولي الناس يقولون ان كل سادس يقوم بامر الناس من أول الاسلام لابد من أن يخلع وربما قتل قال فتأملت ذلك فرأيته كما قيل فان أول من قام بامر هذه الامة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن رضي الله عنهم خلع ثم معاوية ويزيد ابنه ومعاوية بن يزيد ومروان وعبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير خلع ثم عبد الملك وأخوه سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابنا عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك خلع وقتل ثم لم ينتظم أمر بني أمية ثم ولي السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والامين خلع وقتل والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين خلع وقتل والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر خلع ثم رد ثم قتل ثم القاهر والراضي والمتقي والمستكفي والمطيع والطائع خلع ثم القادر والقائم والمقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد خلع وقتل قلت وفي هذا نظر لان البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان وكونه جعله بعده لا وجه له والصولي انما ذكر الى أيام المطيع لله ومن بعده ذكره غيره

(ذكر حال ابن بكران العيار)

في هذه السنة في ذي الحجة عظم أمر ابن بكران العيار ببغداد والعراق وكثرت اتباعه وصار يركب ظاهرا في جمع من المفسدين وخافه الشريف أبو الكرم الوالي ببغداد فامر أبا القاسم ابن أخيه حامي باب الازج ان يشتد اليه ويلبس سراويل فتوة منه ليأمن شره وكان ابن بكران يكثر المقام بالسوادة ومعه رفيق له يعرف بابن البزاز فانتهى أمرهما الى انهما ارادا ان يضربا باسمهما سكة في الانبار فارسل الشحنة والوزير شرف الدين الزينبي الى الوالي ابي الكرم وقالا اما ان تقتل ابن بكران واما ان نقتلك فاحضر ابن اخيه وعرفه ما جرى وقال له اما ان تختارني ونقتله واما ان تختار ابن بكران فقال انا اقتله وكان لابن بكران عادة يجي في بعض الليالي الى ابن اخي ابي الكرم فيقيم في داره ويشرب عنده فلما جاء على عادته وشرب اخذ ابو القاسم سلاحه ووثب به فقتله وأراح الناس من شره ثم اخذ بعده بيسير رفيقه ابن البزاز وصلب وقتل معه جماعة من الحرامية فسكن الناس واطمأنوا وهدأت الفتنة

(ذكر قتل الوزير الدركزيني ووزارة الخازن)

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد ابي البركات بن سلمة الدركزيني واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الحسين الخازن وكان الكمال شهما شجاعا عادلا نافذ الحكم حسن

شذاذ العسكر ايلجم الكثير * والجم الغفير * وبلغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة خبره فاستركب خيله * من غيران يتربص بنهاره ليله * وسار سير الخبب * يطوي الارض كطي السجل للكتب * حتى انقض على نيسابور انقضاض بني الهواء * على بنات الماء * ولما تسامع المنتصر باقباله * انحدر الى اسفراين في عامة رجاله * وبث أصحابه في الرساتيق لجباية أموالها * وازاحة اطماع حشمه بها * فازعجه الطلب للحاق بشمس المعالي قابوس بن وشمكير مستصرخا اياه * ومؤملا غوثه وجدواه * فتلقاه بكل ما تمناه * ومهد له ذراه وأعطاه حتى ارضاه * وكان مما أمر بحمله اليه صفقة واحدة عشر دواب بمراكب الذهب وثلاثون بمراكب الفضة وثلاثون من العتاق الجياد بالبراقع والجلال وعشرون بغلة بمراكب الفضة والذهب وثلاثون أخرى مقرونة بخمسين جلا موقرة احمالا وانقالا من البسط النادرة * والفرش الفاخرة ومن حصر طبرستان * وسائر الطرائف المجموعة في الخزائن بجرجان * وأضيف الى ذلك ألف ألف درهم وثلاثون ألف دينار ومائة وخمسون تختا من الديباج

السيرة ازال المكوس ورفع المظالم وكان يقيم وزنه السلطان ووظائفه وجمع لخزائن كثيرة وكشف اشياء كثيرة كانت مستورة يخان فيها ويسرق فتنقل على المتصرفين وارباب الاعمال فاوقعوا بينه وبين الامراء لاسيما قراسنقر صاحب اذربيجان فانه فارق السلطان وارسل يقول اما ان تنفذ رأس الوزير واما خذ منا سلطانا آخر فاشار من حضر من الامراء بقتله وحذروه فتنة لاتتلافى فقتله على كره منه وارسل راسه الى قراسنقر فرضى وكانت وزارته سبعة اشهر وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ووزر بعده ابو المظاهر بن محمد البرزجردى وزير قراسنقر ولقب عز الملك وضاقت الامور على السلطان مسعود واستقطع الامراء البلاد بغير اختياره ولم يبق له شئ من البلاد البتة الا اسم السلطنة لاغير

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة ملك حسام الدين تمرتاش ايلغازى صاحب ماردين قلعة الهتاخ من بلاد ديار بكر اخذها من بعض بنى مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها وهذا آخر من بقى فبحصان الحمى الدائم الذى لايزول ملكه ولايتطرق اليه النقص ولا التغيير وفيها انقطعت كسوة الكعبة لما ذكرناه من الاختلاف فقام بكسوتها رامشت التاجر الفارسى كساها من الثياب الفاخرة بكل ما وجد اليه سبيل فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر الف دينار مصرية وهو من التجار المسافرين الى الهند كثير المال وفيها توفيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارق زوج السلطان مسعود وتزوج بعدها سفرى ابنة دبيس بن صدقة فى جمادى الاولى وتزوج ابنة قاورت وهو من البيت السلجقى الا انه كان لايزال يعاقر الخمر ليلا ونهارا فلهذا اسقط اسمه وذكره وفيها قتل السلطان مسعود بن البقش السلاحى شحنة بغداد وكان قد ظلم الناس وعسفهم وفعل مالم يفعله غيره من الظلم فقبض عليه وسيره الى تكريت فسجنه بها عند مجاهد الدين بهروز ثم امر بقتله فلما اراد قتله القى بنفسه فى دجلة فغرق فاخذ راسه وحمل الى السلطان وجعل السلطان شحنة العراق مجاهد الدين بهروز فعمل اعمالا صالحة منها انه عمل مسناة النهروان واشباهها وكان حسن السيرة كثير الاحسان وفيها درس الشيخ ابو منصور بن الرزاز بالنظامية ببغداد وفيها ارسل الخليفة الى اتابك زنكى فى اطلاق قاضى القضاة الزينبى فاطلق وانحدر الى بغداد فخلع عليه الخليفة واقره على منصبه وفيها كان بخراسان غلاء شديد طالت مدته وعظم امره حتى اكل الناس الكلاب والسنانير وغيرهما من الدواب وتفرق اكثر اهل البلاد من الجوع وفيها توفى طغان ارسلان صاحب بدليس وارزن من ديار بكر وولى بعده ابنه فرنى واستقام له الامر وفيها فى شهر صفر جاءت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغيرها من البلاد فخربت كثيرا منها وهلك تحت الهدم عالم كثير وفيها توفى احمد بن محمد بن ابى بكر بن ابى الفتح الدينورى الفقيه الحنبلى ببغداد وكان ينشد كثيرا هذه الابيات

تمنيت ان تمسى فقيها مناظرا * بغير عياء والجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة * تلقيتها فالعلم كيف يكون

وفيها توفى محمد بن عبد الملك بن عمر ابو الحسن الكرخى ومولده سنة ثمان وخمسين واربعمائة

التترية والسقلاطونيات العضدية * والحلل الفخرية والخزوز الطاقية * وسائر الثياب المصرية * وأمر لاهل عسكره بعشر بنياتهم معونة لهم على عوارض حاجاتهم * وأشار على المنتصر بقصد الرى اذ كانت معرضة لقصادها بتخاذل أهوائها وتوا كل أوليائها * واشتجار الفتن والاحن بين الذائدين عن فنائها * على أن يمده بولديه دارا ومنوجهر فى جيوش الجيل والديلم ووجوه الاكراد والعرب ليستظهر باستخلاص تلك الولاية * وليكون ما ينويه من معاودة خراسان عن ظهر الكفاية * فقبل الاشارة * وقدم الاستخارة * وسار حتى خيم بظاهر الرى فأحس أهلها منه بأم الريق * على أريق * وقامت الرى أفلاذ كبدها فأناخوا قبالة المنتصر ويوس الكفلاء بتلك الدولة الى أرسلان بلوا وأبى القاسم بن سيمجور وغيرهما من أولياء المنتصر من أطمعهم فى مال يحمل اليهم سرا على أن ينثنوا عنهم عنان المنتصر بوجه من وجوه اللطائف والحيل فانخدعوا لتسويلهم * وطمعوا فى تأميلهم * وتنصحوا للمنتصر بان

وكان فقيها محدثا سمع الحديث بكرخ واصفهان وهمدان وغيرها وفي شعبان منها توفي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن اسمعيل بن صاعد وهو ابن عم القاضي أبي سعيد وولي القضاء بنيسابور بعد أبي سعيد

(ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخوارزم شاه)

في هذه السنة في المحرم سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه وهو ابن ملكشاه محاربا لخوارزم شاه اتسز بن محمد وسبب ذلك ان سنجر بلغه ان اتسز يحدث نفسه بالامتناع عليه وترك الخدمة له وان هذا الامر قد ظهر على كثير من أصحابه وأمرائه فأوجب ذلك قصده وأخذ خوارزم شاه لجمع عساكره وتوجه نحوه فلما قرب من خوارزم شاه في عساكره خرج خوارزم شاه اليه في عساكره فالتقيه مقابلا وعبى كل واحد منهما عساكره وأصحابه فاقتتلوا فلم يكن للخوارزمية قوة بالسلطان فلم يثبتوا ولوا منهزمين وقتل منهم خلق كثير ومن جملة القتلى ولد لخوارزم شاه فحزن عليه أبوه حزنا عظيما وجد وجدا شديدا وملك سنجر خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمد ورتب له وزيرا واتابكا وحاجبا وقرر قواعده وعاد الى مرو وفي جمادى الآخرة من هذه السنة فلما فارق خوارزم عائدا انتهز خوارزم شاه الفرصة فرجع اليها وكان أهلها يكرهون العسكر السنجري ويؤثرون عودة خوارزم شاه فلما عاد أعانوه على ملك البلد ففارقها سليمان شاه واختلفا بعد الاتفاق ففعل خوارزم شاه في خراسان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ما نذكره ان شاء الله

(ذكر قتل محمود صاحب دمشق وملك أخيه محمد)

في هذه السنة في شوال قتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق على فراشه غيلة قتله ثلاثة من غلمانه هم خواصه وأقرب الناس اليه في خلوته وجلوته وكانوا ينامون عنده فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا فنجا أحدهم وأخذ الآخران فصلبا وكتب معين الدين انز من دمشق الى أخيه جمال الدين محمد بن بوري صاحب بعلبك وهو بها بصورة الحال واستدعاه ليملك بعد أخيه فحضر في أسرع وقت فلما دخل البلد جلس للعزاء باخيه وحلف له الجند وأعيان الرعية وسكن الناس وفوض أمر دولته الى معين الدين انز مملوك جده وزاد في علو مرتبته وصار هو الجملة والتفصيل وأقطعه بعلبك وزوجه بامه وكان انز خيرا عاقلا حسن السيرة فجرت الامور عنده على أحسن نظام

(ذكر ملك زنكي بعلبك)

في هذه السنة في ذي القعدة سار عماد الدين اتابك زنكي بن اقسنقر الى بعلبك فحصرها ثم ملكها وسبب ذلك ان محمودا صاحب دمشق لما قتل كانت والدته زمرد خاتون عند اتابك زنكي بحلب قد تزوجها فوجدت لقتل ولدها وجدا شديدا وحزنت عليه وأرسلت الى زنكي وهو بديار الجزيرة تعرفه الحادثة وتطلب منه ان يقصد دمشق ويطلب بثار ولدها فلما وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقف ولا تريث وسار مجدا ليجعل ذلك طريقا الى ملك البلاد وعبر الفرات عازما على قصد دمشق فاحتاط من بها واستعدوا واستكثروا من الذخائر ولم يتركوا

شيأ

قد وهب ذلك ممن يجله ملوك الشرق من آل سامان على جلالة أقدارهم * ونفاسة أخطارهم * ليجل عن مناواة قوم يدعون فيك قرابة * ويفترضون لك طاعة ومهابة * موالا تأمن بحر النار الى قرصه بالتعويل عليك ومغزاه أن يحترش الافعى بيديك فله الغنم ان قدرت * وعليك الغرم ان عجزت * فلفتوا المنتصر عن رأيه * وزينوا له الملك بخراسان من ورائه * فارتحل من باب الري يريد دامغان * وانفرد ولدا شمس المعالى عنه فخنس نجم ذلك التدبير وانحل عقد ذلك التقدير * واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال وامتد المنتصر طلقا الى نيسابور وبها صاحب الجيش أبو المظفر فاشفق من زلة أقدم كالتي حدثت قبل فاحتاط بالانحياز الى بوزجان ودخل المنتصر نيسابور في شوال سنة احدى وتسعين وثلثمائة وبث عماله في جباية الاموال * ومطالبة من ظفر بهم من العمال * واستمد صاحب الجيش السلطان يمين الدولة وأمين الملة فرسم للحاجب الكبير التونتاش

شأنهما يحتاجون اليه الا وبذلوا الجهد فى تحصيله وأقاموا ينتظرون وصوله اليهم فتركهم وسار الى بعلبك وقيل كان السبب فى ملكها انها كانت لمعين الدين انز كما ذكرناه وكان له جارية يهواها فلما تزوج ام جمال الدين سيرها الى بعلبك فلما سار زنكى الى الشام عازما على قصد دمشق سير الى انز يبذل له البذول العظيمة ليسلم اليه دمشق فلم يفعل وسار اتابك الى بعلبك فوصل اليها فى العشرين من ذى الحجة فى السنة فنازلها فى عساكره وضيق عليها وجد فى محاربتها ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عددا ترمى ليلا ونهارا فأشرف من بها على الهلاك وطلبوا الامان وسلموا اليه المدينة وبقيت القلعة وبها جماعة من الشجعان شجعان الاتراك فقاتلهم فلما أيسوا من معين ونصير طلبوا الامان فأمنهم فسلموا اليه القلعة فلما نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم فصلبوا ولم ينج منهم الا القليل فاستقبح الناس ذلك من فعله واستعظموه وخافه غيرهم وحذروه لا سيما أهل دمشق فقالوا لو ملكنا الفعل بنا مثل فعله بهؤلاء فازدادوا نفورا وجدوا فى محاربته ولما ملك زنكى بعلبك أخذ الجارية التى كانت لمعين الدين انز بها فتزوجها بحلب فلم تزل بها الى ان قتل فسيرها ابنه نور الدين محمود الى معين الدين انز وهى كانت أعظم الاسباب فى المودة بين نور الدين وبين انز والله أعلم

(ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعوده عنها)

وفى هذه السنة جمع اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان عساكر كثيرة وسار طالبا بثار ابيه الذى قتله بوزابة فى المصاف المقدم ذكره فلما قارب السلطان مسعودا أرسل اليه يطلب منه قتل وزيره الكمال فقتله كما ذكرناه فلما قتل سار قراسنقر الى بلاد فارس فلما قاربها تحصن بوزابة منه فى القلعة البيضاء ووطئ قراسنقر البلاد وتصرف فيها وليس له دافع ولا مانع الا انه لم يمكنه المقام وملك المدن التى فى فارس فسلم البلاد الى الملك سلجوق شاه ابن السلطان محمود وقال له هذه البلاد لك فاملك الباقى وعاد الى اذربيجان فنزل حينئذ بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وملك البلاد وأسر سلجوق شاه وسجن فى قلعة بفارس

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى صفر توفى الوزير شرف الدين انوشروان بن خالد معزولا ببغداد وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه ودفن فى داره ثم نقل الى الكوفة فدفن فى مشهد أمير المؤمنين على بن ابى طالب عليه السلام وكان فيه تشيع وهو كان السبب فى عمل المقامات الحريرية وكان رجلا عاقلا شهما دبنا خيرا ورزل للخليفة المسترشد وللسلطان محمود وللسلطان مسعود وكان يستقيل من الوزارة فيجاب الى ذلك ثم يخطب اليها فيجيب كارها وفيها قدم السلطان مسعود بغداد فى ربيع الاول وكان الزمان شتاء وصار يشتى بالعراق ويصيف بالجبال ولما قدمها ازال المكوس وكتب الالواح بازالتها ووضعت على ابواب الجوامع والاسواق وتقدم ان لا ينزل جندى فى دار عامى من اهل بغداد الا باذن فكثر الدعاء له والثناء عليه وكان السبب فى ذلك الكمال الخازن وزير السلطان وفيها فى صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد وكان اشدها بالشام وكانت متوالية عشرة ليال كل ليلة عشر دفعات فخرب كثير من البلاد ولا سيما حلب فان اهلها لما كثرت عليهم فارقوا البلاد والبيوت وخرجوا الى الصحراء وعدوا البلة

والى هراة البداد اليه فى معظم الجيوش من شجعان الترك وسرعان الهنود حتى اذا استظهر بذوى الغناء * فى حرة الهيجاء * كر عائدا الى نيسابور وتلقاهم المنتصر بارسلان بالو وأبى نصر بن محمود وأبى القاسم بن سيجور فالتقوا على حرب تحطمت فيها الصفاح المشهورة * وتقصدت الرماح المطرورة * وعريت عندها الكواكب المستورة * ثم شاعت الهزيمة فى السامانية فولوا على أدبارهم نفورا * وكان أمر الله قدرا مقدورا * ودخل صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين نيسابور وقد زينت له كالهدى * على زوجها الكنى * وأقيمت له النثارات كما تتهاوى النجوم السايرة * وتتهادى الثلوج المتطايرة * وركب المنتصر سمت أبيورد والطلب على أثره حتى وصل الى جرجان ولما تسامع الامير شمس المعالى قابوس بنبئه رماه بزهاء ألفين من انجاد الاكراد فألجؤه الى الارتحال وآيسوه من طلب المحال فكر على ادراجه تائها فى التى * والحائر لا الرأى * بظاهر الرى * وقد كان

واحدة جاءتهم ثمانين مرة ولم تزل بالشام تتعاهدهم من رابع صفر الى تاسع عشره وكان معها صوت وهزة شديدة وفيها اعاد الفرنج على اعمال بانياس فسار عسكر دمشق في اثرهم فلم يدركوهم فعادوا وفيها توفي ابو القاسم طاهر بن طاهر الشحامي النيسابوري بها ومولده سنة ست واربعين واربعمائة وكان اماما في الحديث مكثرا عالي الاسناد وتوفي عبد الله بن احمد بن عبد القاهر بن محمد بن يوسف ابو القاسم بن ابي الحسين البغدادي بها ومولده سنة اثنتين وخمسين واربعمائة وعبد العزيز بن عثمان بن ابراهيم بن محمد الاسدي البخاري كان قاضي بخارا وكان من الفقهاء اولاد الائمة حسن السيرة وتوفي محمد بن شجاع بن أبي بكر بن علي بن ابراهيم الثلجي الاصفهاني باصفهان في جمادى الآخرة ومولده سنة ست وتسعين واربعمائة وسمع الحديث الكثير باصفهان وبغداد وغيرهما

(ثم دخلت سنة اربع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر حصار اتابك زنكي دمشق)

في هذه السنة حصر اتابك زنكي دمشق مرتين فأما المرة الاولى فانه سار اليها في ربيع الاول من بعلبك بعد الفراغ من أمرها وتقرير قواعدها واصلاح ما تشعث منها ليحصرها فنزل بالبقاع وارسل الى جمال الدين محمد صاحبها يبذل اليه بلدا يقترحه ليسلم اليه دمشق فلم يجبه الى ذلك فرحل وقصد دمشق فنزل على داريا ثالث عشر ربيع الاول فالتقت الطلائع واقتتلوا وكان الظفر لعسكر زنكي وعاد الدمشقيون منهزمين ففتل كثير منهم ثم تقدم زنكي الى الموصل فنزل هناك والقيه جمع كثير من جند دمشق واحداثها ورجالة الغوطة فقاتلوه فانهزم الدمشقيون واخذهم السيف فقتل فيهم واكثروا اسر كذلك ومن سلم عاد جريحا واشرف البلد ذلك اليوم على الاخذ وان يملك لكن عاد زنكي وامسك عنه عشرة ايام وتابع الرسل الى صاحب دمشق وبذل له بعلبك وحمص وغيرهما مما يختاره من البلاد فمال الى ان يسلم وامتنع غيره من اصحابه من ذلك وخوفوه عاقبة فعله وان يفعل ويغدر كما فعل باهل بعلبك فلما لم يسلموا اليه عاد القتال والزحف ثم ان جمال الدين محمدا صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان وطمع زنكي حينئذ في البلد وزحف اليه زحفا شديدا اظنا منه انه ربما يقع بين المقدمين الامراء خلاف فيبلغ به الغرض وكان ما امله بعيدا فلما مات جمال الدين ولي بعده مجير الدين ابن ولده وتولى ترتيب دولته معين الدين أنز فلم يظهر لموت ابيه اثر مع ان عدوهم على باب المدينة فلما رأى أنز أن زنكي لا يفارقهم ولا يزول عن حصرهم راسل الفرنج واستدعاهم الى نصرته وان يتفقوا على دفع زنكي عن دمشق وبذل لهم بذولا وان يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها اليهم وخوفهم من زنكي ان ملك دمشق فعلموا صحة قوله وعلموا انه ان ملكها لا يبقي لهم معه بالشام مقام وان الفرنج اجتمعوا وعزموا على المسير الى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكي فحين علم زنكي بذلك سار الى حوران خامس رمضان عازما على قتال الفرنج قبل ان يجتمعوا بالدمشقيين فلما سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم فلما رآهم كذلك عاد الى حصر دمشق ونزل بعذرا شماليها سادس شوال فاحرق عدة قرى من المرج والغوطة ورحل عائدا الى بلاده ووصل الفرنج الى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي فعادوا وافسدوا حين

الدين

المنتصر يحقد على اوسلان بالوثبة به عليه * واشتطاطه في المطالب بين يديه * ومنازعته الرأي فيما ينحوه * ومراجعته القول في كل ما يفوه به فوه * وانضاف الى ذلك اتهامه اياه بالتخاذل في الحرب التي انهزم فيها عن وجه صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين لنفاسته على أبي القاسم السيمجوري بمكانته من اختصاصه وايثاره * وغيرته على الشركة الواقعة به في محله ومقداره * فحمله ما احتساه من ماء الكرب على القشف باراقة دمه والاستراحة الى انتهاك روحه فقتل به فتكة آنست فتكات الاسلام * وشفت نفسه من الداء العقام * وتجمع أهل عسكره لانكار ما فعل * وانى لهم ذلك وقد سبق السيف العذل * وقام أبو القاسم علي بن محمد مصانعا لهم عن المنتصر * بلسان المعتذر * حتى خمدت التهابهم * وسكن هيجهم واضطرابهم * وتآمروا بينهم على قصد سرخس للاستظهار بزعيم أهلها المعروف كان أبوه بالفقيه اذ كان قد رغب والمنتصر في ارفاده وانجاده * وايثاره بعدته وعتاده * فركبوا المسافة اليها على

الدين أنز الى بانياس فى عسكر دمشق وهى فى طاعة زنكى كما تقدم ذكره ليحصرها ويسلمها الى الفرنج وكان واليها قد سار قبل ذلك منها بجمعة الى مدينة صور للاغارة على بلادها فصادفه صاحب انطاكية وهو قاصد الى دمشق بنجدة لصاحبها على زنكى فاقتتلا فانهزم المسلمون واخذوا الى بانياس فقتل ونجا من سلم منهم الى بانياس وجمعوا معهم كثيرا من البقاع وغيره وحفظوا القلعة فنازلها معين الدين فقاتلهم وضيق عليهم ومعه طائفة من الفرنج فاخذها وسلمها الى الفرنج واما الحصر الثانى لدمشق فان اتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد الى بعلبك ليدفع عنها من يحصرها فاقام هناك فلما عاد عسكر دمشق بعد ان ملكوها وسلموها الى الفرنج فرق اتابك زنكى عسكره على الاغارة على حوران واعمال دمشق وسار هو جريدة مع خواصه فنازل دمشق سحرا ولم يعلم به احد من اهلها فلما اصبح الناس ورأوا عسكره خافوا وارتجت البلد واجتمع العسكر والعامة على السور وفتحت الابواب وخرج الجند والرجالة فقاتلوه فلم يمكن زنكى عسكره من الاقدام فى القتال لان عامة عسكره كانوا قد تفرقوا فى البلاد والنهب والتخريب وانما قصد دمشق لئلا يخرج منها عسكر الى عسكره وهم متفرقون فلما اقتتلوا ذلك اليوم قتل بينهم جماعة ثم انهزم زنكى عنهم وعاد الى خيامه ورحل الى مرج راهط واقام ينتظر عودة عسكره فعادوا اليه وقد ملؤا ايديهم من الغنائم لانهم طرقوا البلاد واهلها غافلون فلما اجتمعوا عنده رحل بهم عائدا الى بلادهم

(ذكر ملك زنكى شهرزور واعمالها)

فى هذه السنة ملك اتابك زنكى شهرزور واعمالها وما يجاورها من الحصون وكانت بيد قيجاق ابن ارسلان تاش التركمانى وكان حكمه نافذا على قاصى التركمان ودانيهم وكلمته لا تخالف يرون طاعته فرضا فتحامى الملوك قصده ولم يتعرضوا لولايته لانها منيعة كثيرة المضايق فعظم شانه وازداد جمعه واتاه التركمان من كل فج عميق فلما كان هذه السنة سير اليه اتابك زنكى عسكرا فجمع اصحابه ولقيهم فتصافوا واقتتلوا فانهزم قيجاق واستبيح عسكره وسار الجيش الاتابكى فى اعقابهم فحصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الامان لقيجاق فصار اليهم وانخرط فى سلك العساكر ولم يزل هو وبنوه فى خدمة البيت على احسن قضية الى بعد سنة ستمائة بقليل وفارقوها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة جرى بين امير المؤمنين المقتفى لامر الله وبين الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى منافرة وسببها ان الوزير كان يعترض الخليفة فى كل ما يأمر به فنفر الخليفة من ذلك فغضب الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان فى محرية وقت الظهر ودخل اليها واحتمى بها فارسل اليه الخليفة فى العود الى منصبه فامتنع وكانت الكتب تصدر باسمه واستنيب قاضى القضاة الزينبى وهو ابن عم الوزير وارسل الخليفة الى دار السلطان رسلا فى معنى الوزير فارخص له السلطان فى عزله فحينئذ اسقط اسمه من الكتب واقام بدار السلطان ثم عزل الزينبى من النيابة وناب سديد الدولة بن الانبارى وفيها قتل المقرب جوهر وهو من خدم السلطان سنجر وكان قد حكم فى دولته جميعها ومن جملة اقطاعه الرى ومن مماليكه عباس صاحب الرى وكان سائر عسكر

طريق ابيوردسق ونهبوها وجبوا اموالها وارتاشوا بها سمح لهم الزعيم بها وحين علم صاحب الجيش باجتماعهم على مضغ الاباطيل بينهم دلف اليهم فى سراة الكماة لطردهم عن شريعة الطمع وازعاجهم عن حضانة الامل ووصل السير بالسرى حتى أشرف على سرخس فى الهيئة المنشورة * والهيبة الموفورة وبرز المنتصر الى ظاهرها فخيم بازائه * واستعد للقائه * وتجايشا للقتال فاستك سمع الهواء من قرع الحديد بالحديد * ورويت صدور المواضى من موارد الوريد * وبلغ كل من الفريقين غاية الامكان * فى منازلة الاقران * ومناوشة الضراب والطعان * مجاحشة عن خيوط الرقاب * وتفاديا عن سوء الذكر على تناسخ الاحقاب * غير ان قضاء الله أغلب وأمره أنفذ وله الحكم فى تبديل الابدال * وتصريف الاحوال * ونقل الاموال من وال الى وال * وهبت لصاحب الجيش أبى المظفر قبول الاقبال * فتمزق مصف المنتصر عن هزمى عوابس الوجوه * وجرحى بانياب المكروه * ولم ينشب صاحب الجيش أبو المظفر أن أتام بعض

السلطان سنجر يخدمونه ويقفون ببابه وكان قتله يد الباطنية وقف له جماعة منهم بزي النساء واستغثن به فوقف يسمع كلامهم فقتلوه فلما قتل جمع صاحبه عباس العساكر وقصد الباطنية فقتل منهم وأكثر وفعل بهم مالم يفعله غيره ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرب بلادهم الى ان مات وفيها زلزلت كنجة وغيرها من اعمال اذربيجان وارران الان اشدها كان بكنجة فخرب منها الكثير وهلك عالم لايحصون كثرة قيل كان الهلكى مائتى ألف وثلاثين ألفا وكان من جملة الهلكى ابنان لقراسنقر صاحب البلاد وتهدمت قلعة هناك لمجاهد الدين بهروز وذهب له فيها من الذخائر والاموال شئ عظيم وفيها شرع مجاهد الدين بهروز فى عمل النهروانات سكر سكرا عظيما يرد الماء الى مجراه الاول وحفر مجرى الماء القديم وخرق اليه مجراة تأخذ من ديالى ثم استحال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكر وبقى السكر فى البر لاينتفع به احد ولم يتعرض احد الى رده الى مجراه عند السكر الى وقتنا هذا وفيها انقطع الغيث ببغداد والعراق ولم يجئ غير مرة واحدة فى اذار ثم انقطع ووقع الغلاء وعدمت الاقوات وفيها فى جمادى الآخرة دخل الخليفة بفاطمة خاتون بنت السلطان مسعود وكان يوم حملها الى دار الخليفة يوما مشهودا غلقت بغداد عشرة ايام وزينت وتزوج السلطان مسعود بابنة الخليفة وفيها فى ربيع الاول توفى القاضى ابو الفضل يحيى ابن قاضى دمشق المعروف بالزكى

(ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر مسير جهاردانكى الى العراق وما كان منه)

فى هذه السنة أمر السلطان مسعود الامير اسمعيل المعروف بجهاردانكى والبقش كون نخر بالمسير الى خوزستان وفارس واخذها من بوزابة واطلق لهم نفقة على بغداد فساروا فيمن معهما الى بغداد فمنعهم مجاهد الدين بهروز عن دخولها فلم يقبلوا منه فارسل الى المعابر فخسفها وغرقها وجد فى عمارة السور وسد باب الظفرية وباب كلواذى واغلق باقى الابواب وعلق عليها السلاسل وضرب الخيام للمقاتلة فلما علما بذلك عبرا بصرصر وقصدا الحلة فمنعا منها فقصدا واسط فخرج اليهم الامير طرنطاى وتقاتلوا فانهزم طرنطاى ودخلوا واسط فنهبوها ونهبوا بلك فرسان والنعمانية والفهم طرنطاى الى حماد بن أبى الخير صاحب البطيحة ووافقهم عسكر البصرة وفارق اسمعيل والبقش عسكرهما وصارا مع طرنطاى فضعف أولئك فصاروا الى تستر واستشفع اسمعيل الى السلطان فعفا عنه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجر ومعه بردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب وكانا قد أخذا من المسترشد فأعادهما الآن الى المقتفى وفى هذه السنة توفى اتابك قراسنقر صاحب اذربيجان وارانية بمدينة اردبيل وكان مرضه السل وطال به وكان من ممالك الملك طغرل وسلمت اذربيجان وارانية الى الامير جاولى الطغرلى وكان قراسنقر عظم محله على سلطانه وخافه السلطان وفيها كان بين اتابك زنكى وبين داود سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا حرب شديد وانهزم داود وملك زنكى من بلاده قلعة بهمود وأدركه الشتاء فعاد الى الموصل وفيها ملك الاسماعيلية حصن مصياث بالشام وكان واليه مملوكا لبنى منقذ أصحاب شيزر فاستالوا

العرب يابى القاسم على بن
محمد فى قلادة من الوهق * على
بقية من الرمق * وأردف
بتوزتاش الحاجب * وكان
يراه المنتصر جلدة ما بين
العين والحاجب * وانضمت
حبالة الاسر على معظم
ذلك العسكر فحملوا الى
غزنة فى الاصفاد مقرنين
وسار المنتصر سير المضطر
لايرى وزرا غير اعتساف
المسالك * وارتكاب
المهالك * على جملة لا يتميز
فيها المملوك من المالك *
وقفل أبو المظفر نصر بن
ناصر الدين وقد أعلى الله
كعبه ورفع قدره * وأطعمه
نصره * واطار بين الخافقين
ذكره * وانشدنى ابو منصور
الثعالبى لنفسه فيه يذكر
ما اتيح له من هذا الفتح
الرائع منظره والشائع
فى الآفاق خبره

تبلجت الايام عن غرة الدهر
وحلت باهل البغى قاصمة
الظهر
وولى بنو الادبار ادبارهم
وقد
تحكم فيهم صاحب الدهر
بالقهر
وقد جاء نصر الله والفتح
متصلا
الى الملك المنصور سيدنا
نصر
غياث الورى شمس الزمان
وبدره

عليه ومكروا به حتى صعدوا اليه وقتلوه وملكوا الحصن وهو بايديهم الى الآن وفيها توفي سعيد الدولة بن الانباري واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصر محمد بن محمد بن جبير وكان قبل ذلك استاذ الدار وفيها توفي برتقش بازدار صاحب قزوين وفيها في رجب ظفر رايب الدانشمند صاحب ملطية وغيرها من تلك النواحي بجمع من الروم فقتلهم وغنم مامعهم وفيها في رمضان سارت طائفة من الفرنج لخروج اليهم العسكر الذي بمسقلان فقاتلهم فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيرا فعادوا منهزمين وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن ولما فرغت درس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل وحضر ارباب المناصب وسائر الفقهاء وفيها في رجب مات القاضي أبو بكر بن محمد بن عبد الباقي الانصاري قاضي المارستان عن نيف وسبعين سنة وله الاسناد والعوالي بالحديث وكان عالما بالمنطق والحساب والهيئة وغيرها من علوم الاوائل وهو آخر من حدث في الدنيا عن اسحق البرمكي والقاضي أبي بكر الطبري وأبي طالب العشاري وأبي محمد الجوهري وغيرهم وتوفي الامام الحافظ أبو القاسم اسمعيل بن محمد بن الفضل الاصفهاني عشر ذي الحجة ومولده سنة تسع وخمسين وله التصانيف المشهورة وتوفي يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن يعقوب الهمذاني من أهل برزجرد وسكن مرو وتفقه على أبي اسحق الشيرازي وروى الحديث واشتغل بالرياضات والمجاهدات ووعظ ببغداد فقام اليه متفقه يقال له ابن السقاء وسأله وآداه في السؤال فقال اسكت انى اشم منك ريح الكفر فسافر الرجل الى بلد الروم وتنصر وفيها مات أبو القاسم علي بن افلح بن افلح الشاعر المشهور

(ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر انهزام السلطان سنجر من الاتراك الخطا وملكهم ماوراء النهر)

ثم ذكر اصحاب التواريخ في هذه الحادثة اقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من اختلافها وعهدتها فنقول في هذه السنة في المحرم وقيل في صفر انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار وسبب ذلك ان سنجرا كان قتل ايتاخ خوارزم شاه انسز بن محمد كما ذكرناه قبل فبعث خوارزم شاه الى الخطا وهم بماوراء النهر يطمعهم في البلاد ويروج عليهم أمرها وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر فساروا في ثلثمائة الف فارس وسار اليهم سنجر في عساكره فالتقوا بماوراء النهر واقتتلوا أشد قتال وانهزم سنجر وعساكره وقتل منهم مائة الف قتيل منهم اثنا عشر الفا كلهم صاحب عمامة واربعة آلاف امرأة واسرت زوجة السلطان سنجر وتم السلطان منهزما الى ترمذ وسار منها الى بلخ ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو فدخلها مراغمة للسلطان سنجر وقتل بها وقبض على أبي الفضل الكرماني الفقيه الحنفي وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من اعيان البلد ولم يزل السلطان سنجر مسعودا الى وقتنا هذا لم تنهزم له راية ولما تمت عليه هذه السنة الهزيمة ارسل الى السلطان مسعود واذن له في التصرف في الري وما يجري معها على قاعدة أبيه السلطان محمد وأمره ان يكون مقيما فيها بعساكره بحيث ان دعت حاجة استدعاه لاجل هذه الهزيمة فوصل عباس صاحب الري الى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعودا خدمة عظيمة وسار السلطان الى الري امتثالا لامر عمه سنجر وقيل ان بلاد تركستان

ومن هو بالعلياء اول أولى
الامر
فبالمثمن فتح فخر زينة العلا
وواسطة الدنيا وفائدة العصر
أبى الله الا نصر نصر ورفعه
على قمة العيوق او هامة البدر
وملكه صدر السرير كأنه
لنا فلك بالخير أوضته يجري
وخوله دون الملوك محاسنا
تبز على الشمس المنيرة والقطر
اذا ذكرت فاح الندى بذكرها
كما فاح أذكى الند في وهج الجمر
فتى السن كهل الحلم والرأى والحجى
يعم بني الآمال بالنائل الغمر
له همة لما حسبت علوها
حسبت الثريا في الثرى أبدا تسري
غدا راعيا للمسلمين وناصرا
له الله راع قد تكفل بالنصر
الا أيها الملك الذي ترك العدا
عبادي بين القتل والكسر والاسر
قدمت قدوم الغيث أيمن مقدم
فطيبت وجه الدهر بالحسن والبشر
ألست ترى كتب الربيع ورسله
يقولون هذا الربيع على الاثر
نسيم نسيب للحياة بلطفه
يجر فويق الارض أردية العطر
وتربأ نفاس الربيع معبق

وهى كاشغر وبلاد بلاساغون وختن وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانية الاتراك وهم مسلمون من نسل افراسياب التركى الا انهم مختلفون وكان سبب اسلام جده شبق قراخان انه رأى فى منامه كان رجلا نزل من السماء فقال بالتركية ما معناه أسلم تسلم فى الدنيا والآخرة فاسلم فى منامه وأصبح فاظهر اسلامه فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن شبق ولم يزل الملك بتلك الناحية فى أولاده الى ارسلان خان بن محمد بن سليمان بن داود بغراخان بن ابراهيم الملقب بطيغاج خان بن ايلك الملقب بنصر ارسلان بن على بن موسى بن شبق فخرج على قدرخان فانتزع الملك منه فقتل سنجر قدرخان كما ذكرناه سنة أربع وتسعين وأربعمائة وأعاد الملك الى ارسلان خان وثبت قدمه وخرج خوارج فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعاده الى ملكه وكان من جنده نوع من الاتراك يقال لهم القارغلية والاتراك الغزية الذين نهبوا خراسان على ما نذكره ان شاء الله وهم نوعان نوع يقال لهم اجق وأميرهم طوطى بن داديك وقوم يقال لهم برق وأميرهم يقال له قرغوت بن عبد الحميد فحسن الشريف الاشرف بن محمد بن أبى شجاع العلوى السمرقندى لولد ارسلان خان المعروف بنصرخان طلب الملك من أبيه وأطمعه فسمع محمد بن خان الخبر فقتل الابن والشريف الاشرف وجرت بين ارسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتهم الى العصيان عليه وانتزاع الملك منه فعاود الاستعانة بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان بينهما مصاهرة فوصل الى سمرقند وهرب القارغلية من بين يديه واتفق ان السلطان سنجر خرج الى الصيد فرأى خيالة فقبض عليهم فقررهم فأقروا ان ارسلان خان وضعهم على قتله فعاد الى سمرقند فحصر ارسلان خان بالقلعة فملكها وأخذه أسيرا وسيره الى بلخ فمات بها وقيل بل غدر به سنجر واستضعفه فملك البلد منه فأشاع عنه ذلك فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قليج طمغاج أبا المعالى الحسن بن على بن عبد المؤمن المعروف بحسن تكين وكان من أعيان بيت الخانية الى الآن الا ان ارسلان خان اطرحه فلما ولى سمرقند وكان هذا حسن بن أخت سنجر لم تطل أيامه فمات عن قليل فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن ارسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان وهو ابن الذى أخذ منه سنجر سمرقند وكان هذا محمود ابن أخت سنجر وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد وصل الاعور وهو كوخان الصينى الى حدود كاشغر فى عدد كثير لا يعلمهم الا الله فاستعد له صاحب كاشغر وهو الخان أحمد بن الحسن وجمع جنوده فخرج اليه والتقوا فاقتتلوا وانهزم الاعور الصينى وقتل كثير من أصحابه ثم انه مات فقام مقامه كوخان الصينى وكو بلسان الصين اقب لاعظم ملوكهم وخان اقب الملوك الترك فمعناه أعظم الملوك وكان يلبس لبسة ملوكهم من المقنعة والخمار وكان مانويا ولما خرج من الصين الى تركستان انضاف اليه الاتراك الخطا وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم فى خدمة الخانية اصحاب تركستان وكان ارسلان خان محمد بن سليمان يسير على ستة عشر الف خركاه ومنزلهم على الدروب التى بينه وبين الصين يمنعون أحدا من الملوك أن يتطرق الى بلاده وكان لهم على ذلك جرايات واقطاعات فاتفق انه وجد عليهم فى بعض السنين فمنعهم عن نسائهم لئلا يتوالدوا فعظم عليهم ولم يعرفوا وجها يقصدونه وتحيروا فاتفق ان اجتاز بهم قفل عظيم فيه الاموال

الكثيرة

وغيرها كالراحتيك كانه على المسك والكافور يهطل بالخمر فروح بشرب الراح روحك انها
انى تعب من وقعة البيض والسمر ودم لاقتناء الملك فى اكل المنى
وفى أرفع العليا وفى أطول العمر
(وأنشدنى أبو سعيد بن دوست فيه لنفسه)
للامير المظفر العلم العلما
دل فينا أبى المظفر نصر كرم فى شجاعة وسخاء
فى وفاء ودولة مع نصر ومعال لورامها بختنصر
يوم فخر أعيت على بختنصر فيه نقطع الخطوب وتفرى وبه تدفع الكروب وتصرى
وانتبذ الركض بالمنتصر الى محال الاتراك الغزية * وله
صغوا الى الدولة السامانية * فأخذتهم المذمة من خذلانه * وحركتهم الحمية لعونه على شانه * وتذاكروا بينهم شرف آل سامان وما تعرفوه قديما من بركات ذلك البيت القديم * والكرم العميم * وسار بهم مصعدا حتى لحق بايلك الخان وذلك فى شوال سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وعندها دلف ايلك للانتصار من المنتصر

الكثيرة والامتعة النفيسة فأخذوه وأحضروا التجار وقالوا لهم ان كنتم تريدون اموالكم فعرّفونا بلدا كثير المرعى فسيحا يسعنا ويسع أموالنا فاتفق رأى التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم فأعادوا اليهم اموالهم وأخذوا الموكلين الذين كانوا بهم لمنعهم عن نسائهم وكتفوهم وأخذوا نساءهم وساروا الى بلاساغون وكان ارسلان خان يغزوهم ويكثر جهادهم فخافوه خوفا عظيما فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصيني انضافوا اليه ايضا فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم وملكوا بلاد تركستان وكانوا اذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيأ بل يأخذون من كل بيت دينارا من اهل البلاد وغيرها من القرى وأما المزدرعات وغير ذلك فلاهلها وكل من أطاعهم من الملوك شدّ في وسطه شبه لوح فضة فتلك علامة من أطاعهم ثم ساروا الى بلاد ماوراء النهر فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد من حدود خجندة في رمضان سنة احدى وثلاثين وخمسمائة واقتتلوا فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد الى سمرقند فعظم الخطب على أهلها واشتد الخوف والحزن وانتظروا البلاء صباحا ومساء وكذلك اهل بخارا وغيرهما من بلاد ماوراء النهر وأرسل الخاقان محمود الى السلطان سنجر يستمده وينهي اليه ما لقي المسلمون ويحثه على نصرتهم فجمع العساكر فاجتمع عنده ملوك خراسان صاحب سجستان والغور وملك غزنة وملك مازندران وغيرهم فاجتمع اليه اكثر من مائة الف فارس وبقي العرض ستة اشهر وسار سنجر الى لقاء الترك فعبروا الى ماوراء النهر في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فشكا اليه محمود بن محمد خان من الاتراك القارغلية فقصدهم سنجر فالتجؤا الى كوخان الصيني ومن معه من الكفار وأقام سنجر بسمرقند فكتب اليه كوخان كتابا يتضمن الشفاعة في الاتراك القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم فلم يشفعه فيهم وكتب اليه يدعوه الى الاسلام ويهدده ان لم يجب اليه ويتوعده بكثرة عساكره ووصفهم وبالغ في قتالهم بانواع السلاح حتى قال وانهم يشقون الشعر بسهامهم فلم يرض هذا الكتاب وزير السلطان طاهر ابن فخر الملك بن نظام الملك فلم يصغ اليه وسير الكتاب فلما قرئ الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرسول وأعطاه ابرة وكلفه شق شعرة من لحيته فلم يقدر يفعل ذلك فقال كيف يشق غيرك شعرة بسهم وانت عاجز عن شقها بابرة واستعد كوخان للحرب وعنده جنود الترك والصين والخطا وغيرهم وقصد السلطان سنجر فالتقى العسكران وكانا كالبحرين العظيمين بموضع يقال له قطوان وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم الى واد يقال له دير غم وكان على ميمنة سنجر الامير قماج وعلى ميسرته ملك سجستان والابطال وراءهم فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكانت الاتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالا ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر احسن قتالا من صاحب سجستان فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين فقتل منهم ما لا يحصى من كثرتهم واشتمل وادي دير غم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى ومضى السلطان سنجر منهزما وأسر صاحب سجستان والامير قماج وزوجة السلطان سنجر وهي ابنة أرسلان خان فأطلقهم والحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري الفقيه الحنفي المشهور ولم يكن في الاسلام وقعة أعظم من هذه ولا اكثر ممن قتل فيها بخراسان واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بماوراء النهر وبقي كوخان الى رجب من سنة سبع

في جيوش الترك يستعر
في طلب الثار * استعار
النار * حتى أناخ بحدود
سمرقند وتناذرت الغزية
بائدامه وتآمروا بينهم
على بياته فتجمعوا للركض
عليه فخشوا الخيل * تحت
ظلام الليل * حتى كاد
لا تنتقش الارض بوطء
أقدامها * ولا تشعر النجوم
بأشخاص ألويتها وأعلامها
* حتى أوقعوا به وانتهبوا
جل سواده * وقبضوا على
جلة قواده * وانقلبوا بما
غنموه الى أوطانهم عند
حصول البغية * فاستأثروا
على المنتصر بالاسرى طمعا
في الفدية * ثم بلغ المنتصر
تنازعهم الامر بينهم في
موالاتهم ايلك عليه
وافراجهم عن الاسرى
تقربا اليه فرابه ذلك من
أمرهم ريبة لم تأخذه
الارض معها بقرار * ولم
تكتحل عينه عندها بغرار *
فاختار من جريدته قرابة
سبعمائة رجل ركبانا ورجالا *
خفافا وثقالا * وطاف على
المعابر فاذا النهر جامد *
وآمل الشط في البعد آمد *
ففرشوا النهر بأثبان الارز
حتى امكنهم من العبور
وتبعه الطلب فمنعهم خطر
المعبر من قصد المنتصر
وأرسل هو عند قراره يأمل
رسولا الى السلطان يمين

وثلاثين وخمسمائة فمات فيه وكان جميلا حسن الصورة لا يلبس الا الحرير الصيني له هيبة عظيمة على أصحابه ولم يسلط أميرا على اقطاع بل كان يعطيهم من عنده ويقول متى اخذوا الاقطاع ظلموا وكان لا يقدم أميرا على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه وكان ينهى اصحابه عن الظلم وينهى عن السكر ويعاقب عليه ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه وملك بعده ابنه فلم تطل مدتها حتى ماتت فملك بعدها امها زوجة كوخان وابنه محمد وبقي ماوراء النهر بيد الخطا الى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ما فعله خوارزم شاه بخراسان)

قد ذكرنا قبل قصة السلطان سنجر خوارزم وأخذها من خوارزم شاه انسز وعوده اليها وقتل ولد خوارزم شاه وانه هو الذي راسل الخطا وأطمعهم في بلاد الاسلام فلما اتيهم السلطان سنجر وعاد منهزما سار خوارزم شاه الى خراسان فقصد سرخس في ربيع الاول من السنة فلما وصل اليها لقي الامام أبا محمد الزيادي وكان قد جمع بين الزهد والعلم فأكرمه خوارزم شاه اكراما عظيما ورحل من عنده الى مرو الشاهجان فقصده الامام احمد الباخرزي وشفع في اهل مرو وسأل ان لا يعترض اليهم أحد من العسكر فأجابه الى ذلك ونزل بظاهر البلد واستدعى أبا الفضل الكرماني الفقيه واعيان أهلها فثار عامة مرو وقتلوا بعض اهل خوارزم شاه وأخرجوا اصحابه من البلد وأغلقوا ابوابه واستعدوا للامتناع فقاتلهم خوارزم شاه ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الاول من السنة وقتل كثيرا من أهلها وممن قتل ابراهيم المروزي الفقيه الشافعي وعلي بن محمد بن ارسلان وكان ذا فنون كثيرة من العلم وقتل الشريف علي بن اسحق الموسوي وكان رأس فتنة وملقح شر وقتل كثيرا من أعيان اهلها وعاد الى خوارزم واستصحب معه علماء كثيرا من اهلها *منهم ابو الفضل الكرماني وأبو منصور العبادي والقاضي الحسين بن محمد الاوسابندي وابو محمد الخرقي الفيلسوف وغيرهم ثم سار في شوال من السنة الى نيسابور فخرج اليه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور ما فعل بأهل مرو فأجابهم الى ذلك لكنه استقصى في البحث عن اموال اصحاب السلطان فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر اول ذي القعدة وخطب له فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزم شاه صاح الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يعود جديدا وانما منع الناس ذوو الرأي والعقل نظرا في العاقبة فقطعت الى اول المحرم سنة سبع وثلاثين فأعيدت خطبة السلطان سنجر ثم سير خوارزم شاه جيشا الى اعمال بيهق فأقاموا بها يقاتلون اهلها خمسة أيام ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون لبلاد وعملوا بخراسان اعمالا عظيمة ومنع السلطان من مقاتلة انسز خوارزم شاه لاجل قوة الخطا بماوراء النهر ومجاورتهم وملك خوارزم شاه هذه البلاد وغيرها من خراسان

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ملك اتابك ازنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة ونقل من كان بها من آل مهراش الى الموصل ورتب اصحابه فيها وفيها ايضا خطب لزنكي بمدينة آمد وصار صاحبها في طاعته

الدولة وأمين الملة وسيد كرة بحقوق سلفه عليه واشتداد الامر في انتيال العداة عليه وانه له بحيث يرتبه فيه طلعة له واخلاصا في هواه وأظهر الانقطاع الى كنف قبوله واشباله والاعتقار الى معونته بماله ورجاله واعتد من آمل الشط الى سولد مرو احتراسا من معرة الترك في العبور على الاطواف والفلك وأرسل الى أبي جعفر المعروف بخواهرزاده وكان ابوه رجلا من جملة الرعاع رفعه الزمان في دولة آل سامان يستقيه المعونة بما يفضل عن سعة يده من مال وسلاح فرد الرسول على غير وجه الحرية والارتياح بحكم الانسانية ولم يرض بالرد حتى خرج اليه مقاتلا وبالجفاء مقابلا فحمل اصحاب المنتصر عليه حملة فرقت جمعه جملة وتسدى مسافة أيور حتى ولاها في شهور سنة أربع وتسعين وثلثمائة وأوجب السلطان اكرام رسوله وتحقيق مأموله ووصله بصدر من المال يجبر خلته وخاطب ابن خواهرزاده بخدمته وتقمن مرضاته وترك الانحراف عن مراده فاضطر الامر الى طاعته حين شاعت سبة الخذل عليه واستطارت

وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكي فلما رأى قوة زنكي صار معه وفيها عزل مجاهد الدين بهروز عن شحنكية بغداد ووليها قزل أميرآخور وهو من مماليك السلطان محمود وكان له بيروبرد والبصرة فأضيف اليه شحنكية بغداد ثم وصل السلطان الى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ملساءه فأعاد بهروز الى الشحنكية فتاب كثير منهم ولم ينتفع الناس بذلك لان ولد الوزير واخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر بهروز على منعهم وفيها تولى عبد الرحمن طغايرك حجبة السلطان واستولى على المملكة وعزل الامير تير الطغرلي عنها وآل أمره الى أن مشى فى ركاب عبد الرحمن وفيها توفى ابراهيم السماوى مقدم الاسماعيلية فأخرجه ولد عباس صاحب الرى فى تابوته وفيها توفى كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن وعاد وقد لبس ثياب الصوفية وتخلى عن جميع ما كان عليه وأقام فى داره مرعى الجانب محروس القاعدة وفيها وصل السلطان الى بغداد وكان الوزير الزينبي بدار السلطان كما ذكرناه فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة الى داره فأرسل السلطان وزيره الى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبي وشفع ان يعود الى داره فأذن له فى ذلك وأعاد أخاه الى نقابة النقباء فلزم الوزير داره ولم يخرج منها الا الى الجامع وفيها أغار عسكر أتابك زنكي من حلب على بلاد الفرنج فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسرية الفرنج فقتلوا فيهم واكثروا فكان عدة القتلى سبعمائة رجل وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق فسير السلطان مسعود سرية اليهم من العسكر فنهبوا حلتهم وقتلوا من ظفروا به منهم وعادوا سالمين وفيها سير رجار الفرنجي صاحب صقلية اسطولا الى أطراف افريقية فأخذوا مراكب سيرت من مصر الى الحسن صاحب افريقية وغدر بالحسن ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لاجل حمل الغلات من صقلية الى افريقية لان الغلاء كان فيها شديدا والموت كثيرا وفيها توفى ابو القاسم عبد الوهاب ابن عبد الواحد الحنبلي الدمشقي وكان عالما وفيها توفى ضياء الدين ابو سعيد الكفرتوثي وزير أتابك زنكي وكان حسن السيرة فى وزارته كريما رئيسا وفيها توفى أبو محمد بن طاوس امام الجامع بدمشق فى المحرم وكان رجلا صالحا فاضلا وفيها توفى أبو القاسم اسمعيل بن احمد بن عمر بن أبي الاشعث المعروف بابن السمرقندي ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربعمائة وكان مكثرا من الحديث عالى الرواية

(ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر ملك عماد الدين أتابك زنكي قلعة اشب وغيرها من الهكارية)

فى هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشا الى قلعة اشب وكانت أعظم حصون الاكراد الهكارية وأمنعها وبها أموالهم وأهلهم فحصروها وضيقوا على من بها فملكوها فأمر باخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعمادية عوضا عنها وكانت هذه القلعة العمادية حصنا عظيما من حصونهم فخربوه لكبره لانه كبير جدا وكانوا يعجزون عن حفظه فخربت الآن اشب وعمرت العمادية وانما سميت العمادية للنسبة الى لقبه وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية

(ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب)

شاد شحنة اليوم بجنديه * وقد كان أبو نصر نصر بن محمود الحاجب لما تسامع بقدوم راية المنتصر مالأه على صاحبه * وأظهر الانقطاع الى جانبه * وأقام له الخطبة بنسا مظهرا لطاعته * ومستنفذا فى نصرته جهده واستطاعته * ولما أحس أهل نسا برأى أبي نصر فى اتباع راية الخلافة أشفقوا على أنفسهم من عاقبة الاتهام بموالاته * والاشتراك فى جنايته * فكاتبوا خوارزم شاه مستحثين عليه فانهض أبو الفضل الحاجب أحد أعيان ذلك الباب الرفيع لازالة شره * وكفاية أمره * ومال ابو نصر بن محمود الى المنتصر فنضاخرت العده * وتوافرت العده * وصدر الى خبوشان من رستاق استواء وناهضهم أبو الفضل فى رجال خوارزم شاه فاتفق التقاؤهم فى الحرب ليلا بمرأى من النجوم الشوابك حيث لا يدرى الضارب مضروبه * ولا يبصر الراكب مركوبه * واختلط الفارس بالراجل * والتارس بالنابل * وتضاربوا ما بين الشوى والمقاتل وتطاعنوا اسلكى ومخاوجة كل الا مين على نابل وتصدع شمل الفريقين

قبل ان صافح الليل صباحه * ونفض النجم على الغرب وشاحه * فلم يشعر أحد بما جنته يد الظلام على كماة ذلك الجيش اللهام * حتى اذا استفاض ضوء النهار فاذا ابن محمود قتيل وابن حسام الدولة أبي العباس تاش الى جنبه صريع وتفرق الباقون عباديد * بين أقطار المهامه والبيد * ووقع المنتصر الى اسفراين فمانعه أهلها حذار المحنه * وخيفة الهرج والفتنه * فانثنى على أدراجه في شرذمة من أصحابه يقطع الارض طولا وعرضا حتى انتهى الى بعض حدود سرخس فأقام هنالك ريثما تلاحق به الفل وسار حتى عبر النهر من ساحل قطنان وبرز ثمنة بخارا في طلبه * وسدوا عليه وجوه مهربه * فركب عزيمة الرجال في ثبات القوم وثبت بعضهم للبعض جلادا بالدبابيس والحراب * واغمادا للسيوف في قراب الرقاب * فخذ المنتصر في الامر واشتد * ونجا برأسه ولم يكد * وصار القوم الى دبوسية من السغد * مستنجدين من بها من العمال * وتفاريق الرجال * ووقع المنتصر الى ثغر النور من بخارا وركض منها على هم وكضة اقتسمتهم بين اجتياح واحتناك واصطلام

وفي هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية الى طرابلس الغرب فحصروها وسبب ذلك ان أهلها في أيام الامير الحسن صاحب أفريقية لم يدخلوا أبدا في طاعته ولم يزالوا مخالفين مشاقين له قد قتلوا عليهم من بني مطروح مشايخ يدبرون أمرهم فلما رآهم صاحب صقلية كذلك جهز اليهم جيشا في البحر فوصلوا اليهم تاسع ذي الحجة فنازلوا البلد وقاتلوه وعلقوا الكلاليب في سوره ونقبوه فلما كان الغد وصل جماعة من العرب فنجدوا لاهل البلد فقوي أهل طرابلس بهم فخرجوا الى الاسطول فحملوا عليهم حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالاسطول وتركوا الاسلحة والاثقال والدواب والآلات فنهبها العرب واهل البلد ورجع الفرنج الى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا الى المغرب فوصلوا الى جيجل فلما رآهم اهل البلد هربوا الى البراري والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة خرج حسن أمير الامراء على السلطان سنجر بخراسان وفيها توفي محمد بن دانشمند صاحب ملطية والثغور واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وهو من السلجوقية وفيها خرج من الروم عسكر كثير الى الشام فحصروا الفرنج بانطاكية فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم وأصلح حاله معه وعاد الى مدينته ومات في رمضان من هذه السنة ثم ان ملك الروم بعد أن صالح صاحب انطاكية سار الى طرابلس فحصرها ثم سار عنها وفيها قبض السلطان مسعود على الامير ترشك وهو من خواص الخليفة ومن ربي عنده وفي داره فساء ذلك الخليفة ثم أطلقه السلطان حفظا لقلب الخليفة وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك منه اكثر البلاد

(ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر صلح الشهيد السلطان مسعود وأتابك زنكي)

في هذه السنة وصل السلطان مسعود الى بغداد على عادته في كل سنة وجمع العساكر وتجهز لقصد اتابك زنكي وكان حقد عليه حقدا شديدا وسبب ذلك ان اصحاب الاطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ما تقدم ذكره فكان ينسب ذلك الى اتابك زنكي ويقول هو الذي سعى فيه وأشار به لعلمه انهم كلهم كانوا يصدرون عن رأيه فكان اتابك زنكي لا شك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره فلما تفرغ السلطان هذه السنة جمع العساكر ليسيروا الى بلاده فغير اتابك يستعطفه ويستميله فأرسل اليه السلطان أبا عبد الله بن الانباري في تقرير القواعد فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار يحملها الى السلطان ليعود عنه فحمل عشرين ألف دينارا اكثرها عروض ثم تنقلت الاحوال بالسلطان الى ان احتاج الى مداراة اتابك وأطلق له الباقي استمالة له وحفظا لقلبه وقعود السلطان عنه كان سببه حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله ومن جيد الرأي ما فعله الشهيد في هذه الحادثة فانه كان ولده الاكبر سيف الدين غازي لا يزال عند السلطان مقيما ومحضرا بأمر والده فأرسل اليه ثمانية وأرسل اليه نائبه بها نصير الدين جقر فيقول له ليمنعه عن الدخول

الى الموصل والوصول اليه فهرب غازى وبلغ الخبر والده فأرسل اليه يأمره بالعودة الى السلطان ولم يجتمع به وأرسل معه رسولا الى السلطان يقول له ان ولدى هرب خوفا من السلطان لما رأى تغيره على وقد أعدته الى الخدمة ولم أجتمع به فانه مملوكك والبلاد لك فحل ذلك من السلطان محلا عظيما

(ذكر ملك اتابك بعض ديار بكر)

وفى هذه السنة سار اتابك زنكى الى ديار بكر ففتح منها عدة بلاد وحصون فمن ذلك مدينة طنزة ومن ذلك مدينة أسعرد ومدينة حيزان وحصن الدوق وحصن مطليس وحصن باتسينة وحصن ذى القرنين وغير ذلك مما لم يبلغ غيره هذه الاماكن وأخذ أيضا من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج حاين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين ورتب امورا لجميع وخلى فيها من الاجناد من يحفظها وقصد مدينة آمد وحاتى حصرهما وأقام بتلك الناحية مصطلما لما فتحه ومحصرا لما لم يفتحه

(ذكر أمر العيارين ببغداد)

وفى هذه السنة زاد أمر العيارين وكثر لامنهم من الطلب بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخى زوجة السلطان لانهما كان لهما نصيب من الذى يأخذه العيارون وكان النائب فى شحنكية بغداد مملوكا اسمه ايلدكز وكان صارما مقداما ظالما فحمله الاقدام الى أن حضر عند السلطان فقال له السلطان ان السياسة قاصرة والناس قد هلكوا قال يا سلطان العالم اذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا مرأتك فأى قدرة لى على المفسدين وشرح له الحال فقال له الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا وتصلبهما ان فعلت والا صلبتك فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده فأخذ من كان عنده وكبس على ابن قاورت فأخذه وصلبه فأصبح الناس وهرب ابن الوزير وشاع الامر ورؤى ابن قاورت مصلوبا فهرب اكثر العيارين وقبض على من أقام وكفى الناس شرهم

(ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه)

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين مسير سنجر الى خوارزم وملكه لها وعود اتسز خوارزم شاه اليها وأخذها وما كان منه بخراسان بعد ذلك فلما كان فى هذه السنة سار السلطان سنجر الى خوارزم شاه فجمع خوارزم شاه عساكره وتحصن بالمدينة ولم يخرج منها للقتال لعلمه انه لا يقوى لسنجر وكان القتال يجرى بين الفريقين من وراء السور فاتفق فى يوم من بعض الايام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الغربى فلم يبق غير ملكه قهرا وعنوة وكان سنقر التاجى هجم من الشرق فانهزم سنقر عن البلد وبقى سنقر وحده فى البلد فقوى عليه خوارزم شاه اتسز فأخرجه من البلد وبقى سنجر وحده واشتد فى حفظه فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه عزم على العود الى مرو ولم يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما فاتفق ان خوارزم شاه أرسل رسلا يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود الى ما كان عليه من الانقياد فأجابه الى ذلك واصطلحا وعاد سنجر الى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم

(ذكر عدة حوادث)

واجتثاث ومالاءه المعروف بابن علم دار ورئيس الفتيان بسمرقند فأتاه فى ثلاثة آلاف رجل وتقرب اليه مشايخ أهلها بثلثمائة علمه على سبيل بر وخدمه ووصلوا بها كرامات تضاهيها ونثارات تدل على اخلاصهم فيها ونوافى اليه الغزية فاشتعلت جذوته وتراجعت قوته ولما سمع ايلك الخان باحتداد شوكته واشتداد وطأته زحف اليه فى احلاس الذكور من ديارات الترك واشتبكت الحرب بينهم بيورغد حتى نفدت النبال وتكسرت النصال وتحطمت السمر الطوال وخان الخان مقامه وانفض عنه أقوامه فاستقفاه الغزية فى طلاب الاسلاب حتى بردت أيديهم بالسبايا والنهاب والغنائم الرغاب وذلك فى شعبان سنة أربع وتسعين وثلثمائة وعاود الخان أرض الترك فضم النشر ونادى فحشر ثم كر على ثاره وبث على المنتصر شرر ناره ووافق اقباله تراجع الغزية الى أوطانهم بما نهبوه على عاداتهم فى كل ما غنموه واستأنف الحرب على فضاء بين قسريتى دزك وخاوس من أسروشنة فاستنام المعروف كان بالحسن بن طاق الى الخان

في هذه السنة سير اتابك زنكي عسكرا الى مدينة عانة من اعمال الفرات فملكوها وفيها في المحرم توفي أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن احمد الانماطي الحافظ ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين واربعمائة * وفيها توفي ابو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد الاسفرايني الواعظ من اهل اسفرايين من خراسان وأقام مدة ببغداد يعظ وسار الى خراسان فلما مات حضر الغزنوي عزاءه ببغداد وبكى واكثر فقال بعض أصحاب أبي الفتوح للغزنوي كلاما أغاظه فيه فلما قام الغزنوي لامه بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له كنت مهاجرا لهذا الرجل فلما مات حضرت عزاءه واكثرت البكاء واظهرت الحزن قال كنت ابكي على نفسي كان يقال فلان وفلان فمن بعدم النظير أيقن بالرحيل وأنشد هذه الابيات

ذهب المبرد وانقضت أيامه * وسينقضي بعد المبرد ثعلب
بيت من الآداب أصبح نصفه * خربا وباق نصفه فسيخرب
فتزودوا من ثعلب فبمثل ما * شرب المبرد عن قليل يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه * ان كانت الانفاس مما يكتب

وفيها توفي الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي في رمضان معزولا ودفن بداره بباب الازج ثم نقل الى الحريمة وفيها توفي أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي المفسر وزمخشر احدى قرى خوارزم

(ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة)

(ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية)

في هذه السنة سادس جمادى الآخرة فتح اتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة الرها من الفرنج وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضا وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها ووصلت غاراتهم الى اداني أقاصيها وبلغت آمد ونصيبين وراس العين والرقة وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين الى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وسن ابن عطية وحلين والموزر والقرادي وغير ذلك وكانت هذه الاعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين وكان صاحب رأي الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر وكان اتابك يعلم انه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه ملكها لما هي عليه من الحصانة فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج انه غير متفرغ الى قصد بلادهم فلما رأوه انه غير قادر على ترك الارتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث انه محارب لهم اطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات الى بلاد الفرنجية فجاءت عيون اتابك اليه فأخبروه الخبر فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وجمع الامراء عنده وقال قدموا الطعام وقال لا يأكل معي على مائدتي هذه الا من يطعن غدا معي بباب الرها فلم يتقدم اليه غير أمير واحد وصبي لا يعرف لما يعلم من اقدامه وشجاعته وان أحدا لا يقدر على مساواته في الحرب فقال الامير لذلك الصبي ما أنت في هذا المقام فقال اتابك دعه فوالله اني أرى وجها لا يتخلف عني وسار والعساكر معه ووصل الى الرها وكان هو أول من حمل على الفرنج وحمل ذلك الصبي وحمل فارس من خيالة الفرنج على اتابك عرضا فاعترضه ذلك الامير

في زهاء خمسة آلاف رجل من رفقائه عند اتقاد جمرات المصاع * واشتداد زفرات القراع * فاضطر المنتصر الى الانهزام * وحكم الخذلان في أهل عسكره سيوف الانتقام * حتى رويت الارض من دمائهم * وشبعت النسور من اشلائهم * وسار المنتصر الى شط جيحون فعبر على العمد لعدم السفائن وخلو المعابر ومضى الى اندخوز من أرض جوزجان * محترسا من ركضة الخذلان * وأمر باستباق الدواب الراعية بها واقتسامها بين أهل جملته فركب المفازة الى قنطرة زاغول ولما بلغ السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * خبره أسرع الانحدار الى بلخ لا يجاله * عن تفاقم أمره واستفحاله * واتبعه بفريغون بن محمد في أربعين قائدا من قواده * لطرد سواده * وحصد فساده * فأعجزهم المنتصر وسار الى الجنابذ من قهستان ضروره * اذ كانت جيوب عليه مزروره * حيث أم شهرت عليه السيوف * واين ألم احدقت به الحتوف * وداف اليه صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين في طغانجق والى سرخس وأرسلان الجاذب

فطعنه فقتله وسلم الشهيد ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما فزحف اليه عدة دفعات وقدم النقابين فنقبوا سور البلد وبخ في قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير اليه واستنقاذ البلد منه فسقطت البدنة التي نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهرا وسصر قلعته فملكها أيضا ونهب الناس الاموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال فلما رأى اتابك البلد أعجبه ورأى ان تخريبه مثله لا يجوز في السياسة فامر فنودي في العساكر بردّ ما أخذوه من الرجال والنساء والاطفال الى بيوتهم واعادة ما غنموه من اثاثهم وامتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شيء الا الشاذ النادر الذي أخذ وفارق من اخذه العسكر فعاد البلد على حاله الاول وجعل فيه عسكرا يحفظه وتسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفراة ما عدا البيرة فانها حصينة منيعة وعلى شاطئ الفرات فسار اليها وحصرها وكانوا قد اكثروا ميرتها ورجالها فبقي على حصارها الى أن رحل عنها على ما نذكره ان شاء الله تعالى (حكى) ان بعض الحكماء بالانساب والتواريخ قال كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الاعمال فنهبوا وقتلوا وكان بصقلية انسان من العلماء المسلمين وهو من أهل الصلاح وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ويرجع الى قوله ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان وكان أهل ولايته يقولون انه مسلم بهذا السبب ففي بعض الايام كان جالسا في منظرة تشرف على البحر واذا قد أقبل مركب لطيف واخبره من فيه ان عسكره دخل بلاد الاسلام وعثوا وقتلوا وظفروا وكان المسلم الى جانبه وقد اغفى فقال له الملك يا فلان أما تسمع ما يقولون قال لا قال انهم يخبرون بكذا وكذا أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها فقال له كان غائبا عنهم وشهد فتح الرها وقد فتحها المسلمون الآن فضحك منه من كان هناك من الفرنج فقال الملك لا تضحكون فوالله ما يقول الا الحق فبعد أيام وصلت الاخبار من فرنج الشام بفتحها * وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح ان انسانا صالحا رأى الشهيد في النوم فقال له ما فعل الله بك قال غفر لي بفتح الرها

(ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين على كوجك قلعة الموصل)

في هذه السنة في ذي القعدة قتل نصير الدين جقر نائب اتابك زنكي بالموصل والاعمال جميعها التي شرقي الفرات وسبب قتله ان الملك الب ارسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان محمود كان عند اتابك الشهيد وكان يظهر للخفاء والسلطان مسعود واصحابه بالاطراف ان هذه البلاد لهذا الملك وانا نائبه فيها وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة ويملك البلاد باسمه وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمة ان عرضت له فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقال له ان قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها من البلاد ولا يبقى مع اتابك زنكي فارس واحد فوقع هذا منه موقعا حسنا وظنه صدقا فلما دخل نصير الدين اليه وثب عليه من عنده من اجناد اتابك وممالكه فقتلوه وألقوا برأسه الى أصحابه ظنا منهم ان اصحابه يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلد وكان الامر بخلاف ما ظنوه فان اصحابه واصحاب اتابك الذين في خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير وكانت دولة اتابك مملوءة بالرجال والاجناد ذوي الرأي والتجربة ثم دخل اليه القاضي

والى طوس يحثون الظهور في الطلب * ويتزفون علاتها بين الركض والخبب * فتاتهم الى جومند ومنها الى بسطام فرماه شمس المعالي قابوس بن وشمكير بزهاء ألفين من الاكراد الشاهجانية فأزعجوه عنها الى بيارد راجعا باللوم على من لقنه الاقتحام * ولما ضاقت عليه المذاهب * وأحاطت به المعاطب * بادر الى كورة نسا بدار من لا يمكث بدار * ولا يوطئ الارض جنب قرار * وتلقاه ابن سرخاب السامانى بكتاب يزين له الانتقال اليه لمضامنه على ايالة الخان موارية وموارام * ومطابقة للخلاف عليه ومواطاة * فنازعته نفسه تقديم اجابته طمعا في وفائه * وتأميلا لعونه على ذمائه * فركب الخطار وسار حتى اذا بلغ بئر حماد من مفازة آمل سبقه خيله الى الشط فوافق ذلك جمود جيحون فاغتمروا مفارقته خلاصا مما منوا به من مكابدة الاسفار * وعدم الاستقرار * ووصل سهر الليل بدأب النهار * وتشاوروا في العبور الى سليمان الحاجب وصافي حاجبي ايالك الخان فعبروا اليهما وعرفوهما ان السامانى بالقرب وأن

تاج الدين يحيى بن الشهرزورى ولم يزل به يخدعه وكان فيما قال له لما رآه منزعجا يا مولانا لم تحرد من هذا الكلب هذا واستاذه مما يملكك والحمد لله الذى اراحنا منه ومن صاحبه على يدك وما الذى يقعدك فى هذه الدار قم لتصعد القلعة وتاخذ الاموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون الموصل مانع فقام معه وأصعده القلعة فلما قاربها اراد من يمنعه من النقيب والاجناد القتال فتقدم اليهم القاضى تاج الدين وقال لهم افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا به ما اردتم ثم فتح الباب ودخل الملك والقاضى اليها ومعهما من اعان على قتل نصير الدين فصعدوا ونزل القاضى وبلغ الخبر اتابك زنكى وهو يحاصر قلعة البيرة وقد اشرف على ملكها فخاف ان تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ففارق البيرة وارسل زين الدين على بن بكتكين الى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجردى ووزر بعده المرزبان بن عبيد الله ابن نصر الاصفهانى وسلم اليه البروجردى فاستخرج امواله ومات مقبوضا وفيها كان اتابك عماد الدين زنكى يحاصر البيرة وهى للفرنج شرقى الفرات بعد ملك الرها وهى من امنع الحصون وضيق عليها واوشك ان يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وارسل نائبا الى الموصل واقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيرة من الفرنج ان يعود اليهم وكانوا يخافونه خوفا شديدا فارسلوا الى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها له فملكها المسلمون وفيها خرج اسطول الفرنج من صقلية الى ساحل افريقية والغرب ففتحوا مدينة برشك وقتلوا اهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين وفيها توفى تاشفين بن على بن يوسف صاحب المغرب وكانت ولايته تزيد على اربع سنين وولى بعده اخوه وضعف امر الملثمين وقوى عبد المؤمن وقد ذكرنا ذلك سنة اربع عشرة وخمسمائة وفيها فى شوال ظهر كوكب عظيم له ذنب من جانب المشرق وبقى الى نصف ذى القعدة ثم غاب ثم طلع من جانب الغرب فقيل هو هو وقيل بل غيره وفيها كانت فتنة عظيمة بين الامير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوى الحسينى امير مكة والامير نظر الخادم امير الحاج فنهب اصحاب هاشم الحجاج وهم فى المسجد يطوفون ويصلون ولم يرقبوا فيهم الا ولا ذمة وفيها فى ذى الحجة توفى عبد الله احمد بن محمد بن عبد الله بن حمدويه أبو المعالى المروزى بمرو وسافر الكثير وسمع الحديث الكثير وبنى بمرو رباطا ووقف فيه كتبا كثيرة وكان كثير الصدقة والعبادة وتوفى محمد بن عبد الملك بن حسن بن ابراهيم بن خيرون ابو منصور المقرى فى رجب ومولده فى رجب سنة اربع وخمسين واربعمائة وهو آخر من روى عن الجوهرى بالاجازة وفى ذى الحجة منها توفى ابو منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين واربعمائة وتفقه على الغزالى والشاشى ودفن فى تربة الشيخ ابى اسحق

(ثم دخلت سنة اربعين وخمسمائة)

(ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان)

الهم قد طحطحته * والحوادث قد طحطحته * فهو خلسة الطامع ونهزة الطالب * وطعمة الانياب والمخالب * فلم يشعر أبو ابراهيم الا بالخيل محدقة فطاردهم ساعة ثم ولاهم ظهر الفرار وقبض على أخويه وخاصتهما برباط بشرى * وحملوا الى أوزكند أسرى * وأحل المنتصر هربه حلة ابن بهيج الاعرابى من جملة العرب السيارة فى تلك المفازة * ليقضى الله أمرا كان مفعولا وكان المعروف بأبى عبد الله ما روى بغدادا من جهة السلطان يمين الدولة فيهم وقد أوصاهم بالقعود له بكل مرصد * واذكاء العيون عليه عند كل مورد * فلما لبس الليل جلدة الغبش * وعرض على النجوم جيش الحبش * وثب أهل تلك الحلة على المنتصر جهلا منهم بقدره وغباوة * وقساوة وشقاوة * وأخفروا حق مقدمه * وأحلوا الارض حرام دمه * فكأنما عناه أبو تمام حبيب بن أوس الطائى حيث يقول

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة
تقوم مقام النصر اذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه

في هذه السنة سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره الى قاشان ومعه الملك محمد ابن السلطان محمود ووصل اليهما الملك سليمان شاه بن السلطان محمد واجتمع بوزابة والامير عباس صاحب الري واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيرا من بلاده ووصل الخبر اليه وهو ببغداد ومعه الامير عبد الرحمن طغايرك وهو أمير حاجب حاكم في الدولة وكان ميله اليهما فسار السلطان في رمضان عن بغداد ونزل بها الامير مهلهل ونظر وجماعة من غلمان بهروز وسار السلطان وعبد الرحمن معه فتقارب العسكران ولم يبق الا المصاف فلحق سليمان شاه باخيه مسعود وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي ارادوها واضيف الى عبد الرحمن ولاية اذربيجان وارانية الى ما بيده وصار ابو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود وهو وزير بوزابة فصار السلطان معهم تحت الحجر وارسلوا ايلك ارسلان بن بلنكري المعروف بخاص بك وهو ملازم السلطان وتربيته وصار في خدمته عبد الرحمن ايضا قد مه وصار الجماعة في خدمة السلطان بالصورة لا بالمعنى والله اعلم

(ذكر استيلاء علي بن دبيس بن صدقة على الحلة)

في هذه السنة سار علي بن دبيس الى الحلة فهاربا فملكها وكان سبب ذلك ان السلطان لما اراد الرحيل من بغداد اشار عليه مهلهل ان يحبس علي بن دبيس بقلعة تكريت فعلم ذلك فهرب في جماعة يسيرة نحو خمسة عشر فمضى الى الانبار وجمع بني اسد وغيرهم وسار الى الحلة وبها اخوه محمد بن دبيس فقاتله فانهزم محمد وملك علي الحلة واستهان السلطان امره اولا فاستفحل وضم اليه جمعا من عمالته وغلمان ابيه واهل بيته وعساكرهم وكثر جمعهم فسار اليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر وضربوا معه مصافا فكسرهم وعاد وامنهزمين الى بغداد وكان اهلها يتعصبون لعلي بن دبيس وكانوا يصيحون اذا رأوا مهلهلا وبعض اصحابه يا علي كله وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب وصد علي يده في اقطاع الامراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنة بغداد ومن فيها الى وصل منه وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور لحفظه وراسل عليا فاعاد بانني العبد المطيع مهما رسم لي فعلت فسكن الناس ووصلت الاخبار بعد ذلك ان السلطان مسعودا تفرق خصومه عنه فازداد سكون الناس لذلك

(ذكر عدة حوادث)

حج بالناس هذه السنة قايماز الارجواني صاحب أمير الحاج نظر واحتج نظر بان بركة نهب في كسرة الحلة وان بينه وبين أمير مكة من الحروب ما لا يمكنه معه الحج وفيها اتصل بالخليفة عن اخيه ابي طالب ما كرهه فضيق عليه واحتاط على غير من اقاربه وفيها ملك الفرنج لعنهم الله مدينة شنترين وماجة وماردة واشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الاندلس وكانت للمسلمين فاختلفوا فطمع العدو واخذ هذه المدن وقوى بها قوة تمكن وتيقن ملك بلاد الاسلام بالاندلس فخيب الله ظنه وكان ما نذكره وفيها سار اسطول الفرنج من صقلية ففتحوا جزيرة قرقنة من افريقية فقتلوا رجالها وسبوا حريمهم فأرسل الحسن صاحب افريقية الى ريجار ملك صقلية يذكره بالعهود التي بينهم فاعتذر بانهم غير مطيعين له وفي هذه السنة توفي مجاهد الدين بهروز الغياثي وكان حاكما بالعراق نيفا وثلاثين سنة وبرتقش الزكوي صاحب اصفهان وكان

من الضرب واعتل عليه
القنا السمر
فأثبت في مستنقع الموت
رجله
وقال لها من تحت أخصمك
الحشر
غدا غدوة والجد نسج ردائه
فلم ينصرف الا وأكفانه
الأجر
مضى طاهر الانواب لم تبق
روضة
غداة ثوى الا اشتهت انها القبر
عليك سلام الله وقفا فاني
رأيت الكريم الحر ليس له عمر
ثم نقل قالبه الى قرية ماى
مرغ من رود بارزم ودفن
بها في شهر ربيع الاول سنة
خمس وتسعين وثلثمائة
وبلغ السلطان يمين الدولة
وأمين الملة خبره فأمر
بالقبض على البندار
واذاقته حر الانكار
وشن الغارة على حلة ابن
بهيج الاعرابي خاصة
وعلى سائر العرب السيارة
عامة فصارت جمرة آل
سامان رمادا تذروه الرياح
وكان الله على كل شئ
مقتدرا

*(ذكر الامراء السامانية
ومقادير ايامهم من حيث
نجمت دولتهم الى أن ورثها
السلطان يمين الدولة وأمين
الملة)*

كان ملك آل سامان

ايضا شحنه بالعراق وهو خادم ارمى لبعض التجار وتوفى الامير ايلدكز شحنة بغداد والشيخ ابو منصور موهوب بن احمد بن الخضر الجواليقى اللغوى ومولده فى ذى الحجة سنة خمس وستين واربعمائة واخذ اللغة عن أبى زكريا التبريزى وكان يؤم بالمقتفى أمير المؤمنين وتوفى احمد بن محمد ابن الحسن بن على بن أحمد بن سليمان أبو سعيد بن ابى الفضل الاصفهانى ومولده سنة ثلاث وستين وأربعمائة وروى الحديث الكثير وكان على سيرة السلف كثير الاتباع للسنة رحمة الله عليه

(ثم دخلت سنة احدى وأربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب)

فى هذه السنة ملك الفرنج لعنهم الله طرابلس الغرب وسبب ذلك ان رجارملك صقلية جهز اسطولا كثيرا وسيره الى طرابلس فاحاطوا بها برا وبحرا ثالث المحرم فخرج اليهم اهلها وانشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة ايام فلما كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجة عظيمة وخلت الاسوار من المقاتلة وسبب ذلك ان اهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بايام يسيرة قد اختلفوا فاخرج طائفة منهم بنى مطروح وقدموا عليهم رجلا من الملثمين قدم يريد الحج ومعه جماعة فولوه أمرهم فلما نازلهم الفرنج اعادت الطائفة الاخرى بنى مطروح فوقع الحرب بين الطائفتين وخلت الاسوار فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فملكت الفرنج المدينة عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء اهلها وسبوا نساءهم واخذوا اموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ الى البربر والعرب فنودى بالامان فى كافة الناس فرجع كل من فر منها واقام الفرنج ستة اشهر حتى حصنوا سورها وحفروا اخنادقها ولما عادوا اخذوا ارهائن أهلها ومعهم بنو مطروح والملثم ثم اعادوا رهائنهم وولوا عليها رجلا من مطروح واخذوا رهائنه وحده واستقامت امور المدينة والزم اهل صقلية والسفن والروم بالسفر اليها فانعمرت سريعا

(ذكر حصر زنكى حصن جعبر وفتحه)

وفى هذه السنة سار اتابك زنكى الى حصن جعبر وهو مطل على الفرات وكان بيد سالم بن مالك العقيلى سلمه السلطان ملكشاه الى ابيه لما اخذ منه حلب وقد ذكرنا خبره وسير جيشا الى قلعة دمك وهى تجاور جزيرة ابن عمر بينهما فرسخان فحصرها أيضا وصاحبها حينئذ الامير حسام الدين السكردى البشنوى وكان سبب ذلك انه كان لا يريد ان يكون فى وسط بلاده ماهو ملك غيره حزما واحتياطا فنازل قلعة جعبر وحصرها وقاتله من بها فلما طال عليه ذلك ارسل الى صاحبها مع الامير حسان المنبجى لمودة كانت بينهما فى معنى تسليمها وقال له تضمن عنى الاقطاع الكثير والمال الجزيل فان اجاب الى التسليم والا فقل له والله لاقعدن عليك الى ان املكها عنوة ثم لا ابقى عليك ومن الذى يمنعك منى فصعد اليه حسان وادى اليه الرسالة ووعده وبذل له ماقيل له فامتنع من التسليم فقال له حسان فهو يقول لك من يمنعك من قتالى ومن يمنعك منى فقال يمنعنى منه الذى منعك من الامير بلك فعاد حسان واخبر الشهيد بامتناعه ولم يذكر له هذا فقتل اتابك بعد ايام وكانت قصة حسان مع بلك ابن اخى ايلغازى ان حسانا كان صاحب منبج فحصره بلك وضيق عليه فبينما هو كذلك فى بعض الايام يقاتله جاءهم لا يعرف من رماه فقتله وخلص

بما وراء النهر وبلاد خراسان بما ينضاف اليها فى الوقت بعد الوقت من كور سجستان وكرمان وجرجان وطبرستان والرى الى حدود أصفهان مائة سنة وسنتين وستة أشهر وعشرة أيام فأولهم (أبو ابراهيم اسمعيل) بن أحمد وهو الذى قبض على عمرو بن الليث بناحية بلخ يوم الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين وولى خراسان ثمان سنين ومضى لسبيله ببخارا ليلة الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة خمس وتسعين ومائتين منعوتا بالعدل والرافه * موسوما بطاعة الخلافه * وقام بعده (أبو نصر أحمد) ابن اسمعيل فملك ست سنين وثلاثة أشهر وقتل به نفر من غلمانه بفرغانة ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان مقتديا بأبيه فى ايثار النصفه واختيار الاحدوثة الحسنة اقتداء الابناء بالآباء فى اختيار أفضل السنن * واتباع أحمد السنن * الى أن طوت الدنيا صحائف أيامهم كما دتم انى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا وستمد الشهيد (أبو الحسن نصير بن أحمد)

حسان من الحصر وقد تقدم ذكره وكان هذا القول من الاتفاق الحسن والما قتل اتابك زنكى
رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها وهى بيد عقاب صاحبها الى الآن وسمعتهم
يذكرون انهم لهم بها نحو ثلثمائة سنة ولهم مقصد حسن وفيهم وفاء وعصبية ياخذون بيد كل
من يلتجئ اليهم ويقصدهم ولا يسلمونه الى طالبه كائنا من كان قريبا ام غريبا

(ذكر قتل اتابك عماد الدين زنكى وشئ من سيرته)

فى هذه السنة الخمس مضين من ربيع الآخر قتل اتابك الشهيد عماد الدين زنكى بن آقسنقر
صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر على ما ذكرناه قتله جماعة من مماليكه ليلا غيلة
وهربوا الى قلعة جعبر فصاح على من بها من اهلها من العسكر يعلمونهم بقتله واظهروا الفرح
فدخل اصحابه اليه فادركوه وبه رمق (حدثنى والدى) عن بعض خواصه قال دخلت اليه فى
الحال وهو حى فحين رآنى فطن انى اريد قتله فاشار الى باصبعه السبابة يستعطفنى فوقعت من
هيبته فقلت يا مولاى من فعل هذا فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله قال وكان
حسن الصورة اسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان قد زاد عمره على ستين سنة
لانه كان لما قتل والده صغيرا كما ذكرناه قبل ولما قتل دفن بالرقة وكان شديد الهيبة على عسكره
ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوى على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل ان يملكها خرابا من
الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها واهلا وسكانا (حكى لى والدى) قال
رأيت الموصل واكثرها خراب بحيث يقف الانسان قريب محلة الطيالين ويرى الجامع العتيق
والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة قط وكان الانسان لا يقدر على المشى الى الجامع
العتيق الا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة وهو الآن فى وسط العمارة وليس فى هذه البقاع
المذكورة كلها ارض مراح قال وحدثنى أيضا انه وصل الى الجزيرة فى الشتاء فدخل الامير
عز الدين الدبيسى وهو من اكابر أمرائه ومن جملة اقطاعه مدينة دقوقا ونزل فى دار انسان
يهودى فاستغاث اليهودى الى اتابك وانهى حاله اليه فنظر الى الدبيسى فتأخر ودخل البلد
واخرج بركه وخيامه قال فلقد رأيت علمانه ينصبون خيامه فى الوحل وقد جعلوا على الارض
تبنا يقيهم الطين وخرج فنزلها وكانت سياسته الى هذا الحد وكانت الموصل من اقل بلاد الله
فاكهة فصارت فى أيامه وما بعدها من اكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك وكان أيضا شديد
الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد وكان يقول ان لم تحفظ نساء الاجناد والافسدن لكثرة غيبة
ازواجهن فى الاسفار وكان اشجع خلق الله أما قبل ان يملك فيكفيه انه حضر مع الامير مودود
صاحب الموصل مدينة طبرية وهى للفرنج فوصلت طعنته باب البلد واثرت فيه وحمل أيضا على
قلعة عقر الحيدية وهى على جبل عال فوصلت طعنته الى سورها الى اشياء اخر واما بعد الملك
فقد كان الاعداء محدقين ببلاده وكلهم يقصدها ويريدون اخذها وهو لا يقنع بحفظها حتى انه
لا ينقضى عليه عام حتى يفتح من بلادهم فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاورة فى ناحية تكريت
وقصد الموصل وحصرها ثم الى جانبه من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود ثم ابن
سقمان صاحب خلاط ثم داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ثم صاحب آمد وماردين
ثم الفرنج من مجاورة ماردين الى دمشق ثم اصحاب دمشق فهذه الولايات قد اختلطت بولايته

ملك ثلاثين سنة وثلاثة وثلاثين يوما وفيع النجاده قوى العماد * وروى الزناده زكى المراد * وتوفى ليلة الخميس لثلاث بقين من رجب سنة احدى وثلاثين وثلثمائة وتملاه فى ارث الملك ابنه (نوح بن نصر) وهو الحميدى فملك اثنتى عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة أيام وتوفى ببخارا يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة وانتصب منصبه (عبد الملك بن نوح) فملك سبع سنين وستة أشهر وأحد عشر يوما وعثرت به دابته فسقط الى الارض سقطة حمل منها ميتا وذلك عشية يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلثمائة وخلفه فى الولاية أخوه (منصور ابن نوح) خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وتوفى ببخارا يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وستين وثلثمائة وولى امره من بعده (نوح بن منصور) احدى وعشرين سنة وتسعة أشهر وتوفى يوم الجمعة ببخارا لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة سبع وثمانين وثلثمائة وملك بعده ولده (أبو الحرث منصور)

من كل جهاتها فهو يقصد هذا مرة ويأخذ من هذا ويصانع هذا الى ان ملك من كل من يليه طرفا من بلاده وقد اتينا على اخباره فى كتاب الباهر فى تاريخ دولته ودولة اولاده فليطلب من هناك

(ذكر ملك ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود)

لما قتل اتابك زنكى اخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضرا معه وسار الى حلب فملكها وكان حينئذ يتولى ديوان زنكى ويحكم فى دولته من اصحاب العمائم جمال الدين محمد بن على وهو المنفرد بالحكم ومعه امير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسيانى فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد اتابك الملك اب ارسلان ابن السلطان محمود فركب ذلك اليوم واجمعت العساكر عليه وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات والجوارى وادخلاه الرقة فبقى بها اياما لا يظهر ثم سار الى ماسكين فدخلها واقام بها اياما وجمال الدين يحالف الامراء لسيف الدين غازى بن اتابك زنكى ويسيرهم الى الموصل ثم صار من ماكسين الى سنجار وكان سيف الدين قد وصل الى الموصل فلما وصلوا الى سنجار أرسل جمال الدين الى الدزدار يقول له ليرسل الى ولد السلطان يقول له انى مملوكك ولكن ينبغى الموصل فان ملكتها سلمت اليك سنجار فسار الى الموصل فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بلد وقد بقى معه من العسكر القليل فأشار عليه بعبور دجلة فعبرها الى الشرق فى نفر يسير وكان سيف الدين غازى بمدينة شهرزور وهى اقطاعه فارسل اليه زين الدين على نائب ابيه بالموصل يستدعيه الى الموصل فحضر قبل وصول الملك فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين الى الموصل أرسل اليه يعرفه قلة من معه فأرسل اليه بعض عسكره فقبضه وحبس فى قلعة الموصل واستقر ملك سيف الدين البلاد وبقى أخوه نور الدين بحلب وهى له وسار اليه صلاح الدين الباغيسيانى مدبر أمره والقائم بدولته وحفظها وقد استقصينا شرح هذه الحادثة فى التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية

(ذكر عصيان الرها لما قتل اتابك)

كان جوسلين الفرنجى الذى كان صاحب الرها فى ولايته وهى تل باشر وما يجاورها فارسل أهل الرها وعامتهم من الارمن وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد اليه فأجابوه الى ذلك ووعدهم يوما يصل اليهم فيه وسار فى عساكره الى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم فبلغ الخبر الى نور الدين محمود بن زنكى وهو بحلب فسار مجدا اليها فى عسكره فلما قاربها خرج جوسلين هاربا عائدا الى بلاده ودخل نور الدين المدينة ونهبها حينئذ وسبى أهلها وفى هذه الدفعة نهبت وخلت من اهلها ولم يبق بها منهم الا القليل وكثير من الناس يظن انها نهبت لما فتحها الشهيد وليس كذلك وبلغ الخبر الى سيف الدين غازى بعصيان الرها فسير العساكر اليها فسبقه الملك نور الدين الى البلد واستباحه وهم فى الطريق فعادوا ومن اعجب ما يحكى ان زين الدين على الذى كان نائب الشهيد واولاده بقلعة الموصل جاءه هدية أرسلها اليه نور الدين من هذا الفتح وفى الجملة جارية فلما دخل اليها وخرج من عندها وقد اغتسل وقال لمن عنده تعلمون ما جرى لى فى يومنا هذا قالوا لا قال لما افتحنا الرها مع

ابن نوح سنة وتسعة اشهر فاعتقله بكتوزون بسر من يوم الاربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وبويع أخوه (عبد الملك ابن نوح) فاستقرت قدمه فى الولاية حتى خرجت على يد السلطان يمين الدولة وأمين الملة دعامته * وشالت نعامته * فطار الى بخارا وقبض الملك الخان عليه * وانتزع ولايتها من يديه * فكانت مدة أمره ثمانية أشهر وسبعة عشر يوما ثم أخوه (المنتصر أبو ابراهيم) اسمعيل بن نوح وذلك حدثان ما ولى السلطان * كور خراسان * وأقبل بعد ذلك يزداد فى أسباب العلا جده وجده * ويتضاعف فى رغائب الاعداء حده * فما يفتر له شهر الا عن ثغر مفتوح * وصنع ممنوح * وذكر على هامات الاعواد مرفوع * وباب الى قضاء المنى والآمال مشروع * وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

*(ذكر الاحوال التى جمعت للامير ناصر الدين سبكتكين وخلف بن أحمد والى سجستان من خلاف مرة ووفاق أخرى وما جرى بعد ذلك من الطوائل والترات التى ثنت عنان

الشهيد وقع في يدى من السبي جارية رائعة اعجبني حسنها ومال قلبي اليها فلم يكن باسرع من ان أمر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب وكان مهيبا مخوفا فرددتها وقلبي متعلق بها فلما كان الآن جاءتني هدية نور الدين وفيها عدة جوار فيهن تلك الجارية فوطئتها خوفا ان تقع مثل تلك الردة

(ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الاندلس)

في هذه السنة سير عبد المؤمن بن علي جيشا الى جزيرة الاندلس فملكوا ما فيها من بلاد الاسلام وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاءه اليه جماعة من اعيان الاندلس منهم ابو جعفر احمد بن محمد بن حمدين ومعهم مكتوب يتضمن بيعة اهل البلاد التي هم فيها العبد المؤمن ودخولهم في زمرة أصحابه الموحدين واقامتهم لامره فقبل عبد المؤمن ذلك منهم وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا كثيفا وسيره معهم وعمر اسطولا وسيره في البحر فسار الاسطول الى الاندلس وقصدوا مدينة اشبيلية وصعدوا في نهرها وبها جيش من الملثمين فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وامن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد وكان لعبد المؤمن من بها

(ذكر قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الري)

في هذه السنة قتل السلطان مسعود أمير حاجب دولته عبد الرحمن طغايرك وهو صاحب خلخال وبعض اذربيجان والحاكم في دولة السلطان وليس للسلطان معه حكم وكان سبب قتله ان السلطان لما ضيق عليه عبد الرحمن وبقي معه شبه الاسير ليس له في البلاد حكم حتى ان عبد الرحمن قصد غلاما كان للسلطان وهو يلدرك ارسلان المعروف بابن خاص بك بن بلنكري وقد رباه السلطان وقربه فابعده عنه وصار لا يراه وكان في خاص بك عقل وتدبير وجودة قريحة وتوصل لما يزينه بعقله فجمع عبد الرحمن العساكر وخاص بك فيهم وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود ان يقتل عبد الرحمن فاستدعى خاص بك جماعة ممن يثق بهم وتحدث معهم في ذلك فكل منهم خاف الاقدام عليه الا رجلا اسمه زنكي وكان جلدا فانه بذل من نفسه ان يبدأ بالقتل ووافق خاص بك على القيام في الامر جماعة من الامراء فبينما عبد الرحمن في موكبه ضربه زنكي الجاندار بمقرعة حديد كانت في يده على رأسه فسقط الى الارض فاجهز عليه خاص بك واعانه على حماية زنكي والقائمين معه من كان واطأ على ذلك من الامراء وكان قتله بظاهر جنزة وبلغ الخبر الى السلطان مسعود وهو ببغداد ومعه الامير عباس صاحب الري وعسكره اكثر من عسكر السلطان فانكر ذلك وامتعض منه فداراه السلطان ولطف به واستدعى الامير البقش كون خر وتتر وهو أمير اللحف وتتر الذي كان حاجبا فلما قوي بهما أحضر عباسا اليه في داره فلما دخل اليه منع اصحابه من الدخول معه وعدلوا به الى حجرة وقالوا له اخلع الزردية فقال ان لي مع السلطان أيمانا وعهودا فلكموه وخرج له غلمان أعدوا لذلك فحينئذ تشهد وخلع الزردية والقاها وضربوه بالسيوف واحتزوا رأسه والقوه الى اصحابه ثم القوا جسده ونهب رحله وانزعج البلد لذلك وكان عباس من غلمان السلطان محمود حسن السيرة عادلا في رعيته كثير الجهاد للباطنية قتل منهم خلقا كثيرا وفي من رؤسهم مناره بالري وحصر

السلطان بين الدولة وامين الملة اليه * وعطفت به الى انتزاع الملك من يديه * وما جرى خلال ذلك من وقائعه في الهند الى أن استتب له ما أراد في أمره * بعون الله ونصره)*

قد سبق في أول هذا الكتاب ذكر الامير خلف بن أحمد فمن آراء السديد منصور ابن نوح من رده الى بيته واظهاره على خصمه الى أن تهاوت رجوم الفتن بخراسان ففرغه اشتغال ولاتها بمادهاهم منها للاستجمام * والاتداع * والاستظهار بما تخرجه له أرض سجستان من صنوف الارتفاع * حتى اتسع نطاق همته لطلب الفضول والزيادات * على ما في يده ومنازعة القروم والسادات ولما تصدى الامير ناصر الدين سبكتكين لمواقعة ملك الهند حين تورد حدود الاسلام على ما نطق بشرحه صدر هذا الكتاب غتنم خلف بن أحمد انتقاض بست عن الحفظة * وخلوها عن الشحنة * فأسرى اليها من اقتناض بيضتها * واقتض عذرتها * وحرف كلمة الدعوة عنها وغمس يده في أموالها فجباها * وجمعها فأوعاها * فلما أفلج الله ناصر الدين * على الكافر الامين * عطف العنان

قلعة الموت ودخل الى قرية من قراهم فالقى فيها النار فاحرق كل من فيها من رجل وامرأة وصبي وغير ذلك وقتل بالجانب الغربي فارسلت ابنته فحملته الى الري فدفنته هناك وكان مقتله في ذي القعدة ومن الاتفاق العجيب ان العبادي كان يعظ يوما فحضره عباس فاسمع بعض اهل المجلس ورمى بنفسه نحو الامير عباس فضربه اصحابه ومنعوه خوفا عليه لانه كان شديد الاحتراس من الباطنية لا يزال لابسا الزردية لا تفارقه الغلمان الاجلاد فقال له العبادي كم هذا الاحتراز والله لئن قضى عليك بأمر لتحلن انت بيدك ازرار الزردية فنفذ القضاء فيك وكان والله كما قال وقد كان السلطان استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارها على ما تقدم ذكره فعزله الآن لانه اختار العزل والعود الى صاحبه بوزابة فلما عزله قرر معه ان يصلح له بوزابة ويزيل ما عنده من الاشمئزار بسبب قتل عبد الرحمن وعباس فسار الوزير وهو لا يعتقد النجاة فوصل الى بوزابة وكان ما نذكره

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة حبس السلطان مسعود اخاه سليمان شاه بقلعة تكريت وفيها توفي الامير جاولي الطغرلي صاحب ارانية وبعض اذربيجان وكان قد تحرك للعصيان وكان موته فجأة مد قوسا فنزف دما فمات وتوفي شيخ الشيوخ صدر الدين اسمعيل بن ابي سعيد الصوفي مات ببغداد ودفن بظاهر رباط الدوري بباب البصرة ومولده سنة اربع وستين واربعمائة وقام في منصبه ولده عبد الرحيم وفيها توفي مسعود بن بلال شحنة بغداد وسار السلطان عنها وفيها كان بالعراق جراد كثير اكثر البلاد وفيها ورد العبادي الواعظ رسولا من السلطان سنجر الى الخليفة ووعظ ببغداد وكان له قبول بها وحضر مجلسه السلطان مسعود فمن دونه واما العامة فانهم كانوا يتركون أشغالهم لحضورهم مجلسه والمسابقة اليه وفيها بعد قتل الشهيد زنكي بن آقسنقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره وكان به نجم الدين ايوب بن شاذي فخاف ان اولاد زنكي لا يمكنهم انجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة اليه واخذ منه اقطاعا ومالا وملكه عشر قرى من بلاد دمشق وانتقل ايوب الى دمشق فسكنها واقام بها وفي هذه السنة في ربيع الآخر توفي عبد الله بن علي بن احمد المقرئ ابن بنت الشيخ ابي منصور ومولده في شعبان سنة أربع وستين وأربعمائة وكان مقرئا نحويا محدثا وله تصانيف في القراآت

(ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة)

(ذكر قتل بوزابة)

لما اتصل بالامير بوزابة قتل عباس جمع عساكره من فارس وخوزستان وسار الى اصفهان فحصرها وسير عسكرا آخر الى همذان وعسكرا ثالثا الى قلعة الماهكي من بلد اللحف فاما عسكره بالماهكي فانه سار اليهم الامير البقش كون خرفدفعهم عن اعماله وكانت اقطاعه ثم ان بوزابة سار عن اصفهان يطلب السلطان مسعودا فراسله السلطان في الصلح فلم يجب اليه وسار مجدا فالتقيا بمرج قراتكين وتصافا فاقتتل العسكران فانهزم منه السلطان مسعود وميسرته واقتتل القلبان اشد قتال واعظمه صبر فيه الفريقان وصار الحرب بينهما فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه وقيل بل عثر به الفرس فأخذ أسيرا وحمل الى السلطان فقتل

الى بيت فمنعه من عذره محتفظا من سوء حفاظه فاتفاه اصحاب خلف بن أسد بظهور العار واعقاب الادبار والصغار وهم ناصر الدين سبكتكين لمناهضته واستخارة الله تعالى في مناجزته فارسل اليه خلف من يتأول عليه في ذلك البعث محافظته على حكم الموالاة في حفظ ولايته ويتضمن تصحيح ما صار في جبايته ويتبرع بزيادة تقوم مقام الارش عن جنايته تفاديا عن ثقل وطأته على أعماله وتصونا عن عورة الافتضاح في قتاله فتغابى ناصر الدين عن شر غدره كما قاله الاقتدار واكتفاء منه بذل الاعتذار فكان مثله في ذلك كما قال أبو تمام

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

ثم طالبه بتصحيح المال حتى أداه وارتهن بعض رضاه فكانت الحال بينهما من بعد قائمة على جملة المسالمة الى أن حدث من أمر ابي علي بن سيجور في الجولة التي اتفقت له بباب نيسابور ما سبق شرحه فأظهر تقربا الى ناصر الدين بمساعدته على خصمه ومرافدته بنفسه وعساكر أهل جملته امتنانا عليه بظاهر الطاعة

بين يديه وانهزم أصحابه لما أخذوا سيرا وبلغت هزيمة العسكر السلطانى من الميمنة والميسرة الى همذان وخراسان وقتل من الفريقين خلق كثير وكان هذا الحرب من اعظم الحروب الكائنة بين الاعاجم

(ذكر طاعة اهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها)

كان صاحب مدينة قابس قبل هذه السنة انسان اسمه رشيد فتوفى وخلف اولادا فعمد مولى له اسمه يوسف الى ولده الصغير واسمه محمد فولاه الامر واخرج ولده الكبير معمر واستولى يوسف على البلد وحكم على محمد الصغير سنه وجرى منه اشياء من التعرض الى حرم سيده والعهدة على ناقله وكان من جملتهن امرأة من بنى قرة فارسلت الى اخوتها تشكو اليهم ما هى فيه فجاء اخوتها لاخذها فمنعهم اهلها وقال هذه حرمة مولاى ولم يسلمها فسار بنو قرة ومعمر بن رشيد الى الحسن صاحب افريقية وشكوا اليه ما يفعل يوسف فكاتبه الحسن فى ذلك فلم يجبه وقال ان لم يكف الحسن عنى والا سلمت قابس الى صاحب صقلية فجهز الحسن العسكر اليه فلما سمع يوسف بذلك ارسل الى رجار الفرنجى صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له اريد منك خلعة وعهدا بولاية قابس لاكون نائبا عنك كما فعلت مع بنى مطروح اصحاب طرابلس فسير اليه رجار الخلعة والعهد فلبسها وقرئ العهد بجمع الناس فجد حينئذ الحسن فى تجهيز العسكر الى قابس فساروا اليها ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بيوسف لما اعتقدوه من طاعة الفرنج وسلموا البلد الى عسكر الحسن وتحصن يوسف فى القصر فقاتلوه حتى فتحوه وأخذوا يوسف اسيرا فتولى عذابه معمر بن رشيد وبنو قرة فقطعوا ذكره وجعلوه فى فيه وعذب بانواع العذاب وولى معمر قابس مكان أخيه واخذ بنو قرة اختهم وهرب عيسى اخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجار صاحب صقلية فاستجاروا به وشكوا اليه ما لقوا من الحسن فغضب لذلك وكان ما نذكره سنة ثلاث واربعين وخمسمائة من فتح المهدية ان شاء الله تعالى وهذا الذى كان من يوسف والله أعلم

(ذكر حادثة ينبغى ان يحتاط العاقل من مثلها)

كان هذا يوسف صاحب قابس قد ارسل رسولا الى رجار صاحب صقلية فاجتمع هو والحسين رسول صاحب المهدية عنده فجرى بين الرسولين مناظرة فذكر رسول يوسف الحسن وما نال منه وذمه ثم انهما عادا فى وقت واحد وركبا البحر كل واحد منهما فى مركبه فارسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف فسير الحسن جماعة من اصحابه فى البحر فاخذوا رسول يوسف واحضروه عند الحسن فسبه وقال ملكت الفرنج بلاد الاسلام وطوقت لسانك بذمى ثم أركبه جملا وعلى رأسه جلاجل وطيف به فى البلد ونودى عليه هذا جزاء من سعى ان يملك الفرنج بلاد المسلمين فلما توسط المهدية ثار به العامة فقتلوه بالحجارة

(ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الاندلس)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى حصر الفرنج مدينة المرية من الاندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة واكثروا القتل بها والنهب وملكوا أيضا مدينة شلسة وولاية جيان وكلها

واضمار التشفى من ابى على بعمونته الحاضره * وقوته الباهره * اذ كان قد وتره بقصد حصاره * وغزوه فى عقر داره * واقتساره بسيوف أنصاره وصحبه الى بوشنج فى جمهور اشياعه واتباعه ثم خلفه بها ناصر الدين سبكتكين صيانة له عن كلفة السفر * وابقاء عليه من خطة الخطر * وسار الى طوس لمواقعة أبى على وطلب الثار المنيم عنده حتى اذا طرده ونقض عن شغل تلك الحرب يده * رد الى خلف بن احمد اصحابه مثقلين بالنعم الباهره وموشحين بالمدائح الفاخره تقدمهم المراكب والجنائب * وترفهم النجائب والرغائب

فعادوا فأثنوا بالذى كان اهله ولو سكتوا اثنت عليه الحقائب

فصفت لذلك شريعة الحال بينهما عن قذى المواراه ونجلت عن عرمض المداجحة والمداجاه * الى ان عبر الامير ناصر الدين سبكتكين النهر الى ماوراءه لمدافعة ايلك الخان عن ولاية الرضى برفق المناصحه * اوخرق المكاشفه * ثم اقتضته صورة الحال مساهمته بعض تلك البلاد على ان يسلم له سائرها ويأمن من عنت العيث بواديها وحاضرها * وترامت اليه اثناء ذلك مكاتبة خائفة

بالانداس ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى عدة مواضع من بلد الفرنج)

فى هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب بلد الفرنج ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصر مابولة وبصر فوت وكفر لاثا وكان الفرنج بعد قتل والده زنكى قد طمعوا وظنوا انهم بعده يسترجعون ما اخذه فلما رأوا من نور الدين هذا الجد فى اول امره علموا ان ما املوه بعيد وخاب ظنهم واملهم

(ذكر اخذ الحلة من على بن دبيس وعوده اليها)

فى هذه السنة كثر فساد اصحاب على بن دبيس بالحلة وماجاورها وكثرت الشكاوى منه فاقطع السلطان مسعود الحلة سلار كرد فسار اليها هو وهزان ومعه عسكر وانضاف اليه جماعة من عسكر بغداد وقصدوا الحلة فجمع على عسكره وحشد والتقى العسكران بطسبار فانهزم على وملك سلار كرد الحلة واحتاط على اهل على ورجعت العساكر واقام هو بالحلة وعمالها وسار على بن دبيس فلحق بالبقش كون خر وكان باقطاعه فى للحف متجنيا على السلطان فاستجده فسار معه الى واسط واتفق هو والعارنطاى وقصدوا الحلة فاستنقذوها من سلار كرد فى ذى الحجة وفارقها سلار كرد وعاد الى بغداد

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى خطب للمستنجد بالله يوسف ابن المقتفى لامر الله بولاية العهد وفيها ولى عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد وولى زعيم الدين يحيى بن جعفر الخازن وفيها فى ربيع الاول مات ابو القاسم طاهر بن سعيد بن أبى سعيد بن أبى الخير الميهنى شيخ رباط البسطامى ببغداد وفى ربيع الآخر توفيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد زوجة المقتفى لامر الله وفى رجب منها مات أبو الحسن محمد بن المظفر بن على ابن المسلمة ابن رئيس الروساء ومولده سنة اربع وثمانين وكان قد تصوف وجعل داره التى فى القصر رباطا للصوفية وفيها سار سيف الدين غازى بن زنكى الى قلعة دارا فملكها وغيرها من بلد ماردين ثم سار الى ماردين وحصرها وخرب بلدها ونهبه وكان سبب ذلك ان اتابك زنكى لما قتل نطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن الى ما كان قد فتحه من بلادهما فأخذاه فلما ملك سيف الدين وتمكن سار الى ماردين وحصرها وفعل ببلدها الافاعيل العظيمة فلما رأى صاحبها وهو حينئذ حسام الدين تمرتاش ما يفعل فى بلده قال كانشكو من اتابك الشهيد وأين اياه لقد كانت اعيادا قد حصرنا غير مرة فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره مخلاة تبن بغير ثمن ولا تعدى هو وعسكره حاصل السلطان وارى هذا ينهب البلاد ويخربها ثم راسله وصالحه وزوجه ابنته ورحل سيف الدين عنه وعاد الى الموصل وجهزت ابنة حسام الدين وسيرت اليه فوصلت وهو مريض قد اشفى على الموت فلم يدخل بها وبقيت عنده الى ان توفى وملك قطب الدين مودود فتزوجها على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها اشتد الغلاء بافريقية ودامت اياما فان أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وعظم الامر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضا وقصد اهل البوادى المدن من الجوع فاغلقوا ابوابها دونهم وتبعه وباء وموت كثير حتى خلت البلاد وكان أهل

ابن احمد ايلك الخان مرهفا
من غربه * ومغربا اياه بحربه
طمعا فى بست ونواحيها
ومخزنة وما يليها * وانضافت
اليه بلاغات وقوارص برقت
له من جانبه فى امر ابى على
واظهار الندامة على ماسبق
من عونه عليه والانصاح
على رؤس الاشهاد معرضا
بأن اجتياح المملوك شؤم
واستباحة البيوتات لؤم
وضعف فى الرأى معلوم
فطار الغضب بناصر الدين
كل مطار * وحدثته نخوة
الاقتدار بالبدار * الى ارض
سجستان لاطفاء الغليل
وشفاء الداء الدخيل * نثناه
كاتبه ابو الفتح على بن محمد
البستى عما نواه بالقول
الرفيق * والرأى المؤيد
بالتوفيق * ورش ماء التلطف
على ذلك الحريق * وأراه ان
بعض البلاغات زور * وان
القابل لها كالقائل ما أخوذ
بهما مزور * وان قلوب
الرجال وحوش نافره
وطيور فى بحور الجو سابحه
فما يستمكن منها الا بالاعمال
الحيل فى نصب الحبائل وتمكين
الجوارح ورمى البنادق
وبث الحبوب والمطاعم ثم
لاشئ أيسر من افلاتها عن
حبالة القانص وارسالها
من شرك الصائد كذلك
القلوب لاتصاد الا بأشراك
الصنائع والعواطف * ولا

البيت لا يبقى منهم احد وسار كثير منهم الى صقلية فى طلب القوت واقوا[illegible] اعظيما

(ثم دخلت سنة ثلاث واربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بافريقية)

قد ذكرنا سنة احدى واربعين وخمسمائة مسير اهل يوسف صاحب قابس الى رجار ملك صقلية واستغاثتهم به فغضب لذلك وكان بينه وبين الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب افريقية صلح وعهود الى مدة سنتين وعلم انه فاتح البلاد فى هذه الشدة التى اصابتهم وكانت الشدة دوام الغلاء فى جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين الى هذه السنة وكان اشد ذلك منه سنة اثنتين واربعين فان الناس فارقوا البلاد والقرى ودخل اكثرهم الى مدينة صقلية وأكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت فى الناس فاغتنم رجار هذه السنة فجهز الاسطول واكثر منه فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوأة رجالا وسلاحا وقرر اوسار الاسطول عن صقلية ووصل الى جزيرة قوصرة وهى ما بين المهدية وصقلية فصدفوا بها مركبا وصل من المهدية فأخذ أهله واحضروا بين يدى جرجى مقدم الاسطول فسألهم عن حال افريقية ووجد فى المركب قفص حمام فسألهم هل ارسلوا منها فحلفوا بالله انهم لم يرسلوا شيأ فامر الرجل الذى كان الحمام صحبته ان يكتب بخطه انا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الاسطول المخذول فذكروا انه اقلع الى جزائر القسطنطينية واطلق الحمام فوصل الى المهدية فسر الامير الحسن والناس واراد جرجى بذلك ان يصل بغتة ثم سار وقدر وصولهم الى المهدية وقت السحر ليحيط بها قبل ان يخرج اهلها فلو تم له ذلك لم يسلم منهم احد فقدر الله تعالى أن ارسل عليهم ريحا هائلا فلم يقدروا على السير الا بالمقاذيف فطلع النهار ثانى صفر فى هذه السنة قبل وصولهم فرآهم الناس فلما رأى جرجى ذلك وان الخديعة فاتته ارسل الى الامير الحسن يقول انما بعثت بهذا الاسطول طالبا بثار محمد بن رشيد صاحب قابس وردوه اليها واما انت فبيننا وبينك عهود ومواثيق الى مدة ونريد منك عسكرا يكون معنا فجمع الحسن الناس من الفقهاء والاعيان وشاورهم فقالوا انفاتر عدونا فان بلدنا حصين فقال اخاف ان ينزل الى البر ويحصرنا برا وبحرا ويحول بيننا وبين الميرة وليس عندنا ما يقوتنا شهرا فنؤخذ قهرا وانا ارى سلامة المسلمين من الاسر والقتل خير من الملك وقد طلب منى عسكرا الى قابس فان فعلت فما يحل لى معونة الكفار على المسلمين وان امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد الا ان يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأى ان نخرج بالاهل والولد وننزل عن البلد فمن اراد ان يفعل كفعلنا فليبادر معنا وامر فى الحال بالرحيل واخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم باهليهم واولادهم وما خف من اموالهم واثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس وبقى الاسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول الى المهدية الى ثانى النهار فلم يبق فى البلد ممن عزم على الخروج احد فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع ودخل جرجى القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه الا ما خف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأى الخزائن مملوأة من الذخائر النفيسة وكل شئ غريب يقل وجود

تفتقد الا بأزمة الايادى
والعوارف * ولا تستفاد
الا ببذل الرغائب من
التوالد والطوارف * ثم
الكلمة الجافية تهيج وادعها
وتطير راقدها * وتكدر عليها
مشارعها * وتلا عليه قوله
تعالى يا أيها الذين آمنوا ان
جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا
أن تصيبوا قوما بجهالة
فتصبحوا على ما فعلتم نادمين
ثم فسرها حتى نزل عن ظهر
مركب التعجيل * الى ارض
التمهيل * وانشدنى ابو الفتح
البستى رحمه الله فى شرح
ما دار بينه وبين ناصر الدين
سبكتكين لنفسه

اذا شئت أن تصطاد حب
اخى لب
وتملك منه حوزة القلب
والخلب
فأشركه فى الخير الذى قد رزقته
وادخله بالاحسان فى شركة
الحب
ألم تر طير الجو تهوى مسقط
لحب كقطر من ذرى الجو
منصب
كذلك لا يصطاد ذو الرأى
والحجى
محبات حبات القلوب بلا حبة
وكتب خلف بن احمد بعد
ذلك متنصلا مما عزى اليه
ومتبريا مما نقم منه فعفا ناصر
الدين عما حك فى صدره من
امره * واغمض له عما امتاحه
من قليب قلبه وغدير غدره

مثله فختم عليه وجمع شراري الحسن من قصره وكان عدة من ملك منهم من زيري بن مناد الى الحسن تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائة سنة وثمانين سنة من احدى وستين وثلاثمائة الى سنة ثلاث واربعين وخمسمائة وكان بعض القواد قد ارسله الحسن الى رجار برسالة فاخذ لنفسه واهله منه امانا فلم يخرج معهم ولما ملك المدينة نهبت مقدار ساعتين ونودى بالامان فخرج من كان مستخفيا واصبح جرجي من الغد فارسل الى من قرب من العرب فدخلوا اليه فاحسن اليهم واعطاهم اموالا جزيلة وارسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة ومعهم امان لاهل المهدية الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الاطفال والنساء وكانوا قد اشرفوا على الهلاك من الجوع واهم بالمهدية خبايا وودائع فلما وصل اليهم الامان رجعوا فلم يمض غير جمعة حتى رجع اكثر اهل البلد واما الحسن فانه سار باهله واولاده وكانوا اثنى عشر ولدا ذكرا غير الاناث وخواص خدمه قاصدا الى محرز بن زياد وهو بالمعلقة فلقيه في طريقه امير من العرب يسمى حسن بن ثعلب فطلب منه مالا فكسر له في ديوانه فلم يمكن الحسن اخراج مال لانه لا يؤخذ فسلم اليه ولده يحيى رهينة وسار فوصل في اليوم الثاني الى محرز وكان الحسن قد فضله على جميع العرب واحسن اليه ووصله بكثير من المال فلقيه محرز لقاء جميلا وتوجع لما حل به فاقام عنده شهورا والحسن كاره للاقامة فاراد المسير الى ديار مصر الى الخليفة الحافظ العلوي واشترى مركبا للسفر فسمع جرجي الفرنجي بجهزشواني ليأخذه فعاد الحسن عن ذلك وعزم على المسير الى عبد المؤمن بالمغرب فارسل كبار اولاد يحيى وعميا وعليا الى يحيى ابن العزيز وهو من بني حماد وهما اولاد عم يستأذنه في الوصول اليه وتجديد العهد به والمسير من عنده الى عبد المؤمن فاذن له يحيى فسار اليه فلما وصل لم يجتمع به يحيى وسيره الى جزيرة بني مزغنان هو واولاده ووكل به من يمنعهم من التصرف فبقوا كذلك الى ان ملك عبد المؤمن بجاية سنة سبع واربعين فحضر عنده وقد ذكرنا حاله هناك ولما استقر جرجي بالمهدية سير أسطولا بعد اسبوع الى مدينة سفاقس وسير اسطولا اخر الى مدينة سوسة فاما سوسة فان اهلها لما سمعوا بخبر المهدية وكان واليها علي بن الحسن الامير فخرج الى ابيه وخرج الناس لخروجه فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر واما سفاقس فان اهلها اتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج اليهم اهل البلد فاظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى ابعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم الى البلد وقوم الى البرية وقتل منهم جماعة ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقي من الرجال وسبى الحريم وذلك في الثالث والعشرين من صفر ثم نودي بالامان فعاد أهلها اليها واقتسموا حريمهم واولادهم ورفق بهم وباهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع اهل افريقية بالامان والمواعيد الحسنة ولما استقرت احوال البلاد سار جرجي في اسطول الى قلعة اقليبية وهي قلعة حصينة فلما وصل اليها سمعته العرب فاجتمعوا اليها ونزل اليهم الفرنج فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم خلق كثير فرجعوا خاسرين الى المهدية وصار للفرنج من طرابلس الغرب الى قريب تونس ومن المغرب الى دون القيروان والله اعلم

* (ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي) *

وثبت باقي عمره على مدارائه وملاطفته الى ان اتاه اليقين من ربه فانتقل الى جوار رحمته وعفوه وبلغ السلطان يمين الدولة وامير الجيوش حجة الزمانة باظهار الشماتة * فاستنشد قول القائل

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى
تجهز لاخرى مثلها فكأن قد

ثم اسرها في نفسه مرتقبا لميقات الفرصة في الايقاع به والاستشفاء منه الى ان ورث ملك خراسان نقي الاطراف عن غبرات الخلاف سليم الآفاق * عن غبرات الشقاق * وقد كان خلف بن احمد عند قيام السلطان باستصفاء المملكة قد بعث ابنه طاهرا الى قهستان فملكها ثم عن منها الى بوشنج فاستولى عليها وكانت هراة وبوشنج برسم بغراجق اخي ناصر الدين سبكتكين فلما وضع الله عن السلطان اوزاره تلك الملاحم اتاه عمه بغراجق يستأذنه في طرد المتغلب عن ولايته وقبل ما اجتمع من حد نكايته فاذن له فيه وسار حتى اذا شارف بوشنج تلقاه طاهر ابن خلف بمن والاه من العديد تحت الحديد * فتناوشا الحرب قدا للهام * من خطوط المفارق وقطا للاجسام * من

في هذه السنة سار ملك الالمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازما على قصد بلاد الاسلام وهو لا يشك في ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوفر اموالة وعدده فلما وصل الى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا امره ونهيه فامرهم بالمسير معه الى دمشق ليحصرها ويملكها لابن عمه فساروا معه ونازلوها وحصروها وكان صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغدكين وليس له من الامر شئ وانما الحكم في البلد لمعين الدين انز مملوك جده طغدكين وهو الذي اقام مجير الدين وكان معين الدين عاقلا عادلا خيرا حسن السيرة فجمع العساكر وحفظ البلد واقام الفرنج يحاصرونهم ثم انهم زحفوا سادس ربيع الاول بفارسهم وراجلهم فخرج اليهم اهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي وكان شيخا كبيرا فقيها صالحا فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلم عليه وقال له ياشيخ انت معذور لكبر سنك ونحن نقوم بالذب عن المسلمين وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له قد بعت واشترى مني فوالله لا أقلته ولا استقلته يعني قول الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب نحو نصف فرسخ عن دمشق وقوي الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك الالمان حتى نزل بالميدان الاخضر فايقن الناس بانه يملك البلد وكان معين الدين قد ارسل الى سيف الدين غازي ابن اتابك زنكي يدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فجمع عساكره وسار الى الشام واستصحب معه اخاه نور الدين محمودا من حلب فنزلوا بمدينة حمص وارسل الى معين الدين يقول له قد حضرت ومعي كل من يحمل السلاح من بلادي فاريد ان يكون نوابي بمدينة دمشق لاحضر وألقى الفرنج فان انهزمت دخلت انا وعسكري البلد واحتميت به وان ظفرنا فالبلد لكم لا انازعكم فيه فارسل الى الفرنج يتهددهم ان لم يرحلوا عن البلد فكف الفرنج عن القتال خوفا من كثرة الجراح وربما اضطروا الى قتال سيف الدين فابقوا على نفوسهم فقوي اهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وارسل معين الدين الى الفرنج الغرباء يقول لهم ان ملك المشرق قد حضر فان رحلتم والا سلمت البلد اليه وحينئذ تندمون وارسل الى فرنج الشام يقول لهم بأي عقل تساعدون هؤلاء علينا وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق أخذوا ما بايديكم من البلاد الساحلية واما أنا فان رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته الى سيف الدين وانتم تعلمون انه ان ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام فاجابوه الى التخلي عن ملك الالمان وبذل لهم تسليم حصن بانياس اليهم واجتمع الساحلية بملك الالمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الامداد اليه وانه ربما أخذ دمشق وضعف عن مقاومته ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد وتسلموا قلعة بانياس وعاد الفرنج الالمانية الى بلادهم وهي بزوراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرهم وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق ان بعض العلماء حكى له انه رأى الفندلاوي في المنام فقال له ما فعل الله بك وابن انت فقال غفر لي وانا في جنات عدن على سرر متقابلين

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكي حصن العزيمة)

تحصور المناطق والاستقاء للارواح بارشية الرماح واختلاف الرؤس بسيوف كسيوف الروس ثم حمل بعضهم على بعض فذهبت اليمامن بالياسر والياسر باليامن وانقل طاهر من بين يديه هزيما واتبعه بغراجق يحث منه ظليما وقد كان بغراجق قبل ان شمر للحرب اصاب كؤسا يستيقظ بها اعين الطعن والضرب فتعاور عليه نادان من كأس وبأس حتى غفل بهما عن وثيقة التحزم وذهل معهما عن بصيرة التحفظ والتحرز فغرر بنفسه في اتباع خصمه اغترارا بخيال سكره فلم يشعر الا بطاهر بن خلف قد كر عليه بضربة اقعصته في مكانه قتيلا ونزل الوقت اليه من قطف عيلاوة اخذ عنه واقتسمت الهزيمة كلا الفريقين فلم يعرف الغالب من المغلوب ولا السالب من المسلوب خلا ابن خلف فانه قفى آثاره فرده الى محله وورد الناعي على السلطان فناله من الغم ما ينال الوالد لعدم واحده والولد لافتقاد صنو والده واستدل بما انفق لابن خلف على احداق الشقاء به وبأبيه واطباق البلاء عليه وعلى من يليه

لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين الى حصن العزيمة وهو للفرنج فملكه وسبب ذلك ان
ملك الالمان لما خرج الى الشام كان معه ولد الفنش صاحب طليطلة وهو من اولاد اكابر
ملوك الفرنج وكان جده هو الذى اخذ طرابلس الشام من المسلمين فاخذ حصن العزيمة وتملكه
واظهر انه يريد اخذ طرابلس من القمص فارسل القمص الى نور الدين محمود وقد اجتمع هو
ومعين الدين أنز يعلمك يقول له ولمعين الدين ليقصد احصن العزيمة ويملكاه من ولد الفنش
فسارا اليه مجدين فى عساكرهما وارسلا الى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه فامدهما
بعسكر كثير مع الامير عز الدين ابى بكر الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر وغيرها فنازلوا الحصن
وحصروه وبه ابن الفنش وامتنع به فزحف المسلمون اليه غير مرة وتقدم اليه النقابون فنقبوا
السور فاستسلم حينئذ من به من الفرنج فملكه المسلمون واخذوا كل من به من فارس وراجل
وصبى وامرأة وفيهم ابن الفنش واخربوا الحصن وعادوا الى سيف الدين وكان مثل ابن الفنش
كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير اذنين

*(ذكر الخلاف بين السلطان مسعود وجماعة من الامراء ووصولهم
الى بغداد وما كان منهم بالعراق)*

فى هذه السنة فارق السلطان مسعود جماعة من اكابر الامراء وهم من اذربيجان ايلدكز
المسعودى صاحب كنجة وارنية وقيصر ومن الجبل البقش كورخر وتتر الحاجب وهو
مسعودى ايضا وطرنطاى المحمودى شحنة واسط والدكين وقرقوب وابن طغايرك وكان سبب
ذلك ميل السلطان الى خاص بك واطراحه لهم فخافوا ان يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن
وعباس وبوزابة ففارقوه وساروا نحو العراق فلما بلغوا حلوان خاف الناس ببغداد واعمال
العراق وغلت الاسعار وتقدم الامام المقتفى لامر الله باصلاح السور وترميمه وأرسل الخليفة
اليهم بالعبادى الواعظ فلم يرجعوا الى قوله ووصلوا الى بغداد فى ربيع الآخر والملك محمد بن
السلطان محمود معهم ونزلوا بالجانب الشرقى وفارق مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفا
من الخليفة وسار الى تكريت وكانت له فعظم الامر على أهل بغداد ووصل اليهم على بن
دبيس صاحب الحلة فنزل بالجانب الغربى فجند الخليفة اجنادا يحتمى بهم ووقع القتال بين
الامراء وبين عامة بغداد ومن بها من العسكر واقتتلوا عدة دفعات فى بعض الايام انهزم
الامراء الاعاجم من عامة بغداد مكرا وخديعة وتبعهم العامة فلما ابعدوا عادوا عليهم
وصار بعض العسكر من ورائهم ووضعوا السيف فقتل من العامة خلق كثير ولم يبقوا على
صغير ولا كبير وفتكوا فيهم فاصيب أهل بغداد بما لم يصابوا بمثله وكثر القتلى والجرحى وأمر
منهم خلق كثير فقتل البعض وشهر البعض ودفن الناس من عرفوا ومن لم يعرف تركه طريحا
بالصحراء وتفرق العسكر فى المحال الغربية فاخذوا من أهلها الاموال الكثيرة ونهبوا بلاد
دجيل وغيره وأخذوا النساء والولدان ثم ان الامراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبلوا
الارض واعتذروا وترددت الرسل بينهم وبين الخليفة الى آخر النهار وعادوا الى خيامهم
ورحلوا الى النهروان فنهبوا البلاد وأفسدوا فيها وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من تكريت
الى بغداد ثم ان هؤلاء الامراء تفرقوا وفارقوا العراق وتوفى الامير قيصر باذربيجان هذا كله

وحدث ان البقرة تبحث
عن المدية بروقيها * والنملة
يقضى عليها انبات جناحيها
ولو عقل الفراش لما عشا
ما عاش الى ضوء نار * ولا
تهافت فى مصرع بوار
اسارت الفرس فى اخبارها
مثلا
وللاعاجم فى أيامها مثل
قالوا اذا جمل حانت منيته
اطاف بالبئر حتى يهلك الجمل
وزحف السلطان فى شهور
سنة تسعين وثلثمائة الى
خلف بن احمد وهو محتجز
بحصار اصبهبذ قلعة بينها
وبين مجرى النجوم قاب
قوسين * بل قيد سهمين
تحور عن مرامتها الابصار
وتحار دون مساماتها الاطيار
فحاصره بها ممنوعا عن فسحة
الاختيار * ممنوا بشدة
الاضطرار * مفجوعا براحة
القرار ولذة الغرار * حتى
نضب الروع روعه * وودع
الروح روحه * فاستشعر
الخضوع والطاعه * واظهر
الخشوع والضراعه * وسأل
سؤال مستكين ان يقصر
عن خناقه * ويهى من حبل
ارهاقه * على أن يفتدى
بمائة الف دينار * وما يليق
بها من خدمة ونثار وتحف
وهدايا * فأجابه السلطان الى
ما استدعاه * ووكل به من
اقتضاه المال حتى استوفاه
وغادره كما هو فى اسار الحصار

والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل والرسل بينه وبين عمه السلطان سنجر متصلة وكان السلطان سنجر قد أرسل اليه يلومه على تقديم خاص بك ويأمره بابعاده ويتهدده بانه ان لم يفعل ان يقصده ويزيله عن السلطنة وهو يغالط ولا يفعل فسار السلطان سنجر الى الرى فلما علم السلطان مسعود بوصوله سار اليه وترضاه واستنزله عما فى نفسه فسكن وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين على ما ذكرناه ان شاء الله تعالى

(ذكر انهزام الفرنج ببغرى)

فى هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكى الفرنج بمكان اسمه بغرى من ارض الشام وكانوا قد تجمعوا وقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها فعلم نور الدين فسار اليهم فى عسكره فالتقوا ببغرى واقتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع الا القليل وارسل من الغنيمة والاسارى الى أخيه سيف الدين والى الخليفة ببغداد والى السلطان مسعود وغيرهم وفى هذه الوقعة يقول ابن القيسرانى فى قصيدته التى أولها

يا ليت أن الصد مصدود * اولا قليت النوم مردود

ومنها ما هو فى ذكر نور الدين

وكيف لا يثنى على عيشنا الـ * ـمعمود والسلطان محمود
وصارم الاسلام لا ينثنى * الا وشاة الكفر مقدود
مكارم لم تك موجودة * الا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها * عند الملوك الكفر مشهود

(ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها)

فى هذه السنة قصد سورى بن الحسين ملك الغور مدينة غزنة فملكها وسبب ذلك ان أخاه ملك الغورية قبله محمد بن الحسين كان قد صاهر بهرام شاه مسعود بن ابراهيم صاحب غزنة وهو من بيت سبكتكين فعظم شأنه بالمصاهرة وعلت همته فجمع جموعا كثيرة وسار الى غزنة ليملكها وقيل انما سار اليها مظهرا الخدمة والزيارة وهو يريد المكر والغدر فعلم به بهرام شاه فاخذه وحبسه ثم قتله فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الاخذ بثاره ولما قتل ملك بعده اخوه سام بن الحسين فمات بالجدرى وملك بعده أخوه الملك سورى بن الحسين بلاد الغور والله اعلم وقوى أمره وتمكن فى ملكه فجمع عسكره من الفارس والراجل وسار الى غزنة طالبا بثار أخيه المقتول وقاصدا املاك غزنة فلما وصل اليها ملكها فى جمادى الاولى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفارقها بهرام شاه الى بلاد الهند وجمع جموعا كثيرة وعاد الى غزنة وعلى مقدمته السلار الحسين وابراهيم العلوى أمير هندوستان وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سورى بن الحسين الغورى وخدموه قلوبهم مع بهرام شاه وانما هم بظواهرهم مع سورى فلما التقى سورى وبهرام شاه رجع عسكر غزنة الى بهرام شاه وصاروا معه وسلموا اليه سورى ملك الغورية وملك بهرام شاه غزنة فى المحرم سنة أربع وأربعين وصلب الملك سورى مع السيد الماهيانى فى المحرم أيضا من السنة وكان سورى أحد الاجواد له الكرم الغزير والمروأة العظيمة حتى انه

وخناق الوثاق وفى نفسه قصد سجستان لكنه احب أن يجعل غزوة فى الهند مقدمة لما نواه * وصدقة بين يدى نجواه * تبركا بما يجرى على يديه من ارتفاع راية الدين * واتساع ساحة اليقين * وانارة كلمة الصدق واغارة قوة الحق * فتوغل بلاد الهند متوكلا على الله الذى هداه بنوره * وقضى له بالعز فى مقدوره * وبالنجح فى تصاريف اموره * حتى انتهى الى مدينة برشور فخيم بظاهرها وبلغه اجتراء عدو الله جيبال ملك الهند على لقائه * واستجاله الفناء بمجاورة فنائه * فاستعرض الخيول من ابناء جريدته * وسائر الغزاة والمطوعة فى جملته * واختار للجهاد خمسة عشر الف عنان من فحول الرجال * وقروم الابطال وحظر أن يختلط بهم من رده الاختبار وبهرجه الانتقاد حتى اذا خلص عددهم على الانتخاب واجتلاهم كحنان الصوارم او اسود الغاب * دلف بهم الى قتال الهجين اللعين بقلوب كالهضاب ثابته * وفروع صبر على دوح الاخلاص نابته * واقبل الفاجر الكافر فى اثنى عشر ألف فارس وثلاثين ألف راجل وثلثمائة فيل تقن

كان يرمي الدراهم في المقابر ليقع بيد من تقع ومن يتفق له ثم عاود الغورية وملكوها وخربوها وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين وذكرنا هناك ابتداء دولة الغورية لانهم في ذلك الوقت عظم محلهم وفارقوا الجبال وقصدوا خراسان وعلا شأنهم وفي بعض الخلاف كما ذكرناه والله اعلم

(ذكر ملك الفرنج مدينة من الاندلس)

في هذه السنة ملك الفرنج بالاندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصونها واردة وافراغة ولم يبق للمسلمين في تلك الجهات شيء الا واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم وبقي بايديهم الى الآن

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة توفي أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبي غالب البغدادي المعروف أبوه بالخفاف سمع الحديث الكثير وكان مفيدا ببغداد وفيها غلت الاسعار بالعراق وتعذرت الاقوات بسبب العسكر الوارد وقدم أهل السواد الى بغداد منهزمين قد أخذت أموالهم وهلكوا جوعا وعريا وكذلك أيضا كان الغلاء في أكثر بلاد خراسان وبلاد الجبل واصفهان وديار فارس والجزيرة والشام وأما المغرب فكان أشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو اليها وفيها توفي ابراهيم بن نبهان الرقي ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وصحب الغزالي والشاشي وروى الجمع بين الصحيحين للحميدي عن مصنفه وفيها في ذي القعدة توفي الامام أبو الفضل الكرماني الفقيه الحنفي امام خراسان

(ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك زنكي وبعض سيرته وملك أخيه قطب الدين)

في هذه السنة توفي سيف الدين غازي بن أتابك زنكي صاحب الموصل بها بمرض حاد ولما اشتد مرضه أرسل الى بغداد واستدعى أوحد الزمان فحضر عنده فرأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجح فيه الدواء وتوفي أواخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما وكان حسن الصورة والشباب وكانت ولادته سنة خمسمائة ودفن بالمدرسة التي بناها بالموصل وخلف ولدا ذكرا فربا عمه نور الدين محمود وأحسن تربيته وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود فلم تطل ايامه وتوفي في عنفوان شبابه فانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا عاقلا وكان يصنع كل يوم لعسكره طعاما كثيرا بكرة وعشية فاما الذي بكرة فيكون مائة رأس غنم جيدة وهو اول من حمل على رأسه السنجق وأمر الاجناد أن لا يركبوا الا بالسيف في اوساطهم والدبوس تحت أركبهم فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الاطراف وبنى المدرسة الاتابكية العتيقة بالموصل وهي من أحسن المدارس ووقفها على الفقهاء الحنفية والشافعية وبنى رباطا للصوفية بالموصل أيضا على باب المشرعة ولم تطل ايامه ليفعل ما في نفسه من الخير وكان عظيم الهمة ومن جملة كرمه انه قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته التي أولها

الارض من وطء اطرافها * وتشتكي من ثقل اخفافها
حتى اناخ قبالة السلطان * مستطاولا بعدده * ومطاولا
بقوى باعه ويده * ويظن ان
كثرة الجموع تطوى كشاب
الله طيا * أو تغني من امر الله
شيا * ولو درس الجاهل كتاب
الله لقرأ كم من فئة قليلة
غلبت فئة كثيرة باذن الله
وارتز الكافر بمكانه جانحا
الى المطاولة متحرزا بالمدافعة
والمراوغة انتظارا لمن وراءه
من اوباش الجيوش واوشاب
القبائل والشعوب فأعجل
السلطان عما حكم به من
تقديم المطاولة * وتأخير
المقاتلة * وبسط عليه ايدي
اولياء الله تعالى فأوسعوهم
حربا ونهبا ومشقا ورشقا
وسرا وورخزاوحتا وضحتا
حتى اضطر الى الدفاع
وصلى نار القراع * فاسطفت
عند ذلك الخيول * وخفقت
الطبول * وزحفت الفيول
واقبل بعضهم على بعض
يصول * وترامت النبال
على الخصل * تراعي ولدان
الاصائل بالخشل * وتلألأت
متون القواضب * كما تلألأ
برق الغيم جنح الغياهب *
وفارت بنا بيع الدماء * كما
فاضت مجاديح الانواء *
وتكاثر اولياء الله على
جماهير المدابير يؤزونهم
أزا * ويحثونهم رقصا وجزا

الامير الماجد فى زى شاعر * وقد نحلت شوقا فروع المنابر

فوصله بالف دينار عين سوى الخلع وغيرها ولما توفى سيف الدين غازى كان أخوه قطب الدين مقيما بالموصل فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تمليكه فاحضروه واستحلفوه وحلفوا له واركبوه الى دار السلطنة وزين الدين فى ركابه واطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة ولما ملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التى كان قد تزوجها أخوه سيف الدين وتوفى قبل الدخول بها وهى أم أولاد قطب الدين سيف الدين وعز الدين وغيرهما من أولاده

(ذكر استيلاء نور الدين على سنجار)

لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد اخيه سيف الدين غازى كان أخوه الاكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماة فكاتبه جماعة من الامراء وطلبوه وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد وكان حينئذ مستحفظا لسنجار فارسل اليه يستدعيه ليتسلم سنجار فسار جريدة فى سبعين فارسا من امراء دولته فوصل الى ماكسين فى نفر يسير قد سبق اصحابه وكان يوما شديدا المطر فلم يعرفهم الذى يحفظ الباب فاخبر الشحنة ان نفرا من التركمان المتجندين قد دخلوا البلد فلم يستتم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة فقام اليه وقبل يده ولحق به باقى اصحابه ثم سار الى سنجار فوصلها وليس معه غير ركابى وسلاح دار ونزل بظاهر البلد وارسل الى المقدم يعلمه بوصوله فرآه الرسول وقد سار الى الموصل وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة فاعلمه بمسير والده الى الموصل واقام من لحق اباه بالطريق فاعلمه بوصول نور الدين فعاد الى سنجار فسلمها اليه فدخلها نور الدين وارسل الى فخر الدين قرا ارسلان صاحب الحصن يستدعيه اليه لمودة كانت بينهما فوصل اليه فى عسكره فلما سمع اتابك قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سنجار فوصلوا الى تل يعفر وترددت الرسل بينهم بعد أن كانوا عازمين على قصده بسنجار فقال لهم جمال الدين ليس من الرأى محاققته وقتاله فانا نحن قد عظمنا محله عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة وجعلنا انفسنا دونه وهو يظهر للفرنج تعظيمنا وانه تبعنا ولا يزال يقول لهم ان كنتم كما يجب والاسلمت البلاد اصاحب الموصل وحينئذ يفعل بكم ويصنع فاذا لقيناه فان هزمناه طمع السلطان فينا ويقول هذا الذى كانوا يعظمونه ويحتمون به اضعف منهم وقد هزموه وان هو هزمنا طمع فيه الفرنج ويقولون ان الذين كان يحتمى بهم اضعف منه وقد هزمهم وبالجملة فهو ابن اتابك واشار بالصلح وسار هو اليه فاصطلح وسلم سنجار الى اخيه قطب الدين وسلم مدينة حمص والرحبة بارض الشام اليه وبقى الشام له وديار الجزيرة لاخيه واتفقا وعاد نور الدين الى حلب واخذ معه ما كان قد اذخره ابوه عماد الدين اتابك فيها من الخزائن وكانت كثيرة جدا

(ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى الحافظ لدين الله عبد الحميد ابن الامير ابى القاسم بن المنتصر بالله العلوى صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة الا خمسة اشهر وعمره نحو من سبع وسبعين سنة ولم يزل فى جميعها محكوما عليه محكم عليه وزراؤه حتى انه جعل ابنه حسنا

فلم ينتصف النهار الا باتصاف المسلمين * من أعداء الله المشركين * وحكموا السيوف فى زهاء خمسة آلاف رجل فبسطوهم على العراء * وأطعموهم سباع الارض وطيور الهواء وجدل على صعيد المعترك خمسة عشر فيلا مغروزات العراقيب * باطراف النشاشيب * محزوزات الخراطيم * بأسياف اللهاميم وأحيط بعد والله جبال وبنيه وحفدته وبنى أخيه * وذوى الصيت من رهطه وذويه فسيقوا بخزائم الاسر والقسر الى موقف السلطان كما يساق المجرمون الى النيران * وجوه عليها غبرة الكفران * ترهقها قترة الخذلان * فمن مكتوف الى الظهر قهرا * أو مسحوب على الخد جبرا * ومضروب على الوريد صبرا * وحل مقلد جبال عن تنظيم مرصع فرائد الدرر * والجواهر الزهر قوم بمائتى ألف دينار وأصيب أضعافه فى اعناق المقتسمين من قرابته بين قتل وأسره والمطعمين شدقى ضبع ونسر * ونقل الله أولياءه ما فات حد الاحصاء وجاز جهد الحصر والاستقصاء * وأعنهم خمسمائة ألف رأس من رقة العبيد والاماء * وآب

وزيرا وولى عهده فحكم عليه واستبد بالامر دونه وقتل كثيرا من امراء دولته وصادر كثيرا فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سما فمات وقد ذكرناه ولم يل الامر من العلويين المصريين من ابوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد وسيرد ذكر نسب العاضد وولى الخلافة بعده بمصر ابنه الظافر بامر الله ابو منصور اسمعيل بن عبد المجيد الحافظ واستوزر ابن مصال فبقى اربعين يوما يدبر الامور فقصده العادل بن السلار من ثغر الاسكندرية ونازعه فى الوزارة وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة فى طلب بعض المفسدين من السودان فخالفه العادل بالقاهرة وصار وزيرا وسير عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى فى عسكره وهو ربيب العادل الى ابن مصال فظفر به وقتله وعاد الى القاهرة واستقر العادل وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم واما سبب وصول عباس الى مصر فان جده يحيى اخرج ابا الفتوح من المهدية فلما توفى يحيى وولى بعده بلاد افريقية ابنه على بن يحيى بن تميم بن يحيى صاحب افريقية اخرج أخاه أبا الفتوح والد عباس من افريقية سنة تسع وخمسمائة فسار الى الديار المصرية ومعه زوجته بلارة ابنة القاسم بن تميم بن المعز بن باديس وولده عباس هذا وهو صغير رضيع ونزل أبو الفتوح بالاسكندرية فاكرم واقام بها مدة يسيرة وتوفى وتزوجت بعده امرأته بلارة بالعادل بن السلار وشب العباس وتقدم عند الظافر حتى ولى الوزارة بعد العادل فان العادل قتل فى المحرم سنة ثمان واربعين قيل وضع ربيبه عباس من قتله فلما قتل ولى الوزارة بعده وتمكن منها وكان جلدا حازما ومع هذا ففى ايامه اخذ الفرنج عسقلان واشتد وهن الدولة بذلك وفى ايامه أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وصار الامر بعد هذا الى ان أخذت مصر منهم على ما نذكره بعد ان شاء الله تعالى

(ذكر عود جماعة من الامراء الى العراق)

فى هذه السنة فى رجب عاد البقش كون خر والطرنطاى وابن دبيس ومعهم ملكشاه ابن السلطان محمود الى العراق وراسلوا الخليفة فى الخطبة لملكشاه فلم يلتفت اليهم وجمع العساكر وحصن بغداد وارسل الى السلطان مسعود يعرفه بالحال فوعده بالوصول الى بغداد فلم يحضر وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمه السلطان سنجر الى الرى فى معنى خاص بذلك فلما وصل الى الرى سار اليه السلطان مسعود والقيه واسترضاه فرضى عنه فلما علم البقش عراسلة الخليفة الى مسعود نهب النهروان وقبض على الامير على بن دبيس فى رمضان فلما علم الطرنطاى بذلك هرب الى النعمانية ووصل السلطان مسعود الى بغداد منتصف شوال ورحل البقش كون خر من النهروان واطلق على بن دبيس فلما وصل السلطان الى بغداد قصده على والقى بنفسه بين يديه واعتذر فرضى عنه وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع واربعين وذكر أيضا مثلها سنة ثلاث واربعين فظنهما حادثتين وانا اظنها واحدة ولكنا تبعناه فى ذلك ونبهنا عليه

(ذكر قتل البرنس صاحب انطاكية وهزيمة الفرنج)

فى هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكى بلاد الفرنج من ناحية انطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل الى حصن اثب فحصره ايضا فاجتمعت

السلطان بمن معه من الاولياء * الى المعسكر غانمين وافرين ظاهرين * ظافرين شاكرين * لله رب العالمين وفتح الله على السلطان من بلاد الهند أرضا * تتضاءل بلاد خراسان فى جنبها طولا وعرضا * ووافقت هذه الوقعة الباهرة أثرها * السائر فى الآفاق خبرها * يوم الخميس الثامن من المحرم سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة ولما وضعت هذه الحرب أحمالها * وحطت عن الظهور اثقالها * أحب السلطان أن يصرف الجيش وراءه ليراه بنوه وذووه فى شعار العار واسار الخسار * وتستطير هيبة الاسلام فى ديار الكفار * فواقفه على خمسين رأسا من خفاف الافيال وارثهن ابنا وحافد اله على الوفاء بها على الكمال * وعاد الكافور وراءه * حتى اذا استقر مكانه * كاتب ابنه أندبال وشاهبته وراءه يشكون اليه ما عراه من الفاقرة الكبرى * والداهية العظمى * وسأله سؤال ملحف أن يؤدى عنه الضمان * بما عزوهان * فساق اليه تلك الفيول * وصرف الرسول وسيقت جملتها الى السلطان فأمر بالافراج عن أولئك الرهائن * وكسع أدبارهم فوتلك المدائن * وحدث

الفرنج مع البرنس صاحب انطاكية وحاربوه وتلك الاعمال وساروا الى نور الدين ليرحلوه عن انب فلقيهم واقتتلوا قتالا عظيما وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم فانهزم الفرنج اقبح هزيمة وقتل منهم بحمع كثير وأسروا مثلهم وكان ممن قتل البرنس صاحب انطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت امه ببرنس آخر ليدبر البلاد الى ان يكبر ابنها واقام معها بانطاكية ثم ان نور الدين غزاهم غزوة اخرى فاجتمعوا ولقوه فهزمهم وقتل فيهم واسر وكان فيمن أسر البرنس الثانى زوج أم بيمند فتمكن حينئذ بيمند بانطاكية واكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر فان قتل البرنس كان عظيما عند الطائفتين وممن قال فيه القيسرانى الكاتب فى القصيدة المشهورة التى اولها

هذى العزائم لا ما تدعى القضب * وذى المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت * تعثرت خلفها الاشعار والخطب
صاغت يا ابن عماد الدين ذروتها * براحة للمساعى دونها التعب
مازال جدك يبنى كل شاهقة * حتى بنى قبة اوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة * فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة * أودى بها الصلب انحطت بها الصلب
طهرت أرض الاعادى من دمائهم * طهارة كل سيف عندها جنب

(ذكر الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم)

فى هذه السنة اختلف رجار الفرنجى صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد افريقية وكان القتال بينهم برا وبحرا والظفر فى جميع ذلك لصاحب صقلية حتى ان اسطوله فى بعض السنين وصل الى مدينة القسطنطينية ودخل فم الميناء واخذوا عدة شوانى من الروم واسروا جماعة منهم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالقشاب وكان الذى يفعل هذا بالروم والمسلمين جرجى وزير صاحب صقلية فرض بعدة امراض منها البواسير والحصاة ومات سنة ست واربعين وخمسمائة فسكنت الفتنة واستراح الناس من شره وفساده ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة زلزلت الارض زلزلة عظيمة فقيل ان جبلا مقابل حلوان ساخ فى الارض وفيها ولى أبو المظفر يحيى بن هبيره وزارة الخليفة المقتفى لامر الله وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد وحسن قيامه فى ردهم فرغب الخليفة فيه فاستوزره يوم الاربعاء رابع ربيع الآخر سنة اربع واربعين وكان القمر على تربيع زحل فقيل له لو أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات فقال واى سعادة اكبر من وزارة الخليفة ولبسها ذلك اليوم وفيها فى المحرم توفى قاضى القضاة على بن الحسين الزينبى وولى القضاء عماد الدين ابو الحسن على بن احمد الدامغانى وفيها فى المحرم رخصت الاسعار بالعراق

نفسه اندبال بان أباه قد
لبس بردة الخرف * وعض
على جمرة الهرم وقد طلع
عليه نسر الاسرود بران
الادبار وقوته عوى الامتحان
وشالت به شولة الخذلان
فقد حان ان يلقى حينه
ويتقاضى عليه الزمان
دينه * ومن سنتهم المطاعة
فيهم ان من حصل منهم فى
أيدى التائبة وهم المسلمون
أسيرا لم ينعقد له من بعد
رياسه * ولم تستتم له زعامة
وسياسه * ولما رأى جيبال
حصوله بين قيد الهرم وقد
المذلة آثر النار * على العار
والمنيه * على الدنيه * فبدأ
بشعره فحلق * ثم تحامل على
النار فاحترق * ولما استتب
للسلطان ما أراد * وانقاد
له ما اقتاد * ارتاح لغزوة
أخرى يطرز بها ديباجة
مقامه * ويعلم بحمامها عذبات
أعلامه * فمال نحو بيمند
فضرب عليها بكلكل الاقتدار
حتى افتتحها صغرا
واعتاض منها بعد العسر
يسرا * وبلغه لياذ طوائف
من الهنود بشعاب تلك
الاعلام * واستنارهم بخمر
الغياض والآجام * متحدثين
بالتحزب والتأليب على العناد
فأغزاهم جيشا يدوخ
مجالهم * ويفرق قبل الوصول
أوصالهم * فولغت فيهم
السيوف حتى رويت من

وكثرت الخيرات وخرج أهل السواد الى قراهم وفيها توفى الامير نظر امير الحاج وكان قد سار بالحاج الى الحلة فمرض واشتد مرضه واستخلف على الحاج قايماز الارجوانى وعاد الى بغداد مريضا فتوفى فى ذى القعدة وكان خصيا عاقلا خيرا معروف كثير الصدقات وافرة وفيها توفى احمد بن نظام الملك الذى كان وزير السلطان محمد والمسترشد بالله وفيها توفى على بن رافع بن خليفة الشيبانى وهو من أعيان خراسان وله مائة وسبع سنين شمسية ومات الامام مسعود الصوابى فى المحرم منها وفيها توفى معين الدين أنر نائب أبق صاحب دمشق وهو كان الحاكم والامر اليه وكان أبق صورة اميرا معنى تحتها وفيها توفى القاضى احمد بن محمد بن الحسين الارجانى أبو بكر قاضى تستر وله شعر حسن فمنه قوله

ولما بلوت الناس اطلب عندهم * اخا ثقة عند اعتراض الشدائد
تطلعت فى حالى رخاء وشدة * وناديت فى الاحياء هل من مساعد
فلم أر فيما ساءنى غير شامت * ولم أر فيما سرنى غير حاسد
تمتعتما يا ناظرى بنظرة * واوردتما قلبى أمر الموارد
أعينى كفا عن فؤادى فانه * من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

وفيها توفى أبو عبد الله عيسى بن هبة الله بن عيسى البزاز وكان ظريفا وله شعر حسن كتب اليه صديق له رقعة وزاد فى خطابه فاجابه

قد زدتنى فى الخطاب حتى * خشيت نقصا من الزياده
فاجعل خطابى خطاب مثلى * ولا تغير على عاده

* (ثم دخلت سنة خمس واربعين وخمسمائة) *

* (ذكر أخذ العرب الحجاج) *

فى هذه السنة رابع عشر المحرم خرج العرب زعب ومن انضم اليها على الحجاج بالغرابى بين مكة والمدينة فاخذوهم ولم يسلم منهم الا القليل وكان سبب ذلك ان نظرا امير الحاج لما عاد من الحلة على ماذكرناه وسار على الحاج قايماز الارجوانى وكان حدثا غرا فسار بهم الى مكة فلما رأى أمير مكة قايماز استصغره وطمع فى الحاج وتلطف قايماز الحال معه الى ان عادوا فلما سار عن مكة سمع باجتماع العرب فقال للحاج من المصلحة أنا لا نمضى الى المدينة فضج العجم وتهددوه بالشكوى منه الى السلطان سنجر فقال لهم فأعطوا العرب مالا نستكفى به شرهم فامتنعوا من ذلك فسار بهم الى الغرابى وهو منزل يخرج اليه من مضيق جبلين فوقفوا على فم مضيق وقاتلهم قايماز ومن معه فلما رأى عجزه اخذ لنفسه أمانا وظفروا بالحجاج وعنموا أموالهم وجميع ما معهم وتفرق الناس فى البر وهلك منهم خلق كثير لا يحصون كثرة ولم يسلم الا القليل فوصل بعضهم الى المدينة وتحملوا منها الى البلاد واقام بعضهم مع العرب حتى توصل الى البلاد ثم ان الله تعالى اقتص للحاج من زعب فلم يزالوا فى نقص وذلة ولقد رأيت شابا منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسمائة وجرى بينى وبينه مفاوضة قلت له فيها انى والله كنت اميل اليك حتى سمعت انك من زعب فنفرت وخفت شرك فقال لم فقلت بسبب أخذكم الحاج فقال لى انا لم أدرك ذلك الوقت وكيف رأيت الله صنع بنا والله ما افلحنا ولا تجعنا قل العدد وطمع العدو فينا

* (ذكر

رشاش دمائهم * وصدقت من مخالطة أحشائهم وتهارب من سلم من ظباتها كالا وعال * فى ربوة تلك الجبال * يرون الكواكب ظهرا * والمنايا سودا وحمرا وذاقوا وبال امرها وكان عاقبة أمرها خسرا * وانقلبت رايات السلطان الى غزنة خافقة بالنجح الشائع * والفتح الرائع * والحول المتين * والنصر المستبين * وقد أشرق وجه الاسلام وابتسم ثغر الايمان وانشرح صدر الملة * وانفصم ظهر الشرك والبدعة * وقد كان خلف بن أحمد عند انصراف راية السلطان عن وجهه عهد الى ولده طاهر فى اعمال سجستان وأسند أمورها اليه ايثارا له على نفسه وهداه كريمة الملك اليه قبل وقته * تثبيتا لها فى ملكه قبل استصفاقه اياها بارثه تعريضا للسلطان باستعفائه عن الملك * واقباله على النسك واعتياضه تواضع العباده * عن ترفع السياده * ليقطع بخروج الامر من يده * طمعه عن قصده وحصده * فلما تنفست المدة على ماولاه نطقت شواهد الخمود فى اختياره * وبدت نواجذ العقوق عن شئ آثاره * فلم يزل يلاطفه ويداريه * حتى أعماه عما نواه فيه * ثم تمارض

(ذكر فتح حصن فامية)

فى هذه السنة فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنكى حصن فامية من الفرنج وهو مجاور شيزر وحماة على تل عال من أحصن القلاع وامتنعها فسار نور الدين اليه وحصره وبها الفرنج وقاتلهم وضيق على من بها منهم فاجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنهم فلم يصلوا الا وقد ملكه وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج اليه فلما بلغه سير الفرنج اليه رحل عنه وقد فرغ من أمر الحصن وسار اليهم يطلبهم فحين رأوا ان الحصن قد ملك وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه فى المهادنة وعاد سالما مظفرا ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح فمن ذلك قول ابن الرومى من قصيدة أولها

اسنى الممالك ما أطلت منارها * وجعلت مرهفة الدسار دسارها
واحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنفه عدله اقطارها

ومنها فى وصف الحصن

ادركت ثارك فى البغاة وكنت يا * مختار امة احمد مختارها
ضاءت نجومك فوقها ولطالما * باتت تنافسها النجوم شرارها
* عارية الزمن المعير سماؤها * منك المغيرة فاستردمعارها
امست مع الشعرى العبور واصبحت * شعراء تستفلى الفحول شوارها

وهى طويلة

(ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها)

فى هذه السنة سار السلطان وهو الاذفونش وهو ملك طليطلة واعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج فى اربعين الف فارس الى مدينة قرطبة فحصرها وهى فى ضعف وغلاء فبلغ الخبر الى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجهز مقدمهم ابا زكريا يحيى بن يرموز ونفذهم الى قرطبة فلما قربوا منها فلم يقدروا ان يلقوا عسكر السليطين فى الوطاء وارادوا الاجتماع باهل قرطبة ليمنعوها لخطر العاقبة بعد القتال فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما فى الوعر فى مسافة أربعة أيام فى السهل فوصلوا الى الجبل المطل على قرطبة فلما رآهم السليطين وتحقق امرهم رحل عن قرطبة وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القايد ابن غلبون وهو من أبطال أهل الاندلس وامرائها فلما رحل الفرنج خرج منها لوقته وصعد الى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذى كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذى خفته عليكم لانى علمت ان السليطين ما اقام الا طالبا لكم فان من الموضع الذى كان فيه طريق سهلة ولو لحقكم هنالك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين انهم قد فاتوه علم انه لم يبق له طمع فى قرطبة فرحل عائدا الى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة اشهر والله أعلم

(ذكر ملك الغورية هراة)

فى هذه السنة ملك ملك الغور الحسين بن الحسين من بلاد الغور الى هراة فحصرها وكان أهلها

خلف فى الحصار المذكور واستدعى ابنه لقبول الوصية * وتسليم الودايع الخفية * فغفل عن سر التدبير وتدبر العقاب والنكير وأقبل اقبال طرفه بن العبد على خصلتى الضبع من ضرب الجيد * أو حز الوريد * وقد كان خلف بن أحمد كمن له مقانب من جيشه فاحاطوا به احاطة خيل الزباء بجذيمة الوضاح الى أن حصل فى معتقله * وحبس فى مكمن اجله * وبقى فى السجن على حاله الى ان اخرجت جنازته محالا عليه فى قتل نفسه والجناية على روحه ودمه ولما سمع طاهر بن زيد صاحب جيش خلف بن احمد وسائر القواد بسجستان ما جرى فى امر طاهر دخلت فى طاعته ضمائرهم * ونغلت فى موالاته سرائرهم وانتقضت خوف الاسوة فيه سرائرهم * وضبطوا قلك المدينة على طاعة السلطان ومشايعته وارسلوا اليه بما اوجبوه من التمسك بحبل الطاعه * والتمسك بدين الجماعه * وسألوا انهاض من يتولى تسليم الناحية منهم ليبتدروا الى بابه * ويتعطروا بلثم ترابه ففعل السلطان ما سألوه وجزاهم الخير على ما فعلوه

قد كاتبوه وطلبوا ايسلموها اليه هربا من الاتراك لهم وزوال هيبة السلطنة عنهم فامتنع اهل هراة عليه ثلاثة أيام ثم خرجوا اليه وسلموا البلد واطاعوه فاحسن اليهم وافاض عليهم النعم وغمرهم بالعدل وأظهر طاعة السلطان سنجر والقيام على الوفاء له والانقياد اليه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة امر علاء الدين محمود بن مسعود الغالب على أمر طريثيث اقامة الخطبة للخليفة ولبس السواد ففعل الخطيب ذلك فشاربه عمه واقاربه ومن وافقهم وقاتلوه وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب وكان فعل علاء الدين هذا لان اباه كان مسلما فلما تغلب الاسماعيلية على طريثيث اظهر موافقتهم وابطن اعتقاد الشريعة وكان يناظر على مذهب الشافعى وازداد تقدما بطريثيث وجرت امورها بارادته فلما حضره الموت اوصى ان يغسله فقيه شافعى واوصى الى ابنه علاء الدين ان امكنه ان يعيد فيها اظهار شريعة الاسلام فعل فلما رأى من نفسه قوة فعله فلم يتم له وفيها كثر المرض بالعراق لاسيما ببغداد وكثر الموت أيضا فيها ففارقها السلطان مسعود وفيها توفى الامير على بن دبيس بن صدقة صاحب الحلة باسداباد واتهم طبيبه محمد بن صالح بالمواطأة عليه فمات الطبيب بعده بقريب وفيها استوزر عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب اباجعفر ابن أبى أحمد الاندلسى وكان ماسورا عنده فوصف له بالعقل وجودة الكتابة فاخرجه من الحبس واستوزره وهو أول وزير كان للموحدين وفى هذه السنة فى المحرم جلس يوسف الدمشقى مدرسا فى النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير امر الخليفة فمنع يوم الجمعة من دخول الجامع فصلى فى جامع السلطان ومنع من التدريس فتقدم السلطان مسعود الى الشيخ ابى النجيب بان يدرس فيها فامتنع بغير امر الخليفة فاستخرج السلطان اذن الخليفة فى ذلك فدرس منتصف المحرم من السنة وفيها توفى أبو عبد الله محمد بن على مهران الفقيه الشافعى تفقه على الهراسى وولى قضاء نصيبين ثم ترك القضاء وتزهد فاقام بجزيرة ابن عمر ثم انتقل الى جبل بلد الحصن فى زاوية وكان له كرامات ظاهرة وفيها مات الحسن بن ذى النون بن أبى القاسم بن أبى الحسن المسعرى ابو المفاخر النيسابورى سمع الحديث الكثير وكان فقيها اديبا دائم الاشتغال يعظ الناس وكان مما ينشد

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا * ومات من بعدهم تلك الكرامات

وخلفونى فى قوم ذوى سفه * لو ابصروا طيف ضيف فى الكرى ماتوا

(ثم دخلت سنة ست واربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك)

فى هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار الى بلاد جوسلين الفرنجى وهى شمال حلب منها تل باشر وعين تاب واعزاز وغيرها وعزم على محاصرتها واخذها وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأى فلما علم بذلك جمع الفرنج فاكثر وسار نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير وكان فى جملة من أسر سلاح دار نور الدين فاخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره الى الملك مسعود بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه

فلما

واقيمت الدعوة للسلطان بها فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ولما فتح الله له وتاجها * ويسر له انفراجها عزم على قصد خلف وحسم دائه * وكفاية الخاصة والعامة عوداى مكره ودهائه وهو يومئذ بحصار الطاق ومن صفته انه ذو سبعة اسوار رفيعة الجدران منيعة البنيان * وثيقة الاركان * يحيط بها خندق بعيد القعر فسيح العرض منيع الخاض لا يعبر منه الى المدينة الا من طريق فى مضيق على جسر يطرح عند الحاجة ويرفع وقت الاستغناء عنه فعسكر السلطان حواليه محيطا به من جوانبه احاطة الخيط بنقطة المركز وجعل يستقرى بالرأى وجه الحيلة فى طم ذلك الخندق وكبسه ليستدف على الفارس والراجل خوضه وعبوره وكانت حوالى معسكره منابت اثل وطرفاء ذوات احتفاف والتفاف فعرض على اهل عسكره خاصهم وعامهم راجلهم وفارسهم * عضد ما يمكنهم عضده منها اضغاثا وحزما تاقم عرض الخندق ليستتب ظهور الجمال والمخترق وبادر الناس اليه فلم تشرق شمس

فلما علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك وعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ بثاره واحضر جماعة من امراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلموه اليه اما قتيلا او اسيرا لانه علم انه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيدا فلحقت به طائفة منهم وظفروا به فصانعهم على مال يؤديه اليهم فاجابوه الى اطلاقه اذا حضر المال فارسل في احضاره فمضى بعضهم الى أبي بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب فاعلمه الحال فسير عسكرا معه فكبسوا اولئك التركمان وجوسلين معهم فاخذوه اسيرا واحضروه عنده وكان اسره من أعظم الفتوح لانه كان شيطانا عاتيا شديدا على المسلمين قاسي القلب واصيبت النصرانية كافة باسره ولما أسر سار نور الدين الى قلاعه فملكها وهي تل باشر وعين تاب واعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفرسود وكفر لاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله في مدة يسيرة يرد تفصيلها وكان نور الدين كلما فتح منها حصنا نقل اليه من كل ما تحتاج اليه الحصون خوفا من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو ومدحه الشعراء فممن قال فيه القيسراني من قصيدة في ذكر جوسلين

كما أهدت الاقدار للقمص اسره * واسعد قرن من حواه لك الاسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فاوبقه الكفران عدواه والكفر
وامست عزاز كاسمها بك عزة * تشوق على النسرين لوانهما وكر
فسروا ملك الدنيا ضياء وبهجة * فما لافق الداجي الى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم لاقل حده * واقصاه بالاقصى وقد قضي الامر
وقد اصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جاري الدماء له طهر

(ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الاندلس)

في هذه السنة سير عبد المؤمن جيشا كثيفا نحو عشرين ألف فارس الى الاندلس مع ابي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وسير معهم نساءهم فكن يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا الى غرناطة وبها جمع من المرابطين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاءه اليه احمد بن ملحان صاحب مدينة وادي آش واعمالها بجماعته ووحدوا وصاروا معه واتاه ابراهيم ابن همشك صهر بن مردنيش صاحب جيان واصحابه ووحدوا وصاروا أيضا معه فكثر جيشه وحرضوه على المسارعة الى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الاندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه فارسل الى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول اليه فسار اليه الفرنجي في عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا الى حمة بلقوارة وبينها وبين مرسية التي هي مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول الفرنج فرجع وحصر مدينة المرية وهي للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء في العسكر وعدمت الاقوات فرحلوا عنها وعادوا الى اشبيلية فاقاموا بها

(ذكر عدة حوادث)

النهار على التكبيد حتى اعرض عرض المخاضة من جانب باب الحصار للركوب وثار اليه عند ذلك الخيول وتبعتها الفيول * ومانع اصحاب خلف بن احمد من شرفات الحصار * بقذفات الاحجار * واشتعلت بينهم الحرب ترمي بشرر كالقصر وتنحى على القصرات بالفرس والقسر * وزحف الفيل العظيم الى باب الحصار فاقتلعه بنائه وزخ به في الهواء فانحط الى الارض من حالق وقتل من اصحاب خلف الجم الغفير ولجأ الباقون على اطراف الحاجز الى السور الداخل وذمر عسكر السلطان على الحصار وتماسك اصحاب خلف فوق شرافات السور الآخر مناضلين عنها بأحجار المجانيق * واطراف الحراب والمزاريق * واطلع خلف ابن احمد عند اشتداد الخطب على ملتقى الفريقين فرأى هول المطلع ورأى تموج الفضاء بعفاريت الانجاد * على شياطين الجياد وتطاير النبال كرجل الجراد * وترامى الحراب كعزالى السحاب * وفيح الدماء * كسيح السماء * وعاين الفيل قد اهوى الى بعض اصحابه بخرطومه فرمى به

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي العبادي الواعظ واسمه المظفر بن اردشير بخوزستان وكان الخليفة المقتفي لامر الله قد سيره في رسالة الى الملك محمد بن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحوائزي فتوفي هناك وجلس ولده ببغداد للعزاء واقيم بحاجب من الديوان العزيز وكان ابنه يجلس ويعظ ويذكر والده ويبكي هو والناس كافة ونقل العبادي الى بغداد ودفن بالشونيزي ومولده سنة احدى وتسعين واربعمائة وسمع الحديث من أبي بكر السروي وزاهر الشحامي وغيرهما وفيها انفجر بشق النهروان الذي اتمه بهروز بكثرة الزيادة في تامرا واهمال امرها حتى عظم ذلك وتضرر به الناس وفيها سار الامير بقش في طائفة من عسكر السلطان سنجر الى طريثيث بخراسان واغار على بلاد الاسماعيلية فنهب وسبى وخرب واحرق المساكن وفعل بهم افاعيل عظيمة وعاد سالما

(ثم دخلت سنة سبع واربعين وخمسمائة)

(ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بني حماد)

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن علي الى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بني حماد وكان لما اراد قصدها سار من مراكش الى سبتة سنة ست واربعين فاقام بها مدة يعمل الاسطول ويجمع العساكر القريبة منه واما ما هو على طريقه الى بجاية من البلاد فكتب اليهم ليتجهزوا ويكونوا على الحركة اي وقت طلبهم والناس يظنون انه يريد العبور الى الاندلس فارسل في قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب براو بحرا وسار من سبتة في صفر سنة سبع واربعين فاسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلقاه في طريقه فلم يشعر اهل بجاية الا وهو في اعمالها وكان ملكها يحيى ابن العزيز بن حماد آخر ملوك بني حماد وكان مولعا بالصيد واللهو لا ينظر في شئ من أمور مملكته قد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبد المؤمن فلقيهم مقدمته وهي تزيد على عشرين ألف فارس فانهزم اهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدمة عبد المؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين وتفرق جميع عسكر يحيى ابن العزيز وهرب بوابرا وبحرا ومحصن يحيى بقلعة قسطنطينية الهواء وهرب اخواه الحرث وعبد الله الى صقلية ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال ثم ان يحيى نزل الى عبد المؤمن بالامان فأمنه وكان يحيى قد فرح لما أخذت بلاد افريقية من الحسن بن علي فرحا ظهر عليه فكان يذمه ويذكر معايبه فلم تطل المدة حتى اخذت بلاده ووصل الحسن بن علي الى عبد المؤمن في جزائر بني مزغنان وقد ذكرنا سنة ثلاث واربعين سبب مصيره اليها واجتمعا عنده فارسل عبد المؤمن يحيى بن العزيز الى بلاد المغرب واقام بها واجرى عليه شيأ كثيرا واما الحسن بن علي فانه احسن اليه والزمه صحبته واعلى مرتبته فلزمه الى ان فتح عبد المؤمن المهدية فجعله فيها وامر واليها ان يقتدي برأيه ويرجع الى قوله ولما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض الى مال أهلها ولا غيره وسبب ذلك ان بني حمدون استأمنوا فوفى لهم بامانه

(ذكر ظفر عبد المؤمن بصنهاجة)

لما ملك عبد المؤمن بجاية تجمعت صنهاجة في امم لا يحصيها الا الله تعالى وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبد المؤمن فارسل

في الهواء قاب رمحين ثم تلقاه بنانيه * واقبل على آخرين يدوسهم بمنسميه ثم انحى على الباب بمنكبيه فزعزعه بعضادتيه * واقتلعه بضبات الحديد عليه * فاستطار عند ذلك قلبه وجاش جاشه وارتاع روعه واضطره هول المقام * وفزع الاصطلام * الى طاب الامان واستغاثة السلطان * فكف عنه يد الاختزام * ووضع عنه سوط الانتقام * كرما غذاه الله بدره * واطرب بنشوة خمره * واقبل خلف ابن احمد على بذله الجائزة حتى استؤذن له على السلطان فدخل واهوى الى الارض بشيبته البيضاء متعززا بذل الخدمة وغشى البساط من سبج الجواهر والفرائد بما كسف النهاره وخطف الابصار نثارا ينوب عنه في شكر ما اذاقه من برد العفو والرحمة وحماه من حريم الروح والمهجة فتكرم السلطان بالرفع من قدره وضم يده عند التقريب الى صدره * تناسيا لما سبق من هناته * وتغابيا عما قدم من ذحوله وتراته * وحكمه في احتمال ما احب من زبد يساره * وذخائر حصاره * وخيره في المقام حيث شاء من ديار ممالكه وامصاره

اليهم

اليهم جيشا كثيرا وقدمهم ابو سعيد يحلف وهو من الخمسين فالتقوا في عرض الجبل شرقي بجاية فانهزم ابو قصبة وقتل اكثر من معه ونهبت اموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ولما فرغوا من صنهاجة ساروا الى قلعة بني حماد وهي من احصن القلاع واعلاها الا ترام على رأس جبل شاهق لا يكاد الطرف يحققها لعلوها ولكن القدر اذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها في رؤس الجبال وملكت القلعة واخذ جميع ما فيها من مال وغيره وحمل الى عبد المؤمن فقسمه بين اصحابه

(ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود)

في هذه السنة اول رجب توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى حادة نحو اسبوع وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة ومات معه سعادة البيت السلجوقي فلم يقم له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت اليها

فما كان قيس هلكه هلك واحد * ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان رحمه الله حسن الاخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس فمن ذلك ان اتابك زنكي صاحب الموصل ارسل اليه القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري في رسالة فوصل اليه واقام معه في العسكر فوقف يوما على خيمة الوزير حتى قارب اذان المغرب فعاد الى خيمته فاذن المغرب وهو في الطريق فرأى انسانا فقيها في خيمة فنزل اليه فصلى معه المغرب ثم سأله كمال الدين من أين هو فقال انا قاضي مدينة كذا فقال له كمال الدين القضاة ثلاثة قاضيان في النار وهو انا وانت وقاض في الجنة وهو من لم يعرف ابواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم فلما كان الغد ارسل السلطان واحضر كمال الدين اليه فلما دخل عليه ورآه ضحك وقال القضاة ثلاثة فقال كمال الدين نعم يا مولانا فقال والله صدقت ما اسعد من لا يرانا ولا نراه ثم امر ان تقضى حاجته واعاده من يومه وكان كريما عفيفا عن الاموال التي للرعايا حسن السيرة فيهم من اصلح السلاطين سيرة وأليمهم عريكة سهل الاخلاق لطيفا فمن ذلك انه اجتاز يوما في بعض اطراف بغداد فسمع امرأة تقول لاخرى انظري الى السلطان فوقف وقال حتى نجيء هذه الست تنظر الينا وله فضائل كثيرة ومناقب جمة وكان عهد الى ملكشاه ابن اخيه السلطان محمود فلما توفي خطب له الامير خاص بك ورتب الامور وقرر امرها بين يديه واذعن له جميع العسكر بالطاعة ولما وصل الخبر الى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها وهو مسعود بلال الى تكريت واستظهر الخليفة المقتفي لامر الله على داره ودور اصحاب السلطان ببغداد واخذ كل ما لهم فيها وكل من كان عنده وديعة لاحد منهم احضرها بالديوان وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم بارافة الحمور من مساكن اصحاب السلطان ووجد في دار مسعود بلال شحنة بغداد كثير من الخمر فاريق ولم يكن الناس يظنون انه شرب الخمر بعد الحج وقبض على المؤيد الالوسي الشاعر وعلى الحيص بيص الشاعر ثم اطلق الحيص بيص وأعيد عليه ما اخذ منه ثم ان السلطان ملكشاه سير سلاركرد في عسكر الى الحلة فدخلها فسار اليه مسعود بلال شحنة بغداد واظهر له الاتفاق معه فلما اجتمعا قبض عليه مسعود بلال وغرقه واستبد بالحلة فلما علم الخليفة ذلك جهز العساكر اليه مع عون الدين

فاختار ارض الجوزجان سترا وحالا روح نسيم هوائها واستعذبا بالغمير مائها واتساعا في مراتع العيون حول ارجائها * وامر السلطان بتسييره اليها في هيئة ذوي الهيبة معافى بلباس الصيانة * عن عورة الاهانة * فاقام بها قرابة أربع سنين في ظل الترفيه وساعدته القناعة بما هو فيه * ثم انهى الى السلطان مراطنة بينه وبين ايلك الخان بملطفات سيرها اليه ورسالات أغراه بها عليه اقتضاه الاحتياط نقله الى جرديز ابقاء عليه * من صدق ما أضيف اليه * واستقاما للصنيعة لديه * واحتراسا عما يلجأ اليه * من ابطال ذلك الافضال وتكدير ذلك الغدير فبقي هناك على جملته الى أن حقت عليه القضية واخترمته المنية * وذلك في رجب سنة تسع وتسعين وثلثمائة وأمر السلطان بحفظ جميع ما تخلف عنه على ولده أبي حفص وتقريره في يده وتمكينه من خدمته وأنشدني ابو منصور الثعالبي لنفسه حين وهى أمره وصفرت عن الملك يده قوله

من ذا الذي لا يذل الدهر صعبته
ولا تلين يد الايام صعدته

ابن هبيرة فسار اليه فلما قاربوا الحلة عبر مسعود بلال الفرات اليهم وقاتلهم فانهزم من عسكر الخليفة ونادى اهل الحلة بشعار الخليفة فلم يدخلها وتمت الهزيمة عليه وعلى اصحابه فعاد الى تكريت وملك عسكر الخليفة الحلة وسير الوزير عسكرا الى الكوفة وعسكرا الى واسط فملكوهما ثم ان عساكر السلطان وصلت الى واسط ففارقها عسكر الخليفة فلما سمع الخليفة ذلك تجهز بنفسه وسار عن بغداد الى واسط ففارقها العسكر السلطاني وملكها الخليفة وسار منها الى الحلة ثم عاد الى بغداد فوصلها تاسع عشر ذى القعدة وكانت غيبته خمسة وعشرين يوما ثم ان خاص بك بن بلنكرى قبض على الملك ملكشاه الذى خطب له بالسلطنة بعد مسعود وارسل الى اخيه الملك محمد سنة ثمان واربعين وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده ان يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل اجلسه على تخت السلطنة اوائل صفر وخطب له بالسلطنة وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم انه دخل الى الملك محمد ثانى يوم وصوله فقتله محمد وقتل معه زنكى الجاندار والقى براسهما فتفرق اصحابهما ولم ينتطح فيهما عنزان وكان ايدغدى التركمانى المعروف بشملة مع خاص بك فنهاه عن الدخول الى الملك محمد فلم ينته فقتل ونجا شملة فنهب جشير الملك محمد ومضى طالبا خوزستان واخذ محمد من أموال خاص بك شيأ كثيرا واستقر محمد فى السلطنة وتمكن وبقى خاص بك ملقى حتى اكلته الكلاب وكان صيارتكمانيا اتصل بالسلطان مسعود فتقدم على سائر الامراء ثم كان هذا خاتمة امره

(ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج)

فى هذه السنة تجمعت الفرنج وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد حوسلين ليمنعوه عن ملكها فوصلوا اليه وهو بدلوك فلما قربوا منه رجع اليهم والتقيهم وجرى المصاف بينهم عند دلوك واقتتلوا اشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وقتل منهم وأسر كثير وعاد نور الدين الى دلوك فملكها واستولى عليها ومما قيل فى ذلك

اعدت بعصرك هذا الانيق * فتوح النبى واعصارها
فواطمات يا حبذ أحدبها * واسررت من بدرا بداها
وكان مهاجرها تابعيك * وانصار رأيك انصارها
فجددت اسلام سلمانها * وعمر جدلك عمارها
ومايوم انب الاذا * لك بل طال بالنوع اشبارها
صدمت عزيمتها صدمة * اذابت مع الماء احجارها
وفى تل باشر باشرتهم * بزحف تسود اسوارها
وان دالكتهم دلوك فقد * شددت فصدقت اخبارها

(ذكر الحرب بين سنجر والغورية)

فى هذه السنة كان بين السلطان سنجر وبين الغورية حرب وكانت دولتهم اول ما قد ظهرت واول من ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسن ملك جبال الغور ومدينة فيروزكوه وهى تقارب اعمال غزنة وقوى امره وتلقب بعلاء الدين وتعرض الى اعمال ثم جمع جيشا وقصد هراة

محاصرا

أما ترى خلفا شيخ الملوك غدا
ملوك من فتح العذراء بلدته
قد كان بالامس ملكا لانظير له
فاليوم فى الاسر لا يفتاش اسرته

وكان خلف بن أحمد مغشى الجناب من اطراف البلاد لسماحة كفه وغزارة سيبه * وافضاله على أهل العلم وحزبه * وقد مدح على ألسنة الشعراء والعلماء بما هو سائر * وذكره فى الآفاق طائر * وقد كان جمع العلماء على تصنيف كتاب فى تفسير كتاب الله تعالى لم يغادر فيه حرفا من أقاويل المفسرين * وتأويل المتأولين * ونكت المذكرين وأتبع ذلك بوجوه القراآت وعلل النحو والتصريف وعلامات التذكير والتأنيث * ووشحها بما رواه الثقات الاثبات من الحديث * وبلغنى انه انفق عليهم مدة اشتغالهم بعمونته على جمعه وتصنيفه عشرين ألف دينار ونسختها بنيسابور موجود فى مدرسة الصابونية لكنها تستغرق عمر الكاتب وتستنفد حبر الناسخ الا ان يتقاسمها النساخ بالخطوط المختلفة

وأخبرنى أبو الفتح على بن

محاصرا لها فنهب عسكره ناب واوبة ومار باد من هراة الرود وسار الى بلخ وحصرها فقاتله الامير قاج ومعه جمع من الغز فهزموا به وصاروا مع الغورى فلما سمع السلطان سنجر بذلك سار اليه ليمنعه فثبت له علاء الدين واقتتلوا فانهزم الغورية وأسر علاء الدين وقتل من الغورية خلق كثير لاسيما الرجالة واحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه وقال له ياحسين لو ظفرت بى ما كنت تفعل فاخرج له قيد فضة وقال كنت اقيدك بهذا وأحملك الى فيروزكوه فخلع عليه سنجر ورده الى فيروزكوه فبقى بها مدة ثم انه قصد غزنة وملكها حينئذ بهرام شاه بن مسعود بن محمود بن سبكتكين فلم يثبت بها بين يدى علاء الدين بل فارقها الى مدينة كرمان وهى مدينة بين غزنة والهند وسكانها قوم يقال لهم ابغان وليست هذه بالولاية المعروفة بكرمان فلما فارق بهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغورى واحسن السيرة فى اهلها واستعمل عليهم اخاه سيف الدين واجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولاخيه سيف الدين بعده ثم عاد علاء الدين الى بلاد الغور وأمر اخاه ان يخلع على اعيان البلد خلعا نفيسة ويصلهم بصلات سنية ففعل ذلك واحسن اليهم فلما جاء الشتاء ووقع الثلج وعلم اهل غزنة ان الطريق قد انقطع اليهم فكاتبوا بهرام شاه الذى كان صاحبها واستدعوه اليهم فسار نحوهم فى عسكره فلما قارب البلد ثار اهله على سيف الدين فاخذوه بغير قتال وكان العلويون هم الذين تولوا أسره وانهزم الذين كانوا معه فمنهم من نجا ومنهم من أخذ ثم انهم سودوا وجه سيف الدين واركبوه بقرة واطافوا به البلد ثم صلبوه وقالوا فيه اشعارا يهجونه وغنوا بها حتى النساء فلما بلغ الخبر الى أخيه علاء الدين الحسين قال شعرا معناه ان لم اقلع غزنة فى مرة واحدة فلست الحسين بن الحسين ثم توفى بهرام شاه وملك بعده ابنه خسروشاه وتجهز علاء الدين الحسين وسار الى غزنة سنة حسين وخمسمائة فلما بلغ الخبر الى خسروشاه سار عنها الى لهاوور وملكها علاء الدين ونهبها ثلاثة ايام واخذ العلويين الذين اسروا اخاه فالقاهم من رؤس الجبال وخرب المحلة التى صلب فيها واخذ النساء اللواتى قيل عنهن انهن كن يغنين بهجاء اخيه والغورية فادخلهن حماما ومنعهن من الخروج حتى متن فيه وأقام بغزنة حتى اصلحها ثم عاد الى فيروزكوه ونقل معه من أهل غزنة خلقا كثيرا وحملهم النخالى مملوأة ترابا فبنى به قلعة فى فيروزكوه وهى موجودة الى الآن وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية وقد تقدم سنة ثلاث واربعين وخمسمائة من أخبارهم وفيه مخالفة لهذا فى بعض الامر وكلا سمعناه ورأيناه فى مصنفاتهم فلهذا ذكرنا الامرين وأقام الحسين على ذلك مدة واستعمل ابنى اخيه وهما غياث الدين وشهاب الدين

(ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين)

لما قوى امرهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل العمال والامراء على البلاد وكان ابنا اخيه وهما غياث الدين ابو الفتح محمد بن سام وشهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام فعين استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه سنجة وكان غياث الدين يلقب حينئذ شمس الدين ويلقب الآخر شهاب الدين فلما استعملهما احسنا السيرة فى عملهما وعدلا وبذلا الاموال فمال الناس اليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما الى عمهما علاء الدين وقال انهما يريدان

محمد البستى الكاتب قال كنت عملت فيه ثلاثة أبيات من غير قصد لتبليغها اياه لكنها سارت على ألسنة الرواة اليه فلم أشعر الا بصرة فيها ثلثمائة دينار أتحفنى بها على يد بعض ثقاته صلة لى على ما قلته * والابيات هذه خلف بن أحمد أحمد الاخلاف

أربى بسوددة على الاسلاف
خلف بن أحمد فى الحقيقة واحد

لنسكه مرب على الآلاف
أضحى لآل الليث اعلام الورى

مثل النبى لآل عبد مناف
فقلت له قريب من هذه الصورة حديث أبى اسحق ابراهيم بن هلال الصابى وذلك ان رسول سيف الدولة كان قدم بلد السلام فطلب شيأ من شعره على لسان صاحبه فدافعه به الى ان أزف ارتحاله وأتاه عند الوداع ملحا عليه فاعطاه بجانة الوقت قوله

ان كنت خنتك فى الموثة
ساعة
فذممت سيف الدولة المحمودا *
وزعمت ان له شريكا
فى العلا
وجحدته فى فضله التوحيدا
قسما لوانى حالف بغموسها
لغريم دين ما أراد مزيدا
فلما عاد الرسول الى الحضرة

الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك فارسل عمهما يستدعيهما اليه فامتنعا وكانا قد علما الخبر فلما امتنعا جهز اليهما عسكرا مع قائد يسمى خروش الغورى فلما التقوا انهزم خروش ومن معه وأسروهما وابقيا عليه واحسنا اليه وخلعا عليه واظهرا عصيان عمهما وقطعا خطبته فتوجه اليهما علاء الدين وسار اهما ايضا اليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم علاء الدين وأخذا سيرا وانهزم عسكره فنادى فيهم ابنا اخيه بالامان فاحضراعمهما واجلساه على التخت ووقفا فى خدمته فبكى علاء الدين وقال هذان صبيان قد فعلا ما لو قدرت عليه منهما لم افعله واحضر القاضى فى الحال وزوج غياث الدين بنته له وجعله ولى عهده وبقى كذلك الى ان مات فلما توفى ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه فى الغور وغزنة بالملك وبقى كذلك الى ان ملك الغز غزنة بعد موت علاء الدين طمعوا فيها بموته وبقيت بايديهم خمس عشرة سنة يصبون على اهلها العذاب ويتابعون الظلم كعادتهم فى كل بلدة ملكوها ولو أنهم لما ملكوا احسنوا السيرة فى الرعايا لدام ملكهم فلم يزل الغز بغزنة هذه المدة وغياث الدين يقوى امره ويحسن السيرة والناس يميلون اليه ويقصدونه محبة له

(ذكر ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد)

لما قوى امر غياث الدين جهز جيشا كثيفا مع اخيه شهاب الدين الى غزنة فيه اصناف الغورية والخلج والخراسانية فساروا اليها فلقيهم الغز وقاتلوهم فانهزم الغورية وثبت شهاب الدين فيمن ثبت معه على صاحب علمهم فقتله واخذ العلم وتركه على حاله فتراجع الغز ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين فجاؤا يطلبون علمهم فكلما جاء اليه طائفة قتلهم فاتى على اكثرهم ودخل غزنة وتسلمها وأحسن السيرة فى اهلها وافاض العدل وسار من غزنة الى كرمان وشنوران فملكها ثم تعدى الى ماء السند وعمل على العبور الى بلاد الهند وقصدها ومر وبها يومئذ خسروشاه بن بهرام شاه المقدم ذكر والده فلما سمع خسروشاه بذلك سار فيمن معه الى ماء السند فمنعه من العبور فرجع عنه وقصد خرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند واعمال الابغان والله أعلم

(ذكر ملك شهاب الدين لهاور)

لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوى امره وجنانه وعظمت هيبته فى قلوب الناس واحبوه لحسن سيرته فلما خرج الشتاء واقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة سار نحو لهاور فى جمع عظيم وحشد كثير من خراسان والغور وغيرها فعبر الى لهاور وحصرها وارسل الى صاحبها خسروشاه والى اهلها يتهددهم ان منعوه واعلمهم انه لا يزول حتى يملك البلد ويذل خسروشاه الامان على نفسه واهله وماله ومن الاقطاع ما اراد وان يزوج ابنته ابن خسروشاه على ان يطأ بساطه ويخطب لاخيه فامتنع عليه واقام شهاب الدين محاصرا له مضيقا عليه فلما رأى اهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نياتهم فى نصرة صاحبهم فخذلوه فارسل لما رأى ذلك قاضى البلد والخطيب يطلبون له الامان فاجابه شهاب الدين الى ذلك وحلف له وخرج اليه ودخل الغورية الى المدينة وبقى كذلك شهرين مكرما عند شهاب الدين فورد رسول من غياث الدين الى شهاب الدين يامره بانفاذ خسروشاه اليه

*(ذكر

حمل اليه صرة فيها ثلثمائة دينار موسومة باسمه وللشيخ أبى الفتح البستى فيه أيضا يمدحه

من كان يبغى علو الذكر والشرفا
أو يبتغى عطف دهر قد نبا وجفا
أو كان يأمن عند الله منزلة
تنيله قرب الابرار والزلفا
أو كان يطلب دينا يستقيم به
ولا يرى عوجا فيه ولا جنفا
أو كان ينشد مما فاته خلفا
فليخدم الملك العدل الرضى خلفا
الوارث العدل والعلياء من سلف
حتوا بعلياهم فى وجه من سلفا
المؤثر القصد فى انحاء سوددده
فان اراد عطاء آثر السرفا
اذا التوى عنق ولى حكومته
سيفا اذا ما اقتضى حقا له اتصفا
والسيف ابلغ للاعناق موعظة
كم من صليف حماه حده الصلفا
وان بدا كاف فى وجه مكرمة
جلا بلا كاف عن وجهه الكلفا
رضاه يصرف عمن يستجير به
صرف الزمان اذا ما نابه صرفا

*(ذكر

اذا اقشعر زمان من جدوبته
اغنى الورى وكفى جوده وكفا
بسخطه يدع الافلاك خائفة
والشمس حائرة والبدر منكسفا
يرى التوقف فى يوم وغى وندى
وصمافان عن رأى مشكل وقفا
لله نصل ضئيل فى انامله
اعاد حظى سمينا بعد ما نحفا
يهين اموا له كى يستفيد بها
عزا يؤثل فى اعقابه الشرفا
والمرء للوم فى احواله هدف
ان لم يكن ماله من دونه هدفا
لا يلحق الواصف المطرى معانيه
وان يكن سابقا فى كل ما وصفا
وانشدنى ابو الفضل الهمدانى قصيدته التى يمدح بها خلف بن احمد اولها
سماء الدجى ما هذه الحدق النجل
اصدر الدجى حال وجيد الضحى عطل
لك الله من عزم اجوب جيوبه
كأنى فى اجفان عين الردى كحل
وفيها يذكر اباه بهمذان واستقباله الحجيج للسؤال

(ذكر انقراض دولة سبكتكين)

لما انفذ غياث الدين الى اخيه شهاب الدين يطلب انفاذ خسروشاه اليه امره شهاب الدين بالتجهز والمسير فقال انا لا اعرف اخاك ولا الى حديث الا معك ولا يمين الا فى عنقك فتناه وطيب قلبه وجهزه وسيره وسير معه ولده واصحبهما جيشا يحفظونهما فسارا كارهين فلما بلغا فرشاور خرج اهلها اليهما يبكون ويدعون لهما فزجرهم الموكلون بهما وقالوا سلطان يزور سلطانا آخر لاى شئ تبكون وضربوهم فعادوا وخرج ولد خطيبها الى خسروشاه متوجعا له قال فلما دخلت عليه اعلمته رسالة أبى وقلت انه فداعتزل الخطابة ولا حاجة بى الى خدمة غيركم فقال لى سلم عليه واعطانى فرجية فوطا ومصلى من عمل الصوفية وقال هذه تذكرة ابيك عندأبى فسلمها اليه وقل له دع الدهر كيف ما دار واشدبلسان فصيح

وليس كعهد الدار يا ام مالك * ولكن احاطت بالرقاب السلاسل

قال فانصرفت الى أبى وعرفته الحال فبكى وقال قد ايقن الرجل بالهلاك ثم رحلوا فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل امر بهما فرفعا الى بعض القلاع فكان آخر العهد بهما وهو آخر ملوك آل سبكتكين وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة فتكون مدة ولايتهم مائتى سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من احسن الملوك سيرة ولا سيما جدهم محمود فان آثاره فى الجهاد معروفة واعماله للآخرة مشهورة

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بانا ئهم او مجدهم قعدوا

فتبارك الذى لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور فأف لهذه الدنيا الدنية تفعل هذا بابنائها نسأل الله تعالى ان يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة وأن يقبل بنا اليه وأن يشغلنا به عما سواه انه على كل شئ قدير هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسروشاه آخر ملوك آل سبكتكين وقد ذكر غيره انه توفى فى الملك وملك بعده ابنه ملكشاه وسنذكره فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندى فيها خلف لو ينكشف الحق فاصلحه ان شاء الله تعالى

(ذكر خطبة لغياث الدين بالسلطنة)

لما استقر ملكهم بلها وور واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين الى أخيه شهاب الدين باقامة الخطبة له بالسلطنة وتلقب بالقاب السلاطين كان لقبه شمس الدين فتلقب غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين واقب اخاه بعز الدين ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة

(ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان)

لما فرغ شهاب الدين من اصلاح أمر لها وور وتقرير قواعدها سار الى اخيه غياث الدين فلما اجتمع به استقر رأيهما على المسير الى خراسان وقصد مدينة هراة ومحاصرتها فساروا فى العساكر الكثيرة اليها وكان بها جماعة من الاتراك السنجرية فنازلا البلد وحصراه وضيقا على من به فاستطوا اليهما وأرسلوا يطلبون الامان منهما فاجاباهم الى ذلك وامنا هم فتسلما البلد واخرجا من فيه من الامراء السنجرية واستناب فيه غياث الدين خرنك الغورى وسار غياث الدين واخوه الى فوشنج فملكاها ثم الى باذغيس وكالين وبيوار فملكاها أيضا وتسلم

ذلك جمعه غياث الدين وأحسن السيرة فى أهل البلاد ورجع الى فيروزكوه ورجع شهاب الدين الى غزنة وكان ينبغى ان حوادث الغورية تذكر فى السنين وانما جمعناها ليتلو بعضها بعضا ولان فيه مالم يعرف تاريخه فتركناه بحاله

(ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلاد الهند)

لما رجع شهاب الدين من خراسان الى غزنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره ثم سار الى بلاد الهند فحاصر مدينة آجرة وبها ملك من ملوك الهند فلم يظفر منه بطائل وكان للهندى زوجة غالبة على أمره فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها فأعادت الجواب انها لا تصلح له وانها لها ابنة جميلة تزوجه اياها فارسل اليها يجيبها الى التزويج بابنتها فسقت زوجها سما فمات وسلمت البلد اليه فلما تسلمه اخذ الصبية فاسلمت وتزوجها وحملها الى غزنة واجرى عليها الجرايات الوافرة ووكل بها من علمها القرآن وتشاغل عنها فنوفيت والدتها ثم توفيت هى بعد عشر سنين ولم يرها ولم يقربها فبنى لها مشهدا ودفنها فيه وأهل غزنة يزورون قبرها ثم عاد الى بلاد الهند فذلل له صعابها وتيسر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم وبلغ منهم مالم يبلغه احد قبله من ملوك المسلمين

(ذكر ظفر الهند على المسلمين)

لما اشتدت نكاية شهاب الدين فى بلاد الهند واثخانه فى اهلها واستيلاؤه عليهم اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم ووبخ بعضهم بعضا فاتفق رأيهم على الاجتماع والتعاضد على حربه فجمعوا عساكرهم وحشدوا وأقبل اليهم الهنود من كل فج عميق على الصعب والذلول وجاؤا بجدهم وحديدهم وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هى من أكبر ملوكهم فلما سمع باجتماعهم ومسيرهم اليه تقدم هو أيضا اليهم فى عسكر عظيم من الغورية والخلج والخراسانية فالتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم الهنود يقتلون ويأسرون وأثخنوا فيهم وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده اليسرى وضربة أخرى على رأسه سقط منها الى الارض وحجز الليل بين الفريقين فاحس شهاب الدين بجماعة من علمائه الاتراك فى ظلمة الليل وهم يطلبونه فى القتلى ويبكون وقد رجع الهنود الى وراثهم فكلمهم وهو على ما به من الجهد فجاؤا اليه مسرعين وحملوه على رؤسهم رجالة يتناوبون حمله حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح وشاع خبر سلامته فى الناس فجاؤا اليه يهنؤنه من أقطار البلاد فاول ما عمل انه أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه فلاما فحالى خيلهم شعيرا وحلف ان لم يأكلوه ليضربن أعناقهم فاكلوه ضرورة وبلغ الخبر الى أخيه غياث الدين فارسل اليه يلومه على عجلته واقدامه وأنفذ اليه جيشا عظيما

(ذكر ظفر المسلمين بالهند)

لما سلم شهاب الدين وعاد الى آجرة وأتاه المدد من أخيه غياث الدين وعاد الهنود جددوا سلاحهم ووفروا جمعهم وأقاموا عوض من قتل منهم وسارت ملكتهم وهم معها فى عدد يضيق عنه الفضاء فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها فلم تجبه الى ذلك وقالت اما الحرب واما ان تسلم بلاد الهند وتعود الى غزنة فاجابها الى العود الى غزنة وانه يستأذن أخاه

غياث الدين فعل ذلك مكرا وخديعة وكان بين العسكرين نهر وقد حفظ الهنود المخاضات فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه واقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم فبيناهم كذلك اذ وصل انسان هندى الى شهاب الدين وأعلمه انه يعرف مخاضا قريبا من عسكر الهنود وطلب ان يرسل معه جيشا يعبرهم المخاض ويكبسون الهنود وهم غارون آمنون فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكرا فاقام له ضمنا من أهل آجرة والمولتان فارسل معه جيشا كثيفا وجعل عليهم الامير الحسين بن خرميل الغورى وهو الذى صار بعد صاحب هراة وكان من الشجاعة والرأى بالمنزلة المشهورة فسار الجيش مع الهندى فعبروا النهر فلم يشعر الهنود الا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم فاشتغل الموكلون بحفظ المخاضات فعبر شهاب الدين وباقى العساكر وأحاطوا بالهنود وأكثروا القتل فيهم ونادوا بشعار الاسلام فلم ينج من الهنود الا من عجز المسلمون عن قتله وأسره وقتلت ملكتهم وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند وأمن معرة فسادهم والتزموا له بالاموال وسلموا اليه الرهائن وصالحوه وأقطع مملوكه قطب الدين ايبك مدينة دهلى وهى كرسى المالك التى فتحها من الهند فارسل عسكرا من الخلج مع محمد بن بختيار فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل اليها مسلم قبله حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق وقد حدثنى صديق لى من التجار بوقعتين تشبه هاتين الوقعتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف وقد ذكرناهما سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى يعقوب الكاتب ببغداد وكان يسكن بالمدرسة النظامية وحضر متولى التركات وختم على الغرفة التى كان يسكنها بالمدرسة فثار الفقهاء وضربوا المتولى وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما وحبسهما فاغلق الفقهاء المدرسة وألقوا كراسى الوعاظ فى الطريق وصعدوا سطح المدرسة ليلا واستغاثوا وتركوا الادب وكان حينئذ مدرسهم الشيخ أبا النجيب بغداد وألقى نفسه تحت التاج يعتذر عنه وفيها توفى حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفا وثلاثين سنة وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبى وفيها مات أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الارموى الشافعى المحدث ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وفيها توفى أبو الاسعد عبد الرحمن القشيرى فى شوال وهو شيخ شيوخ خراسان وفيها فى المحرم باض ديك ببغداد بيضة وباض بازى بيضتين وباضت نعامة لاذكر معها بيضة

(ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سنجر من الغز وتهبهم خراسان وما كان منهم)

فى هذه السنة فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الاتراك الغز وهم طائفة من الترك مسلمون كانوا بما وراء النهر فلما ملك الخطا اخرجوهم منه كما ذكرنا فقصدوا خراسان وكانوا خلقا كثيرا فاقاموا بنواحى بلخ يرعون فى مراعيها وكان لهم امراء امير احدهم دينار والآخر بختيار والآخر طوطى والآخر ارسلان والآخر جغز والآخر محمود فاراد الامير قماج وهو

ما تتلو
ويا ملكا أدنى مناقبه العلى
وأيسر ما فيه السماحة والبذل
هو البدر الا انه البحر زاخرا
سوى انه الضرغام لكنه الوبل
محاسن يبديها العيان كما ترى *
وان نحن حدثنا بها دفع العقل
فقولا لوسام المكارم باسمه
ليهنك أن لم تبق مكرمة غفل
وجارك أفراد الملوك الى الندى
وحقا لقد اعجزتهم وللك الخصل
سمابك من عمرو ويعقوب محتد
كذا الاصل مفخورا به وكذا النسل
وانشدنى السيد ابو جعفر محمد بن موسى الموسوى بيتين ذكر انهما مكتوبان على باب داره بسجستان وهما
من سره ان يرى الفردوس عالية
فلينظرن الى ايوان كيوان
او سره ان يرى الرضوان عن كثب
فليأت عينيه فلينظر الى البانى
نعم وصفت سجستان للسلطان فهدأت عيون الفتن وانقطعت اطماع

مقطع بلخ ابعادهم فصانعوه بشيء بذلوه له فعادعنهم فاقاموا على حالة حسنة لا يؤذون احدا
ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ثم ان قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده فامتنعوا
وانضم بعضهم الى بعض واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك فسار قماج اليهم في عشرة
آلاف فارس فجاء اليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم في مراعيهم ويعطونه من كل
بيت مائتي درهم فلم يجبهم الى ذلك وشدد عليهم في الانتزاح عن بلده فعادوا عنه واجتمعوا
وقاتلوه فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل في العسكر والرعايا واسترقوا
النساء والاطفال وعملوا كل عظيمة وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس وانتهت الهزيمة بقماج الى
مرو وبها السلطان سنجر فاعلمه الحال فراسلهم سنجر يتهددهم فامرهم بمفارقة بلاده
فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم ويتركهم في مراعيهم فلم يجبهم الى ذلك وجمع عساكره
من أطراف البلاد واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس وقصدهم ووقع بينهم حرب شديدة
فانهزمت عساكر سنجر وانهزم هو أيضا وتبعهم الغز قتلا واسرا فصار قتلى العسكر كالتلال
وقتل علاء الدين قماج وأسر السلطان سنجر واسر معه جماعة من الامراء فاما الامراء
فضربوا اعناقهم واما السلطان سنجر فان امراء الغز اجتمعوا وقبلوا الارض بين يديه وقالوا
نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك فقد علمنا انك لم تردقتالنا وانما حملت عليه فانت السلطان
ونحن العبيد فمضى على ذلك شهران او ثلاثة ودخلوا معه الى مرو وهي كرسي ملك خراسان
وطلبها منه بختيارا قطاعا فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز ان تكون اقطاعا لاحد
فضحكوا منه وحنق له بختيار بغمه فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مرو وتاب
عن الملك واستولى الغز على البلاد وظهر منهم من الجور ما لم يسمع بمثله وولوا على نيسابور واليا
فقسط على الناس كثيرا وعسفهم وضربهم وعلق في الاسواق ثلاث غرائر وقال اريد ملء هذه
ذهبا فثار عليه العامة فقتلوه ومن معه فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها مجحفا
وجعلوها قاعا صفصفا وقتلوا الكبار والصغار واحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد
كلها فمن قتل الحسين بن محمد الاربندي والقاضي علي بن مسعود والشيخ محيي الدين محمد
ابن يحيى واكثر الشعراء في مراثي محمد بن يحيى فمن قال فيه علي بن ابراهيم الكاتب

مضى الذي كان يجني الدر من فيه * يسيل بالفضل والافضال واديه
مضى ابن يحيى الذي قد كان صوب حيا * لابر شهر ومصباحا لداجيه
خلا خراسان من علم ومن ورع * لما نعاه الى الآفاق ناعيه
لما اماتوه مات الدين واأسفا * من ذا الذي بعد محيي الدين يحييه

ويتعذر وصف ما جرى منهم بتلك البلاد جميعها ولم يسلم من خراسان شيء لم تنهبه الغز غير هراة
ودهستان لانهما كانتا حصينة فامتنعت وقد ذكر بعض مؤرخي خراسان من اخبارهم ما فيه
زيادة وضوح وقال ان هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحي الثغر من اقاصي الترك الى ما وراء
النهر في ايام المهدي واسلموا واستنصر بهم المقنع صاحب المخاريق الشعبذة حتى تم امره فلما
سارت العساكر اليه خذلهم هؤلاء الغز واسلموه وهذه عادتهم في كل دولة كانوا فيها وفعلوا مثل
ذلك مع الملوك الخاقانية الى ان الاتراك اقاموا غلبة قهروهم وطردوهم من اوطانهم فدعاهم

الخليفة بها عن التعصب
والتحزب * وانخفضت
ابصارهم دون التوثب
والتغلب * ورجع السلطان
الى غزنة باهي الامر * عالي
الظفر والنصر * قد صنع الله
له فيما رامه * وسدد نحو
المراد سهامه * وشهره
باقتراع المدينة العذراء *
واستصفاء المملكة الغراء
واطلاع ذروة الرجاء *
واذراع لامة العز والعلاء *
وانشدني ابو منصور
الثعالبي لنفسه في فتح
سجستان من قصيدة هذه
الابيات

سعدت بغرة وجهك الايام
وتزينت ببقائك الاعوام
وتصرفت بك في المعالي همة
تعيا بها الافهام والاوهام
ولقد فرشت مهاد عدلك
فاغتدت
تتوارد الآساد والآرام
وافتض سيف علاك كل
مدينة
بكر عليها الياس ختام
هذي زرنج استغاثت
وتمنعت
فكأنها الاعلى لك حرام
ففتحتها وابحتها ومنحتها
نفراهم لفنائك الاقدام
وقدمت والايام تنشد في
الورى
بيتا تجيد نشيده الايام
قد جاء نصر الله والفتح الذي
تزهى بكتبة وصفه الاقلام

الامير زنكى بن خليفة الشيبانى المستولى على حدود طخارستان اليه وانزالهم بلاده وكانت بينه وبين الامير قماج عداوة احكمتها الايام للمجاورة التى بينهما وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر ويحكم عليه فتقوى بهم زنكى وسار وامعه الى بلخ لمحاربة قماج فكاتبهم قماج فمالوا اليه وخذلوا زنكى عند الحرب فاخذ زنكى وابنه اسيرين فقتل قماج بن زنكى وجعل يطعم اباه لحمه ثم قتل الاب ايضا واقطع قماج الغز مواضع واباحهم مراعى بلاده فلما قام الحسين بن الحسين الغورى وقصد بلخ خرج اليه قماج وعساكره ومعه الغز وفارقه الغز وانضموا الى الغورى حتى ملك مدينة بلخ فسار السلطان سنجر الى بلخ ففارقها الغورى بعد قتال انهزم منه ثم دخل الى السلطان سنجر لعجزه عن مقاومته فرده الى غزنة وبقى الغز بنواحى طخارستان وفى نفس قماج منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه فاراد صرفهم عن بلاده فتجمعوا وانضم اليهم طوائف من الترك وقدموا عليهم ارسلان موقا التركى فجمع قماج عسكره والقيهم فاقتتلوا يوما كاملا الى الليل فانهزم قماج وعسكره واسرهو وابنه ابو بكر فقتلوهما واستولوا على نواحى بلخ وعاثوا فيها وافسدوا بالنهب والقتل والسلب وبلغ السلطان سنجر الخبر فجمع عساكره وسار اليهم فراسلوه يعتذرون ويتنصلون فلم يقبل عذرهم ووصل اليهم مقدمة السلطان وفيها محمد بن أبى بكر بن قماج المقتول والمؤيد اى أبه فى المحرم من سنة ثمان واربعين وخمسمائة ووصل بعدهم السلطان سنجر فالتقاه الغز بعد ان ارسلوا يعتذرون ويبذلون الاموال والطاعة والانقياد الى كل ما يؤمرون به فلم يقبل سنجر ذلك منهم وسار اليهم فلقوه وقاتلوه وصبروا له ودام قتالهم فانهزم عسكر سنجر وهو معهم فتوجهوا الى بلخ على اقبح صورة وتبعهم الغز واقتتلوا مرة ثانية فانهزم السلطان سنجر ايضا ومضى منهزما الى مرو فى صفر من السنة فقصد الغز اليها فلما سمع العسكر الخراسانى بقربهم منهم اجتلوا من بين ايديهم هاربين لما دخل فى قلوبهم من خوفهم والرعب منهم فلما فارقها السلطان والعسكر دخلها الغز ونهبوها الخش نهب وافحه وذلك فى جمادى الاولى من السنة وقتل بها كثير من اهلها وأعيانها منهم قاضى القضاة الحسن بن محمد الارسابندى والقاضى على بن مسعود وغيرهما من الائمة العلماء ولما خرج سنجر من مرو قصد بوزابة واخذه الغز اسيرا واجلسوه على تخت السلطنة على عادته وقاموا بين يديه وبذلوا له الطاعة ثم عاودوا الغارة على مرو فى رجب من السنة فمنعهم اهلها وقاتلوهم قتالا شديدا بذلوا فيه جهدهم وطاقتهم ثم انهم عجزوا فاستسلموا اليهم فنهبوها اقبح من النهب الاول لم يتركوا بها شيأ وكان قد فارق سنجر جميع امراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ولم يبق عنده غير نفر يسير من خواصه وخدمه فلما وصلوا الى نيسابور احضروا الملك سليمان شاه ابن السلطان محمود فوصل الى نيسابور تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة فاجتمعوا عليه وخطبوا له بالسلطنة وسار فى هذا الشهر جماعة من العسكر السلطانى الى طائفة كثيرة من الغز فاوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيرا وانهزم الباقون الى امرائهم الغزية فاجتمعوا معهم ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه وساروا الى مرو يطلبون الغز فبرز الغز اليهم فساعة رآهم العسكر الخراسانى انهزموا وولوا على ادبارهم وقصدوا نيسابور وتبعهم الغز فنهبوا بطوس وهى معدن العلماء والزهاد فنهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها وخربوا

بأجل احوال وامين مقدم
واتم اقبال بليه دوام
ورحم الله الاديب ابا الفضل
الهمدانى حيث يقول فى
السلطان يمين الدوله وامين الم
تعالى الله ماشاء
وزاد الله ايمانى
أأفريدون فى التاج
ام الاسكندر الثانى
ام الرجعة فدعادت
الينا بسليمان
اظلت شمس محمود
على انجم سامان
واسسى آل بهرام
عبيد الابن خاقان
اذا ماركب الفيل
لحرب اوليدان
رأت عيناك سلطانا
على منكب شيطان
فمن واسطة الهند
الى ساحة جرجان
ومن قاصية السند
الى أقصى خراسان
على مقتبل العمر
وفى مفتتح الشان
فيوما رسل الشاه
ويوما رسل الخان
فما يعزب بالمغر
ب عن طاعتك اثنان
لذلك السرح اذا شئت
على كاهل كيوان
اباوالى بغداد
وياصاحب غمدان
تأمل ماتى فيل
على سبعة اركان
يقلبن اساطين
ويلعبن بثعبان

مساجدها ومساكن اهلها ولا يسلم من جميع ولايه طوس الا البلد الذى فيه مشهد على بن موسى الرضا ومواضع أخر يسيرة لها اسوار وممن قتل من اعيان اهلها امامها محمد المارشكى ونقيب العلويين بها على الموسوى وخطيبها اسمعيل بن الحسن وشيخ شيوخها محمد بن محمد وافلت من بها من الشيوخ الصالحين وساروا منها الى نيسابور فوصلوا اليها فى شوال سنة تسع واربعين ولم يجدوا دونها مانعا ولا مدافعا فانهبوها ثم اذر يعاوقتلوا اهلها فاكثروا حتى ظنوا انهم لم يبقوا بها احدا حتى انه احصى فى محلتين خمسة عشر الف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان وسبوا نساءها واطفالها واخذوا اموالها وبقى القتلى فى الدروب كالتلال بعضهم فوق بعض واجتمع اكثر اهلها بالجامع المنبعى تحصنوا به فحصرهم الغز فعجز اهل نيسابور عن منعهم فدخل الغز اليهم فقتلوهم عن آخرهم وكانوا يطلبون من الرجال المال فاذا اعطاهم احد قتلوه وقتلوا كثيرا من أئمة العلماء والصالحين منهم محمد بن يحيى الفقيه الشافعى الذى لم يكن فى زمانه مثله كان رحلة الناس من اقصى الغرب والشرق اليه ورثاه جماعة من العلماء منهم ابو الحسن على بن أبى القاسم البيهقى فقال

ياساقيا دم عالم متبحر * قد طار فى اقصى الممالك صيته
بالله قل لى يا ظلوم ولا تخف * من كان محيى الدين كيف تميته

منهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الاكاف واحمد بن الحسين الكاتب سبط القشيرى وابو البركات الفراوى والامام على الصباغ المتكلم واحمد بن محمد بن حامد وعبد الوهاب المقاباذى والقاضى صاعد بن عبد الملك بن صاعد والحسن بن عبد الحميد الرازى وخلق كثير من الائمة والزهاد والصالحين واحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم الا بعضها وحصروا شادرستان وهى منيعة فأحاطوا بها وقاتلهم اهلها من فوق سورها وقصدوا جوين وبذلوا نفوسهم لله تعالى واحرزوا بيضتهم والباقى اتى النهب والقتل عليه ثم قصدوا اسفراين فنهبوها وخربوها وقتلوا فى اهلها فاكثروا وممن قتل عبد الرشيد الاشعثى وكان من اعيان دولة السلطان فتركها واقبل على الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة وابو الحسن القندورجى وكان من ذوى الفضائل لاسيما فى علم الادب ولما فرغ الغز من جوين واسفراين عادوا الى نيسابور فنهبوا ما بقى فيها بعد النهب الاول وكان قد لحق بشادرستان كثير من اهلها فحصرهم الغز واستولوا عليها ونهبوا ما كان فيها لاهلها ولاهل نيسابور وهتكوا الحرم والاطفال وفعلوا مالم يفعله الكفار مع المسلمين وكان العيارون ايضا يدخلون نيسابور اشد من نهب الغز ويفعلون اقبح من فعلهم ثم ان السلطان سليمان شاه ضعف وكان قبيح السيرة سيئ التدبير وان وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك توفى فى شوال سنة ثمان واربعين فضعف امره واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك اباعلى الحسن بن طاهر وانحل امر دولته بالكلية ففارق خراسان فى صفر سنة تسع واربعين وعاد الى جرجان فاجتمع الامراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن اخت السلطان سنجر وخطبوا له على منابر خراسان واستدعوه اليهم فملكوه امورهم وانقادوا له فى شوال سنة تسع وأربعين وخمسمائة وساروا معه الى الغز وهم محاصرون هراة وجرت بينهم حروب كان الظفر فى اكثرها للغز ورحلوا فى جمادى الاولى من سنة خمسين وخمسمائة وسار معهم من على هراة الى مرو

وعادوا

على بن ابى بكر الهروى صاحب كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات

يشهرن بالوان ويأجوج ومأجوج

من الجند تموجان واستخلف السلطان على سجستان المعروف بقتجى الحاجب احد المحتشمين * من قواد ناصر الدين سبكتكين * فحسنت فى السياسة سيرته * واستدت فى الرفق بالبرى * والعنف على المريب بصيرته * ثم ان طوائف من نجوم الفتنة * ورجوم الشر والعصبية ابطرتهم رفاهة العيش ورفاغة الامن وفسحة الحال * وسعة المجال فتحدثوا بينهم * بتقديم من يضمهم * على العصيان ويؤمهم * فى الخروج على السلطان * تعرضا للبلاء وتحكما بالشقاء * واجتراء على سوء القضاء * فأبرزوا صفحة الخلاف * واخترطوا نصل الشر من الغلاف فلما رأى السلطان * انتقاض سجستان * على خلفائه وأمنائه * بادر اليها فى عشرة آلاف رجل من نخب العسكر * ومعه صاحب الجيش أبو المظفر * بن ناصر الدين والتونتاش الحاجب وأبو عبد الله محمد بن ابراهيم الطائى وحصر المردة العتاة فى حصار أرك ووكل خيول عسكره بجوانب الاسوار واقتسم بينهم مجال ذلك

وعاودوا المصادرة لاهلها وسار الخان محمود بن محمد الى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد على ماذكر وراسل الغز فى الصلح فاصطلحوا فى رجب من سنة خمسين وخمسمائة هدنة على دخل وسيرد باقى اخبارهم سنة اثنتين وخمسين

(ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها)

كان للسلطان سنجر مملوك اسمه اى ابه ولقبه المؤيد فلما كانت هذه الفتنة تقدم وعلا شأنه واطاعه كثير من الامراء فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وابيورد وشهرستان والدامغان وازاح الغز عن الجميع وقتل منهم خلقا كثيرا واحسن السيرة وعدل فى الرعية واستمال الناس ووفر الخراج على اهله وبالغ فى مراعاة ارباب البيوت فاستقرت البلاد له ودانت له الرعية لحسن سيرته وعظم شأنه وكثرت جموعه فراسله خاقان محمود بن محمد فى تسليم البلاد والحضور عنده فامتنع وترددت الرسل بينهم حتى استقر على المؤيد مال يحمله الى الملك محمود فكف عنه محمود واقام المؤيد بالبلاد هو والسلطان محمود

(ذكر ملك ايتاخ الرى)

كان ايتاخ احد مماليك السلطان سنجر فلما كان من فتنة الغز ماذكرناه هرب من خراسان ووصل الى الرى فاستولى عليها واقام بها وارسل السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همدان واصفهان وغيرهما يخدمه ويهاديه ويرضيه واظهر له الطاعة وبقى بها الى ان مات السلطان محمد فاستولى على عدة بلاد تجاور الرى فملكها فعظم امره وعلا شأنه وصارت عساكره عشرة آلاف فارس فلما ملك سليمان شاه همدان على ماذكره حضر عنده واطاعه لانسه به كان ايام مقام سليمان شاه بخراسان فتقوى امره بذلك

(ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس)

فى هذه السنة فى المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله قتله ربيبه عباس بن ابى الفتوح ابن يحيى الصنهاجى اشار اليه بذلك الامير أسامة بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فامر ولده نصرا فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولى الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب كما ذكرناه الى مصر وتعلم الخياطة وكان خياطا حسنا فلما تزوج ابن السلار بأمه احبه واحسن تربيته فجازاه بان قتله وولى بعده وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالملكين وقل ان وليها احد بعد الافضل الا بحرب وقتل وماشاكل ذلك فلذلك ذكرناهم فى تراجم مفردة والله اعلم

(ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن)

فى هذه السنة فى صفر كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة شطيف وسبب ذلك ان العرب وهم بنو هلال والاثبج وعدى ورياح وزغب وغيرهم من العرب لما ملك عبد المؤمن بلاد بنى حماد اجتمعوا من ارض طرابلس الى اقصى المغرب وقالوا ان جاورنا عبد المؤمن اجلانا من المغرب وليس الرأى الا القاء الجد معه واخراجه من البلاد قبل ان يتمكن وتحالفوا على التعاون والتظافر وان لا يخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والاهل والمال ليقاتلوه قتال الحريم واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجى صاحب صقلية فارسل الى امراء

الحصار * ونشبت الحرب بينهم العصر يوم الجمعة للنصف من ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وخاض السمجزية غمرتهم اساعة * متوازرين على المدافعة * ومتضافرين على الممانعة والمقارعة * حتى اذا أوهنهم السلاح * واثخنتهم الجراح لاذوا بالانجحار والاعتصار بسور الحصار * وظهر أولياء السلطان على بعض جوانب السور * فى ظلمة الدجور تنادوا بشعار الملك المنصور فانهزم الفجار * وملك عليهم الحصار * وبسطت أيدى القتل والضرب على من نقضتهم الدور * ولفظتهم المساكن والقصور * فمن رؤس منبوذة * وأعناق مجذوذة * ووجوه مكبوبة ودماء على الارض مصبوبة رهام الآخرون على وجوههم يتساقطون * من كسع الادبار * ويلوذون * من ضرب الاخادع * بالمخادع ويفزعون * من شن الغارات الى المغارات * والطلب يقطع دابرهم * ويلحق بالاول آخرهم * حتى خلت سجستان من عيث شرارهم * وسلمت من بث شرارهم * وفتح الله تلك المملكة على السلطان فتحا ثانيا * وملكا تاليا * فلم يسمح على مرور الايام * بمثله فتحا فى غلق الظلام * فاستفاضت هيبة السلطان * فى أهل

العرب وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم يحثهم على لقاء عبد المؤمن ويعرض عليهم ان يرسل اليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا اليه الرهائن فشكروه وقالوا ما بنا حاجة الى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين وساروا فى عدد لا يحصى وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية الى بلاد المغرب فلما بلغه خبرهم جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين الف فارس واستعمل عليهم عبد الله بن عمر الهنتاتى وسعد الله بن يحيى وكان العرب أضعافهم فاستجرهم الموحدون وتبعهم العرب الى ان وصلوا الى ارض شطيف بين جبال فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن والعرب على غير اهبة والتقى الجمعان واقتتلوا اشد قتال واعظمه فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين وترك العرب جميع مالهم من اهل ومال واثاث ونعم فاخذ الموحدون جميع ذلك وعاد الجيش الى عبد المؤمن بجميعه فقسم جميع الاموال على عسكره وترك النساء والاولاد تحت الاحتياط وكل هم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وامر بصيانتهم فلما وصلوا معه الى مراكش انزلهم فى المساكن الفسيحة واجرى لهم النفقات الواسعة وامر عبد المؤمن ابنه محمدا ان يكاتب امراء العرب ويعلمهم ان نساءهم واولادهم تحت الحفظ والصيانة وانه قد بذل لهم الامان والكرامة فلما وصل كتاب محمد الى العرب سارعوا الى المسير الى مراكش فلما وصلوا اليها اعطاهم عبد المؤمن نساءهم واولادهم واحسن اليهم واعطاهم أموالا جزيلة فاسترق قلوبهم بذلك واقاموا عنده وكان بهم حفيا واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد على ما نذكره سنة احدى وخمسين

(ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم)

فى هذه السنة سار اسطول رجار ملك الفرنج بصقلية الى مدينة بونة وكان المقدم عليهم فتاه فيلب المهدوى فحصرها واستعان بالعرب عليها فاخذها فى رجب وسبى اهلها وملك ما فيها غير انه اغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا باهليهم واموالهم الى القرى فاقام بها عشرة ايام وعاد الى المهدية وبعض الاسرى معه وعاد الى صقلية فقبض رجار عليه لما اعقد من الرفق بالمسلمين فى بونة وكان فيلب يقال انه وجميع فتيانه مسلمون يكتمون ذلك وشهدوا عليه انه لا يصوم مع الملك وانه مسلم فجمع له رجار الاساقفة والقسوس والرهبان فحكموا بان يحرق فاحرق فى رمضان وهذا اول وهن دخل على المسلمين بصقلية ولم يمهل الله رجار بعده الا يسيرا حتى مات فى العشر الاول من ذى الحجة من السنة وكان مرضه الخوانيق وكان عمره قريب ثمانين سنة وكان ملكه نحو عشرين سنة ولما مات ملك بعده ابنه غليالم وكان فاسد التدبير سيئ التصوير فاستوزر مايو البرصالى فاساء التدبير فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية وتعدى الامر الى افريقية على ما نذكره

(ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة)

فى هذه السنة فى رجب توفى السلطان بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بها وكانت ولاية بهرام شاه ستا وثلاثين سنة وكان عادلا حسن السيرة جميل الطريقة محبا للعلماء مكرما لهم باذلا لهم الاموال الكثيرة جامعا للكتب تقرأ بين يديه

ويفهم

مجستان * حتى نامت ليا اليهم
عن ديب العقارب * وصرير
الجنادب * وأنشد بعض أهل
العصر * على تهنئة النصر
يا أيها الملك الذى
زند المعالى يقتدح
لا زال ثغرك باسما
من أجل ثغر تفتتح
وانشدنى أبو منصور الثعالبى
فى هذا الفتح الشهير * والنجح
الكبير * يمدح السلطان يمين
الدولة * وأمين الملة * بهذه
الابيات
يا خاتم الملك ويا قاهر الـ *
أملاك بين الاخذ والصفح
عليك عين الله من فاتح
للارض مستول على النجح
رايا تك تنطق بالنصر بل
تكاد تملأ كتب الفتح
كم أثر فى الدين اثرته
يقصر عنه أثر الصبح
وكم بنى للملك شيدتها
تثنى عليها ألسن المدح
فاسعد بايامك واستغرق الـ *
اعداء بالكبح وبالدبح
ودم رفيعا عالى القدح
ممتنع الملك على القدح
ثم جعل السلطان مجستان
طعمة لصاحب الجيش
أخيه أبى المظفر نصر بن
ناصر الدين سبكتكين مضافة
الى نيسابور وناحيتها بهما
ولاية فى بلاد المشرق فنصب
خلافته عليها أبا منصور
نصر بن اسحق وزيره *
ووكل بها تدبيره * ورضى لها
تقديمه وتأخيره * فقام بضبط

ويفهم مضمونها ولما مات ملك ولده خسرو شاه الملك بعده

(ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان)

في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوي المصري وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون الى ملكها سبيلا وكان الوزراء بمصر لهم الحكم في البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته وكان الوزراء كل سنة يرسلون اليها من الذخائر والاسلحة والاموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان في هذه السنة قتل ابن السلار على ما ذكرناه واختلفت الاهواء في مصر وولي عباس الوزارة والى ان استقرت قاعدة اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا حتى انهم بعض الايام قاتلوا خارج السور وردوا الفرنج الى خيامهم مقهورين وتبعهم اهل البلد اليها فايس حينئذ الفرنج من ملكه فبيناهم على عزم الرحيل اذ قد أتاهم الخبر ان البلد قد وقع بين أهله خلاف وقتل منهم قتلى فصبروا وكان سبب هذا الاختلاف انهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين ادعى كل طائفة منهم ان النصرة من جهتهم كانت وانهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين فعظم الخصام بينهم الى ان قتل من احدى الطائفتين قتيل واشتد الخطب وعظم حينئذ ونفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى فطمع الفرنج وزحفوا اليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه

(ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها)

في هذه السنة سير الخليفة المقتفي لامر الله عسكرا الى تكريت ليحصروها وارسل معهم مقدما عليهم ابن الوزير عون الدين ابن هبيرة وترشك وهو من خواص الخليفة وغيرهما فجرى بين ابن الوزير وترشك منافرة اوجبت ان كتب ابن الوزير يشكو من ترشك فامر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فارسل الى مسعود بلال صاحب تكريت فصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المقدمين وسلمهم الى مسعود بلال فانهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال وترشك من تكريت الى طريق خراسان فنهبا وافسدا فسار المقتفي عن بغداد لدفعهما فهربا من بين يديه فقصد تكريت فحصرها اياما وجرى له مع اهلها حروب من وراء السور فقتل من العسكر جماعة بالنشاب فعاد الخليفة عنها ولم يملكها

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وصلت مراكب من صقلية فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية وفيها كان بين الكرج بارمينية وبين صلتق صاحب ارزن الروم مصاف وحرب شديد وانهزم صلتق واسره الكرج ثم اطلقوه وفيها توفي أبو العباس احمد بن أبي غالب الوراق المعروف بابن الطلاية الزاهد البغدادي بها وكان من الصالحين وله حديث ورواية وتوفي عبد الملك بن عبد الله بن ابي سهل أبو الفتح بن ابي القاسم الكروخي الهروي راوي جامع الترمذي ومولده سنة اثنتين ومن طريقه سمعناه

(ثم دخلت سنة تسع واربعين وخمسمائة)

(ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز)

الولاية * واشتد ازرا لجبابة واتقان السياسة * واتعام الحراسة * قيام من عدله الزمان بثقافه * وزينه الكمال بأوصافه * وعاد السلطان الى بلخ عازما على استئناف الجد * في غزو الهند على ما سنذكره في موضعه ان شاء الله تعالى

*(ذكر شمس المعالي قابوس ابن وشمكير وانتقاله الى مملكته * بعون الله ونصرته بعد طول التقلب * في التغرب)*

قد كان شمس المعالي اقام بخراسان ثماني عشرة سنة مصابرا للدهر على وقعاته وتصرف حالاته * لم تغمزه الحادثات قناته * ولم يقرع صرف النائبات صفاته * ولم تنقص دوائر الايام مروته * ولم تنقض حبوته * ولم يبق من اصحاب الجيوش وزعماء الجمهور من لم يضرب له بسهم من نوافله * ولم يرجع الى حظ من عطاياه وفواضله * ولم يخدمه أحد من ذوي الحشمة بسلام * الا حظي منه بانعام * واحسان وأحبية الوان * وافراس مطهمة حسان * فعلى الاكتاف خلعه ولباسه * وتحت الافخاذ مراكبه وافراسه * وحشو البيوت بدره وأكياسه * وقد كان آل سامان يهمون برده الى مملكته * حيازة لقصب

في هذه السنة في المحرم قتل الظافر بالله أبو المنصور اسمعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله ان وزيره عباسا كان له ولد اسمه نصر فاحبه الظافر وجعله من ندمائه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة فاتفق ان قدم من الشام مؤيد الدولة الامير اسامة بن منقذ الكناني في وزارة ابن السلار واتصل بعباس فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه فقتله وولاه الظافر الوزارة فاستبد بالامر وتم له ذلك وعلم الامراء والاجناد ان ذلك من فعل ابن منقذ فعزموا على قتله فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول قال وماذاك قال الناس يزعمون ان الظافر يفعل بابنك نصر وكان نصر خصيصا بالظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يتهم به فانزعج لذلك وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله وقيل ان الظافر اقطع نصر بن عباس قرية قليوب وهي من أعظم قرى مصر فدخل اليه مؤيد الدولة ابن منقذ وهو عند ابيه عباس قال له نصر قد اقطعني مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ماهي في مهرك بكثير فعظم عليه وعلى ابيه وأنف من هذه الحال وشرع في قتل الظافر فامر ابنه فحضر نصر عند الظافر وقال له اشتهي ان تجيء الى داري لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه في نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وافلت خويدم صغير اختبأ فلم يروه ودفن القتلى في داره واخبر اباه عباسا الخبر فبكر الى القصر وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر ان يطلبوا له اذنا في الدخول عليه لامر يريد ان يأخذ رايه فيه فقالوا انه ليس في القصر فقال لابد منه وكان غرضه ان ينفي التهمة عنه بقتله وان يقتل كل من بالقصر ممن يخاف ان ينازعه فيمن يقيمه في الخلافة فلما الح عليهم عجزوا عن احضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر اذ وصل اليهم الخويدم الصغير الذي شاهد قتله وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه واخبرهم بقتل الظافر فخرجوا الى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فانه يعرف اين هو لانهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال اريد ان اعترض القصر لئلا يكون قد اغتاله احد من أهله فاستعرض القصر فقتل اخوين للظافر وهما يوسف وجبريل واجلس الفائز نصر الله ابا القاسم عيسى بن الظافر باهر الله اسمعيل ثاني يوم قتل ابوه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه واجلسه على سرير الملك وبايع له الناس واخذ عباس من القصر من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة ما اراد ولم يترك فيه الا مالا خير فيه

(ذكر وزارة الملك الصالح ابن رزيك)

كان السبب في وزارة الملك الصالح ابن رزيك ان عباسا لما قتل الظافر واقام الفائز ظن ان الامر يتم له على ما يريده فكان الحال خلاف ما اعتقده فان الكلمة اختلفت عليه وثاربه الجند والسودان وصاروا اذا امر بالامر لا يلتفت اليه ولا يسمع قوله فارسل من بالقصر من النساء والخدم الى الصالح طلائع ابن رزيك يستغيثون به وارسلوا شعورهم على الكتب وكان في منية بني خصيب والياً عليها وعلى أعمالها وليست من الاعمال الجليلة وانما كانت اقرب الاعمال اليهم وكان فيه شهامة فجمع ليقصد عباسا وسار اليه فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الاموال التي لا تحصى كثرة والتحف والاشياء التي لا توجد الا هناك مما

كان

السبق في اد الله على خصمه
وافاءه ملكه الى يده
فقطعهم توالي الفتوق من
كل وجه عليهم عن اصابة
اغراضهم في امره وألهمته
بصيرة التجارب مداراة
المحنة حتى ينتهي زمانها *
وينقضي على الاقبال بحرانها
اذ كان الاضطراب في المحن
كالاضطراب في حبل الخناق
ما يزداد صاحبه على نفسه
حركة * الا ازداد اختناقا
وهلكة * ومما يضاف الى
شعره قوله في اقبال محنته
قل للذي بصروف الدهر عيرنا
هل عاند الدهر الا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف
وتستقر باقصى قعره الدرر
فان تكن نشبت أيدي
الزمان بنا
ومسنا من عوادي بؤسه
الضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد
وليس يكسف الا الشمس
والقمر
ولما وطئ ناصر الدين
سبكتكين عراص خراسان
واقدره الظفر بأبي علي
على كورها ارتاح للقائه *
وما ينتجيه من نصرته
واعلائه * ثم اتفق له من
الانقلاب الى بلخ ما حال
بينه وبين مراده فغبر مدة
على جملته الى ان انقرض
أمر ابي علي بن سيمجور
وخوى نجم الشغل به

كان اخذه من القصر فلما سار وقع به الفرنج فقتلوا واخذوا جميع ما معه فتقوى به وسار الملك الصالح فدخل القاهرة باعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التي أرسلت اليه من القصر على رؤس الرماح وكان هذا من اقال العجيب فان الاعلام السود العباسية دخلتها وازالت الاعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة واستقر في الامر واحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر فاراه موضع دفنه فاخرجه ونقله الى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنج عباسا اسروا ابنه فارسل الملك الصالح الى الفرنج وبذل لهم مالا واخذه منهم فسار من الشام مع اصحاب الصالح فلم يكلم احدا منهم كلمة واحدة الى ان رأى القاهرة فانشد

بلى نحن كنا أهلها فابادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

ولما دخل القصر فكان آخر العهد به فانه قتل وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح البيوت الكبار والاعيان بالديار المصرية فاستأصل اهلها وابعدهم عن ديارهم واخذ اموالهم فمنهم من هلك ومنهم من تفرق في البلاد والحجاز واليمن وغيرها فمثل ذلك خوفا منهم ان يثوروا عليه وينازعوه في الوزارة وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس فلما قتل هرب الى الشام

*(ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا)

في هذه السنة ارسل الخليفة المقتفي لامر الله رسولا الى والي تكريت بسبب من عندهم من المأمورين وهم ابن الوزير وغيره فقبضوا على الرسول فسير الخليفة عسكرا اليهم فخرج اهل تكريت فقاتلوا العسكر ومنعوه من الدخول الى البلد فسار الخليفة بنفسه مستهل صفر فنزل على البلد فهرب أهله فدخل العسكر فشعثوا ونهبوا بعضه ونصب على القلعة ثلاثة عشر منجنيقا فسقط من اسوارها برج وبقي الحصر كذلك الى الخامس والعشرين من ربيع الاول واصر الخليفة بالقتال والزحف فاشتد القتال وكثر القتلى ولم يبلغ منها غرضا فرحل عائدا الى بغداد فدخلها آخر الشهر ثم امر الوزير عون الدين بن هبيرة بالعود الى محاصرتها والاستعداد والاستكثار من الآلات للحصار فسار اليها سابع ربيع الآخر ونازلها وضيق عليها فوصل الخبر بان مسعود بلال وصل الى شهرابان ومعه البقش كون خر وترشك وعسكر كثير ونهبوا البلاد فعاد الوزير الى بغداد وكان سبب وصول هذا العسكر انهم حشوا الملك محمد ابن السلطان محمود على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك فسير هذا العسكر وانضاف اليهم خلق كثير من التركمان فخرج الخليفة اليهم فارسل بلال مسعودا الى تكريت واخرج منها الملك ارسلان بن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوسا بتكريت وقال ان هذا سلطان فتقاتل بين يديه بازاء الخليفة والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من بعقوبا ودام بينهم المناوشة والمحاربة ثمانية عشر يوما ثم انهم التقوا آخر رجب فاقتتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب حتى بلغت الهزيمة بغداد ونهبت خزائنه وقتل خازنه فحمل الخليفة بنفسه هو وولي عهده وصاح يا آل هاشم كذب الشيطان وقر أورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وحمل باقي العسكر معه فانهزم مسعود والبقش وجميع من معهم وتمت الهزيمة وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك فبيع كل كبش بدانق وكانوا قد حضروا بنسائهم واولادهم وخركاواتهم وجميع مالهم فأخذ جميعه ونودي من أخذ من اولاد التركمان

والمقدر الى طوس لط
أخيه ابي القاسم السيمج
فجدد عند ذلك شمس المع
عهده به ولاطف كل من
صاحبه بما يفي به
ولا يتسع له حساب
حسبان * وجرى ذكر
الدولة واستظهاره بيد
حسنويه صاحب الا
والفوارس الانجاد *
ناصر الدين سبكتكين
يستظهر عليهم بكماة الت
ورماة الحدق * من ك
الاتراك الخانية فار
حاجبه الكبير التوز
الى ايلك الخان يتنجزه
الحال التي تفاقم عل
وراء النهر من الاتحا
الوداد والاشتراك في ال
بامداده بعشرة آلاف
من نخب رجاله * و
ابطاله * وصرف شمس
وراءه على ميعاد مع
ورجع ناصر الدين سبك
الى بلخ مستعدا للا
ومنتظرا لوصول الع
الدثر * فاستأثر الله به
عباد الرسول * وتحقق الم
فخيط عليه ما صنع * و
دونه نبت ما زرع * و
وجوه الناس بين السلا
يمين الدولة * وامين الم
وبين شمس المعالي قابو
اسعاده * وورده الى ب
على مال يقضي به حق
ويضاهي حسن بلا

ونسائهم شيأ فليردوه فاخذ البقش كون خر الملك ارسلان وانهزم الى بلد اللمف وقلعة الماهكين وفى هذه الحرب غدر بنو عوف من عسكر الخليفة ولحقوا بالعجم ومضى هندى الكردى ايضا معهم وكان الملك محمد قد ارسل عسكرا مع خاص بك بن آقسنقر نجدة لكون خر فلما وصلوا الى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعادوا ورجع الخليفة الى بغداد فدخلها اوائل شعبان فوصل الخبران معوذ بلال وترشك قصد امدينة واسط فنهبوا وخربوا فسير الخليفة الوزير ابن هبيرة فى عسكر خامس عشر شعبان فانهزم العجم فلحقهم عسكر الخليفة ونهب منهم شيأ كثيرا وعاد الى بغداد فلقب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش وسير الخليفة عسكرا الى بلد اللمف فاخذه وصار فى جملته واما الملك الب ارسلان بن طغرل فان البقش اخذه معه الى بلده فارسل اليه الملك محمد يقول له ايحضر عنده وارسلان معه فمات البقش كون خر فى رمضان فى هذه السنة وبقى ارسلان مع ابن البقش وحسن الجاندار فحملاه الى الجبل فخاف السلطان محمد أن يصل ارسلان الى زوج أمه ابى بكر فيجعله ذريعة الى قهر البلاد فلم ينفعه حذره واتصل أرسلان بابى بكر زوج امه فصار معه وهو أخو بهلوان بن ايلدكز لامه وطغرل الذى قتله خوارزم شاه ولد ارسلان هذا وكان طغرل آخر السلجوقية

(ذكر ملك نور الدين محمود مدينة دمشق)

فى هذه السنة فى صفر ملك نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر مدينة دمشق واخذها من صاحبها مجير الدين أنز بن محمد بن بورى بن طغدكين اتابك وكان سبب حرصه على ملكها ان الفرنج لما ملكوا فى العام الماضى مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها الاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا فى دمشق حتى انهم استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى فمن أراد المقام بها تركوه ومن أراد العود الى وطنه اخذوه قهرا ثم صاحبه ام أبى وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة ياخذونها منهم فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم فلما رأى نور الدين ذلك خاف ان يملكها الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام فاعمل الحيلة فى أخذها حيث علم انه لا يملكها من يقوى بها على قتالهم فراسل مجير الدين صاحبها واستمالة وواصله بالهدايا واظهر له المودة حتى وثق اليه فكان نور الدين يقول له فى بعض الاوقات ان فلانا قد كاتبنى فى تسليم دمشق يعنى بعض امراء مجير الدين فكان يبعد الذى قيل عنه ويأخذ اقطاعه فلما لم يبق عنده من الامراء احد قدم اميرا يقال له عطاء بن حفاظ السلمى الخادم وكان شهما شجاعا وفوض اليه أمر دولته فكان نور الدين لا يتمكن معه من أخذ دمشق فقبض عليه مجير الدين وقتله فسار نور الدين حينئذ الى دمشق وكان قد كاتب من بها من الاحداث واستمالهم فوعدوه بالتسليم اليه فلما حضر نور الدين البلد ارسل مجير الدين الى الفرنج يبذل لهم الاموال وتسليم قلعة بعلبك اليهم ليجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا فى جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد فالى ان اجتمع لهم ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفى حنين واما كيفية تسليم دمشق فانه لما حصرها ثار الاحداث الذين راسلهم فسلموا اليه البلد من الباب الشرقى وملكه وحصر مجير الدين

فى

فى تحقيق رجائه * وتمحيق مكايد اعدائه * فأظهر الوفاء به لغاية شهرين من قراره بجرجان اذ كان يحيل بجل ما يلتزمه على ما يدر له من احلابها * ويعتل من اخلافها * وانه يتعاشى بده انتقال الملك اليه خبط رعيته باللحف والعسف * والاغضاء عليهم بمرد الحرق والنسف * فأعجل السلطان بين الدوله * وامين الملة * ما أهمه من ارث ابيه * وشغل الخاطر بأخيه * عن تقديم اظهاره * وتجميل رده الى داره فاستهله ريثما يكفى ما امامه ويقضى الشغل بما وراءه وسار الى غزنة حتى يسر الله افتتاحها * وداوى على يده جراحها * وكان ابو القاسم ابن سيمجور مقيما بقومس فلما مضى فخر الدولة لسبيله انحاز منها * الى جرجان متغلبا عليها * وكاتب ابو القاسم شمس المعالى قابوس فى الامتداد اليها * ليقوم بتسليمها اليه * وتقريرها فى يديه * فسار على سمت الروذ حتى وافى جرجان وابو القاسم بن سيمجور باستراباذ وقد جهز من الرى ابو العباس فيروزان بن الحسن فى جماهير المشاهير من قواد الديلم والاكراد وقد كان اطمع ابو القاسم من بخارا فى ولاية قهستان وهراة وامر بمعاودة خراسان

في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له اقطاعا من جملته مدينة حمص فسلمها اليه وسار الى حمص واعطاه عوضا عنها بالس فلم يرضها وسار منها الى العراق واقام ببغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية وتوفي بها

(ذكر قصد الاسماعيلية خراسان والظفر بهم)

في هذه السنة في ربيع الآخر اجتمع جمع كثير من الاسماعيلية من قهستان بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل وساروا يريدون خراسان لاشتغال عساكرها بالغز وقصدوا اعمال خواف وما يجاورها فلقيهم الامير فرخشاه بن محمود الكاساني في جماعة من حشمه واصحابه فعلم ان لا طاقة له بهم وسار عنهم وارسل الى الامير محمد بن انز وهو من اكابر امراء خراسان واشجعهم يعرفه الحال وطلب منه المسير اليهم بعسكره ومن قدر عليه من الامراء ليجتمعوا عليهم ويقاتلوهم فسار محمد بن انز في جماعة من الامراء وكثير من العسكر واجتمعوا هم وفرخشاه ودافعوا الاسماعيلية وقاتلوهم وطال الحرب بينهم ثم نصر الله المسلمين وانهزم الاسماعيلية وكثر القتل فيهم واخذهم السيف من كل مكان وهلك اعيانهم وساداتهم بعضهم قتل وبعضهم اسر ولم يسلم منهم الا القليل الشريد وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع فلولا اشتغال العساكر بالغز لكانوا ملكوها بغير تعب ولا مشقة واراحوا المسلمين منهم ولكن لله امر وهو بالغه

(ذكر ملك نور الدين تل باشر)

في هذه السنة او التي بعدها ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة تل باشر وهي شمالي حلب من امنع القلاع وسبب ملكها ان الفرنج لما رأوا ملك نور الدين دمشق خافوه وعلموا انه يقوى عليهم ولا يقدرون على الانتصاف منه لما كانوا يرون منه قبل ملكها فراسله من بهذه القلعة من الفرنج وبذلوا له تسليمها فسير اليهم الامير حسان المنبجي وهو من اكابر امرائه وكان اقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج وهي تقارب تل باشر وامره ان يسير اليها ويتسلمها فسار اليها وتسلمها منهم وحصنها ورفع اليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة مات استاذدار ابو الفتوح عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وكان له صدقات ومعروف كثير ومجالسة للفقراء ولما مات ولي الخلافة ابنه الاكبر عضد الدين ابو الفرج محمد بن عبد الله ما كان الى ابيه وتوفي عبد الرحمن بن عبد الصمد بن احمد بن علي ابو القاسم الاكاف النيسابوري كان زاهدا عابدا فقيها مناظرا وكان السلطان سنجر يزوره ويتبرك بدعائه وكان ربما حجبه فلا يمكنه من الدخول اليه وفيها توفي ثقة الدولة ابو الحسن علي بن محمد الزوزني القزويني وكان يخدم ابا نصر محمد بن الفرج الابري وزوجه ابنته شهدة الكاتبة فقربه المقتفي لامر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الازج

(ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة)

في هذه السنة سار الخليفة المقتفي لامر الله الى دقوقا فحصرها وقاتل من بها ثم رحل عنها لانه بلغه ان عسكر الموصل قد تجهزوا للمسير لنجدته عنها فرحل ولم يبلغ غرضا وفيها استولى شملة

للاعتضاد به * والاستظهار
بعدته وعديده * فجرد عزمه
للانصراف * وضرب تلك
المواعيد بالاخلاف * غير
حافل بما يلحقه من المذمة
بخذلان من جشمه لنصرته
واستقدمه على ما تحت يده
وقدرته * وسار نحو اسفرا
فانقلب شمس المعالي قابوس
الى نيسابور على حزة لنهل
استثناء بالوقت الى مقتطف
الرجاء ومختزف الامل
وترصالما حوته رحم الليالي
من جنين المقدور * في ادالة
الميسور على المعسور * ولما
رأى امور آل سامان مختلة
النظام * منحلة العرى
والاوذام * لا تزداد على الرزايا
الا خرقا * ولا على الرتق
الا فتقا * مخض الرأي فيما
يقيم له مائد امره * ويحوش
عليه آبد ملكه * فكانت زبدة
مخضه ان سرب الاصبهبذ
شهريار بن شروين الى
جبل شهريار لاستصفائه *
فسار نحوه بمن تحت لوائه
وعلى الجبل يومئذ رستم بن
المرزبان خال الامير محمد
الدولة ابي طالب رستم بن
فخر الدولة صاحب الري
فتناهد القتال على رسمهم
في الاحتراس بالتراس *
واذراع لباس الباس * وشد
عليهم الاصبهبذ شدة شردتهم
بين المهامه والدكادك *
واتحمتهم لهوات المعاطب
والمهالك * واصاب منهم غنيمة

التركانى على خوزستان وصاحبه حينئذ ملكشاه محمود بن محمد فسير الخليفة اليه عسكرا فلقيهم شمله فى رجب وقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة واسر وجوههم ثم احسن اليهم شمله واطلقهم وارسل يعتذر فقبل عذره وسار الى خوزستان فملكها وازاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد وفيها سار الغزالى نيسابور فملكوها بالسيف ودخلوها وقتلوا محمد بن يحيى الفقيه الشافعى ونحوا من ثلاثين الفا وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة وهو معتقل لا يلتفت اليه حتى انه اراد كثيرا من الايام ان يركب فلم يكن له من يحمل سلاحه فشده على وسطه وركب وكان اذا قدم اليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتا آخر خوفا من انقطاعه عنه لتقصيرهم فى واجبه ولانهم ليس هذا مما يعرفونه وفيها وثب قسوس الارمن بمدينة آنى فاخذوها من الامير شداد وسلموها الى اخيه فضلون وفيها فى ذى الحجة قتل الاتراك القارغلية طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر والقوه فى الصحراء ونسبوه الى اشياء قبيحة وكان مدة ملكه مستضعفا غير مهيب وفيها توفى أبو الفضل محمد بن ناصر بن على البغدادى الحافظ الاديب وكان مشهورا بالفضل وكان شافعيا وصار حنبليا مغاليا ومولده سنة سبع وستين واربعمائة فى شعبان وكان موته ايضا فى شعبان وفيها كان بالعراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة فى ذى الحجة وفيها توفى يحيى الغسانى النحوى الموصلى وكان فاضلا خيرا وتاج الدين ابو طاهر يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى قاضى جزيرة ابن عمر

(ثم دخلت سنة احدى وخمسين وخمسمائة)

(ذكر عصيان الجزائر وافريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم)

قد ذكرنا سنة ثمان واربعين وخمسمائة موت رجار ملك صقلية وملك ولده غليالم وانه كان فاسد التدبير فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية فلما كان هذه السنة قوى طمع الناس فيه فخرج من طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة واظهروا الخلاف عليه وخالف عليه اهل افريقية فاول من اظهر الخلاف عليه عمر بن ابى الحسين الفريانى بمدينة سفاقس وكان رجار قد استعمل عليها المانفحها اباه ابا الحسين وكان من العلماء الصالحين فاظهر العجز والضعف وقال استعمل ولدى فاستعمله واخذ اباه رهينة الى صقلية فلما أراد المسير اليها قال لولده عمر انى كبير السن وقد قارب اجلى فتى امكنتك الفرصة فى الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنتظر فى انى اقتل واحسب انى قدمت فلما وجد هذه الفرصة دعا اهل المدينة الى الخلاف وقال يطلع جماعة منكم الى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو امرنى بهذا واذا قتل الشيخ الوف من الاعداء فمات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك اول سنة احدى وخمسين وخمسمائة ثم اتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وبعده محمد بن رشيد بقابس وسار عسكر عبد المؤمن الى بونة فملكها وخرج جميع افريقية عن حكم الفرنج ما عدا المهدية وسوسة وارسل عمر بن ابى الحسين الى زويلة وهى مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد الى زويلة فاعانوا اهلها على من بالمهدية من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك

جسيمة * بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة * واقام الخطبة بالجبل على شمس المعالى قابوس بن وشمكير وكان بابى ابن سعيد أحد اعيان الجبل وشجعانهم مقيما عند الاستندارية فى طوائف من أصحابه مشايعا لهم فى ظاهر الامر * وناظرا الى موالاة شمس المعالى من نقاب السر * واتفق ان نصر ابن الحسن بن فيروزان اقطعته الاضافة بناحية الديلم الى حدود الاستندارية فطمع فى مغالبتهم عليها ومزاحمتهم فيها * فقذف من جمرات انيابها بمن طرده عنها وقبض على خاله أبى الفضل اصبهبذ كلاذ فسجن الى ان دفن وما يل بعد ذلك بابى بن سعيد نصرا فتساعدا على قصد آمل وبها ابو العباس الحاجب فى زهاء الفين من عسكر الرى فأجلياه عنها هزيما تقفوه الصفاح * وهشيما تذروه الرياح * وطير بابى بن سعيد عند ذلك كتبه الى شمس المعالى يذكر الفتح الذى اتيح له على شعار موالاته * واستشعار طاعته وعمالاته * واظهار التنصح باستطلاع رايائه * ففصل عن نيسابور سائرا نحو جرجان وتجهز بابى بن سعيد عن مضامة نصر الى استراباذ مجاهرا بشعار صاحبه ويجمع اليه من

صقلية

صقلية احضر ابا الحسين وعرفه ما عمل ابنه فامره ان يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود الى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال من قدم على هذا يرجع بكتاب فارسل ملك صقلية اليه رسولا يتهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج اهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وارسل عمر الى الرسول يقول له هذا ابي قد دفنته وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ما اردتم فعاد الرسول الى غلامه فأخبره بما صنع عمر بن ابي الحسين فاخذ اباه وصلبه فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات واما اهل زويلة فانهم كثر جمعهم بالعرب واهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها وكانت الاقوات بالمهدية قليلة فسير اليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وارسلوا الى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم واهل زويلة فانهزمت العرب وبقي اهل زويلة واهل سفاقس وركبوا في البحر فنجوا وبقي اهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا الى زويلة فوجدوا ابوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل اكثرهم ولم ينج الا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم الى عبد المؤمن فلما قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ في البر ولم يعرجوا على شئ من اموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والاطفال ونهبوا الاموال واستقر الفرنج بالمهدية الى ان اخذها منهم عبد المؤمن على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل)

في هذه السنة قبض زين الدين على كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قديما وقد جعله ولي عهده وخطب له على منابر خراسان فلما جرى لسنجر مع الغز ما ذكرناه وتقدم على عسكر خراسان وضعفوا عن الغز مضى الى خوارزم شاه فزوجه ابنة اخيه انسيس ثم بلغه عنه ما كرهه فابعده فجاء الى اصفهان فمنعته امه من الدخول فمضى الى قاشان فسير اليه محمد شاه ابن اخيه محمود بن محمد عسكرا ابعدوه عنها فسار الى خوزستان فمنعه ملكشاه عنها فقصد اللحف ونزل البندنيجين وارسل رسولا الى الخليفة المقتفي يعلمه بوصوله وترددت الرسل بينهما الى ان استقر الامر على ان يرسل زوجته تكون رهينة فارسلها الى بغداد ومعها كثير من الجواري والاتباع وقال قد ارسلت هؤلاء رهائن فان اذن امير المؤمنين في دخول بغداد فعلت والا رجعت فاكرم الخليفة زوجته ومن معها واذن له في القدوم اليه فقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلثمائة رجل فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقيه ومعه قاضي القضاة والنقيبان ولم يترجل له ابن الوزير ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة وخلع عليه الخليفة واقام ببغداد الى ان دخل المحرم من سنة احدى وخمسين وخمسمائة فاحضر فيه سليمان شاه الى دار الخليفة واحضر قاضي القضاة والشهود واعيان العباسيين وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وانه لا يتعرض الى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد ولقب بألقاب ابيه غياث الدنيا والدين وباقي ألقابه وخلع عليه خلع السلطنة وسير معه من عسكر بغداد ثلاثة آلاف فارس وجعل الامير قويدان صاحب الحلة امير حاجب معه وسار

ابناء الجيل من كان يسلك
شعب هواه * ويستلم ركن
طاعته و رضاه * وكتب
شمس المعالي الى الاصبهبذ
بالانضمام الى بابي وجمع اليد
الى يده فيما قدم واخر *
والشد على عضده فيما اورد
واصدر * ففعل ما امر
وتسامع ابو العباس فيروزان
ابن الحسن بنبئهما * وهو
مقيم بجرجان فنهد لكفاية
امرهما * واخذ ما التهب
من جمرهما * فواقعاه بباب
استراباذ وقعة اثخنت فيها
حدود القواطع * من حديد
المدارع * ومزارق الزانات
من مفارق الهامات *
وكادت الهزيمة تستمر
باصحاب بابي لولا انقلاب
الاكراد والعرب في عسكر
الديلم عليهم ببيض الظبا
وزرق العوالي * منادين
بشعار شمس المعالي فانهزم
ابو العباس فيروزان بن
الحسن فيمن معه وركب
الطلب اكتافهم فأسر هو
وزهاء عشرين نفسا من
وجوه القواد في جملته
واسرى بقية الفل نحو
جرجان وقد قدم اليها قابوس
ابن وشمكير سالارين خركاش
أحدا فاربه فوافق
انهزامهم اليها * اظلاله عليها
فضجوا رنة وعويلا *
وضلوا فلا يهتدون سبيلا *
واضطروا الى استئناف
الهزيمة قرحا على قرح *

نحو بلاد الجبل فى ربيع الاول وسار الخليفة الى حلوان وارسل الى ملكشاه ابن السلطان محمود اخى السلطان محمد صاحب همذان وغيرها يدعوه الى موافقته فقدم فى الفى فارس فحلف كل منهما لصاحبه وجعل ملكشاه ولى عهد سليمان شاه وقواهما الخليفة بالمال والاسلحة وغيرها فسارا واجتمعوا هم وايلدكز فصاروا فى جمع كبير فلما سمع السلطان محمد خبرهم ارسل الى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائبه زين الدين يطلب منهما المساعدة ويبذل لهما البذول الكثيرة ان ظفر فاجاباه الى ذلك ووافقا فقويت نفسه وسار الى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم فى جمادى الاولى واشتد القتال بين الفريقين فانهزم سليمان شاه ومن معه وتشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة وكانوا ثلاثة آلاف رجل نحو من خمسين رجلا ولم يقتل منهم احد وانما اخذت خيولهم واموالهم وتشتتوا وجاؤا متفرقين وفارق سليمان شاه ايلدكز وسار نحو بغداد على شهرزور فخرج اليه زين الدين على فى جماعة من عسكر الموصل وكان بشهرزور الامير بزان مقطعا لها من جهة زين الدين وسارا فوقفا على طريق سليمان شاه فاخذاه اسيرا وحمله زين الدين الى قلعة الموصل وحبسه بها مكرما محترما الى ان كان من امره ما نذكره سنة خمس وخمسين ان شاء الله فلما قبض سليمان شاه ارسل زين الدين الى السلطان محمود يعرفه ذلك ووعده المعاضدة على كل ما يريده منه والمساعدة له والله اعلم

(ذكر حصر نور الدين قلعة حارم)

فى هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكى الى قلعة حارم وهى للفرنج ثم لبيمند صاحب انطاكية وهى تقارب انطاكية من شرقيها وحصرها وضيق على اهلها وهى قلعة منيعة فى نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون الى رأيه فارسل اليهم يقول انا نقدر على حفظ القلعة وليس بنا ضعف فلا تخاطروا وانتم باللقاء فانه ان هزمكم اخذها وغيرها والرأى مطاولته فارسلوا اليه وصالحوه على ان يعطوه نصف اعمال حارم فاصطلحوا على ذلك ورحل عنهم فقال بعض الشعراء

البست دين محمد بانوره * عزا له فوق السها آساد
مازالت تشمله بميلد القنا * حتى تشقق عوده الميلاد
لم يبق مذ رهفت عزمك دونه * عدد يراع به ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلما * حدثتك عن خطبائها الاعواد
ملق باطراف القريحة كلكلا * طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردا * حاموا فراقص كيدهم اوكادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة * حزما لحارم والمصاد مصاد
من منكران ينسف السيل الربا * وابوه ذاك العارض المداد
او ان يعيد الشمس كاسفة السنى * نار لها ذاك الشهاب زناد
لا ينفع الآباء ما صنعوا من الـ * ـعلياء حتى يرفع الاولاد

وهى

وملما فوق جرح * وخوطب
شمس المعالى قابوس بخبر
الفتح * وماهيأه الله له من
عظيم النجح * فسار الى جرجان
وقد شرح الله صدره *
وجلى عن الكسوف بدره
ونسخ باليسر عسره * وزاد
على القدر قدره * ودخلها
فى شعبان سنة ثمان وثمانين
وثلثمائة وبعض كتاب
اهل العصر فيه عند زفاف
الملك اليه قصيدة اولها
الجد ما لم يعنه الجد غدار
والحر ما لم يزنه الصبر خوار
والكريم اذا الايام زلن به
عن المنى بثبات النفس اعذار
كم فاضل وجنون المنجنون له
حيفا على حسك الاوجار
وكم جريح قريح القلب
ذى عبر
وكم قتيل وما للسيف اثار
وكم فقير بلا جرم وخائنة
وكم غنى وللايام ادوار
سير سريع ودور غير منصرم
نصب العيون ودون الغيب
استار
من كان يخبر حال الدهر دائرة
لم يثنه عن عيان الحال اخبار
وانما حاصل الايام مختبرا
جذرا صم عن التحقيق فرار
يقضى الزمان على من لا
اصطبار له
ورقه للدى فى العسر صبار
فاصبر هديت فان الصبر
منجحة
ومن وراء ظلام الليل
اسفار

وهى طويلة

(ذكر وفاة خوارزم شاه اتسز وغيره من الملوك)

فى هذه السنة تاسع جمادى الآخرة توفى خوارزم شاه اتسز بن محمد بن انوشتكين وكان قد اصابه فالج فتعالج منه فلم يبرأ فاستعمل ادوية شديدة الحرارة بغير امر الاطباء فاشتد مرضه وضعفت قوته فتوفى وكان يقول عند الموت ما اغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه وكانت ولادته فى رجب سنة تسعين واربعمائة ولما توفى ملك بعده ابنه ارسلان فقتل نفرا من اعمامه وسعل أخاله فمات بعد ثلاثة أيام وقيل بل قتل نفسه وارسل الى السلطان سنجر وكان قد هرب من أسر الغز على ما نذكره يبذل الطاعة والانقياد فكتب له منشورا بولاية خوارزم وسير الخلع له فى رمضان فبقى فى ولايته ساكنا آمنا وكان اتسز حسن السيرة كافا عن اموال رعيته منصفا لهم محبوبا اليهم مؤثرا للاحسان والخير اليهم وكان الرعية معه بين امن غامر وعدل شامل وفى سابع عشر الشهر المذكور توفى أبو الفوارس بن محمد بن ارسلان شاه ملك كرمان وملك بعده ابنه سلجوق شاه وفيها توفى الملك مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان قتلمش صاحب قونية وما يجاورها من بلاد الروم وملك بعده ابنه قلج ارسلان

(ذكر هرب السلطان سنجر من الغز)

فى هذه السنة فى رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من اسر الغز وجماعة من الامراء الذين معه وسار الى قلعة ترمذ واستظهر بها على الغز وكان خوارزم شاه اتسز بن محمد بن انوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان الغز فيقاتلانهم فيمن معهما فكانت الحرب بينهم سجالا وغلب كل واحد من الغز والخراسانيين على ناحية من خراسان فهويا كل دخلها الا رأس لهم يجمعهم وسار السلطان سنجر من ترمذ الى جيحون يريد العبور الى خراسان فاتفق ان مقدم الاتراك القارغلية واسمه على بك توفى وكان اشد شئ على السلطان سنجر وعلى غيره كثير الشر والفساد واثارة الفتن فلما توفى اقبلت القارغلية على السلطان سنجر وكذلك غيرهم من سائر الامم من اقاصى البلاد وادانيها وعاد الى دار ملكه بمرو فى رمضان فكانت مدة اسره مع الغز من سادس جمادى الاولى سنة ثمان واربعين الى رمضان سنة احدى وخمسين وخمسمائة

(ذكر البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد ابيه)

فى هذه السنة امر عبد المؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمران يلى عمر الامر بعد عبد المؤمن فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر اولاده احب ان ينقل الملك اليهم فاحضر امراء العرب من هلال وزغب وعدى وغيرهم اليه ووصلهم واحسن اليهم ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له نريدان تجعل لنا ولى عهد من ولدك يرجع الناس اليه بعدك ففعلوا ذلك فلم يجبهم اكراما لعمر لعلو منزلته فى الموحدين وقال لهم ان الامر لابى حفص عمر فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه فحضر عند عبد المؤمن واجاب الى خلع نفسه فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد وكتب الى جميع بلاده بذلك وخطب له فيها جميعها فاخرج عبد المؤمن فى ذلك اليوم من الاموال شيأ كثيرا

(ذكر استعمال عبد المؤمن اولاده على البلاد)

والدهر ذو غير احواله نوب
عسر ويسر واحلاء ومر اد
والبدر يدركه التمحيق منتقصا
وبعده بضياء التم نوار
والنار فى خلل العيدان كامنة
وسقطها باقتداح الزند سمار
والجد يطبع كالصمصام ثم له
من صيقل الدهر جلاء وشهار
هذا الشمس المعالى فى سعادته
له مع الفلك الدوار اختبار
اعطاه من غرر الآمال ما قصرت
عن نيل امثالها فى الدهر اعمار
ملكا وعزا وعيشا رافعا وعلا
ودولة ضمنها نصر واظهار
لما كساه دروع العز ضافية
ولم يجد منه غير الشكر مختار
ابدى نشوزا عليه كى يجربه
بالصبر والصبر للاحرار مسبار
حتى اذا ما قضى من سبره وطرا
وللامور نهايات واطوار
امسى يعاود ما ارضاه فى خفر
وخده بدم التشوير فوار
فالدهر خادمه والعز صارمه
والرأى رايته والخلق انصار
قرم تضى حياة العالمين به
كانه الشمس والاعمار اقمار
راح الكرام الى اوكارنا له
كانه الليل والاجرار اطيار

له المعالى سماء والندى شهب
والمجد سارية والجود امطار
علاه كالليل والمصباح همته
ونقله الجود والآمال سمار
تراه تنهزم الاموال عن يده
مثل انهزام العدى عنه اذا ثاروا
ومجده الدهر قناص لهمته
والجود بازله والصيد احرار
حياؤه يوقاح السيف ممتزج
وعدله فى حزون البأس سيار
ندى يديه الى الاردوس منتسب
ووقع سطوته فى حره النار
يوم الهياج صفاح البيض ظلته
والجو من لهب الطعنات صهار
يغامس الحرب والارواح راقية
الى التراقى وطرف الموت نظار
يرش من دفع الاعناق قسطلها
اذ نقعها بحوامى الخيل ثوار
تناذرت انجم الافلاك لسطوته
اذ الرماح من الارواح تغتار
فهن فى ذمة الاضواء آنسة
وهن من طخية الظلماء نفار
للمشترى بينها فى الخصر منطقة
يبغى رضاه وللمريخ زنار
كفته روعته امر ابمصلحة
فايدوره على المحظور دثار
وقد افاض على الظلماء هيبته
فما يصر حذار البأس صرار

فى هذه السنة استعمل عبد المؤمن اولاده على البلاد فاستعمل ولده ابا محمد عبد الله على بجاية واعمالها واستعمل ابنه أبا الحسن عليا على فاس واعمالها وولى ابنه ابا سعيد سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة وكذلك غيرهم ولقد سلك فى استعمالهم طريقا عجيبا وذلك انه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من اصحاب المهدى محمد بن تومرت وكان يتعذر عليه ان يعزلهم فاخذ اولادهم وتركهم عنده يشتغلون فى العلوم فلما تمهروا فيها وصاروا يقتدى بهم قال لآبائهم انى اريد ان تكونوا عندى استعين بكم على ما أنا بصدده ويكون اولادكم فى الاعمال لانهم علماء فقهاء فاجابوا الى ذلك وهم فرحون مسرورون فولى اولادهم ثم وضع عليهم بعضهم ممن يعتمد عليه فقال انى ارى امرا عظيما قد فعلتموه فاربتم فيه الحزم والادب فقالوا وما هو فقال اولادكم فى الاعمال واولاد امير المؤمنين ليس لهم منها شئ مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة وانى اخاف ان ينظر فى هذا فتسقط منزلتكم عنده فعلموا صدق القائل فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا نحب ان تستعمل على البلاد السادة اولادك فقال لا افعل فلم يزالوا حتى فعل ذلك لهم بسؤالهم اياه

(ذكر حصر السلطان محمد بغداد)

فى هذه السنة فى ذى الحجة حصر السلطان محمد بغداد وسبب ذلك ان السلطان محمد بن محمود كان قد ارسل الى الخليفة يطلب ان يخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة من اجابته الى ذلك فسار من همذان فى عساكر كثيرة نحو العراق ووعده اتابك قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين على بارسال العساكر اليه نجدة له على حصر بغداد فقدم العراق فى ذى الحجة سنة احدى وخمسين واضطرب الناس ببغداد وارسل الخليفة يجمع العساكر فاقبل خطلو برس فى عسكر واسط ورحل مهلهل الى الحلة فاخذها واهتم الخليفة وعون الدين بن هبيرة بامر الحصار وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التاج ونودى منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين ان لا يقيم احد بالجانب الغربى فاجفل الناس واهل السواد ونقلت الاموال الى حريم دار الخلافة وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والنجمى ونهب اصحابه ما وجدوا وخرب اصحاب محمد شاه نهر القلابين والتوثة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا واما أهل الكرخ واهل باب البصرة فانهم خرجوا الى عسكر محمد وكسبوا معهم اموالا كثيرة وعبر السلطان محمد فوق حراقة الى الجانب الغربى ونهبت اونا واتصل به زين الدين هناك وساروا فنزل محمد شاه عند الرملة وفرق الخليفة السلاح على الجند والعامة ونصب المنجنيقات والعرادات فلما كان فى العشرين من المحرم ركب عسكر محمد شاه وزين الدين على ووقفوا عند الرقة ورموا بالنشاب الى ناحية التاج فعبر اليهم عامة بغداد فقاتلوهم ورموهم بالنفط وغيره ثم جرى بينهم عدة حروب وفى ثالث صفر عاودا القتال واشتدت الحرب وعبر كثير من أهل بغداد سباحة وفى السفن فقتلوا وكان يوما مشهودا ولم تزل الحرب بينهم كل وقت وعمل الجسر على دجلة وعبر عليه أكثر العسكر الى الجانب الشرقى وصار القتال فى الجانبين وبقى زين الدين فى الجانب الغربى وامر الخليفة فنودى كل من جرح فله خمسة دنانير فكان كلما جرح انسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير فاتفق ان بعض العامة

جرح جراحا يس بكبير فحضر الوزير بطلب الدنانير فقال له الوزير ليس هذا الجرح بشئ فعاود القتال فضرب فانشقت جوفه وخرج شئ من شحمها فحمل الى الوزير فلما رآه قال يا مولانا الوزير ارض لك هذا فضحك منه واضعف له ورتب له من يعالج جراحته الى ان برئ وتعذرت الاقوات فى العسكر الا ان اللحم والفواكه والخضر كثيرة وكانت الغلات ببغداد كثيرة لان الوزير كان يفرقها فى الجند عوض الدنانير يبيعونها فلم تزل الاسعار عندهم رخيصة الا ان اللحم والفاكهة والخضر قليل عندهم واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وعدم المعيشة لاهلها وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين فى القتال لاجل الخليفة والمسلمين وقيل لان نور الدين محمود بن زنكى وهو اخو قطب الدين صاحب الموصل الاكبر ارسل الى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتروا فصروا تزل الحرب فى أكثر الايام وعمل السلطان محمد شاه اربعمائة سلم ليصعد الرجال فيها الى السور وزحفوا وقاتلوا ففتح اهل بغداد ابواب البلد وقالوا اى حاجة بكم الى السلاليم هذه الابواب مفتحة فادخلوا منها فلم يقدروا على ان يقربوها فبينما الامر على ذلك اذ وصل الخبر الى السلطان محمد ان اخاه لكشاه وايلدكز صاحب بلاد اران ومعه الملك ارسلان ابن الملك طغرل بن محمد وهو ابن امرأة ايلدكز قد دخلوا همذان واستولوا عليها واخذوا أهل الامراء الذين مع محمد شاه واموالهم فلما سمع محمد شاه ذلك جد فى القتال لعله يبلغ منه فلم يقدر على شئ ورحل عنها نحو همذان فى الرابع والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وعاد زين الدين الى الموصل وتفرق ذلك الجمع على عزم العود اذا فرغ محمد شاه من اصلاح بلاده فلم يعودوا يجتمعون وفى كثرة حروبهم لم يقتل بينهم الا نفر يسير وانما الجراح كان كثيرا ولما ساروا نهبوا بعقوبا وغيرها من طريق خراسان ولما رحل العسكر عن بغداد اصاب اهلها امراض شديدة حادة وموت كثير للشدة التى مرت بهم واما لكشاه وايلدكز ومن معهما فانهم ساروا من همذان الى الرى فخرج اليهم اينانج شحنتها وقاتلهم فهزموه فارسل الملك محمد الامير سقمس بن قيماز الحرامى فى عسكر لمجدة لاينانج فسار سقمس وكان ايلدكز ولكشاه ومن معهما قد عادوا من الرى يريدون محاصرة الخليفة فلقيهم سقمس وقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره واثقالهم فاحتاج الملك محمد الى الاسراع فسار فلما بلغ حلوان بلغه ان ايلدكز بالدينور واتاه رسول من نائبه اينانج انه دخل همذان واعاد الخطبة له فيها فقويت نفسه وهرب شملة صاحب خوزستان الى بلاده وتفرق اكثر جمع ايلدكز ولكشاه وبقيا فى خمسة آلاف فارس فعادا الى بلادهما شبه الهارب ولما دخل محمد شاه همذان اراد التجهز لقصد بلاد ايلدكز فابتدأ به مرض السل وبقى به الى ان مات

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول أطلق ابو الوليد البدر ابن الوزير ابن هبيرة من حبس تكريت ولما قدم بغداد خرج اخوه والموكب يتلقونه وكان يوما مشهودا وكان مقامه فى الحبس يزيد على ثلاث سنين وفيها احترقت بغداد فى ربيع الآخر وكثر الحريق بها واحترق درب قراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة ابن حربة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب

أن السلامة ان لو الهمت
نطقت
يارب انك لى من سيفه جار
يا أيها الملك الميمون طائره
ومن نداه كفيض اليم زخار
ان الزمان عروس مالها ابدا
سوى خصالك مشاط وعطار
الجهل عندك فى وجه الندى كلف
نعم وفى غرة الاقبال ادبار
ترمى العدى من بنات الكيد صائبة
وان رموا خانت المرمى اوتار
كان ما قد رموا من امن ظالمهم
وما رميت به وحى واقدار
تحمى وتلتهب الاوتار راميها
كأنما احمت الاوتار اوتار
لازلت فى نعم تفضى الى نعم
ما طاف حول فناء البيت عمار
ممتعا بسرور غير منقرض
حتى يفوق نجود الارض اغوار
ولابى بكر محمد بن العباس الطبرى المعروف بالخوارزمى من قصيدة يمدحه بها وقت مقامه بنيسابور
قامت تودعنى بالادمع السجم
والصمت بين يدى منها وبين فم
البين اخرسها والبين انطقها
وهذه حالة فى الناس كلهم
قد طالما انهزمت عنا السيوف فلا
تحاربنا بجيش الورد والعنم

الازج وسوق السلطان وغير ذلك وفيها في شوال قصد الاسماعيلية طبس بخراسان فاوقعوا بها وقعة عظيمة واسروا جماعة من اعيان دولة السلطان ونهبوا اولادهم ودوابهم وقتلوا فيهم وفيها في ذي القعدة توفي شيخ الاسلام ابو المعالي الحسن بن عبيد الله بن احمد بن محمد المعروف بابن الرزاز بنيسابور وهو من أعيان الافاضل وفي هذه السنة توفي مريد الدين بن بيسان رئيس آمد والحاكم فيها على صاحبها وولي ما كان اليه بعده ابنه كمال الدين ابو القاسم وتوفي أبو الحسن علي بن الحسين الغزنوي الواعظ المشهور ببغداد وكان قدم اليها سنة ست عشرة وخمسمائة وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء الا ان المقتفي اعرض عنه بعد موت السلطان مسعود لاقبال السلطان عليه وكان موته في المحرم وتوفي ابو الحسن ابن الخل الفقيه الشافعي شيخ الشافعية ببغداد وكان يؤم بالخليفة في الصلاة وتوفي ابن الآمدي الشاعر وهو من اهل النيل من اعيان الشعراء في طبقة الغزي والارجاني وكان عمره قد زاد على تسعين سنة وفيها قتل مظفر بن حماد بن ابي الخير صاحب البطيحة قتله نفيس بن فضل بن أبي الخير في الحمام وولي بعده وفيها توفي الواوا الحلبي الشاعر المشهور وفيها في رمضان توفي الحكيم ابو جعفر بن محمد البخاري باسفرايين وكان عالما بعلوم الحكماء الاوائل

(ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الزلازل بالشام)

في هذه السنة في رجب كان بالشام زلازل كثيرة قوية فخربت كثيرا من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى كثرة فخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وافامية وحمص وحصن الاكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وانطاكية واما مما لم يكثر فيه الخراب ولكن خرب اكثره في جميع الشام وتهدمت اسوار البلاد والقلاع فقام نور الدين محمود في ذلك المقام المرضي وخاف على بلاد الاسلام من الفرنج حيث خربت الاسوار فجمع عساكره واقام باطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من اسوار البلاد واما كثرة القتلى فيكفي ان معلما كان بالمدينة وهي مدينة حماة ذكر عنه انه فارق المكتب لهم عرض له فحاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يات أحد يسأل عن صبي كان له بالمكتب

(ذكر ملك نور الدين حصن شيزر)

نبتدئ بذكر هذا الحصن ومن كان قبل ان يملكه نور الدين محمود بن زنكي فنقول هذا الحصن قريب من حماة بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك اليه الا من طريق واحدة وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من ايام صالح بن مرداس الى ان انتهى الامر الى أبي المرهف نصر بن علي بن نصر بن منقذ بعد ابيه أبي الحسن علي وكان بيده الى ان مات سنة احدى وتسعين واربعمائة وكان شجاعا كريما فلما حضره الموت استخلف اخاه أبا سلامة مرشد بن علي فقال والله لا وليته ولا خرجن من الدنيا كما دخلتها وكان عالما بالقرآن وهو والد مؤيد الدولة اسامة بن منقذ فولاها اخاه الاصغر سلطان بن علي واصطحبا اجمل صحبة مدة من الزمان فاولد مرشد عدة اولاد ذكور وكبروا وسادوا منهم عز الدولة أبو الحسن علي ومؤيد الدولة اسامة وغيرهما ولم يولد لاخيه سلطان ولد ذكر الى ان كبر فجاءه اولاد ذكور فحسد أخاه على ذلك وخاف

اولاد

وقد خلعت لجام الاتباع فلا
تلق سوى الفتا في ذمة اللجم
لم يبق في الارض لي شئ
اهاب له
فهل اهاب انكسار الجفن
ذي السقم
استغفر الله من قولي غلطت
بلى
اهاب شمس المعالي امة الامم
كان لحظك من سيف الامير
ومن
حتم القضاء ومن عزمي ومن
كلمي
غضي جفونك عني رحمة لدمي
فان سفرت فقد حاولت
سفك دمي
وان دعا ابو يحيى انصرته
على يوما فأبدي الثغر وابتسمي
قال الامير لاخلاق الكرام
قفي
بحيث انت فما زادت على نعم
وقال للعلم والآداب لا ترد
الا علي فما فاها بلا ولم
القائل القول لو فاه الزمان به
صارت اليه اياما بلا ظلم
والفاعل الفعلة الغراء
لو مزجت
بالنار لم تكن النيران من حمم
لا تحفلن بنضوب المال في يده
فقد تجف ضروع العارض
السجم
قد يجزر البحر بعد المد تعرفه
وينزل الجدب وكرا الاجدل
القطم
ولا يغرنك ان الدهر حاربه
قد يغدر السيف يوم الروع
بالبهم

اولاد اخيه على اولاده وسعى بينهم المفسدون فغيروا كلا منهما على اخيه فكتب سلطان الى اخيه مرشد ابيات شعر يعاتبه على اشياء بلغته عنه فأجابه بشعر في معناه رأيت اثبات ما تمس الحاجة اليه منه وهي هذه الابيات

ظلوم أبت في الظلم الا تماديا * وفي الصد والهجران الا تغاليا
شكت هجرنا والذنب في ذا لذنبها * فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فينا وطالما * عصيت عذولا في هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال الى القلى * وهيهات ان أمسى لها الدهر قاليا
ولا ناسيا ما أودعت من عهودها * وان هي أبدت جفوة وتناسيا
ولما اتاني من قريضك جوهر * جمعت المعالي فيه لي والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لانه * تولى برغمي حين ولى شبابيا
واين من السمتين افظ مفرق * اذا رمت ادنى القول منه عصانيا
وقالت أخي يرعى بنيّ واسرتي * ويحفظ عهدي فيهم وذماميا
ويحرز بهم مالم اكافه فعله * لنفسي فقد اعددته من ترائيا
فقالت لما ان حنى الدهر صعدتي * وثلم مني صار ما كان ماضيا
تنكرت حتى صار بركة قسوة * وقربك مني جفوة وتناسيا
واصبحت صفر الكف مما رجونه * أرى اليأس قد عني سبيل رجائيا
على أنني ما سلت عما عهدته * ولا غيرت هذي السنون ودياديا
فلا غرو عند الحادثات فانني * أراك يميني والانام شماليا
تحل بها عذراء لو قرنت بها * نجوم السماء لم تعد درياريا
تحلت بدر من صفاتك زانها * كما زان منظوم اللآلي الغوانيا
وعش بانيا للمجد ما كان واهيا * مشيدا من الاحسان ما كان هاويا

وكان الامر بينهما على ما قدمناه فلما توفي مرشد سنة احدى وثلاثين وخمسمائة تلب اخوه لاولاده ظهر الجن وبادأهم بما يسوءهم وأخرجهم من شيز فتفرقوا وقصد اكثرهم نور الدين وشكوا اليه ما القوا من عمهم فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده والاخذ بثارهم واعادتهم الى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه ان يسلم شيزر الى الفرنج ثم توفي سلطان وولي بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد حنقه عليهم وانتظر فرصة تمكنه فلما خربت القلعة هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينج من بني منقذ الذين بها أحد وسبب هلاكهم اجمعين ان صاحبها منهم كان قد خلق ولداله وعمل دعوة للناس واحضر جميع بني منقذ عنده في دار وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه واذا كان في مجلس اقيم الفرس على بابه وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرمح الفرس رجلا كان اقواهم فقتله وامتنع الناس من الخروج فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ولم ينج منها الا الشريد فبادر اليها بعض امرائه وكان بالقرب منها فصعد اليها وتسلمها نور الدين منه فملكها وعمر اسوارها وسورها واعادها جديدة

اذا دعت نحوه ساقا نهضت قدما
والعمر يذهب بين الساق والقدم
حيرى تقوّمها حال وتعدلها
كذا يكون رجوع الآبق السدم

وله من قصيدة أخرى يقول في نسيبها

شموس لهن البيت والخدر مغرب
فطالعها اللين والهجر غارب
ولكنهن شمس المعالي خلافها
مشارقه ليست لهن مغارب
وما القول لشمس الا وقد رأوا
بأنك شمس والملوك كواكب
أقول لزوار الامير ترجلوا
فمن زاره من راجل فهو راكب
وان زاره الفرسان كنت كفيلهم
بأن يرجعوا والخيل فيهم جنائب
ألا بلغا عني الامير رسالة
تدل على اني على الدهر عاتب
الى كم يحل المرء منك بلدة
بها منبر فيه لغيرك خاطب
عليك بهذا السيف فاقض دينه
فلا سيف دين عند كفك واجب
ولا تقعدن تغضي الجفون على القذى
وفي الارض مركوب ورمح وصاحب

(ذكر وفاة الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة)

كانت الجزيرة لاتابك زنكي فلما قتل سنة احدى وأربعين اقطعها ابنه سيف الدين غازي للامير أبي بكر الدبيسي وكان من اكابر أمراء والده فبقيت بيده الى الآن وتمكن منها وصار بحيث يتعذر على قطب الدين اخذها منه فمات في ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين ولم يخلف ولدا فاستولى عليها مملوك له اسمه غلبك وأطاعه جندها فحصرهم مودود ثلاثة اشهر ثم تسلمها من غلبك في صفر من سنة ثلاث وخمسين واعطاه عوضها اقطاعا كثيرة

(ذكر وفاة السلطان سنجر)

في هذه السنة في ربيع الاول توفي السلطان سنجر بن ملكشاه ابن ألب ارسلان أبو الحرث اصابه قولنج ثم بعده اسهال فمات منه ومولده بسنجار من ديار الجزيرة في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وسكن خراسان واستوطن مدينة مرو ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد الى محمد بالسلطنة وجعل سنجرا ولي عهده فلما مات محمد خوطب لسنجر بالسلطان واستقام أمره واطاعه السلاطين وخطب له على أكثر منابر الاسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عاليا وجده متراقيا الى ان اسره الغز على ما ذكرناه ثم انه خلص بعد مدة وجمع اليه اطرافه وكان يعود اليه ملكه فأدركه أجله وكان مهيبا كريما رفيقا بالرعية وكانت البلاد في زمانه آمنة ولما مات دفن في قبة بناها لنفسه سماها دار الآخرة ولما وصل خبر موته الى بغداد قطعت خطبته ولم يجامل له في الديوان لعزاء ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود ابن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر فقام بها خائفا من الغز فقصد جرجان يستظهر بها وعاد الغز الى مرو وخراسان واجتمع طائفة من عساكر خراسان على أي ابه المؤيد فاستولى على طرف من خراسان وبقيت خراسان على هذا الاختلال الى سنة أربع وخمسين وراسل الغز الملك محمودا على ما ذكره سنة ثلاث وخمسين وسألوه ان يحضر عندهم ليملكوه عليهم فلم يثق اليهم وخافهم على نفسه فارسل ابنه اليهم فاطاعوه مدة ثم لحق بهم الملك محمود على ما ذكره سنة ثلاث وخمسين

(ذكر ملك المسلمين مدينة المرية وانقراض دولة الملثمين بالاندلس)

في هذه السنة انقرضت دولة الملثمين بالاندلس وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المرية من الفرنج وسبب ذلك ان عبد المؤمن لما استعمل ابنه أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد البحر الى مالقة واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتوني صاحب غرناطة ان يوحد ويسلم اليه غرناطة فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلم غرناطة فسار ميمون الى مالقة باهله وولده فتلقاه ابو سعيد واكرمه ووجهه الى مراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم الا جزيرة ميورقة مع حمو بن غانية فلما ملك ابو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار الى مدينة المرية وهي بأيدي الفرنج اخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها واقام الاسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية برا وبحرا وجاء الفرنج الى حصنها فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سورا

تحريك هذا الدهر فالزمه يغترم
فلن يوقظ الغرام الا المطالب
وأنت ابن عم السيف بل أنت عمه
وكيف تخاف الاقربين الاقارب
أليس أبوكم وشمكير وجده
زياد ومرداويج عم مناسب
تحرك بنا اما لواء ومنبر
واما حسام كالعقيقة قاضب
وللقاضي أبي الحسين علي ابن عبد العزيز الجرجاني فيه من قصيدة أولها
أمسرى خيال الهاجر المتجنب
ومجرى دموع الزائر المتطرب
سأتلف بالدهر الذي صرت بعده
قذى ناظري من بعد أن كنت ملعبي
أعفى على عين اذا ما وعدتها
بقربك قالت للدموع تأهبي
ولما تداعت للغروب شموسهم
وقد التوديع الغريق المغرب
تلقين أطراف السجوف بمشرق
لهن واعطاف الخدور بمغرب
فما سرن الا بين دمع مضيع
ولا قمن الا فوق قلب معذب
كأن فؤادي قرن قابوس راعه
تلاعبه بالقيلق المتأشب
هما بيراه المال أسرع حادث

على الجبل المذكور الى البحر وعمل عليه خندقا فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من يجدهما من ان يصل اليهما فجمع الادفونش ملك الفرنج بالاندلس المعروف بالسليطين فى اثنى عشر ألف فارس من الفرنج ومعه محمد بن سعد بن مردنيش فى ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول الى المدينة ودفع المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين فى عوده قبل ان يصل الى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة اشهر فضاقت الميرة وقلت الاقوات على الفرنج فطلبوا الامان ليسلموا الحصن فاجابهم أبو سعيد اليه وأمنهم وتسلم الحصن ورحل الفرنج فى البحر عائدين الى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين

(ذكر غزو صاحب طبرستان الاسماعيلية)

فى هذه السنة جمع شاه مازندران رستم بن على بن شهريار عسكره وسار ولم يعلم احد جهة مقصده وسلك المضايق وجد السير الى بلد ألموت وهى للاسماعيلية فاغار عليها واحرق القرى والسواد وقتل فاكثر وغنم اموالهم وسبى نساءهم واسترق ابناءهم فباعهم فى السوق وعاد سالما غانما واتخذل الاسماعيلية ودخل عليهم من الوهن مالم يصابوا بمثله وخرب من بلادهم مالا يعمر فى السنين الكثيرة

(ذكر أخذ حاج خراسان)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار حجاج خراسان فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قد قصدوا طبرستان فاخذوا من أمتعتهم وقتلوا نفرا منهم وسلم الباقون وساروا من موضعهم فبينما هم سائرون اذ طلع عليهم الاسماعيلية فقاتلهم الحجاج قتالا عظيما وصبروا صبرا عظيما فقتل أميرهم فانخزلوا وألقوا بأيديهم واستسلموا وطلبوا الامان وألقوا اسلحتهم مستأمنين فأخذهم الاسماعيلية وقتلوهم ولم يبقوا منهم الا شرذمة يسيرة وقتل فيهم من الائمة العلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الاسلام وخصت خراسان ولم يبق بلد الا وفيه المأتم فلما كان الغد طاف شيخ فى القتلى والجرحى ينادى يا مسلمون يا حجاج ذهب الملاحدة وأنا رجل مسلم فمن أراد الماء سقيته فمن كلمه قتله واجهز عليه فهلكوا اجمعون الا من سلم وولى هاربا وقليل ماهم

(ذكر الحرب بين المؤيد والامير ايناق)

قد ذكرنا تقدم الامير اى ابه مملوك السلطان سنجر وتقدمه على عساكر خراسان فحسده جماعة من الامراء منهم الامير ايناق وهو من الامراء السنجرية وانحرف عنه وكان تارة يقصد خوارزمشاه وتارة مازندران وتارة يظهر الموافقة للمؤيد ويبطن المخالفة فلما كان الآن فارق مازندران ومعه عشرة آلاف فارس قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد وكل منحرف عن المؤيد وقصد خراسان وأقام بنواحى نسا وابيورد لا يظهر المخالفة للمؤيد بل يراسله بالموافقة والمعاضدة له ويبطن ضدها وانتقل المؤيد من المكاتبة الى المكالحة وسار اليه جريدة فاغار عليه وأوقع به فتفرق عنه جموعه ونجا بحشاشة نفسه وغنم المؤيد وعسكره كل ما لايناق ومضى منهزما الى مازندران وكان ملكها رستم بينه وبين أخيه اسمه على تنازع على الملك وقد

الى حتفه والقرن أخوف معطب
يفض العدى اطراقه قبل عزمه
ويطرقهم رعبا ولم يتأهب
وفيها يصف الزائفات
وزرق على مر تظل اذا هوت
تلاحظ أعقاب الشهاب المذنب
ترفهن عن طيش الرماح وزلة السهام وتقصير الحسام المجرب
فخزن ظبات البيض ثم وصلنها اليهن من مر الرماح بأكعب
فتلن منال السهم من متبعد وقمن مقام السيف من متقرب
فتى ماتلاقت همتاه بصدره ولا يشهد الجلى برأى مشعب
له الهمة العلياء والمنصب الذى
تتبعه الجوزاء ألحاظ متعب
اذا بعض أطراف الرجال تقاصرت
عن المجد ألفوه كريم التقلب
ويذهب من عز ومجد ومفخر اثارمرداو يبج فى كل مذهب
يزاحمهم من وشكير بمنكب
ومن سلف الاصهبذين بموكب
وما خلصت للمرء معساة والد اذا لم يقابله بخال مهذب
كلا طرفيه يرجع العارف خاسئا
اذا رامه عن كل خرق محجب
يحوز معالى ابد شير بخاله
ويعلو الرباعن شأو ساسان بالأبى

قوى رستم فلما وصل ايناق الى مازندران قتل عليا وحمل رأسه الى أخيه رستم فعظم ذلك على رستم واشتد واستشاط غضبا وقال آكل لحمى ولا أطعمه غيرى ولم يزل ايناق يتردد فى خراسان بالنهب والغارة لاسيما مدينة اسفراين فانه أكثر من قصدها حتى خربت فراسله السلطان محمود بن محمد والمؤيد عوانه الى الموافقة فامتنع فسارا اليه فى العساكر فلما قاربا أتاهما كثير من عسكره فمضى من بين أيديهما الى طبرستان فى صفر سنة ثلاث وخمسين فتبعاه فى عساكرهما فارسل شاه مازندران يطلب الصلح فأجاباه واصطلحوا وحمل شاه مازندران أموالا جليلة وهدايا نفيسة وسير ايناق ابنه رهينة فعاد عنه

(ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزى)

كان سنقر العزيزى من امراء السلطان سنجر وممن يناوى أيضا المؤيد اى ابه فلما اشتغل المؤيد بحرب ايناق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد الى هراة ودخلها وبها جماعة من الاتراك وتحصن بها فاشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين ملك الغورية فلم يفعل واستبد بنفسه منفردا لانه رأى اختلاف الامراء على السلطان محمود بن محمد فطمع وحدث نفسه بالقوة فقصده المؤيد الى هراة فلما وصل اليها قاتل من بها شيأ من قتال ثم ان الاتراك مالوا الى المؤيد وأطاعوه وانقطع خبر سنقر العزيزى من ذلك الوقت ولم يعلم ما كان منه فقيل انه سقط عن فرسه فمات وقيل بل اغتاله الاتراك فقتلوه وتقدم السلطان محمود الى ولاية هراة فى عساكره وجنوده والتحق جماعة من عسكر سنقر بالامير ايناق وأغاروا على طوس وقراها فبطلت الزروع والحرث واستولى الخراب على البلاد وعمت الفتن أطراف خراسان وأصابهم سم العين فانهم كانوا أيام السلطان سنجر فى أرغد عيش وأمنه وهذا دأب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها من كدر وشوائب وآفات وقلما يخلص شرها من خير فنسأل الله أن يحسن لنا العون والعقبى بمحمد وآله

(ذكر ملك نور الدين بعلبك)

فى هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها وكانت بيد انسان يقال له ضحاك البقاعى منسوب الى بقاع بعلبك وكان قد ولاه اياها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف الحال معه الى الآن فملكها واستولى عليها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قلع الخليفة المقتفى لامر الله باب الكعبة وعمل عوضه بابا مصفحا بالفضة المذهبة وعمل لنفسه من الباب الاول تابوتا يدفن فيه اذا مات وفيها توفى محمد بن عبد اللطيف بن محمد ابن ثابت أبو بكر الخجندى رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان وسمع الحديث بها من أبى على الحداد وكان صدرا مقدما عند السلاطين وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض ووقعت لموته فتنة عظيمة بأصفهان وقتل فيها خلق كثير وفيها كان بخراسان غلاء شديدا كلت فيه سائر الدواب حتى الناس وكان بنيسابور طباخ فذبح انسانا علويا وطبخه وباعه فى الطبيخ ثم ظهر عليه انه فعل ذلك فقتل وأسفر الغلاء وصلحت أحوال الناس وفيها توفى القاضى أبو العباس

ولما انتهت الهزيمة بالقوم الى الرى على جملة الانكسار * وذلة الاقتسار * وسبية القتل والاسار * قطع عليهم سياط المذل والتعنيف * وملئت عيونهم من نقشات التعبير والتشوير * وكان أبو على الحسن بن أحمد بن حمويه على الوزارة فاختار عشرة آلاف رجل من بهم الديلم وفتاك الاتراك ونخب العرب وافراد الاكراد وساربهم فى منوجهر بن قابوس وبيستون بن بيجاسب وكاكزبن فيروزان ورشامورج ابن أخت عظيم الديلم وموسى الحاجب وشابور ابن كردويه وأبى العباس ابن جاني وعبد الملك بن ماكان وهؤلاء رؤوس الجيل والديلم حتى أظل شهريار وبلغ شمس المعالى قابوس اقباله فاستضم أطرافه واستظهر بشهريار بن شروين استمدادا لمواقعته * وتنجزا لوعد الله فى نصرته * وتثبيت وطأته * واستتمام ما أعاده الله اليه من نعمته * وحاذر أبو على بن حمويه مما لاءة نصر بن الحسن ابن فيروزان شمس المعالى قابوس بن وشمكير وانقطاعه الى جانبه فواصله بكتبه نافثا فى عقدته * فاتلا فى ذروته * ناخا بسحره فى صخره * وملقيا اليه أن القرابة الواشجة بين أبى طالب بن

احمد بن بختيار بن علي المايداى الواسطى قاضيها وكان فقيها عالما وفيها فى ربيع الآخر توفى القاضى برهان الدين ابو القاسم منصور بن أبى سعد محمد بن أبى نصر احمد الصاعدى قاضى نيسابور وكان من أئمة الفقهاء الحنفية

(ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين سنقر وارغش)

فى هذه السنة كانت حرب شديدة بين سنقر الهمذانى وارغش المسترشدى وسببها ان سنقر الهمذانى كان قد نهب سواد بغداد بطريق خراسان وكثر جمعه فخرج الخليفة المقتفى لامر الله فى جمادى الاولى بنفسه يطلبه فلما وصل الى بلد اللحف قال له الامير خطلوبرس انا اكفيك هذا المهم وكان بينه وبين سنقر مودة فركب اليه وتلاقيا وجرى بينهما عتاب طويل لاجل خروجه عن طاعة الخليفة فاجاب سنقر الى الطاعة وعاد خطلوبرس واصلح حاله فاقطعه بلد اللحف والامير ارغش المسترشدى فلما توجها الى اللحف جرى بينهما منازعة فاراد سنقر قبض ارغش فرآه محترزا فحاربا واقتتلا قتالا شديدا وغدر بارغش اصحابه فعاد منهزما الى بغداد وانفرد سنقر ببلد اللحف وخطب فيه للملك محمد فسير من بغداد عسكر القتاله مقدمهم خطلوبرس فجرت بينهما حرب شديدة انهزم فى آخرها سنقر وقتلت رجاله ونهبت اموالها التى فى العسكر وسار هو الى قلعة الماهكى وأخذ ما كان له فيها واستخلف فيها بعض غلمانه وسار هو الى همذان فلم يلتفت اليه الملك محمد شاه فعاد الى قلعة الماهكى

(ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطانى)

فى هذه السنة أيضا كان قتال بين شملة صاحب خوزستان ومعه ابن مكلية وبين قايماز السلطانى فى ناحية بادرايا فجمعا عسكرهما وسارا اليه فاتاه الخبر بذلك وهو يشرب فلم يحفل بذلك وركب اليهم فى نحو ثلثمائة فارس وكان مجربا بنفسه فحمل عليهم واختلط بهم فاحدقوا به وقاتل اشد قتال فانهزم اصحابه وأخذ هو أسيرا فقتله انسان تركمانى كان له عليه دم لانه قتل ابنا للتركمانى فقتله بابنه وارسل براسه الى محمد شاه وأرسل الخليفة عسكرا يقاتل شملة ومن معه فانزاحوا من بين أيديهم ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد

(ذكر معاودة الغز الفتنة بخراسان)

كان الاتراك الغزية قد أقاموا ببلخ واستوطنوها وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن محمد أرسلان وكان المتولى لامور دولته المؤيد اى أبه وعن رأيه يصدر محمود فلما كان هذه السنة فى شعبان سار الغز من بلخ الى مرو وكان السلطان محمود بسرخس فى العساكر فسار المؤيد فى طائفة من العسكر اليهم فأوقع بطائفة منهم وظفر بهم ولم يزل يتبعهم الى أن دخلوا الى مرو أوائل رمضان وغنم من أموالهم وقتل كثيرا وعاد الى سرخس فاتفق هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم فجمعا العساكر وحشدا وسارا الى الغز فالتقوا سادس شوال من هذه السنة وجرت بينهم حرب طال مداها فبقوا يقتتلون من يوم الاثنين سابع شوال الى نصف الليل من ليلة الاربعاء الحادى عشر من الشهر وتواقعوا عدة وقعات متتابعة ولم يكن بينهما راحة ولا نزول الا لما لابد منه انهزم الغز

فخر الدولة وبينه لو صادفت
منه حكمها فى الاشفاق
على دولته * والانتداب
لنصرته * لكان أحق
الناس بسياسة أجناده *
وزعامة ممالكه وبلاده *
وانه الآن متى سلك طريق
الخدمه * وجانب جانب
التهمه * وحافظ على حرمة
اللحمه * لم يعدم مايواه من
ترتيب وترحيب وتنويل
وتجويل وتفخيم وتقديم
وأذن له فى الانتقال الى
قومس الى ان يدبر أمره
بمقتضاه فارتاح لما شامه
من تلك العقيقه * ووثق
به على الحقيقه * وسار نحو
ساريه ثم قرض الجادة ذات
اليسار وركب ذات اليمين
عما يلى طراشك وأبادان
حتى اذا حاذى رقعة قومس
أذاع فى أصحابه رأيه فى
طاعة أبى طالب وانه ما عاش
رقيق خدمته * ونصير
دعوته * فاختلفت عليه
كلمتهم حين أفصح بتدبيره *
وباح بسر ضميره * فمن فريق
رجع الى الاستدارية
وفريق الى جرجان * فى طلب
الامان * ورحل نصر فى الباقين
حتى أناخ بقومس وسأل أبا
على بن كمويه تمكينه من
بعض القلاع ليحصن فيه
عياله وأثقاله فمكنه من
حصار جومند فاستوطنه
وأودعه عياله ومن معه

فيها ثلاث دفعات وعادوا الى الحرب فلما أسفر الصبح يوم الاربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة عساكر خراسان وتفرقهم فى البلاد وظفر الغز بهم وقتلوا فأكثروا فيهم وأما الجرحى والاسرى فأكثر من ذلك وعاد المؤيد ومن سلم معه الى طوس فاستولى الغز على مرو واحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والائمة مثل تاج الدين أبى سعيد السمعانى وشيخ الاسلام على البلخى وغيرهما وأغاروا على سرخس وخربت القرى وجلى أهلها وقتل من أهل سرخس نحو عشرة آلاف قتيل ونهبوا طوس أيضا وقتلوا أهلها الا القليل وعادوا الى مرو وأما السلطان محمود ابن محمد الخان والعساكر التى معه فلم يقدروا على المقام بخراسان من الغز فساروا الى جرجان ينتظرون ما يكون من الغز فلما دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة أرسل الغز الى السلطان يسألونه أن يحضر عندهم ليملكوه أمرهم فلم يثق بهم وخافهم على نفسه فأرسلوا يطلبون منه ابنه جلال الدين عمر ليملكوه أمرهم ويصدروا عن أمره ونهيه فى قليل الامور وكثيرها وترددت الرسل واحتاط السلطان محمود لولده بالعهد والمواثيق وتقرير القواعد ثم سيره من جرجان الى خراسان فلما سمع الامراء الغزية بقدومه ساروا من مرو الى ماريقه فالتقوه بنيسابور واكرموه وعظموه ودخل نيسابور واتصلت به العساكر الغزية واجتمعوا عنده فى الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ثم ان السلطان محمودا سار من جرجان الى خراسان فى الجيوش التى معه من الامراء السنجرية وتخلف عنه المؤيد اى ابه فوصل الى حدود نساوابيورد وأقطع نسا لامير اسمه عمر بن حمزة النسوى فقام فى حفظها المقام المرضى ومنع عنها أيدى المفسدين وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ جمادى الآخرة من السنة ولما كان الغز بنيسابور هذه السنة أرسلوا الى طوس يدعونهم الى الطاعة والموافقة فامتنع أهل راذكان من اجابتهم الى ذلك واغتروا بسور بلدهم وبما عندهم من الشجاعة والقوة والعدة الوافرة والذخائر الكثيرة فقصدها طائفة من الغز وحصروهم وملكوا البلد وقتلوا فيه ونهبوا واكثروا ثم عادوا الى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد ابن السلطان محمود الخان الى بيهق وحصروا سابزوار سابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدين على بن محمد بن يحيى العلوى الحسينى نقيب العلويين واجتمعوا معه ورجعوا الى أمره ونهيه ووقفوا عند اشارته فامتنعوا على الغز وحفظوا البلد منهم وصبروا على القتال فلما رأى الغز امتناعهم عليهم وقوتهم أرسلوا اليهم يطلبون الصلح فاصطلحوا ولم يقتل من أهل سابزوار فى تلك الحروب غير رجل واحد ورحل الملك جلال الدين والغز عن سابزوار فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة وساروا الى نساوابيورد

(ذكر أسر المؤيد وخلاصه)

قد ذكرنا ان المؤيد اى أبه تخلف عن السلطان ركن الدين محمود بن محمد بجرجان فلما كان الآن سار من جرجان الى خراسان فنزل بقرية من قرى خبوشان اسمها زانك وبها حصن فسمع الغز بوصوله الى زانك فساروا اليه وحصروه فيه فخرج منه هاربا فرآه واحد من الغز فأخذه فوعده بمال جزيل ان أطلقه فقال الغزى وأين المال فقال هو مودع فى بعض هذه الجبال

ولما أمن أبو على شره وعاديته توجه نحو سارية فلما اطمأن بها أسرى منوچهر ابن شمس المعالى قابوس الى أبيه عائذا بالله من عقوقه وكفران ما فرض الله عليه من حقوقه * فارتاع أبو على من بيستون بن بيجاسب لاشتراكهما فى نسبة الجيل وأرومة ذلك القبيل * واشفق من صفوه القديم فى خدمة شمس المالى وحشمه اياه على معاودة سدته * واهتبال الغرة فى مراجعة جملته فاخذ بالحيطة فى اعتقاله ورده الى الرى فى وثاقه وامتد الى ظاهر جرجان مما يلى قهر الداعى فعسكر به وتواصى أهل الحفاظ والحميه والائفة الابيه * من أصحاب شمس المعالى قابوس بالتوافد فى التجالد والتساتل على التقاتل والتماسك عند التعارك وشدوا حيازيمهم للقراع * وقرعوا ظنابيبهم للصراع * وناصبوهم الحرب طرفى الصباح والرواح لا يسأمون وقع الصفاح ولا يألمون لذع الجراح * حتى غبر شهران كيوم واحد فى مغامسة الكريهه * بين تكلف وبديهه * ومس عسكر جرجان ضيقة لانقطاع المير والمواد عنهم فاستعصموا بالنفوس الشريفه * وتغنوا طول تلك الايام بالبلغ

فسار هو والغزى فوصلا الى جدار قرية فيها بساتين وعيون فقال للفارس المال هنا وصعد الجدار ونزل من ظهره ومضى هاربا فرأى الغز قد ملؤا الارض فدخل قرية فعرفه طحان فيها فأعلم زعيم القرية به وطلب منه مركبا فأتاه بما أراد وأعانه على الوصول الى نيسابور فوصل اليها واجتمعت العساكر وقوى أمره وعاد الى حاله وأحسن الى الطحان وبالغ فى الاحسان اليه

(ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم الى نيسابور)

لما عاد الغز ومعهم الملك محمد بن محمود الخان الى نساوابيورد كما ذكرناه خرج والده السلطان محمود الخان وكان هنالك فيمن معه من العساكر الخراسانية فاجتمع بهم واتفقت الكلمة على طاعته وأراد عمارة البلاد وحفظها فلم يقدر على ذلك فلما اجتمعوا ساروا الى نيسابور وبها المؤيد اى ابه فى شعبان فلما سمع بقربهم منه رحل عنها الى خواف فى سادس عشره ووصلوا اليها فى الحادى والعشرين منه ونزلوا فيه وخافهم الناس خوفا عظيما فلم يفعلوا بهم شيأ وساروا عنها فى السادس والعشرين منه الى سرخس ومرو وكان بها الفقيه المؤيد ابن الحسين الموفق رئيس الشافعية وله بيت قديم وهو من أجناد الامام أبى سهل الصعلوكى وله مصاهرة الى بيت أبى المعالى الجوينى وهو المقدم فى البلد والمشار اليه وله من الاتباع مالا يحصى فاتفق ان بعض اصحابه قتل انسانا من الشافعية اسمه ابو الفتوح الفستقانى خطأ وهذا ابو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابور وهو ذخر الدين أبو القاسم زيد ابن الحسن الحسينى وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور فغضب من ذلك وأرسل الى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتل ليقتص منه ويتهدده ان لم يفعل فامتنع المؤيد من تسليمه وقال لامدخل للنقيب معنا بنا انما حكمك على الطائفة العلويين فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعية فاجتمعوا له وقاتلوه فقتل منهم جماعة ثم ان النقيب أحرق سوق العطارين وأحرقوا سكة معاد أيضا وسكة باغ طاهر ودار امام الحرمين ابى المعالى الجوينى وكان الفقيه المؤيد الشافعى بها للصهر الذى بينهم وعظمت المصيبة على كافة الناس وجمع بعد ذلك المؤيد الفقيه جموعا من طوس واسفراين وجوين وغيرهم وقتلوا واحدا من اتباع النقيب زيد يعرف بابن الحاجى الاشنانى فأهم العلوية ومن معهم فاقتتلوا ثامن عشر شوال من سنة اربع وخمسين وقامت الحرب على ساق وأحرقت المدارس والاسواق والمساجد وكثر القتل فى الشافعية فالتجأ المؤيد الشافعى فى شرذمة الى قلعة فرخك وقصر باع الشافعية عن القتال ثم انتقل المؤيد الى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد وكثر القتل فيه

(ذكر حصر صاحب حتلان ترمذ وعوده وموته)

فى هذه السنة فى رجب سار الملك أبو شجاع فرخشاه وهو يزعم أنه من أولاد بهرام جور وقد تقدم ذكره أيام كسرى ابروين الى ترمذ وحصرها وكان سبب ذلك انه كان فى طاعة السلطان سنجر فلما خرج عليه الغز طلبه ليحضر معه حربهم فجمع عسكره واظهر انه واصل فمن عنده من العساكر اليه وأقام ينتظر ما يكون منه فان ظفر حضر وقال له سبقتنى بالحرب وان كان الظفر للغز قال لهم انما تأخرت محبة وارادة ان تملكوا فلما انهزم سنجر وكان ماذكرناه بقى الى

الخليفة * مؤثرين شرف المقام * على شبع الطعام * وردّ الشجاعه * على سد الجاعه * وأصاب الآخرين تلك الضيقة فانقلبوا من القضاء بقبر الداعى الى جانب محمد آباد اتساعا فى المعلوفات من جهة جناشك فتداركت عليهم الامطار حتى أعوزهم الامتيار * وماجت عليهم الارض بالطوفان فتساقطت الخيام * وساخت القوائم والاقدام * فعندها برز أنصار أصحاب شمس المعالى اهل الحقائق من وراء الخنادق * وأججوا نار الوغى كضارية القشاعم * وداهية الاراقم * وثبت بعضهم لبعض جلادا من مطلع الفلق * الى مسقط الشفق * محكمين متون الصوارم * فى شؤن الجماجم * وذوابل الصعاد * فى مناهل الاكباد * وزرق الزافات * فى سود المهجات * حتى اذا زالت قدم العصر * أتى أمر الله بالنصر * فحمل الجيل على الديلم حملة لم تستبق منهم طالب ثار * ولا نافخ نار * وأسر من عظمائهم اسفهسالار ابن كورنكيج وزرهوا وجستان بن اشكلى واخوه حيدر بن سالار ومحمد بن وهسودان واشتغلت المعركة على ألف وثمانية

الآن فسار الى ترمذ ليحصرها فجمع صاحبها انيروزشاه أحمد بن أبي بكر بن قاج عسكره ولقيه ليمنعه فاقتتلوا فانهزم فيروزشاه ومضى منهزما لا يلوى على شئ فاصابه فى الطريق قولنج فمات منه

(ذكر عود المؤيد الى نيسابور وتخريب ما بقى منها)

فى هذه السنة عاد المؤيد أى ابه الى نيسابور فى عساكره ومعه الامام المؤيد الموفق الشافعى الذى تقدم ذكر الفتنة بينه وبين ذخر الدين نقيب العلويين وخروجه من نيسابور فلما خرج منها صار مع المؤيد وحضر مع المؤيد وحضر معه حصار نيسابور وتحصن النقيب العلوى بشارستان واشتد الخطب وطال الحرب وسفكت الدماء وهتكت الاستار وخربوا ما بقى من نيسابور من الدور وغيرها وبالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام فخربوا المدرسة الصندلية لاصحاب أبى حنيفة وخربوا غيرها وحصروا قهندز وهذه الفتنة استأصلت نيسابور ثم رحل المؤيد اى أبه عنها الى بيهق فى شوال من سنة أربع وخمسين وخمسمائة كان ينبغى أن تكون هذه الحوادث الغريبة الواقعة فى سنة أربع وخمسين مذكورة فى سنتها وانما قدمناها ههنا ليتلو بعضها بعضا فيكون أحسن لسياقتها

(ذكر ملك ملكشاه خوزستان)

فى هذه السنة ملك ملكشاه ابن السلطان محمود بلاد خوزستان وأخذه من شملة التركمانى وسبب ذلك أن الملك محمد ابن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد كما ذكرناه مرض وبقى مريضا بهمذان ومضى أخوه ملكشاه الى قم وقاسان وما والاها فنهبها جميعها وصادر أهلها وجمع أموالا كثيرة فراسله أخوه محمد شاه يأمره بالكف عن ذلك ليجعله ولى عهده فى الملك فلم يفعل ومضى الى اصفهان فلما قاربها أرسل رسولا الى ابن الخجندى وأعيان البلد فى تسليم البلد اليه فامتنعوا من ذلك وقالوا الاخير لك فى رقابنا يمين ولا نغدر به فحينئذ شرع ملكشاه فى الفساد والمصادرة لاهل القرى فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همذان وعلى مقدمته كردبازوه الخادم فتفرقت جموع ملكشاه عند فريسين فلحق به قويدان وكان قد فارق المقتفى لامر الله واتفق مع سنقر الهمذانى فلحقا كلاهما به وحسناله قصد بغداد فسار عن بلد خوزستان الى واسط ونزل بالجانب الشرقى وهم على غاية الضرر من الجوع فنهبوا القرى نهبا فاحشا ففتح بثق بتلك الناحية فغرق منهم كثير ونجا ملكشاه ومن سلم معه وساروا الى خوزستان فمنعه شملة من العبور فراسله ليمكنه من العبور الى أخيه الملك محمد شاه فلم يجبه الى ذلك وكاتب حينئذ الاكراد الكرد الذين هناك واستدعاهم اليه فقرحوا به ونزل اليه من تلك الجبال خلق كثير فاطاعوه فرحل ونزل على كرخانا وطلب من شملة الحرب فألان له شملة القول وقال انا اخطب لك وأكون معك فلم يقبل منه فاضطر شملة الى الحرب فجمع عسكره وقصده فلقيه ملكشاه ومعه سنقر الهمذانى وقويدان وغيرهما من الامراء فاقتتلوا فانهزم شملة وقتل كثير من أصحابه وصعد الى قلعته دندرزين وملك ملكشاه البلاد وجبى الاموال الكثيرة واظهر العدل وتوجه الى أرض فارس

(ذكر الحرب بين التركمانى والاسماعيلية بخراسان)

رجل ممن أضجعتهم
المتوف * وسطحهم على
الارض السيوف * وأفاء
الله على الجبل غنائم
لا يستوعبها بيان * ولا
تستثنيها بنان * ثم رأى
شمس المعالى أن يوعز بمداواة
الجرحى * والفك عن
الاسرى * وصرفهم وراءهم
بالخلع والكرامات
والاحبية والصلات * شكرا
لنعمة الله فيما أولاه *
واكبارا لقدرمنته فى تحقيق
ما رجاه * وأنشدنى أبو
منصور الثعالبى أبياتا له
فى ذكر هذا الفتح الذى
نظمه الله فى سلك أيامه *
والحق الذى أقره الله منه
فى نصابه
الفتح منتظم والدهر مبتسم
وملك شمس المعالى كله نعم
والعدل منبسط والحق
مرتجع
والشعب ملتئم والجور
مصطلم
ألقت مقاليدها الدنيا الى
ملك
ما زال وقفا عليه المجد
والكرم
شمس المعالى وغيث المشرقين
ومن
به يتيه العلا والملك والحشم
هو الامام هو القرم الهمام
هو السيد القمقام هو
الصمصام والقلم

كان بنواحي قهستان طائفة من التركمان فنزل اليهم جمع من الاسماعيلية من قلاعهم وهم ألف وسبعمائة فأرقعوا بالتركمان فلم يجدوا الرجال وكانوا قد فارقوا بيوتهم فنهبوا الاموال وأخذوا النساء والاطفال وأحرقوا مالم يقدروا على حمله وعاد التركمان فرأوا ما فعل بهم فتبعوا أثر الاسماعيلية فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة فكبروا وحملوا عليهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا حتى أفنوهم قتلا وأسرا ولم ينج الا تسعة رجال لاغير

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة كثر فساد التركمان أصحاب ترجم الايواني بالجبل فسير اليهم من بغداد عسكر مقدمهم منكبرس المسترشدي فلما قاربهم اجتمع التركمان فالتقوا واقتتلوا هم ومنكبرس فانهزم التركمان أقبح هزيمة وقتل بعضهم وأسر بعض وحملت الرؤس والاسارى الى بغداد وفيها حج الناس فلما وصلوا الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وصل اليهم الخبر ان العرب قد اجتمعت لتأخذهم فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر فوجدوا مشقة شديدة ونجوا من العرب وفيها توفي الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحراني ومولده بحران سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته وكان يقرأ القرآن وهو والد ظهير الدين الذي حكم في دولة المستضيء بأمر الله على ما نذكره ان شاء الله وفيها توفي أبو الوقت عبد الاول بن عيسى بن سعيب السجزي ببغداد وهو سجزي الاصل هروي المنشأ وكان قدم الى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحج فسمع الناس بها عليه صحيح البخاري وكان عالي الاسناد فتأخر لذلك عن الحج فلما كان هذه السنة عزم على الحج فمات وفيها توفي يحيى بن سلامة ابن الحسن بن محمد أبو الفضل الحصكفي الاديب بميافارقين وله شعر حسن ورسائل جيدة مشهورة وكان يتشيع ومولده بطنزة فمن شعره

وخليع بت أعذله * ويرى عذلي من العبث
قلت ان الخمر مخبثة * قال حاشاها من الخبث
قلت فالارفاث تتبعها * قال طيب العيش في الرفث
قلت منها الق * قال أجل * شرفت عن مخرج الحدث
وسألوها فقالت متى * قال عند الكون في الجدث

(ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة)

ذكر ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وملكه جميع افريقية قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة المهدية من صاحبها الحسن بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وذكرنا أيضا سنة احدى وخمسين ما فعله الفرنج بالمسلمين في زويلة المجاورة للمهدية من القتل والنهب فلما قتلهم الفرنج ونهبوا أموالهم هرب منهم جماعة وقصدوا عبد المؤمن صاحب المغرب وهو بمراكش يستجيرونه فلما وصلوا اليه ودخلوا عليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وانه ليس في ملوك الاسلام من يقصد سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال ابشروا فالنصر لكم ولو بعد حين وأمر بانزالهم وأطلق لهم ألفي دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج اليه العساكر في السفر وكتب الى

هو الغمام الذي تخشى صواعقه
قهرا ويرجوه نداه العرب والعجم
هو المقيم وقد سارت مآثره
كأن عليا من دنياه تنتظم
والارض من صدره والريح من يده
والروض من خلقه للخلق يبتسم
الله جارك يا من جار حضرته
يا في السعود عليه الدهر تزدحم
ابشر فقد جاء نصر الله مؤتنفا
وعاشر الفتح منشورا له علم
يا من اذا اعتصمت صيد الملوك به
أمسى وأصبح بالرحمن يعتصم
أبل الجديدين بالعمر الجديد ودم
للملك يخدمك التوفيق والقسم

وأنشدني الامير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي لنفسه

لا تعصين شمر العلا قابوسا
فمن عصى قابوس لاقى بوسا
نعم * ولما بلغ أبو علي بن حويه قومس منهزمه عن تلك المعركة أرسل الى نصر بن الحسن بن فيروزان يسأله تجهيل اللحاق به ليتعاضدا على لم شعث الهزيمة * وسد ما جاش من مخرقة تلك الكشفة الذميمة * ثم أجمله

جميع نوابه في الغرب وكان قد ملك الى قريب تونس يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وان يترك في سنبله ويخزن في مواضعه وان يحفروا الآبار في الطرق ففعلوا جميع ما أمرهم به وجمعوا الغلات ثلاث سنين ونقلوها الى المنازل وطينوا عليها فصارت كأنها تلال فلما كان في صفر من هذه السنة سار عن مراكش وكان أكثر أمتاره في صفر فسار يطلب افريقية واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الاتباع والسوقة أمثالهم وبلغ من حفظه لعساكره انهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة واذا نزلوا صلوا جميعهم مع امام واحد بتكبيرة واحدة لا يتخلف منهم أحد كائنا من كان وقدم بين يديه الحسن بن علي ابن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي وكان صاحب المهدية وافريقية وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبد المؤمن فلم يزل يسير الى ان وصل الى مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل اسطوله في البحر في سبعين شينيا وطريدة وشلندى فلما نازلها أرسل الى أهلها يدعوهم الى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق الا أخذها ودخول الاسطول اليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين من دخول البلد فرجعوا اليها كروا القتال ويملكوه فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها الى عبد المؤمن يسألونه الامان لاهل بلدهم فأجابهم الى الامان لهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم الى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهاليهم ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين وان يخرج صاحب البلد هو وأهله فاستقر ذلك وتسلم البلد وأرسل اليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل امناء يقاسموا الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الاسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وسار عبد المؤمن منها الى المهدية والاسطول يحاذيه في البحر فوصل اليها ثامن عشر رجب وكان حينئذ بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وابطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غاية سهم فدخل عبد المؤمن من زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف اليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الاحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لان البحر دائر بأكثرها فكأنها كف في البحر وزندها متصل بالبر وكانت الفرنج تخرج شجعانهم الى أطراف العسكر فتقاتل منه ويعودون سريعا فأمر عبد المؤمن أن يبنى سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج وأحاط الاسطول بها في البحر وركب عبد المؤمن في شيني ومعه الحسن بن علي الذي كان صاحبها وطاف بها في البحر فهاله ما رأى من حصانتها وعلم انها لا تفتح بقتال برا ولا بحرا وليس لها الا المطاولة وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال اقله من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل الى العسكر من بعيد يقولون متى حدثت هذه الجبال فيقال لهم هي حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار وفي مدته أطاع سفاقس عبد

المؤمن

الطلب عن التوقف والتلوم فأوجف نحو الري وأتاه نصر فلم يلحقه فاستوطن سمنان وتابع كتبه الى أبي طالب مجد الدولة رستم بن فخر الدولة مستمدا * وشمر لتلافي الخلل الواقع مجدا * فتراخت المدة على استئناف امداده * واقتبال معونته وانجاده * ثم أمد بابن بكتكين الحاجب في زهاء ستمائة من شجعان الغلمان فقوى بهم * وتكثر بعكائهم * ورماه شمس المعالي بابي بن سعيد في رجال من الجيل وكتب الى الاصبهبذ شهريار بن رستم لمعونته * وازاحة علته * فصمد صمد نصر مرخيا عنان التحفظ * ومفوضا جفون التيقظ * وقد كان نصر سد الطرق على أبنائها ستترا لخبره * وصحبا لذيل الكتمان على أثره * فاتفقت انافة بابي بن سعيد عليه على حين تقطع من رجاله * وتفرق من أكثر أصحابه * فتناوشا الحرب ونصر مستعد * وأمره في القراع جد * ثم اضطر بابي الى الانقلاب على بارح الخيبة وفشت الهزيمة فيمن تلاحق به وتراخى عنه من ذنابى عسكره وجرى عليهم من القتل والأسر ما اعتد به نصر في مساعيه عند أبي طالب فعدل به نصر وجه

المؤمن ومدينة طرابلس وجبال نفوسة وقصور افريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسيرابنه أبا محمد عبد الله فى جيش ففتح بلادا ثم ان أهل مدينة قفصة لما رأوا تمكن عبد المؤمن أجمعوا على المبادرة الى طاعته وتسليم المدينة اليه فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن فلما أعلمه حاجبه بهم قال له عبد المؤمن قد اشتبه علينا ليس هؤلاء أهل قفصة فقال له لم يشتبه على قال له عبد المؤمن كيف يكون ذلك والمهدى يقول ان أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها ومع هذا فتقبل منهم وتكف عنهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا فأرسل اليهم طائفة من أصحابه ومدحه شاعر منهم بقصيدة أولها

ما هز عطفيه بين البيض والاسل * مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

فوصله بألف دينار ولما كان فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة جاء اسطول صاحب صقلية فى مائة وخمسين شينيا غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الاندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجىء الى المهدية فقدموا فى التاريخ فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج اليهم اسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم وبقى عبد المؤمن يمرغ وجهه على الارض ويبكى ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا فى البحر فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شوانى ولو كان معهم شوانى لاخذوا أكثرهم وكان أمرا عجيبا وفتحا قريبا وعاد اسطول المسلمين ظافرا منصورا وفرق فيهم عبد المؤمن الاموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجدة وصبروا على الحصار سنة أشهر الى آخر شهر ذى الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج الى عبد المؤمن عشرة وسألوا الامان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا الى بلادهم وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الاسلام ودعاهم اليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون اليه أياما بالكلام اللين فأجابهم الى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء ففرق أكثرهم ولم يصل منهم الى صقلية الا النفر اليسير وكان صاحب صقلية قد قال ان قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة ملكهم المهدية اثنتى عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وسماها عبد المؤمن سنة الاخبار وأقام بالمهدية عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل اليها الذخائر من الاقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الذى كان صاحبها وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله وأقطع الحسن بها اقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده ورحل من المهدية أول صفر من السنة الى بلاد الغرب

(ذكر ايقاع عبد المؤمن بالعرب)

لما فرغ عبد المؤمن من أمر المهدية وأراد العود الى الغرب جمع أمراء العرب من بنى رياح الذين كانوا بافريقية وقال لهم قد وجبت علينا نصرة الاسلام فان المشركين قد استفحل حاله * وجلا على صفحة اقباله * وأنهض عند ذلك رستم بن المرزبان خال مجد الدولة أبى طالب فى ثلاثة آلاف رجل مدد النصر وعقدت له الاصبهبذية على جبل شهربار فتلقاه نصر الى دنباوند وساعده على صعوده * واستلاك حدوده * ولجأ الاصبهبذ شهربار الى سارية وبها منوچهر بن شمس المعالى معتصرا بعقوته * ومعتصما بعروته * فأصاب أهل فريم غلاء عم بلاؤه * وشمل الكافة داؤه * وسببه بسط الايدى بالغارات * وانتهاب ما أوعته الرعايا للارماق من الاقوات * فاضطر نصر الى الانصراف عن رستم بن المرزبان للقحط الشامل * والبلاء النازل * فلم ينهنه الاصبهبذ عند انقلابه أن ركض على رستم فأجلاه عنها الى حد الرى مضغوما * منكوبا * ومخذولا * مفلولا * فصفت له ناحيته * وانحسمت عنه شذاة نصر وعاديته * وكان ابو نصر محمود الحاجب قد ألجأه بعض المحن التى دهمته الى خدمة شمس المعالى فهدله كنفه * وحكم فى اصطناعه شرفه * ووالى الصنائع والرغائب اليه * وملأ من الاموال يديه * وسهل ركوب المطالب عليه * ثم

أمرهم بالانداس واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين وما يقاتلهم أحد مثلكم فبكم فتحت البلاد أول الاسلام وبكم يدفع عنها العدو الآن ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله فأجابوا بالسمع والطاعة فخلفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف فخلفوا ومشوا معه الى مضيق جبل زغوان وكان منهم انسان يقال له يوسف بن مالك وهو من أمرائهم ورؤس القبائل فيهم فجاء الى عبد المؤمن بالليل وقال له سرا ان العرب قد كرهت المسير الى الانداس وقالوا ما غرضه الا اخراجنا من بلادنا وانهم لا يفون بما حلفوا عليه فقال يأخذ الله عز وجل الغادر فلما كان الليلة الثانية هربوا الى عشائرهم ودخلوا البر ولم يبق منهم الا يوسف بن مالك فسماه عبد المؤمن يوسف الصادق ولم يحدث عبد المؤمن في أمرهم شيأ وسار مغربا يحث السير حتى قرب من القسطنطينية فنزل في موضع مخصب يقال له وادي النساء والفصل ربيع والكلأ مستحسن فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة ودام كذلك عشرين يوما فبقي الناس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبرا مع كثرته وعظمه ويقولون ما أزعجه الا خبر وصله من الانداس فخشي لاجله في السير فعادت العرب الذين جفلوا منه من البرية الى البلاد لما أمنوا جانبه وسكنوا البلاد التي ألفوها واستقروا في البلاد فلما علم عبد المؤمن برجوعهم جهز اليهم ولديه أبا محمد وأبا عبد الله في ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحدين وشجعانهم فجدوا السير وقطعوا المفاوز فشعر العرب الا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصحراء فمنعوهم الدخول اليها ان راموا ذلك وكانوا قد نزلوا جنوبا من القيروان عند جبل يقال له جبل القرن وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدميهم أبو محفوظ محرز بن زياد ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم فلما أطلت عساكر عبد المؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم ففر مسعود وجبارة بن كامل ومن معهما من عشائرهما وثبت محرز بن زياد وأمرهم بالثبات والقتال فلم يلتفتوا اليه فثبت هو ومن معه من جمهور العرب فناجزهم الموحدون القتال في العشر الاوسط من ربيع الآخر من السنة وثبت الجمعان واشتد القتال فاتفق ان محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على رمح فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والاولاد والاموال وحمل جميع ذلك الى عبد المؤمن وهو بذلك المنزل فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة الى بلاد الغرب وفعل معهن مثل ما فعل في حريم الابيج ثم أقبلت اليه وفود رياح مهاجرين في طلب حريمهم كما فعل الابيج فأجمل الصنيع لهم ورد الحريم اليهم فلم يبق منهم أحد الا صار عنده وتحت حكمه وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الاحسان ثم انه جهزهم الى ثغور الانداس على الشرط الاول وجمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل قرن فبقيت دهرا طويلا كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد وبقيت افريقية مع نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة لم يبق فيها من أمراء العرب خارج عن طاعته الا مسعود البلاط بن زمام وطائفته في أطراف البلاد

(ذكر غرق بغداد)

في هذه السنة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة في دجلة وغرق القورج فوق بغداد وأقبل

رماه في وجه نصر بن الحسن مزاح العلة بقدر الكفاية * من ذوي البسالة والنكاية * نخف اليه بجأش ثبت * ووجه على الحادثات صلت * وأحرق عليه الارض حربا بكرا على يده * وعوانا على أيدي أعوانه ومدده * ثم حمل على جموعه حملة شردتهم كل مشرد * وطاردتهم بين أعين البيد كل مطرد * وعلق في حبالة الاسر جستان بن الداعي وابن هند وغيرهما من أعيان القواد واصطف على جدالة الحرب من القتلى ما شبعت به الضباع * بل سمنت عليه الوحوش الجياع * وانهزم نصر من بين يديه الى حمنان في جمادى الآخرة سنة تسعين وثلثمائة وكان نصر على جلالة بيته * وفخامة عشيرته ورهطه * مغرما بالظلم * مغرى بالحيف والغشم * ووافقت ولايته مدرجة الحجيج وزوار البيت العظيم * وزمزم والحطيم * فشملهم عسفه في كل سنة بوجوه من المطالبات المختلفة * والمعاملات المجحفة * حتى اقشعر عنه سوء الاحدوثة * وحبط عليه جمال تلك الجملة الموروثة * ولعل عثار الزمان به عدوى نضج الحجيج عنه بالاستغاثة * في حالتي الوقوف

المدالى البلد فامتلأت العصارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا انها تنفس عن السور فلا يقع فغلب الماء وتعذر سده ففرق قراح طغر والاجمة والمختارة والمقتدية ودرب القبار وخرابة ابن جردة والريانى وقراح القاضى وبعض القطيعة وبعض باب الازج وبعض المأمونية وقراح أبى الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودب الماء تحت الارض الى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون الى الجانب الغربى فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور يدب فى المحال التى لم يركبها الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لا تعرف وانما هى تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين وأما الجانب الغربى ففرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل وغيرها من المقابر وانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس الماء وكذلك المشهد والحريمة وكان أمرا عظيما

(ذكر عود سنقر الهمذانى الى اللصف وانهزامه)

فى هذه السنة عاد سنقر الهمذانى الى اقطاعه وهو قلعة الماهكى وبلد اللصف وكان الخليفة قد أقطعه للامير قايماز العميدى ومعه أربعمائة فارس فأرسل اليه سنقر يقول له ارحل عن بلدى فامتنع فسار اليه وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميدى ورجع الى بغداد باسوا حال فبرز الخليفة وسار فى عساكره الى سنقر فوصل الى النعمانية وسير العساكر مع ترشك ورجع الى بغداد ومضى ترشك نحو سنقر الهمذانى فتوغل سنقر فى الجبال هاربا ونهب ترشك ما وجده له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه ونزل على الماهكى وحصرها أياما ثم عاد الى البندنيجين وأرسل الى بغداد بالبشارة وأما سنقر فانه لحق بملكشاه فاستنجده فسير معه خمسمائة فارس فعاد ونزل على قلعة هذا الذ وأفسد أصحابه فى البلاد وأرسل ترشك الى بغداد يطلب نجدة فجاءته فأراد سنقر أن يكبس ترشك فعرف ذلك فاحترز فعدل سنقر الى المخادعة فأرسل رسولا الى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمن خف من أصحابه فكبس سنقر ليلا فانهزم هو وأصحابه وكثر القتل فيهم وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكل مالهم ونجا سنقر جريحا

(ذكر الفتنة بين عامة استراباذ)

فى هذه السنة وقع فى استراباذ فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة وبين الشافعية ومن معهم وكان سببها ان الامام محمدا البزورى وصل الى استراباذ فعقد مجلس الوعظ وكان قاضيها أبو نصر سعد بن محمد بن اسمعيل النعيم شافعى المذهب أيضا فاختار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة بالشافعية ومن يتبعهم باستراباذ ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويون فقتل من الشافعية جماعة وهرب القاضى ونهبت داره ودور من معه وجرى عليهم من الامور الشنيعة ما لا حد عليه فسمع شاه مازندان الخبر فاستعظمه وأنكر على العلويين فعلهم وبالغ فى الانكار مع انه شديد التشيع وقطع عنهم جرايات كانت لهم ووضع الجبايات والمصادرات على العامة فتفرق كثير منهم وعاد القاضى الى منصبه وسكنت الفتنة

والافاضة * وواصل نصر الرى بكتبه فى الاستنفار * والاستنهاض من سرعة العثار * فدله فى طول التطويل * بأنواع التعليل * والتأميل * كما قيل

مواعيد كما اختلب
سراب الهمه القفر
فمن يوم الى يوم

ومن شهر الى شهر

ويلغه بعد ذلك ان مجد الدولة ابا طالب وشمس المعالى قابوس قد تصالحا على احتيال تحصيله والظفر به فساءه ذلك * وضاق بالامر ذرعا * ونمى اليه ايضا ان بعض قواد السلطان يمين الدوله وأمين الملة وكان يعرف بأرسلان هندو بجه والى قهستان قد أوقع بابى القاسم السيجورى وأجلاه عنها الى الجنابذ فأغذ السير اليه على مظاهرته * والتحصن بعرافته ومضافرته * وجعل يحطب فى حبله * ويقتل فى ذروته بحيله وختله * ويزين له قصد الرى معه لاستلاكها على أبى طالب مجد الدولة ايهاما لنغل النيات فى طاعته * ودخن الاهواء فى مشايعته * فاغتر أبو القاسم بتغريره * وانجر فى جريره * وسار الى خوار الرى فتلقاه من سرعان الكتائب * من غص بهم لهوات تلك

(ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه)

في هذه السنة توفي السلطان محمد بن محمود بن محمد وهو الذي حاصر بغداد طالبا السلطنة وعاد عنها فأصابه سل وطال به فمات بباب همذان وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فلما حضره الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره وخزايانه وعماليكه فنظر الى الجميع من طيارة تشرف على ما تحتها فلما رآه بكى وقال هذه العساكر والاموال والمماليك والسراري ما أرى يدفعون عني مقدار ذرة ولا يزيدون في أجلي لحظة وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرق منه شيأ كثيرا وكان عظيما كريما عاقلا كثيرا التأني في أموره وكان له ولد صغير فسلمه الى آقسنقر الاحمدلي وقال له أنا أعلم أن الناس لا تطيع مثل هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به الى بلادك فرحل الى مراغة فلما مات اختلفت الامراء فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه وهم الاكثر وطائفة طلبوا ارسلان الذي مع ايلدكز فأما ملكشاه فانه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركماني وغيرهما فوصل الى اصفهان فسلمها اليه ابن الخجندي وجمع له مالا أنفقه عليه وأرسل الى العساكر يدعوهم مذان يدعوهم الى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق بينهم ولان أكثرهم كان يريد سليمان شاه

(ذكر أخذ حران من نور الدين وعودها اليه)

في هذه السنة مرض نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب مرضا شديدا أرجف بموته وكان بقلعة حلب ومعه أخوه الاصغر أميران فجمع الناس وحصر القلعة وكان شيركوه وهو أكبر أمرائه بحمص فبلغه خبر موته فسار الى دمشق ليتغلب عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه ايوب ذلك وقال أهلكتنا والمصلحة أن تعود الى حلب فان كان نور الدين حيا خدمته في هذا الوقت وان كان قد مات فانا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها فعاد الى حلب مجدا وصعد القلعة وأجلس نور الدين في شباك يراه الناس وكلهم فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أمير أميران فسار الى حران فملكها فلما عوفي نور الدين قصد حران ليخلصها فهرب أخوه منه وترك أولاده بحران في القلعة فملكها نور الدين وسلمها الى زين الدين علي نائب أخيه قطب الدين صاحب الموصل ثم سار نور الدين بعد أخذ حران الى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الامراء وقد توفي وبقي أولاده فنازلها فشفع جماعة من الامراء فيهم فغضب من ذلك وقال هلا شفعتم في أولاد أخي لما أخذت منهم حران وكانت الشفاعة فيهم من أحب الاشياء الي فلم يشفعهم وأخذها منهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة مرض الخليفة المقتفي لامر الله واشتد مرضه وعوفي فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلق البلد اسبوعا وفيها عاد ترشك الى بغداد ولم يشعر به أحد الا وقد ألقى نفسه تحت التاج ومعه سيف وكفن وكان قد عصى على الخليفة واتصل بالعجم فعاد الآن فرضي عنه وأذن له في دخول دار الخلافة واعطى مالا وفيها في جمادى الاولى أرسل محمد بن أنز صاحب قهستان عسكرا الى بلاد الاسماعيلية من الجبال فقتلوا كثيرا من العسكر وأسروا الامير الذي كان مقدما عليهم اسمه قيبة وهو صهر ابن أنز فبقي

الخارم والمسارب * ولما رأى أبو القاسم ان الامر جد * والطريق منسد * خنس وراءه عاضا على البنان * منخزلا لعارض الحرمان * وبلغ شمس المعالي قابوس ابن وشمكير انصرافه مع نصر عن وجه الري فقذفهما بعفاريت الاكراد من كل جانب * ودحرهم عن حدود مملكته بعذاب واصب * ولما رأيا ان الارض تلفظهم يمينا وشمالا * وتنفثهم جنوبا وشمالا * تواعرا على قصد السلطان يمين الدولة وأمين الملة مستأمنين اليه * ومستعدين على الزمان بالمثول بين يديه * فيمما عالى حضرته * وتوشحا بجمال خدمته * فأما أبو القاسم فهرب على ما سبق ذكره الى ان أودعه الحبس أسره وأما نصر فأقام على الخدمة مدة الى ان أمر السلطان باقطاعه ديار وجومند طعمة له فنهض اليهما * وأبت عليه همته القناعة بهما * فلم يزل يضارب في حباله الى أن خدع من الري وحمل منها الى قلعة استوناوند فجعلت عليه حصيرا * وساء ذلك مصيرا * ووكل شمس المعالي بعد ذلك بجرجان والقلاع فيما بين جرجان واستراباذ وما وراءها من أحاط بهم احاطة

عندهم

عندهم أسيرا عدة شهور حتى زوج ابنته من رئيس الاسماعيلية علي بن الحسن وخلص من الاسر وفيها توفي شرف الدين علي بن ابي القاسم منصور بن ابي سعد الساعدي قاضي نيسابور في شهر رمضان وكان موته بالري ودفن في مقبرة محمد بن الحسن الشيباني صاحب ابي حنيفة رضي الله عنهما وكان القاضي حنفيا ايضا

(ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة)

(ذكر مسير سليمان شاه الى همذان)

في هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل الى همذان ليتولى السلطنة وقد تقدم سبب قبضه وأخذه الى الموصل وسبب مسيره اليها ان الملك محمدا ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات أرسل اكابر الامراء من همذان الى اتابك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل يطلبون منه ارسال الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه اليهم ليولوه السلطنة فاستقرت القاعدة بينهم ان يكون سليمان شاه سلطانا وقطب الدين اتابكه وجمال الدين وزير قطب الدين وزير السليمان شاه وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه بالاموال الكثيرة والبرك والدواب والآلات وغير ذلك مما يصلح للسلاطين وسار ومعه زين الدين علي وعسكر الموصل الى همذان فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر اليهم أرسالا كل يوم يلقاه طائفة وأميرا فاجتمع مع سليمان شاه عسكر فخافهم زين الدين على نفسه لانه رأى من تساطهم على السلطان واطراحهم للادب معه ما أوجب الخوف معه فعاد الى الموصل فحين عاد عنه لم ينتظم امره ولم يتم له ما أراده وقبض العسكر عليه بباب همذان في شوال سنة ست وخمسين وخطبوا لارسلان شاه ابن الملك طغرل وهو الذي زوج ايلدكز بأمه وسيذكر مشروحا ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين)

في هذه السنة توفي الفائز بنصر الله ابو القاسم عيسى بن اسمعيل الظافر صاحب مصر وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان له لما ولي خمس سنين كما ذكرناه ولما مات دخل الصالح ابن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم انسانا كبير السن فأمر باحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبد بالامر فأعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر حينئذ باحضار العاضد لدين الله ابي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن ابوه خليفة وكان العاضد ذلك الوقت مراهقا قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز ما لا يسمع بمثله وعاشت بعد موت العاضد وخروج الامر من العلويين الى الاتراك وتزوجت

(ذكر وفاة الخليفة المقتفي لامر الله وشيء من سيرته)

في هذه السنة ثاني ربيع الاول توفي أمير المؤمنين المقتفي لامر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ابي العباس احمد بن المقتدي بأمر الله رضي الله عنه بعلة التراقي وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين واربعمائة وأمه أم ولد تدعى ياعي وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة اشهر وستة عشر يوما ووافق أباه المستظهر بالله في علة التراقي وماتا جميعا

الخلخال بخدمة البعير حتى افتتحها غيلة ومكيدة * ومراعاة لحقوق الاستسلام والتسليم وكيده * فصفت له جدودها وحواشيها * وقلاعها وصياصيها * وبما أعد من زبد الاحقاب فيها * واتفق بعد ذلك اخلاد الاصبهبذ بجبل شهريار الى جانب الجانبية في طاعة شمس المعالي قابوس وادعاؤه الامر لنفسه اغترارا بما اجتمع له من الوفر والكثف عليه من العدد الدثر * والعسكر المجر * فرمى من جانب الري بأبي علي رستم ابن المرزبان خال أبي طالب في صناديد الديلم وفيهم بيستون ابن بيجاسب المقبوض عليه من قبل في التظني بموالاة صاحبه قابوس فنصب له الحرب قراعا * ومصاعا * وثقافا * ونقافا وكانت عاقبة أمر دان كسره * فأسره * ونادى ابو علي رستم ابن اصبهبذ بكانه بشعار شمس المعالي قابوس لوحشة كان استشعرها من أهل الري وأقام الخطبة فيها باسمه وكاتبه بذكر طاعته وشرح ما فتح الله على يده وهاجر ابو حرب بيستون ابن بيجاسب الى أرضه المقدسة من فناء صاحبه وولي نعمته فانشرح صدره * ونزت بالاياب عينه *

وطاب بالايثار من والاحسان جرجان وطبرستان فولاها شمس المعالى منوجهر ابنه سمى من لوعاش الى زمانه لرد عليه عوارى مفاخره * ورجع اليه حلى آثاره وماثره * وانفتحت بعدها عليه الرويان وشالوس وما وراءها من الحدود الاستندارية فصارت ولايته تشرق بنور العدل والاحسان * وتبسم عن ثغور الامن والامان * واواصل شمس المعالى السلطان يمين الدولة وأمين الملة بكتبه ورسله فى عقد وثيقة يتحصن بها من صروف النوائب * ويستظهر بها على وجوه المطالب * وقدم بين يدى نجواه من أنواع القرب والمبار ما خرج عن الحد والمقدار * حتى تأكدت العصمة * وتأربت العقدة * واشتبكت الالفة * واستحكمت الثقة * وصارت جرجان وطبرستان الى سواحل البحر ودبار الديلم بحكم الحال المتشحة كاحدى ممالكه التى يحكم عليها آمرا وناهيا * ويتبسط فيها حاضرا وباديا * فلله شمس المعالى فى همة له بين الجمرة مجراها * وفى بحار الكرم مجراها ومرساها * فلم يسمع فى شيوخ الملوك بأشرف منه قعيه * وأوطف ديمه * وأكرم شيمه * وأصدق بارقة مشيمه * وأوفر عقلا وتحصيلا * (ذكر

فى ربيع الاول وكان حليما كريما عاقلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكثير وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من اول أيام الديلم الى الآن واول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره واصحابه من حين تحكم الماليك على الخلفاء من عهد المستنصر الى الآن الا ان يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الاموال العظيمة لاصحاب الاخبار فى جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شئ

(ذكر خلافة المستنجد بالله)

وفى هذه السنة بويع المستنجد بالله امير المؤمنين واسمه يوسف وأمه أم ولد تدعى طاوس بعد موت والده وكان للمقتفى حظية وهى ام ولده ابى على فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه ارسلت الى جماعة من الامراء وبذلت لهم الاقطاعات الكثيرة والاموال الجزيلة ليساعدوها على ان يكون ولدها الامير ابو على خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولى العهد فقالت اذا دخل على والده قبضت عليه وكان يدخل الى أبيه كل يوم فقالوا لا بد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على ابى المعالى بن الكيا الهراسى فدعوه الى ذلك فأجابهم على ان يكون وزيرا فبذلوا له ما طلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم ابى على أحضرت عدة من الجوارى واعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله وكان له خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف اخبار والده فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد ابى على وامه سيفين فعاد الى المستنجد فأخبره وأرسلته هى الى المستنجد تقول له ان والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى استاذ دار عضد الدولة واخذ معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع واخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك اخرى وصاح ودخل استاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى وأخذ اخاه ابا على وامه فسجنهما واخذ الجوارى فقتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه فلما توفى المقتفى لامر الله جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه ابو طالب ثم اخوه ابو جعفر ابن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير ابن هبيرة وقاضى القضاة وارباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم (حكى عنه) الوزير عون الدين بن هبيرة انه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام منذ خمس عشرة سنة وقال لى يبقى ابوك فى الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال صلى الله عليه وسلم ثم رأيته قبل موت ابى المقتفى بأربعة اشهر فدخل بى فى باب كبير ثم ارتقى الى رأس جبل وصلى بى ركعتين ثم ألبسنى قميصا ثم قال لى قل اللهم اهدنى فيمن هديت وذكر دعاء القنوت ولما ولى الخلافة اقر ابن هبيرة على وزارته واصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن المرخم وكان بئس الحاكم واخذ منه مالا كثيرا واخذت كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب اخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان استاذ الدار ومكنه وتقدم الى الوزير ان يقوم له وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن احمد الدامغانى ورتب مكانه ابا جعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه

عيشه * لو لم يجله عن الحياة حينه * وانضافت مملكة الجبل بأسرها الى ممالك

(ذكر الحرب بين عسكر خوارزمشاه والاتراك البرزية)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار طائفة من عسكر خوارزمشاه الى اجنه وهجموا على يغمرخان بن أودلك ومن معه من الاتراك البرزية فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فانهزم يغمرخان وقصد السلطان محمود بن محمد الخان والاتراك الغزية الذين معه وتوسل اليهم بالقرابة وظن يغمرخان ان اختيار الدين ايناق هو الذى هيج الخوارزمية عليه فطلب من الغز انجاده

(ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة)

قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين عود المؤيد أى أبه الى نيسابور وتمكنه منها وان ذلك كان سنة أربع وخمسين فلما دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة ورأى المؤيد تحكمه فى نيسابور وتمكنه فى دولته وكثرة جنده وعسكره أحسن السيرة فى الرعية لاسيما أهل نيسابور فانه جبرهم وبالغ فى الاحسان اليهم وشرع فى اصلاح اعمالها واصلاح ولاياتها فسير طائفة من عسكره الى ناحية اسفيل وكان بها جمع قد تمردوا وأكثروا العبث والفساد فى البلاد وطال تماديهم فى طغيانهم فأرسل اليهم المؤيد يدعوهم الى ترك الشر والفساد ومعاودة الطاعة والصلاح فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما هم عليه فسير اليهم سرية كثيرة فقاتلوهم وأذاقوهم عاقبة ما صنعوا فأكثروا القتل فيهم وخربوا حصنهم وسار المؤيد من نيسابور الى بيهق فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة وقصد منها حصن خسرو جرد وهو حصن منيع بناه كيخسرو الملك قبل فراغه من قتل افراسياب وفيه رجال شجعان فامتنعوا على المؤيد فحصرهم ونصب عليهم المجانيق وجد فى القتال فصبر أهل الحصن حتى نفد صبرهم ثم ملك المؤيد القلعة وأخرج كل من فيها ورتب فيها من يحفظها وعاد منها الى نيسابور فى الخامس والعشرين من جمادى الاولى من السنة ثم سار الى هراة فلم يبلغ منها غرضا فعاد الى نيسابور وقصد مدينة كندر وهى من أعمال طريثيث وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد كان خربنده واجتمع معه جماعة من الزنود وقطاع الطريق والمفسدين فخربوا كثيرا من البلاد وقتلوا كثيرا من الخلق وغنموا من الاموال ما لا يحصى وعظمت المصيبة بهم على خراسان وزاد البلاء فقصدهم المؤيد فتحصنوا بالحصن الذى لهم فقوتلوا أشد قتال ونصب عليهم العرادات والمنجنيقات فأذعن هذا الخربنده أحمد الى طاعة المؤيد والانخراط فى سلك أصحابه وأشياعه فقبله أحسن قبول وأحسن اليه وأنعم عليه ثم انه عصى على المؤيد وتحصن بحصنه فأخذه المؤيد منه قهرا وعنوة وقيده واحتاط عليه ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده وقصد المؤيد فى شهر رمضان ناحية بيهق عازما على قتالهم لخروجهم عن طاعته فلما قاربها أتاه زاهد من اهلها ودعاه الى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم ووعظه وذكره فأجاب الى ذلك ورحل عنهم فأرسل السلطان محمود بن محمد الخان وهو مع الغز الى المؤيد بتقرير نيسابور وطوس واعمالها عليه وردّ الحكم فيها اليه فعاد الى نيسار رابع ذى القعدة من السنة ففرح الناس بمائة تقرير بينه وبين الملك محمود وبين الغز من ابقاء نيسابور عليه ليزول الخلاف والفتن عن الناس

(ذكر الحرب بين شاه مازندران ويغمرخان)

لما قصد يغمرخان الغز وتوسل اليهم لينصروه على ايناق ظنه انه هو الذى حسن للخوارزمية

واظهر جهله ونقصه لا * وأغذى للنفس بعفاف الحكمة * وأجزى للبدن بكفاف الطعمة * قد فطم النفس عن رضاع الملاهى * فلم يعرف الله وما هو ولا البطالة ما هى * علما منه بأن الملك والله وضدات * وأن ليس لانقائهما تدان * ولقد أحسن أبو الفتح على بن محمد البستى الكاتب فى نصرة هذا الرأى بقوله

اذا غدا ملك بالله ومشتغلا
فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس فى الميزان هابطة
لما غدا برج نجم اللهو والطرب
نعم ولا أحرص على انصاف الرعية * وآخذ بأطراف العدل فى القضية * وأبرع فى الآداب والحكم * وأجمع بين ذرابة السيف وذلاقة القلم * ورسائله موجودة فى البلاد * عند الافراد * لكنى أكتفى منها بلمعة من بوارق بيانه * وزهرة من حدائق احسانه * اذ كان فى تصفحها ما يغنى عن التكثر فى هذا المكان بها فنها رسالة أنشأها فى الترجيح بين صحابة النبى صلى الله عليه وسلم بعقب رسائله القديمة * وقرائنه اليتيمة *

بسم الله الرحمن الرحيم
اعلم ان أصعب الامور * وأشرفها بين الجمهور * هو الخروج بالنبوة * والاستعلاء على الخلق بهذه القوة * لانه تقليب الوجوه عن القبل المعبودة * وادخال الاعناق فى قلادة غير معهودة * ومخاطبة الخلق عن الخالق * خالق لا تدركه أبصار الخلائق * وقد اعتلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ذروة هذا الشرف * وصار لمن سلف من الانبياء خير الخلف * وفاز بمزية هذا الذكر العظيم * وأذاق العرب لذة النعيم * ونقلهم من الثروة والغنى من الفقر والفاقة * وأراحهم من رعاية الجمل والناقة * وليس وراءه لابتغاء العلا أمد * فما فوق السماء للسمو مصعد * ثم ضبط الامر بعد زعيمه على نظامه * واقامته فى قوامه * وهذا ما تولاه أبو بكر رضى الله تعالى عنه حين ودع عمره * من غير أن يسلم الى أحد أمره * فانه قام به قيام ثابت القلب * مستقل بمقاومة الخطب * غير مفكر فى رد راد * ولا مبال بمعاداة مضاد * حتى حمى حريم الدين * وجمع شمل

قصده فأجابوه الى ذلك وسار وامعه على طريق نساوا يوردو وصلوا الى الامير ايناق فلم يجد لنفسه بهم قوة فاستنجد شاه مازندران فجاءه ومعه من الاكراد والديلم والاتراك والتركمان الذين يسكنون نواحى ابسكون جمع كثير فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم وانهزم الاتراك الغزية والبرزية من شاه مازندران خمس مرات ويعودون وكان على ميمنة شاه مازندران الامير ايناق فحملت الاتراك الغزية عليه لما أيسوا من الظفر بقلب شاه مازندران فانهزم ايناق وتبعه باقى العسكر ووصل شاه مازندران الى سارية وقتل من عسكره أكثرهم وحكى ان بعض التجار كفن ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل واما ايناق فانه قصد فى هربه خوارزم وأقام بها وسار الغز من المعركة الى دهستان وكان الحرب قريبا منها فنقبوا سورها وأوقعوا بأهلها ونهبوهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسمائة بعد ان خربوا جرجان وفرقوا أهلها فى البلاد وعادوا الى خراسان

(ذكر وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده)

فى هذه السنة فى رجب توفى السلطان خسروشاه بن بهرام شاه بن مسعود بن ابراهيم بن مسعود ابن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وكان عادلا حسن السيرة فى رعيته محبا للخير وأهله مقربا للعلماء محسنا اليهم راجعا الى قولهم وكان ملكه تسع سنين وملك بعده ابنه ملك شاه فلما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور الى غزنة فحصرها وكان الشتاء شديدا والثلج كثيرا فلم يمكنه المقام عليها فعاد الى بلاده فى صفر سنة ست وخمسين

(ذكر الحرب بين ايناق وبغراتكين)

فى هذه السنة منتصف شعبان كان بين الامير ايناق والامير بغراتكين برغش الجركانى حرب وكان ايناق قد سار الى بغراتكين فى آخر أعمال جوين فنهب وأخذ أمواله وكل ماله وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جسيمة فانهزم بغراتكين عنها وخلاها فافتتحها ايناق واستغنى بها وقويت نفسه بسببها وكثرت جموعه وقصده الناس واما بغراتكين فانه أرسل الى المؤيد صاحب نيسابور وسار فى جملته ومعدودا من أصحابه فتلقاه المؤيد بالقبول

(ذكر وفاة ملكشاه بن محمود)

فى هذه السنة توفى ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان باصفهان مسموما وكان سبب ذلك انه لما كثر جمعه باصفهان أرسل الى بغداد وطلب ان يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ويعيدوا القواعد بالعراق الى ما كانت أولا والا قصدهم فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيا كان خصيصا به يقال له اغلبك الكوهرايينى مضى الى بلاد العجم واشترى جارية من قاضى همذان بألف دينار وباعها من ملكشاه وكان قد وضعها على سمه ووعدها أمورا عظيمة على ذلك وسمته فى لحم مشوى فاصبح ميتا وجاء الطبيب الى دكانه فعرفه انه مسموم فعرفوا ان ذلك من فعل الجارية فأخذت وضربت وأقرت وهرب اغلبك ووصل الى بغداد ووفى له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه ولما مات أخرج أهل اصفهان أصحابه من عندهم وخطبوا لسليمان شاه واستقر ملكه بتلك البلاد وعاد شملة الى خوزستان فأخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها

*(ذكر

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة حج أسد الدين شيركوه بن شاذى مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وشيركوه هذا هو الذى ملك الديار المصرية وسيرد ذكره ان شاء الله تعالى وفيها أرسل زين الدين على نائب قطب الدين صاحب الموصل رسولا الى المستضىء يعتذر مما جناه من مساعدة محمد شاه فى حصار بغداد ويطلب أن يؤذن له فى الحج فأرسل اليه يوسف الدمشقى مدرس النظامية وسليمان بن قتلمش يطيبان قلبه عن الخليفة ويعرفانه الاذن فى الحج فحج ودخل الى الخليفة فأكرمه وخلع عليه وفيها توفى قايماز الارجوانى أمير الحاج سقط عن الفرس وهو يلعب بالاكرة فسال مخه من مناخيره وأذنيه فمات وفيها فى ربيع الآخر توفى محمد بن يحيى بن على بن مسلم أبو عبد الله الزبيدى من أهل زبيد مدينة باليمن مشهورة وقدم بغداد سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان نحويا واعظا وصحبه الوزير ابن هبيرة مرة وكان موته ببغداد

(ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة)

(ذكر الفتنة ببغداد)

فى هذه السنة فى ربيع الاول خرج الوزير ابن هبيرة من داره الى الديوان والغلمان يطرقون له وأرادوا يردون باب المدرسة النظامية بدار الخليفة فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجر فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم فمنعهم الوزير ومضى الى الديوان فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم من الدار فمضى استاذ الدار وعاقبهم هنالك واختفى مدرسهم الشيخ أبو طالب ثم ان الوزير أعطى كل فقيه دينارا واستحل منهم وأعادهم الى المدينة وظهر مدرسهم

(ذكر قتل ترشك)

فى هذه الايام قصد جمع من التركمان الى البندنيجين فأمر الخليفة بتجهيز عسكر اليهم وان يكون مقدمهم ترشك وكان فى اقطاعه بادرايا فامتنع فأرسل اليه الخليفة يستدعيه فامتنع من المجىء الى بغداد وقال يحضر العسكر فأنا أقاتل بهم وكان عازما على الغدر فجهز العسكر وساروا اليه وفيهم جماعة من الامراء فلما اجتمعوا بترشك قتلوه وأرسلوا رأسه الى بغداد وكان قتل مملوكا للخليفة فدعا أولياء المقتول وقيل لهم ان أمير المؤمنين قد اقتص لابيكم ممن قتله

(ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لارسلان)

فى هذه السنة فى ربيع الآخر قتل السلطان سليمان شاه ابن السلطان محمد بن ملكشاه وسبب ذلك انه كان فيه تهور وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى انه شربها فى رمضان نهارا وكان يجمع المساخر ولا يلتفت الى الامراء فأهمل العسكر أمره وصار والا يحضرون بابه وكان قد رد جميع الامور الى شرف الدين كردباز والخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يرجع الى دين وعقل وحسن تدبير فكان الامراء يشكون اليه وهو يسكنهم فاتفق انه شرب يوما بظاهر همذان فى الكشك فحضر عنده كردباز وفلامه على فعله فأمر سليمان شاه من عنده من المساخرة فعبثوا بكردباز وحتى ان بعضهم كشف له سوأته فخرج مغضبا فلما صحا سليمان أرسل

المسلمين * ولم يرض بأن يسلم بيضة الشريعة ثلم * ولا أن يتغير من أحكامها حكم * فلقب خليفة رسول الله * باتساعه لخياطة دين الله * ثم تحصين حوزة الاسلام من عوارض الفساد * ومعاداة الاعداء والاضداد * والمجاهدة فى استضافة ديار المخالفين * الى جانب الاسلام ومجامع المسلمين * وهو ما أتاه عمر رضى الله عنه لما آل اليه الامر فانه صرف جهده الى الجهاد * وقصر ركده وكده على افتتاح البلاد * حتى اتسع نطاق هذه الملة * وخضعت الرقاب لاهل هذه القبلة * فلقب أمير المؤمنين * اذ كان نعم العون لرسول رب العالمين * قد فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من الامر الاعظم * والشأن الاخطم * وأطفأ لهيب كل ملتهب * على رغم من أبى لهب * والتأم بسعى الشيخين * شعب الامرين الآخرين * وبلغ من الاحكام مبلغا ليس فيه مستزاد * ولا يشين بياض غرته سواد * ولم يبق للتابعين سوى التمسك بدين عهد * ومراعاة بناء مشيد * فلم يقدروا على القيام به * واحتجبوا وراء حجابه * ولما أتت الخلافة عثمان

اليه يعتذر فقبل عذره الا انه تجنب الحضور عنده فكتب سليمان الى اينانج صاحب الرى يطلب منه ان يجنده على كردباز وفوصل الرسول واينانج مريض فأعاد الجواب يقول اذا أفقت من مرضى حضرت اليك بعسكرى فبلغ الخبر كردباز وفازداد استيحاشا فأرسل اليه سليمان يوما يطلبه فقال اذا جاء اينانج حضرت وأحضر الامراء واستحلفهم على طاعته وكانوا كارهين لسليمان فحلفوا له فأول ما عمل ان قتل المساخرة الذين لسليمان وقال انما أفعل ذلك للملك ثم اصطلحا وعمل كردباز دعوة عظيمة حضرها السلطان والامراء فلما صار السلطان سليمان شاه فى داره قبض عليه كردباز وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدى وعلى أصحابه فى شوال سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه فى قلعة ثم أرسل اليه من خنقه وقيل بل حبسه فى دار مجد الدين العلوى رئيس همذان وفيها قتل وقيل بل سقى سما فمات والله أعلم وأرسل الى ايلدكز صاحب أرانية وأكثر بلاد اذربيجان يستدعيه اليه ليخطب للملك ارسلان شاه الذى معه وبلغ الخبر الى اينانج صاحب الرى فسار ينهب البلاد الى ان وصل الى همذان فتحصن كردباز وطلب منه اينانج ان يعطيه مصافا فقال أنا لا أحاربك حتى يصل الاتابك الاعظم ايلدكز وسار ايلدكز فى عساكره جميعها يزيد على عشرين ألف فارس ومعه ارسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه فوصل الى همذان فلقيهم كردباز وأنزله دار المملكة وخطب لارسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد وكان ايلدكز اتابكه والبهلوان حاجبه وهو أخوه لامه وكان ايلدكز هذا أحد مماليك السلطان مسعود وأمرائه فى أول امره فلما ملك أقطعه اران وبعض اذربيجان واتفق الحروب والاختلاف فلم يحضر عند أحد من السلاطين السلجوقية وعظم شأنه وقوى أمره وتزوج بأم الملك ارسلان شاه فولدت له أولادا منهم البهلوان محمد وقتل ارسلان عثمان وقد ذكرنا سبب انتقال ارسلان شاه اليه وبقى عنده الى الآن فلما خطب له بهمذان أرسل ايلدكز الى بغداد يطلب الخطبة لارسلان شاه أيضا وان تعاد القواعد الى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فاهين رسوله وأعيد اليه على أقبح حالة واما اينانج صاحب الرى فان ايلدكز راسله ولاطفه فاصطلحا وتحالفا على الاتفاق وتزوج البهلوان بنت ايلدكز بابنة اينانج ونقلت اليه بهمذان

(ذكر الحرب بين ابن آقسنقر وعسكر ايلدكز)

لما استقر الصلح بين ايلدكز واينانج أرسل الى ابن آقسنقر الاحديلى صاحب مراغة يدعوه الى الحضور فى خدمة السلطان ارسلان شاه فامتنع من ذلك وقال ان كففتم عنى والا فندى سلطان وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود كما ذكرناه وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يطمعه فى الخطبة لولد محمود شاه فجهز ايلدكز عسكرا مع ولده البهلوان فبلغ الخبر الى ابن آقسنقر فأرسل الى شاه ارمن صاحب خلاط وحالفه وصارا يدا واحدة فسير اليه شاه ارمن عسكرا كثيرا واعتذر عن تأخره بنفسه لانه فى ثغر لا يمكنه مفارقته فقوى بهم ابن آقسنقر وكثر جمعه وسار نحو البهلوان فالتقيا على نهر اسبيرود فاشتد القتال بينهم فانهزم البهلوان أقبح هزيمة ووصل هو وعسكره الى همذان على أقبح صورة واستأمن أكثر أصحابه الى ابن آقسنقر وعاد الى بلده منصورا

*(ذكر

ابن عفان * كان منه ما كان * من تبديل زى النسك * بزينة الملك * وتغيير سيرة الائمة * حين توسع فى النعمة * حتى اجتنى ثمرة ما جنى * وتيه به سوء ما أتى * ولما عادت الى على بن أبى طالب رضى الله عنه هاجت الرياح واختلفت الدول من كل جانب وبدت الاوابد * وتبدلت العقائد * وتحول أمر الدين ملك المغالبة * ودول القتلة والجاذبة * ووقعت الخلافة فى الخلاف * وبرز الشر من الغلاف * وبقى على رضى الله عنه على اضطراب لا يهدأ * وفى مداواة داء لا يبرأ * مع شجاعته المشهورة * ومآثره المأثورة * وانتهى أمره الى ما انتهى * حتى جرى عليه وعلى عقبه ما جرى * فلينظر اذا كان الامر كذلك * أهؤلاء أحق بالقدح أم أولئك * قد مضى القوم وآثارهم فى الاسلام كالشمس فى الاشتهار * والهباء فى الانتشار * وصنيعهم صانح بحى على الفلاح * وليس بأيدى الخصماء سوى السفاهة والصياح * (وقرأت توقيعا له الى بعض الافاضل يستقدمه

(ذكر الحرب بين ايلدكز وابنانج)

لما مات ملكشاه ابن السلطان محمود كما ذكرناه أخذ طائفة من أصحابه ابنه محمودا وانصرفوا به نحو بلاد فارس فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلغري فأخذه منهم وتركه في قلعة اصطخر فلما ملك ايلدكز والسلطان ارسلان شاه الذي معه البلاد وأرسل ايلدكز الى بغداد يطلب الخطبة للسلطان كما ذكرناه شرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزير الخليفة في اثارة أصحاب الاطراف عليه وراسل الاحديلي وكان ماذكرناه وكاتب زنكي بن دكلا صاحب بلاد فارس يبذل له ان يخطب للملك الذي عنده وهو ابن ملكشاه وعلق الخطبة له بظفره بايلدكز فخطب ابن دكلا للملك الذي عنده وأنزله من القلعة وضرب الطبل على بابه خمس نوب وجمع عساكره وكاتب ابنانج صاحب الري يطلب منه الموافقة وسمع ايلدكز الخبر فحشد وجمع وكثر عسكره وجموعه فكانت أربعين ألفا وسار الى اصفهان يريد بلاد فارس وأرسل الى زنكي ابن دكلا يطلب منه الموافقة وان يعود يخطب لارسلان شاه فلم يفعل وقال ان الخليفة قد أقطعني بلاده وأنا سائر اليه فرحل ايلدكز وبلغه ان جشير الارسلان بوقا وهو أمير من أمراء زنكي وفي اقطاعه ارجان بالقرب منه فأنفذ سرية للغارة عليه فاتفق ان ارسلان بوقا عزم على تغيير الخيل التي معه فاضعفها وأخذ عوضها من ذلك الجشير فسار في عسكره الى الجشير فصادف العسكر الذي سيره ايلدكز لاخذ دوابه فقاتلهم وأخذهم وقتلهم وأرسل الرؤس الى صاحبه فكتب بذلك الى بغداد وطلب المدد فوعد بذلك وكان الوزير عون الدين بن هبيرة أيضا قد كاتب الامراء الذين مع ايلدكز يوبخهم على طاعته ويضعف رأيهم ويحرضهم على مساعدة زنكي بن دكلا وابنانج وكان ابنانج قد برز من الري في عشرة آلاف فارس فأرسل اليه ابن آقسنقر الاحديلي خمسة آلاف فارس وهرب ابن البازدار صاحب قزوين وابن طغيرك وغيرهما فلحقوا بابنانج وهو في صحراء ساوة واما ايلدكز فانه استشار أصحابه فأشاروا بقصد ابنانج لانه أهم فرحل اليه ونهب زنكي سنهبرم وغيرها فرد ايلدكز اليه أميرا في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد فسار زنكي اليهم فلقيهم وقاتلهم فانهزم عسكر ايلدكز اليه فتجلد ايلدكز وأرسل يطلب عساكر اذربيجان فجاءته مع ولده قزل ارسلان وسير زنكي بن دكلا عسكرا كثيرا الى ابنانج واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لخوفه على بلاده من شغله صاحب خوزستان فسار ايلدكز الى ابنانج وتدانى العسكران فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة ابنانج فانهزم أقبح هزيمة وقتلت رجاله ونهبت أمواله ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك وحصر ايلدكز الري ثم شرع في الصلح واقترح ابنانج اقتراحات فأجابه ايلدكز اليها وأعطاه جرماذقان وغيرها وعاد ايلدكز الى همذان وكان ينبغي أن نتأخر هذه الحادثة والتي قبلها وانما قدمت لتتبع أخواتها

(ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد)

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغوري ملك الغور بعد انصرافه من غزنة وكان عادلا من أحسن الملوك سيرة في رعيته ولما مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمد واطاعه الناس واحبوه وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الاسماعيلية وكثر اتباعهم فأخرجهم من تلك الديار جميعها ولم يبق فيها منهم احد وراسل الملوك وهاداهم

(ذكر الحال التي انعقدت بين السلطان يمين الدولة وامين الملة وبين ايلك الخان في التواصل والتصاهر والتعاقد على التعاون والتظاهر الى ان خامت جمجمة البشر وكشرت عن اعصل الشر)

قد كان ايلك الخان لما ملك السلطان خراسان على الغدرة بآل سامان اغتنم تطهير ماوراء النهر عن كل منتسب الى تلك الارومة ومتشبث بشعب تلك الجرثومة فلم يدع هناك ذا ظفر الا قلمه ولا ذا حد الا اجتاحه واصطلمه

حضرته ليشوفي مسرته)* محال لمن سمت به همته * الى قصد من تغاو عنده قيمته * أن يكون على غيرة عرجته * وليبت من سواه زيارته وجهته * وأما خطه فخطة المحاسن فسمه ان شئت وشيا محوكا * او تبرا مسبوكا * او درا مفصلا * او سحرا محصلا * وكان اسمعيل بن عباد اذا قرأ خطه يقول أهذا خط قابوس * ام جناح طاوس * فهو كما قال المتنبي

في خطه من كل قلب شهوة
حتى كان مداده الاهواء
ولكل عين قرة في قربه
حتى كان مغيبه الاقذاء

واستمال المؤيد اى ابه صاحب نيسابور وطلب موافقته

(ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها)

كان اهل العبث والفساد بنيسابور قد طمعوا فى نهب الاموال وتخريب البيوت وفعل ما أرادوا فاذا نهوا لم ينتهوا فلما كان الآن تقدم المؤيد اى ابه بقبض أعيان نيسابور منهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسينى وغيره وحبسهم فى ربيع الآخر سنة ست وخمسين وقال أنتم الذين أطمعتم الزنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الافعال ولو أردتم منعهم لامتنعوا وقتل من أهل الفساد جماعة فخربت نيسابور بالكلية ومن جملة ما خرب مسجد عقيل وكان مجمع الاهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة وكان من أعظم منافع نيسابور وخرب أيضا من مدارس الحنفية ثمان مدارس ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة وأحرق خمس خزائن للكتب ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الاثمان هذا ما أمكن احصاؤه وسوى ما لم يذكر

(ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة قصد السلطان محمود بن محمد الخان وهو ابن أخت السلطان سنجر وقد ذكرنا انه ملك خراسان بعده ففى هذه السنة حصر المؤيد صاحب نيسابور بشاذياخ وكان الغزمع السلطان محمود فدامت الحرب الى آخر شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ثم ان محمودا أظهر انه يريد دخول الحمام فدخل الى شهرستان آخر شعبان كالهارب من الغز وأقاموا على نيسابور الى آخر شوال ثم عادوا راجعين فعاثوا فى القرى ونهبوها ونهبوا طوس نهبا فاحشا وحضروا المشهد الذى لعلى بن موسى وقتلوا كثيرا ممن فيه ونهبوهم ولم يعرضوا للقبة التى فيها القبر فلما دخل السلطان محمود الى نيسابور امهله المؤيد الى ان دخل رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة واخذه وكحله واعماه واخذ ما كان معه من الاموال والجواهر والاعلاق النفيسة وكان يخفيها خوفا عليها من الغز لما كان معهم وقطع المؤيد خطبته من نيسابور وغيرها مما هو فى تصرفه وخطب لنفسه بعد الخليفة المستنجد بالله واخذ ابنه جلال الدين محمدا الذى كان قد ملكه الغز امرهم قبل ابيه وقد ذكرنا ذلك وسمله ايضا وسجنهما ومعهما جواريهما وحشمهما وبقيا فيها فلم تطل ايامهما وماتا السلطان محمود ثم مات ابنه بعده من شدة وجده لموت ابيه والله اعلم

(ذكر عمارة شاذياخ نيسابور)

كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين لما كان اميرا على خراسان للمأمون وسبب عمارتها انه رأى امرأة جميلة تقود فرسا تريد سقيه فسألها عن زوجها فأخبرته به فأحضره وقال له خدمة الخيل بالرجال اشبه فلم تقعد انت فى دارك وترسل امرأتك مع فرسك فبكى الرجل وقال له ظالمك يحملنا على ذلك فقال وكيف قال لانك تنزل الجند معنا فى دورنا فان خرجت انا وزوجتى بقى البيت فارغا فيأخذ الجندى مالنا فيه وان سقيت انا الفرس فلا آمن على زوجتى من الجندى فرأيت ان اقيم فى البيت وتخدم زوجتى الفرس فعظم الامر عليه وخرج من البلد لوقته ونزل فى الخيام وامر الجند فخرجوا من دور الناس وبنى شاذياخ

ثم كاتب ايلك الخان السلطان يمين الدولة مهنئا له بما ذخر الله له من خالصة الملك * وصافية الملك * وظاهر اليه من ظاهرة العز وباطنة الصنع ومعتدة النفس بما قطفه من عنقود رجائه * ملاوة على صفقة اقباله * وعلاوة على جماله وجلاله * وترتد السفراء بينهما فى وصلة تيل رحم الحال * وتؤكد اسباب المودة والوصال * وتحمى حريم الثقة فى الجانبين * وترفع ستر الحشمة فى ذات البين * وتؤدى رتبة الاختلاط الى الامتزاج * وقربة الاشتباك الى الاشتباج * فتصير النفوس واحدة * والسواعد على وجوه مصالحها متساعدة * فأنهض السلطان عند المامه كان بنيسابور فى طلب ابى ابراهيم المنتصر الساماني ابا الطيب سهل ابن محمد بن سليمان الصعلوكى امام اهل الحديث بها رسولا الى ايلك الخان وضم اليه طغانجق والى سرخس فى خطبة كريمته عليه * ونقلها فى صحبته اليه * واصحبه ماعدا الحد والعد من سبائك العقيان * ويواقيت البهرمان *

دار له وجنده وسكنها وهم معه ثم انها دثرت بعد ذلك فلما كان ايام السلطان الب ارسلان ذكرت له هذه القصة فأمر بتجديدها ثم انها تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ولم يمكن حفظها والغز تطرق البلاد وتنهبها امر المؤيد حينئذ بعمل سورها وستة ثلمه وسكناه ففعل ذلك وسكنها هو والناس معه وخربت حينئذ نيسابور وكل خراب ولم يبق فيها اثنان

(ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك)

في هذه السنة في شهر رمضان قتل الملك الصالح ابو الغارات طلائع بن رزيك الارمني وزير العاضد العلوي صاحب مصر وكان سبب قتله انه تحكم في الدولة التحكم العظيم واستبد بالامر والنهي وجباية الاموال اليه لصغر العاضد ولانه هو الذي ولاه ووتر الناس فانه اخرج كثيرا من اعيانهم وفرقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ثم انه زوج ابنته من العاضد فعاداه ايضا الحرم من القصر فأرسلت عمة العاضد الاموال الى امراء المصريين ودعتهم الى قتله وكان اشدهم عليه في ذلك انسان يقال له ابن الداعي فوقفوا له في دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرحوه جراحات مهلكة الا انه حمل الى داره وفيه حياة فأرسل الى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع اثره في خلافته فأقسم العاضد انه لا يعلم بذلك ولم يرض به فقال ان كنت بريأ فسلم عمتك الي حتى انتقم منها فأمر بأخذها فأرسل اليها فأخذها قهرا واحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك ولقب العادل فاتقل الامر اليه بعد وفاة ابيه وللصالح اشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها في الافتخار

ابى الله الا ان يدوم لنا الدهر * ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى الوفه * ويبقى لنا من بعده الاجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا * سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا اذا رحنا الى الحرب مرة * قرانا ومن اضيافنا الذئب والنسر
كما اننا في السلم نبذل جودنا * ويرتع في انعامنا العبد والحر

وكان الصالح كريما فيه ادب له شعر جيد وكان لاهل العلم عنده اتفاق ويرسل اليهم العطاء الكثير بلغه ان الشيخ ابا محمد بن الدهان النحوي البغدادي المقيم بالموصل قد شرح بيتا من شعره وهو هذا

يجنب سمعي ما يقول العواذل * واصبح لي شغل من الغزو شاغل

فجهز اليه هدية نفيسة ليرسلها اليه فقتل قبل ارسالها او بلغه ايضا ان انسانا من اعيان الموصل قد اثنى عليه بمكة فأرسل اليه كتابا يشكره ومعه هدية وكان الصالح اماميا لم يكن على مذهب العلويين المصريين ولما ولي العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل انهم يفرحون بالخليفة فقال كأني بهؤلاء الجهلة وهم يقولون مامات الاول حتى استخلف هذا وما علموا انني كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم قال عمارة دخلت الى الصالح قبل قتله بثلاثة ايام فمما رأى قرطاسا فيه بيتان من شعر وهما

نحن في غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا الى الحمام سنينا * ليت شعري متى يكون الحمام

وعقائل الدر والمرجان * وتخوت الوشي والحبر * ونوادر البدو والحضر * وصواني الذهب مملوءة من بياضات العنبر * واواني الفضة مضمونة بشمامات الكافور وغير ذلك من شارات الهنود * وقطاع العود * وذكور النصول * واناث الفيول * اتحت حدوج مغشاة بذوات التعاريج * من الوان الديابيج * منطقة بعصائب يخطف العيون بريقها * وتصطخب على الاقتاب معالقها * وعتاق ضوامر كالقداح * يخدود كتون الصفاح * وغرر كنجوم الصباح * وقوائم كمخرق الرياح * وسنابك كفلق الصفاح * في مراكب كأنما جلى بعضها من قطع عقيق * واشعل حريق * وحلى سائرها بنجوم الثريا والنثرة * وبنات نعش من وراء المجرة * وقرن ذلك كله بأموال على سبيل الالطاف * تغمر ذوائب الاوصاف * فسار الامام ابو الطيب سهل بن محمد الى ابيك الخان كريما ينقل كريمه * ويحمل من بحر الترك الى ايران درة يتيمه * فطلع على ايلك واهل بيته طلوع الحميم طاب اباه *

فكان آخر عهدي به وقال عمارة ايضا ومن عجيب الاتفاق انني انشدت ابنه قصيدة اقول فيها

ابوك الذي قسطو الليالي بجده * وانت يمين ان سطا وشمال
لرتبته العظمى وان طال عمره * اليك مصير واجب ومنال
تخالصك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضاض وجال

فانتقل الامر اليه بعد ثلاثة أيام

(ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد)

في هذه السنة في شهر رمضان اجتمعت خفاجة الى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر وغير ذلك فمنعهم أمير الحاج ارغش وهو مقطع الكوفة ووافقه على منعه الامير قيصر شحنة الحلة وهما من عمال الخليفة فأفسدت خفاجة ونهبوا سواد الكوفة والحلة فأسرى اليهم الامير قيصر شحنة الحلة في مائتين وخمسين فارسا وخرج اليه ارغش في عسكر وسلاح فانتزحت خفاجة من بين أيديهم وتبعهم العسكر الى رحبة الشام فأرسل خفاجة يعتذرون ويقولون قد قنعنا بلبن الابل وخبز الشعير وانتم تمنعونا رسومنا وطلبوا الصلح فلم يجبهم ارغش وقيصر وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب فتصافوا واقتتلوا وارسلت العرب طائفة الى خيام العسكر ورحالهم فخالوا بينهم وبينها وحمل العرب حملة منكرة فانهزم العسكر وقتل كثير منهم وقتل الامير قيصر وأسرت جماعة أخرى وجرح أمير الحاج جراحة شديدة ودخل الرحبة فحماه شحنتها واخذله الامان وسيره الى بغداد ومن فيها مات عطشا في البرية وكان اماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى فاذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة والعساكر معه فخرج في طلب خفاجة فدخلوا البرية وخرجوا الى البصرة ولما دخلوا البر عاد الوزير الى بغداد وارسل بنو خفاجة يعتذرون ويقولون بغى علينا وفارقنا البلاد فتبعونا واضطررنا الى القتال وسألوا العفو عنهم فأجيبوا الى ذلك

(ذكر حصر المؤيد شارستان)

في هذه السنة حصر المؤيد اي ابه مدينة شارستان قريب نيسابور وقاتله اهلها ونصب المجانيق والعرادات فصبر اهلها خوفا على انفسهم من المؤيد وكان مع المؤيد جلال الدين الموفق الفقيه الشافعي فبينما هو راكب اذ وصل اليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة وتعدى الحجر منه الى شيخ من شيوخ بيهق فقتله فعظمت المصيبة بقتل جلال الدين على اهل العلم خصوصا أهل السنة والجماعة وكان في عنفوان شبابه رحمه الله لما قتل ودام الحصار الى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنزل خواجكي صاحبها بعد ما كثر القتل ودام الحصر وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم ارباب النهي والامر وهم الذين حفظوها وقاتلوا عنها احدهم خواجكي هذا والثاني داعي بن محمد ابن اخي حرب العلوي والثالث الحسين بن ابي طالب العلوي الفارسي فنزلوا كلهم ايضا الى المؤيد اي ابه فيمن معهم من اشياعهم واتباعهم فاما خواجكي فانه اثبت عليه انه قتل زوجته ظلما وعدوانا واخذ مالها فقتل بها وملك المؤيد شارستان وصفت له فنهبها عسكره الا أنهم لم يقتلوا امرأة ولا سبوها

*(ذكر

بعد ان طال اغترابه * والحبيب اطف اعتابه * بعد ان تقدم هجره واجتنابه * اعطاما منهم لقدر وفادته
عن باب السلطان * في ذلك المهم من الشان * ثم لفضله
في نفسه فهو الامام المقدم * والصدر المحتشم * ومن
لا يقرب الى ربابته ضريب
له في ابواب الفضائل * وخصوصا في خلافيات
المسائل * واقام بأوزجند
الى ان فرغ من امر
الزفاف * وازيحت علته
في الانصراف * فعاد على
جناح النجاح ممحوبا
بحلوبات الترك من نقر
المعادن ونوافج المسك
وقود المراكب * وعيس
الركائب * وورود الوصفاء
والوصائف وبيض البزاة
وسود الاوبار ونصب
الختو واجبار الشب
وطرائف الصين وتحدث
الحال بين السلطان * وبين
ابلك الخان * اتحادا اشترك
فيه المراتع والنعم * واستهم
فيه الصنائع والخدم *
وبقيت على جملتها في
التأحد والتأكد الى أن
نزغ الشيطان بينهما
فنغلت الضمائر * وانحلت
للقوى والمرائر * وتولى
السيف تدبير ذلك الوصال
لحل معقوده * وفصل
مسروده * وسيأتي الشرح
على الوقائع التي جرت بينهما
على الاثر فأما الآن فاني
أشير الى بند من محاسن هذا الشيخ السفير * والكافل في الامر بالتدبير * واتبعه بذكر

*(ذكر

(ذكر ملك الكرج مدينة اني)

في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج مع ملكهم وساروا الى مدينة اني من بلاد ارمان وملكوها وقتلوا فيها خلقا كثيرا فانتدب لهم شاه أرمن بن ابرهيم بن سكمان صاحب خلاط وجمع العساكر واجتمع معه من المتطوعة خلق كثير وساروا اليهم فلقوه وقاتلوه فانهزم المسلمون وقتل اكثرهم وأسر كثير منهم وعاد شاه ارمن مهزوما لم يرجع معه غير أربعمائة فارس من عسكره

(ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى)

كان أمير مكة هذه السنة قاسم بن فليتة بن قاسم بن ابي هاشم العلوي الحسيني فلما سمع بقرب الحجاج من مكة صادر المجاورين وأعيان اهل مكة وأخذ كثيرا من أموالهم وهرب من مكة خوفا من أمير الحاج أرغش وكان قد حج هذه السنة زين الدين علي بن بكتكين صاحب جيش الموصل ومعه طائفة صالحة من العسكر فلما وصل أمير الحاج الى مكة رتب مكان قاسم بن فليتة عمه عيسى بن قاسم بن هاشم فبقي كذلك الى شهر رمضان ثم ان قاسم بن فليتة جمع جمعا كثيرا من العرب اطمعهم في مال له بمكة فاتبعوه فسار بهم اليها فلما سمع عمه عيسى فارقها ودخلها قاسم فاقام بها أميرا أياما ولم يكن له مال يوصله الى العرب ثم انه قتل قائدا كان معه حسن السيرة فتغيرت نيات أصحابه عليه وكاتبوا عمه عيسى فقدم عليهم فهرب وصعد جبل أبي قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم عليه قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلى عند أبيه فليتة واستقر الامر بعده لعيسى والله أعلم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن علي الى جبل طارق وهو على ساحل الخليج مما يلي الاندلس فعبر المجاز اليه وبنى عليه مدينة حصينة واقام بها عليه عدة شهور وعاد الى مراكش وفيها في المحرم ورد نيسابور جمع كثير من تركمان بلاد فارس ومعهم اغنام كثيرة للتجارة فباعوها وأخذوا الثمن ونزلوا على مرحلتين من طابس كمكلى وباتوا هناك فنزل اليهم الاسماعيلية وكبسوهم ليلا ووضعوا السيف فيهم فقتلوا اكثر واولم ينج منهم الا اليسير وغنم الاسماعيلية جميع ما معهم من مال وعروض وعادوا الى قلاعهم وفيها كثرت الامطار في اكثر البلاد ولا سيما خراسان فان الامطار توالت فيها من العشرين من المحرم الى منتصف صفر لم تنقطع ولا رأى الناس فيها شمسا وفيها كان بين الكرج وبين الملك صلتق بن علي صاحب ارزن الروم قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره وأسر هو وكانت اخته شاه بانو قد تزوجها شاه ارمن ابن سكمان بن ابراهيم بن سكمان صاحب خلاط فارسلت الى ملك الكرج هدية جليلة المقدار وطلبت منه ان يفاديها باخيها فاطلقه فعاد الى ملكه وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نور الدين محمود صاحب الشام ملتجئا اليه فامنه وسير معه عسكرا يمنعه من الفرنج ايضا فظهر عليهم في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وانهزم الباقون وفيها ملك قرا ارسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان وكانت لطائفة من الاكراد يقال لهم الجونية فلما ملكها خربها واضاف ولايتها الى حصن طالب وفيها توفي الكمال حمزة بن علي بن طلحة

رجالات خراسان * من اعيان رعايا السلطان * يمين الدولة وأمين الملة * ووجوه الفضل من أوليائه * فمن منثور كلامه قوله من تصدر قبل أوانه * فقد تصدى لهوانه * يشير الى قول منصور الفقيه الكلب أعلى همة وهو النهاية في الخساسة ممن ينافس في الرياسة قبل أوقات الرياسة وقوله العقل اطيب عيش * والعدل أغلب جيش * وقوله اذا كان رضا الخلق معسورا لا يدرك * فان ميسوره لا يترك * وقوله انما يحتاج الى اخوان العشرة * لامكان العسرة * وقوله من تغافل عنك مع علمه بحاجتك الى عونه وتوقيره * طلب عليك علة اذا عاتبته على تقصيره * كانه ألم فيه بقول القائل

توق الناس يا ابن أبي وأمي
فهم تبع المخافة والرجاء
ألم تر مظهرين على عتيبا
وكانوا أمس اخوان الصفاء
بليت بنكبة فغدوا وراحوا
علي أشد أسباب البلاء
ابت اقدارهم ان ينصروني
بمال او بجاه أو براء
وخافوا أن يقال لهم خذلتم
صديقا فادعوا قدم الجفاء

ولبعض أهل العصر فيه كلام الامام امام الكلام وفوه يفوه بحر النظام مزاج معانيه في نظمها

صاحب المخزن كان جليل القدر أيام المسترشد بالله وولى المقتفى وبنى مدرسة لاصحاب الشافعى بالقرب من داره ثم حج وعاد وقد لبس الفوط وزى الصوفية وترك الاعمال فقال بعض الشعراء فيه

يا عضد الاسلام يا من همت * الى العلا همته الفاخره
كانت لك الدنيا فلم ترضها * ملكا فاخلدت الى الآخره

وبقى منقطعا فى بيته عشرين سنة ولم يزل محترما يغشاه الناس كافة

(ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها)

فى هذه السنة فى السابع والعشرين من صفر نازل المؤيد أى ابه ابابكر جاندار بقلعة وسكرة خوى من طوس وكان قد تحصن بها وهى حصينة منيعة لا ترام فقاتله واعانه اهل طوس على أبى بكر لسوء سيرته كانت فيهم وظلمه فلما رأى ابو بكر ملازمة المؤيد وواصلة القتال عليه خضع وذل ونزل من القلعة بالامان فى العشرين من ربيع الاول من السنة فلما نزل منها حبسه المؤيد واعربقيده ثم سار منها الى كرستان وصاحبها ابو بكر فاخر فنزل من قلعته وهى من أمنع الحصون على رأس جبل عال وصار فى طاعة المؤيد ودان له ووافقه وسير جيشا فى جمادى الآخرة منها الى اسفرايين فتحصن رئيسها عبد الرحمن بن محمد بن على الحاج بالقلعة وكان أبوه كريم خراسان على الاطلاق ولكن كان عبد الرحمن هذا بئس الخلف فلما تحصن احاط به العسكر المؤيدى واستنزلوه من الحصن وحملوه مقيدا الى شاذياخ وحبس بها وقيل فى ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وملك المؤيد أيضا قهندز نيسابور واستدارت مملكة المؤيد حول نيسابور وعادت الى ما كانت عليه قبل الان أهلها انتقلوا الى شاذياخ وخربت المدينة العتيقة وسير المؤيد جيشا الى خواف وبها عسكر مع بعض الامراء اسمه ارغش فكمن ارغش جمعا فى تلك المضايق والجبال وتقدم الى عسكر المؤيد فقاتلهم وطلع الكمين فانهزم عسكر المؤيد وقتل منهم جمع وعاد الباقون الى المؤيد بنيسابور وسير جيشا الى بوشنج هراة وهى فى طاعة الملك محمد بن الحسين الغورى فحصروها واشتد الحصار عليها واقام القتال والزحف فسير الملك محمد الغورى جيشا اليها يمنع عنها فلما قاربوا هراة فارقها العسكر الذى يحصرها وعادوا عنها وصفت تلك الولاية للغورية

(ذكر أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها اليه)

فى هذه السنة أرسل أهل غرناطة من بلاد الاندلس وهى لعبد المؤمن الى الامير ابراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه اليهم ليسلموا اليه البلد وكان قد وحد وصار من أصحاب عبد المؤمن وفى طاعته وممن يحرضه على قصد ابن مردنيش فلما وصل اليه رسل أهل غرناطة سار معهم اليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذى كان عنده وتوجه الى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم فعلم بذلك ابراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الاندلس فارسل اليه الى فارس من انجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحى غرناطة فالتقوا هم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن قبل وصول ابى سعيد

نعم زاج المدام بماء الغمام
وله فيه
الا أيها الشيخ الامام ومن به
تبلج افق الدهر عن فاق البشر
لئن كنت فى الدنيا وانت وشاحها
عيانا فان الدر فى صدف البحر
ولم تحوك الدنيا لانك دونها
ولكن اب الشئ يحصن بالقشر
وقد صين نصل السيف تحت قرابه
كما صين نور العين بالجفن والشفر
ومن أعيان رعايا السلطان بنيسابور ابو نصر أحمد ابن على بن اسمعيل المكالى وهو صنيعة السلطان وشيخ مملكته * وجمال جماعته * فضلا موفورا * وأدبا مشهورا * وعزا معقودا * ومالا ممدودا * ورأيا كالدرى مشارا * وحزما كالمرئ مغارا * ودهاء يسلخ الليل البهيم نهارا * ونظرا يستشف أستار المضائر * فيستكشف اسرار الضمائر * وشعرا نقى السبك والجوهر * ذكى المسك والعنبر * رضى المورد والمصدر * فمنه قوله
بانى العلا والمجد والاحسان
والفضل والمعروف اكرم بانى
ليس البناء يشاد بالاحسان
البر اكرم ما حوته حقيبة
والشكر اكرم ما حوته يدان
واذا الكريم مضى وولى عمره
كفل الثناء له بعمر ثانى

اليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم ابو سعيد واقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الاعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ ابو سعيد ولحق بمالقة وسمع عبد المؤمن الخبر وكان قد سار الى مدينة سلا فسير فى الحال ابنه أبا يعقوب يوسف فى عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجدوا المسير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه الى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش فى الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذى أمر به ابن همشك اولا وهم الفارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبد المؤمن الى جبل قريب من غرناطة فاقاموا فى سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذى بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جهاتهم فحالحقوا يركبون فقتلوهم عن آخرهم واقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحى غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك انهم لا طاقة لهم بهم ففروا فى الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة فى باقى السنة المذكورة وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا الى مراكش

(ذكر حصر نور الدين حارم)

فى هذه السنة جمع نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الشام العساكر بحلب وسار الى قلعة حارم وهى للفرنج غربى حلب فحصرها وجد فى قتالها فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه اليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه فلما رأى انه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه الى المصاف عاد الى بلاده وممن كان معه فى هذه الغزوة مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن منقذ الكنانى وكان من الشجاعة فى الغاية فلما عاد الى حلب دخل الى مسجد شيزر وكان قد دخله فى العام الماضى سائرا الى الحج فلما دخله الآن كتب على حائطه

لك الحمد يا مولاى كم لك منة * علىّ وفضل لا يحيط به شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلا * من الغزو موفور النصيب من الاجر
ومنه رحلت العيس فى عامى الذى * مضى نحو بيت الله والركن والحجر
فاديت مفروضى واسقطت ثقل ما * تحملت من وزر الشبيبة عن ظهرى

(ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكى)

فى هذه السنة فى رجب ملك الخليفة المستنجد بالله قلعة الماهكى وسبب ذلك ان سنقر الهمذانى صاحبها سلمها الى أحد مماليكه ومضى الى همذان فضعف هذا المملوك عن مقاومة ما حولها من التركمان والاكراد فاشير عليه ببيعها من الخليفة فراسل فى ذلك فاستقرت على خمسة عشر الف دينار وسلاح وغير ذلك من الامتعة وعدة من القرى فسلمها وتسلم ما استقر له وأقام ببغداد وهذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله بايدى التركمان والاكراد الى الآن

(ذكر الحرب بين المسلمين والكرج)

فاما كتابه فالسحر الحلال * والعذب الزلال * فهى تحكى بما تحويه من لطف العباره * وحسن الاستعاره * ومعسول الاشارة والشاره * رياض ميناه الى قراره * ومن منثور كلامه رسائل منها ما كتب به الى شمس المعالى قابوس بن وشمكير اقرأتيه كاتبه بسم الله الرحمن الرحيم كتب العبد وحاله فيما يديمه مولاه * من شرف اقباله ورضاه * ويفيضه عليه من ملابس فضله ونعماه * حال من تقبل عليه دنياه * ويسعد فى ظل دولته بأولاه واخراه * والحمد لله رب العالمين وصل كتاب الامير موشحا بدرر خطابه * وغرر ايجابه * وبدائع بره وافضاله * وروائع انعامه واشباله * فيما اكرمنى به من عز العباده * وألبسنيه من حلل الفوز والسعاده * وشرفنى به على التهنئة على العافية المستفاده * فأوصل عزا يبقى على الايام أثره * ولا يخلق على مر الزمان ذكره ومفخره * وفهمه العبد فهم من آنس منه رشدا * واقتبس من اثنائه قوة وأيدا * ومجد لله شكرا على ما افاض عليه من سجال السلامه * ومتد عليه من ظلال الفضل والكرامه * ورغب اليه * فى اسباغ العوارف عليه * وصرف المحاذر عنه فأما ما أهل الامير العبد له من

في هذه السنة في شعبان اجتمعت الكرج في خلق كثير يبلغون ثلاثين ألف مقاتل ودخلوا بلاد الاسلام وقصدوا مدينة دوين اذربيجان فملكوها ونهبوها وقتلوا من أهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتيل وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعروا النساء وقادوهن حفاة عراة وأحرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا الى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوا بنساء المسلمين وقلن لهم قد أحوجتم المسلمين الى أن يفعلوا بنا مثل ما فعلتم بنسائهم وكسونهن ولما بلغ الخبر الى شمس الدين ايلدكز صاحب اذربيجان والجبل واصفهان جمع عساكره وحشدها وانضاف اليه شاه أرمن بن سكمان القطبي صاحب خلاط وابن آقسنقر صاحب مراغة وغيرها فاجتمعوا في عسكر كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل وساروا الى بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين ونهبوها وسبوا النساء والصبيان وأسروا الرجال ولقيهم الكرج واقتتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر وكان الظفر للمسلمين فانهزم الكرج وقتل منهم كثير وأسر كذلك وكان سبب الهزيمة ان بعض الكرج حضر عند ايلدكز فاسلم على يديه وقال له تعطيني عسكرا حتى أسيرهم في طريق أعرفها واجيء الى الكرج من ورائهم وهم لا يشعرون فاستوثق منه وسير معه عسكرا وواعده يوما يصل فيه الى الكرج فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكرج فبينما هم في القتال وصل ذلك الكرجي الذي أسلم ومعه العسكر وكبروا وحملوا على الكرج من ورائهم وكثر القتل فيهم والاسر وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الاحصاء لكثرته فانهم كانوا متيقنين الظفر لكثرتهم فخيب الله ظنهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها وعاد المسلمون منصورين قاهرين

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة وصل الحجاج الى منى ولم يتم الحج لاكثار الناس لصدهم عن دخول مكة والطواف والسعي فمن دخل يوم النحر مكة طاف وسعى وكمل ومن تأخر عن ذلك منع دخول مكة لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة كان سببها ان جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم الى مكة وجمعوا جمعا وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا منها قريبا من ألف جمل فنادى أمير الحاج في جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم فقتل جماعة ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد وعاد كثير من الناس رجالة لقلة الجمال ولشدة ومن حج هذه السنة حدثنا أم أينا فاتتها الطواف والسعي فاستفتى لها الشيخ الامام أبو القاسم بن البرزي فقال تدوم على ما بقي عليها من احرامها وان أحبت تفدي وتحل من احرامها الى قابل وتعود الى مكة فتطوف وتسعى فتكمل الحجة الاولى ثم تحرم احراما ثانيا وتعود الى عرفات فتقف وترمي الجمار وتطوف وتسعى فتصير لها حجة ثانية فبقيت على احرامها الى قابل وحجت وفعلت كما قال فتم حجها الاول والثاني وفيها نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار واخر نيسان وكان أكثره بجوين ونيسابور وطوس والاهما فاهلك الغلات ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام وفيها في جمادى الآخرة وقع الحريق ببغداد احترق سوق الطيورين والدور

التي

شريف كتابه * ولطيف خطابه * ورفاه اليه من درجة العبادة اولا * ومنزلة التهنئة ثانيا * وانفاذ القاصد به ثالثا * فان ذلك من نتائج همته العالية * ودواعي شيمته الزاكية * التي تحفزه على اوليائه وخدمه * وتعطفه على اغذياء نعمه * فليس له في مقابلة ما اولاه * ومعارضة ما كساه * الا الشكر بيديه والنشر بقيمه * والرغبة الى الله تعالى يخلصها في اطالة بقائه * وادامة عزه وعلائه * وانهاضه بواجب خدمته * ومعرفة قدر نعمته بمنه ورحمته * هذا ولو ملك العبد في مقابلة هذه النعمة على جلالة قدرها * ونباهة خطرها وذكرها * غير بذل المهجة والقرونة في الطاعة * واستنفاد الوسع والطاقة * غاية لبلغها تقربا الى حقوقه بما يقتضيها * ويؤدي شرط العبودية فيها * وحكم على نفسه بالعجز والتقصير معها واذ قد حرم المراد فما يتمسك الا بالرغبة الى الله تعالى في أن يتولى من مكافأته بما لا يسمح به الايد * ولا يفي به الا مجده * فهذا هو الكلام الذي ليس به عثار * ولا عليه غبار * قد ولى الفضل تحبيره * وملك العقل وسمه وتصويره * والقليل منه على الكثير دليل * وكلام الجليل كقدره جليل * كما قيل

التى تليه مقابله الى سوق الصفرة الجديد والخان الذى فى الرحبة ودكاكين البزوريين وغيرها وفيها توفى الكيا الصباحى صاحب ألموت مقدم الاسماعيلية وقام ابنه مقامه فاظهر التوبة وأعاد هو ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان وأرسلوا الى قزوين يطلبون من يصلى بهم ويعلمهم حدود الاسلام فارسلوا اليهم وفيها فى رمضان درس شرف الدين يوسف الدمشقى فى المدرسة النظامية ببغداد وكان مدرسا بمدرسة أبى حنيفة وكان موته فى ذى القعدة وفيها توفى صدقة بن وزير الواعظ وفيها فى المحرم توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل وهو من الشام من بلد بعلبك فانتقل الى الموصل وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحى وأطاعوه وحسنوا الظن فيه وهو مشهور جدا

(ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة)

(ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده)

فى هذه السنة فى صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوى صاحب مصر وكان ابتداء أمره ووزارته انه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فاقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الاعمال بعد الوزارة فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل انه لا يغير على شاور فانى انا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنى عزله فلا تغير وامابه فيكون لكم منه ما تكرهون فلما توفى الصالح من جراحته وولى ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمال بعضهم مكانه وخوفوه منه ان أقره على عمله فارسل اليه بالعزل فجمع جموعا كثيرة وسار الى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك فأخذ وقتل فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهرا وأياما وصار شاور وزيرا وتلقب بامير الجيوش وأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم وأخذ منه أيضا طى والكامل ابنا شاور شيأ كثيرا وتفرق كثير منها وجحد وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين الى الاتراك ثم ان الضرغام جمع جموعا كثيرة ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان وظهر أمره وانهزم شاور منه الى الشام على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وصار ضرغام وزيرا كان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزيك وشاور وضرغام فلما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الامراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن أيديهم

(ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف)

فى هذه السنة فى العشرين من جمادى الآخرة توفى عبد المؤمن بن على صاحب بلاد المغرب وافريقية والاندلس وكان قد سار من مراكش الى سلا فمرض بها ومات ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم قد جربت ابنى محمدا فلم أره يصلح لهذا الامر وانما يصلح له ابنى يوسف وهو أولى بها فقدموه ووصاهم به وبايعوه ودعى بامير المؤمنين وكتموا موت عبد المؤمن وحمل من سلا فى محفة بصورة مريض الى ان وصل الى مراكش وكان ابنه

قليل منك يكفينى ولكن
قليلك لا يقال له قليل

وقد اكثر الشعراء فى مدحه لكنى اثبت أبياتا لابى بكر الخوارزمى من قصيدة فيه اولها

زف المنام الى طيف خياله
لو أن طيفا كان من ابدا له
لو أن هذا الدهر يشكر لم يدع
شكر الامير وقد غدا من آله
لا يترف الالحاح نائله ولا
سؤل امرئ ينهاه عن اسآله
الوفر عند نواله والنيل عند
سؤاله والموت عند صياله
والخلق من سؤاله والجود من
عداله والدهر من عماله
وفعاله كفاله وشماله
كيمينه ويمينه كشماله
تجمع الآمال فى أموالها
فيفرق الاموال فى آماله
لا علم الاعزه فى عزه
لا حر الا عاله من حاله
وله علوم لو قسمن على الورى
مازاد عاقله على جهاله
وخلائق لو انهن كواكب
اضحى السها فى الضوء مثل هلاله

وفصول قول هن اعذب مسمعا
من راحة المشغول من أشغاله
سمح البديهة ليس يسئل لفظه
فكأنما القاظ من ماله
وكأنما عزماته وسيوفه
من حذهن خلقن من آجاله
متبسم فى الخطب تحسب انه
من حسنه متلثم بفعاله

أبو حفص فى تلك المدة حاجبا لابيه فبقى مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس أمير المؤمنين أمر بكذا ويوسف يقعد مقعد أبيه الى ان كملت المبايعة له فى جميع البلاد واستقرت قواعد الامور له ثم أظهر موت أبيه عبد المؤمن فكانت ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وشهورا وكان عاقلا حازما سديد الرأى حسن السياسة للامور كثير البذل للاموال الا انه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويقويه ويلزم الناس فى سائر بلاده بالصلاة ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قتل وجمع الناس بالغرب على مذهب مالك فى الفروع وعلى مذهب أبى الحسن الاشعرى فى الاصول وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين المرجع اليهم والكلام معهم ولهم

(ذكر ملك المؤيد اعمال قومس والخطبة للسلطان ارسلان بخراسان)

فى هذه السنة سار المؤيد أى ابه صاحب نيسابور الى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان واستناب بقومس مملوكه تنكز فاقام تنكز بمدينة بسطام فجرى بين تنكز وبين شاه مازندران اختلاف أدى الى الحرب فجمع كل منهما عسكره والتقوا أوائل ذى الحجة فى هذه السنة واقتتلوا فانهزم عسكر مازندران وأخذت اسلابهم وقتل منهم طائفة كبيرة ولما ملك المؤيد بلاد قومس أرسل اليه السلطان ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعا نفيسة وألوية معقودة وهدية جليلة وامره ان يهتم باشعاث بلاد خراسان ويتولى ذلك اجمع وان يخطب له فلبس المؤيد الخلع فخطب له فى البلاد التى هى بيده وكان السبب فى هذا اتابك شمس الدين ايلدكز فانه كان هو الذى يحكم فى مملكة ارسلان وليس لارسلان غير الاسم وكان بين ايلدكز وبين المؤيد مودة ذكرناها عند قتل المؤيد فلما اطاع المؤيد السلطان ارسلان خطب له ايلدكز وبين المؤيد مودة ذكرناها عند قتل المؤيد فلما اطاع المؤيد السلطان ارسلان خطب له ببلاده وهى قومس ونيسابور وطوس واعمال نيسابور جميعها ومن نسا الى طبس كنكلى وكان يخطب لنفسه بعد ارسلان وكانت الخطبة فى جرجان ودهستان لخوارزمشاه بن ارسلان بن اتسز وبعده للامير ايشاق وكانت الخطبة فى مرو وبلخ وهراة وسرخس وهذه البلاد بيد الغز الا هراة فانها بيد الامير اينكين وهو مسالم للغز فكانوا يخطبون للسلطان سنجر فيها فيقولون اللهم اغفر للسلطان السعيد المبارك سنجر وبعده للامير الذى هو الحاكم فى تلك البلاد

(ذكر قتل الغز ملك الغور)

فى هذه السنة فى رجب قتل سيف الدين محمد بن الحسين الغورى ملك الغور وقتله الغز وسبب ذلك انه جمع عساكره وحشد فاكثر وسار من جبال الغور يريد الغز وهم ببلخ واجتمعوا وتقدموا اليه فاتفق ان ملك الغور خرج من معسكره فى جماعة من خاصته جريدة فسمع به امراء الغز فسارو ايطلبونه مجدين قبل ان يعود الى معسكره فاوقعوا به فقاتلهم اشد قتال رآه الناس فقتل ومعه نفر ممن كان معه واسر طائفة وهربت طائفة فلحقوا بعسكرهم وعادوا الى بلادهم منهزمين لا يقف الاب على أبيه ولا الاخ على أخيه وتركوا كل ما معهم بحاله ونجوا بنفوسهم فكان عمر ملك الغور لما قتل نحو عشرين سنة وكان عادلا حسن السيرة فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم انه حاصر أهل هراة فلما ملكها أراد عسكره ان ينهبوها فنزل على درب المدينة واحضر الاموال والثياب فاعطى جميع عسكره منها وقال هذا خير من ان تنهبوا

هبنى وقيت بجهده عن فضله
من ذا ينى بالشكر عن افضاله
(وله أيضا من قصيدة أولها)
تلك الديار فريسة الاحقاب
صنعت بعينى صنع ساكنها بى
والى الامير ابن الامير تواهقت
وزحى الركاب برازحى الركاب
ابسوا الدجى لبس الغراب
لريشه
وغدوا الحاجتهم غدو غراب
والفجر يعرف والظلام كأنه
فضلات عتب فى خلال عتاب
طلبوا امرأ أفعاله محسوبة
ونواله فوضى بغير حساب
غدت المدائح وهى أسماء له
ولغيره اصبحن كالالقاب
والمكرمات كثيرة الخطاب
الا أنها تأبى على الخطاب
متبسم الحجاب مكتئب العدى
مثرى الندى مجازف الحساب
شيم أرق من الهوى وألذ من
خطا العدو وردد ته بصواب
وعزائم لو كن يوما أسهما
لنفذن فى الايام غير نوابى
مائية الحركات الا أنها
نارية الاقدام والالهاب
يخطرن بين سياسة ورياسة
ويتهن بين مثوبة وعقاب
قد اصبحت الفاظه صور النهى
وقوالب الاسماع والالباب
واذا حللت له جنابا واحدا
حل المؤمل منك الف جناب
وما آل ميكال الا كما قال
أبو الطمحان القينى
وانى من القوم الذين هم هم
اذا ابتدروا مسعى فاسم صاحبه

أموال المسلمين وتسخطوا الله تعالى فان الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم ولما قتل عاد الغزالي بلخ وصرو وقد غنموا شيأ كثيرا من العسكر الغوري لان أهله تركوه ونجوا

(ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج)

في هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكي من الفرنج تحت حصن الاكراد وهي الوقعة المعروفة بالبقيعة تحت حصن الاكراد محاصرا له وعازما على قصد طرابلس ومحاصرتها فبينما الناس يوما في خيامهم وسط النهار لم يرعهم الا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الاكراد وذلك ان الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا فانهم يكونون آمنين فركبوا من وقتهم ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون الا وقد قربوا منهم فاراد وا منعهم فلم يطيقوا ذلك فارسلوا الى نور الدين يعرفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج في ظهورهم فوصلوا معا الى العسكر النوري فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح الا وقد خالطوهم فاكثروا القتل والاسر وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي فانه كان قد خرج من بلاده الى الساحل في جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين في زعمهم فلم يثبتوا على أحد وقصدوا خيمة نور الدين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه واسرع عتمه وركب الفرس والشبحة في رجله فنزل انسان كردي قطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي فاحسن نور الدين الى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة قدس بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة أربع فراسخ وتلاحق به من سلم من العسكر وقال له بعضهم ليس من الرأي ان نقيم ههنا فان الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء الينا فنؤخذ ونحن على هذا الحال فوبخه وأسكته وقال اذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا ابالي بهم ووالله لا استظل بسقف حتى آخذ بثاري وثار الاسلام ثم أرسل الى حلب ودمشق واحضر الاموال والثياب والخيام والسلاح والخيل فاعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم فعاد العسكر كان لم تصبه هزيمة وكل من قتل أعطى اقطاعه لاولاده واما الفرنج فانهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لانها أقرب البلاد اليهم فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا لم يفعل هذا الا وعنده قوة يمنعنا بها ولما رأى أصحاب نور الدين كثرة خوفه قال له بعضهم ان لك في بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت في هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال والله اني لا ارجو النصر الا بأولئك فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطى واصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطى وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحل لي ان أعطيه غيرهم ثم ان الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم

(ذكر اجلاء بني أسد من العراق)

في هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله باهلاك بني أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر من فسادهم ولما كان في نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمدا لما حصر بغداد فامر

نجوم سمناه كلما غاب كوكب
بدا كوكب تأوي اليه كواكبه
اضاءت لهم احسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
ومازال منا حيث كان مسود
نسير المنايا حيث سارت كتائبه

(ومما يعد من مفاخره مجيبا له)

ابو الفضل وابو ابراهيم عبيد الله واسمعيل ابنا احمد كل منهما بدر في ضيائه وعلائه * وبحر في تياره وغنائه * غير ان أبا الفضل ابرع في لطائف الادب * وأنظم لقلائد شعر العرب * وقد سار له من النظم والنثر ما يزري حبره بوشي صنعاء * وزهره بروض مياه * (فمن فصول كلامه قوله) وصل كتاب الشيخ فأذعنت القلوب لفضله بالاعتراف * واختلفت الالسن في وصفه بدائع الاوصاف * فمن مدع انه رقية الوصل * وريقة النحل * ومنتحل انه عقد النحر * وعقد السحر * وسمط الدر * وفائل هو سلاف العقود * ونظم العقود * فأما انا فتركت التمثيل * وسلكت التحصيل * وقلت هو سماء فضل جاد بصوب الحكم * ووشي طبع حاكه سن القلم * ونسيم خلق تنفس عنه روض الكرم * (وأيضا له) وصل كتابك فكان احسن من روض

يزدن بن قماج بقتالهم واجلائهم من البلاد وكانوا منبسطين فى البطائح واللور فلا يقدر عليهم فتوجه يزدن اليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل وأرسل الى ابن معروف مقدم المنتفق وهو بارض البصرة فجاء فى خلق كثير وحصرهم وسكر عنهم الماء وصابرهم مدة فارسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجزه وينسبه الى موافقته فى التشيع وكان يزدن بتشيع فجد هو وابن معروف فى قتالهم والتضييق عليهم وسد مسالكهم فى الماء فاستسلموا حينئذ فقتل منهم أربعة آلاف قتيل ونودى فيمن بقى من وجد بعد هذا فى الحلة المزيدية فقد حل دمه فتفرقوا فى البلاد ولم يبق منهم بالعراق من يعرف وسلمت بطائحهم الى ابن معروف وبلادهم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة وقع فى بغداد حريق فى باب درب قراشا الى مشرعة الصباغين من الجانبين وفيها فى رجب توفى سديد الدولة أبو عبد الله بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم المعروف بابن الانبارى كاتب الانشاء بديوان الخلافة وكان فاضلا أديبا ذا تقدم كثير عند الخلفاء والسلاطين وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة الى الآن فى ديوان الخلافة وعاش حتى قارب تسعين سنة وتوفى فى رمضان هبة الله بن الفضل بن عبد العزيز بن محمد المتوثى وسمع الحديث وهو من الشعراء المشهورين الا انه كثير الهجو ومن شعره

يا من هجرت ولا تبالى * هل ترجع دولة الوصال
هل اطمع يا عذاب قلبى * ان ينعم فى هواك بالى
الطرف كما عهدت بالك * والجسم كما ترين بال
ما ضرك ان تعللينى * فى الوصل بموعد المحال
اهوالك وأنت حظ غيرى * يا قاتلتى فما احتيالى

وهى اكثر من هذا

(ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة)

(ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين الى ديار مصر وعودهم عنها)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرا كثيرا الى مصر وجعل عليهم الامير أسد الدين شيركوه بن شاذى وهو مقدم عسكره وأكبر امرائه ودولته وشجعهم وسنذكر سنة أربع وستين سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده ان شاء الله تعالى وكان سبب ارسال هذا الجيش ان شاور وزير العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر نازعه فى الوزارة ضرغام وغلب عليها فهرب شاور منه الى الشام ملتجئا الى نور الدين ومستجيرا به فاكرم مثواه واحسن اليه وانعم عليه وكان وصوله فى ربيع الاول من السنة وطلب منه ارسال العساكر معه الى مصر ليعود الى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد اقطاعات العساكر ويكون شيركوه مقيما بعساكره فى مصر ويتصرف هو بامر نور الدين واختياره فبقى نور الدين يقدم الى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة يحمله رعاية قصد شاور وبابه وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وان الفرنج فيه وتخوف أن شاور ان استقرت قاعدته ربما لا يفى ثم قوى عزمه على ارسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وازاحة

علتها

فلقبته بجلبة الاحسان والابداع * وحلية النواظر والاسماع * ومسن الخواطر والطباع * وصيقل الافكار والالباب * وعيار المعارف والآداب * واجتلبت منه تيمة فضل ويتيمة مجد * وثمينة عقد * ولطيمة خلق وعنيمة بر يجلو صفحة العهد * ويجيل قدح الانس ويجل عن قدر الشكر * كلام أعذب من فرات المطر * وأعبق من فتات المسك والعنبر * يزرى بنور الخمائل * وقد عطرتها انفاس الشمائل (ومن منثور ألفاظه) اخلاقك قد أخذت من الورد عرفه * ومن الند عبقه * اخلاق هى المسك لولا فارته * والورد لولا مرارته * والماء لولا اسراعه الى الكدر * والروض لولا حاجته الى المطر * ووجه البدر لولا محاقه * والمشترى لولا احتراقه هو عار من العوراء * كامن من العلاء * وله الشرف المنيف * والامر المطاع * والعرض المصون والمال المضاع * والنوال السكب * والرأى العضب * وفيه الاباء المز * والكرم العذب وهو واحد البشر * وثانى المطر * وثالث الشمس والقمر * لهفى على دهر الحداثة اذ غصن شبابى غض ورديق * ونقل شرابى عض وريق *

علاها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى بمخافة فتجهز وسار واجميعا وشاور فى صحبتهم فى جمادى الاولى من سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين الى شيركوه أن يعيد شاورا الى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين الى طرف بلاد الفرنج مما يلى دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لاسد الدين ومن معه فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين ووصل أسد الدين والعساكر معه الى مدينة بلبيس فخرج اليهم ناصر الدين اخو ضرغام بعسكر المصريين والتقيهم فانهزم وعاد الى القاهرة ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ثم حمل ودفن فى القرافة وقتل أخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد الى الوزارة وتمكن منها وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به شاور وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولاسد الدين أيضا وأرسل اليه يأمره بالعود الى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور الى ذلك فلما رأى ذلك أرسل الى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فارسل شاور الى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك ان تم ملكه لها فلما رسل شاور يطلب منهم ان يساعدوه على اخراج اسد الدين من البلاد جاءهم فرجح لم يحتسبوه وسارعوا الى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى تلك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير اليه وتجهز واوساروا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره الى اطراف بلادهم ليمنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم ان الخطر فى مقامهم اذا ملك اسد الدين مصر أشد فتركوا فى بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس فى الباقين الى مصر وكان قد وصل الى الساحل جمع كثير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فاعانوهم فسار بعضهم معهم واقام بعضهم فى البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس فاقام بها هو وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو يمتنع بها مع ان سورها قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها وهو يفاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولا نالوا منه شيأ فبينما هم كذلك اذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وملك نور الدين حارم ومسيره الى بانياس على ما نذكره ان شاء الله تعالى فحينئذ سقط فى أيديهم وأرادوا العودة الى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود الى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها الى المصريين فاجابهم الى ذلك لانه لم يعلم ما فعله نور الدين بالشام بالفرنج ولان الاقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس قال اخرج اصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم وبيده ثلاث من حديد يحمى ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون اليه قال فاتاه فرنجى من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له أما تخاف ان يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وباصحابك ولا يبقى لكم بقية فقال شيركوه يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما افعله كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا ووفى شجعانهم

النعمة عروس مهرها الشكر * ونور صوانه النشر * النعمة عنده من لؤمه تكتسى أطمارا * وتشتكى غربة واسارا * ولى المغرور يرسف من الرعب فى حلق * ويجرى مع الريح فى طلق * دارت رحا الحرب بين أحمر تباح * ودماء تستباح * وأجسام تطاح * وأرواح تسفى بها الرياح * فالسيوف للهامات دامغه * والرماح فى الاكباد والغه * ومن نظمه قوله

لقد راعنى بدر الدجى بصدوده
ووكل أجفانى برعى كواكبه
فيا جزعى مهلا عساه يعود لى
ويا كبدى صبرا على ما كوالك به

وقوله أيضا

ضاق صدرى فى هوى قمر
قمر القلب وماشعرا
ليت أجفانى به سعدت
فترى الجفن الذى فترا

وقوله أيضا

تفرق قلبى فى هواه فعنده
فريق وعندى شعبة وفريق
اذا ظمئت نفسى أقول له
اسقنى
فان لم يكن راح لديك فريق

وقوله

أنكرت من أدمعى تترى
سواكبها
سلى جفونى هل أبكى سوالك بها

فقتلت بلادهم ونهبت فمن بقى والله لو أطاعنى هؤلاء لخرجت اليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا فصلب على وجهه وقال كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم فى صفقتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم ثم رجع عنه وسار شركوه الى الشام فوصل سالما وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق فى الطريق رصدا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق ففيه يقول عمارة

اخذتم عن الافرنج كل ثنية * وقلتم لأيدى الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا فى البر جسرا فانكم * عبرتم بحر من حديد على الجسر

ولفظة مرى فى آخر البيت الاول اسم ملك الفرنج

(ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم)

فى هذه السنة فى شهر رمضان فتح نور الدين محمود بن زنكى قلعة حارم من الفرنج وسبب ذلك ان نور الدين لما عاد منهزما من البقيعة تحت حصن الاكراد كما ذكرناه قبل فرق الاموال والسلاح وغير ذلك من الآلات على ما تقدم فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا واخذ فى الاستعداد للجهاد والاخذ بثاره واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم الى مصر كما ذكرناه فأراد ان يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر فارسل الى اخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة والى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا والى نجم الدين ايلى صاحب ماردين وغيرهم من اصحاب الاطراف يستنجدهم فاما قطب الدين فانه جمع عسكره وسار مجدا وفى مقدمته زين الدين على أمير جيشه وأما فخر الدين صاحب الحصن فبلغنى عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه على أى شئ عزمت فقال على القعود فان نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة وهو يلقى نفسه فى المهالك فكلهم وافقه على هذا الرأى فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك ما عدنا نعمل بدا فارقنا لك امس على حالة فنراك اليوم على ضدها فقال ان نور الدين قد سلك معى طريقا ان لم انجده خرج أهل بلادى عن طاعتى واخرجوا البلاد عن يدى فانه قد كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكرهم ما لقى المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والاسر ويستمد منهم الدعاء ويطلب ان يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من اولئك ومعه اصحابه واتباعه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويبكون ويلعنونى ويدعون على فلا بد من المسير اليه ثم تجهز وسار بنفسه واما نجم الدين فانه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف اليها فاجتمع من بقى بالساحل من الفرنج فجاؤا فى حشدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم واقبلوا اليهم من كل حدب ينسلون وكان المقدم عليهم البرنس بيمند صاحب انطاكية وقمص صاحب طرابلس واعمامها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدولة وهو مقدم كبير من الروم وجمعوا الفارس والراجل فلما قاربوه رحل عن حارم الى ارتاح طامعا ان يتبعوه فيمكن منهم ببعدهم عن بلادهم اذا لقوه فساروا فنزلوا على غمر ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا الى حارم فلما عادوا تبعهم نور الدين فى ابطال المسلمين على تعبية الحرب فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج فقبل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأى

وقوله
ان لى فى الهوى لسانا كتوما
وفؤادا يخفى حريق جواه
غيرانى أخاف دمعى عليه
ستراه يفشى الذى ستراه
وقوله
لنا صديق ان رأى
مهفهفا لاطائه
فان يكن فى دهرنا
ذو أبنة لاط فهو
وقوله
لا تصحبن بالحياة ذا ثقه
فكل نفس للممنون ذا ثقه
وقوله
وكل غنى يتيه به غنى
فرتجع لموت أو زوال
فهب جدى زوى لى الارض طرا
أليس الموت يزوى ما زوى لى
ومن أفاضل العلوية ابو البركات على بن الحسين بن على بن جعفر بن محمد وهو الملقب بجور بن الحسين ابن على وهو الملقب بالديباج المدفون بجرجان ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن امير المؤمنين على ابن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين
نسب توارث كابرا عن كابر
كالرمح أنبوبا على انبوب
قد جمع الله له بين ديباجتى النظم والنثر فنثره منثور الرياض جادتها السحائب ونظمه منظوم العقود

دبروه وهوان يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف فاذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلا يلجؤن اليه ولا وزيرا يعتمدون عليه ويعود المنهزمون في آثارهم فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فكان الامر على ما دبروه فان الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف عليهم زين الدين علي في عسكر الموصل على راجل الفرنج فافناهم قتلا واسرا وعاد خيالتهم ولم يعنوا في الطلب خوفا على راجلهم فعاد المنهزمون في آثارهم فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى واسرى فسقط في ايديهم ورأوا أنهم قد هلكوا وبقوا في الوسط قد احدق بهم المسلمون من كل جانب فاشتدت الحرب وقامت على ساق وكثر القتل في الفرنج وتمت عليهم الهزيمة فعدل حينئذ المسلمون عن القتل الى الاسر فاسروا ما لا يحد وفي جملة الاسرى صاحب انطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج واشدهم شكيمة على المسلمين والدولة مقدم الروم وابن جوسلين وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل واشار المسلمون على نور الدين بالمسير الى انطاكية وتملكها فانها من حام يحميها ومقاتل يذب عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فامرها سهل واما القلعة فمنيعة وربما سلموها الى ملك الروم لان صاحبها ابن أخيه ومجاورة بعضهم الى من مجاورة صاحب قسطنطينية وبث السرايا في تلك الاعمال فنهبوها واسروا أهلها وقتلوهم ثم انه فادى برنس بعضهم صاحب انطاكية واشترى من المسلمين خلقا كثيرا فاطلقهم

* (ذكر ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضا) *

في ذي الحجة من هذه السنة فتح نور الدين محمود قلعة بانياس وهي بالقرب من دمشق وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود الى بلادهم واظهر انه يريد طبرية فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها فسار محمود الى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين اميرأميران فاصابه سهم فاذهب احدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له لو كشف لك عن الاجر الذي اعدلك لتمنيت ذهاب الاخرى وجد في حصارها فسمع الفرنج فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى قصدها على ان الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الفرنج في أعمال طبرية وقرروا له على الاعمال التي لم يشاطرهم عليها مالا في كل سنة ووصل خبر ملك حارم وحصن بانياس الى الفرنج بمصر فصالحوا شيركوه وعادوا اليدركوا بانياس فلم يصلوا لا وقد ملكها ولما عاد منها الى دمشق كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الاشجار ملتفة الاغصان فلما أبعد عن المكان الذي ضاع فيه علم به فأعاد اصحابه في طلبه ودلهم على المكان الذي كان آخر عهده به فيه وقال أظنه هناك سقط فعادوا اليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة ويذكر الجبل الياقوت

ان يعتر الاشكال فيك بأنك المهدي مطفئ جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذي اضللته * بالامس بين غياطل وجبال

زانتها الصور والترائب *
فمن نثره فصل له أحب أن
تكون مكاتبتي للامير أنضا
لم ترتع * وبكرا لم تفترع
وسائبة لا تركب ولا تحلب
فلا أشوبها بأرب * ولا
أتسبب اليها بسبب * فعل
من لا يشين ولا يطمع * ولا
يشوب دعواه عنت ولا
طمع * على أن الاضطرار
يغير في وجه الاختيار *
والعذر فيه مقبول عند
ذوي الاخطار والاحرار *
وفلان يمسني بحق الجوار *
ولقد نشر جرائد شكره *
وأظهر بحسن النشر خبايا
بره * فلأ الارض ثناء *
والسماء دعاء * وعادة الامير
أن يحيي الآمال * ويسترق
الاحرار بالاموال * فليجعل
متكرما هذا الامل
محظوظا ولا يجعله محطوطا
ان شاء الله تعالى (وله أيضا)
رقعتي هذه وأنا عائد معوده *
وقاصد بالزيارة مقصوده *
اخاطب أصدقائي بما
اخاطب * واكاتب اخواني
بما أكاتب * سمائي
وقده * وأرضي رعده *
تنتابني الحمى * ولا تفارقني
الشكوى * نفسي نفسان
ونفسي نفسان * كأن الحول
شاطرني فصوله * فنلت غرته
وحجوله * فالربيع بين عيني
وخيشومي * والصيف
كامن في صدري وحلقومي *

لم يعطها الاسليمان وقد * نبت الربا بموشك الاعجال
وحر لسرير ملكك انه * كسريره عن كل حد عالى
فلوا البحار السبعة استوينه * وأمرتهن قذفنه فى الحال

ولما فتح الحصن كان معه ولد معين الدين أنز الذى سلم بانياس الى الفرنج فقال له للمسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذاك قال لان اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم

(ذكر اخذ الاتراك غزنة من ملكشاه وعوده اليها)

فى هذه السنة قصد بلاد غزنة الاتراك المعروفون بغز ونهبوها وخربوها وقصدوا غزنة وبها صاحبها ملكشاه بن خسروشاه المحمودى فعلم انه لا طاقة له بهم ففارقها وسار الى مدينة لها وورد وملك الغز مدينة غزنة وكان اقيم بامرهم أميرا اسمه زنكى بن على بن خليفة الشيبانى ثم ان صاحبها ملكشاه جمع وعاد الى غزنة ففارقها زنكى وعاد ملكها ملكشاه ودخلها فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة وتمكن فى دار ملكه

(ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشئ من سيرته)

فى هذه السنة توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن ابى منصور الاصفهانى وزير قطب الدين صاحب الموصل فى شعبان مقبوضا وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين فبقى فى الحبس نحو سنة حكى لى انسان صوفى يقال له ابو القاسم كان مختصا بخدمته فى الحبس قال لم يزل مشغولا فى محبسه بأمر آخرته وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست الى القبر فلما اتفق أن مرض قال لى فى بعض الايام يا أبا القاسم اذا جاء طائر أبيض الى الدار فعرفنى قال فقلت فى نفسى قد اختلط عقله فلما كان الغد أكثر السؤال عنه واذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط فقلت جاء الطائر فاستبشر ثم قال جاء الحق واقبل على الشهادة وذكر الله تعالى الى ان توفى فلما توفى طار ذلك الطائر فعلمت انه راى شيأ فى معناه ودفن بالموصل عند فتح الكراعى رحمة الله عليهما نحو سنة ثم نقل الى المدينة فدفن بالقرب من حرم النبى صلى الله عليه وسلم فى رباط بناه لنفسه وقال لابى القاسم بينى وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله الى المدينة فدفنه بها فى التربة التى عملتها فاذا انا مت فامض اليه وذكره فلما توفى سار أبو القاسم الى شيركوه فى المعنى فقال له شيركوه كم تريد فقال أريد اجرة جمل يحمله وجمل يحملنى وزادى فاستهزء وقال مثل جمال الدين يحمل هكذا الى مكة واعطاه مالا صالحا ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين وجماعة يقرؤن عليه بين يدى تابوته اذا حمل واذا نزل عن الجمل واذا وصل الى مدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه فيصلى عليه فى كل بلدة يجتاز بها واعطاه أيضا مالا للصدقة عنه فصلى عليه فى تكريت وبغداد والحلة وفيد ومكة والمدينة وكان يجمع له فى كل بلد من الخلق مالا يحصى ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وانشد باعلى صوته

يسرى نعشه فوق الرقاب وطالما * يسرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتثنى رماله * عليه وبالنادى فتثنى أنامله

وما عرفت لهذه العلة سببا الا انى رأيت نفس الحرية متشككة فشاركتها فى شكواها * ووجدت عين الكرم والكمال متأذية فاحتملت عنها أذاها * وقلت ممتثلا لا ممتثلا

ونعود سيدنا وسيد غيرنا ليت التشكى كان بالعواد
ثم ذكرت ما أعد الله تعالى للعباد * من ثواب العلة فى المعاد * فاستصغرت عند ذلك ما استعظمته * وسهل مسلكى وان استوعرته * وقلت مسح الله تلك النسمة من العلة * وأعطى الشيخ بها اماما من القلة * وأعمى عنه ناظر الزمان * ولا طرق الى فنائه طوارق الحدثان * وتمنيت أنى واصلت غدوى برواحى فى زيارة الشيخ مشاهد اللحال * واقباله نحو البر والابلال * ولكن حيل بين العير والنزوان وعلى حالتى هذه فانى أستريح الى خبر سلامته وأحصل لنفسى منه * وله أيده الله باهدائه الى يد ومنه * ورأيه فى اتحافى به موفق ان شاء الله تعالى ومن نظمه قوله

وأغيد معصار بألحاظ عينه * حكى بتثنيه من البان اماودا
سلخت بذكراه عن الصبح ليله * أساوره والكاس والناى والعودا

فلم نر باكيا اكثر من ذلك اليوم فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم الشريف وبين قبره وقبر النبي صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا وأما سيرته فكان رحمه الله أسخى الناس واكثرهم بذلا للمال رحيما بالخلق متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة انه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة جسيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة وزخرف الكعبة وذهبها وعملها بالرخام ولما اراد ذلك ارسل الى المقتفي لامر الله هدية جليلة وطلب منه ذلك وأرسل الى الامير عيسى امير مكة هدية كبيرة وخلعا سنية منها عمامة شراها بثلثمائة دينار حتى مكنه من ذلك وعمر أيضا المسجد الذي على جبل عرفات والدرج التي يصعد فيها اليه وكان الناس يلقون شدة في صعودهم وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء واجرى الماء اليها من نعمان في طرق معمولة تحت الارض فخرج عليها مال كثير وكان يجري الماء في المصانع كل سنة أيام عرفات وبنى سورا على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى فيد وبنى لها أيضا فصيلا وكان يخرج على باب داره كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار اميري هذا سوى الادرارات والتعهدات للائمة والصالحين وارباب البيوت ومن ابنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس فقبض قبل ان يفرغ وبنى عنده أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالارماد وبنى الربط وقصده الناس من اقطار الارض ويكفيه ان ابن الجندي رئيس اصحاب الشافعي باصفهان قصده وابن الكاف قاضي همذان فاخرج عليهما مالا عظيما وكانت صدقاته وصلاته من اقاصي خراسان الى حدود اليمن وكان يشتري الاسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام حسب سوى ما يشتري من الكرج حكى لي والدي عنه قال كنت أرى جمال الدين اذا قدم اليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه في خبز بين يديه فكنت انا ومن يراه نظن انه يحمله الى امه وولده على عادتهم انه في بعض السنين جاء الى الجزيرة مع قطب الدين وكنت اتولى ديوانها وحمل جارية أم ولده الى داري لتدخل الحمام فبقيت في الدار أياما فبينما انا عنده في الحمام وقد اكل الطعام فعل كما كان يفعل ثم تفرق الناس فقمت فقال اقعد فقعدت فلما خلا المكان قال لي قد آثرتك اليوم على نفسي فانني في الحمام ما يمكنني ان افعل ما كنت أفعله خذ هذا الخبز واحمله أنت في كمك في هذا المنديل واترك الحماقة من رأسك وعد الى بيتك فاذا رأيت في طريقك فقيرا يقع في نفسك انه مستحق فاقعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام قال ففعلت ذلك وكان معي جمع كثير ففرقتهم في الطريق لئلا يروني أفعل ذلك وبقيت في غلماني فرأيت في موضع انسانا أعمى وعنده اولاده وزوجته وهم من الفقر في حال شديد فنزلت عن دابتي اليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم اياه وقلت للرجل تجيء غدا بكرة الى دار فلان أعني داري ولم أعرفه نفسي فانني آخذ ذلك من صدقة جمال الدين شيأ ثم ركبت اليه العصر فلما رآني قال ما الذي فعلت في الذي قلت لك فأخذت أذكره شيأ يتعلق بدولتهم فقال ليس عن هذا أسألك انما أسألك عن الطعام الذي سلمته اليك فذكرت له الحال ففرح ثم قال بقي أنك لو قلت للرجل يجيء اليك هو واهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجري لهم كل شهر دنانير قال فقلت له فقلت للرجل حتى يجيء الى فازداد فرحا وفعلت بالرجل ما قال ولم يزل يصل اليه رسمه حتى قبض وله من هذا كثير فمن ذلك انه تصدق

ترى أنجم الجوزاء والنجم فوقها
كباسط كفيه ليقطف عنقودا

وكتب الى أبي بكر الخوارزمي
لئن كان ذنبي أني اعتللت
فذلك ذنب صغير صغير
وان كان هجري من أجله
فذلك ظلم كبير كبير
صدودك عني صدود الحيا
وصدك اليسير يسير يسير
فزرني قليلا تجدني شاكرا
لديه القليل كثير كثير

(وله في وصف النقانق)

فان كنت تهوى اليوم اكل النقانق
فبادر الى أمثال جيد الغرانق
الى جامع اللذات طيبا وجودة
قضى حقه طاه بصنعة حاذق
تراه على السفود عند صلائه
كزنجية زينت بحلى الخانق
فبعض تدلى كالوشاح وبعضه
منوط عليه في محل المناطق
فأنجح لقيت الخير في حاجة امرئ
وفي بشرط الود غير مماذق

(ومن افاضل اضرابهم القاضي ابو القاسم علي بن الحسين الداودي بهراة)

وهو عندي ممن يستحق أن يقال فيه * ما قاله الصاحب لبعض من كان يواليه *
لولا أن قدرة الله عندي جنس واحد لقلت ليس في القدرة وجود مثله *
في كماله وفضله * جاوز

فالتجأ صاحبها الامير ايناق الى المؤيد صاحب نيسابور بعد تمكن الوحشة بينهما فقبله المؤيد أحسن قبول وسير اليه جيشا كثيفا فاقاموا عنده حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طبرستان وأما دهستان فان عسكر خوارزم غلبوا عليها وصار لهم فيها شحنة

(ذكر استيلاء المؤيد على هراة)

قد ذكرنا قتل صاحب هراة سنة تسع وخمسين فلما قتل تجهز الامراء الغزية وساروا الى هراة وحصروها وقد تولى أمرها انسان يلقب أثير الدين وكان له ميل الى الغز وهو يحاربهم ظاهرا ويراسلهم باطنا فهلك لهذا السبب خلق كثير من أهل هراة فاجتمع اليها أهلها فقتلوه وقام مقامه أبو الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي فارسل أهلها الى المؤيد أي أبه صاحب نيسابور بالطاعة والانقياد اليه فسير اليهم مملوكه سيف الدين تنكز في جيش وسير جيشا آخر أغاروا على سرخس ومرو فاخذوا دواب الغز وعادوا سالمين فلما سمع الغز بذلك رحلوا عن هراة الى مرو

(ذكر الحرب بين قلج ارسلان وبين ابن دانشمند)

في هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وما يجاورها من بلد الروم وبين ياغي أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلد الروم وجرى بينهما حرب شديدة وسببها ان قلج أرسلان تزوج ابنة الملك صلتق بن علي بن أبي القاسم فسيرت الزوجة الى قلج أرسلان مع جهاز كثير لا يعلم قدره وأغار ياغي صاحب ملطية عليه وأخذ العروس وما معها وأراد أن يزوجها بابن أخيه ذي النون بن محمد بن دانشمند فأمرها بالردة عن الاسلام فزوجها من ابن اخيه فجمع قلج أرسلان عسكره وسار الى ابن دانشمند فالتقيا واقتتلا فانهزم قلج أرسلان والتجأ الى ملك الروم واستنصره فأرسل اليه جيشا كثيرا فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الايام وملك قلج ارسلان بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد بن دانشمند لانه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان واستولى ذو النون ابن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكورية واستقرت القواعد بينهم واتفقوا

(ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان)

في هذه السنة كانت وحشة متأكدة بين نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وبين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب الروم أدت الى الحرب والتضاغن فلما بلغ خبرها الى مصر كتب الصالح بن رزيك وزير صاحب مصر الى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ويأمره بموافقته وكتب فيه شعرا

نقول ولكن اين من يتفهم * ويعلم وجه الرأي والرأي مبهم
وما كل من قاس الامور وسامها * يوفق للامر الذي هو أحزم
وما احد في الملك يبقى مخلدا * وما احد مما قضى الله يسلم
امن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم * بقيهم وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم * وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقي الله وحده * أما في رعاياكم من الناس مسلم

هي مغيرة عليه خداعا * وهو دون افترارها فزار (وقد وصف) أبو الفتح البستي فضله في أبيات له

أبا القاسم استعبدت ودي بتالد
تلاه بلا من ابرك طارف
واضعفت شكري حين ضاعفت أنعما
وقد يضعف النبت الندي المتضاعف
أتاني كتاب منك فيه طرائف
تقبل من اطرافهن الطرائف
صحيفة احسان تخرجن حسنها
سجودا اذا ما لاحظتها الصحائف
فواصلني منها شباب مساعد
وطالعني منها زمان مساعف
وأصبح دهري عاد لاوهو عاسف
وعادت رخاء ريحه وهو عاصف
ومن أعيان رعايا السلطان بناحية طوس وان كانت نيسابور دار قراره * ومعتقد ضياعه وعقاره * أبو جعفر محمد بن موسى بن أحمد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب رضوان الله تعالى عليهم اجمعين
نسب كأن عليه من شمس الضحى
نورا ومن فلق الصباح عمودا
وقد خدم ملوك آل سامان وعاشر وزراءهم وكتابهم والتقط محاسنهم وآدابهم فألفاظه ينابيع العلوم * وأقواله مرابيع العقول * ومجالسه حدائق الجد والهزل

تعالوا لعل الله ينصر دينه * اذا ما نصرنا الدين نحن وانتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة * باسنتها تحوى البلاد وتقسم

وهى اطول من هذا هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة وان الصالح ارسل بهذا الشعر فان كان الشعر للصالح فينبغى أن تكون الحادثة قبل هذا التاريخ ويحتمل ان يكون هذا التنافس كان ايام الصالح فكتب الابيات ثم امتد الى الآن

* (ذكر عدة حوادث) *

فى هذه السنة فى صفر وقع باصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدين عبد اللطيف ابن الخجندى وغيره من اصحاب المذاهب بسبب التعصب للمذاهب فدام القتال بين الطائفتين ثمانية ايام متتابعة قتل فيها خلق كثير واحترق وهدم كثير من الدور والاسواق ثم افترقوا على أقبح صورة وفيها بنى الاسماعيلية قلعة بالقرب من قزوين فقيل لشمس الدين ايلدكز عنها فلم يكن له انكار لهذه الحال خوفا من شرهم وغائلتهم فتقدموا بعد ذلك الى قزوين فحصروها وقاتلوهم أهلها أشد قتال رآه الناس وحكى لى بعض اصدقائنا بل مشايخنا من الائمة الفضلاء قال كنت بقزوين اشتغل بالعلم وكان بها انسان يقود جمعا كبيرا وكان موصوفا بالشجاعة وله عصابة حمراء اذ قاتل عصب بها رأسه قال فكنت احبه واشتهى الجلوس معه قال فبينما انا عنده يوما وذا هو يقول كانى بالملاحدة وقد قصدوا البلد غدا فخرجنا اليهم وقاتلناهم فكنت اول الناس وانا معصب بهذه العصابة فقاتلناهم فلم يقتل غيرى ثم ترجع الملاحدة ويرجع اهل البلد قال فوالله لما كان الغد اذ قد وقع الصوت بوصول الملاحدة فخرج الناس قال فذكرت قول الرجل فخرجت والله وليس لى همة الا انى انظر هل يصح ما قال ام لا قال فلم يكن الا قليل حتى عاد الناس وهو محمول على ايديهم قتيلا بعصابته الحمراء وذكروا انه لم يقتل بينهم غيره فبقيت متعجبا من قوله كيف صح ولم يتغير منه شئ ومن اين له هذا اليقين ولما حكى لى هذه الحكاية لم اسأله عن تاريخها وانما كان فى هذه المدة فى تلك البلاد فلهذا اثبتها هذه السنة على الظن والتخمين وفيها قبض المؤيد اى ابه صاحب نيسابور على وزيره ضياء الملك محمد بن أبى طالب سعد بن أبى القاسم محمود الرازى وحبسه واستوزر بعده نصير الدين ابا بكر محمد بن ابى نصر محمدا المستوفى وهو من اعيان الدولة السنجرية وفى هذه السنة وردت الاخبار ان الناس بحواسنة تسع وخمسين واقواشدة وانقطع منهم خلق كثير فى قيد والشعلبية وواقصة وغيرها وهلك كثير ولم يمض الحاج الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الاسباب واشدة الغلاء فيها وعدم ما يقتات ووقع الوباء فى البادية وهلك منهم عالم لا يحصون وهلكت مواشيهم وكانت الاسعار بمكة غالية وفيها فى صفر قبض المستنجد بالله على الامير توبة بن العقيلى وكان قد قرب منه قربا عظيما بحيث يخلو معه واحبه المستنجد محبة كثيرة فحسده الوزير ابن هبيرة فوضع كتابا من العجم مع قوم وامرهم ان يتعرضوا فيؤخذوا ففعلوا ذلك واخذوا واحضروا عند الخليفة فاظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج الى نهر الملك يتصيد وكانت حلل توبة على الفرات فحضر عنده فامر بالقبض عليه فقبض وادخل بغداد ليلا وحبس فكان آخر العهد به فلم يمتع الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة اشهر وكان توبة من اكمل العرب مروأة وعقلا وسخاء واجازة واجتمع فيه

وجوامع الكلام الفصل
فلم تبق يتيمة خطاب *
ولا كريمة صواب * ولا غرة
حكمه * ولا درة تكتبه *
ولا طرفة حكايه * ولا فقرة
روايه * الا وهى عرضة
خاطره ونهزة هاجسه *
ونصب تذكره * ومثال تصوره
ولا تصدأ صفيحة حفظه *
ولا تدرس صحيفة ذكره *
ولا يكسف بدر معارفه *
ولا ينزف بحر لطائفه * ثم
هو واحد خراسان من بين
الاشراف العلوية فى قوة
الحال * وسعة المجال * واتساع
رقعة الضياع * وارتفاع
قدر الارتفاع * واشتداد
باع العز وامتداد شعاع
الجاه والقدر وقد كتبت
عنه من نوادر الاخبار
والاشعار ما حكيت بعضه
فى كتابى الموسوم بلطائف
الكتاب وسأورد الآن
نكتا مما قاله وقيل فيه * ابانة
عن غرر معاليه * فمن شعره
قوله

وشادن وجهه بالحسن مخطوط
وخده بعذار الخال منقوط
تراه قد جمع الضدين
فى قرن
فالخصر مختصر والردف
مبسوط
لو كان أدركه لوط النبى لما
نهى الورى أبدا عن مثل لوط

من خلال الكمال ما تفرق في الناس وفيها في ربيع الاول توفي الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامدي الهروي وزير السلطان ارسلان ووزير اتابك شمس الدين ايلدكز وفيها توفي عون الدين الوزير ابن هبيرة واسمه يحيى بن محمد بن المظفر وزير الخليفة وكان موته في جمادى الاولى ومولده سنة تسعين واربعمائة ودفن بالمدرسة التي بناها للحنابلة بباب البصرة وكان حنبلي المذهب دينا خيرا عالما يسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم وله فيه التصانيف الحسنة وكان ذا رأي سديد ونافذ على المقتفي نفاذا عظيما حتى ان المقتفي كان يقول لم يزر لبني العباس مثله ولما مات قبض على اولاده واهله وتوفي بهذه السنة محمد بن سعيد البغدادي بالموصل وله شعر حسن فمن قوله

افدي الذي وكلفني حبه * بطول اعمالي وامراضي
واست ادري بعد ذا كله * اساخط مولاي ام راضي

وفيها توفي الشيخ الامام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزي الشافعي تفقه على الفقيه الكيا الهراسي وكان واحد عصره في الفقه تأتيه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد وهو من جزيرة ابن عمر

(ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة)

(ذكر فتح المنيطرة من الفرنج)

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره وانما سار اليه جريدة على غرة منهم وعلم انه ان جمع العساكر حذروا فسار اليه جريدة وانتهز الفرصة وحصره وجد في قتاله فاخذه عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة فان الذين به كانوا آمنين فاخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يجتمع الفرنج لدفعه الا وقد ملكه ولو علموا انه جريدة في قلة من العساكر لاسرعوا اليه وانما ظنوه انه في جمع كثير فلما ملكه تفرقوا وايسوا من رده

(ذكر قتل خطلوبرس مقطع واسط)

في هذه السنة قتل خطلوبرس مقطع واسط قتله ابن اخي شملة صاحب خوزستان وسبب ذلك ان ابن شنكا وهو ابن أخي شملة كان قد صاهر منكبرس مقطع البصرة فاتفق ان المستنجد بالله قتل منكبرس سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما قتل قصد ابن شنكا البصرة ونهبها وقراها فارسل من بغداد الى كشتكين صاحب البصرة بمحاربة ابن شنكا فقال انا عامل لست بصاحب جيش يعني انه ضامن لا يقدر على اقامة عسكر فطمع ابن شنكا واصعد الى واسط ونهب سوادها فجمع خطلوبرس مقطعها جمعا وخرج الى قتاله وكاتب ابن شنكا الامراء الذين مع خطلوبرس فاستمالهم ثم قاتلهم فانهزم عسكره فقتله واخذ ابن شنكا علم خطلوبرس فنصبه فلما رآه اصحابه ظنوه باقيا فجعلوا يعودون اليه وكل من رجع اخذه ابن شنكا فقتله او اسره

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة خرج الكرج في جمع كثير واغاروا على بلدان حتى بلغوا كنجة فقتلوا واسروا وسبوا كثيرا ونهبوا ما لا يحصى وفيها توفي الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الاصفهاني

وقوله
فديت غزالي فهو ملكي
حقيقة
يلذ به عيشي اذا نابني هم
جميل محياه وكالدعص ردفه
لطيف سجاياه وليس له خصم
(وسمعته) يقول حال الجاهل
في التدبير * كحال الحمير *
مالها همة غير اعتلاف
التبن * واتيان الاتن *
(وجرى) حديث الوقود
والشعر في الشتاء فقال
مرعى ولا كالسعدان
هيهات ان تقع الام الرابة
من الام البراء * يعني ان
الوقود يلفح ما يقابل البدن
بشرره * ويدع سائره على
خضره * فأما الشمس فانها
تقسم الالف على البدن
بالسواء * ليشترك فيه
ظاهر الاعضاء * وباطن
الاحشاء * وقد أكثر
الشعراء والادباء * فيه فمن
ذلك قول ابي الفتح البستي
أنا للسيد الشريف غلام
حيثما كان فليبلغ سلامي
واذا كنت للشريف غلاما
فأنا الحر والزمان غلامي
(ولابي الفضل) أحمد بن
الحسين الهمذاني المعروف
ببديع الزمان
أنا في اعتقادي للتسنن
رافضي في ولائك
وان اشتغلت بهزلا
* فلست أغفل عن اولئك

الرستمى الشيخ الصالح وهو مشهور يروى عن أحمد بن خلف وغيره وفيها فى ربيع الآخر توفى الشيخ عبد القادر بن ابى صالح أبو محمد الجيلى المقيم ببغداد ومولده سنة سبعين واربعمائة وكان من الصلاح على حال وهو حنبلى المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد

(ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة)

(ذكر عود اسد الدين شيركوه الى مصر)

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير اسد الدين شيركوه الى مصر وما كان منه وقفوله الى الشام فلما وصل الى الشام أقام على حاله فى خدمة نور الدين الى الآن وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدث بها و بقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير فلما كان هذه السنة تجهز وسار فى ربيع الآخر فى جيش قوى وسير معه نور الدين جماعة من الامراء فبلغت عدتهم الفى فارس وكان كارها لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين فى المسير لم يمكنه الا ان يسير معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الاسلام فلما اجتمع معه عسكره سار الى مصر على البر وترك بلاد الفرنج على يمينه فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها الى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف فى البلاد الغربية وحكم عليها واقام بنيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجىء اسد الدين اليهم قد ارسل الى الفرنج يستنجدهم فاتوه على الصعب والذلول طمعا فى ملكها وخوفا ان يملكها اسد الدين فلا يبقى لهم فى بلادهم مقام معه ومع نور الدين فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا الى مصر عبروا الى الجانب الغربى وكان اسد الدين وعساكره قد ساروا الى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بابابين وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فادركوه بها فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان ارسل الى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا اليه واخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم فى طلبه فعزم على قتالهم الا انه خاف من اصحابه ان تضعف نفوسهم عن القتال فى هذا المقام الخطر الذى عطبهم فيه اقرب من سلامتهم لقلة عددهم وبعدهم عن اوطانهم وبلادهم وخطر الطريق فاستشارهم فكلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقى والعود الى الشام وقالوا له ان نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فالى اين نلتجئ و بمن نحتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا فقام امير من مماليك نور الدين يقال له شمس الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا وقال من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فى بيته مع امرأته والله ائن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعتذر فيه ليأخذن منا من اقطاع وجامكية واملاك ما اخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ويقول تأخذون اموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر الى الكفار والحق بيده فقال اسد الدين هذا الرأى و به اعمل وقال ابن اخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فاقام بمكانه حتى ادركه المصريون والفرنج وهو على تعبية وجعل الاثقال فى القلب بتكثيرها ولانه لم يمكنه ان يتركها بمكان آخر فينهبها اهل البلاد وجعل صلاح الدين فى القلب وقال لهولان معه ان المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم انى فيه فاذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا انفسكم واندفعوا قدامهم بين ايديهم فاذا عادوا عنكم

يا عقد منتظم النبوة
بيت مختلف الملائك
يا ابن الفواطم والعواتك
والترائك والارائك
أنا حائك ان لم أكن
عبد العبدلك وابن حائك
(وبعض أهل العصر فيه)
عيد البرية عيد المهرجان أتى
أهلا بعيد أتى عيدا يهنيه
العيد لا لؤ يبقى الى امد
وعيد نادائم اللا لا باقيه
لازال سيدنا فى ظل دولته
وظله دانيا ممن يواليه
محكما فى رقاب الارض قدرته
يجنى له ثمر الاقبال جانيه
أعشاره المجد والبشرى جلائبه
خراجه الدهر والدنيا جواليه
وبنى بنيسابور دارا فتنافس أهل العصر فى ذكرناها * ووصف شرفها وسناها * فمن ذلك قول البديع الهمذانى
دار قسمت عراصها
تحكى الاباطح والرصافه
بين المروأة والنبوة
والخلافة والضيافه
فيها المصاحف والمعاز ف
والسوالف والسلافه
لازلت يا دار الكرام
مصونة عن كل آفه
(وفيها لابى عبد الله الفواص)
يا دار سعد قد علت شرفاتها
بنيت شبيهة قبة الناس

فارجعوا فى أعقابهم واختاروهو من شجعان عسكره جمعا يشق بهم و يعرف صبرهم فى الحرب ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ماذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج فحمل حينئذ اسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فاثخن واكثر القتل والاسر فلما عاد الفرنج من اثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والارض منهم قفرا فانهزموا ايضا وكان هذا من أعجب ما يؤرخ ان الفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل

(ذكر ملك اسد الدين الاسكندرية وعوده الى الشام)

لما انهزم المصريون والفرنج من اسد الدين بالبابين سار الى ثغر الاسكندرية وجبى ما فى القرى على طريقه من الاموال ووصل الى الاسكندرية فتسلمها بمساعدة من اهلها اسلموها اليه فاستناب بها صلاح الدين ابن اخيه وعاد الى الصعيد فملكه وجبى اموالها واقام به حتى صام رمضان واما المصريون والفرنج فانهم عادوا واجتمعوا على القاهرة واصطلحوا حال عساكرهم وجمعوا وساروا الى الاسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر أهلها على ذلك وسار أسد الدين من الصعيد اليهم وكان شاور قد افسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح و يبذلون له خمسين ألف دينار سوى ما اخذه من البلاد فاجاب الى ذلك وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فاجابوا الى ذلك واصطلحوا وعادوا الى الشام وتسلم المصريون الاسكندرية فى نصف شوال ووصل شيركوه الى دمشق ثامن عشر ذى القعدة واما الفرنج فانهم استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من انفاذ عسكر اليهم و يكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار هذا كله استقر مع شاور فان العاضد لم يكن لمعه حكم لانه قد حجر عليه وحجبه عن الامور كلها وعاد الفرنج الى بلادهم بالساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد ارسل الى نور الدين مع بعض الامراء ينهى محبته وولاءه و يسأله الدخول فى طاعته وضمن على نفسه انه يفعل هذا و بذل مالا يحمله كل سنة فاجابه الى ذلك وحمل اليه مالا جزيلا فبقى الامر على ذلك الى ان قصد الفرنج مصر سنة اربع وستين وخمسمائة فكان ما نذكره هناك ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك نور الدين صافيثا وعرعة)

فى هذه السنة جمع نور الدين العساكر وسار اليه اخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حمص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الاكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة واخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين فى بلادهم يمينا وشمالا تغيره وتخرب البلاد وقصدوا العريمة وصافيثا وعادوا الى حمص فصاموا بها رمضان ثم ساروا الى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للفرنج ايضا من امنع حصونهم ومعاقلهم فانهزم الفرنج عنه واحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه واراد

الدخول

لورود وفد أو لكشف مظلمة
او بذل مال او ادارة كاس
(ومن أعيان نجوم الدولة
أبو نصر) أحمد بن محمد بن
عبد الصمد الشيرازى
الكاتب ابن الكاتب
والنقاب ابن المناقب *
والبحر ابن السحاب * والبدا
ابن الشهاب * والنار التى
لا يخمد لها ما ذكاه *
والسيف الذى لا يألف
القراب مضاه * والسعد
الذى يلى وتد السماء زكاه *
فعطارد تلميذ افادته *
والمشترى مشترى سعادته *
وثاقب النجم عبد دهائه *
وشارق الشمس خادم سنائه
ورواته * خدم أبوه أبو
ظاهر حسام الدولة أبا
العباس تاشا على ديوان
أسراره بارعا فى الصناعه *
صنعا فى البراعه * مخلوقا
لفصل القول * مرموقا
بعين الطول * يناضل
الصاحب اسمعيل بن عباد
فيخرق عليه قرطاس الادب
ويساجله فيملأ الدلو الى
عقد الكرب * مصعب
لا المصعبى يضاهيه * ولا
الموصلى يباهيه * ولا
الفارسى يدانيه * ولا اليسعى
يسعى بعض مساعيه *
يجانس أنجم النثرة نثره *
ويناقب شعرى الجمرة شعره

الدخول الى بيروت فتجدد فى العسكر خلف اوجب التفرق فعاد قطب الدين الى الموصل واعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات وكانت له فاخذها فى طريقه وعاد الى الموصل

(ذكر قصد ابن شنكا البصرة)

فى هذه السنة عاود ابن شنكا قصد البصرة ونهب بلدها وخربه من الجهة الشرقية وسار الى مطارا فخرج اليه كشتكين صاحب البصرة وواقعه فاجتمع بشرف الدين ابى جعفر بن البلدى الناظر فيها ومعهما مقطعهما ارغش واتصلت الاخبار بان ابن شنكا واصل الى واسط فخاف الناس منه خوفا شديدا فلم يصل اليها

(ذكر قصد شملة العراق)

فى هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان الى قلعة الماهكى من اعمال بغداد وارسل الى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيأ من البلاد ويشتط فى الطلب فسير الخليفة اكثر عساكره اليه ليمنعوه وارسل اليه يوسف الدمشقى يلومه ويحذره عاقبة فعله فاعتذر بان ايلدكز والسلطان ارسلا نشاه اقطعا الملك الذى عنده وهو ولد ملكشاه البصرة وواسط وعرض التوقيع بذلك وقال انا اقنع بثلث ذلك فعاد الدمشقى بذلك فامر الخليفة بلعنه ومن الخوارج وجمعت العساكر وسيرت الى ارغش المسترشدى وكان بالنعمانية هو وشرف الدين ابو جعفر ابن البلدى ناظر واسط مقابل شملة ثم ان شملة ارسل قلج ابن اخيه فى طائفة من العسكر لقتال طائفة من الاكراد فركب ارغش فى بعض العسكر الذى عنده وسار الى قلج فحاربه فاسر قلج وبعض اصحابه وسيرهم الى بغداد وبلغ شملة وطلب الصلح فلم تقع الاجابة اليه ثم ان ارغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات وبقى شملة مقيما مقابل عسكر الخليفة فلما علم انه لا قدرة له عليهم رحل وعاد الى بلاده وكانت مدة سفره اربعة اشهر

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة عصى غازى ابن حسان المنبجى على نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وكان نور الدين قد اقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها فسير اليه عسكرا فحصروه واخذوها منه واقطعها نور الدين اخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عادلا خيرا محسنا الى الرعية جميل السيرة فبقى فيها الى ان اخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وفيها توفى فخر الدين ارسلان بن داود بن سقمان بن ارتق صاحب حصن كيفا واكثر ديار بكر ولما اشتد مرضه ارسل الى نور الدين محمود صاحب الشام يقول له بيننا محبة فى جهاد الكفار اريد ان ترعى بها ولدى ثم توفى وملك بعده ولده محمد فقام نور الدين الشامى بنصرته والذب عنه بحيث ان اخاه قطب الدين مودودا صاحب الموصل اراد قصد بلاده فارسل اليه اخوه نور الدين يمنعه ويقول له ان قصدته اوتعرضت الى بلاده منعتك قهرا فامتنع من قصده وفيها توفى أبو المعالى محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد وكان على ديوان الزمام فقبض عليه فمات محبوسا وفيها توفى فتاح المسترشدى ولد الامير زدن وهو من اكابر الامراء ببغداد

(ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة)

(ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين فى البلاد)

(فما بلغنى عنه قوله)
بحسام دولته وصاحب جيشه
وحجاب سدته أبى العباس
واراد الله سعادة هذا
الفاضل فهداه نهج أبيه
وعداه موقف التشبيه
فنما نمو الاشاه * على طيب
التربة والماء * ليس نمو القامة
والضخامة لكن نمو هلال
الظلم * وشبوب النار فوق
العلم * وصفاء الخمر مرشوما
على الفدم * واختص
بخدمة الامير الجليل أبى
سعيد التونتاش خوارزمشاه
اذ هو تاج الحجاب * وناظر
عين الباب * فأعداه يمنه
حتى لبس الملك فضفاضا
وغنى عن السواد وان كان
عليه بياضا * وانتقل
بانتقاله عن سمت الكتابه *
الى رتبة الوزارة * وعن
حضيض الخدمه الى يفاع
الشركه فى الاماره فلم
يشركه من أبناء جنسه فى
البلاغة اثنان * وساد حتى
أعدا من عبد المدان مدان
فما وقع الى من نسخ قلمه *
وحركه * من كتاب خاطب
به بعض اخوانه لعل
الدهقان * يظنى أو ترمع
مساعدة الزمان * مساعدة
الاخوان * وارضى من
صدر الوزاره * بقلب
كالجاره * فلم يزل نيل المراتب

في هذه السنة فارق زين الدين علي بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار الى اربل وكان هو الحاكم في الدولة واكثر البلاد بيده منها اربل وفيه بيته وأولاده وخزائنه ومنها شهرزور وجميع القلاع التي معها وجميع بلد الهكارية وقلاعه منه العمادية وغيرها وبلاد الحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة الموصل هو بها وكان قد اصابه طرش وعمى أيضا فلما عزم على مفارقة الموصل الى بيته باربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد الى قطب الدين مودود وبقي معه اربل حسب وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة لم ينهزم من حرب قط وكان كريما كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحيص بيص بقصيدة فلما أراد ان ينشد قال أنا لا أعرف ما يقول ولكني اعلم انه يريد شيأ فامر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة مجموع ذلك ألف دينار ولم يزل باربل الى ان مات بها بعد هذه السنة ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين الى فخر الدين عبد المسيح وحكمه في البلاد فعمر القلعة وكانت خرابا الان زين الدين كان قليل الالتفات الى العمارة وسار عبد المسيح سيرة سديدة وسياسة عظيمة وهو خصي أبيض من مماليك زنكي اتابك عماد الدين

(ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة)

في هذه السنة ارسل آقسنقر الاحمدلي صاحب مراغة الى بغداد يسأل ان يخطب للملك الذي هو عنده وهو ولد السلطان محمد شاه و يبذل انه لا يطأ ارض العراق ولا يطلب شيأ غير ذلك و بذل مالا يحمله اذا اجيب الى ما التمسه فاجيب بتطييب قلبه و بلغ الخبر ايلدكز صاحب البلاد فساءه ذلك وجهز عسكرا كثيفا وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان وسيرهم الى آقسنقر فوقعت بينهم حرب اجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصنه بمراغة ونازله البهلوان وحصره وضيق عليه ثم ترددت الرسل بينهم فاصطلحوا وعاد البهلوان الى ابيه بهمذان

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين ابا جعفر احمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي وكان ناظرا بواسط ابان في ولايته من كفاية عظيمة فاحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء قد تحكم تحكما عظيما فقدم الخليفة الى ابن البلدي بكف يده وايدي أهله واصحابه ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخي استاذ الدار وطالبه بحساب نهر الملك لانه كان يتولاه من ايام المقتفي وكذلك فعل بغيره فحصل بذلك اموالا جمة وخافه استاذ الدار على نفسه فحمل مالا كثيرا وفي هذه السنة توفي عبد الكريم بن محمد بن منصور ابو سعيد بن ابي المظفر السمعاني المروزي الفقيه الشافعي وكان مكثرا من سماع الحديث سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره ورحل الى ما وراء النهر وخراسان ودخل الى بلاد الجبل واصفهان والعراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد وله التصانيف المشهورة منها ذيل تاريخ بغداد وتاريخ مدينة مرو وكتاب النسب وغير ذلك احسن فيها ما شاء وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على اربعة آلاف شيخ وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي فقطعه فمن جملة قوله فيه انه كان ياخذ الشيخ ببغداد ويعبر به الى فوق نهر عيسى فيقول حدثني

فلان

حلالا للعقود * قطاعا للاواصر والعهود * كلانى ما أزداد ارتفاعا * الا ازددت للصديق اتضاعا * ولا أنال على الايام رتبة * الا ازددت الى الاخوان قربه * غيري من يصلفه الزمان * ويبدله السلطان * ويدم عهده الاخوان * على أنني مهما نسيت عهدا او تناسيت * وقلعت اخية الوفاء دون من آخيت * فلست أنسى عهده * ولا ارضى قطيعته وهجره * أني وقد قيدني بأياديه الزهر * واسترقني بجميل ايسه الغر * فما ارى له بديلا * ولا املك عنه تحويلا * اعاذني الله مما بقيت من صدوده * ولا سابني طيب الانس به بعد وجوده * وهذا القدر على مبالغ القدرة دال * وللمبرز البارع متى قصد الانصاف في المدح والتقريظ مجال * فهؤلاء اعيان رعايا السلطان في الفضل الواسع * والادب الجامع * ووراءهم من اعلام البراعة * واحداث الصناعة * من يزحف ذكرهم عن الغرض المقصود بهذا الكتاب ولم استقر اسامي المذكورين الا أنهم بالاضافة الى سائر اعيان البلاد * افراد

فلان بما وراء النهر وهذا بارد جدا فان الرجل سافر الى ماوراء النهر حقا وسمع فى عامة بلاده من عامة شيوخه فاى حاجة به الى هذا التدليس البارد وانما ذنبه عند ابن الجوزى انه شافعى وله اسوة بغيره فان ابن الجوزى لم يبق على احد الا مكسرى الحنابلة وفيها توفى قاضى القضاة ابو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفى فى جمادى الآخرة وفيها توفى يوسف الدمشقى مدرس النظامية بخوزستان وكان قد سار رسولا الى شلة وفيها توفى الشيخ أبو الحبيب الشهرزورى الصوفى الفقيه وكان من الصالحين المشهورين ودفن ببغداد

(ثم دخلت سنة اربع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر)

فى هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكى قلعة جعبر اخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن على بن مالك العقيلى وكانت بيده وبيد آبائه من قبله من ايام السلطان ملكشاه وقد تقدم ذكر ذلك وهى من أمنع القلاع واحصنها مطلة على الفرات من الجانب الشرقى واما سبب ملكها فان صاحبها نزل منها يتصيد فاخذه بنو كلاب وحملوه الى نور الدين فى رجب سنة ثلاث وستين فاعتقله واحسن اليه ورغبه فى الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعدل الى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل فسير اليها نور الدين عسكرا مقدمه الامير فخر الدين مسعود بن على الزعفرانى فحصرها مدة فلم يظفر منها بشئ فامدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الامير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية وهو رضيع نور الدين واكبر امرائه فحصرها ايضا فلم يرله فيها مطمعا فسلك مع صاحبها طريق اللين واشار عليه ان يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر فى حفظها بنفسه فقبل قوله وسلمها فاخذ عوضا عنها سروج واعمالها والملاحة التى بين بلد حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة وهذا اقطاع عظيم جدا الا انه لا حصن فيه وهذا آخر امر بنى مالك بالقلعة ولكل امر امد ولكل غاية نهاية بالغنى انه قيل لصاحبها ايما أحب اليك واحسن مقاما سروج والشام أم القلعة فقال هذا اكثر مالا واما العز ففارقناه بالقلعة

(ذكر ملك اسد الدين مصر وقتل شاور)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار أسد الدين شيركوه بن شاذى الى ديار مصر فملكها ومعه العساكر النورية وسبب ذلك ماذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية وانهم جعلوا لهم فى القاهرة شحنة وتسلموا ابوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم واعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالاذى العظيم فلما رأوا ذلك وان البلاد ليس فيها من يردهم ارسلوا الى ملك الفرنج بالشام وهو مرى ولم يكن للفرنج مذ ظهروا بالشام مثله شجاعة ومكرا ودها يستدعونه ليملكها واعلموه خلوها من موانع وهونوا امرها عليه فلم يجبهم فاجتمع اليه فرسان الفرنج وذوو الرأى منهم واشاروا عليه بقصدها وتملكها فقال لهم الرأى عندى اننا لا نقصدها ولا طمعة لنا فيها واموالها تساق الينا تتقوى بها على نور الدين وان نحن قصدناها لنملكها فان صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها الى نور الدين ولئن صارله فيها مثل اسد الدين فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام فلم يقبلوا قوله وقالوا له انها لا مانع فيها ولا حامى والى ان يتجهز

فى ارتفاع المراتب * واتساع الحظوظ والرغائب * واضطراب الصيت فى الآفاق وصوغ الايادى قلائد الاعناق * (وسنعود) الى ذكر السلطان يمين الدوله وأمين الملة ووقائعه التى رضيتها حدود الظبات * وان سخطتها نفوس العدات * فننمى كل وقعة الى وقعتها ويومها * ونلحق شرح حالها بقومها * الى ان نوفى الكلام حقه من الاشباع فى ذكر الحروب التى جرت بين السلطان يمين الدوله وامين الملة وبين ايلك الخان والله المستعان *

(ذكر غزوة بهاطية)

لما فرغ السلطان يمين الدوله وامين الملة من أمر سجستان وسكن له ناحيتها * وانجاب عنه عارضها * ارتاح لغزوة بهاطية فجر الجحافل مستومين بشعار الهداة اتقاه * ورايات الحماة الكماه * حتى عبر سيحون من وراء الملتان الى مدينة بهاطية فالفاها ذات سور * تزل عن موازاتها اجنحة النسور * قد احاط بها خندق كالبحر المحيط فى الغور البعيد والعرض البسيط وهى مشحونة بجم الوهم من عدة وعديد * ومعمول من

عسكر نور الدين ويسير اليها فتكون نحن قد ملكناها وفرغنا من امرها وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون انهم يريدون قصد مدينة حمص فلما سمع نور الدين شرع ايضا يجمع عساكره وامرهم بالقدوم عليه وجد الفرنج في السير الى مصر فقدموها ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوها وقتلوا فيها واسروا وكان جماعة من اعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ووعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور ومنهم ابن الخياط وابن فرجله فقوى جنان الفرنج وساروا من بلبيس الى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فخاف الناس منهم ان يفعلوا بهم كما فعلوا باهل بلبيس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه فلما ان الفرنج احسنوا السيرة في بلبيس ملكوا مصر والقاهرة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك اى ما فعلوا ليقضي الله امرا كان مفعولا وامر شاور باحراق مدينة مصر تاسع صفر وامر اهلها بالانتقال منها الى القاهرة وان ينهب البلد فانتقلوا ووقعوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر اهلها وذهبت اموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم خوفا ان يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوما وارسل الخليفة العاضد الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وارسل في الكتب شعور النساء وقال هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فشرع في تسيير الجيوش واما الفرنج فانهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو المتولي للامر والعساكر والقتال فضاق به الامر وضعف عن ردهم فاخلد الى اعمال الحيلة فارسل الى ملك الفرنج يذكره مودته ومحبته له قديما وان هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد وانما المسلمون لا يوافقونه على التسليم اليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نور الدين فاجابه الى ذلك على ان يعطوه ألف الف دينار مصرية يعجل البعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج ان البلاد قد امتنعت عليه وربما سلمت الى نور الدين فاجابوا كارهين وقالوا نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لانا بالى معها بنور الدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فعجل لهم شاور مائة الف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من اهل القاهرة ومصر فلم يتحصل له الا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار وسببه ان أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم ومافيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الاقوات فضلا عن الاقساط واما اهل القاهرة فالاغلب على أهلها الجند وغلمانهم فلهذا تعذرت عليهم الاموال وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه ويذلون له ثلث بلاد مصر وان يكون اسد الدين مقيما عندهم في عسكر واقطاعهم من البلاد المصرية ايضا خارجا عن الثلث الذي لهم وكان نور الدين لما وصله كتب العاضد بحلب ارسل الى اسد الدين يستدعيه اليه فخرج القاصد في طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت اقطاعه وكان سبب وصوله ان كتب المصريين وصلته أيضا في المعنى فسار ايضا الى نور الدين واجتمع به وعجب نور الدين من حضوره في الحال وسره ذلك وتفاءل به وامر بالتجهيز الى مصر واعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وغير ذلك وحكمه في العسكر والخزائن واختار من العسكر الفي فارس واخذ المال وجمع ستة آلاف

فارس

حديد * وكل فيل كشيطان مريد * وعظيمهم يومئذ المعروف بجهرا فاستخفته العزة والغرور * بما حوته يده للبروز من وراء السور مهولا باعداد رجاله * واشتماض افياله * ومتطاولا بباع الاقتدار في قتاله * وحضا السلطان عليه نار الحرب ثلاثة أيام بلياليها يرميه بالصواعق * من ظبا السيوف البوارق * ويقذفه بالشهب اللوامع * من شبا الرماح الشوارع * وواصلها عليهم صيحة الرابع * بضرب يطير الحواجب عن العيون * ويزيل القبائل عن الشؤن ورشق يدع الاجساد مناخر بل مناخر * قد انفجرت عروقها * وأعيت على السكر بثوقها * حتى اذا توجت الشمس هام النهار * أهاب بالشد على الكفار الفجار * فتجاوبت نغم التكبير استنزالا لنصر الله * وتنجزا لصادق وعد الله * وحمل أولياء الله * على ذوى الافك والشرك حملة كشفت صفوفهم * وارغمت بالذل أنوفهم * واقبل السلطان كالفحل العشيق يضرب باليدين * ويقد الدراع بنصفين * ويسقى

فارس وسار هو ونور الدين الى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل الى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس ممن مع اسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته واضاف الى اسد الدين جماعة اخرى من الامراء منهم مملوكه عز الدين جرديك وفرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال بن حسان المنجبي وصلاح الدين يوسف ابن ايوب اخي شيركوه على كره منه وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيأ وهو شر لكم احب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد ذلك عند موت شيركوه ان شاء الله تعالى وسار اسد الدين شيركوه من رأس الماء مجدا منتصف ربيع الاول فلما قارب مصر رحل الفرنج الى بلادهم بخفي حنين خائبين مما املوا وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وامر بضرب البشائر في البلاد وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك فانه كان فتحا جديدا لمصر وحفظا لبلاد الشام وغيرها فاما اسد الدين فانه وصل الى القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل اليها واجتمع بالعاضد لدين الله وخلع عليه وعاد الى خيامه بالخامة العاشدية وفرح به اهل مصر واجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لانه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على اظهار ما في نفسه وشرع يماطل اسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال واقطاع الجند وافراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم الى اسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه وما يعدهم الشيطان الا غرورا ثم انه عزم على ان يعمل دعوة يدعو اليها اسد الدين والامراء الذين معه ويقبض عليهم ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هذا الامر لاعرفن شيركوه فقال له ابوه والله لئن لم تفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فانه ليس بينك وبين عود الفرنج الا ان يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لو مشى العاضد الى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه ولما رأى العسكر النوري مطل شاور وخافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن ايوب وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور فنهاهم اسد الدين فسكنوا وهم على ذلك العزم من قتله فاتفق ان شاور قصد عسكر اسد الدين على عادته فلم يجده في الخيام كان قد مضى يزور قبر الشافعي رضي الله تعالى عنه فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك في جمع من العسكر وخدموه واعلموه بان شيركوه في زيارة قبر الامام الشافعي فقال نمضي اليه فساروا جميعا فساير صلاح الدين وجرديك وألقوه الى الارض عن فرسه فهرب اصحابه عنه فاخذا سيرا فلم يمكنهم قتله بغير امر اسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا أعلموا اسد الدين فحضر ولم يمكنه الا اتمام ما عملوه وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فارسل الى اسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وارسل رأسه الى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر ودخل اسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم اميرالمؤمنين يعني العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس عنه اليها فنهبوها وقصده وقصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور امير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهي التي كان

ظماء الكفر من كؤس الحين * وملك عليهم في تلك الشدة الواحدة عدة من الفيلة التي كان يعتدها الكافر حصونا لقلبه * ويعدها سكونا لقلبه * وتماوج الفريقان في غمار تلك الحلة بين نقف ينثر أدمغة الهام * وطعن ينزف حشاشة الاجسام * وأعلى الله راية السلطان * بل راية الدين والايمان * وأهب ريح النصر رخاء * وأعاد شدة العيش رخاء * فولى المشركون نحو المدينة اعتسارا بسورها * وانحصارا في دورها * فأعجلهم الطلب عن الاحتياط وملك عليهم مداخل الحصار وتعاون افناء العسكر على سدم خنادقه * وهدم وثائقه تضافروا على تفسيح مضائقه وتنقيح مغالقه * وقد كان بجهرا حين غلت مراجل الحرب * واختلت مناجل الطعن والضرب * احس بالهون والعطب * وشام برق الويل والحرب * فاندس في عصابة من رجالة رجاله للاحتجاز ببعض الغياض والاستناد الى شعف بعض تلك الجبال فسرب السلطان كوكبة من خواصه في

فيها شاور فلم يريها ما يقعد عليه واستقر في الامر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الاعمال من يثق اليه من اصحابه واقطع البلاد لعساكره واما الكامل بن شاور فانه لما قتل ابوه دخل القصر هو واخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لانه بلغه ما كان منه مع ابيه في منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت انه بقي لاحسن اليه جزاء لصنيعه

(ذكر وفاة اسد الدين شيركوه)

لما ثبت قدم اسد الدين وظن انه لم يبق له منازع اتاه اجله حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة اربع وستين وخمسمائة وكانت ولايته شهرين وخمسة ايام واما ابتداء امره وسبب اتصاله بنور الدين فانه كان هو واخوه نجم الدين ايوب ابنا شاذي من بلدوين من اذربيجان واصلهما من الاكراد الزوادية وهذا القبيل هم اشرف الاكراد فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فرأى من نجم الدين عقلا وافرا وحسن سيرة وكان اكبر من شيركوه فجعله مستحفظا القلعة تكريت وهي له فسار اليها ومعه اخوه شيركوه فلما انهزم أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق من قراجا السلقي على ما ذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل مهزوما الى تكريت فخدمه نجم الدين واقام له السفن فعبر جلة هنالك وتبعه اصحابه فاحسن ايوب صحبتهم وسيرهم ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت لملاحة جرت بينهما فاخرجه ما بهروز من القلعة فسارا الى الشهيد زنكي فاحسن اليهما وعرف لهما خدمتهما واقطعهما اقطاعا حسنا فلما ملك قلعة بعلبك جعل ايوب مستحفظا بها فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها فضاق عليه الامر وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولا عنه باصلاح البلاد فاضطر الى تسليمها اليهم فسلمها على اقطاع ذكره فاجيب الى ذلك وصار من اكبر الامراء بدمشق واتصل اخوه اسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي وكان يخدمه في ايام والده فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره فلما اراد نور الدين ملك دمشق امره فراسل اخاه ايوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها فاجاب الى ذلك على ما يراد منه على اقطاع ذكره له ولاخيه وقرى يتملكانها فاعطاهما ما طلبا وفتح دمشق على ما ذكرناه ووفى لهما وصارا اعظم امراء دولته فلما اراد ان يرسل العساكر الى مصر ليزيل هذا الامر العظيم والمقام الخطر غيره فارسله لفعل ما ذكرناه اولا وآخرا والله اعلم

(ذكر ملك صلاح الدين مصر)

لما توفي اسد الدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن اخيه ايوب بن شاذي قد سار معه على كره منه للسير حكى لي عنه بعض اصدقائنا ممن كان قريبا اليه خصيصا به قال لما ردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج ويطلب ارسال العساكر أحضرني واعلمني الحال وقال تمضي الى عمك اسد الدين بحمص مع رسولي اليه ليحضر وتحثه انت على الاسراع فما يحتمل الامر التأخير ففعلت وخرجنا من حلب فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادما في هذا المعنى فامر نور الدين بالمسير فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي الي فقال لي تجهز يا يوسف

فقلت

طلبهم * فاحاطوا بهم * احاطة الازرار بالاعناق * وحكموا فيهم حدود البواتر الرقاق * فلما رأى بجهرا ما دهاه عمد الى خنصر في خصره * فهتك به حجاب صدره * وانتقل الى نار الله الموقده * التي تطلع على الافئده * جزاء لمن كان كفر وتولى * وجحد الاولى ولا صنام ولا صلى * ولا سبح ربه الاعلى * نعم واقبل عسكر السلطان فقتلوا الجماعة المقاتلة * وغنموا الاموال الحاصلة * وخص السلطان مائة وعشرون رأسا من الفيلة * عما يضاهيها من ذخائر الاموال والاسلحة ملكا عز على غيره مناله * وما كان تطفل على حلته حلاله * وقام بها طية الى ان ظهرها من انجاس أوائك الارجاس * وادناس أوائك الانكاس * ونصب بها من يعلم حلة الدين سنن الاسلام ثم كر الى غزنة موفور العلاء * منصور اللواء * عالي الرأي سائر الجد على خط الاستواء * الا انه وافق منصرفه هوا مى امطار * وطوامى انهار * وقوارع جبال * وقوارع اضداد واقتال * فاستغرق الغرق جل اثقاله * وشمل

فقلت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية وغيرها ما لا انساه ابدا فقال لنور الدين لابد من مسيره معي فتأمر به فامرني نور الدين وانا استقبل وانقضى المجلس وتجهز اسد الدين ولم يبق غير المسير قال لي نور الدين لابد من مسيرك مع عمك فشكوت اليه الضائقة وعدم البرك فاعطاني ما تجهزت به فكانما اساق الى الموت فسرت معه وملكها ثم توفي فملكني الله تعالى ما لا كنت اطمع في بعضه واما كيفية ولايته فان جماعة من الامراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الياروقي وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكاري وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع اصحابه ليغالب عليها فارسل العاضد الى صلاح الدين احضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذي حمله على ذلك ان اصحابه قالوا له ليس في الجماعة اضعف ولا اصغر سنا من يوسف والرأي أن يولى فانه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من يمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه احد من اولئك الامراء الذين يريدون الامر لانفسهم ولا خدموه وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع المشطوب حتى اماله اليه وقال له ان هذا الامر لا يصل اليك مع عين الدولة والحارمي وغيرهما ثم قصد الحارمي وقال هذا صلاح الدين هو ابن اختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الامر فلا تكن اول من يسعى في اخراجه عنه ولا يصل اليك فمال اليه ايضا ثم فعل مثل هذا بالباقين وكلهم اطاع غير عين الدولة الياروقي فانه قال أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام ومعه غيره من الامراء وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نور الدين يكاتبه بالامير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن ان يكتب اسمه وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الامير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الامراء بالديار المصرية يفعلون كذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاضد ثم ارسل صلاح الدين يطلب من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله فارسلهم اليه وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته وكلهم فعل ذلك واخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها اهله والامراء الذين معه وزادهم فازداد له حبا وطاعة قد اعتبرت التواريخ فرأيت كثيرا من التواريخ الاسلامية التي يمكن ضبطها ورأيت كثيرا ممن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه الى بعض اهله واقاربه منهم اول الاسلام معاوية بن ابي سفيان اول من ملك من اهل بيته فتنتقل الملك من اعقابه الى بني مروان من بني عمه ثم من بعده السفاح اول من ملك من بني العباس انتقل الملك من اعقابه الى اخيه المنصور ثم السامانية اول من استبد منهم نصر بن احمد فانتقل الملك عنه الى اخيه اسمعيل بن احمد واعقابه ثم يعقوب الصفار وهو اول من ملك من اهل بيته فانتقل الملك الى اخيه عمرو واعقابه ثم عماد الدولة ابن بويه اول من ملك من اهله انتقل الملك عنه الى اخويه ركن الدولة وعز الدولة ثم خلص في عقاب ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص في اعقاب ركن الدولة ثم الدولة السلجوقية اول من ملك منهم طغرلبك انتقل الملك الى اولاد اخيه داود ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك الى اعقاب

التغرق جملة من رجاله * ووقاه الله تعالى آفة * تلك المسافة * ومهالك * تلك المسالك * وهو يتولى الصالحين وقد كان ابو الفتح علي بن محمد البستي ينكر حركات السلطان في نفسه في تلك المقاصد * برأي يستمليه من عطارده * وحقا لقد كان يقول * ما تشهد به العقول * ولكن اذا جاء بهرام * والسيف الحسام * والبطش والاقدام فقد سقط الكلام * وبطلت الصحائف والاقلام وانشد ابو الفتح البستي في هذا الباب لنفسه قوله

الا ابلغ السلطان عني نصيحة
يشيمها او دور أي محنك
تجاوزت اوج الشمس عزا ورفعة
وذلت قسرا كل من قد تملكوا
فاحركات متعبات تديمها
تأن فأوج الشمس لا يتحرك

وهذه مسئلة تتنازعها الاوائل فمنهم من يجعل لاوج الشمس حركة كسائر حركات الاوجات فاما المحققون فقد انكروه ببراهين هندسية * واشكال برهانية

اخيه ايوب ثم ان صلاح الدين لما انشأ الدولة وعظمها وصار كانه اول لها انقل الملك الى اعقاب اخيه العادل ولم يبق بيد اعقابه غير حلب وهذه اعظم الدول الاسلامية ولولا خوف التطويل لذكرنا اكثر من هذا والذى اظنه السبب فى ذلك ان الذى يكون اول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله اعقابه ومن يفعل ذلك من اجلهم عقوبة له

(ذكر وقعة السودان بمصر)

فى هذه السنة فى اوائل ذى القعدة قتل مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد اليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم الى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع انسان يثقون اليه واقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك القاصد الى البئر البيضا فلقيه انسان تركمانى فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فانه رث الهيئة وارتاب به وبهما فاتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه وكان مقصود مؤتمن الخلافة ان يتحرك الفرنج الى الديار المصرية فاذا وصلوا اليها خرج صلاح الدين فى العساكر الى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على من خلفهم فيقتلونهم ثم يخرجون بجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والفرنج من بين يديه فلا يبقى لهم باقية فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودى فأحضره فامر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم واخبره الخبر واخفى صلاح الدين الحال وان مؤتمن الخلافة استشعر فلازم القصر ولم يخرج منه خوفا واذا خرج لم يبعد من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شيأ من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الامر خرج من القصر الى قرية تعرف بالخرقانية للتنزه فلما علم به صلاح الدين ارسل اليه جماعة فاخذوه وقتلوه واتوا برأسه وعزل جميع الخدم الذين يتولون امر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى ابيض وكان لا يجرى فى القصر صغير ولا كبير الا بامره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولانه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين الفا وقصدوا حرب الاجناد الصلاحية فاجتمع العسكر ايضا وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل فى الفريقين فارسل صلاح الدين الى محلتهم المعروفة بالمنصورة فاحرقها على اموالهم واولادهم فلما اتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف واخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الامان بعد أن كثر فيهم القتل فاجيبوا الى ذلك فاخرجوا من مصر الى الجيزة فعبر اليهم شمس الدولة اخو صلاح الدين الاكبر فى طائفة من العسكر فابادهم بالسيف ولم يبق منهم الا القليل الشريد وكفى الله تعالى شرهم والله اعلم

(ذكر ملك شملة فارس واخراجه عنها)

فى هذه السنة ملك شملة صاحب خوزستان بلاد فارس واخرج عنها وسبب ذلك ان زنكى بن دكلا صاحبها اساء السيرة مع عسكره فارسلوا الى شملة بخوزستان وحسنوا له قصد فارس لجمع عساكره وتجهز وسار اليها فخرج اليه زنكى بن دكلا ووقعت بينهم حرب خامر فيها اصحاب زنكى عليه فانهزم فى شرذمة من عسكره ونجا بنفسه وقصد الاكراد الشوانكار والتجأ اليهم

(ذكر غزوة الملتان)

قد كان بلغ السلطان يمين الدوله وامين الملة حال والى الملتان ابى الفتوح من خبث نحلته ودخل دخلته ودحس اعتماده وقبح الحاده ودعائه الى مثل رأيه اهل بلاده فأنف للدين من مقارنته على قطاعة شرته وشناعة امره واستخار الله تعالى الخائر فى قصده لاستتابته وتقديم حكم الله تعالى فى الايقاع به وامر بضم الاطراف وكفت الذيول وجمع الخيول الى الخيول وضوى اليه من مطوعة المسلمين من ختم الله لهم بصالح العمل واكرمهم باحدى الحسنيين فى الازل وثاربهم نحو الملتان عند موج الربيع بسيول الانواء وسيح الانهار بفضول الانداء وامتناع سيحون واخواتها على ركابها واستصعاب متونها على اصحابها فطلب السلطان الى اندبال عظيم الهند ان يطرق له فى مملكته الى مقصده فمنع وتمرد واخذته العزة باللوم فابى وتشدد ورأى السلطان غرة الرأى فى

فاجاره صاحبها واحسن ضيافته ونزل شملة ببلاد فارس فملكها فاساء السيرة الى اهلها ونهب ابن اخيه ابن شنكا البلاد فتغيرت بواطن اهلها عليه واجتمع الى زنكي بعض العسكر الذين خامروا عليه لما رؤا من سوء سيرة شملة واستعاد زنكي بلاده ورجع الى ملكه وعاد شملة الى بلاد خوزستان

(ذكر ملك ايلدكز الرى)

في هذه السنة ملك ايلدكز مدينة الرى والبلاد التي كانت بيد اينانج وسبب ذلك ان ايلدكز كان قد استقر الامر بينه وبين اينانج على مال يؤديه الى ايلدكز فمنعه سنتين فارسل ايلدكز يطلب المال فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته فتجهز ايلدكز وقصد الرى فالتقاه اينانج وحاربه حربا عظيما فانهزم اينانج ومضى منهزما فتحصن بقلعة طبرك فحصره ايلدكز فيها وراسل سرا جماعة من مماليكه فاطمعهم في الاقطاعات والاموال والاحسان العظيم ليقتلوا اينانج فقتلوه وكانوا جماعة كثيرة وساروا البلاد الى ايلدكز فرتب فيه عمر بن علي ياغ وعاد الى همذان ولم يف للغلمان الذين قتلوا اينانج وساروا البلاد اليه بما وعدهم وقال مثل هؤلاء ينبغي ان لا يستخدموا وأبعدهم عنه فتفرقوا في البلاد فسار بعضهم وهو الذي تولى قتله الى خوارزمشاه فصلبه خوارزمشاه نكالا بما فعل بصاحبه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة رؤي في دار الخليفة رجل غريب في الطريق التي يركب فيه وفي يده سكين صغيرة وفي يده الاخرى سكين كبيرة فاخذوه وقرروه فقال انا من حلب فحبس وعوقب البواب ولم يعلم من أين دخل وفيها قبض ابن البلدي وزير الخليفة على الحسين بن محمد المعروف بابن السيفي وعلى اخيه الاصغر وكانا ابني عمة عضد الدين استاذ الدار وكان الاصغر عامل البيمارستان فقطعت يده ورجله قيل كان عنده صنج يقبض بها ويحمل الى الديوان بالصنج الصحيحة وقيل غير ذلك وحمل الى البيمارستان فمات به وكان شاعرا فمن شعره وهو محبوس هذه الابيات

سلام على اهلي وصحبي وجلاسي * ومن في فؤادي ذكرهم راسب راسي
اعالج فيكم كل هم ولا أرى * لداء همومي غير رؤيتكم آسي
لقد ابدت الايام لي كل شدة * تشيب لها الا كباد فضلا عن الراس
فيا ابنة عبد الله صبرا على الذي * لقيت فهذا الحكم من مالك الناس
فلو ابصرت عيناك ذلي بكيت لي * بدمع سوى بالمدامع رجاس
اقول لقلبي والهموم تنوشه * وقد حدثته النفس بالضر والياس
فلو هم طيف من خيالي يزوركم * لما نمته دون المغالق حراسي
وما حذري الا على النفس لا على * سواها الا اني حلف فقر وافلاس

وفيها توفي المعمر بن عبد الواحد بن رجا ابو احمد الاصفهاني الحافظ يروي عن اصحاب ابي نعيم وكان مولده بالبادية ذاهبا الى الحج في ذي القعدة وفي رجب منها توفي الشيخ ابو محمد الفارقي المتكلم على الناس وكان احد الزهاد له كرامات كثيرة وكان يتكلم على الخاطر وكلامه مجموع مشهور وفيها مات جعفر الرقاص من ندماء الخلافة وفي شوال منها توفي القاضي ابو

دهمه ذلك الخطب ان يدأبه * على عزة جانبه *
فيذل صليفه * ويبيح غريفه * ويمزق لفه واقيفه
جامعا بين غزوتين * وقاطفا جنى الجنتين *
فبسط عليه ايدي القتل والايثاق * والنهب والارهاق * والهدم والاحراق * يلجئه من مضيق الى مضيق * وينفيه من طريق الى طريق *
طاويا عليه بلاده طي التجار بحضرموت برودا الى ان ضجرت القنا من هتك حلق الدروع * وسكرت الظبا من رشف عاتق الاحشاء والضلوع * وركب اثره في اغوار دياره * واعماق رباعه * يتجسس دمائه السهول وقضض الاماعز * ويقرى عليه وحوش الجو بين ضيق المداخل ورحب المفاوز * حتى اضمرته قشمير ولما سمع ابو الفتوح بالى الملتان بما جرى من امر عظيم الهند وهو الوجيه الرفيع * والسيد المنيع * والسيف الصنيع * فاس باعه بشبره * وذراعه بفتره *

الحسن علي بن يحيى القرشي الدمشقي وفي ذي الحجة توفي نجم الدين بن محمد بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل وولي ابنه حجة الدين عبد القاهر القضاء

(ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة)

(ذكر حصر الفرنج دمياط)

في هذه السنة في صفر نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج بالشام لما ملك اسد الدين شيركوه مصر قد خافوه وايقنوا بالهلاك وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والاندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الاتراك مصر وانهم خائفون على البيت المقدس منهم فارسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فأمدوهم بالاموال والرجال والسلاح واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا يملكون به الديار المصرية فرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا فالى أن دخلوا كان اسد الدين قد مات وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فارسل اليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده وامدهم بالاموال والسلاح والذخائر وارسل الى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة ويقول اني ان تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وان سرت اليها خلفني المصريون في اهلها بالشر وخرجوا عن طاعتي وسار وا في اثري والفرنج أمامي فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العساكر اليه أرسالا يتلو بعضها بعضا ثم سار هو بنفسه الى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات الى مالم تكن تبلغه قبل فخلوا البلاد من مانع فلما رأى الفرنج تتابع العساكر الى مصر ودخول نور الدين الى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشئ ووجدوا بلادهم خرابا واهلها بين قتيل واسير فكانوا موضع المثل خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا اذنين وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما اخرج فيها صلاح الدين اموالا لا تحصى حكي انه قال ما رأيت اكرم من العاضد ارسل الى مرة لمقام الفرنج على دمياط الف الف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها

(ذكر حصر نور الدين الكرك)

في هذه السنة في جمادى الآخرة سار نور الدين الى بلد الفرنج فحصر الكرك وهو من امنع المعاقل على طرف البر وكان سبب ذلك ان صلاح الدين ارسل الى نور الدين يطلب ان يرسل اليه والده نجم الدين ايوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكرا واجتمع معه من التجار خلق كثير وانضاف اليهم من كان له مع صلاح الدين انس وصحبة فخاف نور الدين عليهم من الفرنج فسار في عساكره الى الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المنجنيقات فاتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا له وساروا اليه وقد جعلوا في مقدمتهم اليه ابن هنفري وقريب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وقتهما فرحل نور الدين نحوهم ليلقاهم وكان المقدمين ليلقاهما ومن معهما قبل ان يلتحق بهما باقي الفرنج فلما فارجهما سار جما القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج وسلك نور الدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى الى ان وصل الى بلاد الاسلام فنزل على عسقلان واقام ينتظر حركة الفرنج لما لقاهم فلم يبرحوا من مكانهم فاقام هو حتى اتاهم خبر الزلزلة الحادثة فرحل

وايقن ان رعن الجبال لا تطال بهضبات القور * وزرق البزاة لا تنال بيغاث الطيور * فحمل نقل امواله على ظهور فياته الى سرنديب واخلى الملتان للسلطان يفعل فيها ما يشاء فثنى العنان اليها * وتوجه اليها * مستعينا بالله على من احدث في دينه * وحدث بتوهينه * فاذا اهلها في ضلالتهم يخبطون * وفي طغيانهم يعمهون * يريدون ليطفؤا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * فضرب عليهم بجران المحاصره وكلكل المناجزة والمناحره جزا للغلاصم * وبتكا للايدي من المعاصم * وارصادا لهم بالفاقرات القواصم * حتى افتضها عنوه * وشفها عقابا وسطوه والزمهم عشرين ألف ألف درهم يرضون بها دنس استصفايهم * ويفدون من انفسهم هجنة استشرافهم واباتهم * وعبر ذكره بما آتاه الله من نصرة الدين * وانارة معالم اليقين عرض البصر الى ديارات مصر حتى درست بها مقاماته التي لم يرومثلها عن ذي القرنين * الى حيث

واما نجم الدين ايوب فانه وصل الى مصر سالما هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة التقاه اكراما له

(ذكر غزوة لسرية نورية)

كان شهاب الدين الياس بن ايلغازى بن ارتق صاحب قلعة البيرة قد سار فى عسكره وهو فى مائتى فارس الى نور الدين وهو بعشترا فلما وصل الى قرية اللبوة وهى من عمل بعلبك ركب متصيدا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد سارو الاغارة على بلاد الاسلام سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان لاسيما المسلمون فان الف فارس لا يصبرون لحملة ثلثمائة فارس افرنجية وكثر القتلى بين الطائفتين فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر فلم يفلت منهم الا من لا يعتد به وسار شهاب الدين برؤس القتلى وبالاسرى الى نور الدين فركب نور الدين والعسكر فلقوهم فرأى نور الدين فى الرؤس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وكان شجى فى حلوق المسلمين

(ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام)

فى هذه السنة ايضا ثانى عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها وعمت اكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد واشدها كان بالشام فخربت كثيرا من دمشق وبعلبك وحمص وحماة وشيزر وبعرين وحلب وغيرها وتهدمت اسوارها وقلاعها وسقطت الدور على اهلها وهلك منهم ما يخرج عن الحد فلما اتاه الخبر سار الى بعلبك ليعمر ما تهدم من سورها وقلعتها فلما وصلها اتاه خبر باقى البلاد وخراب اسوارها وقلاعها وخلوها من اهلها فجعل ببعلبك من يعمرها ويحفظها وسار الى حمص ففعل مثل ذلك ثم الى حماة ثم الى بعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج ثم اتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فانها كانت قد اتت عليها وبالغ الرعب ممن نجا كل مبلغ وكانوا لا يقدرون ياوون مساكنهم خوفا من الزلزلة فاقام بظاهرها وباشر عمارتها بنفسه فلم يزل كذلك حتى احكم اسوار البلاد وجوامعها واما بلاد الفرنج فان الزلازل ايضا عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفا من نور الدين عليها فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفا من الآخر

(ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى وملك ابنه سيف الدين غازى)

فى هذه السنة فى ذى الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وكان مرضه حمى حادة ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الاكبر عماد الدين زنكى وعدل عنه الى ابنه الآخر سيف الدين غازى وانما صرف الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكى بن مودود لان القيم بامور دولته والمقدم فيها كان خادما له يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لانه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ولانه زوج ابنته وكان نور الدين يبغض عبد المسيح فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى وهى والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين الى سيف الدين فدخل عماد الدين الى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على اخذ الملك لنفسه وتوفى قطب الدين وعمره نحو اربعين سنة وكان ملكه

انتهى من امر السدين فارتدت فرائص السند واخواتها حذار بطشه وانتقامه وخفقت بها نجوى الالحاد وطمست صوى الغى والعناد وقد قال ابو تمام حيث يقول

كرمت غزوتك بالامس والخيل دقاق والخطب غير دقيق
حين لاجلدة السماء بمخضرا ولا وجه شتوة بطليق
ان ايامك الحسان من الرو م لحمر الصبوح حمر الغبوق
معلمات كانها بالدم المه راق أيام النحر والتشريق

(ذكر عبور عسكر ايلك الخان نحو خراسان)

قد كانت الحال فى الالفة قائمة بين السلطان سنجر بن ملكشاه وبين الدولة وامين الملة وبين ايلك الخان الى ان دبت

احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصفا وكان فخر الدين هو المدبر للامور والحاكم فى الدولة وكان قطب الدين من احسن الملوك سيرة واعفهم عن أموال رعيته محسنا اليهم كثير الانعام عليهم محبوبا الى كبيرهم وصغيرهم عطوفا على شريفهم ووضيعهم كريم الاخلاق حسن الصحبة لهم فكان القائل اراده بقوله

خلق كماء المزن طيب مذاقة * والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع * عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث الا أن وابل جوده * ابدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر الا أنه ذو رحمة * والدهر قاسى القلب غير رحيم

وكان سريع الانفعال للخير بطيأ عن الشر جم المناقب قليل المعايب رحمه الله ورضى عنه وعن جميع المسلمين بمنه وكرمه انه جواد كريم

(ذكر حالة ينبغى للملوك ان يحترز وا من مثلها)

حدثنى والدى رحمه الله قال كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم فلما كان قبل موته ببسير أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة وهذه العقيمة هى قرية تحاذى الجزيرة منها دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يمسح فيؤخذ منه على كل جريب شئ معلوم وبعضها عليه خراج وبعضها مطلق عن الجميع قال وكان لى فيها ملك كثير فكنت اقول ان المصلحة ان لا يغير على الناس شئ وما اقول هذا لاجل ملكى فانى انا امسح ملكى وانما اريد ان يدوم الدعاء من الناس للدولة فجاءنى كتاب النائب يقول لابد من المساحة قال فأظهرت الامر وكان بها قوم صالحون لى بهم انس وبيننا مودة فجاءنى الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فاعلمتهم انى راجعت وما اجبت الى ذلك فجاءنى منهم رجلان اعرف صلاحهما وطلبا منى المعاودة ومخاطبة ثانية ففعلت فاصروا على المماسحة فعرفتهما الحال قال فمضى الاعدة ايام واذ قد جاءنى الرجلان فلما رأيتهما ظننت انهما جاآ يطلبان المعاودة فحجبت منهما واخذت أعتذر اليهما فقالا ما جئنا اليك فى هذا وانما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت قال فظننت انهما قد ارسلا الى الموصل الى من يشفع لهما فقلت من الذى خاطب فى هذا بالموصل فقالا ان حاجتنا قد قضيت من السماء والكافة اهل العقيمة قال فظننت أن هذا مما قد حدثا به نفوسهما ثم قاما عنى فلم يمض غير عشرة ايام واذا قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون باطلاق المساجين والمحبوسين والمكوس ويأمرون بالصدقة ويقال ان السلطان يعنى قطب الدين مريض يعنى على حالة شديدة ثم بعد يومين او ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته فحجبت من قولهما واعتقدته كرامة لهما فصار والدى بعد ذلك يكثر اكرامهما واحترامهما ويزورهما

(ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش)

كان محمد بن سعيد بن مردنيش ملك شرق الاندلس قد اتفق هو والفرنج وامتنع على عبد المؤمن وابنه بعده فاستفحل امره لاسيما بعد وفاة عبد المؤمن فلما كان هذه السنة جهز اليه يوسف بن عبد المؤمن فجاسوا بلاده وخربوها واخذوا مدينتين من بلاده واخافوا عساكره وجنوده واقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ويجبون اموالها

عقارب الفساد فى ذات البين واضطراب الحبل الساكن واشتعال الجمر الهامد وراعى ابلك فرصة المجاهره * بسر المكاشره * حتى اذا صمد السلطان * صمد الملتان * وغارت نحو تلك البلاد راياته * وخفقت عن اعيان رجاله ولاياته * سرب سباشى تكين صاحب جيشه وأحد قراباته * الى كور خراسان فى معظم اجناده * وشحن بلخ بجمفر تكين وعدة من قواده وكان والى طوس ارسلان الجاذب مقيما بهراه مأمورا بالانحياز الى غزنة متى نجم ناجم عناد * او نعق ناعق بفساد * فأسرع الانقلاب اليها اخذا بوثيقة الحزم فى ترك القتال

(ذكر وفاة صاحب كرمان والخلف بين اولاده)

فى هذه السنة توفى الملك طغرل بن قاورت صاحب كرمان واختلف أولاده بهرام شاه وارسلان شاه وهو الاكبر وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه الى خراسان فدخل على المؤيد صاحب نيسابور واستنجده فانجده بعساكر وسار بها الى كرمان فجرى بين الاخوين حرب ظفر فيها بهرام شاه وهرب ارسلان شاه فقصد اصفهان مستجيرا بابلدكز فانفذ معه عسكرا واستنقذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها الى اخيه ارسلان شاه فعاد بهرام شاه الى نيسابور مستجيرا بالمؤيد صاحبها فاقام عنده فاتفق أن اخاه ارسلان شاه مات فسار الى كرمان فملكها واقام بها بغير منازع

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كثرت الاذية من عبد الملك بن محمد بن عطاء وتطرق الى بلاد حلوان ونهب وأفسد وأخذ من الحجاج فانفذ اليه من بغداد عسكر فنازلوه فى قلاعه وضايقوه ونهبوا امواله واموال أهله حتى أذعن بالطاعة ولا يعاود اذى الحجاج ولا غيرهم فعاد عنهم العسكر وفيها توفى مجد الدين أبو بكر بن الدايه وهو رضيع نور الدين وكان أعظم الامراء منزلة عنده وله فى اقطاعه حلب وحارم وقلعة جعبر فلما توفى ردّ نور الدين ما كان له الى أخيه شمس الدين على بن الدايه وفيها فى شعبان توفى أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلى وهو من مشهورى المحدثين (الجيلى) بالجيم والياء تحتها نقطتان

(ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة المستنجد بالله)

فى هذه السنة تاسع ربيع الآخر توفى المستنجد بالله ابو المظفر يوسف بن المقتفى لامر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله وقد تقدم باقى النسب فى غير موضع وأمه ام ولد اسمها طاوس وقيل نرجس رومية ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية وكان سبب موته انه مرض واشتد مرضه وكان قد خافه استاذ الدار عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوى وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووضعا الطبيب على ان يصف له ما يؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه ثم انه دخل واغلق عليه بابه فمات وهكذا سمعت عن غير واحد ممن يعلم الحال وقيل ان الخليفة كتب الى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على استاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية باستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول اننى أوصلت الخط الى الوزير ففعل ذلك وحضر استاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تناميش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فدخل اليه يزدن وقايماز الحمدى فحملاه الى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح الى ان مات رحمه الله وكان وزيره أبا جعفر بن البلدى وبينه وبين استاذ الدار وبين قطب الدين عداوة مستحكمة لان المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان انه هو الذى يسعى بهما فلما مرض المستنجد وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الامراء والاجناد وغيرهما بالعدد فلم يتحقق عنده خبر

وتربها بالجهل غاية الفضائل ووردت بساحتى تكين هراة فاستوطنها وندب الحسين ابن نصر اصحابة الديوان بنيسابور فرتب الاعمال وواصل الاستخراج وما يلهم كثير من أعيان خراسان لاستخفافه خبر السلطان * من جانب الملتان * وتناقل الالسنة أهواء القلوب وتوازع النفوس أخابير زور * وأراجيف غرور * وأمر الوزير أبو العباس الفضل ابن أحمد بالاحتياط على الطرق بين غزنة وحدود بامبان وبنصهير وسدها بحماة الرجال على حصانة مداخلها * وصعوبة مراكبها * وطير البريد الى السلطان بما انبث فى أطراف البلاد من حيات العداء * وعقارب الغواء * فأعجلته بديهة البلاغ عن استتمامه * وأزعجته غلبة الحمية عن مقامه * فركب ركوب الريح العاصف كأف الجهام البارق * يطوى الارض طى المهارق * بين ايضاع وايجاف * واهتداء واعتساف * وبين سهول وظراب * وسهوب وشعاب * حتى ألقى عصا القرار بغزنة وأقام العطاء لابناء دولته * وانشا جلته * وملأ ايديهم بالعطايا * والرغائب * وأزاح علتهم فى المطايا * والركائب *

مرته فأرسل اليه عضد الدين يقول ان امير المؤمنين قد خف ما به من المرض وأقبلت العافية فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد الى داره وتفرق الناس عنه وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفا منه ان دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد اغلق استاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضروا قطب الدين ابنه أبا محمد الحسن وبايعوه بالخلافة ولقباه المستضئ بأمر الله وشرط عليه شروطا ان يكون عضد الدين وزيرا وابنه كمال الدين استاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم الى ذلك ولم يتول الخلافة من اسمه الحسن الا الحسن بن علي بن ابي طالب والمستضئ بأمر الله واتفقا في الكنية والكرم فبايعه اهل بيته البيعة الخاصة يوم توفي أبوه وبايعه الناس من الغد في التاج بيعة عامة وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه وفرق أموالا جليلة المقدار وعلم الوزير ابن البلدي فسقط في يده وقرع سنه ندما على ما فرط في عوده حيث لا ينفعه وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضئ فمضى الى دار الخلافة فلما دخلها صرف الى موضع وقتل وقطع قطعا وألقي في دجلة رحمه الله وأخذ جميع ما في داره فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض عليهما وخط الوزير قد راجعه في ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كانا يظنان فيه فندما حيث فرطا في قتله وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيأ وكان شديدا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس (بلغني) انه قبض على انسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي انسانا آخر مثله لا كف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الاموال على أصحابها أيضا وقبض على القاضي ابن المرخم وأخذ منه مالا كثيرا فعاده على أصحابه ايضا وكان ابن المرخم ظالما جائرا في أحكامه

(ذكر ملك نور الدين الموصل واقرار سيف الدين عليها)

لما بلغ نور الدين محمودا وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازي الموصل والبلاد التي كانت لابيه بعد وفاته وقام فخر الدين عبد المسيح بالامر معه وتحكمه عليه وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته فقال أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم وسار عند انقضاء العزاء جريدة في قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل المحرم من هذه السنة وقصد الرقة فحصرها وأخذها ثم سار الى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين واقام بها الجمع العساكر فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وكثر جمعه وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره فلما اجتمعت العساكر سار الى سنجار فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وملكها وسلمها الى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين وكان قد جاءته كتب الامراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول اليهم فسار الى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة عندها مخاضة الى الجانب الشرقي وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل ومن العجب ان يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان سيف الدين غازي قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين الى

واستقر الاتراك الخلجية
احلاس الظهور وابناء
الصوارم الذكور فنفر
منهم
جن على جن وان كانوا بشر
كأنما خيطوا عليها بالابر
وجاش نحو بلخ وبها جعفر
تكين فاسرع السكر الى
ترمذ اشفاقا من ضغمة
الضيغم الخادر واحتراسا
من وثبة الارقم الثائر
واستقر السلطان ببلخ
موفور الانس والجذل
كما تجلى صفحة الشمس من
برج الحمل وأمر باتباع
سباشي تكين بارسلان
الجاذب فأتبعه في زهاء
عشرة آلاف من أبناء
الكفاح ومنحة الارواح
بأشطان الرماح وسارع
سباشي تكين نحو الوادي
للعبور فلم ترعه الا العاديات
ضوابح والموريات
قوادح فكر على أدراجه
حائرا عائرا وعطف الى
مرو على أن ينسرح منها
الى الشط على سمت المفازة
فاذا الآبار مردومة
والمناهل مطمومة
ووديقة الصيف مسعورة
وأذيال السوافي على المعالم
مجرورة فاثنى الى
سرخس وبها المخمس بن
طاق رئيس الاتراك الغزية
فاحداق به حداقا استد عليه
باب الهرب وضيق دونه

اتابك شمس الدين ايلدكز صاحب همذان وبلاد الجبل واذربيجان واصفهان والرى وتلك الاعمال يستنجده على عمه نور الدين فأرسل ايلدكز رسولا الى نور الدين ينهاه عن التعرض الى الموصل ويقول له ان هذه البلاد للسلطان فلا تقصدها فلم يلتفت اليه وقال للرسول قل لصاحبك انا أصلح لاولادك منك فلم تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من اصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان فانك قد ملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقد بليت أنا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج وهم أشجع العالم فأخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم ولا يحل لى السكوت عنك فانه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وازالة الظلم عن المسلمين فاقام نور الدين على الموصل فعزم من بها من الامراء على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان وتسليم البلد الى نور الدين فعلم ذلك فأرسل الى نور الدين فى تسليم البلد اليه على ان يقره بيد سيف الدين ويطلب لنفسه الامان ولماله وأجابه الى ذلك وشرط ان فخر الدين يأخذ معه الى الشام ويعطيه عنده اقطاعا يرضيه فتسلم البلد ثالث عشر جمادى الاولى من هذه السنة ودخل القاعة من باب السر لانه لما بلغه عصيان عبد المسيح عليه حلف ان لا يدخلها الا من احسن موضع فيها ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من ابواب المظالم وكذلك فعل بنصيبين وسنجار والخابور وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصر ووصله وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضئ بأمر الله فلبسها ولما ملك الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النورى وركب هو بنفسه الى موضعه فرآه وصعد منارة مسجد أبى حاضر فاشرف منها على موضع الجامع فامر أن يضاف الى الارض التى شاهدها ما يجاورها من الدور والحوانيت وأن لا يؤخذ منها شئ بغير اختيار أصحابه وولى الشيخ محمد الملا عمارته وكان من الصالحين الاخيار فاشترى الاملاك من أصحابها بأوفر الاثمان وعمره فخرج عليه أموال كثيرة وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة وأما نور الدين فانه عاد الى الشام واستناب فى قلعة الموصل خصما كان له اسمه كستكين ولقبه سعد الدين وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الامور ولا بكثير وحكمه واقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين فلما فعل ذلك قال كمال الدين ابن الشهرزورى هذا طريق الى أذى يحصل بيت أتابك لان عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين وسيف الدين هو الملك لا يرى الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف ويطمع الاعداء فكان كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح وغير اسمه فسماه عبد الله وأقطعه اقطاعا كبيرا

(ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح ايلة)

وفى هذه السنة سار صلاح الدين ايضا عن مصر الى بلاد الفرنج فاغار على اعمال عسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنج فى قلة من العسكر مسرعين لردّه عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن اشرف ان يؤخذ أسيرا وعاد الى مصر وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال فى البر وقصد ايلة فجمع قطع المراكب وألقاها فى البحر وحصر ايلة برا وبحرا وفتحها فى العشر الاول من ربيع الآخر واستباح أهلها وما فيها

وجه الجمال والمضارب * فانعه ما قدر ثم ظفر به
سباشى تكين * فقتله بصفين * بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة من الجانبين * وأعجله ارتداف أرسلان الجاذب اياه عن فضل المقام * وروح الاستجمام * فارتحل الى أيوورد ومنها الى نسا وبينهما مرحلة واحدة كما صدر هذا ورد ذلك ومتى ظعن ذلك أناخ هذا يتقاسمان امداد الطلب والهرب جماما * ولا يردان المياه الا لماما * وقد كان سباشى تكين قد حصل صدرا من المال والاسلحة من نواحى هراة وغيرها فصارت عقلة له دون الخفوق فى وجه النجاة فهو يتيامن مرة ويتياسر أخرى منكوسا على رأسه لا يرفعه خوف العار عن اسلام ما بردت به يداه وأعياه الخلاص بحشاشة النفس آخرا الا بافرازه وتفريغ الخاطر عن الشغل به ولما قرب ارسلان الجاذب من نسا رحل متوجها نحو سيمار وأزعجه الطلب نحو جرجان فركب قلل تلك الجبال بين الآجام الملتفة * والغياض المحتفة * والمخارق الضيقة * والمخارم المضطربة * وتسلط البكرا كية على أثقاله *

وعاد الى مصر

(ذكر ما اعقده صلاح الدين بمصر هذه السنة)

كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة وأقام قاضيا شافعيا فى مصر فاستناب القضاة الشافعية فى جميع البلاد فى العشرين من جمادى الآخرة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اشترى تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين منازل العز بمصر وبناها مدرسة للشافعية وفيها اغار شمس الدولة توران شاه اخو صلاح الدين على الاعراب الذين بالصعيد وكانوا قد أفسدوا فى البلاد ومدوا أيديهم فكفوا عما كانوا يفعلونه وفيها مات القاضى ابن الخلال من اعيان الكتاب المصريين وفضلائهم وكان صاحب ديوان الانشاء بها وفيها وقع حريق ببغداد فى درب المطبخ وفى خرابة ابن جردة وفيها توفى الامير نصر بن المستظهر بالله عم المستنجد بالله وحموه وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله وكان موته فى ذى القعدة ودفن فى التربة بالرصافة وفيها جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار صاحب المخزن ببغداد ذو لقب ظهير الدين وفيها هاج بالناس الامير طاشتكين المستنجدى وكان نعم الامير رحمه الله

(ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة)

(ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية)

فى هذه السنة فى ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العضد لدين الله ابى محمد الامام عبد الله بن يوسف ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبد المجيد بن ابى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لاعزاز دين الله ابى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور بن العزيز بالله أبى منصور بن نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى الظاهر اسمعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن المهدى بالله ابى محمد عبيد الله وهو اول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطبوا بامرة المؤمنين وكان سبب الخطبة العباسية بمصر ان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال الخالفين له وضعف أمر الخليفة بها العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وهو خصى كان من اعيان الامراء الاسدية كلهم يرجعون اليه فكتب اليه نور الدين محمود بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم الى العلويين وكان صلاح الدين يكرر قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين فانه كان يخافه أن يدخل الى الديار المصرية ياخذها منه فكان يريد أن يكون العاضد معه حتى ان قصده نور الدين امتنع به وباهل مصر عليه فلما اعتذر الى نور الدين بذلك لم يقبل عذره والح عليه بقطع خطبته وألزمه الزاما لا فسحة له فى مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق ان العاضد مرض هذا الوقت مرضا شديدا فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم ينكر فى المصريين ومنهم من خافه الا انه ما يمكنه الا امتثال أمر

نور

وافنا رجاله * حتى فشت
نكايتهم فيه واسنأمن
الى شمس المعالى قابوس
ابن وشمكير طوائف من
اهل جلته لعدم المراكب *
وذهاب الحرائب * وانفل
هو على سمت دهستان
حتى عاد الى نسا وجمع
ما بقى عليه من تلك الاثقال
فاصدرها الى خوارزمشاه
أبى الحسين على بن مأمون
وكتب اليه يستودعه اياها
امانة لا يلك الخان وحذره
أن يمد اليها بغير الصيانة
يده واصحبها رجالة عسكره
والعجزة منهم عن صحبته
واقتحم المفازة متوجها
نحو مرو وكان السلطان
قد انحدر الى طوس مراعيا
ما يسفر عنه ركض
ارسلان الجاذب على اثره
والصاقه الطالب الحثيث به
فلما بلغه ركوب سباشى
تكين عرض المفازة اسرى
على طريق مرو معارضا له
فى مسيره * وناقضا عليه
قوى تدبيره * فوصل اليه
مخلصه عن وعثاء * تلك
البيداء * ورماه بأبى
عبد الله محمد بن ابراهيم
الطائى زعيم العرب وسائر
قواده رجال يرون الملاحم
* ولائم * والوقائع * نقائع *
وسيوف الضراب عرائس *
وصفوف الكماة فرائس *
فكان كما قال سعيد

نور الدين وكان قد دخل الى مصر انسان أعجمي يعرف بالامير العالم رأيته انا بالموصل فلما رأى ما هم فيه من الاحجام وان أحدا لا يتجاسر يخطب للعباسي قال أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء ففعلوا ذلك فلم ينقطع فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من اهله وأصحابه بقطع الخطبة وقالوا ان عوفي فهو يعلم وان توفي فلا ينبغي ان نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قدر تبه قبل موت العاضد فحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما او سبعة عشر مثقالا انا الا أشك فاني رأيته ووزنته واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع اصابع في عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ فلما رأوه ظنوه عمل لاجل اللعب فيه فحضروا من العاضد فاخذه انسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان كل من ضرب به ضرط فألقاه أحدهم فكسره فاذا الطبل لاجل قوانج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يعد فباع جميع ما فيه ونقل أهل العاضد الى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه كان لم يغن بالامس فسبحان الحي الدائم الذي لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض اليه فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده وكان في نسبه تسع خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهدي ومنهم من لم يخطب له بالخلافة أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الامير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقي من خطب له بالخلافة وليس من آبائه المستعلي والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بافريقية المهدي والقائم والمنصور والمعز الى أن سار الى مصر ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج اليها من افريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وجميع مدة ملكهم من حين ظهر المهدي بسجلماسة في ذي الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين الى ان توفي العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهرا تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا ومرت ولم تصف الا وتكدرت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله تعالى أن يقبل بقلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا في الآخرة انه سميع الدعاء قريب من الاجابة ولما وصلت البشارة الى بغداد بذلك ضربت البشائر بها عدة ايام وزينت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حد عليه وسيرت الخلع مع عماد الدين

ابن حسان

فررت من معن وافلاسه
الى اليزيدي ابي واقد
فكنت كالساعي الى مشعب
موائلا من سبل الراعد
وأحاطت به السيوف حيث
لا ماء الا منابع الاقواه
وهي عاصبه * ولا مرعى الا
شكائم اللجم وهي عاضبه *
وأمر أخو سباشي تكين
في زهاء سبعمائة من
وجوه الافراد * وربوت
القواد * وامر السلطان
بقراجولياتهم فأفرغت
قيود الكعابهم * وجوامع
لرقابهم * وحملهم الى غزنة
ليرى أهلها حسن صنع الله
تعالى فيمن شاقه * ونقض
عهده وميثاقه * ونجا سباشي
تكين في خف من العدد
بجريدة الذقن فعبر جيحون
الى ايلاك الخان وقد كان
ايلاك الخان عبر جعفر تكين
أخاه في زهاء ستة آلاف
رجل الى بلخ ثانيا الاستفساد
عزيمة السلطان في قصد
سباشي تكين واخراجه
ثانيا فتهاون بهم حتى فرغ
الخاطر من أمره * ووضع
ما أنقضه من الشغل به عن
ظهره * ثم شق العنان اليهم
شدا أغض الهواء بغباره *
واستغرق أوقات ليله
ونهاره * فلم يرعهم الا راياته
بأجنحة الصباح طائره *
وخيوله في صهيل المراح

صندل وهو من خواص الخدم المقتفوية والمقدمين فى الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل الى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة التى لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية والاعلام السود ثم ان هذا صندل لما صار أستاذدار الخليفة المستضىء بامر الله ببغداد وكان يدرى الفقه على مذهب الشافعى وسمع الحديث ورواه ويعرف أشياء حسنة وفيه دين وله معروف كثير وهو من محاسن بغداد

(ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا)

فى هذه السنة جرت أمور أوجبت ان تأثر نور الدين من صلاح الدين ولم يظهر ذلك وكان سببه ان صلاح الدين يوسف بن ايوب سار عن مصر فى صفر من هذه السنة الى بلاد الفرنج غازيا ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيق على من به من الفرنج وأدام القتال وطلبوا الامان واستمهلوه عشرة أيام فاجابهم الى ذلك فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ليدخل اليه من جهة أخرى فقيل لصلاح الدين ان دخل نور الدين بلاد الفرنج وهم على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها وستى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وان جاء نور الدين الملك وأنت ههنا فلا بد لذلك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ان شاء تركك أولا فقد لا تقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع الى مصر فرحل عن الشوبك عائدا الى مصر ولم يأخذه من الفرنج وكتب الى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لامور بلغته عن بعض شيعته العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها فانه يخاف عليها من البعد عنها ان يقوم اهلها على من تخلف بها فيضر جوهم وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلم يقبلها نور الدين منه وتغير عليه وعزم على قصد مصر واخراجه عنها وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع اهله وفيهم أبوه نجم الدين ايوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته اليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فقال اذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهلهم فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وشتم تقى الدين واقعده وقال لصلاح الدين انا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم نمكنك الا ان نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا وكل من تراه عندك من الامراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه وتوابه فيها فان أراد سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه بلغنى أنك تريد الحركة لاجل البلاد فاى حاجة الى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلا و يأخذنى اليك وما ههنا من يمتنع وقام الامراء وغيرهم وتفرقوا على هذا فلما خلا به ايوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم ان نور الدين اذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه اليه وحينئذ لا تقوى علينا وأما الآن اذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والاقدار تعمل عملها ووالله لو أراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل فنفعل صلاح الدين ما أشار به فترك نور الدين قصده

سائره * وكان لهم السلطان فلما رأوا الكمين * انقلبوا منهزمين * يختصمون دعوة الخلاص بآمين آمين * وتبعهم صاحب الجيش أبو المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين على ساحل جيحون كاسما الأدبارهم * ومختفيا فى غمارهم * الى ان عبروه فسلمت خراسان من عيث سوادهم * وخلت عن مبثوث جرادهم فاضطرب ايلك حنقا لما جرى على عسكره من الضغطة الكبيره * والصدمة المبيره * فاستعان بقدرخان ابن بغراخان لقرابة بينهما وكيده * ولحمة وشيجه * واستجره بحفى مسئلته الى أخذ ثاره * مستظهرا بنصرته واظهاره * فاستجاش أحياء الترك من مكانها * وحشر بنى خاقان من أقصى بلدانها * واستنفر دهاقين ماوراء النهر * فى جيوش تجل عن الحد والحصر * وسار فى خمسين ألفا أو يزيدون * حتى عبر جيحون * مدلا بعسكره المائج * وبطشه الهائج * ومعتضدا بقدرخان ملك الختن ذى العدة والعديد * والبأس الشديد * والايد المتين * والبسطة فى المال * والرجال * والتمكين فى رجال كالجبال الفوالج * فوق البحور الموائج *

واشتغل

واشتغل بغيره فكان الامر كما ظنه أيوب فتوفى نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها

(ذكر غزوة الى الفرنج بالشأم)

وفى هذه السنة خرج مركبان من مصر الى الشأم فارستا بمدينة لاذقية فاخذهما الفرنج وهما مملوأتان من الامتعة والتجارة وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فارسل نور الدين اليهم فى المعنى واعادة ما أخذوه من أموال التجار فغالطوه واحتجوا باموور منها ان المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء وكان الشرط ان كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه فلم يقبل مغالطتهم وجمع العساكر وبث السرايا فى بلادهم بعضها نحو انطاكية وبعضها نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه وأرسل طائفة من العسكر الى حصن صافيثا وعريمة فاخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا اليه وهو بعرقة فسار فى العساكر جميعها الى ان قارب طرابلس ينهب ويخرب ويحرق ويقتل وأما الذين ساروا الى انطاكية ففعلوا فى ولايتها مثل ما فعل فى ولاية طرابلس فراجعه الفرنج وبذلوا جميع ما اخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم فاجابهم الى ذلك وأعاد واما أخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم

(ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده)

فى هذه السنة توفى الامير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرق الاندلس وهى مرسية وبلنسية وغيرهما ووصى أولاده ان يقصدوا بعد موته الامير أبا يعقوب وكان قد اجتاز الى الاندلس فى مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش بحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالاموال الجزيلة وأقاموا معه

(ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه)

فى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم فسمع صاحبها خوارزمشاه ايل ارسلان ابن اتسز بجمع عساكره وسار الى امريه ليقاتلهم ويصدهم فعرض وأقام بها وسير بعض جيشه مع أمير كبير اليهم فلقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ورجع به الخطا الى ماوراء النهر وعاد خوارزمشاه الى خوارزم مريضا

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اتخذ نور الدين بالشأم الجمام الهوادى وهى التى يقال لها المناسيب وهى تطير من البلاد البعيدة الى أوكارها وجعلها فى جميع بلاده وسبب ذلك انه لما اتسعت بلاده وطالت مملكته وعرضت أكنافها وتباعدت أطرافها عن أواخرها تم انها جاورت بلاد الفرنج وكانوا ربما نازلوا حصنا من ثغوره فالى ان يصل الخبر ويصل اليهم قد بلغوا غرضهم منه فامر بالحمام ليصل الخبر اليه فى يومه وأجرى الجرايات على المرتبين لحفظها ولمواقامتها فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين وفيها عزل الخليفة المستضىء بامر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء لان قطب الدين قايماز الزمه بعزله فلم يمكنه مخالفته وفيها مات ابو محمد

عراض الوجوه خزر العيون فطس الانوف * خفاف الشعور حداد السيوف * سود الثياب من حاق الدروع يحملون جهابا كغراطيم الفيول * محشوة بنبال كانياب الغول * ولما سمع السلطان بعبوره * فى جمهوره * وكان اذذاك بطخيرستان سبقه الى بلخ فاستوطنها قاطعا عنها طمعه * ومالكا عليه ممتارة ومنتجعه * واستعد للحرب فخرج السلطان فى عساكر الترك والهند والخلج والافغانية والغزنوية أنشاه الجلد والصدق * وأبناء المشق والرشق * الى معسكر له على أربعة فراسخ من البلد يعرف بقنطرة چرخيان وسيع المجال * على الرجال * رحب الفضاء * على الدهماء * وزحف ايلك الى محاذاته فى عدده الدهم وعسكره الجرد فتطارد الفرسان * وتجالد الشجعان * صحابة يومهم على رسم الطلائع * أمام الوقائع * الى أن كفهم حاجز الليل وأصبح الناس على ميعاد الحرب فعبى السلطان رجاله صفوفا كالجبال الراسيات * والبحار الزاخرات * ورتب فى القلب أخاه صاحب الجيش نصرا ووالى الجوزجان ابا نصر

عبد الله بن أحمد الخشاب اللغوي وكان قيما بالعربية وسمع الحديث وفيها مات البوري الفقيه الشافعي تفقه على محمد بن يحيى وقدم بغداد ووعظ وكان يذم الحنابلة وكثرت أتباعه فاصابه اسهال فمات هو وجماعة من أصحابه فقيل ان الحنابلة اعدوا له حلوا فاكل منها فمات وكل من أكل منها وفيها مات القرطبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الازدي الاندلسي وكان اماما في القراءة والنحو وغيره من العلوم زاهدا عابدا انتفع به الناس في كثير من البلاد ولاسيما أهل الموصل فانه أقام بها وفيها توفي رحمه الله

(ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة)

(ذكر وفاة خوارزمشاه ايل ارسلان وملك ولده سلطانشاه وبعده ولده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه)

في هذه السنة توفي خوارزمشاه ايل ارسلان بن اتسز بن محمد بن انوشتكين قدعاد من قتال الخطا مريضا فتوفي وملك بعده سلطانشاه محمود ودبرت والدته المملكة والعساكر وكان ابنه الاكبر علاء الدين تكش مقيما في الجند قد اقطعه ابوه اياها فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير انف من ذلك وقصد ملك الخطا واستمده على أخيه وأطمعه في الاموال وذخائر خوارزم فسير معه جيشا كثيفا قدموا قرما فساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطانشاه وأمه الى المؤيد وأهدى له هدية جليلة المقدار ووعده أموال خوارزم وذخائرها فاغتر بقوله وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سوبر على بليدة على عشرين فرسخا من خوارزم وكان تكش قد عسكر بالقرب منها فتقدم اليهم فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد وكسر المؤيد وأخذ أسيرا وجيء به الى خوارزمشاه تكش فامر بقتله فقتل بين يديه صبرا وهرب سلطانشاه وأخذ الى دهستان فقصده خوارزمشاه تكش فافتتح المدينة عنوة فهرب سلطانشاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد الى خوارزم ولما عاد المهزمون الى نيسابور ملكوا طغانشاه أبا بكر ابن المؤيد واتصل به سلطانشاه ثم سار من هناك الى غياث الدين ملك الغورية فاكرمه وعظمه وأحسن ضيافته وأما علاء الدين تكش فانه لما ثبت قدمه بخوارزم اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكم كعادتهم فاخذته حمية الملك والدين وقتل أحد أقارب الملك وكان قد ورد اليه ومعه جماعة أرسله ملكهم في مطالبة خوارزمشاه بالمال فامر خوارزمشاه اعيان خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا فلم يسلم منهم أحد ونبذوا الى ملك الخطا عهده وبلغ ذلك سلطانشاه فسار الى ملك الخطا واغتنم الفرصة بهذه الحال واستنجده على أخيه علاء الدين تكش وزعم له أن أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم ولو رأوه لسلموا البلد اليه فسير معه جيشا كثيرا من الخطا مع قرما أيضا فوصلوا الى خوارزم فحصروها فامر خوارزمشاه علاء الدين باجراء ما يجيحون عليهم فكادوا يفرقون فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضا ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ولاموا سلطانشاه وعنفوه فقال لقرما لو أرسلت معي جيشا الى هرو فاستخلصتها من يد ينار الغزي وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز الى الآن فسير معه جيشا فنزل على سرخس على غرة من أهلها وهجم على الغز فقتل مقتلة عظيمة فلم يتركوا بها أحدا منهم وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة فاخرج منه ودخل القلعة

أحمد بن محمد القريغوني وابا عبد الله محمد بن ابراهيم الطائي في كماة الاكراد والعرب وسائر جماهير الهنود * ومساعير الجنود * ورتب في اليمنة حاجبه الكبير أبا سعيد التونتاش فيمن برسمه من اعيان الرجال * وفرسان الزحف والصيال * وندب للميسرة أرسلان الحاذب فيمن تحت قيادته من نجوم الابطال * ورجوم القتال * وحصن الصفوف بزهاء خمسمائة من فيلته التي تميد الجبال من اثقالها * وترتج الارض بزلزالها * وأقبل ايلك فشحن قلبه بخواص غلمانه * وأعلام فرسانه وولى قدرخان ميمنته في أتراك الختن * بين آجام العوامل والجنن * وشحن بجعفر تكين ميسرته بكل الميس كالشجاع المحرج والحسام المرهف بين وقايات الزغف والجلف وتحامل بعضهم على بعض نخيات المعركة سماء غمامها مثار القسطل * وبروقها بريق البيض والاسل * ورعودها صليل السلاح * ورشاشها صيب الجراح * واستنزل ايلك عن صهوات الخيول الى صعيد الارض زهاء الف غلام يفلقون الشعور إنصافا وينصبون وسائط

وتحصن بها وسار سلطان شاه الى مرو فملكها وعاد الخطا الى ماوراء النهر وجعل سلطان شاه دأبه قتال الغز والقتل فيهم والنهب منهم فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل الى نيسابور الى طغان شاه ابن المؤيد يقول له ليرسل اليه من يسلم اليه قلعة سرخس فأرسل اليه جيشا مع أميراسمه قراقوش فسلم اليه دينار القلعة ولحق بطغان شاه فقصد سلطان شاه سرخس وحصر قلعتها وبلغ ذلك طغان شاه فجمع جيوشه وقصد سرخس فلما التقى هو وسلطان شاه فرّ طغان شاه الى نيسابور وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة فأخلى قراقوش قلعة سرخس ولحق بصاحبه وملكها سلطان شاه ثم اخذ طوس والزام وضيق الامر على طغان شاه بعلو همته وقلة قراره وحرصه على طلب الملك وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر فلم يزل الحال كذلك الى أن مات طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد الى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين الى نيسابور فحصرها وطلبوا منه الامان فأمنهم فسلموا البلد اليه فقتل منكلي تكين واخذ سنجر شاه وأكرمه وأنزله بخوارزم وأحسن اليه فأرسل الى نيسابور يستميل أهلها ليعود اليهم فسمع به خوارزمشاه فأخذ سنجر شاه فسجنه وكان قد تزوج بأمه وزوجه بابنته فماتت فزوجه بأخته وبقي عنده الى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة ذكر هذا ابو الحسن ابن ابي القاسم البيهقي في كتاب مسارب التجارب وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الامور مع تقديم وتأخير ونحن نوردها فقال ان تكش خوارزمشاه بن ارسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وكان قد ملكها بعد موت ابيه فجاء الى مرو فملكها وأزاح الغز عنها فخرجوا أياما ثم عادوا عليه فأخرجوه منها وانتهبوا خزانته وقتلوا أكثر رجاله فعبر الى الخطا فاستنجدهم وضمن لهم مالا وجاء بجيش عظيم فأخرج الغز عن مرو وسرخس ونساوابيورد وملكها ورد الخطا فلما أبعدوا كاتب غياث الدين الغوري يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج وبادغيس وماوالاها ويتوعده ان هو لم ينزل عن ذلك فأجابه غياث الدين يطلب منه اقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان فلما سمع الرسالة سار عن مرو وشن الغارات على بادغيس وبيوار وماوالاها وحصر بوشنج ونهب الرساتيق وصادر الرعايا فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرض لنفسه أن يسير هو بل سير ملك سجستان وكاتب ابن اخته بهاء الدين سام صاحب باميان بالالحاق به لان أخاه شهاب الدين كان بالهند والزمان شتاء فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملك سجستان ومن معه ما من العساكر ووافق ذلك وصول سلطان شاه الى هراة فلما لم يوصلوا لهم عاد الى مرو ومن غير أن يقاتلها وأحرق كل ما مر به من البلاد ونهب وأقام بمرو الى الربيع وأعاد مراسلة غياث الدين في الصلح فأرسل الى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال فنادى في عساكره الرحيل لساعته وعاد الى خراسان واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان وغيرهم من العساكر وقصدوا

الاهذاب اهدافا فشكروا
بالنبال * فجافت الفيول *
وشقوا بالنصال * سرابيل
الخيول * ولما جد الامر *
واحتد الجمر * واستعضل
الداء * واستفحل الاعداء *
وزخر وادي الخطب بمده *
وكاد يخرج بادي الشر عن
حده * نزل السلطان الى
صعيد ربوة كان تشرفها
لتدبر عصفات الحرب *
وتلافي نزقات ذلك المركب
الصعب * فوضع لله خده
وعفر شعره * وأرسل دمعه
* وقدم نذره * ودعا الله
تعالى أن يحرس ملكه *
ويحسن فلجه ونصره * ثم
وثب الى قعدته من قبلته
المغتلة فحمل بها وبسائر
خاصته * على قلب ايلك فأهوى
الفيل الى صاحب رايته *
فاختطفه بهامس سرجه *
ورمى به في الهواء من فوقه
* وتخال الآخرين حطما
بخرطومه وشكا بأنيابه *
ودوسا بأظلافه * وانثال
أولياء السلطان على
الآخرين بسيوف تلغ في
الدماء * وترشف احشاء
الاحشاء * فطارت قلوبهم
هواء * واستحالت قواهم
حباء * وولوا على أعقابهم
نافرين * وتبعهم الطلب
بظلمات القسر والقهر *
الى أن لفظتهم خراسان
الى ماوراء النهر * ولقد

سلطان شاه فلما علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه من الغز والمفسدين وقطاع الطريق ومن عنده طمع خلق كثير فنزل غياث الدين ومن معه فى الطالقان ونزل سلطان شاه بمرو الروذ وتقدم عسكر الغورية اليه وتواعدوا للمصاف وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردد بين غياث الدين وبين سلطان شاه وشهاب الدين يطلب من اخيه غياث الدين الاذن فى الحرب فلا يتركه وتقرر الامر على أن يسلم غياث الدين الى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع بوار وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين صاحب باميان الا انهما لم يخالفا غياث الدين وفى آخر الامر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين وحضر الامراء ليكتب العهد فقال الرسول ان سلطان شاه يطلب ان يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الامر فأرسل غياث الدين اليهما فأعادا الجواب انا معاليك ومهما تفعله لا يمكننا مخالفتك فبينما الناس مجتمعون فى تحرير الامر واذا قد اقبل مجد الدين العلوى الهروى اليه وكان خصيصا بغياث الدين بحيث يفعل فى ملكه ما يختار فلا يخالف فجاء العلوى ويده فى يد أب غازى ابن أخت غياث الدين وقد كتبوا الكتاب وقد احضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان فجاء العلوى كأنه يسارر غياث الدين ووقف فى وسط الحلقة وقال للرسول يا فلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من جانب السلطان الاعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين ويقول لك العلوى خصمك انا ومولانا أب غازى بيننا وبينك السيف ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه وحثى التراب على رأسه وأقبل على غياث الدين وقال له هذا واحد طرده أخوه وأخرجه فريدا وحيدا لم نترك له ما ملكناه باسيافنا من الغز والاتراك والسنجرية فاذا سمع هذا عنا يجىء أخوه يطلب منازعته والهند وجميع ما يملك فحرك غياث الدين رأسه ولم يفه بكلمة فقال ملك سجستان للعلوى اترك الامر يتصلح فلما لم يتكلم غياث الدين بمنع العلوى قال شهاب الدين لحاوشيته نادوا فى العسكر بالتجهز للحرب والتقدم الى مرو الروذ وقام وأنشد العلوى بيتا من الشعر يجمعا معناه ان الموت تحت السيوف أسهل من الرضا بالدنية فرجع الرسول الى سلطان شاه وأعلمه الحال فرتب عساكره للمصاف والتقى الفريقان واقتتلوا فصبروا للحرب فانهزم سلطان شاه وعسكره وأخذ أكثر أصحابه اسارى فأطلقهم غياث الدين ودخل سلطان شاه مرو فى عشرين فارسا ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس ولما سمع خوارزمشاه تكش بما جرى لاخيه سار من خوارزم فى ألفى فارس وأرسل الى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه ان أراد الخطا وجد فى السير ليقبض على أخيه قبل ان يقوى فأتت الاخبار سلطان شاه بذلك فلم يقدر على عبور جيحون الى الخطا فسار الى غياث الدين وكتب اليه يعلمه قصده اليه فكتب الى هراة وغيرها من بلاده باكرامه واحترامه وحمل الاقامات اليه ففعل به ذلك وقدم على غياث الدين والتقاه واكرمه وأنزله معه فى داره وأنزل أصحاب سلطان شاه كل انسان منهم عند من هو فى طبقته فأنزل الوزير عند وزيره والعارض عند عارضه وكذلك غيره وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء فأرسل علاء الدين بن خوارزمشاه الى غياث الدين يذكره ما صنعه أخوه سلطان شاه من تخريب بلاده وجمع العساكر عليه ، فأقبض عليه ورده اليه فأنزل الرسول وافاه كتاب اخيه الى كتاب نائبه بهراة يخبره ان كتاب خوارزمشاه جاءه يتهدده فأجابه انه لا يظهر لخوارزمشاه أنه

احسن السلامى فى قوله
فكأنما وصف حاله * ومدح آثاره وأفعاله *
يا سيف دين الله ما أرضى العدا
لو أن سيفك مثل عدلك يعدل
ما ان سننت لهم سنانا فى الوغى
الا أطل عليه منهم أيطل
والروض من زهر النثور مضرج
والماء من ماء الترائب أشكل
والنقع ثوب بالنهار ومطرز
والارض فرش بالجياد محجل
تهفو العقاب على العقاب ويلتقى
بين الفوارس أجدل ومجدل
وسطور خيلك انما أقلامها
سمر تنقط بالدماء وتشكل
وامتدح عند ذلك السلطان يمين الدوله * وأمين الملة * أبو القاسم الحسن بن عبد الله المستوفى بقصيدة أولها
ظهر الحق ثابت الاركان
صاعد النجم عالى البنيان
وهوى الكردى ذو والنكث والبغى
وأهل الضلال والطغيان
ما الذى غركم بمحمود المحمود
الخاؤه كل مكان
القاسم المعظم خال الله
بأبى [illegible] صفوة المنان
فى الار

اعلمه

اعلمه بالحال وأحضر الرسول وقال له يقول لعلاء الدين أما قولك ان سلطان شاه أخرب البلاد وأراد ملكها فلعمري انه ملك وابن ملك وله همة عالية واذا أراد الملك شيئا فلا يرده ولا مورد لامره ويوصلها الى مستحقها وقد التجأ الي وينبغي ان تنزاح عن بلاده وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه ومن الاملاك التي خلف والاموال وأحلف لك بيمينا على المودة والمصافاة وتخطب لي بخوارزم وتزوج اخي شهاب الدين بأختك فلما سمع خوارزمشاه الرسالة امتعض لذلك وكتب الى غياث الدين كتابا يتهدده بقصد بلاده فجهز غياث الدين العساكر مع ابن اخت أب غازي وصاحب سجستان وسيرهما مع سلطان شاه الى خوارزم وكتب الى المؤيد صاحب نيسابور يستنجده وكان قد صار بينهما مصاهرة تزوج المؤيد ابنه طغان شاه بابنة غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وأقام بظاهر نيسابور على طريق خوارزم وكان خوارزمشاه قد سار عن خوارزم الى لقاء عسكر الغورية الذين مع اخيه سلطان شاه وقد نزلوا بطرف الرمل فبينما هو في مسيره اتاه خبر المؤيد انه قد جمع عساكره وانه على قصد خوارزم اذ فارقها فوقع في قلبه وعاد الى خوارزم فأخذ امواله وذخائره وعبر جيحون الى الخطا وأخلى خوارزم فوقع بها خبط عظيم فحضر جماعة من أعيانها عند أب غازي وسألوه ارسال امير معهم يضبط البلد فخاف أن تكون مكيدة فلم يفعل فبينما هم على ذلك توفي سلطان شاه سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فكتب اب غازي الى غياث الدين يعلمه الخبر فكتب اليه يأمره بالعود اليه فرجع ومعه اصحاب سلطان شاه فأمر غياث الدين بأن يستخدموا وأقطع الاجناد الاقطاعات الجيدة وكلهم قابل احسانه بكفران وسنذكر باقي اخبارهم ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة اخيه عاد الى خوارزم وأرسل الى سرخس ومرو وشحناء فجهز اليهم أمير هراة عمر المرغني جيشا فأخرجوهم وقال حتى نستأذن السلطان غياث الدين وأرسل خوارزمشاه رسولا الى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود وهو الذي جعل غياث الدين شافعيا وكان له عنده منزلة كبيرة فوعظوه وخوفوه الله تعالى واعلموه ان خوارزمشاه يراسلهم يتهددهم بأنه يجيء بالاتراك والخطا ويستبيح حريمهم واموالهم وقالوا له اما ان تحضر أنت بنفسك وتجعل مرو دار ملكك حتى ينقطع طمع الكافرين ويأمن اهلها واما ان تصالح خوارزمشاه فاجاب الى الصلح وترك معارضة البلاد فلما سمع من بخراسان من الغز بذلك طمعوا في البلاد فعاودوا النهب والاحراق والتخريب فسمع خوارزمشاه فجمع عساكره وحضر بخراسان ودخل مرو وسرخس ونساوابيورد وغيرها وأصلح البلاد وتطرق الى طوس وهي للمؤيد صاحب نيسابور فجمع المؤيد جيوشه وسار اليه فلما سمع خوارزمشاه بمسيره اليه عاد الى خوارزم فلما وصل الى الرمل أقام بطرفه فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه وتبعه فلما سمع خوارزمشاه بذلك ارسل الى المناهل التي في البرية فألقي فيها الجيف والتراب بحيث لم يمكن الانتفاع بها فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء فلم يجده فجاء خوارزمشاه اليه وهو على تلك الحال ومعه الماء على الجمال فأحاط به فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم وجيء بالمؤيد أسيرا الى خوارزمشاه فأمر بضرب عنقه فقال له يا مخنث هذا فعال الناس فلم يلتفت اليه وقتله وحمل رأسه الى خوارزم فلما قتل ملك نيسابور ملك ما كان له ابنه

من مناويه نهزة للصنايا
غرض للعتوف والاحوان
ملك صار من مضى من ملوك
الارض لفظا وجاء عين
المعاني
فخر المشرقان بالحظ منه
فاستطالا افاشتاقه المغربان
جمع الله فيه وهو قدير
عالما للكمال في جثمان
سيفه والمنون طرفاه ان
نحو خلق العدو يبتدران
خذ يميني بأن سيخضع حقا
لليميني كل سيف يماني
لو عصا خروع تسمى اليمينية
ظلت تحيك في السندان
انما سيفه شبيه عصاه وهي
ابن عمران صاحب الثعبان
وقراجوا يا تكم كيد سحر
فاذا جاءت العصا فهو فان
ملك وهو في الحقيقة عندي
ملك صيغ صيغة الانسان
ملك عادل فأدنى ضعيف
وأخوه في حكمه سيان
أخذ الهند باليماني ويحوي
بمنانا ان أراد بالهند وانى
غاب عن غابة الهزبر لغزو
الشهند مستنزلا رضا
الرحمن
فسبى واستباح واجتاح منهم
وأحل النكال بالاوثان
وانثنى قافلا وقد ملأ
الايدي

فيأوفاز بالرضوان
فسطا بأسه بطاغية الترك
واهل الشقاق والعصيان
طلعت رايه له فتولوا

طغان شاه فلما كان من قابل جمع خوارزمشاه عساكره وسار الى نيسابور فحاصرها وقاتلها فتبعه طغان شاه واخذه وزوجه اخته وحمله معه الى خوارزم وملك نيسابور وما كان لطغان شاه وقوى امره هذا الذى ذكره فى هذه الرواية مخالف لما تقدم ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت فان أحدهما قد قدم ما أخره الآخر فلهذا أوردنا جميع ما قالاه وابعد البلاد عنا لم نعلم أى القولين أصح لنذكره ونترك الآخر وانما أوردتهما فى موضع واحد لان أيام سلطان شاه لم تطل له ولا عقابه حتى تتفرق على السنين فلهذا أوردتهما متتابعة

(ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج)

فى هذه السنة فى ربيع الاول اجتمعت الفرنج وساروا الى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه وبلغ الخبر الى نور الدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة فسار اليهم مجدا وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم دخلوا الى السواد وهو من أعمال دمشق أيضا ولحقهم المسلمون فتحفظوا من ساقتهم ونالوا منهم وسار نور الدين فنزل فى عشترا وسير منها سرية الى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها فنهبوا وسبوا واحرقوا وخربوا فسمع الفرنج ذلك فرحلوا اليهم ليمنعوا عن بلادهم فلما وصلوا كان قد فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر وأدركهم الفرنج فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم فاشتد القتال وصبر الفريقان الفرنج يرومون ان يلحقوا الغنيمة فيردوها والمسلمون يريدون ان يمنعوهم عنها ليذهبوا بها من قد سار معها فلما طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدروا أن يستردوا منها شيأ

(ذكر مسير شمس الدولة الى بلد النوبة)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين الاكبر من مصر الى بلد النوبة فوصل الى أول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك ان صلاح الدين واهله كانوا يعلمون ان نور الدين كان على عزم الدخول الى مصر فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون اما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى اذا وصل اليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد فان قووا على منعه اقاموا بمصر وان عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى قد افتتحوها فجهز شمس الدولة وسار الى اسوان ومنها الى بلد النوبة فنازل قلعة اسمها ابريم فحصرها وقاتله أهلها فلم يكن لهم بقتال العسكر الاسلامى قوة لانهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب فملكها واقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه وتحتمل المشقة لاجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد الى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجوارى

(ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى هزم مليح بن ليون الارمنى صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية وسبب ذلك ان نور الدين كان قد استخدم مليحا المذكور وأقطعه اقطاعا سنيا وكان ملازم الخدمة لنور الدين ومشاهدا الحرب معه مع الفرنج ومباشرا لها وكان هذا من جيد الرأى وصائبه فان نور الدين لما قيل له فى معنى استخدامه واعطائه

كم بايديه ثلة من ضان
كم قتيل وكم جريح وغرقى
واسير فى القدى رسفان
طار أيدى سبا عساكر ظنوا
انهم ملكوا على البلدان
خطبوا الملك فاعترتهم خطوب
جرعتهم مرارة الخطبان
بخوارزم فى السجون الوف
وألوف تهيم فى جرجان
وبمرو وفى القفار الى
جيحون
قتلى ما أكل الحيتان
جزر للسباع فى كل فج
طعم للنسور والعقبان
بارك الله ربنا فى خميس
ردعنا خمسين ألف عنان
شربوا السم عام أول لما
عيثوا للشقاء بالاقعوان
ثم عادوا فى العام بالعسكر
الجرار بالحور والملاح
الحسان
فأتى المرد فوق جرد المذاكى
من خفاذيد أو من الخصيان
بوجوه مضيئة كبدور
طلعت جنح ليلها الاضحيان
صادموا الصخر بالزجاج
وظنوا
ان يبيدوا الاسود بالغزلان
قد لعمرى يكون ذاك ولكن
ليس فى كل موقف ومكان
هو شمس النهار فوق سرير
الملك
فى صدره من الايوان
وكتب ابو الفضل الهمذانى
البديع الى الشيخ الوزير ابى
العباس هذا وورب الكعبة

الاقطاع فى بلاد الشام قال أستعين به على قتال أهل ماته وأريح طائفة من عسكرى تكون بازائه لتمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له وكان مليح ايضا يقوى بنور الدين على من يجاوره من الارمن والروم وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم لانها تجاور بلاده فسير اليه ملك الروم جيشا كثيفا وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال وصابرهم فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والاسر وقويت شوكة مليح وانقطع أمل الروم من تلك البلاد وأرسل مليح الى نور الدين كثيرا من غنائمهم ومن الاسرى ثلاثين رجلا من مشهوريهم وأعيانهم فسير نور الدين بعض ذلك الى الخليفة المستضئ بأمر الله وكتب يعتذ بهذا الفتح لان بعض جنده فعلوه

(ذكر وفاة ايلدكز)

فى هذه السنة توفى اتابك شمس الدين ايلدكز بهمذان وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد وكان ايلدكز هذا مملوكا للكمال السميرمى وزير السلطان محمود فلما قتل الكمال كما ذكرناه سار ايلدكز الى السلطان محمود فلما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه اربل فمضى اليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره ثم ملك أكثر اذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها واصفهان والرى وماوالاها من البلاد وخطب بالسلطنة لابن امرأته ارسلانشاه بن طغرل وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الاتباع واتسع ملكه من باب تفليس الى مكران ولم يكن للسلطان ارسلان معه حكم انما كان له جراية تصل اليه وبلغ من تحكمه عليه انه شرب ليلة فوهب ما فى خزانته وكان كثيرا فلما سمع ايلدكز بذلك استعاده جميعا وقال له متى أخرجت المال فى غير وجهه أخذته أيضا من غير وجهه وظلمت الرعية وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكاويهم وينصف بعضهم من بعض

(ذكر وصول الترك الى افريقية وملكهم طرابلس وغيرها)

فى هذه السنة سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب الى جبال نفوسة واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الامراء هناك وكان خارجا عن طاعة عبد المؤمن فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيرا من بلاد افريقية ماخلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وماوالاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جبلت عليه من التخريب والنهب والافساد بقطع الاشجار والثمار وغير ذلك فجمع بها أموالا عظيمة وجعلها بمدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع افريقية لبعد ابى يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها وكان ماسنذكره ان شاء الله

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس)

فى هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره وسار من اشبيلية الى الغرب فقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى وهى بالقرب من طليطلة شرقا منها وحصرها

* ولا تحلم بعدها للملك * لقد كايس السلطان اذ عفر الله شعره * وعرض على الله فقره * وفوض الى الله أمره * وأخلص لله نذره * وناهض بالله خصمه * وسأل الله حوله * ولم يحجبه كثرة الملا حوله * فشد الله بذلك ازره * وقوى أمره * وأعز نصره * وأقطعه عصره * وأطعمه ملكه * وأورثه أرضه * ان الظفر بأسبابه * والموفق يأتى الامر من بابه (وله فصل منه) انه الجلاد ثم البلاد مساكنكم لا يحط منكم سليمان كتب الله ليغلبن السلطان وراءك ان السيف أمامك وخلفك فان الموت قدامك وأرضك أرضك ان تأتنا

تنم نومة ليس فيها حلم * ان المغازى مخازى * قد عادت ألا رب ركض نادم * ورب شوط ظالم * ورب عبور * الى ثبور * ورب طمع * يهدى الى طبع * ألا ان هذا الفتح فتح حفظ على الشريعة ماءها * وعلى السنة دماءها * وعلى النفوس ذماءها * وعلى الاموال غماءها * وعلى الحرم غطاءها * اعاد الله به البلاد خلقا جديدا * وأنشأ الناس نشأ حديثا * وعقد الملك عقدا طريفا * فما أولى يومه أن يتخذ عيدا * ويجعل فى المصرفات تاريخا جديدا * وليس

واجتمعت الفرنج على ابن الفنش ملك طليطلة فى جمع كثير فلم يقدموا على لقاء المسلمين فانفق ان الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الاقوات عندهم وهم فى جمع كثير فاضطروا الى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا الى اشبيلية وأقام يعقوب بها الى سنة احدى وسبعين وخمسمائة وهو على ذلك يجهز العساكر ويسيرها الى غزو بلاد الفرنج فى كل وقت فكان له فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها للعرب من الشجاعة مالا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز اليه أحد ثم عاد أبو يعقوب الى مراكش

(ذكر ذهاب نهاوند)

فى هذه السنة ذهب عسكر شملة نهاوند وسبب ذلك ان شملة كان أيام ايلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند لكونها مجاورة بلاده ويبذل فيها الاموال فلا يجيبه الى ذلك فلما مات ايلدكز وملك بعده ولده محمد البهلوان وسار الى اذربيجان لاصلاحها انفذ شملة ابن أخيه ابن شنكا لاخذ نهاوند وبلغ أهل البلد الخبر فتحصنوا وحصرهم وقاتلهم وقاتلوه وأخشوا فى سبه فلما علم انه لا طاقة له بهم رجع الى تستر وهى قريبة منها وأرسل أهل نهاوند الى البهلوان يطلبون منه نجدة فتأخرت عنهم فلما اطمأنوا خرج ابن شنكا من تستر فى خمسمائة فارس وسار يوما وليلة فقطع أربعين فرسخا حتى وصل الى نهاوند وضرب البوق وأظهر انه من أصحاب البهلوان لانه جاءهم من ناحيته ففتح أهل البلد له الابواب فدخله فلما توسط قبض على القاضى والرؤساء وصلبوهم ونهب البلد وقطع أنف الوالى وأطلقه وتوجه نحو ماسبذان قاصد العراق

(ذكر قصد نور الدين بلاد قلج ارسلان)

فى هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكى الى مملكة عز الدين قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان وهى ملطية وسيواس واقصرا وغيرها ملازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك ان ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصده قلج ارسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا فصار الى نور الدين مستجيرا به وملتجئا اليه فاكرم نزله وأحسن اليه وحمل له ما يليق أن يحمل الى الملوك ووعده النصرة والسعى فى رد ملكه اليه ثم انه أرسل الى قلج ارسلان يتشفع فى اعادة ملكه فلم يجبه الى ذلك فسار نور الدين اليه فابتدأ بكيسون وبهنسى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها وكان ملكه لمرعش أوائل ذى القعدة والباقى بعدها فلما ملكها سير طائفة من عسكره الى سيواس فملكوها وكان قلج ارسلان لما سار نور الدين الى بلاده قد سار من طرقها التى تلى الشام الى وسطها وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح فتوقف نور الدين عن قصده رجاء ان يصلح الامر بغير حرب فأتاه عن الفرنج ما أزعجه فاجابه الى الصلح وشرط عليه ان يجده بعساكره الى الغزاة وقال له أنت مجاور الروم ولا تغزوهم ويدك قطعة كبيرة من بلاد الاسلام ولا بد من الغزا معى فأجابه الى ذلك وبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهى لذى النون فبقى العسكر فى خدمة ذى النون الى ان مات نور الدين فلما مات رحل عسكره عنها وعاد قلج ارسلان وملكها وهى بيد أولاده الى الآن سنة نيف وعشرين وستمائة ولما كان نور الدين فى هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبى الفضل محمد بن

العقد مع الله بأن شروطه
فأوفوا الله عهده * كما
صدقكم وعده * وانما
عهده عند السلطان أن
يحسن النظر * وعهده عند
الشيخ الجليل أن يحسن
المحضر * وهراة من البلاد
شيعة هذه الدولة وعيبتها
فان حط عن حماها العلاوه *
وأزيل عن عيرتها الاتاوه *
فلله هذا النظر ما أحلى ثماره *
وأكرم آثاره * ولما وضعت
هذه الحرب أوزارها *
وأفاضت غرة النصر
أنوارها * سنح للسلطان أن
يكبح أعنته الى جانب الهند
للايقاع بالمعروف بنواسه شاه
أحد أولاد ملوك الهند
كان نصبه بعض ما اقتضته
من عمالكهم خلافته على
سد ثغورها * وتحصين
أطرافها وحدودها *
اذ كان * قد استحوذ عليه
الشيطان * فارتد فى حافرة
الشرك وانسلخ عن جلدة
الاسلام * وراطن زعماء
الكفار على خلع ربقة
الدين والانفصام * عن
عروة الحبل المتين فعن من
فوره اليه * وصب سيوفا
تقطر من دماء مخالفيه عليه
وركضا بادر أفواج الرياح *
واختصر أوقات الاظلام
والاصباح * حتى نفاه عن
مثواه * وملك عليه جملة
ماحواه * وأعاد الى تلك

عبد الله بن الشهرزوري من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وباربل وخلاط والشام وبلاد قلج ارسلان وديار مصر

(ذكر رحيل صلاح الدين من مصر الى الكرك وعوده عنها)

في هذه السنة في شوال رحل صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها الى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك والاجتماع مع نور الدين عليه والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما في جهة بعسكره وسبب ذلك ان نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه أرسل يعتذر ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرره نور الدين فاستقرت القاعدة بينهما ان صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم الى أن يصل الآخر اليه ويتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين عن مصر لان طريقه أبعد وأشق ووصل الى الكرك وحصره وأما نور الدين فانه لما وصل اليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرق الاموال وحصل الازواد وما يحتاج اليه وسار الى الكرك فوصل الى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود الى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لانهم علموا انه ان اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلا فلما عاد أرسل الفقيه عيسى الى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر وانه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف فجاء الرسول الى نور الدين وأعلمه ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العود الا انه لم يظهر للرسول تأثرا بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها وسار صلاح الدين الى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه وكلمة تقول لقائلها دعني وكان سبب موت نجم الدين انه ركب يوما فرسا بمصر فنفر به الفرس نفرة كبيرة شديدة فسقط عنه فحمل الى قصره وقيذا وبقي أياما ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة وكان خيرا عاقلا حسن السيرة كريما جوادا كثير الاحسان الى الفقراء والصوفية ومجالستهم وقد تقدم من ذكره وابتداء امره وأمر أخيه شيركوه ما الحاجة الى اعادته

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة زادت دجلة زيادة كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق في شعبان وسدوا أبواب الدروب ووصل الماء الى قبة أحمد بن حنبل ووصل الى النظامية ورباط شيخ الشيوخ واشتغل الناس بالعمل في القورج ثم نقص وكفى الناس شره وفيها وقعت النار ببغداد من درب بهروز الى باب جامع القصر ومن الجانب الآخر من مجرى النهر الى دار أم الخليفة وفيها أغار بنو حزن من خفاجة على سواد العراق وسبب ذلك ان الحماية كانت لهم لسواد العراق فلما تمكن يزدن من البلاد وتسلم الحلة أخذها منهم وجعلها لبني كعب من خفاجة وأغار بنو حزن على السواد فسار يزدن في عسكر ومعه الغضبان الخفاجي وهو من بني كعب لقتال بني حزن فبينما هم سائرون ليلا رمى بعض الجند الغضبان بسهم فقتله لفساده وكان في السواد فلما قتل عاد العسكر

البقاع بهجة ملكه وسلطانه * وحد نجوم الشرك عنها بحد سيفه وسنانه * فذانك برهانان من ربك في اعلاء دولته * واشاعة دعوته * واعزاز نصرته * وافلاح حجته * ويسر الله له الانقلاب الى غزنة * مظاهرا له بين نصرين يتعاذبان فخامة وجلالة * ويتباريان نباهة وجزالة * وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(ذكر فتح قلعة بهم نغر)

قد كان السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * بعد أن فتح الفتحين * واقتدح النجحين * عرج على غزنة للاستراحة * والتفرغ لشكر الله على النعم المتاحة * فأقام بها شاحذا عزيمته لغزوة اخرى ترتفع بها حدود الاسلام * ويتعفر لها خدود الاصنام * وتتكس عندها رايات الشيطان في رحل الغواية شده * وحبل الضلالة مده * اذ كان بعد همته يومه خلاف الطبائع البشرية في استخشان المضجع الوثير * واستصحاب الشوك على الوتير * واختيار قرع الاسنة والعوالي * على تقبيل

الى بغداد وأعيدت خفارة السواد الى بنى حزن وفيها خرج ترجم الايوانى فى جمع من التركمان فى حياة ايلدكز وتطارق أعمال همذان ونهب الدينور واستباح الحريم وسمع ايلدكز الخبر وهو بنقجوان فسار مجدا فمن خف من عسكره فقصده فهرب ترجم الى أن قارب بغداد وتبعه ايلدكز فظن الخليفة انها حيلة ليصل الى بغداد فجأة فشرع فى جمع العساكر وعمل السور فأرسل الى ايلدكز الخلع والالقاب الكبيرة فاعتذر انه لم يقصد الا كف الامير يزدن وهو من أكابر أمراء بغداد وكان يتشيع فوقع بسببه فتنة بين السنية والشيعة بواسط لان الشيعة جلسوا له للعزاء وأظهروا السنية الشماتة به فال الامر الى القتال فقتل بينهم جماعة ولما مات أقطع أخوه تتامش ما كان لاخيه وهى مدينة واسط ولقب علاء الدين وفيها أرسل نور الدين محمود بن زنكى رسولا الى الخليفة وكان الرسول القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشهرزورى قاضى بلاده جميعها مع الوقوف والديوان وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان وما هو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ويطلب تقليدا بما يده من البلاد مصر والشام والجزيرة والموصل وبما فى طاعته كديار بكر وماردجا وذلك كخلاط وبلاد قلج ارسلان وان يعطى من الاقطاع بسواد العراق ما كان لابيه زنكى وهو صريفين ودرب هرون والتمر أرضا على شاطئ دجلة بينها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هرون فأكرم كمال الدين اكراما لم يكرمه رسول قبله وأجيب الى ما التمسه فمات نور الدين قبل الشروع فى بناء المدرسة رحمه الله

(ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة)

(ذكر ملك شمس الدولة تزيد وغيرها من بلاد اليمن)

قد ذكرنا قبل ان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل الى مصر فيأخذها منهم فشرعوا فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم ان أخرجهم نور الدين من مصر سار وا اليها وأقاموا بها فسيروا شمس الدولة توران شاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الاكبر الى بلد النوبة فكان ما ذكرناه فلما عاد الى مصر استأذنوا نور الدين فى أن يسير الى اليمن لقصد عبد النبى صاحب زبيد لاجل قطع الخطبة العباسية فأذن فى ذلك وكان بمصر شاعر اسمه عمارة من أهل اليمن فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن ويصف البلاد له ويعظم ذلك فى عينه فزاده قوله رغبة فيها فشرع يتجهز ويعد الازواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الاجناد فجمع وحشد وسار عن مصر مستهل رجب فوصل الى مكة أعزها الله تعالى ومنها الى زبيد وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبى فلما قرب منها رآه أهلها فاستقل من معه فقال لهم عبد النبى كأنكم بهؤلاء وقد حمى عليهم الحرة فهلكوا الا أكلة رام فخرج اليهم بعسكره فقاتلهم شمس الدولة ومن معه فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا ووصل المصريون الى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمنعهم فنصبوا السلالم وصعدوا السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب وأخذوا عبد النبى أسيرا وزوجته المدعوة بالحرة وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لاسيما اذا حجت فان فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة وخيرا كثيرا ومعروفا عظيما فلما أسر شمس

المثالث والمثانى * وترجيع
حدود البيض القواضب
* على خدود البيض
الكواعب * كل ذلك لمجد
يتنبه * وصيت يتنبه *
وعز يحويه * وسعى يتقرب
الى الله به وفيه * حتى اذا
انسلخ ربيع الآخر من
السنة المذكورة استخار
الله فى اتمام ما رامه *
واسراج ما تولى الجامه *
متوكلا على الله الذى طالما
أطعمه نصره * وعرفه
صنعه * حتى اذا انتهى
السير به الى شط ويهند لاقاه
ابرهمن بال بن اندبال *
فى جيوش تجيش بسود
الرجال فى بيض الصفاح *
وزرق الاسنة وسمر
الرماح * وزهر الدروع
ودكن الفيول وافترت
الحرب عن أنيابها العصل
ونوالت الحملات كما تتهاوى
لوامع الشهب * وتترامى
نوازع السحب * ودارت
رحا الطعان والضراب
طاحنة كل ندب شجاع
وقرم مطاع * وامتدت
الوقعة من طفولة النهار
الى كهولة الطفل حتى
اكتست الارض لون
الشقائق * من دماء الطلى
والعواتق * وكادت تدور
للكفار دائرة لولا أن الله
اعان السلطان على حلة فى
خواص علمانه كبست

الدولة عبد النبي وسلم شمس الدولة عبد النبي الى بعض امرائه يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بني منقذ أصحاب شيزر وامره ان يستخرج منه الاموال فأعطاه منها شيأ كثيرا ثم انه دلهم على قبر كان قد صنعه لوالده وبنى عليه بنية عظيمة وله هناك دقائق كثيرة فأعلمهم بها فاستخرجت الاموال من هناك وكانت جليلة المقدار وأما الحرة فانها أيضا كانت تدلهم على ودائع لها فأخذ منها مالا كثيرا ولما ملكوا زبيد واستقر الامر لهم بها ودانت أهلها وأقيمت فيها الخطبة العباسية أصلحوا حالها وساروا الى عدن وهي على البحر ولها مرسى عظيم وهي فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك وهي من جهة اليمن أمنع البلاد وأحصنها وصاحبها انسان اسمه ياسر فلما قام بها ولم يخرج عنها اعتمدوا خائبين وانما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج اليهم ومباشرة قتالهم فسار اليهم وقاتلهم فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أن يملكوه وأخذوا صاحبها ياسرا أسيرا وأرادوا نهب البلد فمنعهم شمس الدولة وقال ما جئنا لنخرب البلاد وانما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيأ فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقر أمره ولما مضى الى عدن كان معه عبد النبي صاحب زبيد مأسورا فلما دخل الى عدن قال سبحان الله كنت قد علمت اني أدخل الى عدن في موكب كبير فأما انتظار ذلك وأسر به ولم أكن أعلم اني أدخلها على هذا الحال ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد الى زبيد وحصر ما في الجبل من الحصون فملك قلعة تعز وهي من أحصن القلاع وبها تكون خزائن صاحب زبيد وملك أيضا قلعة التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون واستناب بعدن عز الدين عثمان بن الزنجبيلي وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ وجعل في كل قلعة نائبا من أصحابه والقى ملكهم باليمن جرانه ودام وأحسن شمس الدولة الى أهل البلاد واستصفى طاعتهم بالعدل والاحسان وعادت زبيد الى أحسن أحوالها من العمارة والامن بعد خرابها

(ذكر قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين)

في هذه السنة ثاني رمضان صاحب صلاح الدين يوسف بن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين وسبب ذلك ان جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر واتفقهم جماعة من امراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد فاذا قصدوا البلاد فان خرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر واعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا به وأخذوه اخذا باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وانا قد ابعدت اخاه الى اليمن خوفا ان يدعي دعوته ويجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا الى الفرنج وصقلية والساحل في ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق الا رحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين ان الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بابن نجية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي

أدبارهم * وبحثت عن مقاصهم آثارهم * وأغفه ثلاثين فيلا كأشخاص القصور * بل كامواج البحور * وأقبل أولياؤه يحسونهم أني ينفقونهم من بطون الاودية والشعاب * وظهور الفيافي والهضاب * واقتنى السلطان بنفسه أثره بين تلك المهارب * منتجزا وعد الله في نصرة دينه * وتل كل ذي نفاق وشقاق لجبينه * فأفضى به الطلب الى بهيم تغر حصن قلعة بنيت على حرف طود رفيع * خلال ما منع * وقد كان ملوك الهند وأعيان أهلها وجماعات النساك من ذوي الاملاك بها يدخرونها مخزنة للصنم الاعظم فيتقلون اليها قرنا بعد قرن من أنواع الذخائر * وأعلاق الجواهر * ما تخف أوزانه * وتثقل عند السوم قيمه وأثمانه * عبادة بزعمهم لما يفيدهم الحسنى * ويقربهم الى الله زلفى * فصادف السلطان منها ثمرة الغراب * وزبدة الاحقاب * ما الاقلة ظهور الاجمال * ولا تسعه أوعية الاحمال * ولا تنسخه أيدي الكتاب * ولا تدركه فكر الحساب * فحشر عليها جنوده * وضرب حواليها بنوده * وانبرى لقتال مستحفظيها بقلب جرى *

والقضاة الا ان بني رزيك قالوا يكون الوزير منا وبني شاور والقاضي قالوا يكون الوزير منا فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الامر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون يفعلونه وتعريفه ما يتجدد أولا بأول ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالسائل بهدية ورسالة وهو في الظاهر اليه والباطن الى اوائل الجماعة وكان يرسل اليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فاتى الخبر الى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق اليه من النصارى وداخله فاخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم وقيل في كشف امرهم ان عبد الصمد المذكور كان اذا اتى القاضي الفاضل الصلاحي يخدمه ويتقرب اليه بجهده وطاقته فلقيه يوما فلم يلتفت اليه فقال القاضي الفاضل ما هذا الا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر علي بن نجا الواعظ وأخبره الحال وقال أريد تكشف لي الامر فسعى في كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيأ فعدل الى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال اليه فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع فذكر له الحال فقام واخذ الجماعة وقررهم فاقروا فامر بصلبهم وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد وقبلها فلما أراد صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في اطلاقه وظن عمارة انه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين يا مولانا لا تسمع منه في حقي فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة انه كان يشفع فيك فندم ثم اخرج عمارة ليصلب فطلب ان يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة

عبد الرحيم قد احتجب * ان الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودي في أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها الى أقاصي الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم انه علم بحالهم وأما الفرنج فان فرنج صقلية قصدوا الاسكندرية على ما نذكره ان شاء الله تعالى لانهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين وأما فرنج الساحل الشامي فانهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال وكان عمارة شاعرا مفلقا فمن شعره

لو ان قلبي يوم كاظمة معي * لملكته وكظمت فيض الادمع
قلب كفالك من الصبابة انه * ابى نداء الظاعنين ومادعى
ما القلب أول غادر فألومه * هي شيمة الايام مذ خلقت معي
ومن الظنون الفاسدات توهمي * بعد اليقين بقاءه في اضلعي

وله أيضا

لي في هوى الرشا العذري اعذار * لم يبق لي مذ أقر الدمع انكار
لي في القدود وفي لثم الخدود وفي * ضم النهود لبانات واوطار

وأنف حمي * وعزم ذكي * وبأس قوي * ورأي بالصواب وري * ولما رأى القوم غصص تلك الشعاب بمفاوير الجنود * وتطاير النبال صعدا كشرر الوقود * استفزهم الرعب والوجل * وألوى بأحلامهم الخوف والوهل * فتخيلت أبصارهم تلك الرتوق فتوقا وهاتيك السدود فروجا والكور بثوقا وسخرتهم دولة السلطان فهرتهم كلاب الادبار والخذلان * وأعمتهم وجوه الامن الامن جانب الاستئمان * فتنادوا جميعا بشعار السلطان * وفتحوا باب القلعة وجعلوا يتساقطون الى الارض للامان * كالعصافير أخرجتها البواشق * والغيوث جادبها الغيوم البوارق * وفتح الله تلك القلعة على السلطان فتحا يسيرا * وآتاه من لدنه صنعا كبيرا * واغتنم مل * مقترح النفوس من بنات المعادن والصور * وزاينات القمم والنصور * ودخلها في والي الجوزجان أبي نصر احمد ابن محمد الفريغوني وسائر خاصته ووكل حاجبيه الكبيرين النوشتاش وآسغ تكين بخزائن العين والورق وسائر ذوات الاخطار والقيم ووكل بنفسه بخزانة

هذا اختياري فوافق ان رضيت به * اولا فدعني وما أهوى واختار

وله ديوان شعر مشهور في غاية الحسن والرقة والملاحة

(ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله)

في هذه السنة توفي نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الاربعاء حادي عشر شوال بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ونقل منها الى المدرسة التي انشأها بدمشق عند سوق الخواصين ومن عجيب الاتفاق انه ركب ثاني شوال والى جانبه بعض الامراء الاخيار فقال له الامير سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل ام لا فقال نور الدين لا تقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر ام لا فمات نور الدين رحمه الله بعد احد عشر يوما ومات الامير قبل الحول فأخذ كل منهما بما قاله وكان قد شرع يتجهز للدخول الى مصر لاخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب فانه رأى منه فتورا في غزو الفرنج من ناحيته وكان يعلم انه انما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به فانه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فارسل الى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة وكان عزمه ان يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره الى مصر فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مرد له حكى لي طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الاطباء قال استدعاني نور الدين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الاطباء فدخلنا اليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا ما به قلنا له كان ينبغي أن لا تؤخر احضارنا الى أن يشتد بك المرض الآن وينبغي أن تعجل الانتقال من هذا الموضع الى مكان فسيح مضى منه أثر في هذا المرض وشرعنا في علاجه وأشرنا بالفصد فقال ابن سبعين لا يفتصد واستمنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضي عنه وكان اسمر طويل القامة ليس له لحية الا في حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة ابن أيوب وملكها وكان مولده سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الارض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم ارفيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن من سيرته ولا اكثر تحريا منه للعدل وقد أتينا على كثير من ذلك في كتاب الباهر من اخباره ودولتهم وانذكره هنا نبذة لعل يقف عليها من له حكم فيقتدي به فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه فانه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف الا في الذي يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين واقد شكت اليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين دينارا فلما استقلتها قال ليس لي الا هذا وجميع ما يدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لاجلك وكان يصلي كثيرا بالليل وله فيه اوراد حسنة وكان كما قيل

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما احسن المحراب في المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث واسمعه طلبا

الجواهر فنقل منها ما اثلته ظهور رجاله * واستعمل سائرها أعيان رجاله * فكان مبلغ المنقول من الورق سبعين ألف ألف درهم شاهية ومن الذهبيات والفضيات سبعمائة ألف ألف وأربعمائة منا وزنا ومن أصناف الثياب القسترية والديابيج السوسية ما أنطق مشايخ الزمان * والطاعنين في الاسنان * أنه لا عهد لهم بأمثالها صنعة وتقويما وتزيينا وتلطيفا * وفي جملة الموجود بيت من الفضة البيضاء كفاء بيوت الاغنياء طوله ثلاثون ذراعا في عرض خمس عشرة ذراعا صفائح مضروبة مهيأة للطي والنشر والنصب والحط وشراع من ديباج الروم أربعون ذراعا في عرض عشرين ذراعا بقائمتين من ذهب واخريين من سبيكة فضة ووكل السلطان بتلك القلعة من ثقاته من يراعيها * ويؤدي امانة الاستحفاظ فيها * وكرعائدا الى غزنة في ضمان النصر والاظهار * وقران اليسر واليسار * ولما استوت عصاه جانب القرار بها اعرب ساحة داره فنثرت بتلك الجواهر فمن درر كانجوم الثواقب قد سلت على الابدي

للاجر وأما عدله فانه لم يترك في بلاده على سعتها مكسا ولا عشرا بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند احكامها واحضره انسان الى مجلس الحكم فقضى معه اليه وأرسل الى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول قد جئت محاكما فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي احضره وقال اردت ان اترك له ما يدعيه انما خفت ان يكون الباعث لي على ذلك الكبر والانفة من الحضور الى مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته ما يدعيه وبنى دار العدل في بلاده وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ولو انه يهودي من الظالم ولو انه ولده او اكبر أمير عنده واما شجاعته فاليها النهاية وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوي الفقيه يا ملك لا تخاطر بنفسك وبالاسلام فان اصبت في معركة لا يبقى من المسلمين احد الا اخذه السيف فقال له نور الدين ومن محمود حتى يقال له هذا من قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو وأما ما فعله من المصالح فانه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فبنى دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النوري بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق وبنى الخانكاهات في جميع البلاد واوقف على الجميع الوقوف الكثيرة سمعت ان حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صوري وكان يكرم العلماء واهل الدين ويعظمهم ويقوم اليهم ويجلسهم معه وينبسط معهم ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقورا مهيبا مع تواضعه وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب

(ذكر ملك ولده الملك الصالح)

لما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسمعيل بالملك بعده وكان عمره احدى عشرة سنة وحلف له الامراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه وتولى تربيته الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فقال له كمال الدين صاحب مصر هو من أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو اقوى منا لانه قد انفرد اليوم بملك مصر فلم يوافق هذا القول اغراضهم وخافوا ان يدخل صلاح الدين ويخرجهم فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين الى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه ان الخطبة والطاعة له كما كانت لابيه فلما سار سيف الدين غازي صاحب الموصل وملك البلاد الجزرية على ما ذكره فارسل صلاح الدين أيضا الى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده واخذها بحضرته في خدمته ويكف سيف الدين وكتب الى كمال الدين والامراء يقول لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي او يثق اليه مثل ثقته الى تسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يجعل عليه الموت لم يعهد الى احد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري وأراكم قد تفرقتم بموت مولاي وابن مولاي دوني وسوف أصل الى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده وغسل ابن المقدم وجماعة الامراء الملك

الصالح

الثواقب * ومن يواقيت كالجمر قبل الخمود او الخمر بعد الجمود * ومن زبرجد كاطراف الآس نضارة او ورق الاقحوان غضارة ومن قطع الماس كما قيل الزمان * في المقادير والاوزان واجتمعت وفود الاطراف على ادراك عالم يروى في كتب الاوائل اجتماع مثله لاحد من صناديد القرون * وملوك العجم والروم * وحضر ذلك المشهد رسل طغان خان ملك الترك اخي ايلك فرأوا مالم تره العيون * ولم يملكه قارون * صنع الله الذي احسن كل شيء اذا أراد شيأ ان يقول له كن فيكون

(ذكر آل فريغون)

قد كانت ولاية الجوزجان لآل فريغون ايام آل سامان يتوارثها كابر عن كابر ويوصي بها اول الى آخرهم أشراف النفوس والهمم * كرام الاخلاق والشيم * وطاء الاكناف * لنزاع الاطراف خصاب الرحال * لوفود الآمال * داجم اجلال قدر الآداب * ورفع درجات الكتاب * وافتراض حقوق الاحرار * واغلاء اسعار الاشعار * فكم من غريب آواه احسانهم * ومن أديب

الصالح ولم يرسلوه الى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين علي بن الدايه فانه كان اكبر الامراء النورية وانما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه وكان هو واخوته بحلب وأمرها اليهم وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل الى الملك الصالح يدعوه الى حلب ليمتنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه قطب الدين فلم يمكنه الامراء الذين معه من الانتقال الى حلب لما ذكرناه

(ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية)

كان نور الدين قبل ان يمرض قد أرسل الى البلاد الشرقية الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعي العساكر منها لحجة الغزاة والمراد غيرها وقد تقدم ذكر فسار سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل في عساكره وعلى مقدمته الخادم سعد الدين كمشتكين الذي كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين فلما كانوا ببعض الطريق وصلت الاخبار بوفاة نور الدين فاما سعد الدين فانه كان في المقدمة فهرب جريدة وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من برله وغيره وعاد الى نصيبين فملكها وأرسل الشحن الى الخابور فاستولوا عليه وأقطعه ويسار هو الى حران فحصرها عدة أيام وبها عملوك لنور الدين يقال له قايماز الحراني فامتنع بها وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له ونزل الى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه وسار الى الرها فحصرها وملكها وكان بها خادم خصي اسود لنور الدين فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر فأعطيها ثم أخذت منه ثم صار الى ان يستعطي ما يقوم به ويقوته وسير سيف الدين الى الرقة فملكها وكذلك سروج واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر فانها كانت منيعة وسوى رأس عين فانها كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خال سيف الدين فلم يتعرض اليها وكان شمس الدين علي بن الدايه وهو اكبر الامراء النورية بحلب مع عساكرها فلم يقدر على العبور الى سيف الدين لمنعه من أخذ البلاد الفالج كان به فأرسل الى دمشق يطلب الملك الصالح فلم يرسل اليه لما ذكرناه ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له فخر الدين عبد المسيح وكان قد وصل اليه من سنجار بعد موت نور الدين وهو الذي اقره الملك بعد أبيه فظن ان سيف الدين يرعى له ذلك فلم يجن ثمرة ما غرس وكان عنده كبعض الامراء قال له الرأي ان تعبر الى الشام فليس به مانع فقال له اكبر امرائه وهو أمير يقال له عز الدين محمود المعروف بزلفندار قد ملكت اكثر ما كان لابيك والمصلحة ان تعود فرجع الى قوله وعاد الى الموصل ليقضي الله أمرا كان مفعولا

(ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها)

لما مات نور الدين محمود صاحب الشام اجتمعت الفرنج وساروا الى قلعة بانياس من اعمال دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم العسكر عنده بدمشق فخرج عنها فراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ لهم في القول وقال لهم ان أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه والا فنرسل الى سيف الدين صاحب الموصل ونعلمه ونصالحه ونستنجده ونرسل الى صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ولا تقومون لنا وأنتم تعلمون ان

اغناه سلطانهم * ومن كسير جبره انصافهم * ومن حسير انهضه عطفهم والطافهم وكان الامير ابو الحرث احمد بن محمد غرة تلك الدوله * وانسان تلك المقله * وجمال تلك الحله * وطراز تلك الحله * بما أوتي من كرم خصيب * وكنف رحيب * وشرف رغيب * ومروءة همة بعيدة ومستقى فائل قريب * وكان الامير سبكتكين خطب اليه كريمته على السلطان يمين الدوله * وامين الملة * ثم اوجب لولده ابي نصر احمد ابن محمد كريمة له فانتسبت النعمة * واشتبكت العصمة * والتحمت الوثائق * واستحكمت الاواصر والعلائق * ولما مضى ابو الحرث لسبيله ورثه ابو نصر ابنه فأوجب السلطان اقراره على ولايته ايثارا له بفضل رعايته وعنايته * الى ان قضى نحبه في شهور سنة احدى واربعمائة وأقر أنى ابو الفضل احمد بن الحسين الهمذاني المعروف بالبديع كتابه اليه * جعله مقدمة الجنود عليه * فنال به من رغائب الآبادي ما ملا به يديه * وهو كتابي والبحر وان لم ارد * فقد سمعت خبره

والليث وان لم القه * فقد تصورت خلقه * والملك العادل وان لم اكن اقمته * فقد لقيت صيته * ومن رأى من السيف اثره * فقد رأى أكثره * ومازالت أيد الله الامير أسمع بهذا البيت القديم بناؤه * الفسيح فناؤه * الرحيب أفياؤه * الكريم أبناؤه * وأنشد من هذه الحضرة ضالتي * والعوائق يمنة ويسره * تريني حسره * والزمن العثور * يقعد تارة ويثوره * فكم من عام عزمت وأبت المقادير * ونويت وعرضت معاذير * والآن لما وقفت لهذه الزورة اختلفت على أخبار الملك العادل في مستقره واختلفت باختلافها مرة في قوس الطريق ومرة في وتره * على اقتفاء أثره * حتى بلغت مبلغي هذا ثم وسوس الي الشيطان تقدير مقدر أني أقصد هذه الحضرة طامعا في مال * اوطامحا الى نوال * وعظم سلطان هذه الوسوسة حتى كاد ينسيني عن دولة الحظ من طاعته ولم أبعد ما ألقاه الشيطان في خلدي أن يكون * ولا ناشدت الله الظنون * أن تنصرف في قصدي الا الى معرفة أوقعها * او خيبة أودعها

صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع بنور الدين والآن فقد زال ذلك الخوف واذا طلبناه الى بلادكم فلا يمتنع فعلموا صدقه فصالحوه على شئ من المال أخذوه واسرى اطلقوا لهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه وكتب الى الملك الصالح والامراء الذين معه يقبح لهم ما فعلوه ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وازعاجهم عن قصد شئ من بلاد الملك الصالح وكان قصده أن يصير له طريق الى بلاد الشام ليتملك البلاد والامراء الشاميون انما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازي صاحب الموصل فانه كان قد اخذ البلاد الجزرية وخافوا منه أن يعبر الى الشام فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في المحرم وقع الحريق ليلا ببغداد فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها ودام الحريق الى بكرة وطفئت النار وفيها في شعبان بنى ابن شنكا وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان قلعة بالقرب من الماهكي ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الاعمال فسير اليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه فالتقوا فحمل بنفسه على الميمنة فهزمها واقتتل الناس قتالا عظيما وأسر ابن أخي شملة وحمل رأسه الى بغداد فعلق بباب النوبي وهدمت القلعة وفيها في رمضان وكان الزمان ربيعا توالت الامطار في ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين يوما ما رأينا الشمس فيها غير مرتين كل مرة مقدار لحظة وخربت المساكن وغيرها وكثر الهدم ومات تحته كثير من الناس وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان اكثرها ببغداد فانها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع وكسر وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطئ دجلة خوفا من انفتاح القورج وغيره وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده ونبع الماء في البلاليع وخرب كثيرا من الدور ودخل الماء الى البيمارستان العضدي ودخلت السفن من الشبابيك التي له فانها كانت قد تقلعت فمن الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد ان أشرفوا على الغرق وفيها في جمادى الاولى كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين فايماز والخليفة وسببها ان الخليفة أمر باعادة عضد الدين ابن رئيس الرؤساء الى الوزارة فمنع منه قطب الدين وأغلق باب النوبي وباب العامة وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة فأجاب الخليفة الى ترك الوزارة فقال قطب الدين لا أقنع الا باخراج عضد الدين من بغداد فأمر بالخروج منها فالتجأ الى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل فأخذه الى رباطه وأجاره ونقله الى دار الوزير بقطفتا فأقام بها ثم عاد الى بيته في جمادى الآخرة وفيها سقط الامير أبو العباس احمد بن الخليفة وهو الذي صار خليفة من قبة عالية الى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجا فقيل لنجاح لم ألقيت نفسك فقال ما كنت أريد البقاء بعد مولاي فرعى له الامير أبو العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرابيا وصارت الدولة جميعها بحكمه ولقبه الملك الرحيم عز الدين وبالغ في الاحسان اليه والتقديم له وخدمه جميع الامراء بالعراق والوزراء وغيرهم وفيها في رمضان وقع ببغداد برد كبار رأى الناس مثله فهدم الدور وقتل جماعة من الناس وكثيرا من المواشي فوزنت بردة منها فكانت سبعة أرطال وكان عامته

كالنار فج بكسر الاغصان هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى تاريخه والعهدة عليه وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيد صاحب نيسابور وبين شاه مازندران قتل فيها كثير من الطايفتين فانهزم شاه مازندران ودخل المؤيد بلاد الديلم وخربها وقتل باهلها وعاد عنها وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسببها ان الماء لما زاد سكر أهل باب الكرخ سكر اردد الماء عنهم فغرق مسجدا فيه شجرة فانقلعت فصاح اهل الكرخ انقلعت الشجرة لعن الله العشرة فقامت الفتنة فتقدم الخليفة الى علاء الدين تنامش فمال على أهل باب البصرة لانه كان شيعيا وأراد دخول المحلة فمنعه أهلها واغلقوا الابواب ووقفوا على السور وأراد احراق الابواب فبلغ ذلك الخليفة فانكره أشد انكار وأمر باعادة تنامش فعاد ودامت الفتنة اسبوعا ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج ارسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم عجزه عاد الى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة وفيها فى جمادى الاولى مات أحمد بن على بن المعمر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلوى الحسينى نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الظاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد وفيها توفى الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد ابن محمد العطار الهمدانى سافر الكثير فى طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من اعيان المحدثين وكان له قبول عظيم ببلده عند العامة والخاصة

(ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة)

(ذكر وصول اسطول صقلية الى مدينة الاسكندرية وانهزامهم منها)

فى هذه السنة ظفر أهل الاسكندرية وعسكر مصر باسطول الفرنج من صقلية وكان سبب ذلك ماذكرناه من ارسال أهل مصر الى ملك الفرنج بساحل الشام والى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر فجهز صاحب صقلية اسطولا كثيرا عدته مائتى شينى تحمل الرجالة وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبارا تحمل آلة الحرب واربعين مركبا تحمل الازواد وفيها من الراجل خمسون الفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلى وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وسيره الى الاسكندرية من ديار مصر وصلوا اليها فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها فى ثامنة فخرج اهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وابعدوا عن البلد مهم الوالى عليهم من ذلك وامرهم بملازمة السور ونزل الفرنج الى البر مما يلى البحر والمنارة وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر الا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم وسيرت الكتب بالحال الى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال اول يوم الى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات الى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الاسلامية كل من كان فى اقطاعه وهو قريب من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها واحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون

اومدحة أسمعها * اورجعة أسرعها * ثم ادخر هذه الدولة لملكة اغصبها * اورابة انصبها * اوكنيسة اغلبها * أودولة اقلبها * فأما الدرهم والدينار فدفعهما الى * ونزعهما من يدى * سواء لدى * لا اشكر واهبهما * ولا اشكو سالبهما * ان لى فى القناعة وقتا * وفى الصناعة بختا * لا يبعد منال المال اذا أردته ولا يحوجنى الى ركوب العقاب * وسلوك الشعاب مهما قصدته * بل يجيئنى فيضا * ويتطفل على ايضا وهذه الحضرة حرسها الله تعالى وان احتاج اليها المأمون * ولم يستغن عنها قارون * فان الاحب الى أن أقصدها قصد موال لا قصد سؤال * والرجوع عنها بجمال * أحب الى من الرجوع عنها بمال * قدمت التعريف * وأنا أنتظر الجواب الشريف * فان نشط لضيف ظله خفيف * وضالته رغيف * فليبعث له بالاستقبال طائر الاقبال * والسلام * وله فيه لما صدر عن فنائه * منقلبا بنعمائه * قال ألم تر انى فى سفرتى لقيت الغنى والمنى والاميرا

وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون الى الدهليز فاحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت امارته ولم يزل القتال الى آخر النهار ودخل اهل البلد اليه وهم فرحون مستبشرون بمدد أو امن تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح فى رجالتهم وأما صلاح الدين فانه لما وصله الخبر بما كره وسير مماليكه ومعه ثلاثة جنائب ليجد السير عليها الى الاسكندرية يبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر الى دمياط خوفا عليها واحتياطا لها فصار ذلك المملوك فوصل الاسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى فى البلد بمجىء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا الى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن ان صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد ان يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين فى عساكره فسقط فى أيديهم وازداد وا تعبا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموها بما فيها من الاسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل فى رجالة الفرنج فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم الى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين فى الماء وغرق بعض شوانى الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون الى بكرة ودام القتال الى ان اضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل واسير وكفى الله المسلمين شرهم

(ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر)

وفى أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع اليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الصلاحية فى اقطاعه وهو أخو الامير أبى الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه وهو من اكبر الامراء وأشجعهم فسار الى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الامراء وكثيرا من العسكر ووصلوا الى مدينة طود فاحتفت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيرا وذلوا بعد العز وقهروا واستكانوا ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود الى الكنز وهو فى طغيانه يعمه فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الامراء وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها

(ذكر ملك صلاح الدين دمشق)

فى هذه السنة سلخ ربيع الاول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وسبب ذلك ان نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازى الى حلب كما ذكرناه فأقام بها عند شمس الدين على بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يغير الى حلب فيملكها فأرسل سعد الدين الى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر الى حلب فلما قارب دمشق سير اليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكرا فهزموه وعاد منهزما الى حلب فأشفق عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم ان الامراء الذين بدمشق تفكروا فى المصلحة فعلموا ان مسيره الى حلب اصلح للدولة من مقامه بدمشق فأرسلوا الى ابن الداية يطلبون ارسال سعد الدين

ولما ترآى شمت الترائب
وكنت امرأ لا اشم العبيرا
لقيت امرأ مل عين الزمان
يعلو صعابا ويرقى شبيرا
لآل فريغون فى المكرمات
يد أولا واعتذار أخيرا
اذا ما حللت بغناهم
رأيت فعالا وملكا كبيرا
فلا يعدم الملك ذو روعة
يهون المنى ويسر السريرا
ولا بى الفتح البستى فيهم
ثنوا ريغون قوم فى وجوههم
سيما الهدى وسناء السودد
العالى
كانما خلقوا من سودد وعلا
وسائر الناس من طين
وصلصال
من تلق منهم تقل هذا أجلهم
قدرا وأمضاهم بالنفس
والمال
ياسائلى ما الذى حصلت
عندهم
دع السؤال وقم فانظر الى حالى
أما ترى أن حالى كيف قد
حليت
بهم ألم ترحالى عند ترحالى
فان اكن ساكتا عن شكر
أنعمهم
فان ذا الجزى لا اغفالى

ليأخذ الملك الصالح فجهزه وسيره * وعلى نفسها براقش تجني * فسار الى دمشق في المحرم من هذه السنة واخذ الملك الصالح وعاد الى حلب فلما وصلوا اليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الدايه واخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الاحداث بها ولولا مرض شمس الدين بن الدايه لم يتمكن من ذلك واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق وقالوا ان استقر امر حلب اخذ الملك الصالح وساريه الينا وفعل مثل ما فعل بحلب وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات اليهم ليسلموا اليه دمشق فلم يفعل وخاف ان تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير الى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فهلك اشار عليه بهذا زلفندار عز الدين والجبان يقدر البعيد من الشر قريبا ويرى الجبن حزما كما قال

يرى الجبناء ان الجبن حزم * وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما اشار عليه بهذا الرأي زلفندار قبله وامتنع من قصد دمشق وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على ما اخذه من البلاد فلما امتنع عن العبور الى دمشق عظم حزمهم وقالوا حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير اليهم فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف ابن أيوب صاحب مصر واستدعوه ليملكوه عليهم وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدم ومن أشبه أباه فما ظلم وقد ذكرنا مخامرة أبيه في تسليم سنجار سنة اربع واربعين وخمسمائة فلما وصلت الرسل الى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة في سبعمائة فارس والفرنج في طريقه فلم يبال بهم فلما وطئ ارض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه فخرج واقبله فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضي الفاضل وقال ما أرى معكم عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار اخذكم اهل السواد فان كان معكم مال سهل الامر فقالوا هنا مال كثير يكون خمسين الف دينار فضرب صاحب بصرى على راسه وقال هلكتم واهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ثم سار صلاح الدين الى دمشق فخرج كل من بها من العسكر اليه فاقوه وخدموه ودخل البلد ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزوري وهو قاضي البلد والحاكم في جميع امورها من الديوان والوقف وغير ذلك وارسله الى ريحان ليسلم القلعة اليه وقال انا مملوك الملك الصالح وما جئت الا لانصره واخدمه واعيد البلاد التي اخذت منه اليه وكان يخطب له في بلاده كلها فصعد كمال الدين الى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين اليها واخذ ما فيها من الاموال واخرجها واتسع بها وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه

* (ذكر ملك صلاح الدين مدينتي حمص وحماة) *

لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق وقرر أمرها استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغدكين بن أيوب وسار الى مدينة حمص مستهل جمادى الاولى وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة في اقطاع الامير فخر الدين مسعود الزعفراني فلما مات نور الدين لم

* (ذكر أمر المؤمنين القادر بالله واتصاله منصب آبائه الراشدين بدار السلام واستقرار الامامة عليه وانعقاد البيعة له بعد الطائع لله وما اشتبك من الحال بين السلطان يمين الدولة وأمين الملة وبين بهاء الدولة وضياء الملة أبي نصر ابن عضد الدولة في زمانه) *
قد كان بهاء الدولة وضياء الملة ينقم من الطائع لله أمورا لصدوره فيها من غير وفاقه * وعدوله بها عن حكم استحقاقه * فدعاه ما تولى عليه من خلاف رضاه الى مراعاة مصلحة الدين باختيار من يرعى حق الامامه * ويتولى حياطة الخاصة والعامه * ويعزل هوى النفس في اتباع الحق واستشعاره * ونصرة الحق واظهاره * وأخذ يتلطف في التدبير عليه الى أن تمكن منه بخلعه *

يمكنه القيام بها لسوء سيرته في أهلها ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم انما فيها ولاة لنور الدين وكان بقلعة حمص وال يحفظها فلما نزل صلاح الدين على حمص حادي عشر الشهر المذكور راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فملك البلد وأمن أهله وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة الى ان عاد من حلب على ما نذكره ان شاء الله وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وان تصعد اليهم ميرة وسار الى مدينة حماة وهو في جميع أحواله لا يظهر الا طاعة الملك الصالح بن نور الدين وانه انما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ما أخذه سيف الدين غازي صاحب الموصل من البلاد الجزرية فلما وصل الى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الامير عز الدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم الى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وانما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيره الى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي اطلاق شمس الدين علي وحسن وعثمان أولاد الدابة من السجن فسار جورديك الى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة الى صلاح الدين فملكها

(ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك)

لما ملك صلاح الدين حماة سار الى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم احسان أبي اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد احسان والدي اليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثيرا وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الاموال والانفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا في القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها حيث كان الفرنج بالقرب منهم فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل حوشن فلا يقدر على القرب من البلد وأرسل سعد الدين الى سنان مقدم الاسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فارسلوا جماعة منهم الى عسكره فلما وصلوا آهم أميرا سمه خمارتكين صاحب قلعة بوقيس فعرفهم لانه جارهم في البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما آهم قال لهم ما الذي أقدمكم وفي أي شئ جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الاسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا وبقي صلاح الدين محاصرا لحلب الى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب وسبب رحيله ان القومص الصنجيلي صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبقي في الحبس الى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير فلما وصل الى بلاده اجتمع الفرنج عليه يهنئونه بالسلامة وكان عظيما فيهم من أعيان شياطينهم فاتفق ان مرى ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة فلما توفي خلف ابنا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها وتولى القومص ريمند تدبير الملك الحل والعقد عن أمره يصدرون فأرسل اليه من حلب يطلبون منه ان يقصد بعض

واحتوى عليه وعلى ما كان جمعه * وذلك في شعبان سنة احدى وثمانين وخمسمائة وأرسل الى البطائح وبها القادر بالله أبو العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله فاستقدمه دار السلام لعقد البيعة له سدا للثلمة * وتنظر اللامة * وارتهانا للائفه * واجتلابا بالمصلحة الجملة * فقدمها في شهر رمضان من هذه السنة وتسارع الناس الى مبايعته * وأصفقوا على طاعته * وتراضوا عن طيب النفوس بامامته * وتناهبوا شكرا لله على ما أتاحه لهم من بركات خلافته * ثقة بما اشتهر في الآفاق من مناقبه الغر * وضرائبه الزهر * وفضائله المسطورة على صفحات الدهر * فقام بما قلده الله من طوق الامامة مفوضا اليه أمره * ومتوكلا عليه وحده * فليرى في مقره من سير الخلافة أرقر منه

البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم فسار الى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل الى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم ثم رحل الى الرستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين اليها فحصر القلعة الى ان ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام بيده ولما ملك حمص سار منها الى بعلبك وبها خادم اسمه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين فحصرها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الامان له ولمن عنده فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر رمضان من السنة المذكورة

(ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار)

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين الى ابن عمه سيف الدين غازي ابن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب ان يعبر اليه ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار ويأمره ان ينزل اليه بعساكره ليجتمعوا على المسير الى الشام فامتنع من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لانه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عز الدين مسعودا في عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره الى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له عز الدين محمود ويلقب أيضا زلفندار وجعله المدبر للامر وسار سيف الدين الى سنجار فحصرها في شهر رمضان وقاتلها وجد في القتال وامتنع عماد الدين بها وجد في حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عز الدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عماد الدين وصالحه على ما بيده ورحل الى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازي في الصلح فلم يستقر حال

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب)

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين وعز الدين زلفندار الى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وصاروا كلهم الى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين الى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وان يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب الى ذلك وقال لابد من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود الى مصر وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب فلما امتنع سيف الدين من اجابته الى ما بذل سار في عساكره الى عز الدين مسعود زلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه الا انه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفي واتهزموا الا يلوى أخ على أخيه وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته قال اما ان هذا أشجع الناس أو انه لا يعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم

حصاه * وأوفر أناه * واصلب قناه * وأصدق تقاه * وأرضى سيره * وأذكى بصرا وبصيره * وأزكى علنا وسريره * وأتم جلالة وجزاله * وأعم سياسة وحراسه * نعم ولا اقوى منه جنانا * وأندى بنانا * واعدل عقابا واحسانا * وعطفته عاطفة القربى على الطائع لله فاستخصه لمنادمته * واجتباه لمصاحبته * والحفه جناح رعايته وحمايته * تفاديا من غضاضة تلحقه في زمانه * او نكبة ترهقه في ظل سلطانه وجانب امانه * الى ان فرق بينهما الدهر المولع بالتفريق * واخذ الرفيق عن الرفيق * ورثاه ابو الحسن محمد بن الحسين بن موسى العلوي المعروف بالرضي الموسوي بقصيدة منها

ان كان ذاك الطود خر
فبعدما استعلى طويلا
موف على القلل الذوا
هب في العلا عرضا وطولا
قرم يسد لحظه
فيرى القروم له مثولا

وعنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحا عظيما ودواب فارهة وعادوا بعد طول البيكار مستريحين وعاد المنهزمون الى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصرا لها ومقاتلا وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال اسمه عن السكة فى بلاده ودام محاصرا لهم فلما طال الامر عليهم راسلوه فى الصلح على ان يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم الى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب فى العشر الاول من شوال ووصل الى حماة ووصلت اليها بها خلع الخليفة مع رسوله

(ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين)

فى هذه السنة فى العشر الاخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام وكان صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وهو من اكابر الامراء النورية فلما راى قوة صلاح الدين نزل منها واتصل بصلاح الدين وظن ان صلاح الدين يكرمه ويشاركه فى ملكه ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين فلم ير من ذلك شيأ ففارقه ولم يكن بقى له من اقطاعه التى كانت له فى الايام النورية غير بعرين ونائبه بها فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد الى حماة وسار منها الى بعرين وهى قريبة منها فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وادام قتالها فسلمها واليها بالامان فلما ملكها اعاد الى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى وأقطع حمص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وسار منها الى دمشق فدخلها أواخر شوال من السنة

(ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز)

فى هذه السنة ملك البهلوان بن ايلدكز مدينة تبريز وهى من جملة بلاد آقسنقر الاحمدىلى وسبب ذلك ان البهلوان سار الى مراغة وحصرها وكان ابن آقسنقر الاحمدىلى قدمات ووصى بالملك لابنه قزل الدين فقصده البهلوان ونزل على قلعة رويندز وحصرها فامتنعت عليه فتركها وحصر مراغة وسير أخاه قزل ارسلان فى جيش الى مدينة تبريز فحصرها أيضا وكان البهلوان يقاتل أهل مراغة فظفروا بطائفة من عسكره فخلع عليهم صدر الدين قاضى مراغة وأطلقهم فحسن ذلك عند البهلوان وشرع القاضى فى الصلح على ان يسلموا تبريز الى البهلوان فأجيب الى ذلك واستقرت القاعدة عليه وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز وأعطاها أخاه قزل ارسلان ورحل عن مراغة بعسكره

(ذكر وفاة شملة)

فى هذه السنة مات شملة التركمانى صاحب خوزستان وكان قد كثرت ولايته وعظم شأنه وبنى عدة حصون وبقى كذلك زيادة على عشرين سنة وكان سبب موته انه قصد بعض التركمان فعلموا بذلك فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب عراق العجم فسير اليهم جيشا فاقتتلوا فأصاب شملة سهم ثم أخذ أسيرا وولده وابن أخيه وتوفى بعد يومين وهو من التركمان الافشرية ولما مات ملك ابنه بعده

(ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد)

فى هذه السنة فى شوال سير علاء الدين تاميش وهو من أكابر الامراء ببغداد وكان قطب الدين قايماز زوج اخته عسكرا الى العراق فنهبوا اهله وبالغوا فى أذاهم فجاء منهم جماعة الى بغداد

واستغاثوا

ويرى عزيزا حيث حل
ولا يرى الاذليلا
كالليث الا انه اتخذ
العلا والعز غيلا
وعلا على الاقران لا
مثلا بعد ولا عديلا
من معشر ركبوا العلا
وابوا عن الكرم النزولا
غرا اذا انسبوا انا الـ
ـغرر اللوامع والحجولا
كرموا فروعا بعد ما
طابوا وقد جعموا اصولا
نسب غدا رواده
يستنصبون له الفصولا
يا ناصر الدين الذى
رجع الزمان به كليلا
يا صارم المجد الذى
ملئت مضاربه فلولا
يا كوكب الاحسان اعـ
ـملك الدجى عنا افولا
يا غارب النعم العظا
م غدوت مغمورا جزيلا
لهفى على ماض مضى
ان لا نرى منه بديلا
وزوال ملك لم يكن
يوما يقدر ان يزولا
ومنازل سطر الزما
ن على معالمها الحؤولا
من بعد ما كانت على
الايام مرباة تكولا
والاسد ترتكز القنا
فيها وترتبط الخيولا
من يسبغ المتن الجسا
م ويصطفى الحد الجزيلا
من بنتج الآمال يو
م نعود بالليان حولا

واستغاثوا فلم يغاثوا الضعف الخليفة مع قايماز وتشامش وتحكمهما عليه فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب وفاتت الصلاة أكثر الناس فأنكر الخليفة ما جرى فلم يلتفت قطب الدين وتشامش الى ما فعل واحتقروه فلا جرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدرائهم أهله فلما كان خامس ذى القعدة قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار وكان صاحب المخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة فلم يراع الخليفة فى صاحبه فأرسل اليه يستدعيه ليحضر عنده فهرب فاحرق قطب الدين داره وحالف الامراء على المساعدة والمظاهرة له وجمعهم وقصد دار الخليفة لعلمه ان ابن العطار فيها فلما علم الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعد الى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح واستغاث وقال للعامة مال قطب الدين لكم ودمه لى فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامة فهرب من داره من باب فتحه فى ظهرها لكثرة الخلق على بابها وخرج من بغداد ونهبت داره وأخذ منها من الاموال ما لا يعد ولا يحصى فرؤى فيها من النعم ما ليس لاحد مثله فمن جملة ذلك ان بيت الطهارة الذى كان له فيه سلسلة ذهب من السقف الى محاذى وجه القاعد على الخلا وفى اسفلها كرة كبيرة ذهب مخرمة محشوة بالمسك والعنبر ليشمها اذا قعد فتشبث انسان وقطعها ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة اكياس مملوءة دنانير وكان الاقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس فلما أخذ ذلك الصعلوك الاكياس قصد المطبخ فأخذ منه قدرا مملوءة طبيخا وألقى الاكياس فيها وحملها على رأسه والناس يضحكون منه فيقول انا أريد شيأ اطعمه عيالى اليوم فنجا بما معه فاستغنى بعد ذلك فظهر المال ولم يبق من نعمة قطب الدين فى ساعة واحدة قليل ولا كثير وما خرج من البلد تبعه تشامش وجماعة من الامراء فنهبت دورهم ايضا وأخذت أموالهم واحرق أكثرها وسار قطب الدين الى الحلة ومعه الامراء فسير الخليفة اليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحلة الى الموصل على البر فلحقه ومن معه عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ومات قطب الدين قبل وصوله الى الموصل فحمل ودفن بظاهر باب العمادى وقبره مشهور هناك وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الاحسان والظلم وسوء التدبير فانه ظلم اهل العراق وكفر احسان الخليفة الذى كان قد غمره ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الامور كلها كما كان فان عامة بغداد كانوا يريدونه وكان قوى بالاحسان على البلاد فأطاعوه ولما مات فى ذى الحجة وصل علاء الدين تشامش الى الموصل فأقام مدة ثم أمره الخليفة بالقدوم الى بغداد فعاد اليها وبقى بها الى ان مات بغير اقطاع وكان هذا آخر أمرهم ولما أقام قطب الدين بالحلة امتنع الحاج من السفر فتأخروا الى ان رحل عنها فدخلوا من الكوفة فى ثمانية عشر يوما وهذا ما لم يسمع بمثله وفات كثيرا منهم الحج ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير واعيد الى الوزارة قال بعض الشعراء فى قطب الدين وتشامش هذه الابيات

ان كنت معتبرا بما كان زائل * وحوادث عنقية الادلاج
فدع العجائب والتواريخ الاولى * وانظر الى قيماز وابن بلاج

من يرد التمر الطوال
لو يكشف الخطب الجليلا
وتراه يمنع دونا
وادى النوائب أن يسيلا
عقاد ألوية الملوك

لله على العلا جيلا فجيلا
وانثالت خطباء العراق
وشعراؤه كأعراف
الجياد على مجالس الخلافة
فى امتداح القادر بالله أمير
المؤمنين * وذكر مآثر
أيامه ومفاخر اسلافه *
مرابيع الكرم * وينابيع
الحكم * ومصابيح الظلم *
ومجاديح الامم * وليوث
الهيم * وغيوث القمم *
وبلغنى ان مقاماتهم مدونة
بالعراق من بين منظوم
ومنثور * وفقر وشذور *
فلا حاجة بنا الى تتبع
ذكرها مع اشتهارها *
وحكى أبو محمد عبد السلام
ابن محمد بن الهيصم أحد
أعيان الكراسية بنيسابور
قال قمت فى مجلس القادر
بالله أمير المؤمنين خطيبا
بحضرة بنى هاشم ومشايخ
بغداد واعيان الحجيج
فقلت الحمد لله ذى العزه
القاهره * والحجة الباهره *
والنعم المتظاهره * الذى عم
احسانه * ودام سلطانه *
ولطف شانه * فلا راد لقضائه
* ولا مانع لعطائه * ولا
معقب لحكمه * ابعث
محمدا صلى الله عليه من

عطف الزمان عليهما فسقاهما * من كاسه صرفا بغير مزاج
فتبدلوا بعد القصور وظلها * ونعيمها بهامه وفجاج
فليحذر الباقون من امثالها * نكبات دهر خائن مزعاج

وكان قطب الدين كريما طلق الوجه محبا للعدل والاحسان كثير البذل للمال والذى كان جرى منه انما كان يحمله عليه تناسق ولم يكن بارادته

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة مات زعيم الدين صاحب الخزن واسمه يحيى بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن جعفر أبو الفضل وحج بالناس عدة سنين واليه الحكم فى الطريق وتاب عن الوزارة وتنقل فى هذه الاعمال أكثر من عشرين سنة وكان يحفظ القرآن

(ثم دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة)

(ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين)

فى هذه السنة عاشر شوال كان المصاف بين سيف الدين غازى بن مودود و بين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتل السلطان على مرحلة من حلب على طريق حماة وانهزم سيف الدين وسبب ذلك انه لما انهزم اخوه عز الدين مسعود من صلاح الدين فى العام الماضى وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار عاد الى الموصل وجمع عساكره وفرق فيهم الاموال واستنجد صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس فسار الى نصيبين فى ربيع الاول من هذه السنة واقام بها فاطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقيم فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم وصار العود الى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه ان ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة ثم سار الى حلب فنزل اليه سعد الدين كشتكين الخادم مدبر دولة الملك الصالح ومعه عساكر حلب وكان صلاح الدين فى قلة من العساكر لانه كان صالح الفرنج فى المحرم من هذه السنة على ما نذكره ان شاء الله وقد سير عساكره الى مصر فأرسل يستدعيها فلو عالجوه لبلغوا غرضهم منه لكنهم تريثوا وتأخروا عنه فجاءته عساكره فسار من دمشق الى ناحية حلب ليلقى سيف الدين فالتقى العسكران بتل السلطان وكان سيف الدين قد سبقه فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فالقوا انفسهم الى الارض ليس فيهم حركة فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال فقال زلفندار ما بنا هذه الحاجة الى قتال هذا الخارجى فى هذه الساعة غدا بكرة نأخذهم كلهم فترك القتال الى الغد فلما اصبحوا اصطفوا للقتال فجعل زلفندار وهو المدبر للعسكر السيفى اعلامهم فى وهدة من الارض لا يراها الا من هو بالقرب منها فلما لم يرها الناس ظنوا ان السلطان قد انهزم فلم يثبتوا وانهزموا ولم يلو احد على أخيه ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد ووصل سيف الدين الى حلب وترك بها أخاه عز الدين مسعودا فى جمع من العسكر ولم يقم هو وعبر الفرات وسار الى الموصل وهو لا يصدق انه ينجو وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقر الحميدية فقال له مجاهد الدين

خير أرومة العرب مولدا * وافضل جرانيها محتدا
واطولها انجادا وأرسخها * فى المكرمات اوتادا فأيده
أحسن تأييد واكد أمره * أفضل تأكيد حتى
استقل الدين ناهضا * واضمحل الشرك داحضا
وظهر أمر الله والمشركون * كارهون فعليه صلوات
الله عدد الرمل والحصا * ما طلعت عليه شمس الضحى
وعلى آله الطيبين * ثم
قبض الله من بعده الخلفاء
الراشدين * المهدى الدين *
وتوهين كيد الملحدين *
فبسطوا الاسلام بساطه *
ونهجوا لاهل الايمان
صراطه * الى أن تأدى الامر
الى ذويه * من آل رسول الله
صلى الله عليه وسلم وبنى
صنوأبيه * فأقاموا الاسلام
عن أوده * وأسندوا الامر
الى مستنده * معتصمين
بنصر الله * صادعين بأمر
الله * معظمين حرمات الله
* وهلم جرا الى أن تأكدت
بيعة الخلافة بأمير المؤمنين *
القادر بالله فبهر نوره
العالمين * وشنف ذكره على
المنابر صدور وقروم مؤمنين
* من بعد النواه من اظهر
العناد * وانزوا من قصد
الفساد * وأبى الله الا نصرة
الحق وادالته * ودفع الباطل
واذالته * ولقد حدثنى محمد

الدين ارأيت ان ملكت الموصل على اقدر ان تمنع بعض ابراج الفصيل فقال لا فقال برج في الفصيل خير من العقر ومازال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب واتفق هو والوزير على شد ازره وتقوية قلبه فثبت ثم اعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على امارة الجيوش مجاهد الدين قايماز على ماذكره ان شاء الله وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب البرق الشامي في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس ولم يكن كذلك انما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس اقل من خمسمائة فاني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشية وغير ذلك وكان المتولي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين ابا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله وانما قصد العماد ان يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا والحق احق ان يتبع ثم ياليت شعري كم هي الموصل واعمالها الى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون الف فارس

(ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين)*

لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا الى حلب عاد سيف الدين الى الموصل كما ذكرناه وترك بحلب أخاه عز الدين مسعودا في طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح وأما صلاح الدين فانه لما استولى على اثقال العسكر الموصلي هو وعسكره وغنموها واتسعوا بها وقووا سار الى بزاعة فحصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها وجعل فيها من يحفظها وسار الى مدينة منبج فحصرها آخر شوال وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه والاطماع فيه والطعن فيه فصلاح الدين حنق عليه متهددله فاما المدينة فملكها ولم تمتنع عليه وبقي القلعة وبها صاحبها قد جمع اليها الرجال والسلاح والذخائر فحصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف الى القلعة فوصل النقابون الى السور فنقبوها وملكوها عنوة وغنم العسكر الصلاحي كل ما فيها وأخذ صاحبها أسيرا فأخذ صلاح الدين كل ماله واصبح فقيرا لا يملك نقيرا ثم اطلقه صلاح الدين فسار الى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار الى قلعة اعزاز فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة وهي من احصن القلاع وامنعها فنازلها وحصرها وأحاط بها وضيق على من فيها ونصب عليها المنجنيقات وقتل عليها كثيرا من العسكر فبينما صلاح الدين يوما في خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولي وهو مقدم الطائفة الاسدية اذ وثب عليه باطني فضربه بسكين في رأسه فجرحه فلولا ان المغفر الزرد كان تحت القلنسوة لقتله فامسك صلاح الدين يد الباطني بيده ألا انه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية انما يضرب ضربا ضعيفا فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكين وكان عليه كزاغند فكانت الضربات تقع في زيق الكزاغند فتقطعه والزردية تمنعها من الوصول الى رقبته لبعد اجله فجاء امير من امرائه اسمه ياز كش فامسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده الى ان قتل الباطني وجاء آخر من الاسماعيلية فقتل أيضا وثالث فقتل وركب صلاح الدين الى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته ثم اعتبر جنده فمن انكره أبعده ومن عرفه اقره على خدمته ولازم حصار اعزاز ثمانية وثلاثين يوما كل يوم أشد قتالا مما قبله

ابن الفضل الصولي عن المبرد
أن العباس بن أبي عبدون
حدثه ان سعيدا الخطيب
قال لما بايع الفضل بن
مروان المعتصم بالله
امير المؤمنين قام فحمد
الله وأثنى عليه وقال
بايعت منبسطا ولم تنبسط
كفي لبيعته قطعت بنانها
من ذا اليه لا يد يمينه
قطع الاله يمينه فأبانها
ولوالدي في خدمة امير
المؤمنين ما يقارب هذا
اويشاكله * وذلك انه
أظهر بيعته لوارد كتابه
على حين التواء من التوى
بناحية بلخ وقال فيها
سبقت يميني نحو بيعة قادر
بالله لما حالف الفتنة القدر
ماضر بيعته التواء من
التوى
والله مبرمها بمكنون الزبر
واقد أراه أحق من وطئ
الحصى
بورائه الشم البهاليل الغرر
فلا خلعن القلب مني ان أبى
ولا قلعن العين ان زاغ البصر
وها أنا قد ساعدني توفيق
الله حتى وطئت بساط أمير
المؤمنين شاكرا ما أنعم الله
علينا بولي أمير المؤمنين
محمود بن سبكتكين فانه في
رسمه كاسمه والله نسأل أن
يديم سلامة أمير المؤمنين *
وأن يبلغه أمله في الامير
أبي الفضل ولي عهد المسلمين *

وكثرت النقوب فيها فاذعن من بها وسلموا القلعة اليه فتسلمها حادى عشر ذى الحجة

(ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها)

لما ملك صلاح الدين قلعة اعزاز رحل الى حلب فنازلها منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح ومن معه من العساكر وقد قام العامة فى حفظ البلد القيام المرضى بحيث انهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد لانه كان اذا تقدم للقتال خسر هو وأصحابه وكثر الجراح فيهم والقتل وكانوا يخرجون ويقاتلونه ظاهر البلد فترك القتال واخلد للمطاولة وانقضت سنة احدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين وهو محاصرها ثم تردد الرسل بينهم فى الصلح فى العشرين من المحرم فوقعت الاجابة اليه من الجانبين لان أهل حلب خافوا من طول الحصار فانهم ربما ضجروا وضعفوا وصلاح الدين رأى انه لا يقدر على الدنو من البلد ولا على قتال من به فأجاب أيضا وتقررت القاعدة فى الصلح للجميع للملك الصالح واسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ولصاحب ماردين وتحالفوا واستقرت القاعدة ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر فلما انفصل الامر رحل عن حلب بعد ان اعاد قلعة اعزاز الى الملك الصالح فانه اخرج الى صلاح الدين أخته له صغيرة طفلة فاكرمها صلاح الدين وحمل لها شيأ كثيرا وقال لها ماتريدين قالت أريد قلعة اعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها اليهم ورحل الى بلد الاسماعيلية

(ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها واقامة غيره)

فى هذه السنة فى ذى الحجة كان بمكة حرب شديدة بين امير الحاج طاشتكين وبين الامير مكثر ابن عيسى امير مكة وكان الخليفة قد أمر امير الحاج بعزل مكثر واقامة أخيه داود مقامه وسبب ذلك انه كان قد بنى قلعة على جبل أبى قبيس فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمزدلفة وانما اجتازوا بها فلم يرموا الجمار انما بعضهم رمى بعضها وهو سائر ونزلوا الابطح فخرج اليهم ناس من اهل مكة فحاربوهم وقتل من الفريقين جماعة وصاح الناس الغزاة الى مكة فهجموا عليها فهرب أمير مكة مكثر فصعد الى القلعة التى بناها على جبل أبى قبيس فحصروه بها ففارقها وسار عن مكة وولى أخوه داود الامارة ونهب كثيرا من الحاج وأخذوا من اموال التجار المقيمين بها شيأ كثيرا واحرقوا دورا كثيرة ومن اعجب ماجرى فيها ان انسانا زراقا ضرب دارا بقارورة نفط فاحرقها وكانت لايتام فاحرقت مافيها ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانا آخر فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها فبقى ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى شهر رمضان انكسفت الشمس جميعها واظلمت الارض حتى بقى الوقت كانه ليل مظلم وظهرت الكواكب وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه وكنت حينئذ صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من المعلمين اقرأ عليه الحساب فلما رأيت ذلك خفت خوفا شديدا وتمسكت به فقوى قلبى وكان عالما بالنجوم ايضا وقال لى الا ترى هذا جيشه انصرف فانصرف سريعا وفيها ولى الخليفة المستضىء بأمر الله جهة الباب أبا طالب نصر بن على

الغالب بالله ابن أمير المؤمنين ويلحقه بسعادة آبائه الراشدين * وأسلافه الطيبين الطاهرين * والحمد لله رب العالمين * وصلى الله على نبيه محمد وآله اجمعين * قال فأمر القادر بالله أمير المؤمنين بأن تنسخ الخطبة فى جملة أخواتها المسطورة المخزونة ولما ارجت منابر خراسان بذكر القادر بالله أمير المؤمنين على ماأوجبته طاعة السلطان يمين الدولة وأمين الملة لامر الله فى اقتفار محجته * واقتفاء خليفته وحجته * كاتبه بعبارته من الافضاء الى ابنه أبى الفضل بعهده * فى ولاية امير المؤمنين من بعده * وتلقيبه بالغالب بالله ورسم توفيته واجب حقه * والحاق ذكره على المنابر باسمه * وطبع النقود على ذكر تلقيبه * فأوجب السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * مطاوعته فيما أمر ومتابعته فى جميع مارسم فتقارن ذكراهما فى الخطب * وترافق اسماهما على صفحات الفضة والذهب * وسنعود الى ذكر بهاء الدولة * وضياء الملة * من لدن استأثر الله بعضد الدولة * وتاج الملة * ابى شجاع فناخسرو الى ان أفضى

الناقد وكان يلقب في صغره قنبرا فصار وايصيحون به ذلك اذا ركب فأمر الخليفة ان يركب معه جماعة من الاتراك ويمنعون الناس من ذلك فامتنعوا فيما كان قبل العيد خلع عليه ليركب في الموكب فاشترى جماعة من أهل بغداد من القابر شيأ كثيرا وعزموا على ارسالها في الموكب اذا رأوا ابن الناقد فأنهي ذلك الى الخليفة وقيل له يصير الموكب فتنة فعزله وولى ابن المعوج وفيها في ذي الحجة يوم العيد وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبين الاتراك بسبب أخذ جمال النصر فقتل بينهم جماعة ونهب شئ كثير من الاموال ففرق الخليفة أموالا جليلة فيمن نهب ماله وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق الى ماوراء الري وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة واكثر ذلك كان بالري وقزوين وفيها في ربيع الآخر استوزر سيف الدين غازي صاحب الموصل جلال الدين ابا الحسن ابن جمال الدين محمد بن علي وكان جمال الدين وزير البيت الاتابكي وقد تقدمت اخباره وهو المشهور بالجود والافضال ولما ولي جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة وكان جوادا فاضلا خيرا وكان عمره لما ولي الوزارة خمسا وعشرين سنة وفيها في ذي الحجة استناب سيف الدين أيضا عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض اليه الامور وكان قبل ذلك اليه الامر بمدينة اربل واعمالها وكان رحمه الله من صالحي الامراء وارباب المعروف بنى كثيرا من الجوامع والخانات في الطرق والقناطر على الانهار والربط وغير ذلك من أبواب البر وكان دائم الصدقة كثير الاحسان عادل السيرة رحمه الله وفيها قبض الخليفة على سنجر المقتفوي استاذ الدار ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب وفيها في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الذي ملك اليمن الى دمشق ولما سمع ان أخاه صلاح الدين ملكها حن الى الوطن والاتراب ففارق اليمن وسار الى الشام وأرسل من الطريق الى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله وكتب في الكتاب شعرا من قول ابن المنجم المصري

والى صلاح الدين اشكو أنني * من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن * لولاهواه لبعد دار اجزع
قلا ركبن اليه متن عزائمي * ويخب بي ركب الغرام ويوسع
ولاقطعن من النهار هواجرا * قلب النهار بحرها يتقطع
ولاسرين الليل لايسري به * طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمن اليه قلبي مخبرا * اني بجسمي من قريب أتبع
حتى أشاهد منه اسعد طلعة * من أفقها صبح السعادة يطلع

وفي هذه السنة في المحرم برز صلاح الدين من دمشق وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبكسره عسكر الموصل لخافه الفرنج وغيرهم وعزم على دخول بلادهم ونهبه والاغارة عليه فأرسلوا اليه يطلبون الهدنة معه فأجابهم اليها وصالحهم فأمر العساكر المصرية بالعود الى مصر والاستراحة الى ان يعاود طلبهم وشرط عليهم انه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون فساروا اليها واقاموا بها الى ان استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ماذكرناه وفيها مات أبو الحسن علي بن عساكر البطائحي المقرئ وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه وكان نحويا جيدا وفي ذي الحجة

الامر اليه * واستقر الملك عليه * وفيها نطق به كتاب الصابي * المعروف بالتاجي من وقائع عضد الدولة مع بختيار الى ان أظفره الله به فقضى عليه بحد حسامه وجرعه كأس حمامه * واحتياله على أبي تغلب ناصره بعد انهزامه * الى ان أمكنه التدبير عليه بابن الجراح أحد المتغلبين من الاعراب على حدود الشام فقبضه لاقتناصه بما رأى أهداها اليه واطماع أكدها له حتى تغفله وقتله وحمل اليه علاوته مايغني عن تجديد ذكره ولما مضى عضد الدولة لسبيله وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة عند اشتغال أخيه مؤيد الدولة بويه بمحاربة حسام الدولة تاش وعميدها فائق في عساكر خراسان اجتمع أبناء دولته * على ابنه صمصام الدولة * وشمس الملة * فبايعوه متوازرين ووافقوا على طاعته متظاهرين * وأتاه الطائع لله أمير المؤمنين * في حراقه على ظهر دجلة *

منها توفي ابو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز سمع الحديث ورواه وله شعر جيد فمن ذلك انه كتب اليه بعض اصدقائه مكاتبة وضمنها شعرا فأجابه

يا من أياديه تغني من يعدّدها * وليس يحصى مداها من لها بصف
عجزت عن شكر ما أوليت من كرم * وصرت عبدا لولى في ذلك الشرف
اهديت منظوم شعر كله درر * فكل ناظم عقد عنده يقف
اذا أتيت ببيت منه كان لنا * قصرا ودر المعاني فوقه شرف
وان أتيت أنا ببيتا يناقضه * أتيت لكن ببيت سقفه يكف
ما كنت منه ولا من أهله أبدا * وانما حين ادنو منه اقتطف

(ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة)

(ذكر مذهب صلاح الدين بلاد الاسماعيلية)

لما رحل صلاح الدين من حلب على ما ذكرناه قبل قصد بلاد الاسماعيلية في المحرم ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه وارادة قتله فنهب بلدهم وخربه واحرقه وحصر قلعة مصياث وهي أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها ولم يزل كذلك فأرسل سنان مقدم الاسماعيلية الى شهاب الدين الحارمي صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له ان لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فأجابه الى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وكان عسكره قد ملوا من طول المقام وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ونهب بلاد الاسماعيلية فطلبوا العود الى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسار هو الى مصر مع عسكرها لانه كان قد طال عهده عنها ولم يمكنه المضي اليها فيما تقدم خوفا على بلاد الشام فلما انهزم سيف الدين وحصر هو حلب وملك بلاده واصطلحوا أمن على البلاد فسار الى مصر وأمر ببناء سور على مصر والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطم دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمي ولم يزل العمل فيه الى ان مات صلاح الدين

(ذكر ظفر المسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين)

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب بعلبك فأتاه خبر ان جمعا من الفرنج قد قصدوا البقاع من اعمال بعلبك وأغاروا عليها فسار اليهم وكمن لهم في الشعراء والغياض وأوقع بهم وقتل فيهم وأكثر واسر نحو مائتي رجل منهم وسيرهم الى صلاح الدين وكان شمس الدولة نور انشاه أخو صلاح الدين وهو الذي ملك اليمن قد وصل الى دمشق كما ذكرناه وهو فيها فسمع ان طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم الى اعمال دمشق فسار اليهم والتقيهم عند عين الجرفي تلك المروج فلم يثبت لهم وانهزم عنهم فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار وهو من اعيان الجند الدمشقيين واجترأ الفرنج بعدها وانبسطوا في تلك الولاية وجبروا الكسر الذي ناله منهم ابن المقدم

(ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده الى طاعته)

في هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن يزان صاحب شهرزور على سيف الدين غازي وكان في

يعزيه عن أبيه وقد ثار عوام
الناس نظارة له حتى اذا قرب
منه برز اليه صمصام الدولة
بخشم وجهه ورسم الطاعة
وحق الخلافة وقال له
الطائع لله نضر الله وجهه
الماضي * وحمل الخلف
الباقي * وصير التعزية بعده
الك لابك والخلف علمك
لامنك فاذرى على خديه
دموع عينيه * وبادر الى
الصعيد شكر المامن الله به
عليه * ثم انتصب منصب أبيه
فأجرى الامور على استقامة
وتدبرها بسياسة عامة
وكان أخوه الاكبر
أبو الفوارس شيرزيل بن
عضد الدولة غائبا الى مدينة
واسهر من أرض كرمان فلما
بلغه نعي أبيه كر راجعا الى
فارس وقبض بها على نصر
ابن هرون النصراني
فاستوفى عليه حواصل
أموالها وبقايا اعمالها
وامتد الى الاهواز فملكها
على اخيه ابي الحسين احمد
ابن عضد الدولة وغلب على
البصرة معها وذلك في
رجب سنة خمس وسبعين
وثلثمائة ثم استعد لقصد
بغداد طلبا لمكانة ابيه
واستضافة لما في يد اخيه
الى سائر ما يليه * حتى اذا
واقاها تلقاه صمصام الدولة
بما اوجبه حق سنه عليه
اجلالا وهيبة ومداراة

طاعته

طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك ان مجاهد الدين قايماز كان متولياً مدينة اربل وكان بينه وبين ابن يزان عداوة محكمة فلما استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل خاف ابن يزان ان ينالـه منه أذى فأظهر الامتناع من النزول الى الخدمة فأرسل اليه جلال الدين وزير سيف الدين كتاباً يأمره بمعاودة الطاعة ويحذره عاقبة المخالفة وهو من أحسن الكتب وأبلغها في هذا المعنى ولولا خوف التطويل لذكرته فلما طالب من مكاتبته فلما وصل اليه الكتاب ورسول بادر الى حضور الخدمة بالموصل وزال الخلاف

(ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ)

بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعاقل اسمه فنك وهو على رأس جبل عال وهو للاكراد البشنوية له بأيديهم نحو ثلثمائة سنة وكان صاحبه هذه السنة أميراً منهم اسمه ابراهيم وله أخ اسمه عيسى قد خرج منه وهو لا يزال يسعى في أخذه من أخيه ابراهيم فأطاعه بعض بطانة ابراهيم وفتح باب السر ليلاً وأصعد منه الى رأس القلعة نيفاً وعشرين رجلاً فقبضوا على ابراهيم ومن عنده ولم يكن عنده الا نفر من خواصه وهذه قلة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعاً كثيراً وبها يسكن الامير واهله وخواصه وباقي الجند في القلعة تحت القلة فلما قبضوا ابراهيم حملوه في خزانة وضربه بعضهم بسيف في يده على عاتقه فلم يصنع شيئاً فلما جعل في الخزانة وكل به رجلين وصعد الباقون الى سطح القلة ولا يشكون ان القلعة لهم لا مانع عنهم ووصل من الغد بكرة الامير عيسى ليتسلم القلعة وبينهما دجلة وكانت امرأة الامير ابراهيم في خزانة أخرى وفيها شبالة حديد ثقيل يشرف الى القلعة فجذبته بيدها فانقلع وجند زوجها في القلعة لا يقدرون على شيء فلما قلعت الشبالة ارادت ان تدلي حبلاً ترفع به الرجال اليها فلم يكن عندها غير ثياب خام فوصلت بعضها ببعض ودلتها الى القلعة وشدت طرفها عندها في عود فأصعدت اليها عشرة رجال ولم يكن براهم الذين على السطح ورأى الامير عيسى وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون فصاح هو ومن معه الى أولئك الذين على السطح ليحذروا وكان كلما صاحوا صاح أهل القلعة لاختلاف الاصوات فلا يفهم الذين على السطح فينزلون ويمنعون من ذلك فلما اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها الى زوجها قدح شراب وأمرته ان يقرب منه كأنه يسقيه الشراب ويعرفه الحال ففعل ذلك وجلس بين يديه ليسقيه وعرفه الحال فقتل ازداد من الرجال فأصعدت عشرين رجلاً وخرجوا من عندها فمد ابراهيم يده الى الرجلين الموكلين به فأخذ شعورهما وأمر الخادم بقتلهما وكان عنده فقتلهما بسلاحهما فخرج واجتمع باصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد اليه أصحابه من القلة فلم يجد المفاتيح وكانت مع اولئك الرجال الذين على السطح فاضطروا الى الصعود الى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى فعلموا الحال فجاءوا ووقفوا على رأس المرقى فلم يقدر أحد يصعد فأخذ بعض أصحاب ابراهيم ترساً وجعله على رأسه وحمل في الدرجة وصعد وقاتل القوم على رأس المرقى حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقي منهم رجل القى نفسه من السطح فنزل الى أسفل الجبل فتقطع فلما رآى عيسى ما حل باصحابه عاد خائباً مما أمله واستقر الامير ابراهيم في قلعته على حاله

ومقاربة تفادياً من ضرر استيحاشه وعدوى مساءته غير عالم بأن غمد افرد الايسع سيفين * ووتر واحد الايضم سهمين * فقرب ابو الفوارس ورفع محله * ثم خلعه وكحله وامر به الى قلعة كيوستان من ارض عمان واستولى على المملكة واقبه الطائع لله بشرف الدولة وزين الملة فبقي على جلسته سنتين وبضعة حكم الله تعالى في جمادى الآخرة سنة سبع وسبعين وثلثمائة فقام اخوه شاهنشاه بهاء الدولة وضياء الملة ابو نصر بن عضد الدولة مقامه وتجرد لضبط الامور المائرة * وتلافى الاحوال الحائلة * وكفل بالملك كفالة خبير بالحارب بصير بأعقاب العواقب وتمالا الاتراك بفارس على صمصام الدولة فأبرزوه من معتقله وحمله غلامه المعروف بسعادة على عاتقه منحدراً به الى فارس وما والاها * وتتبع اموالها فجباها * ثم تنكروا له وقدموا ابا علي بن ابي الفوارس وعقدوا له الرياسة عليهم ولقبوه بشمس الدولة * وقر الملة * وتجردوا للدفاع عنه والدعاء اليه * فانتدب لمواقعتهم الى ان هزمهم اقبح هزيمة * وغنمهم ابرد غنيمة * فخلصوا الى بغداد

(ذكر ذهاب البندنيجين)

في هذه السنة وصل الملك الذي بخوزستان عند شمله وهو ابن ملكشاه بن محمود الى البندنيجين فخربها ونهبها وقتل في الناس وسبى حريمهم وفعل كل قبيح ووصل الخبر الى بغداد فخرج الوزير عضد الدين وعرض العسكر ووصل عسكر الملك وواسط مع طاشتكين امير الحاج وغرغلى وسار وا نحو العدو فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد وكان معه من التركمان جمع كثير فنهبهم عسكر بغداد ورجعوا من غير أمر بالعود فأنكر عليهم ذلك وأمر وا بالعود الى مواقفهم فعادوا لاوائل شهر رمضان وقد رجع الملك فنهب من البندنيجين ما كان سلم في الاول ووقعت بينهم وبين الملك وقعة ثم افترقوا فمضى الملك وفارق ولاية العراق

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الاولى أقيمت الصلاة في الجامع الذي بناه فخر الدولة ابن المطلب بقصر المأمون غربي بغداد وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعي رضي الله عنه بمصر وعمل بالقاهرة بيمارستان ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة وفيها رأيت بالموصل خروفين يبطن واحد ورأسين ورقبتين وظهرين وثماني قوائم كأنهما خروفان يبطن واحد وجه احدهما الى وجه الآخر وهذا من العجائب وفيها انقض كوكب اضاءت له الارض اضاءة كثيرة وسمع له صوت عظيم وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب وفيها توفي تاج الدين أبو علي الحسن بن عبد الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة وفيها في المحرم توفي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري قاضي دمشق وجميع الشام واليه الوقوف بها والديوان وكان جوادا فاضلا رئيسا ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول رحمه الله ورضي عنه

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

(ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة)

في هذه السنة في جمادى الاولى سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر الى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج وجمع معه عساكره وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا الى عسقلان في الرابع والعشرين منه فنهبوا وأسروا وقتلوا واحرقوا ونفرقوا في تلك الاعمال مغيرين فلما رأوا ان الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمي البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساحوا في الارض آمنين ووصل صلاح الدين الى الرملة عازما على ان يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل الى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم الا والفرنج قد أشرفت عليهم باطلا بها وابطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لان أكثرهم تفرقوا في طلب الغنيمة فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدم بين يديه محمد بن أخي صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه فقتل من اصحابه جماعة وكذلك من الفرنج وكان لتقي الذين ولد اسمه احمد وهو من احسن الشباب اول ما تكاملت لحيته فأمره ابوه بالحملة عليهم فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالما قد أثر فيهم اثرا كثيرا فأمره بالعودة اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميدا رحمه الله ورضي عنه وكان اشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه عيسى رحمه الله وتمت الهزيمة على المسلمين وحمل

صاغرين * خاسرين * فركب بهاء الدولة * وضياء الملة * لقتال صمصام الدولة * فتناوشا الحرب وصالا ككعوب الرماح * مابين المساء والصباح * حتى خربت البصرة وتلاهافي الخراب اكثر كور الاهواز وقد كان اولاد بختيار محتجبين فاستنزلهم طائفة من الاكراد الخسروية عن معتقلهم مؤججين من نار الفتنة باستنزالهم * وفك عقالهم * فناصبهم الحرب مستكفا شرهم * ومستدفعا بأسهم وضرهم * فاختلفت بهم الوقائع بين تلك الفئتين الثائرة * والاحن الفائرة * فكانت عقباها ان اجلت عنه قتلا وتذمر بهاء الدولة للعائثة عليه فأرصد الجناة بطائلته حتى شردهم كل مشرد * وطردهم كل مطرد * وزعيمهم يومئذ سالار بن بختيار الملقب بنور الدولة وكان من امره انه انتبذ عنهما مدحورا مشؤرا * فاضطرته الحال الى خفارة التجار في تجارتهم * واجازتهم على مراصد القطع ببضاعاتهم * على خرج يستعين به من جهتهم على مؤن معاشه ورياشه واتبعه بهاء الدولة * بجيش واقعده * يوشجر

بعض

بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل اليه فقتل الفرنجي بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسيرا قليلا ويقف ليلحقه العسكر الى ان دخل الليل فسلك البرية الى أن مضى في نفر يسير الى مصر ولقوا في طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذي كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغارة فان اكثرهم ذهب ما بين قتيل واسير وكان من جملة من اسر الفقيه عيسى الهكاري وهو من اعيان الاسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة واسر ايضا اخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذا ومعهما جماعة من اصحابهما وبقوا سنين في الاسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين الف دينار وجماعة كثيرة من الاسرى ووصل صلاح الدين الى القاهرة نصف جمادى الآخرة ورأيت كتابا كتبه صلاح الدين بخط يده الى اخيه شمس الدولة توران شاه وهو بدمشق يذكر الوقعة وفي أوله

ذكرتك والخطي يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما انجانا الله سبحانه منه الا لامر يريد سبحانه

* وما ثبتت الا وفي نفسها أمر *

(ذكر حصر الفرنج مدينة حماة)

في هذه السنة في جمادى الاولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة وسبب ذلك انه وصل من البحر الى الساحل الشامي كند كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزما فاغتنم خلو البلاد لان شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر وكان أيضا كثير الانهماك في اللذات مائلا الى الراحات فجمع ذلك الكند الفرنجي من بالشام من الفرنج وفرق فيهم الاموال وسار الى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحي بالقرب منها فدخلوا اليها واغاثوا من بها وقاتل الفرنج على البلد قتالا شديدا وهجموا بعض الايام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهرا وقسرا فاجتمع أهل البلد مع العسكر الى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستقتل المسلمون وحاموا عن الانفس والاهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد الى ظاهره ودام القتال ظاهر البلد ليلا ونهارا وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج حينئذ خائبين وكفى الله المسلمين شرهم فساروا الى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمي وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام

(ذكر قتل كشتكين وحصر الفرنج حارم)

في هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كشتكين وكان المتولي لامر دولته والحاكم فيها وسبب قبضه انه كان بحلب انسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن النجمي وكان متقدما عند نور الدين محمود فلما مات نور الدين تقدم أيضا في دولة ولده الملك الصالح وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة اتباعه بحلب وصار كل من كان يحسد كشتكين انضم الى

فغلبوه * ووصلوا اليه فقتلوه وحمل غلام منهم رأسه الى بهاء الدولة فامتعض للرحم الدانيه * والذمة الحانيه * من تشجعه على ملاقاته به * فأمر بالغلام فسلخ جلده من قرنه الى قدمه * عبرة لمن اقدم على ملك بسفك دمه * وبعث بعميد الجيوش الملقب بالصاحب الى بغداد لمراعاة تلك الاعمال * واستيفاء حقوق بيت المال * فاستقامت سيرته * وحمدت في العدل بصيرته * وعم رفقه حجيج بيت الله الحرام * بالمنائح العظام * فانطلقت بشكره السنة الخاص والعام * من الناس الى ان قبضه الله اليه فسد مكانه بوزير الوزراء زيادة في النظر للرعية فأربى على عميد الجيوش في الاحسان الى الكافة اصلاحهم ورفقا بهم وطرحا عنهم وصفت نواحي فارس وكرمان لبهاء الدولة فضافة الى سائر أعماله وقعدت الفتن القائمة عن سوقها في زمانه فعم الامن والسكون * وشمل الرفق والهدون * واستراح عباد الله مما كان يقدحهم من وطأة الجيوش ويلحقهم من معرة اختلاف السيوف وقد كان أبو علي بن الياس ملك كرمان أيام عضد الدولة لا آل سامان وأقام بها مدة

صالح وقووا جنانه وكثروا سواده وكان عنده اقدام وجراءة فصار واحد الدولة بحلب ومن يصدر الجماعة عن رأيه وأمره فبينما هو في بعض الايام في الجامع وثب به الباطنية فقتلوه ومضى شهيدا وتمكن بعده سعد الدين وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ونسبوه الى العجز وانه ليس له حكم وان سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره وابن الوالي حتى قبض عليه وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد اقطعه اياها الملك الصالح فامتنع من بها بعد قبضه وتحصنوا فيها فسير سعد الدين اليها تحت الاستظهار لبأس أصحابه بتسليمها الى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات في العذاب واصر أصحابه على الامتناع والعصيان فلما رأى الفرنج ذلك ساروا الى حارم من حماة في جمادى الاولى على ما ذكره ظنا منهم انهم لا ناصر لهم وان الملك الصالح صبي قليل العسكر وصلاح الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ونصبوا عليها المنجنيقات والسلالم فلم يزالوا كذلك الى ان بذل لهم الملك الصالح مالا وقال لهم ان صلاح الدين واصل الى الشام وربما يسلم القلعة من بها اليه فأجابوا حينئذ الى الرحيل عنها فلما رحلوا عنها سير اليها الملك الصالح جيشا فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج وصاروا كأنهم طلائع وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير فسلموا القلعة الى الملك الصالح فاستناب بها ما كان لابيه اسمه سرخك

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في المحرم خطب للسلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه المقيم عند ايلدكز بهمذان وكان أبوه ارسلان قد توفي وفيها سابع شوال هبت بغداد ريح عظيمة فزلزلت الارض واشتد الامر على الناس حتى ظنوا ان القيامة قد قامت فبقي ذلك ساعة ثم انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة وفيها رابع ذي القعدة قتل عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبي القسم بن المسلمة وزير الخليفة وكان قد عزم على الحج فعبر دجلة ليسير وعبر معه أرباب مناصب وهو في موكب عظيم وتقدم الى أصحابه ان لا يمنعوا عنه أحدا فلما وصل الى باب قطيعة القصب قال انا مظلوم وتقدم ليسمع الوزير كلامه فضربه بسكين في خاصرته فصاح الوزير قتلني ووقع من الدابة وسقطت عمامته فغطى رأسه بكمه وضرب الباطني بسيف وعاد الى الوزير فضربه واقبل حاجب الباب ابن المعوج لينصر الوزير فضربه الباطني بسكين وقيل بل ضربه رفيق كان للباطني ثم قتل الباطني ورفيقه وكان لهما رفيق ثالث فصاح وبيده سكين فقتل ولم يعمل شيأ وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير الى داره هناك وحمل حاجب الباب مجروحا الى بيته فمات هو والوزير وحمل الوزير فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور وكان الوزير قد رأى في المنام انه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه ولده انه اغتسل قبل خروجه وقال هذا غسل الاسلام وأنا مقتول بلا شك وكان مولده في جمادى الاولى سنة اربع عشرة وخمسمائة وكان ابوه استاذ

من الزمان لا ينازعه فيها منازع * ولا يدافعه عنها مدافع * وكان حبس ابنه البسع في بعض قلاع كرمان اشفاقا من معرته للوثبة رآها في رأيه * واضطراب تبينه في وجوه شمائله وأنحائه * ولها عنه مدة * وهو يكابد بينها بؤسا وضرا وشدة * فاتفق أن أشرف سرب من نساء ابيه وجوار به عليه فرثين له لضيق مكانه ودبرن في وجه خلاصه وعمدن الى خرهن فوصلن بعضها ببعض وخلصنه بها عن معتقله وتسامع أهل العسكر بخلاصه واختلال عقاله * فتجمعوا عليه وانقطعوا بجملتهم اليه عما لأثله على أبيه بالفتوات فقوموها منه وبالغ أبا على في شر الحادثة فأرسل الى ذوي التجرب والتالب باحثا عما دعاهم اليه فأظهروا الضجر بمكانه * والتبرم بطول زمانه * وساموه مفارقة كرمان ليستقر الامر على ابنه البسع بطاعتهم له وتوخيهم موافقته فعرك أبو على قولهم بجنب المداراة والاحتمال * في عاجل الحال * ثم جمع ما قدر عليه من صنوف الاموال وكر عائدا الى بخارا مخليا بين البسع وبين تلك الولاية

دار المقتفي لامر الله فلما مات ولي هو مكانه فبقي كذلك الى ان مات المقتفي فأقره المستنجد على ذلك ورفع قدره فلما ولي المستضيء استوزره وكان حافظا للقرآن سمع الحديث وله معروف كثير وكانت داره مجمعا للعلماء وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج وفيها كانت فتنة ببغداد وسببها انه حضر قوم من مسلمي المدائن الى بغداد فشكوا من يهودها وقالوا انا مسجد نؤذن فيه ونصلي وهو مجاور الكنيسة فقال انا اليهود قد آذونا بكثرة الاذان فقال المؤذن ما نبالي بذلك فاختصموا وكانت فتنة استظهر فيها اليهود فجاء المسلمون يشكون منهم فأمر ابن العطار وهو صاحب المخزن بحبسهم ثم أخرجوا فقصدوا جامع القصر واستغاثوا قبل صلاة الجمعة فخفف الخطيب الخطبة والصلاة فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم فلما رأى العامة ما فعل بهم غضبوا نصرة للاسلام فاستغاثوا وقالوا أشياء قبيحة وقاموا طوايق الجامع ورجموا الجند فهربوا ثم قصد العامة دكاكين الخاطبين لان أكثرهم يهود فنهبوها وأراد حاجب الباب منعهم فرجموه فهرب منهم وانقلب البلد وخربوا الكنيسة التي عند دار البساسيري واحرقوا التوراة وأمر الخليفة ان تنقض الكنيسة التي بالمدائن وتجعل مسجدا ونصب بالرحبة اخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين فظنها العامة نصبت تخويفا لهم لاجل ما فعلوا فعلقوا عليها في الليل جرادانا ميتة وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها وفيها في شعبان قبض سيف الدين غازي صاحب الموصل على وزيره جلال الدين علي بن جمال الدين لغير جرم ولا عجز ولا تقصير بل لعجز سيف الدين فان جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنة فقال مجاهد الدين لسيف الدين لابد من قبض الوزير فقبض عليه كارها لذلك ثم شفع فيه ابن رئيس آمد لصهورة بينهما فاخرج وسار الى آمد فمرض بها وعاد الى نصيبين فمات سنة خمس وسبعين وعمره سبع وعشرون سنة وحمل الى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فدفن عند والده في الرباط الذي بناه بها وكان رحمه الله من محاسن الدنيا جمع كرما وعلما ودينا وعفة وحسن سيرة واستخلفه سيف الدين أنه لا يمضي الى صلاح الدين لانه خاف ان يمضي اليه للمودة التي كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب واسد الدين شيركوه فبلغني ان صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين وفيها اجتمع الفرنج طائفة منهم وقصدوا اعمال حمص فنهبوها وغنموا وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم ووقف على طريقهم وكمن لهم فلما وصلوا اليه خرج اليهم هو والكمين ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسر جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت الا وهو مثخن بالجراح واستردت منهم جميع ما غنموا فرقه على أصحابه وفيها في ربيع الآخر توفي صدقة بن الحسين الحداد الذي ذيل تاريخ الزاغوني ببغداد وفيها في جمادى الاولى توفي محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفي المعروف بالمشطب ببغداد

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

(ذكر قصد الفرنج مدينة حماة ايضا)

في هذه السنة في ربيع الاول سار جمع كثير من الفرنج بالشام الى مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعا في النهب والغدرة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى واحرقوا

وأقام شقيقه بشر بن المهدي وترمش الحاجب على خدمة البسع وكفالة أمره * اذ كانت حداثته تقتضي استخلاف مثلهما في دهائهما وقوة رأيهما على حضانة اموره * وتبصيره الرشد في جوه تدابيره * ولما وصل أبو علي الى بخارا بولغ في تعهده وا كرام مورده واحلاله من الايثار والاكبار محل مثله الى أن توفي بها في شوال سنة ست وخمسين وثلثمائة فاما البسع فانه ولي كرمان فحمى أطرافها وجبى أموالها وكان أخوه سليمان مقيما بسيرجان والياعليها فأغراه بشر بن المهدي به وأشار عليه بمعاجلته قبل انتظام شمله واستقرار حبله فكتب اليه يستدعيه لهم لا يستغني عن مفاوضته فيه فامتنع عن الاجابة بعلل اخترعها ومعاذير تمحلها وضاق البسع ذرعا ولم يجد من مناجزته بدا فنهض اليه محاربا حتى هزمه وغنم ماله فوقع سليمان الى بخارا وأطمع البسع نزق شبابه في مغالبة عضد الدولة أبي شجاع على بعض حدود عمله فكان مثله مثل العير طلب قرنين * فضيع الاذنين

وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماة سار وا اليهم وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والاسر فيهم واستردوا ما غنموه من السواد وكان صلاح الدين قد عاد من مصر الى الشام فى شوال من السنة المتقدمة وهو نازل بظاهر حمص فحملت الرؤس والاسرى والاسلاب اليه فأمر بقتل الاسرى فقتلوا

(ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه)

فى هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبك وكانت له قد سلمها اليه صلاح الدين لما فتحها جزاه له حيث سلم اليه ابن المقدم دمشق على ما سبق ذكره فلم تزل بيده الى الآن فطلب شمس الدولة محمد بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك والح عليه فى طلبها الان تربيته ومنشاه كان بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد وكان الاكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين بتسليمها الى أخيه ليعوضه عنها فلم يجب الى ذلك وذكر العهود التى له وما اعتمده معه من تسليم البلاد اليه فلم يصغ اليه والح فى أخذها وسار ابن المقدم اليها واعتصم بها فوجه اليه صلاح الدين عسكرا وحصره بها مدة ثم رحل عنها من غير ان يأخذها وترك عليه عسكرا يحصره فلما طال عليه الحصار أرسل الى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها اليه فعوضه عنها وسلمها فاقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة

(ذكر الغلاء والوباء العام)

فى هذه السنة انقطعت الامطار بالكلية فى سائر البلاد الشامية والجزيرة والعراقية والديار البكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك واشتد الغلاء وكان عاما فى سائر البلاد فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق وهى أربعة عشر مكوكا بالموصلى بعشرين دينارا صورية وعتق وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكى بدينار أميرى وفى سائر البلاد ما يناسب ذلك واستقى الناس فى أقطار الارض فلم يسقوا وتعذرت الاقوات وأكلت الناس الميتة وما ناسبها ودام كذلك الى آخر سنة خمس وسبعين ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضا كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيأ واحدا وهو السرسام وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى الا ان بعض البلاد كان أشد من البعض ثم ان الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الامطار ورخص الاسعار ومن عجيب ما رأيت انى قصدت رجلا من العلماء الصالحين بالجزيرة لاسمع عليه شيأ من حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين والناس فى أشد ما كانوا غلاء وقنوطا من الامطار وقد توسط الربيع ولم تجئ قطرة واحدة من المطر فبينا انا جالس ومعى جماعة ننتظر الشيخ واذ قد اقبل انسان تركمانى قد اثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكى الجوع فأرسلت من يشترى له خبزا فتأخر احضاره لعدمه وهو يبكى ويتمرغ على الارض ويشكو الجوع فسلم يبق فينا الا من بكى رحمة له وللناس فتغيمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز فأكل التركمانى بعضه وأخذ

الباقى

وذلك انه لما بلغ مفرق الحدين بين كرمان وفارس أتاه صاحب طليعته بطائفة من المستأمنة عن عسكر عضد الدولة * فأحسن اليهم * وصب الخلع عليهم * ثم هرب نفر منهم راجعين وراءهم فارتاب اليسع برفقائهم وظن ان وراء استئمانهم حيلة أو غيلة فأوسعهم تنكيلا * وعمهم بالعقاب قطعا وتمثيلا واستأمن عنه الى عضد الدولة جملة من رجاله فحملهم وحباهم * ووصلهم ومناهم * فلما رأى أصحابه تباعد ما بين الامرين تألبوا عليه وتنمروا له وتحزبوا عنه وتسلل من جملتهم صفقة واحدة آلف رجل من وجوه الديلم الى معسكر عضد الدولة وهو بناحية أصطخر وفسا الظربان بين الآخرين فجعلوا يتسللون لواذا ويتفرقون جميعا واشتاتا حتى انقض عنه عامة عسكره وبقى فى خاصة خلانه وحاشيته فاضطر الى معاودة واشهر وأسرع منها بعياله * وما خف عليه حمله من اثقاله وأمواله نحو بخارا الايلوى

الباقى ومشى واشتد المطر ودام المطر من ثلث الليلة

(ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين)

فى هذه السنة فى ذى القعدة اجتمع الفرنج وساروا الى بلد دمشق مع ملكهم فاغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فارسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه فى جمع من العسكر اليهم وأمره انه اذا قاربهم يرسل اليه يخبره على جناح طائر ليسير اليه وتقدم اليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدى الفرنج فسار فرخشاه فى عسكره يطلبهم فلم يشعر الا والفرنج قد خالطوه فاضطر الى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها الى سواه فانهزم الفرنج ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفرى وما أدراك ما هنفرى كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين فاراح الله من شره وقتل غيره من اضرابه ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس وفيها ايضا اغار البرنس صاحب انطاكية ولاذقية على حشر المسلمين بشيزر واخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فأجحف باموالهم وكان صلاح الدين على بانياس على ما نذكره ان شاء الله فسير ولد اخيه تقى الدين عمر الى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد ابن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة اطرافها من العدو ردهم الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر نحو ثلث الليل الاخير وغاب منكسفا وفيها أيضا فى التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة وفى هذه السنة فى شعبان توفى الحيص بيص الشاعر واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء والسلاطين والاكابر وشعره مشهور فمنه قوله

كلما أوسعت حلمى جاهلا * اوسع الفحش له فحش المقال
واذا شاردة فهت بها * سبقت مر النعامى والشمال
لاتلمنى فى شقائى بالعلا * رغد العيش لربات الحجال
سيف عز زانه رونقه * فهو بالطبع غنى عن صقال

وفى المحرم مات شهدة بنت أحمد بن عمر بن الابرى وسمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما وعمرت هى قاربت مائة سنة وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلو اسنادها

(ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة)

(ذكر تخريب الحصن الذى بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان)

كان الفرنج قد بنوا حصنا منيعا يقارب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الاحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق الى بانياس وأقام بها وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار الى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود اليه عند اجتماع العساكر فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس بل اقام بها وحمل تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جانبى المير فلم تشعر الا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار فى العساكر مجدا حتى

على شئ دون الاشتداد فى السير وطى بساط الارض بحوافر الخيل فلما اتصل خبره بعضد الدولة بادر على اثره الى واسط فملكها واستصفى أموال آل الياس بها ثم استخلف عليها كوركير بن جستان ورجع الى فارس ولما ورد اليسع ناحية خوس من حدود قهستان خلف اثقاله وغلمانه بها وركب الجازات نحو بخارا للاستنجاد * وطلب الامداد * فلما وافاها قرب محله * وروعى له حقه * واستحضر مجلس الانس تخصيصا بمزية الاكرام والاثرة فلما قدر عليه سلطان الراح لم يتمالك ان قال مستبطئا لو عرفت قعود الهم بآل سامان عن اغاثة الراجين اياها * واللاجئين اليها * اطلبت غير هذه الحضرة ملاذا ومعتصرا تخشن مس هذا المقال منه وأمر به فنفى الى خوارزم وبلغ ابا على بن سيمجور رحله ومقاله فبعث الى خوس بمن قبض على غلمانه وأمواله فنقلهم واياها اليه غنيمة خالصة عن ايدى الاعتراض والاشتراك وأصاب اليسع بخوارزم رمد أقلقه وأكده * واستفد وسعه وجلده * وحمله الضجر بالالم على أن فقأ عينه الرمدة بيده * فسالت

واقاهم وهم فى القتال وقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا ان يلونهم عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة وناباس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخا صاحب جبيل وصاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الاسباتارية وصاحب جبين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم فاما ابن بيرزان فانه فدى نفسه بمائة الف وخمسين الف دينار صورية واطلاق الف اسير من المسلمين وكان أكثر العمل فى هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن اخى صلاح الدين وحكى عنه قال ذكرت فى تلك الحال بيتى المتنبى وهما

فان تكن الدولات قسما فانها * لمن يرد الموت الزؤام تؤول

ومن هون الدنيا على النفس ساعة * وللبيض فى هام الكماة صليل

فهان الموت فى عينى فالقيت نفسى اليه وكان ذلك سبب الظفر ثم عاد صلاح الدين الى باتياس من موضع المعركة وتجهز للدخول الى ذلك الحصن ومحاصرته فسار اليه فى ربيع الاول وأحاط به وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة فى قصه وبث العساكر فى بلاد الفرنج للاغارة ففعلوا ذلك وجمعوا من الاخشاب والزرجون شيأ كثيرا يجعله متارس للمنجنيقات فقال له جاولى الاسدى وهو مقدم الاسدية ومن أكابر الامراء الرأى انا نجربهم بالزحف اول مرة ونذوق قتال من به وننظر الحال معهم فان استضعفناهم والا فنصب المنجنيقات ما يفوت فقبل رأيه وأمر فنودى بالزحف اليه والجد فى قتاله فزحفوا واشتد القتال وعظم الامر فصعد انسان من العامة بقميص خلق فى باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه وتبعه غيره من اضرابه ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها الى اسوار الحصن ليحموا انفسهم وحصنهم الى أن يأتيهم المدد وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية فاح المسلمون فى قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج اليهم وازاحتهم عنه وأدركهم الليل فامر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة الى الغد ففعلوا فلما كان الغد اصبحوا نقبوا الحصن وعمقوا النقب واشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فانه كان تسعة اذرع بالنجارى يكون الذراع ذراعا ونصفا فانتظروه يومين فلم يسقط فامر صلاح الدين باطفاء النار التى فى النقب لحمل الماء والقى عليها فطفئت وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور والقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الاول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه واطلقوا من كان به من اسارى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج وادخل الباقين الى دمشق فسجنوا وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره والحقه بالارض وكان قد بذل للفرنج ستين الف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال فلم يفعلوا ظنا منهم انه اذا بقى بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الاسلام وأما الفرنج فاجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر باخذه فت فى اعضادهم فتفرقوا الى بلادهم وأكثر الشعراء فيه فمن ذلك قول صديقنا النشوئى نفاذة رحمه الله

هلا لك الفرنج التى عاجلا * وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد نا حتفها * لما هجرت بيت لاحوانها

وقول

وقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي

أتسكن أوطان النبيين عصبة * تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب * ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

(ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج ارسلان)

في هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن ايوب ومقدمهم ابن اخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب وبين عسكر الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان صاحب بلاد قونية واقصرا وسببها أن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر رحمه الله كان قد اخذ قديما من قلج ارسلان حصن رعبان وكان بيد شمس الدين بن المقدم الى الآن فطمع فيه قلج ارسلان بسبب أن الملك الصالح بجاب بينه وبين صلاح الدين فارسل اليه من يحصره فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألفا فأرسل اليهم صلاح الدين تقي الدين في الف فارس فواقعهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد الى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الاحزان فكان يفتخر ويقول هزمت بالف مقاتل عشرين الفا

(ذكر وفاة المستضيء بامر الله وخلافة الناصر لدين الله)

في هذه السنة في ثاني ذي القعدة توفي الامام المستضيء بامر الله امير المؤمنين ابو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضي الله عنه وأمه ام ولد ارمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة شهور وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للاموال غير مبالغ في اخذ ما جرت العادة باخذه وكان الناس معه في أمن عام واحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا رضي الله عنه فلقد كانت ايامه كما قيل

كأن ايامه من حسن سيرته * مواسم الحج والاعياد والجمع

ووزراؤه عضد الدين ابو الفرج بن رئيس الرؤساء الى أن قتل في ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وبعد قتله حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكنا كثيرا فلما مات المستضيء قام ظهير الدين ابن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله امير المؤمنين فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة استاذ الدار مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين ووكل عليه في داره ثم نقل الى التاج وقيد ووكل به وطالبت وداته وأمواله وفي ليلة الاربعاء ثامن عشر ذي القعدة أخرج ميتا على رأس حمال سرا فغمز به بعض الناس فشاروا به العامة فالقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا في ذكره حبلا وسحبوه في البلد وكانوا وضعوا يده مغرفة يعني انه اقلم وقد غمسوها في العذرة ويقولون وقع لنا يا مولانا الى غير هذا من الافعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم واعراضهم وسيرت الرسل الى الآفاق لاخذ البيعة فسير صدر الدين شيخ الشيوخ الى البهلوان صاحب همذان وأصفهان والري وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ له في القول حتى انه قال للعسكر في ضربته ما لهذا عندكم طاعة فلم يبايع امير المؤمنين

والداني فائدته * وشمل الحاضر والبادي والطاري والتالي نفعه وعائدته

(ذكر وقعة فاراين)*

ونشط السلطان عين الدولة وأمين الملة في سنة أربعمائة لغزوة في ديار الهند ينكأ بها القرح فنكايانه فيها تقربا الى الله تعالى واحتسابا للمثوبة من عنده فنهض نحوها يحث الخيول * ويخترق الحزون والسهول * الى أن توسط ديار الهند فاستباحها * وأذل قاطنيها * ونكس أصنامها * وعرض على السيوف اقتامها * وسار على هينته نحو مقصده وأوقع بعظيم العلوج وقعة أفاء الله بها عليه أموالهم * واغنمه خيولهم وأحمالهم * وحكم فيهم سيوف أوليائه يحصونهم بها بين كل سهب وفدفد * ويجزرونهم عند كل مهبط ومصعد * وردتهم الى غزنة فيما حوا من تلك الغنائم الموفورة سالما * غانما * وافرا * ظافرا * ولما رأى ملك الهند ما صبه الله عليه وعلى أهل مملكته من سوط العذاب * وقائع السلطان عين الدولة وأمين الملة فيهم * ونكاياته في خاصيهم وداتيهم * وأيقن انه لا قبل له بمثل ولا أمره بمشورة جانبه * ارسل اليه اعيان اقاربه وقرابته ضارعا في العبودية مقتنعا

بل يجب عليكم أن تخلعوه من الامارة وتقاتلوه فاضطر الى البيعة والخطبة وأرسل رضى الدين القزويني مدرس النظامية الى الموصل لاخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله في السنة

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها وعمت أكثر البلاد من الظهر الى أن مضى من الليل ربعه وبقيت الدنيا مظلمة لا يكاد الانسان يبصر صاحبه وكنت حينئذ بالموصل فصلينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظن والتخمين وأقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار وظنوا ان القيامة قد قامت فلما مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام والعتمة التي غطت السماء فنظرنا فرأينا النجوم فعلمنا مقدار ما مضى من الليل لان الظلام لم يزد بدخول الليل وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك وفيها في ذي القعدة نزل شمس الدولة اخو صلاح الدين عن بعلبك وطلب عوضا عنها الاسكندرية فاجابه صلاح الدين الى ذلك واقطع بعلبك اعز الدين فرخشاه ابن اخيه فسار اليها وجمع اصحابه واغار على بلاد الفرنج حتى وصل الى قلعة صفد وهي معلقة على طبرية فسبى وأسر وغنم وخرب وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة وأما شمس الدولة فانه سار الى مصر وأقام بالاسكندرية واذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له اليها حاجة فانه أقام بها الى أن مات بها وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من احسن الجوامع وفيها توفي أحمد بن عبد الرحمن الصوفي شيخ رباط الزوزني وسمع الحديث وكان يصوم الدهر وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه وهو من بيت الحديث والقاضي عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي سمع الحديث ورواه وولي قضاء الحريم وعلي بن احمد اليزيدي سمع الحديث الكثير وله وقف كتب كثيرة ببغداد وكان زاهدا خيرا صالحا ومحمد بن علي حمزة بن علي الاقساسي نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيرا

رب قوم في خلائقهم * عرر قد صيروا غررا
ستر المال القبيح لهم * سترى ان زال ما ستروا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الانباري كاتب الانشاء بعد أبيه وابو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغاني الفقيه كان مناظرا حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبي حنيفة

(ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية اخيه عز الدين بعده)

في هذه السنة ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وديار الجزيرة وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه في آخره برسام ومات ومن عجيب ما يحكى ان الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وخرج سيف الدين في موكبه فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة وطلبوا منه ان يأمر بالمنع من بيع الخمر فاجابهم

عند أمره * ويتسمح بماله ووفره * ويتجرد أوقات دعائه اياه لنصره * على أن يقود اليه بادي الامر خمسين فيلا بعد آحادها باضعافها ثقل اجسام * وخفة اقدام * ويحمل معها مالا عظيم الخطر * كثير القدر * مما يضاهيه من مبار * تلك الديار * ومتاع * تلك البقاع * وعلى أن يناوب كل عام بين افناء عسكره في خدمة بابه بألفي رجل بادتين * وعائدين * الى اتاوة معلومة يلتزمها كل سنة سنة يتملك بها من يرث مكانه * ويقوم في كفالة الملك مقامه * فأوجب السلطان اجابته الى ملتمسه لعز الاسلام بذل طاعته واعطائه الجزية عن يده وبعث اليه من طالبه بتصحيح المال * وقود الافيال * فنفذ * ما وعد * وقدم الوفاء بما شرط وبعث بمن ضمن تجهيزهم الى بابه من خواص رجاله على جملة الخدمة واقامة رسم الطاعة فانعقدت تلك الهدنة ودرت تلك الاتاوة وتتابعت القوافل بين ديار خراسان * وبلاد الهند في ضمان الامان * وجوار الحيطة والاحسان

(ذكر غزوة غور)

اتفق السلطان معين الدولة وأمين الملة فكر في جبال

الى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا مابها من خمور وكسروا الظروف وعملوا مالا يحل فاستغاث اصحاب الدور الى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق ولم يكن فى الذى فعله العامة من النهب ومالا يجوز فعله انما هو أراق الخمور ونهى العامة عن الذى يفعلونه فلم يسمعوا منه فلما شكى الخمارون منه أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فاراد واتغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لاغطيت رأسى حتى ينتقم الله لى ممن ظلمنى فلم يمض غير أيام حتى توفى الزردار الذى تولى اذاه ثم بعقبه مرض سيف الدين واستمر الى ان مات وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة ابيض اللون وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات اذا ركب واذا جلس عفيفا لم يذكر عنه مايناقى العفة وكان غيورا شديد الغيرة لايدخل دوره غير الخدم الصغار فاذا كبر أحدهم منعه وكان لايحب سفك الدماء ولا أخذ الاموال على شح فيه وجبن ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجرشاه وكان عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة فخاف على الدولة من ذلك لان صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى امره وامتنع اخوه عز الدين مسعود بن مودود من الاذعان لذلك والاجابة اليه فأشار الامراء الاكابر ومجاهد الدين قايماز بان يجعل الملك بعده فى عز الدين اخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وان يعطى ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما الى عز الدين عمهما والمتولى لامرهما مجاهد الدين قايماز ففعل ذلك وجعل الملك فى أخيه واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجرشاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك فلما توفى سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد اخوه عز الدين وكان المدبر للدولة مجاهد الدين وهو الحاكم فى الجميع واستقرت الامور ولم يختلف اثنان

(ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج ارسلان)

فى هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام الى بلاد قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان وهى ملطية وسيواس وما بينهما وقونية ليحاربه وسبب ذلك ان نور الدين محمد بن قرا ارسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوج ابنة قلج ارسلان المذكور وبقيت عنده مدة ثم انه أحب مغنية فتزوجها ومال اليها وحكمت فى بلاده وخزائنه واعرض عن ابنة قلج ارسلان وتركها نسيا منسيا فبلغ أباها الخبر فعزم على قصد نور الدين واخذ بلاده فأرسل نور الدين الى صلاح الدين يستجيره ويسأله كف يد قلج ارسلان عنه فارسل صلاح الدين الى قلج ارسلان فى المعنى فاعاد الجواب انى كنت قد سمت الى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتى فحيث آل الامر معه الى مايعلمه فانا اريد ان يعيد الى ما أخذه منى وترددت الرسل بينهما فلم يستقر حال فيهما فهادن صلاح الدين الفرنج وسار فى عساكره وكان الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود بها فتركها ذات اليسار وسار على تل باشر الى رعبان فاقام بها نور الدين محمد واقام عنده فلما سمع قلج ارسلان بقربه منه ارسل اليه أكابر امرائه ويقول له ان هذا الرجل فعل مع ابنتى كذا ولابد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه فلما وصل الرسول واجتمع

الغور وتمرد أهلها وامتنعهم على عظمهم عن حلية الدين وسمة الاسلام وحصولهم فى المقلة من عين حوزته * والمركز من دائرة مملكته * وتأذى المارة والسابلة بهيت ارصادهم * وعنت قطعهم وافسادهم * لاستطالتهم بمناعة جبالهم الشواهق * ومجال مسالكهم المتضايق * فأنف للدولة القاهرة من أن يخليها على غلق أقفالها * وشدة رتاجها * فصرم العزم على تدويخ ديارهم * وتذليل رقابهم * وانتزاع نعرة الاستطالة من رؤسهم * واستلال وحرة العصيان من صدورهم * واجلب عليهم بخيله ورجله * معولا على صنع الله وفضله * وقدم امامه والى هراة التوقتاش الحاجب * والى طوس أرسلان الجاذب * فسارا مقتصدين فى مضايق تلك المسالك الى أن أفضى بهما الدؤب الى مضيق قد غص بكماة الغورية ممن لفظتهم القرى القاصية * والمحال المتنائية * فتناوشوا الحرب تناوشا بطلت فيه العوامل الا الصوارم * فى الجماجم * والخناجر * فى الحناجر * وتصابر الفريقان على حر الكريهة حتى سالت نفوس * وطارت عن

بصلاح الدين وادى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للرسول قل لصاحبك والله الذى لا اله الا هو لئن لم يرجع لاسيرن الى ملطية وبينى وبينه يومان ولا انزل عن فرسى الا فى البلد ثم أقصد جميع بلاده وآخذها منه فرأى الرسول امرا شديدا فقام من عنده وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه فعلم انه ان قصدهم اخذ بلادهم فارسل اليه من الغد يطلب ان يجتمع به فاحضره فقال له اريد ان أقول شيأ من عندى ليس برسالة عن صاحبى واحب ان تنصفنى فقال له قل قال يا مولانا ما هو قبيح بمثلك وانت من أعظم السلاطين واكبرهم شانا ان تسمع الناس عنك انك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة واعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة وجمعت العساكر من اطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت انت وعساكرك الاموال العظيمة لاجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الاسلام وكافة العالم واحسب ان احدا ما يواجهك بهذا أما يعلمون ان الامر هكذا ثم احسب ان قلج ارسلان مات وهذه ابنته قد ارسلتنى اليك تستجيرك وتسألك ان تنصفها من زوجها فان فعلت فهو الظن بك ان لا ترد ها فقال والله الحق يبدك وان الامر لكما تقول ولكن هذا الرجل دخل على واستجارنى ويقبح بى تركه لكنك انت اجتمع به واصلح الحال بينكم على ما تحبون وانا اعينكم عليه واقبح فعله ووعد من نفسه بكل جميل فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وترقد القول بينهم فاستقر ان صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة وان كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقلج ارسلان عليه واصطلحوا على ذلك وعاد صلاح الدين عنه الى الشام وعاد نور الدين الى بلاده فلما انقضت المدة اخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت الى بغداد واقامت بها الى ان ماتت

(ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمنى)

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الارمنى بعد فراغه من امر قلج ارسلان وسبب ذلك ان ابن ليون الارمنى كان قد استمال قوما من التركمان وبذل لهم الاموال فامرهم ان يرعوا مواشيهم فى بلاده وهى بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول اليها صعب لانها مضايق وجبال وعرة ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم واسر رجالهم بعد ان قتل منهم من حان اجله ونزل صلاح الدين على النهر الاسود وبث الغارات على بلاده فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل ان يؤخذ فخربه واحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فاسرع السير اليه فادركه قبل ان ينقل ما فيه من ذخائر واقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه فارسل ابن ليون يبذل اطلاق من عنده من الاسرى والسبى واعادة اموالهم على ان يعود عن بلاده فاجابه صلاح الدين الى ذلك واستقر الحال واطلق الاسرى واعيدت اموالهم وعاد صلاح الدين عنه فى جمادى الآخرة

(ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه)

فى هذه السنة سار ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى افريقية وملك قفصة وكان سبب ذلك ان صاحبها على بن المعز بن المنتصر لما رأى دخول الترك الى افريقية واستيلاءهم على بعضها

الهام رؤس * وبلغ السلطان خبر الفريقين فلقيهم فى خواص رجاله وجعل يلجئهم الى ما وراءهم شيأ فشيأ ويملك عليهم ملاجئهم شعبا فشعبا الى أن ارقبهم فى عطفات الجبال الشوامخ * وألحقهم بقلل الراسيات البواذخ * واستفسح المجال الى عظيم الكفرة المعروف بابن سورى فغزاه فى عقر داره * وأحاط به من جانب حصاره * وشد عليه الحرب وبرز الرجل فى قرابة عشرة آلاف رجل رجال كأنما خلقت قلوبهم من حديد * وأكبادهم من جلامید * يستأنسون بأهوال الوقائع * ويستلذون الطعان بمضاء الشرائع * فصافوا عسكر السلطان مرعدين بالبطش والبأس مبرقين بصوارم الاحياف وجعلوا يمرون فى وجوههم هرير الكلاب أصاها الفرار * وأحرجتها الانجحار * فامر السلطان بمدارکة الشد عليهم على ما اوجبه حكم الاحتياط اذ كانوا مستندين الى معاقل وثيقة * ومعتصرين بخنادق عميقة * حتى اذا انتصف النهار على وقاحتهم فى مغالسة الحرب * ومضاربة الطعن والضرب * اشار بتوليتهم الظهور على وجه الاستدراج والاغتيال

وانقياد

وانقياد العرب اليهم طمع ايضا فى الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان فى طاعته فاظهر ما فى نفسه وخالفه واظهر العصيان ووافقه اهل قفصة فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين اصحاب ابى يعقوب وكان ذلك فى شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة فارسل والى بجاية الى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب امور البلاد واجتماع كثير من العرب الى قراقوش التركى الذى دخل الى افريقية وقد تقدم ذكر ذلك وما جرى فى قفصة من قتل الموحدين ومساعدة اهل قفصة صاحبهم على ذلك فشرع فى سد الثغور التى يخافها بعد مسيره فلما فرغ من جميع ذلك تجهز العسكر وسار الى افريقية سنة خمس وسبعين ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة اشهر وهى بلد حصينة واهلها انجاد وقطع شجرها فلما اشتد الامر على صاحبها واهلها خرج منها مستخفيا لم يشعر به احد من اهل قفصة ولا من عسكره وسار الى خيمة يوسف وعرف حاجبه انه قد حضر الى امير المؤمنين يوسف فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة الى باب خيمته فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد وامر بادخاله عليه فدخل وقبل يده وقال قد حضرت أطلب عفو امير المؤمنين عنى وعن اهل بلدى وان يفعل ما هو اهله واعتذر فرق له يوسف فعفا عنه وعن اهل البلد وتسلم المدينة اول سنة ست وسبعين وسير على بن المعز صاحبها الى بلاد المغرب فكان فيها مكرما عزيزا واقطعه ولاية كبيرة ورتب يوسف لقفصة طائفة من اصحابه الموحدين وحضر مسعود بن زمام امير العرب عند يوسف ايضا فعفا عنه وسيره الى مراكش وسار يوسف الى المهدية فأتاه بها رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس منه الصلح فهادنه عشر سنين وكانت بلاد افريقية مجدبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب فسار الى المغرب مسرعا والله اعلم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى شمس الدولة توران شاه بن ايوب اخو صلاح الدين الاكبر بالاسكندرية وكان قد أخذها من أخيه اقطاعا فاقام بها فتوفى وكان له أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون اليه الاموال من زبيد وعدن وما بينهما من البلاد والمعاقل وكان أجود الناس واسخاهم كفا يخرج كل ما يحمل اليه من أموال اليمن ودخل الاسكندرية وحكمه فى بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ مع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتى ألف دينار مصرية دين فوفاها اخوه صلاح الدين عنه لما دخل الى مصر فانه لما بلغه خبر وفاته سار الى مصر فى شعبان من السنة واستخلف بالشام عز الدين فرخشاه ابن اخيه شاهنشاه وكان عاقلا حازما شجاعا وفيها توفى ابو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الاصفهانى بالاسكندرية وكان حافظ الحديث وعالما به سافر فى طلب الكثير وتوفى ايضا فى المحرم على بن عبد الرحيم المعروف بابن العصار اللغوى ببغداد وسمع الحديث وكان من اصحاب ابن الجواليقى

(ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر غزاة الى بلد الكرك من الشام)

فى هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الى أعمال الكرك ونهبها وسبب ذلك ان البرنس ارناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين

فاغتروا بخدعة الانقلابية وانقضوا عن مواقفهم الى فسحة الفضاء لاغتنام فرصة الانهزام فكرت عليهم الخيول بضربات غنيت بذواتها عن اخواتها فلم ترتفع منها واحدة الا عن دماغ منثور ونيا طمبتود * وصرع فى تلك المعركة الواحدة رجال كهشيم المحتظر * او اجمة نخل منقعر وملك الاسر عظيمهم المعروف بابن سورى باقريه وذويه * وسائر حواشيه * وأفاء الله على السلطان ما اشتمل عليه حصار من ذخائر الاموال والاسلحة التى اقتناها كابر عن كابر * وتوارثها كافر عن كافر * وأمر السلطان باقامة شعائر الاسلام فيما افتتحه من تلك القلاع والرباع فأفصحت بذكره منابرها * واشترك فى عز دعوته بواديها وحاضرها * ورجع بعد ذلك عن وجهه على جناح اليسر والنجاح * والظفر المتاح * وحين رأى ابن سورى حصوله فى ذل اساره * واستباحة السلطان ودائع حصاره * تبوم بجبانه * واستراح الى بردوفاته * فامتص سما كان أودعه فص خاتمه فجاد للوقت بنفسه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو

فتجهز وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع وعزم على المسير فى البر الى تيماء ومنها الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة فسمع عز الدين فرخشاه ذلك فجمع العساكر الدمشقية وسار الى بلده ونهبه وخربه وعاد الى طرف بلادهم وأقام بها لمنع البرنس من المسلمين فامتنع من مقصده فلما طال مقام كل واحد منهما فى مقابلة الآخر علم البرنس ان المسلمين لا يعودون حتى تفرق جمعه وانقطع طمعه من الحركة فعاد فرخشاه الى دمشق وكفى الله المؤمنين شر الكفار

(ذكر تلبيس ينبغى أن يحتاط من مثله)

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكنانى ينوب عن شمس الدولة أخى صلاح الدين باليمن وتحكم فى الاموال والبلاد بعد ان فارقها شمس الدولة كما ذكرنا وكان هواه بالشام لانه وطنه فارسل الى شمس الدولة يطلب الاذن له فى المجىء اليه فاذن له فى المجىء فاستناب بزبيد اخاه حطان بن كامل بن منقذ الكنانى وعاد الى شمس الدولة وكان معه بمصر فمات شمس الدولة وبقى مع صلاح الدين فقيل عنه انه أخذ اموال اليمن واذخرها وسعى به اعداؤه فلم يعارضه صلاح الدين فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاما وعمل دعوة كبيرة ودعا اليها اعيان الدولة الصلاحية بقريته تسمى العدوية وأرسل اصحابه يتجهزون من البلد ويشترون ما يحتاجون اليه من الاطعمة وغيرها فقيل لصلاح الدين ان ابن منقذ يريد الهرب وأصحابه يتزودون له ومتى دخل اليمن اخرجه عن طاعتك فارسل صلاح الدين فاخذه والناس عنده وحبسه فلما سمع صلاح الدين جلية الحال علم ان الحيلة تمت لاعدائه فى قبضه فخفف ما كان عنده وسهل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ما لحقها من الحمل لاخوه صلاح الدين وأصحابه واطلقه واعاده الى منزلته وكان أديبا شاعرا

(ذكر ارسال صلاح الدين العساكر الى اليمن)

فى هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من امرائه منهم صارم الدين قتلغ ابه والى مصر الى اليمن للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة وهم عز الدين عثمان بن الزنجبيلى والى عدن وحطان بن منقذ والى زبيد وغيرهما فانه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عز الدين عثمان وبين حطان حرب وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده واشتد الامر فخاف صلاح الدين أن يطمع اهل البلاد فارسل هؤلاء الامراء اليها واستولى قتلغ أبه على زبيد وأزال حطان عنها ثم مات قتلغ ابه فعاد حطان الى امارة زبيد واطاعه الناس لجوده وشجاعته

(ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب)

فى هذه السنة فى رجب توفى الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما اشتد مرضه وصف له الاطباء شرب الخمر للتداوى فقال لا أفعل حتى استفتى الفقهاء فاستفتى فأفتاه فقيه من مدرسى الحنفية بجواز ذلك فقال له أرأيت ان قدر الله تعالى بقرب الاجل أيؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا فقال والله لالقيت الله سبحانه وقد استعملت ما حرمه على ولم يشرب به فلما ايس من نفسه أحضر الامراء وسائر الاجناد ووصاهم بتسليم البلد الى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم ان عماد ابن

الخسران المبين

(ذكر القحط الواقع بنيسابور)

فى سنة احدى وأربعمائة وقع القحط بنيسابور خصوصا وفى سائر بلاد خراسان عموما * فهلك بنيسابور وباطرافها دون غيرها مائة ألف او يزيدون وكم دفن منهم بأطمارهم لضيق الاكفان بهم * وعجز غسلة الاموات عنهم * وكان الناس بين غلام وشاب وكهل وشيخ وفتاة وعجوز يتسداعون الخبز الخبز ويذبون على أنفسهم حتى تفور عيونهم * وتجب لهوت جنوبهم * ورعوانيات الارض حتى استحكم اليأس عن الزروع * وانقطعت الاطماع عن الربوع * وضاق بهم الامر فجعلوا يتتبعون رمام العظام على رؤس الكناسات تعللا بها ومهما ذبح قصاب ذبيحة اجتمع عليها الفوج بعد الفوج يتقاسمون نجيعها بالكيزان والخزف تسكينا لحرة الجوع واجتزاء به عن القوت فلم ينل منه أحد الاسقط لجنبه * وجاد عن كثب بنفسه وعهدى بهم يتتبعون سقاطات حب الشعير عن الاروات وهيهات ان الشعير لاعبى الانام * فكيف البهائم والانعام *

عمك ايضا وهو زوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات الى هم ذان ولا حاجة به الى بلدك فقال له ان هذا لم يغب عني ولكن قد علمت ان صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومتى سلمت حلب الى عماد الدين فعجز عن حفظها او ان ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام وان سلمتها الى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات وكان حليما كريما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما للدين لا يعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر أو غيره حسن السيرة في رعيته عادلا فيهم ولما قضى نحبه أرسل الامراء الى اتابك عز الدين يستدعونه الى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز الى الفرات وأرسل أحضر الامراء عنده من حلب فحضروا وساروا جميعا الى حلب ودخلها في العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم فلما اجتاز في طريقه اليها من الفرات كان تقي الدين عمر ابن اخي صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا الى حماة وثار أهل حماة ونادوا بشعار عز الدين فاشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق واطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام وأعلموه محبة اهلها له ولاهل بيته فلم يفعل وقال بيننا يمين فلا نغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها الى الرقة

(ذكر تسليم حلب الى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها)

لما دخل عز الدين الى الرقة جاءته رسل اخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب ان يسلم اليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه الى ذلك وبلغ عماد الدين في ذلك وقال ان سلمت الى حلب والا سلمت انا سنجار الى صلاح الدين فاشار حينئذ جماعة من الامراء بتسليمها اليه وكان اشدهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكنه في الدولة وكثرة عساكره وبلاده وانما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لانه عظم في نفسه وكثر معه العسكر وكان الامراء الحلبيون لا يلتفتون الى مجاهد الدين ويسلكون معه من الادب ما يفعله عسكر الموصل فاستقر الامر على تسليم حلب الى عماد الدين واخذ سنجار عوضا عنها فسار عماد الدين فتسلمها وسلم سنجار الى اخيه وعاد الى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب فعظم الامر عليه وخاف ان يسير منها الى دمشق وغيرها ويملك الجميع وايس من حلب فلما بلغه ملك عماد الدين لها بادر زمن مصر من يومه وسار الى الشام وكان من الوهن على دولة عز الدين ما نذكره ان شاء الله

(ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومصر صاحبها مع صلاح الدين)

كانت قلعة البيرة وهي مطلة على الفرات من ارض الجزيرة لشهاب الدين الارتقي وهو ابن عم قطب الدين ايلغازي بن ابي بن تمرتاش بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين الى عز الدين يطلب منه ان يأذن له في حصر البيرة وأخذها فأذن له في ذلك فسار في عسكره الى قلعة سميساط وهي له ونزل بها وسير العسكر الى البيرة فحصرها فلم يظفر منها بطائل الا انهم لازموا

ثم ترامى الامر الى أن أكلت الام ولدها والاخ أخاه والزوج زوجته وظهر بعضهم يختلس بعضا من شوارع الطرق والخرابات فيطبخ منه ما شاء من الباجات * وحرمت الاسمان على الناس لكثرة ما صهر عليها من لحوم البشر فبيع في الاسواق وقبض على القوام بلا عدد كانوا يغتالون السابلة * فيصهرونهم على هذه الجملة * ووجد في دورهم ما يغمر العدد من رؤس الناس قد أكلت لحومهم * وصهرت شحومهم وأما الكلاب والسنانير * فلم يبق منها الا العدد اليسير * وهاب اوباش الناس وارباب الحرف أن يحترقوا وقت العشاء محلة بائية عن واسطة البلد الا في عديد * وسلاح حديد * وذكر أن فقيها وجيها من أصحاب الحديث دخل على الامام أبي الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي فسأله عن تطاول عهده به فقال ليأخذ الامام أحدوثة عجيبة رد الله بها على ذوي فضلا منه جسيما * وصنعا كريما * وذلك أني بعثت أمر بعض المشيات وحيدا في شارع اشار اليه فظهر لي الا وترصا في ضنك وحيرت

الحصار فأرسل صاحبها الى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على ما نذكره يطلب منه ان ينجده ويرحل العسكر المارد الى عنه و يكون هو فى خدمته كما كان أبوه فى خدمة نور الدين فاجابه الى ذلك وأرسل رسولا الى صاحب ماردين يشفع فيه و يطلب ان يرحل عسكره عنه فلم يقبل شفاعته واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة ولم يبلغوا منها غرضا امرهم بالرحيل عنها وعاد الى ماردين فسار صاحبها الى صلاح الدين وكان معه حتى عبر معه الفرات على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد فاقام حاجب الباب جماعة لاراقة الخمور واخذ المفسدات فبينما امرأة منهن فى موضع عملت بمجيء أصحاب حاجب الباب فاضطجعت وأظهرت انها مريضة وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال فتركوها وانصرفوا فاجتهدت بعدهم ان تقوم فلم تقدر وحملت تصيح الكرب الكرب الى أن ماتت وهذا من أعجب ما يحكى وفيها فى عاشر ذى الحجة توفى الامير همام الدين تتر صاحب قلعة تكريت بالمزدلفة كان قد استخلف الامير عيسى بن اخى مودود وحج فتوفى ودفن بالمعلى مقبرة مكة وفيها فى شعبان توفى عبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد أبو البركات النحوى المعروف بابن الانبارى ببغداد وله تصانيف حسنة فى النحو وكان فقيها صالحا وفيها توفى ابراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعى بجزيرة ابن عمر وكان فاضلا كثير الورع

(ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة)

(ذكر مسير صلاح الدين الى الشام واغارته على الفرنج)

فى هذه السنة خامس المحرم سار صلاح الدين عن مصر الى الشام ومن عجيب ما يحكى من التطير انه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده واعيان دولته والعلماء وارباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل منهم يقول شيأ فى الوداع والفراق وما هم بصدده من السفر وفى الحاضرين معلم لبعض اولاده فاخرج رأسه من بين الحاضرين وانشد

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد اليها الى ان مات مع طول المدة ثم سار عن مصر وتبعه من التجار واهل البلاد ومن كان قصده مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره عالم كثير فلما سار جعل طريقه على ايلة فسمع ان الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه و يصدوه عن المسير فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والاثقال مع أخيه تاج الملوك بورى الى دمشق و بقى هو فى العساكر المقاتلة لاغير فشن الغارات باطراف بلادهم واكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك فلم يخرج اليه منهم احد ولا أقدم على الدنو منه ثم سار فاتى دمشق فوصلها حادى عشر صفر من السنة

(ذكر ملك المسلمين شقيفا من الفرنج)

فى هذه السنة ايضا فى صفر فتح المسلمون بالشام شقيفا من الفرنج يعرف بجبس جلدك وهو من اعمال طبرية مطل على السواد وسبب فتحه ان الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر الى

الشام

نبه جذبة ضيقت على محتنق
فبينا أنا أهيم بمواتاة الجاذب
ومد انانه على ضيق
التخنيق اذ وثبت الى من
بعض تلك الاوبات امرأة
فضربت انثيي * بركبتها
ضربة سقطت منها مغشيا
على * فلم أشعر بعدها بشئ
من مصارف اموري * الى ان
افقت من الغشي بردماء
رش بين وجهي وترائبي
فنظرت الى قوم أجانب
يخادعوني عما دهاني *
ويكاتموني صورة ما عراني *
فاذا هم ساعة وجيتهم لحبي
أدركوني * عائدين الى
منازلهم فهرب منهم من
أشفى على قتلي واستباحه
دمي وتركني برمتي * وخلى
الوتر فى عنقي * فصبرت
ساعة الى ان استوفيت
الافاقه * واستعدت القوة
والطاقه * وعدت الى
المنزل وسقطت من هول
ذلك المصرع على الفراش
عشرين يوما مدهوشا
مبهوتا * وحرضا مسبوتا *
الى ان من الله على بأوائل
الاقبال * وزوال أكثر
ما مسني من ألم الاعتلال *
فبكرت يوم أحسست بالخفة
الى المسجد لاقامة الفرض
وصعدت المئذنة على الرسم
فلم أستتم التكبير حتى
اختطف عمامتي من رأسي
وهي أراد صاحبه برقبتي

الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم
ينتهزون فرصة او يظفرون بنصرة وربما عاقوا المسلمين عن المسير بان يقفوا على بعض المضايق
فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه الخبر فجمع من عنده من عساكر
الشام ثم قصد بلاد الفرنج واغار عليها ونهب دبورية ومايجاورها من القرى واسر الرجال وقتل
واكثر وسبى النساء وغنم الاموال وفتح منهم الشقيف وكان على المسلمين منه اذى شديد فرح
المسلمون بفتحه فرحا عظيما وارسل الى صلاح الدين بالبشارة فلقيه في الطريق فت ذلك في عضد
الفرنج وانكسرت شوكتهم

(ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن وتغلبه عليه)

في هذه السنة سير صلاح الدين اخاه سيف الاسلام طغدكين الى بلاد اليمن وامره بتملكها وقطع
الفتن بها وفوض اليه امرها وكان بها حطان بن منقذ كما ذكرناه قبيل وكتب عز الدين عثمان
الزنجبيلي متولي عدن الى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بارسال بعض اهله اليها
لان حطان كان قوي عليه فخافه عثمان فجهز صلاح الدين اخاه سيف الاسلام وسيره الى بلاد
اليمن فوصل الى زبيد فخافه حطان بن منقذ واستشعر منه وتحصن في بعض القلاع فلم يزل
به سيف الاسلام يؤمنه ويهدي اليه ويتلطفه حتى نزل اليه فاحسن صحبته واعمل معه مالم
يكن يتوقعه من الاحسان فلم يثق حطان به وطلب منه دستورا ليقصد الشام فامتنع من
اجابته اظهارا للرغبة في كونه عنده فلم يزل حطان يراجعه حتى اذن له فاخرج اثقاله وامواله
ودوابه واهله واصحابه وكل ماله وسيرا لجميع بين يديه فلما كان الغد دخل الى سيف الاسلام
ليودعه فقبض عليه واسترجع جميع ماله فاخذ منه آخر لم يسلم منه قليل ولا كثير ثم سجنه
في بعض القلاع وكان آخر العهد به فقيل انه قتله وكان في جملة ما أخذ منه من الاموال الذهب
العين في سبعين غلافا زرديه مملوأة ذهبا عينا واما عز الدين عثمان الزنجبيلي فانه لما سمع ماجرى
على حطان خاف فسار نحو الشام خائفا يترقب وسير معظم امواله في البحر فصادفهم مراكب
فيها أصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل ما لعز الدين ولم يبق له الا ما صحبه في الطريق ووصفت زبيد
وعدن وما معهما من البلاد لسيف الاسلام

(ذكر اغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج واعمالها)

لما وصل صلاح الدين الى دمشق كما ذكرناه اقام اياما يريح ويستريح هو وجنده ثم سار الى
بلاد الفرنج في ربيع الاول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم في الاخوانة من الاردن
وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن اخيه الى بيسان فدخلها
قهرا وغنم ما فيها وقتل وسبى وبحف الغور غارة شعواء فعم اهله قتلا واسرا وجاءت العرب فاغارت
على جينين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا حيفا وساروا حتى عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت
جبل كوكب فتقدم صلاح الدين اليهم وارسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا
ولم يتحركوا للقتال فامر اخاه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فهزمهما
معهما فقاتلوا قتالا شديدا ثم ان الفرنج انحازوا الى حاميتهم فنزلوا الغفر بلا فلما رأى صلاح الدين
ما قد اثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم الى دمشق

فاخطأها لما اراد الله من
انساء اجلي * واستبقاء
مهلي * فعدلت عن الاذان
الى الصياح بطلب الامان
وجعلت لله علي بعد ذلك
نذرا أن لا اخرج متة هذه
الفتنة من داري الا والشمس
بيضاء نقيه * ولا أرجع اليها
الا وفي النهار بقيه * فهذه
هي التي ثبطتني عن الخدمه
وقعدتني عن الرسم في
مشاهدة الجمله * فقضى
الحاضرون عجبا من تلك
الداهيه * وسألوا الله تعالى
حسن السلامة والعافيه *
وحكى عن الاستاذ أبي سعيد
عبد الملك بن عثمان الواعظ
احد الصالحين * من عباد الله
تعالى الموقنين * والساعين
في مصالح المسلمين * انه نقل
الى دار كان يسكنها المرضى
والزمنى من الفقراء وابناء
السبيل في يوم واحد من
أيام هذه السنة أربعمائة
ميت عن برح الجوع
والمخمصة على أن يوعز
بتكفينهم ودفنهم فاتى
خبازه الذي كان يقسم
جرايات المذكورين من
جهته وهو في حيرته يذكر
انه قد بقي في هذا اليوم
بعينه مما كسد على البيع
أربعمائة مناخبز فسمحت
من يقضي على من يشاء
بالفناء مع امكان الاقوات *
ووجود الكفايات * وقد

أكثر الناس في ذكر هذا الغلاء والبلاء * فمنه قول أبي نصر الزاوي الكاتب قد أصبح الناس في غلاء
وفي بلاء تداولوه
من يلزم البيت يودجوعا
او يشهد الناس يأكلوه
(ولابي محمد العبدلكاني زوزلي)
لاتخرجن من البيوت
لحاجة او غير حاجه
والباب أغلقه عليك
موثقا منه رتاجه
لايقتنصك الخانعون
يبطخونك شور باجه
وأمر السلطان بين الدوله وامين الملة بالكتب الى عماله بصب الاموال على الفقراء والمساكين فاستبنى الله تعالى بها مهجات قوم قد أشرفت على الهلاك * وافتكهم من بين حنك الاستئناك * فبقيت تلك السنة على حالها من القحط والغلاء الى ان ادركت غلات سنة اثنتين واربعمائة فمن الله تعالى بازالة تلك الشدة * واطفاء تلك النائرة المتقدة * وتدارك عباده بعد استحكام اليأس منهم بالغيوث الهامية * والربوع الزاكية الناعمة * ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم

* (ذكر ما أفضت اليه

* (ذكر حصر بيروت) *

ثم انه سار عن دمشق الى بيروت فنهب بلدها وكان قد أمر الاسطول المصري بالمجيء في البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب مالم يصل الاسطول اليه وحصرها عدة أيام وكان عازما على ملازمتها الى ان يفتحها فاتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد القى بطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس فاسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى الفا وستمائة وستا وسبعين اسيرا فضربت بذلك البشائر

* (ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة) *

في هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات الى الديار الجزرية وملكها وسبب ذلك ان مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين وهو مقطع حران كان قد أقطعه اياها عز الدين انابك المدينة والقلعة تقوية واعتمادا ارسل الى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه انه معه بحسب دولته ووعده النصرة له اذا عبر الفرات ويطمعه في البلاد ويحثه على الوصول فسار صلاح الدين عن بيروت ورسل مظفر الدين تتردى اليه يحثه على المجيء فجد صلاح الدين في السير مظهرا انه يريد حصر حلب تسترا للحال فلما قارب الفرات سار اليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به فقصد البيرة وهي قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزري وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفي طاعته وقد ذكرنا سبب ذلك قبل فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين الى الشام قد جمعا العسكر وسارا الى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين الى حلب ثم تقدما الى دارفنز لاعندها فجاءهما الخبر لم يكن في الحساب فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا الى الموصل وارسلا الى الرها عسكرا يحميها ويمنعها فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه في البلاد ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك اصحاب الاطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته فاجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن الى ما طلب منه لقاعدة استقرت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام فانه استقر الحال ان صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ويسلمها اليه وسار صلاح الدين الى مدينة الرها فحصرها في جمادى الاولى وقاتلها اشد قتال فخدش بعض من كان بها من الجند أنه عد في غلاف رمح اربعة عشر خرقا وقد خرقته السهام ووالى الزحف عليها وكان بها حينئذ مقطع وهو الامير فخر الدين مسعود الزعفراني فلما رأى شدة القتال اذعن الى التسليم وطلب الامان وسلم البلد وصار في خدمة صلاح الدين فلما ملك المدينة زحف الى القلعة فسلمها اليه الدزدار الذي بها على مال اخذه فلما ملكها سلمها الى مظفر الدين مع حران ثم سار عنها على حران الى الرقة فلما وصل اليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي فسار عنها الى عز الدين انابك وملكها صلاح الدين وسار الى الخابور فرتب فيها وما كسين وعرابان فملك جميع ذلك فلما استولى على الخابور جمعه وسار الى نصيبين فملك المدينة لوقتها وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فملكها أيضا واقام بها المصالح شانها ثم اقطعها اميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن واتاه الخبر

ان

ان الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وأرادوا تخريب جامعها فارسل النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم ان اخربتم الجامع جددنا عمارته واخربنا كل بيعة لكم في بلادنا ولا نمكن أحدا من عمارتها فتركوه ولما وصل الخبر الى صلاح الدين بذلك اشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود فقال يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع فكان كما قال

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل)

لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع امراءه وارباب المشورة عنده واستشارهم باي البلاد يبدأ وأيها يقصد بالموصل ام بسنجار ام بجزيرة ابن عمر فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبري ابن زين الدين لا ينبغي ان يبدا بغير الموصل فانها في ايدينا لا مانع لها فان عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بسيرنا اليها تركاها وسارا عنها الى بعض القلاع الجبلية ووافقه ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ليقطعه الموصل اذا ملكها وقد اجابه صلاح الدين الى ذلك فاشار بهذا الرأي لهواه فسار صلاح الدين الى الموصل وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل واظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الابصار وبذلا الاموال الكثيرة واخرج مجاهد الدين من ماله كثيرا واصطلى الامور بنفسه فاحسن تدبيرها وسحنوا ما بقي بايديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار والموصل واربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والاموال وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه ومعهم نفر من اعيان دولته وقربوا من البلد فلما قربوا ورآه وحققه رأى ما هاله وملأ صدره وصدور أصحابه فانه رأى بلدا عظيما كبيرا ورأى السور والفصيل قد ملئا من الرجال وليس فيها شرافة الا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين فلما رأى ذلك علم انه لا يقدر على أخذه وانه يعود خائبا فقال لناصر الدين ابن عمه اذا رجعنا الى المعسكر فاحمل ما بذلت من المال فنحن معك على القول فقال قد رجعت عما بذلت من المال فان هذا البلد لا يرام فقال له ولمظفر الدين غرر تمالى وأطمعتمانى في غير مطمع ولو قصدت غيره قبله لكان اسهل اخذا بالاسم والهيبة التي حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا عنه ينكسر ناموسنا ويقل حدنا وشوكتنا ثم رجع الى معسكره وصبح البلد وكان نزوله عليه في رجب فنازله وضايقه ونزل محاذي باب كندة وانزل صاحب الحصن بباب الجسر وانزل اخاه تاج الملوك عند الباب العمادي وانشب القتال فلم يظفر وخرج اليه يوما بعض العامة فنالوا منه ولم يمكن عز الدين ومجاهد الدين احدا من العسكر يخرجون للقتال بل الزموا الاسوار ثم ان تقي الدين اشار على عمه صلاح الدين بنصب منجنيق فقال مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه اخذوه ولو خربنا برجا وبدئة من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير فالح تقي الدين وقال نخربهم به فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات وخرج جماعة من العامة فاخذوه وجرى عنده قتال كثير فاخذ بعض العامة لالكة من رجليه فيها المناشير الكثيرة ورمى بها اميرا يقال له جاولي الاسدي مقدم الاسدية وكبيرهم فاصاب صدره فوجد لذلك ألما شديدا

احوال الخابية بتعاوده ما وراء النهر) * قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة بعد انكشاف عسكر الترك عنه يراعي ما يدبر عليه تدبير ايلك خان واخيه الكبير طغان خان اذ كان أخوه يعالي السلطان يمين الدولة عليه لايمان يزعم لزومها اياه ومواثيق يدعي انعقادها عليه ويظهر البراءة على ألسنة رسله من فعلات ايلك في مناجذته ومكاشفته والتخطي الى حدود مملكته ويورد ايلك الذنب عليه في اغرائه بما أتاه * ومكاتبته في البعث على ما جناه * والمظاهرة لايلك خان * ان اخاه طغان خان * قد جعله عرضة للجناية وقلده طوق تلك المكاشفة براعته منه وخذلانا اياه وشقاقا عصاه * واسلاما له بما كسبت يداه * رأى ان يبتدئ به ويحسم داءه قرابته * ويغسل بسيفه وضر جنايته * فجمع جيوش ما وراء النهر لقصده * واستدفاع مكره وغدره * وسار حتى اذا جاوز اوزجند نحوه سقطت ثالوج عظيمة سدت عليه * مسالك العقاب المفضية اليه * فارتد عن وجهه الى قايل حتى طاب الهواء والمصير الشتاء * وخفت

واخذ الاذكة وعاد عن القتال الى صلاح الدين وقال قد قاتلنا اهل الموصل بحماقات مارأينا بعد مثلها والتى الاذكة وحلف انه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه ثم ان صلاح الدين رحل من قرب البلد ونزل متأخرا خوفا من البيات فانه أقرب به كان لا يأمن ذلك وكان سببه أيضا ان مجاهد الدين اخرج فى بعض الليالى جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم المشاعل فكان احدهم يخرج من الباب وينزل الى دجلة مما يلى عين الكبريت ويطفئ المشعل فرأى العسكر الناس يخرجون فلم يشكوا فى الكبسة فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على أهل الموصل وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل اليه قبل نزوله على الموصل ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله فى الصلح فاقاما معه على الموصل وترددت الرسل الى عز الدين ومجاهد الدين فى الصلح فطلب عز الدين اعادة البلاد التى أخذت منهم فاجاب صلاح الدين الى ذلك بشرط ان تسلم اليه حلب فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ثم نزل عن ذلك واجاب الى تسليم البلاد بشرط ان يتركوا انجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوا الى ذلك ايضا وقال عز الدين هو اخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى أن انكثها ووصلت أيضا رسل قزل ارسلان صاحب اذربيجان ورسل شاه ارمن صاحب خلاط فى المعنى فلم ينتظم امر ولا تم صلح فلما رأى صلاح الدين انه لا ينال من الموصل غرضا ولا يحصل على غير العناء والتعب وان من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره واصحابه سار من الموصل اليها

(ذكر ملكه مدينة سنجار)

لما سار صلاح الدين عن الموصل الى سنجار سير مجاهد الدين اليها عسكرا قوية لها ونجدة فسمع بهم صلاح الدين فمنعهم من الوصول اليها واوقع بهم واخذ سلاحهم ودوابهم وسار اليها ونازلها وكان بها شرف الدين امير امران هندو أخو عز الدين صاحب الموصل فى عسكر معه فحصر البلد وضايقه والح فى قتاله فكاتبه بعض امراء الاكراد الذين به من الزرزارية وخامر معه واشار بقصده من الناحية التى هو بها ليسلم اليه البلد فطرقه صلاح الدين ليلا فسلم اليه ناحيته فملك الباشورة لا غير فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع وطلب الامان فأمن ولو قاتل على تلك الناحية اخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه عجز فلما طلب الامان اجابه صلاح الدين اليه فامنه وملك البلد وسار شرف الدين ومن معه الى الموصل واستقر جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار فانه كان قصد أن يسترده المواصلة اذا فارقه لانه لم يكن فيه حصن غير الرها لا غير فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور واستناب بها سعد الدين بن معين الدين انز وكان من اكابر الامراء واحسنهم صورة ومعنى

(ذكر عود صلاح الدين الى حران)

لما ملك صلاح الدين سنجار وقرر قواعدها سار الى نصيبين فلقيه اهلها شاكين من أبى الهيجاء السمين باكين من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم فلما سمع ذلك انكر على أبى الهيجاء ظلمه وعزله عنهم واخذه معه وسار الى حران وفرق عساكره ليستريحوا وبقى جريدة فى خواصه وثقات اصحابه وكان وصوله اليها اوائل ذى القعدة من السنة

الاذاء * فكر عائدا على
تاره * لفت المشير موهنا
بناره * وكان ورود رسلهما
فى التنازع الذى تقدم
ذكره فتراجعا القول فى
البراءة عن جناية العهود
وآحاله بعضهم على البعض
فى نقض المواثيق والعهود
تخلاهم السلطان فى لغط
القول حتى وصلوا بحر
التقار الى برد الاشتفاء
واراد السلطان بين الدوله
وأمين الملة بعد ذلك قراهم
فأمر بتعبية جيوشه *
وتغشية خيوله * فرتب
العسكر سماطين عن جنبيه
فى هيئة لو رآها قارون
حين خرج على قومه
لقال يا ليت لى مثل ما أوتى
محمود انه لذو حظ عظيم
وصفة مقامه * انه اصطف
من غلمانه * على التقابل
من الطرفين قرابة ألفى
غلام من عقائل الترك
فى الوان الديابيج من بين
سود وبيض وحمر * وصفر
وكهب وخضر * وفيما
يقرب من موقفه خمسمائة
غلام من خاصته فى مثقلات
الروم بمناطق من ذهب
مرصعة بالجواهر واعمدة
من جنسه فوق الاكتاف
والعواتق وقد اطاف بهم
من عظام الفيول أربعون
فيلا على المحاذاة خواشيها
ديابيج الروم بعصائب

(ذكر اجتماع عز الدين وشاه ارمن)

فى هذه السنة فى ذى الحجة اجتمع اتابك عز الدين صاحب الموصل وشاه ارمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين وسبب ذلك ان رسل عز الدين ترددت الى شاه ارمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين فارسل شاه ارمن الى صلاح الدين عدة رسل فى الشفاعة اليه بالكف عن الموصل وما يتعلق بعز الدين فلم يجبه الى ذلك وغالطه فارسل اليه اخير املوك سيف الدين بكمتمر الذى ملك خلاط بعد شاه ارمن فاتاه وهو يحاصر سنجار يطلب اليه ان يتركها ويرحل عنها وقال له ان رحل عنها والا فتهدده بقصده ومحاربته فابلغه بكمتمر الشفاعة فسوفه فى الجواب رجاء ان يقصها فلما رآى بكمتمر ذلك ابلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان ولم يقبل منه خلعة ولا صلة واخبر صاحبه الخبر وخوفه عاقبة الاهمال والتوانى عن صلاح الدين فسار شاه ارمن من خلاط وكان مخيما بظاهرها وسار الى ماردين وصاحبها حينئذ قطب الدين بن نجم الدين ايلبى وهو ابن اخت شاه ارمن وابن خال عز الدين وحموه لان عز الدين كان قد تزوج ابنة قطب الدين وحضر مع شاه ارمن دولة شاه صاحب بدليس وارزن وسار اتابك عز الدين من الموصل فى عسكره جريدة من الاثقال وكان صلاح الدين قد ملك سنجار وسار عنها الى حران وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم سير الى تقى الدين ابن اخيه وهو بحماة يستدعيه فوصل اليه مسرعا واشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون وكان هوى صلاح الدين فى الرحيل فرحل الى رأس عين فلما سمعوا برحيله تفرقوا فعاد شاه ارمن الى خلاط واعتذر بانى اجمع العساكر واعود ورجع عز الدين الى الموصل واقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين فنزل بجوزم تحت ماردين عدة ايام

(ذكر الظفر بالفرنج فى بحر عيذاب)

فى هذه السنة حمل البرنس صاحب الكرك اسطولا وفرغ منه بالكرك ولم يبق الا جمع قطعه بعضها الى بعض وحملها الى بحر ايلة وجمعها فى اسرع وقت وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فساروا فى البحر وافترقوا فرقتين فرقة اقامت على حصن ايلة يحصرونه ويمنعون اهله من ورود الماء فنال اهله شدة شديدة وضيق عليهم واما الفرقة الثانية فانهم ساروا نحو عيذاب وافسدوا فى السواحل ونهبوا واخذوا ما وجدوا من المراكب الاسلامية ومن فيها من التجار وبغتوا الناس فى بلادهم على حين غفلة منهم فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا لا تاجرا ولا محاربا وكان بمصر الملك العادل ابو بكر بن ايوب ينوب عن اخيه صلاح الدين فعمر اسطولا وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولى الاسطول بديار مصر وكان مظفرا فيه شجاعا كريما فساروا فوجدوا فى طلبهم فابتدأ بالذين على ايلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده فقاتلهم فقتل بعضهم واسر الباقى وسار من وقته بعد الظفر يقتص اثر الذين قصدوا عيذاب فلم يرهم وكانوا قد اغاروا على ما وجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها وساروا الى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه وكانوا عازمين على الدخول الى الحجاز مكة والمدينة حرسهما الله تعالى واخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك الى اليمن فلما وصل لؤلؤ الى عيذاب ولم يرهم سار يقتفى اثرهم فبلغ رابغ وساحل الجوزاء

فمعاليق من الذهب الاحمر مرصعة بكل جوهر ثمين * وياقوت وزبرجد * ووراء السماطين سبعمائة فيل فى تجافيف مشهرة * بألوان مسوره * بالحراب والمران وعامة العسكر فى سرابيل قد كدت القيون * وردت عن اجتلائها العيون * ورتب الرجالة امام الخيول فى الترسة الواقيه * والجنن الحاميه * والسيوف المرهفه * والعوامل المختلفه * وقام بين يديه حجابه كالبدور * فى ظلم الديجور * فابصرين بحلى قبائع سيوفهم هائبين قدره * وناظرين أمره * وأذن لهؤلاء الرسل على هذه الهيئة حتى لقوه * واقاموا من رسم الخدمة ما افترضوه * ثم عدل بهم الى الموائد فى دار قد فرشت بما لم يعهد غير الجنة مزينة للمتقين * معدة للعارفين * وفى كل مجلس دسوت من الذهب الاحمر من جفان كالحياض واطباق كالبرك قد نضد بها من صدره الى قدمه بما يشاكله من الاوانى الفائقه * والآلات الفاخرة الرائقه * وهى خلاص مجلسه طارم قد جمعت الواسه وعضادايه بضباب الذهب وصفائحه ورشقت بسهامير من جنبة

وغيرهما فادركهم بساحل الجوزا فاوقع بهم هناك فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا الى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقاتلهم اشد قتال واخذ خيلا من الاعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرسانا ورجالة فظفر بهم وقتل اكثرهم واخذ الباقين اسرى وارسل بعضهم الى مني لينحروا بها عقوبة لمن رام اخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم وعاد بالباقين الى مصر فقتلوا جميعهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الاولى توفي عز الدين فرخشاه ابن اخي صلاح الدين وكان ينوب عنه بدمشق وهو ثقته من اهله وكان اعتماده عليها اكثر من جميع اهله واسرائه وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالادب وغيره وله شعر جيد من بين اشعار الملوك وكان ابتداء مرضه انه خرج من دمشق الى غزو الفرنج فمرض وعاد مريضا فمات ووصل خبر موته الى صلاح الدين وقد عبر الفرات الى الديار الجزرية فاعاد شمس الدين محمد بن المقدم الى دمشق ليكون مقدما على عسكرها وفيها مات فخر الدولة ابو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان ابوه وزيرا للخليفة واخوه استاذ الدار فتصوف هو من زمن الصبا وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطبع وبنى جامعا بالجانب الغربي منها وفيها توفي الامير ابو منصور هاشم ولد المستضيء بامر الله ودفن عند ابيه وفيها توفي ابو العباس احمد بن علي بن الرفاعي من سواد واسط وكان صالحا ذا قبول عظيم عند الناس وله من التلامذة ما لا يحصى

(ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة)

(ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها الى صاحب الحصن)

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بجوزم تحت ماردين فلم يراطمعه وجها وسار عنها الى آمد على طريق البارعية وكان نور الدين محمد بن قرا ارسلان يطالبه في كل وقت بقصدها واخذها وتسليمها اليه على ما استقرت القاعدة بينهما فوصل الى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها واقام يحاصرها وكان المتولي لامرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وكان صاحبها وليس له من الامر شيء مع ابن نيسان فلما نازلها صلاح الدين اساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيأ ولا فرق فيهم دينارا واحدا ولا قوتا وقال لاهل البلد قاتلوا عن نفوسكم فقال له بعض اصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم فلم يفعل شيأ وقاتلهم صلاح الدين ونصب المنجنيقات وزحف اليها وهي الغاية في الحصانة والمنعة بها وبسورها يضرب المثل وابن نيسان على حاله من الشح بالمال وتصرفه تصرف من ولت سعادته وادبرت دولته فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال وجنحوا الى السلامة وكانت ايام ابن نيسان قد طالت وثقلت على اهل البلد لسوء سيرته وصنيعه وتضييقه عليهم في مكاسبهم فالناس كارهون لها محبون لانقراضها وامر صلاح الدين ان يكتب على السهام الى اهل البلد يعدهم الخير والاحسان ان اطاعوه ويتهددهم ان قاتلوه فزادهم ذلك تقاعدا وتخاذلا واحبوا ملكه وتركوا القتال فوصل النقابون الى السور فنقبوه وعلقوه فلما رأى الجند واهل البلد ذلك طمعوا في ابن نيسان واشتطوا في المطالب فحسن صارت لحال لذلك اخرج ابن نيسان نساءه الى القاضي الفاضل

مضلعة ومستديره * يشتمل كل منها على نوع من الجواهر التي أعيت امثالها اكاسرة العجم وقياصرة الروم ملوك الهند واقيال العرب وحوالى المجلس اطباق فخان من الذهب مملوءة بالمسك الاذفر والعنبر الاشهب والكافور العطر والعود العبق وهلم جرا الى ما يملأ الابواع والايدي من اترجات مصوغه * وثمار نجات مصنوعه * وما يشبه الفواكه من عقيان * وبذخش وبهرمان * الى اواني لم يسمع بمثلها رقة اجسام * ودقة صنعة واحكام * وطاف على الرسل ولدان * كالدر المنثور واللؤلؤ المكنون * براح كالماء المعين * ورضاب الخرد العين * الى ان اشفقوا من عثرات العقول فاستأذنوا للقفول * وصرفهم السلطان بيمين الدولة وامين الملة بعد هذه المأدبة وراهم بما اوجبته همته من تحقيق امانيهم * ورعاية حق الملح فيهم * وبقي الاخوان على جملتهما في المنافرة والمناكره * والمكاوحة والمكافحه الى ان توسط السفراء فتصالحوا الامرين منهما على ما كف كلا منهما عن صاحبه على ما سنورد ذكره في موضعه ان شاء الله تعالى

الفاضل وزير صلاح الدين يسأله الامان بأخذ له الامان لاهله وماله وان يؤخره ثلاثة ايام حتى ينقل ماله بالبلد من الاموال والذخائر فسعى له الفاضل فى ذلك فاجابه صلاح الدين اليه فسلم البلد فى العشر الاول من المحرم هذه السنة وخرج خيمه الى ظاهر البلد وراح ينقل ماله فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن اصحابه واطراحهم امره ونهيه فارسل الى صلاح الدين يعرفه الحال ويسأله مساعدته على ذلك فامره بالدواب والرجال فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الايام الثلاث قبل الفراغ فمنع من الباقى وكانت ابراج المدينة مملوأة من انواع الذخائر فتركها بحالها ولو اخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نعمه واموالها لكن اذا اراد الله أمرا هيأ اسبابه فلما تسلمها صلاح الدين سلمها الى صاحب الحصن نور الدين فقيل له قبل تسليمها ان هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار فلو اخذت ذلك واعطيته جندك وسلمت البلد اليه فانه كان راضيا عنه لا يطمع فى غيره فامتنع من ذلك وقال ما كنت لاعطيه الاصل وأبخل بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة ودعا اليها صلاح الدين وامراءه ولم يكن دخل البلد وقدم له ولاصحابه من التحف والهدايا اشياء كثيرة

(ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من اعمال الشام)

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار الى الشام وقصد تل خالد وهو من اعمال حلب فحصرها ورماها بالمنجنيق فنزل اهلها وطلبوا الامان فامنهم وتسلمها فى المحرم ايضا ثم سار منها الى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد وهو اخو الشيخ اسمعيل الذى كان خازن نور الدين محمود بن زنكى وصاحبه وكان قد سلمها اليه نور الدين فبقيت معه الى الآن فلما نازله صلاح الدين ارسل اليه يطلب ان يقرا الحصن بيده وينزل الى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فاجابه صلاح الدين الى ذلك وحلف له عليه فنزل اليه وصار فى خدمته. وكان ايضا فى المحرم من هذه السنة

(ذكر وقعتين مع الفرنج فى البحر والشام)

فى هذه السنة فى العاشر من المحرم سار اسطول المسلمين من مصر فى البحر فلقوا بطسة فيها نحو ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الاموال والسلاح الى فرنج الساحل فقاتلوهم وصبر الفريقان وكان الظفر للمسلمين واخذوا الفرنج اسرى فقتلوا بعضهم وابقوا بعضهم اسرى وغنموا ما معهم وعادوا الى مصر سالمين وفيها أيضا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحى الداروم الى نواحى مصر ليغيروا وينهبوا فسمع بهم المسلمون فخرجوا اليهم على طريق صدر وايله فانتزح الفرنج من بين ايديهم فنزلوا بما يقال له العسيلة وسبقوا المسلمين اليه فاتاهم المسلمون وهم عطاش قد اشرفوا على الهلاك فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء فانشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة فطرنا منها حتى رووا وكان الزمان قيظا والحر شديدا فبرمهلك فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم ولم يسلم منهم الا الشريد الفريد وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله

(ذكر ملك صلاح الدين حلب)

وفى هذه السنة سار صلاح الدين من عينتاب الى حلب فنزل عليها فى المحرم أيضا فى الميدان

(ذكر فتح قصدار)

قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة ابراهيم ما يعتمد من اخبار الاخوين ايلك وطغان خان فيما تنازعا من الامر فلما بلغه اشتجار ذات بينهما استخار الله فى قصد قصدار اذ كان صاحبها قد ألم بجانب الجهانية * واخل بحمل المقاطعة * اعتزازا بمناعة مملكته * واغترارا بحصانة الطرق المفضية الى حلته * وذلك فى جمادى الاولى سنة اثنتين واربعمائة وفصل السلطان عن غزنة الى بست مورثيا بقصد هراة حتى انتشرت الاخبار بغزنة واستفاضت الاحاديث بظاهر أمره * ثم ركض الى ناحية قصدار فى الغلب الغلب من رجاله وركضة طوت تلك الجبال الوعرة * والمسالك الصعبة * فلم يشعر صاحب قصدار الا بظلمان السلطان حول داره * قبل أن يكمل بضوء نهاره * أو يحتفل لشد ازاره * فنادى الامان الامان * وبرز نخدم السلطان * فأرسله السلطان بخمسة عشر الف ألف درهم من جملة ما كان

الاخضر واقام به عدة أيام ثم انتقل الى جبل جوشن فنزل باعلاه واظهر انه يريد أن يبنى مساكن له ولاصحابه وعسكر واقام عليها اياما والقتال بين العسكرين كل يوم وكان صاحب حلب عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ومعه العسكر النورى وهم مجدون فى القتال فلما رأى كثرة الخارج كاتبه شح بالمال فحضر يوما عنده بعض اجناده وطلبوا منه شيأ فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الاموال ولو باع حلى نسائه فقال حينئذ الى تسليم حلب واخذ العوض عنها وارسل مع الامير طمان اليارقى وكان يميل الى صلاح الدين انه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك وباعها باوكس الاثمان اعطى عنها مثل حلب واخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا ما اتى حتى ان بعض عامة حلب احضر اجانة وماء ونادا ما انت لا يصلح لك الملك وانما يصلح لك ان تغسل الثياب واسمعوه المكروه واستقر ملك صلاح الدين بملكها وكان مزلزلا فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف هار واذا اراد الله امرا فلا مرد له وسار عماد الدين الى البلاد التى اعطيها فتسلمها واخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما ان عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره اذا استدعاه لا يحتج بحجة زمن الاتفاقات العجيبة ان محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر * مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره ان شاء الله تعالى ومما كتبه القاضى الفاضل فى المعنى عن صلاح الدين فأعطيناه عن حلب كذا وكذا وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم وكتب أيضا أعطيناه مالم يخرج عن اليد يعنى انه متى شاء أخذه لعدم حصانته وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الاصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جاما لخصال الخير ومحاسن الاخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد ان استقر الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل ان يدخلها صلاح الدين فلما استقر منه الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد اخذناها وهى لك فقال ذلك لو كان وانا حى ووالله لقد اخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وابكى ولما خرج عماد الدين الى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم فى سرور اذ جاء انسان فأسر الى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعا ولا جزعا وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ما هم فيه وكان هذا من الصبر الجميل

(ذكر فتح صلاح الدين حارم)

لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم وهى من اعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه مبرخك وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين فامتنع من تسليمها الى صلاح الدين فراسله صلاح الدين فى التسليم وقال له اطلب من الاقطاع ما أردت ووعده الاحسان فاشترط فى الطلب وترددت الرسل بينهم فراسل الفرنج ليحتمى بهم فسمع من معه من الاجناد انه يراسل الفرنج

نخافوا

ألظ به من أموال عمله فالتزمها ونقد اكثرها * وقبض السلطان على عشرين فيلا ضخاما هائلة كان اعتقدها ليومى بؤسه وبأسه ووكل به من استوفى المال عليه ورجع عنه بعد ان رعى حق طاعته وضراعته باستخلافه عنه على ما كان يليه * وبسط يده فى أطراف عمله ونواحيه * الى غزنة ظاهر انجبه * فائز قدحه * عالى يده * واريا زنده * صنعا من الله تعالى لمن يجتبيه من خيار خلقه * لعمارة أرضه وانارة حقه * والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم

(ذكر الشارين الوالد أبى نصر محمد بن أسد والشاه محمد ابنه وما أفضى اليه أمرهما)

قد كان يلقب كل من يلى أمر غرشستان بالشار معة مصطلحا عليها تنبئ عن معنى التملك ورتبة الاجلال والتعظيم وكان الشار أبو نصر والها الى ان ادرك ولده الشاه وفيه لوثة مشهورة فغلبه

على الامر بقوة شبابه * واستظهاره بمن شايعه من أصحابه * فاعتزل أبوه عن الولاية وتركه له مخليا بينه وبين ما كان يليه * وينفرد بالنظر والتدبير فيه * ومقتصرا على دراسة الكتب * ومطالعة الادب * اذ كان بها مرلعا * وبلذتها دون سائر اللذات مقتنعا * وكان منتجع الافاضل من اعماق البلاد ينتابه منهم كل مبدع خطا وبيانا * أو مبدع به بلوى وامتحانا * فما ينشب بعد ان ينتابه * ويشهد بابه * حتى يستخصب جنابه * ويستجزل بره ونوابه * وكان صاحب الجيش أبو على محمد بن محمد ابن سيجور لما فتح باب الاستعصاء على الرضى نوح بن منصور رام ان يستضيف ولاية الغرش الى ما يليه * وأن يجذ من جانب الشارين طاعة له في أوامره ونواهيه * فأظهر التمرد عليه * كراهة لاختياره على أرباب الملك الذين اعطوهم المقادة

خالفوا ان يسلمها اليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الامان والانعام فاجابهم الى ملطلبوا وسلموا اليه الحصن فرتب به دزدارا بعض خواصه واما باقى قلاع حلب فان صلاح الدين أقر عينتاب بيد صاحبها كما تقدم وأقطع تل خالد لامير يقال له داروم اليارقى وهو صاحب تل باشر واما قلعة اعزاز فان عماد الدين اسمعيل كان قد خربها فاقطعها صلاح الدين لامير يقال له سليمان بن جندر فعمرها وأقام صلاح الدين بحلب الى ان فرغ من تقرير قواعدها واحوالها ودواوينها واقطع اعمالها وأرسل منها فجمع العساكر من جميع بلاده

(ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز وكان اليه الحكم فى جميع البلاد واتبع فى ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر فى مضرة صاحبه وكان الذى أشار بذلك عز الدين محمود زنكندار وشرف الدين أحمد بن أبى الخير الذى كان أبوه صاحب الغراف وهما من أكابر الامراء فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين فاظهر انه مريض وانقطع عن الركوب عدة أيام فدخل اليه مجاهد الدين وحده وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته الى القلعة فاحتوى على الاموال التى لمجاهد الدين وخزائنه وولى زنكندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب وحكمهما فى دولته وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ اربل واعمالها ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين على وهو صبى صغير ليس له من الحكم شئ والحكم والعسكر الى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر وهى لعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو أيضا صبى والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين وبيده أيضا شهرزور واعمالها ونوابه فيها ودقوقا ونائبه فيها وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لعز الدين مسعود بعد ان أخذ صلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك واسمه عز الدين فلما قبض عليه امتنع صاحب اربل من طاعة عز الدين واستبد وكذلك أيضا صاحب جزيرة ابن عمر وارسل الخليفة الى دقوقا فحصرها واخذها ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور والعقر وصارت اربل والجزيرة اضر شئ على صاحب الموصل وأرسل صاحبها الى صلاح الدين بالطاعة له والكون فى خدمته وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ ومعه بشير الخادم الخاص الى صلاح الدين فى الصلح مع عز الدين صاحب الموصل وسير عز الدين معه القاضى محيى الدين أبا حامد بن الشهرزورى فى المعنى فأجاب صلاح الدين الى ذلك وقال ليس لكم مع الجزيرة واربل حديث فامتنع محيى الدين عن ذلك وقال هما لنا فلم يجب صلاح الدين الى الصلح الا بان تكون اربل والجزيرة معه فلم يتم أمره وقوى طمع صلاح الدين فى الموصل بقبض مجاهد الدين فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف وزنكندار عقوبة لهما ثم أخرج مجاهد الدين على ما نذكره ان شاء الله

(ذكر غزو بيسان)

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي وهو صبي وجعل معه الامير سيف الدين يازكج وكان أكبر الامراء الاسدية وسار الى دمشق وتجهز للغزو وسمع عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وسار الى بلد الفرنج فعبر نهر الاردن تاسع جمادى الآخرة من السنة فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفا فقصد بيسان فأحرقها وخرجها وأغار على ما هنالك فاجتمع الفرنج وجاؤا الى قبالته مخفين رأوا كثرته عاكرهم يقدموا عليه فأقام عليهم وقد استندوا الى جبل هنالك وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الاسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطعمون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضا فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة وأغار المسلمون على تلك الاعمال يمينا وشمالا ووصلوا فيها الى مالم يكونوا يطمعون في الوصول اليه والاقدام عليه فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود الى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى فعادوا الى بلادهم على عزم الغزو

(ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب)

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهز للغزو الكرك فسار اليه في العساكر وكتب الى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر الى الكرك وكان العادل قد أرسل الى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه الى ذلك وأمره ان يخرج معه بأهله وماله فوصل صلاح الدين الى الكرك في رجب ووافاه أخوه العادل في العسكر المصري وكثر جمعه وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون الى ربضه وملكه وحصر الحصن من الربض وتحكم عليه في القتال ونصب عليه سبع منجنيقات لا تزال ترمي بالحجارة ليلا ونهارا وكان صلاح الدين يظن ان الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك وانهم يبذلون جهدهم في رده عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع فرحل عنه منتصف شعبان وسير تقي الدين ابن أخيه الى مصر نائبا عنه ليتولى ما كان اخوه العادل يتولاه واستصحب اخاه العادل معه الى دمشق واعطاه مدينة حلب وقلعتها واعمالها ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيره اليها في شهر رمضان من السنة واحضر ولده الظاهر منها الى دمشق

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة فتح الرباط الذي بتنه ام الخليفة بالمأمونية وفيها في ذي الحجة توفي مكرم بن بختيار ابو الطيب الزاهد ببغداد وروى الحديث وكان كثير البكاء وفي جمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار ابن عبد الله ابو عبد الله المولد الشاعر ويعرف بالابله فمن جملة شعره

اراق دمي لاجل اراق دمي * فظلمي ظلم من ريقه الشيم
ذو فاحمة كالقضيب ناضرة * وناظرين سقيمه سقمي
جعلت من وعده على اصدق الـ * ـوعد ومن وصله على التهم

(ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة)

(ذكر اطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم)

قد عياه وسلوا طاعتهم تسليما * وادلالا بحصانة صياصيهما وقلاعهما * ومناعة حواشيهما واشياعهما * ومحاماة الارض على حقوق طاعتهما وسوابق حرماتهما * ان هم أبو علي بمنازعتهما ملكا ورثاه * وطمع في فضل مال اقتناه * فلم ينهنه أبو علي ان جرد اليهما أبا القاسم الفقيه * أحد أنياب دولته * وأركان دعوته * في جيوش كثيفة * وخيول على الآلاف منيفة * فناهضهما في عقر دارهما * متوقلا اليهما * فوارع تصافح السماء * وشوامخ تناطح الجوزاء * ومتوعلا مخارم تمرد على السلوك * مرود السموم على غلائل السلوك * يناجزهما في تلك المقامات التي يدار عندها بالرؤس * ويمشي على النفوس * ويلجئهما من مضيق * الى مضيق * ويضيقهما بخريق بعد خريق * حتى اجلاهما عن قرارة بيتهما * الى قلعة ورثاها أبا عن جد في أخريات

في هذه السنة في المحرم اطلق اتابك عز الدين صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل وسيره الى البهلوان واخيه عزل يستنجدهما على صلاح الدين فسار الى قزل أولا وهو صاحب اذربيجان فلم يمكنه من المضي الى البهلوان وقال مهما تختاره انا أفعله وجهز معه عسكرا كثيرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا نحو اربل ليحصروها فلما قاربوها أفسدوا في البلاد وخربوها ونهبوا وسبوا واخذوا النساء قهرا ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم فسار اليهم زين الدين يوسف صاحب اربل في عسكره فلقيهم وهم متفرقون في القرى ينهبون ويحرقون فانتهز الفرصة فيهم بتفرقهم والقى بنفسه وعسكره على اول من لقيه منهم فهزمهم وتمت الهزيمة على الجميع وغنم الاربليون اموالهم ودوابهم وسلاحهم وعاد العجم الى بلادهم منهزمين وعاد صاحب اربل الى بلده منظفرا غانما وعاد مجاهد الدين الى الموصل فكان يحكي انني مازلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء افعال العجم فانني رأيت منهم مالا كنت أظنه يفعله مسلم بمسلم وكنت أنبههم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان

(ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب)

في هذه السنة سار ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الى بلاد الاندلس وجاز البحر اليها في جمع عظيم من عساكر المغرب فانه جمع وحشد الفارس والراجل فلما عبر الخليج قصد غربي البلاد فحصر مدينة شنترين وهي للفرنج شهرا فأصابه بها مرض فمات منه في ربيع الاول وحمل في تابوت الى مدينة اشبيلية من الاندلس وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا ومات عن غير وصية بالملك لاحد من أولاده فاتفق رأي قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو فقام في ذلك احسن قيام واقام راية الجهاد واحسن السيرة في الناس وكان دينا متعبدا للحدود في الخاص والعام فاستقامت له الدولة وانقادت اليه بأسرها مع سعة اقطارها ورتب ثغور الاندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة في سائر بلادها واصلح احوالها وعاد الى مراكش وكان ابوه يوسف حسن السيرة وكان طريقه اليّن من طريق أبيه مع الناس يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وهم اهل خدمته وخاصته واحبه الناس ومالوا اليه واطاعوه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك في جباية الاموال ما كان ابوه يأخذه ولم يتعده الى غيره واستقامت له البلاد بحسن فعله مع اهلها ولم يزل كذلك الى ان توفي رحمه الله تعالى

(ذكر غزو صلاح الدين الكرك)

في هذه السنة في ربيع الآخر سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو وجمع عساكره فأتته من كل ناحية وممن اتاه نور الدين محمد بن قراارسلان صاحب الحصن وكتب الى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك فنازل الكرك وحصره وضيق على من به وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه واشتد القتال فملك المسلمون الربض وبقي الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد الا ان بينهما خندقا عظيما عمقه ستون ذراعا فأمر صلاح الدين بالقاء الاحجار والتراب فيه

هاتيك الجبال تزل عن
اعاليها أقدام الغيوم
وتحلق دون مبانيها كرام
الطيور وملك عليها
حصون جبالها وسهول
ديارهما ومجالها يجبيها
ويتتبع ما ينسب الى كل
واحد منهما فيها الى ان صمد
الامير ناصر الدين سبكتكين
صمد أبي علي فاستزد
ابا القاسم الفقيه شغلا
بالبازل القرم عن الثنى
وبالعقاب المنقض عن
الكركي وعلم ان قداتي
الوادي فطم على القرى
وانضم الشاران الى الامير
سبكتكين في نصرة الامير
نوح فانتقم من ابي علي
حين ولى هزيما وتعزى
عما نوله واقتناه حديثا
وقديما واجفل نحو
جرجان لا يلوي رأيا ولا عزيما
ولم تزل بعد ذلك حالهما
على جلتهما في الامنة
والسكون والجاه المصون
الى ان ورث السلطان يمين
الدولة وامين الملة خراسان
حكما له في أرضه وورثها
من يشاء من عباده والعاقبة
للمتقين ولا عدوان الا

ابطه فلم يقدر احد على الدنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والاحجار من المنجنيقات فأمر ان يبنى بالاخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السقائف ويلقون في الخندق ما يطمه ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلا ونهارا وارسل من فيه من الفرنج الى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم بعجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا الى نجدتهم مجدين فلما بلغ الخبر عسكرهم الى صلاح الدين رحل عن الكرك الى طريقهم ليلقاهم ويصافهم ويعود بعد ان يهزمهم الى الكرك فقرب منهم وخيم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الارض وصعوبة المسلك اليهم وضيقه فأقام أياما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم فلم يبرحوا منه خوفا على نفوسهم فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بازائهم من يعلمه بمسيرهم فسار واليلا الى الكرك فلما علم صلاح الدين ذلك علم انه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه فسار الى مدينة نابلس ونهب كل ما على طريقه من البلاد فلما وصل الى نابلس احرقها وخربها وقتل فيها واسر وسبى فاكثر وسار عنها الى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم ورحل الى جينين فنهبها وخربها وعاد الى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا في طريقه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون ووصل الى دمشق

(ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها الى اولاد عبد المؤمن)

في هذه السنة في شعبان خرج علي بن اسحق المعروف بابن غانية وهو من اعيان الملثمين الذين كانوا ملوك المغرب وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة الى بجاية فملكها وسبب ذلك انه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر اسطوله فكان عشرين قطعة وسار في جموعه فارس في ساحل بجاية وخرجت خيله ورجاله من الشواني فكانوا نحو مائتي فارس من الملثمين واربعة آلاف راجل فدخل مدينة بجاية بغير قتال لانه اتفق ان واليها سار عنها قبل ذلك بأيام الى مراكش ولم يترك فيها جيشا ولا مانعا لعدم عدد يحفظها منه فجاء الملثم ولم يكن في حسابهم انه يحدث نفسه بذلك فارسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بني حماد وصاروا معه فكثر جمعه بهم وقويت نفسه فسمع خبره والي بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلثمائة فارس فجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس فسمع بهم وبغربهم منه فخرج اليهم وقد صار معه قدر ألف فارس وتوافقوا ساعة فانضاف جميع الجموع التي كانت مع والي بجاية الى الملثم فانهزم حينئذ والي بجاية ومن معه من الموحدين وساروا الى مراكش وعاد الملثم الى بجاية فجمع جيشه وخرج الى أعمال بجاية فأطاعه جميعها الا قسطنطينية الهوى فحصرها الى ان جاء جيش من الموحدين من مراكش في صفر سنة احدى وثمانين وخمسمائة الى بجاية في البر والبحر وكان بها يحيى وعبد الله أخوا علي بن اسحق الملثم فخرجا منها هاربين ولحقا باخيهما فرحل عن قسطنطينية وسار الى افريقية وكان سبب ارسال الجيش من مراكش ان والي بجاية وصل الى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها وخوفه عاقبة التواني فجهز العساكر في البر عشرين الف فارس وجهز الاسطول في البحر في خلق كثير واستعادوها

*(ذكر

الاطراف للطاعة * والتزام حكم التباعة * واعطاء صفقة البيعة وفرع المنابر باقامة الخطبة وكلهم سمع واطاع * وبذل في الخدمة والقربة المستطاع * أنهضت الى الشارين في أخذهما باقامة الخطبة له اسوة امثالهما من ولاة الاطراف وضمناء الاعمال فتلقياني بفروض الطاعة * والحرص على الاقتداء بالجماعة * وأمرا بالخطبة فأقيمت باسم السلطان بكورة الغرش في شهور سنة تسع وثمانين وثلثمائة وورد على الشارين كتب المنحازين الى بخارا عن هزيمة مرو يذكرون للشارين انهم على الاستعداد * والتأهب للمعاد * فلنظراهم ليأخذا من الانتصار * ودرك الثار * بنصيب فبعث الشار ابو نصر بها الي * درج رقعة افردني بها * يسألني تأملها وانفاذها بأعيانها * الى السلطان ليقرر رأيه في الموالاة * ومخالفة ذوي المناواة *

(ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده)

فى هذه السنة مات قطب الدين ايلغازى بن نجم الدين بن ابى بن تمرتاش بن ايلغازى بن ارتق صاحب ماردين وملك بعده ابنه حسام الدين بولق ارسلان وهو طفل وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البقش مملوك ابيه وكان شاه ارمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم فى دولته وهو رتب البقش مع ولده وكان البقش دينا خيرا عادلا حسن السيرة سليما فأحسن تربية الولد وتزوج أمه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته فخبط وهوج كان فيه وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه اؤلؤ قد تحكم فى دولته وحكم فيها فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد ولم يزل الامر كذلك الى ان مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام فى الملك وليس له منه الا الاسم والحكم الى النظام واؤلؤ فبقى كذلك الى سنة احدى وستمائة فمرض النظام البقش فأتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه اؤلؤ وضربه قطب الدين بسكين معه فقتله ثم دخل الى النظام وبيده السكين فقتله أيضا وخرج وحده ومعه غلام له والقى الرأسين الى الاجناد وكانوا كلهم قد انشاهم النظام واؤلؤ فأذعنوا له بالطاعة فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين واعمالها وقعلة البارعيسة وصور وهو الى الآن حاكم فيها حازم فى افعاله

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن شيخ الشيوخ اسمعيل بن شيخ الشيوخ أبى سعيد أحمد فى شعبان وكان قد سار فى ديوان الخلافة رسولا الى صلاح الدين ومعه شهاب الدين بشير الخادم فى معنى الصلح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل فوصل دمشق وصلاح الدين يحصر الكرك فأقام الى ان عاد فلم يستقر فى الصلح امر ومرضا وطلبا العودة الى العراق فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام الى ان يصطلحا فلم يفعلا وسارا فى الحرفات بشير بالسحنة ومات صدر الدين بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان واحد زمانه قد جمع بين رياسة الدين والدنيا وكان ملجأ لكل خائف صالحا كريما حليما وله مناقب كثيرة ولم يستعمل فى مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى وفيها توفى عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخجندى الفقيه الشافعى رئيس اصفهان وكان موته بباب همذان وقد عاد من الحج وله شعر فمنه

بالحمى دار سقاها مدمعى * ياسقى الله الحمى من مربع
ليت شعرى والامانى صلة * هل الى وادى الغضى من مرجع
اذ نفت عاوة للواشى بنا * ماعلى عاوة لو لم تسمع
أو تحرت رشدا فيما وشى * أو عفت عنى فاقلبى معى

رحمه الله ورضى عنه وأرضاه

(ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاه أرمن)

فى هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف بن ايوب الموصل مرة ثانية وكان مسيره من دمشق فى ذى القعدة من السنة الماضية فوصل الى حلب وأقام بها الى ان خرجت السنة وسار منها فعبر

فكتبت اليه فى جواب رقعته تأملتها فوجدتها تدل على خدود قد عمل فيها صيقل الوقاحة كجدل يتوعد صاحبه بأن يضرب فكبه * ان لم يكف عنه كفيه وما نحن فى هذا المعنى * وفيما اولى الله مولانا السلطان من الحسنى * الا كما قال المتنبى

ولله سر فى علاك وانما
كلام العدى ضرب من الهذيان

واما قولهم انا على الانتصار * وطلب الثار * فتلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين على انا نقول

لئن كان اعجبكم عاكم فعودوا الى حمص فى القابل
فان الحسام الخضيب الذى قتلتم به فى يد القاتل

فان قالوا ان العود احمد فذاك ولكن العود لمن حمد البدء لا لمن ذم * وصادف فيه ما سر لا ما ساء وغم * وقد رأوا فى بدء لقائهم * كيف شرقت السيوف بدمائهم * وتحكمت النسور فى أشلائهم * فان نشطوا ثانية فهاتيك

الى أرض الجزيرة فلما وصل حران قبض على مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين الذى كان سبب ملكه الديار الجزرية وسبب قبضه عليه ان مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت ويشير عليه بقصد الموصل ويحسن له ذلك ويقوى طمعه حتى انه بذل له اذا سار اليها خمسين ألف دينار فلما وصل صلاح الدين الى حران لم يف له بما بذل من المال وأنكر ذلك فقبض عليه ووكل به ثم اطلقه واعاده الى مدينة حران والرها وكان قد أخذ هما منه وانما أطلقه لانه خاف انحراف الناس عنه بالبلاد الجزرية لانهم كلهم علموا بما اعتقده مظفر الدين معه من تملك البلاد فأطلقه وسار صلاح الدين عن حران فى ربيع الاول فحضر عنده عسكر الحصن وداراو ومعز الدين سنجرشاه صاحب الجزيرة وهو ابن اخى عز الدين صاحب الموصل وكان قد فارق طاعة عمه بعد قبض مجاهد الدين وسار مع صلاح الدين الى الموصل فلما وصلوا الى مدينة بلد سيراتابك عز الدين والدته الى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة من اعيان الدولة يطلبون منه المصالحة ويبذلون له الموافقة والانجاد بالعساكر ليعود عنهم وانما أرسلهن لانه وكل من عنده ظنوا انهن اذا طلبن منه الشام أجابهن الى ذلك لاسيما ومعهم ابنة مخدومه وولى نعمته نور الدين فلما وصلن اليه أنزلهن وأحضر اصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله فأشاروا كثرهم باجابتهن الى ما طلبن منه وقال له الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب وهما من بلد الهكارية من اعمال الموصل مثل الموصل لا يترك لامرأة فان عز الدين ما ارسلهن الا وقد عجز عن حفظ البلد ووافق ذلك هواه فأعادهن خائبات واعتذر باعذار غير مقبولة ولم يكن ارسالهن عن ضعف وهن انما أرسلهن طلبا لدفع الشر بالتى هى أحسن فلما عدن رحل صلاح الدين الى الموصل وهو كالمتيقن انه يملك البلد وكان الامر بخلاف ذلك فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه وامتد عسكره فى تلك الصحراء بنواحى الحلة المراقية وكان يجرى بين العسكرين مناوشات بظاهر الباب العمادى وكنت اذ ذاك بالموصل وبذل العامة نفوسهم غيظا وحنقا لرده النساء فرأى صلاح الدين ما لم يكن يحسبه فندم على رده النساء ندامة الكسعى حيث فاته الذكر وملك البلد وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ وجاءته كتب القاضى الفاضل وغيره ممن ليس له هوى فى الموصل يقبحون فعله ويشكرونه وأتاه وهو على الموصل زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل فانزله ومعه اخوه مظفر الدين كوكبرى وغيرهما من الامراء بالجانب الشرقى من الموصل وسير من المنزلة على بن أحمد المشطوب الهكارى الى قلعة الجزيرة من بلاد الهكارية فحصرها واجتمع عليه من الاكراد والهكارية كثير وبقى هناك الى ان رحل صلاح الدين عن الموصل وكان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقى من العسكر ويعودون ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ اتابك عز الدين صاحبها ان نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود الى القلعة وعاد يقتدى برأى مجاهد الدين وكان قد أخرجه كما ذكرناه ويصدر عن أيه وضبط الامور واصلح ما كان فسد من الاحوال حتى آل الامر الى الصلح على ما نذكره ان شاء الله وحضر عند صلاح الدين انسان بغدادى اقام بالموصل ثم خرج الى صلاح الدين فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل الى ناحية نينوى وقال ان دجلة اذا انقطعت عن الموصل عطش أهلها فملكها

بغير

الصوارم ماضية * والقشاعم ضارية * وما الشبه حال القوم بما قام به ابن الاشعث خطيبا فى قومه فقال ياقوم انه مابقى من عدوكم الا كما يبقى من ذنب الوزغة تضربه يمينا وشمالا فما تلبث ان تموت وكذا المصباح اذا قارب انطفاؤه توهج قليلا * ثم لم يغن ذلك عن حينه قليلا * فالحمد لله الذى جعل سيوف مولانا تخطب على منابر الرقاب اذ جعل ألسنة أعدائه تخطب فوق أسرة الاذقان واليه الرغبة فى ان يطيل بقاء مولانا مابرز يوم من حجاب امس * وطلع نفس من قرارة نفس * منصورا على من نابذه وناواه * ليودعه من بطن الارض ملحده ومثواه * وعن كتب سيرى الشاركيف يفعل الله بالغاوين * ويلبسهم خزى الباغين * ويردهم اسفل الساقلين * وقبل وبعد فالحمد لله رب العالمين * فكان الامر على ما حدث * وتحدث * فان يك الخان الحدر اليهم ذلك عليهم دار المال بضاربه * وان يك خطفة عظم القوم

بغير قتال فظن صلاح الدين ان قوله صدق فعزم على ذلك حتى علم انه لا يمكن قطعه بالكلية فان المدة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه وقبحه عنده أصحابه فاعرض عنه وأقام بمكانه من أول ربيع الآخر الى ان قارب آخره ثم رحل عنها الى ميافارقين وكان سبب ذلك ان شاه ارمن صاحب خلاط توفي بها تاسع ربيع الآخر فوصل الخبر بوفاته في العشرين منه فعزم على الرحيل اليها وتملكها حيث ان شاه أرمن لم يخلف ولدا ولا احدا من اهل بيته يملك بلاده بعده وانما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه فاختلفوا فامامن هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها وأما من يكره أذى البيت الا تابكي فانه أشار بالرحيل وقال ان ولاية خلاط أكبر وأعظم وهي سائبة لا حافظ لها وهذه لها سلطان يحفظها ويذب عنها واذا ملكتا ملكت سهل أمر هذه وغيرها فتردد في أمره فاتفق انه جاءه كتب جماعة من اعيان خلاط من أهلها وأمرائها يستدعونه ليسلموا اليه البلد فسار عن الموصل وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكرا فان شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب اذربيجان وهمذان وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن على كبر سنه بنتاله ليجعل ذلك طريقا الى ملك خلاط واعمالها فلما بلغهم مسيره اليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه اليهم ليسلموا البلد اليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان وتبقى البلد بأيديهم فسار صلاح الدين وسير في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فسار وا الى خلاط ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط وسار صلاح الدين الى ميافارقين واما البهلوان فانه سار الى خلاط ونزل قريبا منها وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين ثم انهم اصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن)

في هذه السنة توفي نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل وخلف ابنين فملك الاكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين وتولى تدبير الامور وزيره القوام بن عمافا الاسعردي وكان عماد الدين بن قرا ارسلان قد سيره أخوه نور الدين في عساكره الى صلاح الدين وهو يحاصر الموصل وهو معه فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده اصغر أولاده فتعذر عليه ذلك فسار الى خرت برت فملكها وهي بيد أولاده الى سنة عشرين وستمائة ولما حضر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد وكانوا خافوا ان يأخذها منهم فلم يفعل ورد هم الى بلادهم وشرط عليهم ان يراجعوه فيما يفعلونه ويصدرون عن أمره ونهيه ورتب معه أميرا لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه

(ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين)

لما سار صلاح الدين الى خلاط جعل طريقه على ميافارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردين قد توفي كما ذكرنا وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها الى شاه أرمن وعسكر فيها فلما توفي طمع في أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة

اسماري * وشرد الباقين في الارض حيارى * ثم وطالعت الحضرة بصورة أمر الثائرين في الطاعة حتى حظيا من الاكرام بما توقعاه * وحليا من الاعزاز والايثار بما تطلعاه * وحضر الخدمة بعد ذلك الولد المعروف بشاه شار فصادف ما استحقه من ترحيب وترتيب * وحظ من الايجاب والايثار رغيب * وغير مدة وهو بين الاغتراز بسمة الملك * ولوثة في الطبع ما يسلم أمثالها عند الملوك من الهفوات * وهو على ذلك محتمل * ويلطف القبول والاقبال مقتبل * واستأذن من بعد للانصراف وراءه فصادف اذنا بالمبار الكريمة مشفوعا والى الخلع الشريفة فوق الهمة المنيفة مجموعا وعاد الى أفشين قرارة بيته ومثابة عزه الى أن عنت للسلطان غزوة أحب ان يحتشد لها فضل احتشاد ويستظهر بما حولها من قوة وعتاد * وأمراء جيوش

قطب الدين المتوفى ومعها بنات لها منه وهى أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الاولى وكان المقدم على اجنادها اميرا سمه يرنقش ولقبه أسد الدين وكان شجاعا شهما يحفظ البلد فأحسن اليه واشتد القتال عليه ونصب المنجنيقات والعرادات فلم يصل صلاح الدين الى ما يريد منها فلما رأى ذلك عدل من القوة والحرب الى اعمال الحيلة فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها ان اسد الدين يرنقش قد مال الينا فى تسليم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد ان يكون لك فى هذا الامر نصيب وأنا أزوج بناتك بأولادى وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع من ارسل الى الاسد يعرفه ان الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد الى السلطان وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموا اليه فخذ لنفسك واتفق ان رسولا وصله من خلاط يبذلون له الطاعة وقالوا له من الاستدعاء اليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل الى ميافارقين وقال للاسد انت عمن تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط الى صلاح الدين فسقط فى يده وضعفت قوته وأرسل يقترح اقطاعا ومالا فأجيب الى ذلك وسلم البلد صلح جمادى الاولى وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خاتون وأقر بيده هاقلعة هتاخ لتسكون فيها هى وبناتها

(ذكر عود صلاح الدين الى بلاد الموصل والصلح بينه وبين تابك عز الدين)

لما فرغ صلاح الدين من امر ميافارقين واحكم قواعدها وقرر اقطاعاتها وولاياتها اجمع على العود الى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل الى كفرزمار والزمان شتاء فنزلها فى عساكره وعزم على المقام بها واقطاع جميع بلاد الموصل واخذ غلاتها ودخلها واضعاف الموصل بذلك اذا علم انه لا يمكنه التغلب عليها وكان نزوله فى شعبان واقام بها شعبان ورمضان وتردد الرسل بينه وبين عز الدين صاحب الموصل وصار مجاهد الدين يراسل ويتقرب وكان قوله مقبولا عند سائر الملوك لما علموا من صحته فبينما الرسل تتردد فى الصلح اذ مرض صلاح الدين وسار من كفرزمار عائدا الى حران فلحقه الرسل بالاجابة الى ما طلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة ان يسلم اليه عز الدين شهرزور وتوابعها وولاية القرابلى وجميع ماوراء الزاب من اعمال وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف ارسل رسله فحلف عز الدين له وتسلم البلاد التى استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين الى حران فأقام بها مريضا وأمنت الدنيا وسكنت الدهماء وانحسمت مادة الفتن وكان ذلك بتوصل مجاهد الدين قايماز رحمه الله واما صلاح الدين فانه طال مرضه بحران وكان عنده من أهله اخوه الملك العادل وله حينئذ حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيس من عافيته فحلف الناس لاولاده وجعل لكل منهم شيأ من البلاد معلوما وجعل اخاه العادل وصيا على الجميع ثم انه عوفى وعاد الى دمشق فى المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ولما كان مريضا بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الاقطاع حمص والرحبة فسار من عنده الى حمص فاجتاز بحلب واحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد اليه اذا مات صلاح الدين واقام بحمص ينتظر موته ليسير الى دمشق فيملكها فعوفى وبلغه الخبر على جهته فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الاضحى فانه شرب الخمر واكثر منه فاصبح ميتا فذكروا العهدة

وقواد * وامر بالكتاب اليه فى استنهاضه اسوة امثاله * ثقة بخصوص حاله * وثمرة ما أفاض عليه من سجال افضاله * فلزبه الخذلان * عن المكان * والقته معاذير واهية الاركان * وظل يتردد بين الحران والاذعان * الى ان حفت عليه كلمة العصيان * فأعرض السلطان عند ذلك عن تدبيره * وأقبل على ما اهمه من امر مسيره * حتى اذا دان له ما قصد * وظفر بمن كند وتمرد * وعاد بالفتح خافقا لواؤه * والنجح شارقا ضياؤه * جدد مكاتبته ايمانا له من خيفة ان اوجس * وايناسا من وحشة ان لابس * واستبقاء للصنيعة عنده من ان يختضد أشاءها * او يقتطع دون الماء رشاءها * فلم يزدد الا كفورا ونفورا * وكان أمر الله قدرا مقدورا * وعند ذلك جرد السلطان حاجبه الكبير ابا سعيد التوتاش وقتله والى طوس ارسلان

عليهم ان صلاح الدين وضع انسانا يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق فحضر عنده ونادمه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح فسألوا عنه فقيل انه سار من ليلته الى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن فلما توفى اعطى اقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف ناصر الدين من الاموال والخيل والآلات شيأ كثيرا فحضر صلاح الدين فى حمص واستعرض تركته وأخذ اكثرها ولم يترك الا مالا خير فيه وبلغنى ان شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت ابيه بسنة فقال له الى اين بلغت من القرآن فقال الى قوله تعالى ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه

(ذكر الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل)

فى هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والاكراد بديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهرزور واذربيجان وقتل فيها من الخلق ما لا يحصى ودامت عدة سنين وتقطعت الطرق ونهبت الاموال وأريقت الدماء وكان سببها ان امرأة من التركمان تزوجت بانسان تركمانى واجتاز والى طريقهم بقلعة من الزوزان الاكراد فجاء اهلها وطلبوا من التركمان وليمة العرس فامتنعوا من ذلك وجرى بينهم كلام صار امره الى القتال فنزل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج فقتله فهاجت الفتنة وقام التركمان على ساق وقتلوا جمعا كثيرا من الاكراد وثار الاكراد فقتلوا من التركمان أيضا كذلك وتفاقم الشر ودام ثم ان مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جماعة من رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم واعطاهم الخلع والثياب وغيرها وأخرج عليهم مالا جافا فانقطعت الفتنة وكفى الله شرها وعادوا الى ما كانوا عليه من الطمأنينة والامان

(ذكر ملك الملثمين والعرب افريقية وعودها الى الموحدين)

قد ذكرنا سنة ثمانين ملك على بن اسحق الملثم بجاية وارسال يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن العساكر واستعادتها فسار الى افريقية فلما وصل اليها اجتمع سليم ورياح ومن هنالك من العرب وانضاف اليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش وقد تقدم ذكر وصوله اليها ودخل أيضا من اتراك مصر مملوك لتقى الدين ابن أخى صلاح الدين اسمه بوزابة فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعهم على بن اسحق الملثم لانه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا اليه ولقبوه بامير المسلمين وقصدوا بلاد افريقية فملكوها جميعها شرقا وغربا الا مدينتين تونس والمهدية فان الموحدين أقاموا بهما وحفظوهما على خوف وضيق وشدة وانضاف الى المفسد الملثم كل مفسد فى تلك الارض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحرم وقطعوا الاشجار وكان الوالى على افريقية حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتى وهو بمدينة تونس فارسل الى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال وقصد الملثم جزيرة باشرا وهى بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها فطلب أهلها منه الامان فامنهم فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الاموال والدواب والغلات وسلبوا الناس حتى ثيابهم واشتدت الايدى الى النساء والصبيان وتركوهم هلكى فقصد وا مدينة تونس فاما

الجاذب فيمن ضمهم الى جملتهما * ووسمهم بالمسير تحت رايتهما * لمناهضة الثائرين وامتلاك الغرض عليهما * واحاقة وبال العصيان * وكفران الاحسان * بهما فنهضا بالعدة والعديد * والبطش الشديد * واستلحقا أبا الحسن المنبجى الزعيم بمصر والروذ لمكانه من العلم بمعاطف السبل * ومخارم تلك الشعاب والقلل * فسارا بهما فى رجال قد كدمتهم النجارب * وبيتهم النوائب * يجمون باطراف الثنايا على الزبر * ويدخلون ولوخرت الابر * ودمرا على الثائرين تلك الناحية فأما الثائر الكبير الوالد أبو نصر فاستشف استار العاقبة * واغتنم شعار العافية * ولاذ بالامان الى الحاجب الكبير التوتاش مظهرا للبراءة من فعل ولده * وصادعا بما اشتهر فى الخاص والعام من عقوقه وتمرده * وتحمل بشفاعته الى السلطان فى ملاحظته بعين من لم

الاقوياء فكانوا يخدمون ويعملون ما يقوم بقوتهم وأما الضعفاء فكانوا يستعطون ويسألون الناس ودخل عليهم فصل الشتاء فاهلكهم البرد ووقع فيهم الوباء فاحصى الموتى منهم فكانوا اثنى عشر ألفا هذا من موضع واحد فما الظن بالباقى ولما استولى الملثم على افريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للامام الناصر لدين الله الخليفة العباسى وارسل اليه يعلمه انخلع والاعلام السود وقصد فى سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصة فحصرها فاخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلموها الى الملثم فرتب فيها جندا من الملثمين والاتراك وحصنها بالرجال مع حصانتها فى البناء وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فانه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلة العسكر لقلة القوت فى البلاد ولما جرى فيها من التخريب والاذى وسار فى صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فوصل الى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه فساروا الى على بن اسحق الملثم ايقاتلوه وكان بقفصة فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الترك فخامروا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وكان ذلك فى ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس الى نصف رجب من السنة ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والاتراك فوصل اليهم فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه فاكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم فلم ينج منهم الا القليل فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه الى قابس ففتحها وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وحملهم الى مراكش وتوجه الى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فارسل اليه الترك الذين فيها يطلبون الامان لانفسهم ولاهل البلد فأجابهم الى ذلك وخرج الاتراك منها سالمين وسير الاتراك الى الثغور ولما رأى من شجاعتهم ونكايتهم فى العدو وتسلم يعقوب البلد وقتل من فيه من الملثمين وهدم أسواره وترك المدينة مثل قريه وظهر ما انذر به المهدى بن تومرت فانه قال انها تخرب أسوارها وتقطع أشجارها وقد تقدم ذكر ذلك فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة واستقامت افريقية عاد الى مراكش وكان وصوله اليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فارق الرضى أبو الخير اسمعيل القزوينى الفقيه الشافعى بغداد وكان مدرس النظامية بها وعاد الى قزوين ودرس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك الصاحب ابن الدهل وكان من العلماء الصالحين وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين اهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل ثم أصلح النقيب الطاهر بينهم وفيها توفى الفقيه مهذب الدين عبد الله ابن أسعد الموصلى وكان عالما بمذهب الشافعى وله نظم ونثر أجاد فيه وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بحمص

(ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة)

(ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز الى مصر واخراج الافضل من مصر الى دمشق واقطاعه اياها)

فى هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الافضل على من مصر الى دمشق واقطعها له واخذ حلب

يركب جريره * ولم ينقل سريره * ولم يبذل فى الطاعة والاخلاص سيره * فحذره الى هواه بين ترفيه اقتضته طاعته * واحتياط أوجبه خلاف الابن وممانعته * وكتب بعضه الى السلطان فورد فى الجواب ما أمنه رهق المؤاخذه * وبعث المعاقبة * وأما ابنه الشاه فتحصن بالقلعة التى اواها أيام السيجورية وهى التى سبق وصفها فى عزة الجوانب * ومناعة المناكب * وصعوبة المصاعد * والسمو على متون الغيوم الرواكد * واستصعب اليها خواص غلمانه وخزانته * وسائر حاشيته وبطانته * وقصده الحاجب أبو سعيد التونتاش وأبو الحرث ارسلان الجاذب فى الجم الغفير من أعيان القواد * وأبطال الافراد * وتفاعما أركان الحصار قذفا بالمجانيق المنصوبة * والعرادات الموضوعة * ومناوشة الحرب من جهات كادت حشاشات النفوس

من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان الى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقى الدين منها وسبب ذلك انه كان قد استناب تقى الدين بمصر كما ذكرناه وجعل معه ولده الاكبر الافضل على فارسل تقى الدين يشكو من الافضل ويذكر انه قد عجز عن جباية الخراج معه لانه كان حليما كريما اذا اراد تقى الدين معاقبة احد منعه فاحضر ولده الافضل وقال لتقى الدين لا تحتج فى الخراج وغيره بحجة وتغير عليه بذلك وظن انه يريد اخراج ولده الافضل لينفرد بمصر حتى يملكها اذا مات صلاح الدين فلما قوى هذا الخاطر عنده احضر اخاه العادل من حلب وسيره الى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقى الدين الى الشام فامتنع من الحضور وجمع الاجناد والعساكر ليسير الى المغرب الى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وقد كتب اليه يرغبه فى تلك البلاد فتجهز للسفر اليه واستصحب معه أنجاد العسكر وأكثرهم فلما سمع ذلك صلاح الدين ساءه وعلم انه ان ارسل اليه يمنعه لم يجبه فارسل اليه يقول له اريد ان تحضر عندى لاودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد فى اقطاعه فصار اقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفرطاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها وكان تقى الدين قد سير فى مقدمته مملوكه بوزابة فاتصل بقراقوش وكان منهم ماذكرناه سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد بلغنى من خبير باحوال صلاح الدين انه انما حمله على أخذ حلب من العادل واعادة تقى الدين الى الشام ارصد صلاح الدين لما مرض بحران على ماذكرناه أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقى الدين حركات من يريد أن يستبد بالملك فلما عوفى صلاح الدين بلغه ذلك فارسل الفقيه عيسى الهكارى وكان كبير القدر عنده مطاعا فى الجند الى مصر وأمره باخراج تقى الدين والمقام بمصر فسار مجدا فلم يشعر تقى الدين الا وقد دخل الفقيه عيسى الى داره بالقاهرة وأرسل اليه يامره بالخروج منها فطلب ان يمهل الى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر انه يريد الدخول الى المغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر ارسل اليه يطلبه فسار الى الشام فاحسن اليه ولم يظهر له شيأ مما كان لانه كان حليما كريما صبورا رحمه الله وأما أخذ حلب من العادل فان السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك وكان صلاح الدين يعتمد عليه وكان عاقلا ذا مكر ودهاء فاتفق ان الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنه وقدم غيره عليه فتأثر بذلك فلما مرض صلاح الدين وعوفى سار الى الشام فسايره يوما سليمان بن جندر فجرى حديث مرضه فقال له سليمان بأى رأى كنت تظن أنك تمضى الى الصيد فلا يخالفونك باقله ما تستمى يكون الطائر أهدى منك الى المصلحة قال وكيف ذلك وهو يضحك قال اذا أراد الطائر أن يعمل عشا لفراخه قصد أعالى الشجر ليحمى فراخه وأنت سلمت الحصون الى أهلك وجعلت أولادك على الارض هذه حلب بيد أخيك وحماة بيد تقى الدين وحمص بيد ابن شيركوه وابنك العزيز مع تقى الدين بمصر يخرجه أى وقت أراد وهذا ابنك الآخر مع اخيك فى خيمه يفعل به ما أراد فقال له صدقت واكتم هذا الامر ثم أخذ حلب من اخيه وأخرج تقى الدين من مصر ثم أعطى اخاه العادل حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لاولاده فلم ينفعه ما فعل لما اراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ماذكره

من هول المقام * أن تذوق
كأس الحمام * قبل ذوقها
بوقع السيوف والسهام
* وواصلا صبوح تلك
الحرب بالغبوق حتى هدما
أحد أسوار الحصار
فوضعاه بالحضيض من
وقع الجلاميد وصدم المجانيق
وتلقاها أهل العسكر
منحنين على سائر الاسوار
كالصم واقلة فى شم
الهضاب * أو الارانب هاربة
من غضف الكلاب *
واشتبكت الحرب على تلك
الحال ضربا بالسيوف
القواضب * وأخذا بالقسى
والذوائب * حتى سالت
المذانب من دفع النحور *
واحمرت المتالع من علق
الصدور * ورأى الشاه عند
ذلك من هول المطلع ما لم يكن
ثم كان * فدعا الامان الامان *
هيهات ان غضاب النفوس
اذا صادفت نجح المرام *
ووجه التشفى بالانتقام *
لموفورة الآذان أو تفعل
أفعالها * وتنال من درك

(ذكر وفاة البهلوان وملك اخيه قزل)

فى هذه السنة فى أولها توفى البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلد الجبل والرى واصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ذا سياسة حسنة للملك وكانت تلك البلاد فى أيامه آمنة والرعايا مطمئنة فلما مات جرى باصفهان بين الشافعية والحنفية من الحروب والقتل والاحراق والنهب ما يجل عن الوصف وكان قاضى البلد رأس الحنفية وابن الخجندى رأس الشافعية وكان بمدينة الرى ايضا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة وتفرق اهلها وقتل منهم وخربت المدينة وغيرها من البلاد ولما مات البهلوان ملك اخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغرل بن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان والخطبة له فى البلاد بالسلطنة وليس له من الامر شئ وانما البلاد والامراء والاموال بحكم البهلوان فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل ولحق به جماعة من الامراء والجند فاستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها ان شاء الله تعالى

(ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس الى صلاح الدين)

كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلى قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل اليها واقام عندها بطبرية ومات ملك الفرنج بالشام وكان مجذوما واوصى بالملك الى ابن اخت له وكان صغيرا فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدبيره لانه لم يكن للفرنج ذلك الوقت اكبر منه شانا ولا اشجع ولا اجود رأيا منه فطمع فى الملك بسبب هذا الصغير فاتفق ان الصغير توفى فانتقل الملك الى امه فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ثم ان هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كى فتزوجته ونقلت الملك اليه وجعلت التاج على راسه واحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية واعلمتهم انها قد رتبت الملك اليه واشهدتهم عليها بذلك فاطاعوه ودانوا له فعظم ذلك على القمص وسقط فى يديه وطولب بحساب ما جبى من الاموال مدة ولاية الصبى فادعى انه انفقه عليه وزاده ذلك نفورا وجاهر بالمشاقة والمباينة وراسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له فى كل ما يريد وضمن له انه يجعله ملكا مستقلا للفرنج فاطمأن وكان عنده جماعة من فرسان القمص فاطلقهم فحل ذلك عنده اعظم محل واظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك من اعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم على ما نذكره ان شاء الله وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية فشنت الغارات على بلاد الفرنج وخرجت سالمة غانمة فوهن الفرنج بذلك وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم

(ذكر غدر البرنس ارناط)

كان البرنس ارناط صاحب الكرك من اعظم الفرنج واخبثهم واشدهم عداوة للمسلمين واعظمهم ضررا عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد اخرى فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فاجابه الى ذلك وهادنه

الشار منالها * ومازالت تلك دعواه وهذه حالهم حتى أخذوه أسرا * واستنزلوه عنوة وقسرا * واستبيح ذلك الحريم بما حواه من درهم ودينار * ومال واستظهار * وأخذ حاجبه ووزيره * بل نديمه وسميره * بل قليله وكثيره * فوضع عليه الدهق حتى أعنى بما عرفه من ذخائره * وخبره من ودائعه * وحلب عاتمة أوليائه وعماله * والمتصرفين فى امور أمواله * حتى عروا عن لباس اليسار * وعزت أخلافهم دون الاستدرار * وقوطع أبو الحسن المنيعى عن ارتفاعات الفرش على ما علم ارتفاعاته منه قبل للشار فتمكن منها واستخلف هنالك من تقوى يده فى عمله وتحصن الحصار بكونه ثقة يوثق بأمانته ويعث السلطان بعض خواصه لنقل الشار المأسور الى حضرته * على سبيل ارفاق له من جهته * فلما سلم اليه حمله فى وثاقه نحو غزنة وسمعت بعض الثقات انه اتفق للغلام أن يكتب الى أهله بخبره * وما لقيه فى حالتى ورده وصدره * ويبشرهم بمنصرفه * فاستدعى الشار فى عمامه وأمره بتولى ذلك

وتحالفا وتردّدت القوافل من الشام الى مصر ومن مصر الى الشام فلما كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الاموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر اللعين بهم واخذهم عن آخرهم وغنم اموالهم ودوابهم وسلاحهم واودع المسجونين من اسرى منهم فارسل اليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده ان لم يطلق الاسرى والاموال فلم يجب الى ذلك واصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله ان ظفر به فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدّة حوادث)

كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا ان هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان ويحدث باقترانها رياح شديدة فلم يكن لذلك صحة ولم يهب من الرياح شيء البتة حتى ان الغلال الحنطة والشعير تأخر نجازها لعدم الهواء الذي يذري به الفلاحون فاكذب الله احدوثة المنجمين وأخزاهم وفيها توفي عبد الله بن بري بن عبد الجبار بن بري النحوي المصري وكان اماما في النحو رحمه الله تعالى

(ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)

اتفق أول هذه السنة يوم السبت وهو يوم النوروز السلطاني ورابع عشر ادار سنة ألف وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية وكان القمر والشمس في الحمل واتفق أول سنة العرب وأول سنة الفرس التي جددوها أخيرا وأول سنة الروم والشمس والقمر في أول البروج وهذا يبعد وقوع مثله

(ذكر حصر صلاح الدين الكرك)

في هذه السنة كتب صلاح الدين الى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب الى الموصل وديار الجزيرة واربل وغيرها من بلاد الشرق والى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الامكان ثم خرج من دمشق أواخر المحرم في عسكر دا وحلقتها الخاص فسار الى راس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الافضل على ليجتمع اليه من يرد اليه منها وسار هو الى بصرى جريدة وكان سبب مسيره وقصده اليها انه أتته الاخبار ان البرنس ارناط صاحب الكرك يريد ان يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم واظهر انه اذا فرغ من اخذ الحجاج يرجع الى طريق العسكر المصري يصدهم عن الوصول الى صلاح الدين فسار الى بصرى ليمنع البرنس ارناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفا عليه وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن اخت صلاح الدين وغيره فلما سمع ارناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه فوصل الحجاج سالمين فلما وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار الى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا واحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلاده خوفا من العسكر الذي مع ولده الافضل فتمكن من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين

(ذكر الغارة على بلد هكا)

بخطيدة فأنعم تفكرا * ثم أظهر تشكرا * وكتب ما هذا معناه أيتها القحبة * الرحبة * أترينني اغفل عما احدثته بعدي من خيانتي في الفراش وتمزيق ما خلفته عليك من مالي وتحميقه ولقد أنهى الي جميع ما ركبته من فجور * وشربته من خمور * وضيعته من مالي في كل محظور ومنكور * وها أنا عائد اليك وايم الله لأضعن عليك الدهق وعلى يديك ولادقن يديك على رجليك ولاجعلنك عظة لربات الخدور * في الدور * يا كذا يا كذا واستأنف الشتم حتى علم انه قد اكتفى ثم طوى الكتاب ودفعه الى الغلام فطير به بعض ثقاته فقامت القيامة على اهله وخفن عدوا سمى بهن * وحرف من صورتهن * وفكرن في امرهن * فوجدن اصوب الآراء تفريغ الدار * وتقديم الاستتار * وفعلن ذلك دا ثبات على القلق * ثابتات على الجوى والارق * فلما وصل الغلام الى الدار فاذا هي كالقاع القرق لا يلم بها نافخ ضرمه * ولا معلق وذمة * فبقي حيران

أرسل صلاح الدين الى ولده الافضل يامره ان يرسل قطعة صالحة من الجيش الى بلد عكا ينهبونه ويخربونه فسير مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين وهو صاحب حران والرها وأضاف اليه قايماز النجمي ودلدرم الباقوتي وهما من أكابر الامراء وغيرهما فساروا ليلا وصبحوا صفورية أو اخر صفر فخرج اليهم الفرنج في جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود ثم انزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون وفيمن قتل مقدم الاسبتارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين وله الحكايات العظيمة في المسلمين ونهب المسلمون ما جاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين وكان عودهم على طبرية وبها القمص فلم ينكر ذلك فكان فتحا كبيرا فان الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج وسيرت البشائر الى البلاد بذلك

(ذكر عود صلاح الدين الى عسكره ودخوله الى الفرنج)

لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية وقتل من قتل منهم وأسر من أسر منهم عاد عن الكرك الى العسكر الذي مع ولده الملك الافضل وقد تلاحقت سائر الامراء والعساكر واجتمع بهم وسار واجميعا وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثني عشر ألف فارس ممن له الاقطاع والجامكية سوى المتطوعة نعني عسكره قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة وعرف كل منهم موضعه وموقفه وامره بلازمته وسار على تعبية فنزل بالاخوانة بقرب طبرية وكان القمص قد انتمى الى صلاح الدين كما ذكرنا وكتبه متصلة اليه بعده النصرة ويمنيه المعاضدة وما يعدهم الشيطان الا غرورا فلما رأى الفرنج العساكر الاسلامية وتصميم العزم على قصد بلادهم ارسلوا الى القمص البطرك والقسوس والرهبان وكثيرا من الفرسان فاذكروا عليه انتماءه الى صلاح الدين وقالوا له لاشك أسلمت والام تصبر على فعل المسلمين امس بالفرنج يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وأنت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهددوه البطرك انه يحرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته الى غير ذلك من التهديد فلما رأى القمص شدة الامر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والموازرة على حفظ بلادهم فاجابهم الى المصالحة والانضمام اليهم والاجتماع بهم وساروا معهم الى ملك الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ولم تغن عنهم من الله شيأ وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا الى صفورية وهم يقدمون رجلا ويؤخرون اخرى قد ملئت قلوبهم رعبا

(ذكر فتح صلاح الدين طبرية)

لما اجتمع الفرنج وساروا الى صفورية جمع صلاح الدين امراءه واستشارهم فاشاروا كثرهم عليه بترك اللقاء وان يضعف الفرنج بشن الغارات وخراب الولايات مرة بعد مرة فقال له بعض امرائه الرأي عندي اننا نجوس بلادهم ونهب ونخرب ونحرق ونسبي فان وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا قصدناه فان الناس بالمشرق يلعوننا ويقولون ترك قتال الكفار واقبل يريد قتال المسلمين والرأي ان نفعل فعلا نعذر فيه وننكف الالسنة عنا فقال صلاح الدين الرأي عندي ان نلقى بجميع المسلمين جمع الكفار فان الامور لا تجري بحكم الانسان

*وسأل من اهل الجيران * فاخبروه بصورة الكتاب * وما خيف من الفضيحة بالعقاب * فدعا واويلاه * ولعن الكاتب ومن والاه * والكتاب ومن أملاه * واحتال في رد العيال بضمان اكده بحسان جدده * وبلغ الخبر السلطان فضحك لاحتيال الشار عليه وقال كذا حق مثله ممن يستخدم الشار كاتبا * ووضع حرمته بالامس جانبا * ولما حل هو الى الباب تقدم السلطان بتجريده للسياط تأديبا له على ما أغفله من حق النعمة * وهتكه من ستر الحشمة * فجرد لها واخذته عذبات العذاب فاكثر الضراعة والاستكانه * وشكا الى السلطان الذل والمهانه * فلما استوفى التأديب حقه دون أن يبلغ التكبير منتهاه * والعقاب أمده ومداه * أمر بانزاله واعتقاله * في موضع يصلح لامثاله * وأمر

ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع الا بعد الجد بالجهاد ثم رحل من الاخوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس السبع بقين من ربيع الآخر فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم يرمنهم أحدا ولا فارقوا خيامهم فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنه الليل جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ونزل جريدة الى طبرية وقاتلها ونقب بعض ابراجها وأخذ المدينة عنوة في ليلة وبقي من بها الى القلعة التي لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها ومعها أولادها فنهب المدينة واحرقها فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية وملكه المدينة وأخذه مافيها واحراقها واحراق ماتخلف مما لا يحمل اجتمعوا للمشورة فاشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص ان طبرية لي ولزوجتي وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقي القلعة وفيها زوجتي وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة واذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فتى فارقها وعاد عنها اخذناها وان اقام بها لا يقدر على المقام بها الا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم واهليهم فيضطر الى تركها ونفتك من اسرنا فقال له برنس ارناط صاحب الكرك قد اطلت في التخويف من المسلمين ولا شك انك تريدهم وتميل اليهم والا ما كنت تقول هذا واما قولك انهم كثيرون فان الكثرة لا يضرها كثرة الحطب فقال انا واحد منكم ان تقدمتم تقدمت وان تأخرتم تأخرت وستروا ما يكون فقوى عزمهم على التقدم الى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه وقربوا من عساكر الاسلام فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريبا منه وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ما هنالك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم الى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم واما المسلمون فانهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضا وقد وجدوا ريح النصر والظفر وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم عما ركبوا من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم فاكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب

(ذكر انهزام الفرنج بحطين)

اصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر فركبوا وتقدموا الى الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض الا ان الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا هذا القتال بينهم والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما رأى صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجوههم وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويامرهم بما يصلحهم

بمواساته * والتوسيع عليه في أقواته * ومداواة جراحاته * من حيث لا يشعر باذنه فيه * وفيما أباحه من الترفيه * كرما سري في تضاعيف مزاجه ولا الخمر في عروق البشرة والماء في أصول الشجرة * واتمس اسعافه بغلام كان محظيا عنده فرد عليه * وأعيد بعض ما يصلحه اليه * فاما أبوه المقيم بهراة فأذن له في ورود الباب * ولوحظ بعين الايجاب * وابتاع السلطان منهما خاص ضياعهما بالفرش حلالها عن عقدة الشبهة واستضافة اياها الى جملة ضياعه الملكية وأمر لهما باثمان ما باعا نقدا صيانة لهما من مس الفاقة * وذل الحاجة * وعرف الشيخ الجليل شمس الكفاة على الثار أبي نصر بضاعة الاكرام والرعاية حق أداه الداعي * وقام به الناعي * وذلك في سنة ست وأربعمائة

(ذكر وقعة ناردين)

قد كان السلطان عين الدولة *

وأمين الملة * لما استصفى نواحي الهند الى حيث لم تبلغه في الاسلام رايه * ولم تنزل بها قط سورة أو آيه * فرحض عنها ادناس الشرك وقشع دونها اغباش الكفر وبنى بها مساجد يقوم فيها دعاة الله بالاذان * الذي هو شعار الايمان * رأى أن يطوي تلك الديار الى واسطة الهند منتقما لله ممن يجحد توحيده * ويضع لعبادة الانداد من دونه تعالى خذه ووريده * ومحكما فيه سيوفا طبعت على غرار الاسلام وسقيت بماء الايمان وصنت في قراب دين الله * واشتيت بأيدي الاخيار والابرار من اولياء الله * فندب الرجال وفرق الاموال * واخلص اليقين * واستنصر الواحد المعين * ونهض في الطم والرم * والليل المدلهم * وذلك في سنة اربع واربعمائة وسار في اخريات فصل الخريف ثقة بطيب الهواء من جانب الجنوب فاتفق عند اقتحامه تلك الديار ان سقطت ثلوج

وينهاهم عما يضرهم والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه فحمل مماليكه الصميان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه فحين قتل حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيرا فلما رأى القمص شدة الامر علم انهم لا طاقة لهم بالمسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم من المسلمين في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم انه لا سبيل الى الوقوف في وجوههم فامر أصحابه ان يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الارض نارا وكان الحشيش كثيرا فاحترق وكانت الريح فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال فلما انهزم القمص سقط في ايديهم وكادوا يستسلمون ثم علموا انهم لا ينجيهم من الموت الا الاقدام عليه فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم الا ان الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون الا وقد قتل منهم فوهنوا لذلك وهنا عظيما فاحاط بهم المسلمون احاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بقي من الفرنج الى تل بناحية حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا انفسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لاغير وأخذ المسلمون صليبهم الاعظم الذي يسمونه صليب الصليوت ويذكرون ان فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان اخذه عندهم من اعظم المصائب عليهم وايقنوا بعده بالقتل والهلاك هذا والقتل والاسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم فبقي الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين فحكى لي عز الملك الافضل ولد صلاح الدين قال كنت الى جانب أبي في ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي قال فنظرت اليه وقد علته كآبة واربد لونه وامسك بلحيته وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان قال فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا الى التل فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي هزمناهم فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الاولى الحقوا المسلمين بوالدي وفعل مثل ما فعل اولا وعطف المسلمون عليهم فالحقوهم بالتل فصحت انا ايضا هزمناهم فالتفت والدي الي وقال اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة قال فهو يتول لي واذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى فبكى من فرحه وكان سبب سقوطها ان الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه فلم يجدوا الى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الارض فصعد المسلمون اليهم فالقوا خيمة الملك واسروهم عن بكرة ابيهم وفيهم الملك واخوه والبرنس ارناط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج اشد منه عداوة للمسلمين واسروا ايضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية وكان من اعظم الفرنج شانا واسروا ايضا جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية وكثر القتل والاسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن انهم اسروا واحدا ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا احدا وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل

وهو سنة احد وتسعين واربعمائة الى الآن بمثل هذه الوقعة فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين فى خيمته واحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك واجلس الملك الى جانبه وقد اهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب واعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب فقال صلاح الدين ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذنى فينال امانى ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعدد عليه عوراته وقام اليه بنفسه فضرب رقبته وقال كنت نذرت دفعتين أن اقتله ان ظفرت به احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة والثانية لما أخذ الففل غدرا فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن جاشه وأمنه وأما الفمص صاحب طرابلس فانه لما نجا من المعركة كما ذكرناه وصل الى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث الا أياما قلائل حتى مات غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة

(ذكر عود صلاح الدين الى طبرية وملك قلعتها مع المدينة)

لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقى يومه وأصبح يوم الاحد عاد الى طبرية ونازلها فارسلت صاحبتها تطلب الامان لها ولاولادها وأصحابها وما لها فاجابها الى ذلك فخرجت بالجميع فوفى لها فسارت آمنة ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الاسرى فارسلوا الى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية ان يجمعوا ليقتلهم ثم علم ان من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه فبذل فى كل أسير من هذين الصنفين خمسين دينارا مصرية فاحضر عنده فى الحال مائتا أسير منهم فامر بهم فضربت أعناقهم وانما خص هؤلاء بالقتل لانهم أشد شوكة من جميع الفرنج فاراح الناس من شرهم وكتب الى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ففعل ذلك واقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة فرأيت الارض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق هذا سوى ما جحفته السيول وأخذته السباع فى تلك الاكام والوهاد

(ذكر فتح مدينة عكا)

لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل الى عكا يوم الاربعاء وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فعجب هو والناس من ذلك لانهم علموا ان عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير وانهم لم يسلم منهم الا القليل الا انه نزل يومه وركب يوم الخميس وقد صمم على الزحف الى البلد وقتاله فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل اذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الامان فأجابهم الى ذلك وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا عنها مفترقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون اليها يوم الجمعة مستهل جمادى الاولى وصلوا بها الجمعة فى جامع كان للمسلمين قديما ثم جعله الفرنج بيعة ثم جعله صلاح الدين جامعا وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد ان ملكه الفرنج وسلم البلد الى ولده الافضل وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من اقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى وغنم المسلمون مالا يعلم مبلغه الا الله وكان من كثرته يعجز الاحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندقى والشكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الامتعة كثيرا فاخرا كانت

لم يعهد قبلها مثلها فسدت
مخارق تلك الجبال * وسوت
بين الاباطح والتلال * وكلح
وجه الهواء كلوحها اثرى
الحوافر والاخفاف * فضلا
عن الحاسر والاطراف *
وضلت مهايع الطرق فلم
تعرف المياسر من المياسر *
ولا المقادم من المآخر *
واضطرت الحال الى
الانعطاف * الى ان يأذن
الله ثانيا فى الانصراف *
ولكل شئ حد محدود *
وأمد ممدود * واقبل
السلطان على استئناف
العدة والعتاد * واستكمال
الميرة والازواد * واستدعاء
اعيان الغزاة من اطراف
البلاد * حتى اذا تمت العدة
والعديد * وباهى العقد
باخواته الفريد * وتضام
الناس كقزع الخريف من
كل وجه منثورا * وعن كل
أوب محشورا * واقبل الربيع بطيب المقيل *

مقصد التجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله ففرق صلاح الدين وابنه الافضل ذلك جميعه على أصحابهما وأكثر ذلك فعله الافضل لانه كان مقيما بالبلد وكانت شيمته في الكرم معروفة وأقام صلاح الدين بعكا مدة أيام لاصلاح حالها وتقرير قواعدها

(ذكر فتح مجدل يابا)

لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل الى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير الى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقي عنده من العسكر ومحاصرة ما يليه منها فسارع الى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم ما فيه وورد كتابه بذلك الى صلاح الدين وكانت بشارة كبيرة

(ذكر فتح عدة حصون)

في مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره الى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية وعمليا والشقيف والقولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا من ذلك بما سد الفضاء وسير تقي الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر الى نابلس فاتى سبسطية وبها قبر زكريا فاخذه من أيدي النصارى وسلمه الى المسلمين ووصل الى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالامان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على املاكهم وأموالهم

(ذكر فتح يافا)

لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا كما ذكرنا سار الى مدينة يافا وهي على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وكان عندي جارية من أهلها وأنا بحلب ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرا فسكنتها وأعلمتها انه ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت ماله أبكي انما أبكي لما جرى علينا كان لي ستة اخوة كلهم هلكوا جميعهم وزوج واختان لا أعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة والباقي بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت تمشي سيدها الى باب فطرقه سيدها فخرج صاحب البيت فكلمهم ثم أخرج امرأة فرنجية فلما رأتها الاخرى صاحتا واعتنقتا وهما يصرخان ويبكيان وسقطتا الى الارض ثم قمت ناخذ ثمن واذ هما أختان وكان لهما عدة من الاهل ليس لهما علم بأحد منهم

(ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت)

فاما تبنين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين ابن أخيه الى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لا يتم الا بوصول عمه صلاح الدين اليه فارسل اليه يعلمه ذلك ويحثه على الوصول اليه فرحل ثامن جمادى الاولى ونزل عليه حادي عشره فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهي من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الامر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من اسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيرهم الى أهليهم وبقي الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون

الامان

واعتدال برد الغداة والاصيل * استخبار الله تعالى في الرحيل * وسار كالبصر الاخضر تضربه الاعاصير * والامر الحتم تجنبه المقادير * فغدت وحوش الارض مأسوره * وطيور الهواء مقهوره * ولو احست الارض لزلت من ثقل الحديد * والمشي الوئيد * وحث الابطال فوق القب القلايد * وساق امامه ادلاء يهتدون اعماق تلك البلاد ولا الشمس عليها ظالعه * ولا النجوم بينها مسلقمة وراجعه * وحث الركائب تهجرين بين انهار * عميقة الاغوار * بعيدة ما بين الاقطار * هو بواد تضل في ارجائها اسراب اليعافير * وتحار في دهنائها افواج الصعافير * حتى اذا قارب المقصد عجي الخيول كائب * وميزها عصائب * ورتبها كواكب * وسمتها مناسر وعقائب * ونصب اخاه الامير نصير بن ناصر الدين في الميمنة في كماة القواد * وجملة الافراد *

الامان فأمنهم على أنفسهم فسلموها اليه ووفى لهم وسيرهم الى مأمنهم وأما صيدا فان صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها الى صيدا فاجتاز فى طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير قتال وسار عنها الى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها التسع بقين من جمادى الاولى وأما بيروت فهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل اليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا انهم قادرون على حفظه وزحف المسلمون اليهم مرة بعد مرة فبينما الفرنج يقاتلون اذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من اخبرهم ان البلد قد دخله المسلمون من الناحية الاخرى قهرا وغلبة فأرسلوا ينظرون ما الخبر واذا ليس له صحة فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على انفسهم من الاختلاف الواقع ارسلوا يطلبون الامان فأمنهم على انفسهم واموالهم وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الاولى من السنة فكان مدة حصرها ثمانية ايام واما جبيل فان صاحبها كان من جملة الاسرى الذين سيروا الى دمشق مع ملكهم فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل على شرط اطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فأحضره مقيدا عنده تحت الاستظهار والاحتياط وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه واطلق اسرى المسلمين الذين به واطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من اعيان الفرنج واصحاب الرأى والمكر والشر به يضرب المثل بينهم وكان للمسلمين منه عدو أزرق وكان اطلاقه من الاسباب الموهنة للمسلمين على ما يأتى بيانه

(ذكر خروج المركيش الى صور)

لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين الى مدينة صور فأقام بها وهى اعظم بلاد الشام حصانة واشد امتناعا على من رامها فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف ان يقصد صلاح الدين صور وهى فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها وتركها وسار الى مدينة طرابلس فبقيت صور ثاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لاخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لحصانتها فأراد ان يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل اخذها فكان ذلك سبب حفظها وكان امر الله قدرا مقدورا واتفق ان انسانا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش لعنه الله خرج فى البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكا وقد رأى بها ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح وضرب الاجراس وغير ذلك وما رأى ايضا من زى اهل البلد فوقف ولم يدر ما الخبر وكانت الريح قد ركدت فأرسل الملك الافضل اليه بعض اصحابه فى سفينة يسير من هو وما يريد فأتاه القاصد فسأله المركيش عن الاخبار فلما انكره فأخبره بكسرة الفرنج واخذ عكا وغيرها واعلمه ان صور بيد الفرنج وصقلان وغيرها وسكن الاصرله على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح فعرف الرسول يطلب الامان ليدخل البلد بماله

وأرسلان الجاذب فى الميسرة فى البهم الذكور والبزل الفحول وجعل أبا عبد الله محمد بن ابراهيم الطائى على المقدمة فى مساعير العرب أحلاس الظهور * وابناء الصوارم والذكور * وتب فى القلب الحاجب التوتاش وسائر خواصه وعلمان داره رجال اذا اصطفوا فالجبال الشواهق * أو زحفوا فالسيول الدوافق * ونذر بهم عدو الله ملك الهند ففزع * من فاجئ الفزع الى من حوله من تكاكره وأعيان جيوشه وناصرته ولجأ الى شعب جبل لجج المدخل * خشن المتوغل صعب المرتقى والمتوقل مسعصعا بالاحجاز * عن البراز * وبالاستراس * من وقع الباس * وقد مغفر الجبلين بفيلقه يراها الراؤن هضابا ما بته * وحبالا ما بته

من متاع ومال فأجيب الى ذلك فردده مرارا كل مرة يطلب شيأ يطلبه فى المرة الاولى وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به فبينما هو فى مراجعاته اذ هبت الريح فسار نحو صور وسير الملك الافضل الشوانى فى طلبه فلم يدركوه فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرنا اعطى اهلها الامان فساروا كلهم الى صور وكثر الجمع بها الا انهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم وليسوا أهل حرب وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه فأتاهم المركيش وهم على ذلك العزم فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة وأعمالها له دون غيره فأجابوه الى ذلك فأخذ ايمانهم عليه وأقام عندهم ودبر أحوالهم وكان من شياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع فى تحصينها فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد فى حصانتها واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها

(ذكر فتح عسقلان وما يجاورها)

لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لاسباب منها انهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار ان تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم اليها ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم الى غير ذلك من الاغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع باخيه العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية اليه من دمشق وقال لهما ان سلمتما البلاد الى فلكما الامان فأرسلا الى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما اقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقابون الى السور فنالوا من باشورته شيأ هذا وملكهم يكرر المراسلات اليهم بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم انه اذا أطلق من الاسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها وهم لا يجيبون الى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به ولما رأوا انهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا واذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضا ولا انهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين فى تسليم البلد على شروط اقترحوها فأجابهم صلاح الدين اليها وكانوا قد تلوا فى الحصار أميرا كبيرا من المهرانية فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلون منهم بثاره فاحتاطوا فيما اشترطوا لانفسهم فأجيبوا الى ذلك جميعه وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم الى بيت المقدس ووفى لهم بالامان

(ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان)

لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها وبث السرايا فى اطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة واللد وارسوف وقيسارية ومشهد ابراهيم الخليل عليه السلام وبينهن وبيت لحم وبيت جبريل

والناظرون

وبث النفير فى أقطار مملكته يستنهض من يحمل جمرا * فضلا عمن يلقم القوس وترا * أو يحسن بالسيف أثرا * ومد فى طول المطاولة كى يلقى عسكر السلطان بقوة وافيه وعدة متوافيه * أو يلجئ اولياء الله الى الاخلال * من فرط الملال * أو النفور من ضيق الصدور * ولم يعلم ان الله من وراء المؤمنين وان الله موهن كيد الكافرين * ولما علم السلطان من نيته فى ارجاء القتال * تأخير النزال دلف الى عدو الله بقلوب قد صقلها التوحيد * وبشرها الوعد والوعيد وانذرها الوعيد ورماهم بالصليم * من رجالة الديلم * وبالشياطين * من الافغانية المطاعين * رجال كالاجبال * مطوحة بالنفوس منقلة الاعين الشوس أو الليوث اخرجها الجوع

والنظرون وكل ما كان للداوية

(ذكر فتح البيت المقدس)

لما فرغ صلاح الدين من امر عسقلان وما يجاورها من البلاد على ما تقدم وكان قد أرسل الى مصر أخرج الاسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة فاقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه فحين وصل الاسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن عسقلان الى البيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شانا من ملكهم وبه أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحى عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى ان بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظه وحصنوه تلك الايام بما وجدوا اليه سبيلا وصعدوا على سوره بجذهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير فى جماعة من أصحابه غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا ين كافقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه فاهم المسلمين قتله وجمعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا الاهلة من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لانه فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال الا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل الى هذه الناحية فى العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فاصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشد قتال رآه احد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه الى باعث سلطانى بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون الى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين ومن استشهد من المسلمين الامير عز الدين عيسى ابن مالك وهو من اكابر الامراء وكان ابوه صاحب قلعة جعبر وكان يصطلى القتال بنفسه كل يوم فقتل الى رحمة الله تعالى وكان محبوبا الى الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك واخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فازالوا الفرنج عن مواقفهم فادخلوهم بلدهم ووصل المسلمون الى الخندق فجاوزوه والتصقوا الى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الاسوار ليتمكن المسلمون من النقب فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما راى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى المتدارك وتمكن النقابين من النقب وانهم قد اشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الامان وتسليم البيت المقدس الى

وأعيادها الى اشبالها الرجوع * ينفذون فى الاسداد نفوذ المثاقب فى العيدان * او البيارم فى الحيطان * ويفرعون البواذخ كالوعول وينزلون منها كانحدر السيول * وواصلها عليهم اياما تباعا يجذبهم بصدق البراز * الى البراز * جذب النار للسليط والمغناطيس للحديد وكلما فارقوا تلك المضايق التقطهم الفرسان كما تلتقط الافراس البيادق ولم تزل هذه حالهم حتى انضم الى العين اكثر من والاه * ولبا معظم من دعاه * وعندها احتشد للبروز مستندا الى الجبل من حوله الافيال كالقلل لجد المصاع * واحتد القراع وحمى الوطيس * واستوى المرؤس والرئيس * وصار اللقاء كفاحا فمن آخذ بالتلابيب * ومناقر

صلاح الدين فارسلوا جماعة من كبرائهم واعيانهم فى طلب الامان فلما ذكروا ذلك للسلطان
امتنع من اجابتهم وقال لا افعل بكم الا كما فعلتم باهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين
وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها فلما رجع الرسل خائبين محرومين ارسل بالبيان
ابن بيرزان وطلب الامان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الامر وتحريره فاجيب الى
ذلك وحضر عنده ورغب فى الامان وسأل فيه فلم يجبه الى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه
واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال له ايها السلطان اعلم انا فى هذه المدينة فى خلق كثير
لا يعلمهم الا الله تعالى وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ظنا منهم انك تجيبهم اليه كما أجبت
غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة فاذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا
ونساءنا ونحرق اموالنا وأمتعتنا ولا نتركم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون
وتأسرون رجلا ولا امرأة واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الاقصى وغيرهما من
المواضع ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا
الا قتلناه ثم خرجنا اليكم كلنا فما قتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل
حتى يقتل أمثاله ونموت اعزاء أو نظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فاجمعوا على اجابتهم
الى الامان وان لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الامر فيه عن اى شئ تنجلى
ونحسب انهم اسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فاجاب صلاح الدين
حينئذ الى بذل الامان للفرنج فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير
ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك الى أربعين
يوما فقد نجا ومن انقضت الاربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فبذل بالبيان
ابن بيرزان عن الفقراء ثلاثين الف دينار فاجيب الى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع
والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية على اسواره ورتب صلاح
الدين على أبواب البلد فى كل باب امينا من الامراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا
الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الامناء الاموال وتفرقت أيدى سبا ولو اذيت فيه الامانة
لملأ الخزائن وعم الناس فانه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من
يتبعهم من النساء والولدان ولا يحجب السامع عن ذلك فان البلد كبير واجتمع اليه من تلك
النواحى من عسقلان وغيرها والدارم والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق
والكنائس وكان الانسان لا يقدر ان يمشى ومن الدليل على كثرة الخلق ان أكثرهم وزن
ما استقر من القطيعة واطلق بالبيان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل ووزن عنهم ثلاثين ألف
دينار وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطى وأخذ أسيرا ستة عشر ألف آدمى ما بين رجل
وامرأة وصبى هذا بالضبط واليقين ثم ان جماعة من الامراء ادعى كل واحد منهم ان جماعة من
رعية اقطاعه مقيمون بالبيت المقدس فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم وكان جماعة من الامراء
يلبسون الفرنج زى الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروها واستوهب
جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهبهم لهم فاخذوا قطيعتهم وبالجملة فلم يصل الى
خزانته الا القليل وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من

الخشب

كالمعاقيب * ومضارب ما
بين الرؤس الى العراقيب
فكلما اشتليت الفيلة
للتهويل والتفخيم * والحطم
بالاظلاف والخراطيم
مطرتها سحائب الزانات
متلوية كالاراقم * منسابة
الى حدق العيون او ثغر
الخلاقم * ورأى الكافر
موقع أبى عبد الله محمد بن
ابراهيم الطائى من الغناء
وضراوته باسالة الدماء
فانتضاه بأخشن من فى جملته
شوكة * وأعظمهم شكة
حتى أتخنوه ضربا على الهام
وحطما من خلف وقدام
وهو كالطرون ثابت لا يميل
شرف مقامه * ولا يكل دون
الضرب بحسامه * متسما
بالروح فى نصرة الدين
وطاعة رب العالمين * ورأى
السلطان انتضاء الكفرة
عليه فأمته بكوكبة من
خواصه * لاستخلاصه
فاستنقذوه الى السلطان
ممنوقا بالسيوف * منقوطا

الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ولها من الاموال والجواهر النفيسة شئ عظيم فطلبت
الامان لنفسها ومن معها فامنها وسيرها وكذلك أيضا أطلق ملكة القدس التى كان زوجها
الذى أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسيبها و نيابة عنها كان يقوم بالملك واطلق مالها
وحشمها واستأذنته فى المصير الى زوجها وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس فاذن لها فأتته
وأقامت عنده وأتته أيضا امرأة البرنس ارناط صاحب الكرك وهو الذى قتله صلاح الدين
بيده يوم المصاف بحطين فشفعت فى ولدها ما أسور فقال لها صلاح الدين ان سلمت الكرك
اطلقته فسارت الى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها
ومن تبعها وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والاقصى
وقمامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له
ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين فقال لا اغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع
ومعهم من يحميهم الى مدينة صور وكان على راس قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل
المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح
الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج أما المسلمون فكبروا فرحا وأما
الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت الارض أن تميد بهم لعظمها وشدتها
فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين باعادة الابنية الى حالها القديم فان الداوية بنوا
غربى الاقصى ابنية ليسكنوها وعملوا فيها ما يحتاجون اليه من هرى ومستراح وغير ذلك
وادخلوا بعض الاقصى فى ابنيتهم فاعيد الى الاول وامر بتطهير المسجد والصخرة من الاقذار
والانجاس ففعل ذلك اجمع ولما كان الجمعة الاخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة
ومعهم صلاح الدين وصلى فى قبة الصخرة وكان الخطيب والامام محيى الدين بن الزكى قاضى
دمشق ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا واماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له
ان نور الدين محمودا كان قد عمل بحلب منبرا أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه واتقانه وقال هذا
قد عملناه لينصب بالبيت المقدس فعمله النجارون فى عدة سنين لم يعمل فى الاسلام مثله فامر
باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة
وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ولما فرغ صلاح الدين من صلاة
الجمعة تقدم بعمارة المسجد الاقصى واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه
فاحضروا من الرخام الذى لا يوجد ومن الفص المذهب القسطنطينى وغير ذلك مما يحتاجون
اليه فدا ذخر على طول السنين فشرعوا فى عمارته ومحوا ما كان فى تلك الابنية من الصور
وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فامر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالفرش
ان القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج الواردين اليهم من داخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه
بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم اذا دخل الى بلاده بالسير منها جعل له الكنيسة ويجعل
فى مذبحها فخاف بعض ملوكهم ان تفنى فامر بها ففرش فوقها حفظا لها فلما كشفت نقل
اليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وادر عليهم الوظائف
الكثيرة فعاد الاسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر

بالاسنة كالحروف * فأمر
له بفيل يستريح الى سعيه
عن ألم الجراح بجوارحه
فصار الفيل ملكا له يتميز به
من أعيان أهل عسكره ولم
تزل الحرب على حالها حتى
أهب الله النصر لأوليائه
وادار دائرة السوء على
أعدائه * فأخذتهم سيوف
الحق تحسمهم بين كل مصاد
ومنعطف واد * ومدخل
ومغار * ومتعسف ومنار
وملكت عليهم الفيلة التى
كانوا أعدوها حصونا واقيه
فصارت عليهم عباقيه
وأفاء الله على السلطان
وأوليائه غنائم رحضت
الصدور عن درين الحسد
لاشتراك الكافة فى الغنى
المقصود * واستوائهم
فى كفاية الموجود * وفتح
الله فاردين فتطاطرز به شعائر
الاسلام اذلم تبلغه راية
الحق من لدن عهد النبى
صلى الله عليه وسلم الى زمن

ابن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا وأما الفرنج من أهله فانهم أقاموا وشرعوا فى بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم ومالا يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج فانهم طلبوا من صلاح الدين ان يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم الى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج وترك الفرنج أيضا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الاسرة والصناديق والبقيات وغير ذلك وتركوا أيضا من الرخام الذى لا يوجد مثله من الاساطين والالواح والفص وغيره شيأ كثيرا ثم سار وا

(ذكر رحيل صلاح الدين الى صور ومحاصرتها)

لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره الى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية وهى فى غاية ما يكون من الحسن فلما فرغ من أمر البلد سار الى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين البلد ووصل صلاح الدين الى عكا وأقام بها أياما فلما سمع المركيش بوصوله اليها جد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر الى البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول اليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل الى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه بحيث ان يتصل القتال على أهل البلد على ان الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من اهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر الى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها فان المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد والقتال انما هو فى الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الافضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقى الدين وكذلك سائر الامراء وكان للفرنج شوانى وحراقات يركبون فيها فى البحر ويقفون من جانبى الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبيهم بالجروخ ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم عليهم لان أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبيهم فكانت سهامهم تنفذ من احد الجانبين الى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو الى البلد فارسل صلاح الدين الى الشوانى التى جاءته من مصر وهى عشر قطع وكانت بعكا فاحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها وكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج الى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه برا وبحرا وضايقوا حتى كادوا يظفرون فجاءت الاقدار بما لم يكن فى الحساب وذلك ان خمس قطع من شوانى المسلمين باتت فى بعض تلك الليالى مقابل ميناصور ايمنعوا من الخروج منه والدخول اليه فبانوا ليلتهم يحرسون وكان مقدمهم

السلطان يمين الدولة وأمين الملة عز اكتب الله له على يده وصنعا أتاح له التوفيق والتيسير من عنده * ووجد فى بيت بدمشق حجر منقور دلت كتابته على أنه مبنى منذ أربعين ألف سنة فقضى السلطان من جهل القوم عجبا اذ كان اهل الشريعة الغراء * والحق المنزل من السماء * على أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة وانا منها فى الالف الاخير وكل ما تساندت به الاخبار من أمارات الساعة موجود * وبأبصار العيون وبصائر القلوب مشهوده * واستفتى فيه أعيان العلماء فكل أجمع على انكار ذلك المنقور وعلى تزييف مثله من شهادات الصخور * وعاد السلطان وراءه بتلك الغنائم العظيمة فكاد عدد الارقاء من العبيد والاماء * يزيد على عدد الدهماء * ورخصت

عبد السلام المغربي الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا الا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فاوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وادخلوهم مينا صور والمسلمون فى البر ينظرون اليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان الى الشوانى الباقية بالمسير الى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا انفوسهم فى شوانيهم الى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد الى مقاتلة صور فى البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال وفى بعض الايام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام الى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام

(ذكر الرحيل عن صور الى عكا وتفريق العساكر)

لما رأى صلاح الدين ان أمر صور يطول رحل عنها وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع فى الايام القريبة كما ذكرناه بغير تعب ولا مشقة فلما رأى هو واصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لاحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فانه هو جهز اليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والاموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الامان ويرسلهم الى صور فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستقدمونهم فاجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤن اليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها وسنذكر ان شاء الله ما صار اليه الامر بعد ذلك ليعلم ان الملك لا ينبغى ان يترك الحزم وان ساعدته الاقدار فلا ان يعجز حازما خير له من ان يظفر مفرطا مضيعا للحزم واعذر له عند الناس ولما أراد الرحيل استشار أمراءه فاختلفوا فجماعة يقولون الرأى ان يرحل فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفنيت النفقات وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين فنريح ونستريح فى هذا البرد فاذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها وكان هذا قول الاغنياء منهم وكأنهم خافوا ان السلطان يقترض منهم ما ينفقه فى العسكر اذا أقام فخلوا الخزائن وبيوت الاموال من الدرهم والدينار فانه كان يخرج كل ما حمل اليه منها وقالت الطائفة الاخرى الرأى ان نصابر البلد ونضايقه فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب واخذنا باقى البلاد صقوا عفوا فبقى صلاح الدين متردد ابين الرحيل والاقامة فلما رأى من يرى الرحيل اقامته أخل بمادة اليه من المحاربة والرمى بالمنجنيق واعتذروا بجراح رجالهم وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والاقوات لهم الى ذلك من الاعذار فصاروا مقيمين بغير قتال فاضطر الى الرحيل فرحل عنها آخر شوال وكان أول كانون الاول الى عكا فأذن العساكر جميعها بالعود الى اوطانهم والاستراحة فى الشتاء والعود فى الربيع فعادت عساكر الشرق

قيم المماليك فصار أصحاب المهن الخاملة فضلا عمن فوقهم من الرقه * يعتقدون عدته من تلك الرقه * وذلك فضل الله الذى أعز به الدين وأذل الالحاد والملحدين والحمد لله رب العالمين

(ذكر وقعة تانيسر)

قد كان أنهى الى السلطان يمين الدوله وأمين الملة أن بناحية تانيسر قبيلة من جنس قبيلة الصيلمان الموصوفة فى الحروب وان صاحبها غال بها فى الكفر والجحود غير آل جهدا فى الطغوى والعنود * وانه محتاج الى ذوقة من كأسه * وحرقة من جمرات بأسه * ليعلم أن عز الاسلام عام * وان له من سطوة الله سهما كما لسائر أقبال الهند سهام * فعزم السلطان على غزوة اليه يرفع بها راية الاسلام * وينسخ معها ولاية الاصنام * ويدع الكفر عليها محجوب الغارب

والموصل وغيرها وعساكر الشام وعساكر مصر وبقي حلقته الخاص مقيما بمكانه فنزل بقلعتها وردّ أمر البلد الى عز الدين جورديك وهو من أكابر المماليك النورية جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة

(ذكر فتح هونين)

لما فتح صلاح الدين تبنين امتنع من بهونين من تسليمها وهي من احصن القلاع وامنع فلم ير التعريج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سير اليها جماعة من العسكر والامراء فحصروها ومنعوا من حمل الميرة اليها واشتغل بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الامان فأمنهم فسلموا ونزلوا منها فوفى لهم بامانهم

(ذكر حصر صفد وكوكب والكرك)

لما سار صلاح الدين الى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الاردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين لئلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه وسير طائفة اخرى من العسكر ايضا الى قلعة صفد فحصروها وهي مطلة على مدينة طبرية وكان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ اليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شرّ من فيهما واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميرا يقال له سيف الدين وهو أخو جاولي الاسدي وكان شهما شجاعا يرجع الى دين وعبادة فأقام عليه الى آخر شوال وكان أصحابه يحرسون نوبا مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة وكان قد صلى وورده من الليل الى السحر وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون الا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا الى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنهم ان يحفظوا قلعتهم الى ان أخذت أو اخر سنة أربع وثمانين على ما سنذكره ان شاء الله وأتى الخبر الى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه مضافا الى ما ناله من أخذ شوانيه ومن فيها ورحيله عن صور ثم رتب على حصن كوكب الامير قايماز النجمي في جماعة أخرى من الاجناد فحصروها

(ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم)

في هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات وهو أكبر الامراء الصلاحية وقد تقدم من ذكره ما فيه كفاية وسبب قتله انه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب اذنا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس ويجمع في سنته بين الجهاد والحج وزيارة الخليل عليه السلام ومن بالشام من مشاهد الانبياء وبين زيارة رسول الله صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين فأذن له وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس ومكة فجعل ابن المقدم اميرا عليهم فساروا حتى وصلوا الى عرفات سالمين

ووقفوا

والسنام * وسار في أولياء الله الذين قد نشأوا على القراع * نشأ الاطفال على الرضاع * وضربوا بدماء الكفار ضراوة الصقور بغاث الاطيار وقطع الى المذكور * أودية لم يقطعها غير طائر * أو حيوان عاثر وخرق سباسب لم يطأها رجل ماش ولا نعل حافر * وجهدهم في تلك القفار علالات الشفاء * وبلالات الافواه فضلا عن سائر الاقوات حتى صنع الله لهم بأن بدوا منها الى فضاء يفضي الى فاحمة المقصود ودونه نهر صخاب * أرضه ظراب وصفاح كظبي السيوف حداد يلقى بشاطئه شعب جبل قد استند اليه الكافر مستظهرا بفيوله * ومتكثرا بأفنان رجاله وخيوله * فاحتال السلطان لفتال عسكره في مجاوزة النهر الى أعداء الله الكفرة الفجرة حتى عبروه

ووقفوا فى تلك المشاعر وأدوا الواجب والسنة فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات فامر بضرب كوساته التى هى امارة الرحيل فضربها أصحابه فارسل اليه أمير الحاج العراقى وهو مجير الدين طاشتكين ينهاه عن الافاضة من عرفات قبله ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كوساته فارسل اليه يقول انى ليس لى معك تعلق أنت أمير الحاج العراقى وأنا أمير الحاج الشامى وكل منا يفعل ما يراه ويختار وسار ولم يقف ولم يسمع قوله فلما رأى طاشتكين اصراره على ذلك ركب فى أصحابه واجناده وتبعه من غوغاء الحاج العراقى وبطاطيهم وطماعتهم العالم الكثير والجم الغفير وقصدوا حاج الشام مهوين عليهم فلما قربوا منهم خرج الامر من الضبط وعجزوا عن تلافيه فهجم طماعة العراق على حاج الشام وفتكوا فيهم وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسبيت جماعة من نسائهم الا انهن رددن عليهم وجرح ابن المقدم عدة جروح وكان يكف أصحابه عن القتال ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد لكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم فلما تمكن بالجراحات أخذه طاشتكين الى خيمته وانزله عنده ليمرضه ويستدرك البارط فى حقه وسار وا تلك الليلة من عرفات فلما كان الغد مات بمنى ودفن بمقبرة المعلى ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهد وفتح البيت المقدس رحمه الله تعالى

(ذكر قوة السلطان طغرل على قزل)

فى هذه السنة قوى أمر السلطان طغرل وكثر جمعه وملك كثيرا من البلاد فارسل قزل الى الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه وأرسل طغرل رسولا الى بغداد يقول أريد أن تهدم الديوان بعمارة دار السلطنة لاسكنها اذا وصلت فاكرم رسول قزل ووعده بالنجدة ورد رسول السلطان طغرل بغير جواب وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة فهدمت الى الارض وعفى أثرها

(ذكر ملك شرستى من الهند وانهزام المسلمين بعدها)

فى آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغورى ملك غزنة الى بلاد الهند وقصد بلاد اجير وتعرف بولاية السوالك واسم ملكهم كولة وكان شجاعا مهيبا فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة نيرندة وهى حصن منيع عامر وملكوا شرستى وملكوا كوة رام فلما سمع بذلك جمع العساكر فاكثر وسار الى المسلمين فالتقوا وقامت الحرب على ساق وكان مع الهند أربعة عشر فيلا فلما اشتدت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم فقال لشهاب الدين بعض خواصه قد انكسرت الميمنة والميسرة فانج بنفسك لا يهلك المسلمون فأخذ شهاب الدين لرمح وحمل على الهنود فوصل الى الفيلة فطعن فيلا منها فى كتفه وجرح الفيل لا يندمل فلما وصل شهاب الدين الى الفيلة زرقه بعض الهنود بحربة فرقعت الحربة فى ساعده فنفذت الحربة من الجانب الآخر فوقع حينئذ الى الارض فقاتل عليه أصحابه ليخلصوه وحرصت الهنود على أخذه وكان عنده حرب لم يسمع بمثله وأخذه أصحابه فركبوه فرسه وعادوا به منهزمين فلم يتبعهم الهنود فلما أبعدوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغمى على شهاب الدين من كثرة خروج الدم فحمله الرجال على أكفهم فى محفة اليد أربعة وعشرين فرسخا فلما وصل الى لهاور أخذ الامراء الغورية وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا وعلق على كل واحد منهم علبق شعير وقال أنتم دواب ما أنتم أمراء وسار الى

من طريقين * وشغلوهم بالباس من الجانبين * ومهما جذ الكفاح بين الفريقين أمر السلطان بحملة على الكفار فى مخاضات النهر الهائل * والماء الصخب الشائل * تزعجهم عن طرف الساحل * وتقعصهم أشداق تلك الشعاب والمداخل واشتدت الحرب ضربا بالخناجر فى الخناجر وبالقواضب فى المناكب وأولياء الله فى كل حال ظاهرون * والكافرون هم الصاغرون * حتى اذا كاد يهزم شباب النهار رحل المسلمون من جميع الجهات حملة أوجرت بهم لهوات تلك المخارم مضطرين فخفوا الفيلة التى كانوا بها مغترين * وتبعها أولياء الله يردون الاعظم فالاعظم منها الى موقف السلطان فلم يفتهم الا ما جد فى الهرب أو ضاق دون اقتناصه

غزنة وأمر بعضهم فمشى اليها ماشيا فلما وصل الى غزنة أقام بها ليستريح الناس ونذكر ما فعله بملك الهند الذى هزمه سنة ثمان وثمانين ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله وكان متحكما فى الدولة ليس للخليفة معه حكم وكان هو القيم بالبيعة له وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها وكان حسن السيرة عفيفا عن الاموال وكان الذى سعى به انسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس فسعى به الى الخليفة وقبح آثاره فقبض عليه وقتله وفيها فى ربيع الآخر وقع حريق فى الحظائر ببغداد احترقت أحطاب كثيرة وسببه أن فقيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاما يأكله فغفل عن النار والطبيخ فعلقت النار واتصلت فاحترقت جميعها واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره وفيها فى شوال استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين ومشى أرباب الدولة فى ركابه حتى قاضى القضاة وكان ابن يونس من شهوده وكان يمشى ويقول لعن الله طول العمر وفيها فى المحرم توفى عبد المغيث بن زهير الحربى ببغداد وكان من أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير وصنف كتابا فى فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزى وكان بينهما عداوة وفيها توفى قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى وولى القضاء للمقتفى بعد موت الزينبى ثم للمستنجد بالله ثم عزل ثم أعيد الى المستضىء بأمر الله وفيها توفى على بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر وكان من الاولياء أرباب الكرامات وصحبته أنا مدة فلم أر مثله حسن خلق وسمت وكرم وعبادة رحمه الله وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها اسنان وفيها توفى نصر بن فتيان بن مطر أبو الفتح بن المنى الفقيه الحنبلى لم يكن لهم مثله رحمه الله تعالى

م

نجال الطلب * وصب من دماء أولئك الارجاس ما نجس به النهر الحاجز على طهارته * وامتنع من الشرب على غزارته * ولولا أن الليل ستر أثرهم * لاستلم القتل أكثرهم * صنعا لدين بعث به رسوله المصطفى * صلى الله عليه وعلى آله الذين ارتضى * مظهرا له على الدين كله ولو كره المشركون فهو على الازدياد * الى يوم التناد وانصرف السلطان بأولياء الله غانما ومفورا * وظاهرا منصورا * محمودا كاسمه مأجورا * وقد غنم ما يكل عن ذكره أنامل التحرير ويضيق عن اثباته أدراج الاضابير * وتطايرت البشائر فى الآفاق * وخفقت عليها أجنحة الغروب والاشراق * والحمد لله رب العالمين * على عز الاسلام والمسلمين

تم الجزء الحادى عشر من تاريخ الكامل لابن الاثير ويليه الجزء الثانى عشر أوله ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فهرسة الجزء الثانى عشر من تاريخ الكامل

صحيفة

٢ سنة اربع وثمانين وخمسمائة
٢ ذكر حصر صلاح الدين كوكب
٢ ذكر رحيل صلاح الدين الى بلاد الفرنج
٣ ذكر فتح جبلة
٤ ذكر فتح لاذقية
٤ ذكر حال اسطول صقلية
٤ ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون
٥ ذكر فتح حصن بكاس والشغر
٥ ذكر فتح سرمينية
٦ ذكر فتح برزية
٧ ذكر فتح درب ساك
٨ ذكر فتح بغراس
٨ ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية
٩ ذكر فتح الكرك وما يجاوره
٩ ذكر فتح قلعة صفد
٩ ذكر فتح كوكب
١٠ ذكر ظهور رطائفة من الشيعة بمصر
١٠ ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل
١١ ذكر عدة حوادث
١١ (سنة خمس وثمانين وخمسمائة)
١١ ذكر فتح شقيف ارنوم
١٢ ذكر وقعة البزك مع الفرنج
١٢ ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة
١٣ ذكر وقعة ثالثة
١٤ ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها
١٥ ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب
١٦ ذكر الوقعة الكبرى على عكا

صحيفة

١٧ ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا
١٨ ذكر وصول عسكر مصر والاسطول المصرى فى البحر
١٨ ذكر عدة حوادث
١٨ (سنة ست وثمانين وخمسمائة)
١٨ ذكر وقعة الفرنج والبزك وعود صلاح الدين الى منازلة الفرنج
١٩ ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول
٢٠ ذكر وصول ملك الالمان الى الشام وموته
٢٢ ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا
٢٣ ذكر خروج الفرنج من خنادقهم
٢٤ ذكر تسيير البدل الى عكا والتفريط فيه حتى أخذت
٢٤ ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب اربل ومسير أخيه مظفر الدين اليها
٢٥ ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها الى المسلمين
٢٥ ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطانشاه بخراسان
٢٥ ذكر عدة حوادث
٢٥ (سنة سبع وثمانين وخمسمائة)
٢٥ ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة
٢٦ ذكر عبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره الى خلاط وموته
٢٧ ذكر وصول الفرنج من الغرب فى البحر

صفحة	
	الى عكا
٢٨	ذكر ملك الفرنج عكا
٢٩	ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان وتخريبها
٣١	ذكر رحيل الفرنج الى نطرون
٣١	ذكر مسير صلاح الدين الى القدس
٣٢	ذكر عود الفرنج الى الرملة
٣٢	ذكر قتل قزل ارسلان
٣٢	ذكر عدة حوادث
٣٣	(سنة ثمان وثمانين وخمسمائة)
٣٣	ذكر عمارة الفرنج عسقلان
٣٣	ذكر قتل المركيس وملك الكندهري
٣٤	ذكر نهب بني عامر البصرة
٣٤	ذكر ما كان من ملك انكلتار
٣٤	ذكر استيلاء الفرنج على عسكر المسلمين وقفل
٣٥	ذكر سير الافضل والعادل الى بلاد الجزيرة
٣٥	ذكر عود الفرنج الى عكا
٣٥	ذكر ملك صلاح الدين يافا
٣٦	ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين الى دمشق
٣٧	ذكر وفاة قلج ارسلان
٣٨	ذكر ملك شهاب الدين اجمير وغيرها من الهند
٣٩	ذكر عدة حوادث
٤٠	(سنة تسع وثمانين وخمسمائة)
٤٠	ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته
٤١	ذكر حال أهله واولاده بعده
٤١	ذكر مسير أتابك عز الدين الى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه
٤٢	ذكر وفاة أتابك عز الدين وشئ من سيرته
٤٣	ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط

صفحة	
٤٣	ذكر عدة حوادث
٤٤	(سنة تسعين وخمسمائة)
٤٤	ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى
٤٤	ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزمشاه الرى ووفاة أخيه سلطانشاه
٤٥	ذكر مسير وزير الخليفة الى خوزستان وملكها
٤٦	ذكر حصر العزيز مدينة دمشق
٤٦	ذكر عدة حوادث
٤٦	(سنة احدى وتسعين وخمسمائة)
٤٦	ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم
٤٧	ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس
٤٨	ذكر فعلة الملثم بأفريقية
٤٩	ذكر ملك عسكر الخليفة اصفهان
٤٩	ذكر ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الرى وهمذان وغيرها
٤٩	ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها
٥٠	ذكر عدة حوادث
٥٠	(سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة)
٥٠	ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلاد الهند
٥١	ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الافضل
٥٢	ذكر عدة حوادث
٥٢	(سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة)
٥٢	ذكر ارسال الامير أبي الهيجاء الى همذان وما فعله
٥٢	ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها

صحيفة	
٥٤	ذكر وفاة سيف الاسلام وملك ولده
٥٤	ذكر عدة حوادث
٥٥	(سنة اربع وتسعين وخمسمائة)
٥٥	ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد
٥٥	ذكر ملك نور الدين نصيبين
٥٦	ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكافرة
٥٦	ذكر انهزام الخطا من الغورية
٥٧	ذكر ملك خوارزمشاه مدينة بخارا
٥٨	ذكر عدة حوادث
٥٨	(سنة خمس وتسعين وخمسمائة)
٥٨	ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الافضل ديار مصر
٦٠	ذكر حصر الافضل مدينة دمشق وعوده عنها
٦١	ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد
٦١	ذكر عصيان اهل المهدية على يعقوب وطاعتها لولده محمد
٦٢	ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين
٦٣	ذكر الفتنة بغير وذكوه من خراسان
٦٤	ذكر مسير خوارزمشاه الى الرى
٦٤	ذكر عدة حوادث
٦٥	(سنة ست وتسعين وخمسمائة)
٦٥	ذكر ملك العادل الديار المصرية
٦٥	ذكر وفاة خوارزمشاه
٦٦	ذكر عدة حوادث
٦٧	(سنة سبع وتسعين وخمسمائة)
٦٧	ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب

صحيفة	
	منبج وغيرها من الشام وحصره هو واخوه الافضل مدينة دمشق وعودهما عنها
٦٨	ذكر ملك غياث الدين واخيه ما كان نحوا رزمشاه بخراسان
٧٠	ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما
٧٠	ذكر ملك شهاب الدين نهرواله
٧١	ذكر ملك ركن الدين ملطية من اخيه وارزن الروم
٧١	ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك اخيه محمود
٧١	ذكر عدة حوادث
٧٢	(سنة ثمان وتسعين وخمسمائة)
٧٢	ذكر ملك خوارزمشاه ما كان اخذه الغورية من بلاده
٧٣	ذكر حصر خوارزمشاه هراة وعوده عنها
٧٤	ذكر عدة حوادث
٧٤	(سنة تسع وتسعين وخمسمائة)
٧٤	ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها
٧٥	ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشيء من سيرته
٧٥	ذكر اخذ الظاهر قلعة نجم من اخيه الافضل
٧٦	ذكر ملك الكرج مدينة دوين
٧٦	ذكر عدة حوادث
٧٧	(سنة سبعمائة)
٧٧	ذكر حصار خوارزمشاه هراة ثانية
٧٧	ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزم وانهزامه من الخطا

صحيفة

٧٩ ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان
٧٩ ذكر ملك القسطنطينية من الروم
٨٠ ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية
٨١ ذكر خروج الفرنج بالشام الى بلاد الاسلام والصلح معهم
٨١ ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل وولاية ايتغمش
٨١ ذكر وفاة ركن الدين بن قلج أرسلان وملك ابنه بعده
٨٢ ذكر قتل الباطنية بواسط
٨٢ ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت
٨٢ ذكر عدة حوادث
٨٣ (سنة احدى وستمائة)
٨٣ ذكر ملك كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه
٨٤ ذكر حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها
٨٤ ذكر الفتن ببغداد
٨٥ ذكر غارة الكرج على بلاد الاسلام
٨٥ ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة
٨٥ ذكر عدة حوادث
٨٦ (سنة اثنتين وستمائة)
٨٦ ذكر الفتنة ببهراة
٨٦ ذكر قتال شهاب الدين الغورى بفى كوكر
٨٧ ذكر الظفر بالتيراهية
٨٨ ذكر قتل شهاب الدين الغورى
٨٩ ذكر ما فعله الدز
٨٩ ذكر بعض سيرة شهاب الدين

صحيفة

٩٠ ذكر مسير بهاء الدين سام الى غزنة وموته
٩١ ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه
٩٢ ذكر ملك الدز غزنة
٩٢ ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه
٩٤ ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان
٩٦ ذكر ملك خوارزمشاه ترمذ وتسليمها الى الخطا
٩٦ ذكر عود أصحاب باميان الى غزنة
٩٨ ذكر عود الدز الى غزنة
٩٩ ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب اربل اذربيجان
٩٩ ذكر ايقاع ايتغمش بالاسماعيلية
٩٩ ذكر وصول عسكر خوارزم الى بلاد الجبل وما كان منهم
١٠٠ ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب
١٠٠ ذكر نهب الكرج ارمينية
١٠١ ذكر عدة حوادث
١٠٢ (سنة ثلاث وستمائة)
١٠٢ ذكر ملك عباس باميان وعودها الى ابن اخيه
١٠٢ ذكر ملك خوارزمشاه الطالقان
١٠٣ ذكر حال غياث الدين مع الدز وايبك
١٠٥ ذكر وفاة صاحب مازندران والخلاف بين أولاده
١٠٥ ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة انطاكية
١٠٦ ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين الى خلاط وعوده

صحيفة

١٠٧ ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج
١٠٧ ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان
١٠٧ ذكر عدة حوادث
١٠٨ (سنة اربع وستمائة)
١٠٨ ذكر ملك خوارزمشاه ماوراء النهر وما كان بخراسان من الفتن واصلاحها
١٠٩ ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه
١١٠ ذكر ما فعله خوارزمشاه بخراسان
١١١ ذكر قتل غياث الدين محمود
١١١ ذكر عود خوارزمشاه الى الخطا
١١٢ ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين
١١٢ ذكر الوقعة التي أفنت الخطا
١١٣ ذكر ملك نجم الدين بن الملك العادل خلاط
١١٤ ذكر غارات الفرنج بالشام
١١٤ ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من اهلها
١١٥ ذكر ملك ابي بكر بن البهلوان مراغة
١١٥ ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة
١١٦ ذكر عدة حوادث
١١٦ (سنة خمس وستمائة)
١١٦ ذكر ملك الكرج ازبيش وعودهم عنها
١١٦ ذكر قتل سنجرشاه وملك ابنه محمود
١١٨ ذكر عدة حوادث
١١٨ (سنة ست وستمائة)
١١٨ ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين ارسلانشاه ومظفر الدين

صحيفة

١٢٠ ذكر عدة حوادث
١٢٠ (سنة سبع وستمائة)
١٢٠ ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر اليه
١٢١ ذكر وفاة نور الدين ارسلانشاه وشيء من سيرته
١٢٢ ذكر ولاية ابنه الملك القاهر
١٢٢ ذكر عدة حوادث
١٢٣ (سنة ثمان وستمائة)
١٢٣ ذكر استيلاء منكلي على بلاد الجبل واصفهان وغيرها وهرب ايتغمش
١٢٣ ذكر نهب الحاج بمنى
١٢٣ ذكر عدة حوادث
١٢٤ (سنة تسع وستمائة)
١٢٤ ذكر قدوم ابن منكلي بغداد
١٢٤ ذكر عدة حوادث
١٢٤ (سنة عشر وستمائة)
١٢٤ ذكر قتل ايتغمش
١٢٤ ذكر عدة حوادث
١٢٥ (سنة احدى عشرة وستمائة)
١٢٥ ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند
١٢٥ ذكر عدة حوادث
١٢٦ (سنة اثنتي عشرة وستمائة)
١٢٦ ذكر قتل منكلي وولاية اغلمش ما كان بيده من الممالك
١٢٧ ذكر وفاة ابن الخليفة
١٢٧ ذكر ملك خوارزمشاه غزنة وأعمالها
١٢٨ ذكر استيلاء الدز على لهاور وقتله
١٢٩ ذكر عدة حوادث

صحيفة

١٢٩ (سنة ثلاث عشرة وستمائة)
١٢٩ ذكر وفاة الملك الظاهر
١٢٩ ذكر عدة حوادث
١٣٠ (سنة اربع عشرة وستمائة)
١٣٠ ذكر ملك خوارزمشاه بلد الجبل
١٣١ ذكر ما جرى لاتابك سعد مع أولاده
١٣٢ ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها الى المسلمين
١٣٢ ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها
١٣٣ ذكر حصر الفرنج دمياط الى ان ملكوها
١٣٤ ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج
١٣٦ ذكر عدة حوادث
١٣٧ (سنة خمس عشرة وستمائة)
١٣٧ ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته الى ان استقرت الامور
١٣٨ ذكر ملك عماد الدين زنكي قلاع الهكارية والزوزن
١٣٩ ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الاشرف
١٣٩ ذكر انهزام عماد الدين زنكي من العسكر البدري
١٤٠ ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه
١٤٠ ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين
١٤١ ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشي وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الاشرف سنجار
١٤٢ ذكر وصول الاشرف الى الموصل والصلح مع مظفر الدين

صحيفة

١٤٣ ذكر عود قلاع الهكارية والزوزن الى بدر الدين
١٤٣ ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للاشرف وانهزام كيكاوس
١٤٥ ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده
١٤٥ ذكر عدة حوادث
١٤٦ (سنة ست عشرة وستمائة)
١٤٦ ذكر وفاة كيكاوس وملك كيقباذ أخيه
١٤٦ ذكر موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه
١٤٧ ذكر اجلاء بني معروف عن البطائح وقتلهم
١٤٧ ذكر عدة حوادث
١٤٧ (سنة سبع عشرة وستمائة)
١٤٧ ذكر خروج التتر الى بلاد الاسلام
١٤٩ ذكر خروج التتر الى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه
١٥٢ ذكر مسير التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته
١٥٣ ذكر صفة خوارزمشاه وشيء من سيرته
١٥٣ ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران
١٥٤ ذكر وصول التتر الى الري وهمذان
١٥٤ ذكر وصول التتر الى اذربيجان
١٥٦ ذكر ملك التتر مراغة
١٥٧ ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها
١٥٨ ذكر مسير التتر الى اذربيجان وملكهم أردويل وغيرها
١٥٨ ذكر وصول التتر الى بلاد الكرج
١٥٩ ذكر وصولهم الى دربند شروان وما فعلوه
١٥٩ ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق

صحيفة

١٦٠ ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس
١٦٠ ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق الى ملكهم
١٦١ ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند
١٦١ ذكر ملك التتر خراسان
١٦٣ ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها
١٦٣ ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور
١٦٤ ذكر تسليم الاشرف خلاط الى أخيه شهاب الدين غازى
١٦٥ ذكر عدة حوادث
١٦٥ (سنة ثمان عشرة وستمائة)
١٦٥ ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج
١٦٦ ذكر عدة حوادث
١٦٧ (سنة تسع عشرة وستمائة)
١٦٧ ذكر خروج طائفة من قفجاق الى أذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم
١٦٩ ذكر نهب الكرج بيلقان
١٦٩ ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش
١٧٠ ذكر عدة حوادث
١٧٠ (سنة عشرين وستمائة)
١٧٠ ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى
١٧٠ ذكر حرب بين المسلمين والكرج بارمينية
١٧١ ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله
١٧١ حادثة غريبة لم يوجد مثلها
١٧٢ ذكر عدة حوادث
١٧٢ (سنة احدى وعشرين وستمائة)
١٧٢ ذكر عود طائفة من التتر الى الرى وهمذان وغيرهما

صحيفة

١٧٣ ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس
١٧٣ ذكر عصيان شهاب الدين غازى على أخيه الملك الاشرف وأخذ خلاط منه
١٧٤ ذكر حصار صاحب اربل الموصل
١٧٤ ذكر عدة حوادث
١٧٤ (سنة اثنتين وعشرين وستمائة)
١٧٥ ذكر حصر الكرج مدينة كنجة
١٧٥ ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى خوزستان والعراق
١٧٦ ذكر وفاة الملك الافضل وغيره من الملوك
١٧٦ ذكر خلع شروانشاه وظفر المسلمين بالكرج
١٧٧ ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا
١٧٧ ذكر ملك جلال الدين أذربيجان
١٧٩ ذكر انهزام الكرج من جلال الدين
١٧٩ ذكر عود جلال الدين الى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة اوزبك
١٨٠ ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله
١٨١ ذكر خلافة الظاهر بامر الله
١٨٣ ذكر ملك بدر الدين قلعة العمادية وهرور
١٨٤ ذكر عدة حوادث
١٨٥ (سنة ثلاث وعشرين وستمائة)
١٨٥ ذكر ملك جلال الدين تفليس
١٨٧ ذكر مسير مظفر الدين صاحب اربل الى الموصل وعوده عنها
١٨٧ ذكر عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره اليها
١٨٨ ذكر الحرب بين عسكر الاشرف وعسكر جلال الدين
١٨٨ ذكر وفاة الخليفة الظاهر بامر الله
١٨٩ ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله

صحيفة	
١٨٩	ذكر الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد
١٩٠	ذكر حصر جلال الدين مدينتي آنى وقرس
١٩٠	ذكر حصر جلال الدين خلاط
١٩١	ذكر ايقاع جلال الدين بالتركمان الايوانية
١٩١	ذكر الصلح بين المعظم والاشرف
١٩٢	ذكر الفتنة بين الفرنج والارمن
١٩٣	ذكر عدة حوادث
١٩٣	(سنة أربع وعشرين وستمائة)
١٩٣	ذكر دخول الكرج مدينة تفليس واحراقها
١٩٤	ذكر نهب جلال الدين بلد الاسماعيلية
١٩٤	ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر
١٩٤	ذكر دخول العساكر الاشرفية الى أذربيجان وملك بعضها
١٩٥	ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده
١٩٥	ذكر عدة حوادث
١٩٦	(سنة خمس وعشرين وستمائة)
١٩٦	ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه
١٩٦	ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر
١٩٧	ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا
١٩٧	ذكر ملك كيقباذ ارزنكان
١٩٨	ذكر خروج الملك الكامل
١٩٨	ذكر نهب جلال الدين بلاد ارمينية
١٩٩	ذكر عدة حوادث
١٩٩	(سنة ست وعشرين وستمائة)
١٩٩	ذكر تسليم البيت المقدس الى الفرنج
١٩٩	ذكر ملك الملك الاشرف مدينة دمشق
٢٠٠	ذكر القبض على الحاجب علي وقتله
٢٠١	ذكر ملك الكامل مدينة حماة
٢٠١	ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها
٢٠٢	ذكر عدة حوادث
٢٠٢	(سنة سبع وعشرين وستمائة)
٢٠٢	ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والاشرف
٢٠٣	ذكر ملك علاء الدين ارزن الروم
٢٠٣	ذكر الصلح بين الاشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين
٢٠٣	ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة ارزن
٢٠٤	ذكر ملك صوغج قشيالو القلعة رويندز
٢٠٤	(سنة ثمان وعشرين وستمائة)
٢٠٤	ذكر خروج التتر الى أذربيجان وما كان منهم
٢٠٥	ذكر ملك التتر مراغة
٢٠٥	ذكر وصول جلال الدين الى آمد وانهزامه عندها وما كان منه
٢٠٦	ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد
٢٠٧	ذكر وصول طائفة من التتر الى اربل ودقوقا
٢٠٧	ذكر طاعة أهل اذربيجان للتتر
٢٠٨	ذكر عدة حوادث

(تمت)

الجزء الثانى عشر من تاريخ الكامل للعلامة أبى الحسن على
ابن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن
الاثير الجزرى الملقب بعز
الدين رحمه
الله

(وبهامشه تاريخ أبى نصر العتبى رحمه الله تعالى)

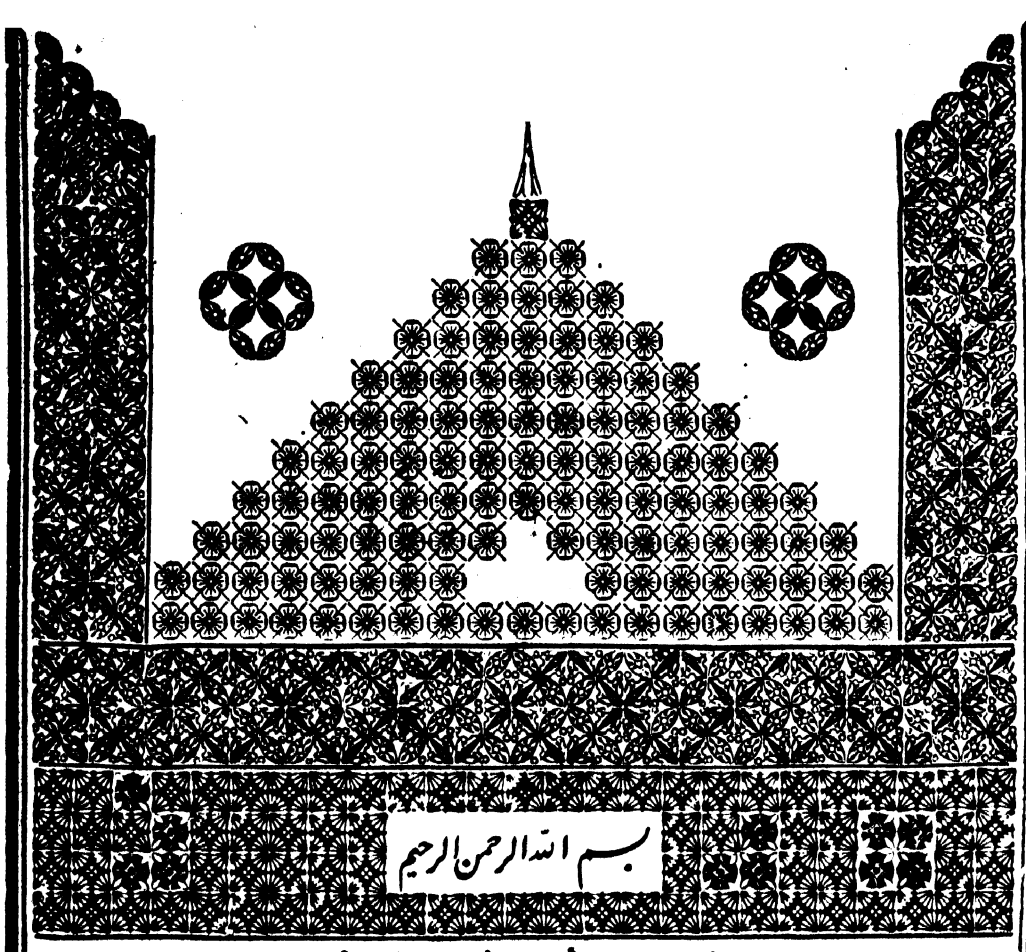
بسم الله الرحمن الرحيم

(ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر صلاح الدين كوكب)

في هذه السنة في المحرم انحسر الشتاء فسار صلاح الدين من عكا فيمن يخلف عنده من العسكر الى قلعة كوكب لحصرها ونازلها ظنا منه ان ملكها سهلا وان أخذها عجلا وهو في قلة من العسكر متيسر فلما رآها عالية منيعة والوصول اليها متعذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعدلان البلاد الساحلية من عكا الى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ماعداهذه الحصون وكان يختار أن لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه ويقسم همه ويحتاج الى حفظه وانلا ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فلما حصر كوكب ورآها منيعة يبطئ ملكها وأخذها رحل عنها وجعل عليها قايماز النجمي مستديما لحصاره وكان رحيله عنها في ربيع الاول وأتاه رسل الملك قلج ارسلان وقزل ارسلان وغيرهما يهنونه بالفتح والظفر وسار من كوكب الى دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب الى البلاد جميعا باجتماع العساكر بها وأقام بها الى ان سار الى الساحل بالبلاد الشامية

(ذكر رحيل صلاح الدين الى بلاد الفرنج)

لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضي الفاضل موذعا له ومستشيرا وكان مريضا وودعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الاول الى حمص فنزل على بحيرة قدس غربي حمص وجاءته العساكر فأول من أتاه من اصحاب الاطراف عماد الدين زنكي بن مودود بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها

(ذكر الوزير ابي العباس الفضل بن أحمد وما انتهت اليه حاله الى أن مضى لسبيله) قد كان الوزير أبو العباس الفضل بن أحمد من خاصة فائق الملقب بعميد الدولة ومن كفاة بابه وثقات اصحابه وكان على البريد بمرو أيام سالارية السلطان يمين الدولة بنيسابور فنمى الى ناصر الدين سبكتكين خبر

وغيرها فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الاكراد من الجانب الشرقي وكنت معه حينئذ فأقام يومين وسار بريدة ونزل أثقال العسكر موضعها تحت الحصن ودخل الى بلد الفرنج فأغار على صافيثا والعريمة وحمرو وغيرها من البلاد والولايات ووصل الى قريب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها واين يسلك منها ثم عاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها مالا حد له واقام تحت حصن الاكراد الى آخر ربيع الآخر

(ذكر فتح جبلة)

لما اقام صلاح الدين تحت حصن الاكراد أتاه قاضي جبلة وهو منصور بن ثبيل يستدعيه اليه ليسلمها اليه وكان هذا القاضي عند بيمند صاحب انطاكية وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى ما يتعلق باليمند فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الاولى فنزل بانطرطوس سادسه فرأى الفرنج قد أخلوا المدينة واحتموا في برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسوروا البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وكان الداوية باحد البرجين فحصرهما صلاح الدين فنزل اليه من في احد البرجين بامان وسلموه فأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته في البحر وبقي الذي فيه الداوية لم يسلموه وكان معهم مقدمهم الذي أسره صلاح الدين يوم المصاف وكان قد أطلقه لما ملك البيت المقدس فهو الذي حفظ هذا الحصن لخرب صلاح الدين ولاية انطرطوس ورحل عنها وأتى مرقية وقد أخلاها اهلها ورحلوا عنها وساروا الى المرقب وهي من حصونهم التي لا ترام ولا تحدث أحدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه وهو للاسبتار والطريق تحته فيكون الحصن على يمين الجهتاز الى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لا يسلكه الا الواحد بعد الواحد فاتفق ان صاحب صقلية من الفرنج قد سير نجدة الى فرنج الساحل في ستين قطعة من الشواني وكانوا بطرابلس لما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤا ووقفوا في البحر تحت المرقب في شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من اول المضيق الى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو اليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا الى جبلة ثامن عشر جمادى الاولى وتسلمها وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق اليها ودخل فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها اليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها تحصنا واحتموا بقلعتها فما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الامان وان يأخذ رهائنهم يكونون عنده الى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكان بيمند صاحبها قد أخذ رهائن القاضي ومسلمي جبلة وتركهم عنده بانطاكية فأخذ القاضي رهائن الفرنج وجاء رؤساء أهل الجبل الى صلاح الدين بطاعة أهله وهو من امنع الجبال واشقها مسلكا وفيه حصن يعرف بيكسرايل بين جبلة ومدينة مصياف فملكه المسلمون وصار الطريق في هذا الوقت عليه من بلاد الاسلام الى العسكر وكان الناس يلقون شدة في سلوكه وقرر صلاح الدين احوال جبلة

قوته وأماته فكتب الى الرضى يستوهبه لوزارة السلطان وكفاية أعماله وتدبير أموره وامواله ورجاله فأوجب اجابته الى ملتمسه وخوطب بالبدار الى نيسابور على مقتضى مثاله فاعتمده السلطان للوزارة واستكفاه مهمات الامارة بعد ان كان يرى مقام الشيخ الجليل شمس الكفاة أبي القاسم أحمد بن الحسن كتابة وحسابة واصالة واصابة وهداية ودراية وحماية وجباية اذ لم يكن على طراءة شبابه بين لداته أغنى منه غناه وامضى مضاء واذكى ذكاء وأدهى دهاء غير أن الامير سبكتكين جنى عليه في أبيه عند اعتماده لوزارة بست وتدبير اعمالها واموالها جناية سبق السيف فيها العذل اصغاه منه الى عداته فيما شققوه فيه من رقيعة ولفقوه عليه من سعاية ووقيعة فاستوحش منه استيحاشا من بادرة فعله والمسيء نفور والقلوب عن ذوي الاساءة صور وكره السلطان الاستبداد على ابيه في انتصابه حسب ارتضائه

وجعل فيها لحفظها الامير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها

(ذكر فتح لاذقية)

لما فرغ السلطان من أمر جبلة وسار عنها الى لاذقية فوصل اليها في الرابع والعشرين من جمادى الاولى فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا الى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين اللتين فيهما الفرنج وزحفوا اليهما ونقبوا الاسوارستين ذراعا وعلقوه وعظم القتال واشتد الامر عند الوصول الى السور فلما أيقن الفرنج بالعطب ودخل اليهم قاضي جبلة تخوفهم من المسلمين فطلبوا الامان فأمنهم صلاح الدين ورفعوا الاعلام الاسلامية الى الحصنين وكان ذلك في اليوم الثالث من النزول عليها وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه فخرب المسلمون كثيرا منها ونقلوا رخامها وشعثوا كثيرا من بنيها التي قد عزم على كل واحدة منها الاموال الجليلة المقدار وسلمها الى ابن أخيه تقي الدين عمر فعمرها وحصن قلعتها حتى اذا رآها اليوم من رآها يتذكرها فلا يظن ان هذه تلك وكان عظيم الهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة

(ذكر حال اسطول صقلية)

لما نازل صلاح الدين لاذقية وصل اسطول صقلية الذي تقدم ذكره فوقف بازاء مينا الاذقية فلما سلمها الفرنج الذين بها الى صلاح الدين عزم اهل هذا الاسطول على أخذ من يخرج منهم من أهلها غيظا وحنقا حيث ساوها سريعا فسمع بذلك اهل لاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم ثم أن مقدم هذا الاسطول طلب من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال ما معناه انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم والاجاك من البحر ما لا طاقة لك به فيعظم عليك الامر ويشتد الحال فأجابهم صلاح الدين بنحو من كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وانهم ان خرجوا أذاقهم ما لا ذاق أصحابهم من القتل والاسر فانقلب على وجهه ورجع الى أصحابه

(ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون)

ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية في السابع والعشرين من جمادى الاولى وقصد قلعة صهيون وهي قلعة منيعة شاهقة في الهواء صعبة المرتقى على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق في بعض المواضع بحيث ان حجر المنجنيق يصل منه الى الحصن الا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقا لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم الى ولده الظاهر صاحب حلب فنزل على المكان الضيق من الوادي ونصب عليه المنجنيقات ايضا فرمى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم في الشجاعة بالمنزلة المشهورة ودام رشق السهام من قسي اليد والجرخ والزنبورك والزيار فجرح اكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع ونزف المسلمون اليهم ثاني جمادى الآخرة فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قد أغفل الفرنج احكامها

واستكفائه وفق المحبور من وفائه طاعته له في اختياره واتباعا لفعله رأيه تحت مداره وقضى الله بان يكون ما يليه حتى يعترف خراسان بانه عذيقه المرجب وجذيله المحكك يتتبع ما يفسده الغير بالاستصلاح ويستدرك ما أحوضته يد الاجتياح ويداوي كل داء بدوائه ويرد غائر الماء الى لحائه فأجرى أبو العباس الامور مجاريها على جملة لم يعرف فيها غير الجباية والاستدرار وقصد التوفير دون الاستعمار حتى جبي مالا عظيما سنين عدة اذ كانت خراسان بعد مكسوعة بأغبارها لم ينتزف منها دواعي اللبن ولم ينتزع عنها كوامي السمن فلما احتلبها انتزافا واستنفد ما في ضرعها اسرافا ومن قبل ما قد حال بينها وبين خصب المراتع وبرد الموارد والمشارع وضعت خراسان له ما على ظهورها من فضول دسم وسمحت بما وراء عظامها من نقي مقسم حتى صارت من فرط الهزال والعجف كالاهلة الحنية بل

فتسلقوا منها بين العصور حتى التحقوا بالسور الاول فملكوا منها ثلاثة وعشرين ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقلعة التي للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الامان فلم يجبهم صلاح الدين اليه فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه الى أمير يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة ابي قبيس فحصنه وجعله من أحصن الحصون ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا في تلك النواحي فملكوا حصن بلاطنوس كان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفا ورعبا وملك ايضا حصن العيدو وحصن الجاهرتين فاتسعت المملكة الاسلامية بتلك الناحية الا ان الطريق اليها من البلاد الاسلامية على عقبة بكسر ائيل شاق شديد لان الطريق السهلة كانت غير مسلوكة لان بعضها بيد الاسماعيلية وبعضها بيد الفرنج

(ذكر فتح حصن بكاس والشغر)

ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل الى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد اخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم الى قلعة الشغر وهي وبكاس على الطريق السهل المسلوك الى لاذقية وجبلة والبلاد التي افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الاسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لا ترام ولا يوصل اليها بطريق من الطرق الا أنه امر بمزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم ففعلوا ذلك ورمى بالمنجنيق فلم يصل من أحجاره الى القلعة شئ الا القليل الذي لا يؤذي فبقي المسلمون عليه اياما لا يرون فيه طمعا واهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرق اليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة واعمال الحيلة في الوصول اليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا فقال صلاح الدين أو يأتي الله بنصر من عنده وفتح فبينما هم في هذا الحديث اذ قد أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الامان لرسول يحضر عند صلاح الدين فاجيب الى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة ايام فان جاءهم من يمنعهم والا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم اليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه واتفق انه يوم الجمعة سادس عشر جمادى الآخرة وكان سبب اسقامهم انهم أرسلوا الى البيمند صاحب انطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه انهم محصورون ويطلبون منه أن يرحل عنهم المسلمين فان فعل والا سلموها وانما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم والا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل اليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه الى أمير يقال له قلج وأمره بعمارته ورحل عنه

(ذكر فتح سرمينية)

لما كان صلاح الدين مشغولا بهذه القلاع والحصون سير ولده الظاهر غازي صاحب حلب لحصر سرمينية وضيق على اهلها واستنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما انزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وعفى أثره وعالى بنيانه وكان فيه وفي هذه الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة وكان فتحه في يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة واتفق ان فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة الى سرمينية مع كثرتها

الاخلة المريبة وتداعى بالخراب معظم الضياع ووقفت القنى بين القصور والانقطاع وشرد في البلاد اكثر الاكرة والزراع فعدها خذلان الجار بذنب الجار وألزم الفار مؤنة الفار حتى عمت البلوى وعمت الشكوى وشملت خراسان نوائب البوس وذهبت حرائب النفوس وصدمتهم سنة القحط بعقبها فصار الغني محسورا والمتوسط مفقورا والفقير مقبورا وكان أمر الله قدرا مقدورا وبقيت في رقاب خراسان بقايا كل متعذر ومتكسر وتاو ومتحير لو أذيت عن آخر فقرة منها لم يف بعضها فضلا عما جمعته أقلام الاستيفاء منها فأظهر السلطان ضجرا من تحير الاموال وتراجع الارتفاعات فطالب الوزير منها بما اقتطعه وأتواه وضيعه وهو يرجع القول على سبيل الدلة بين البراءة والاحالة فهما عضه العتب بثقافه أظهر الاستعفاء وجلب الى نفسه البلاء وأسلم النفس اختيارا وآثر الحبس قرارا

كان فى ست جمع معانها فى أيدى اشجع الناس واشدهم عداوة للمسلمين فسجان من اذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهى جميعها من أعمال انطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتى ذكرها ان شاء الله تعالى فى مكانه

(ذكر فتح برزيه)

لما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار الى قلعة برزية وكانت قد وصفت له وهى تقابل حصن افامية وتناصفها فى اعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصى وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره وكان اهلها أضر شئ على المسلمين يقطعون الطريق ويبيتون فى الاذى فلما وصل اليها نزل شرقيها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها ينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده الا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فانها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فان الوادى المطيف بجبلها قدر ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزله المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا ابطلها ورأيت انا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شئ اليها امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين ان المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة اهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فاذا تعبوا وكلوا عادوا وزحف القسم الثانى فاذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فانهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك فاذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم احد الاقسام وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلهم على فصيلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات ومشوا اليهم حتى قربوا الى الجبل فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فانهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج الى أسفل الجبل فلا يقوم لها شئ فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاص فقاتلوا قتالا شديدا وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم الى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا وتقدم اليهم وبيده جماق يردهم وصاح فى القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا اخوانهم وزحفوا معهم بغاة الفرنج مالا قبل لهم به وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا ايضا معهم فحينئذ اشتد الامر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح فاشتد الحر والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون

وتوسط الملاعين السلطان وبينه على أن يجبر بعض المنكسر من خالص ماله مما استفضله طول وزارته من مرافق أعماله فأبى أن ينزل عن درهم الا بعزله وحبسه أنى شاء من قلاعه صنيع المتبرم بالعمل المتنغص بالامل المستسلم للبلية المتمسك بالمنية واختار عند ذلك السلطان الدهقان أبا اسحق محمد بن الحسين وهو اذ ذاك رئيس بلخ لمصاحبة الديوان واستنظاف البقايا على العمال والسكان وانهضه اليها سنة احدى وأربعمائة فانحدر الى هراة وجبى من الاموال ما درت أخلافه ولانت على المرس أعطافه ولم يلبث الا يسيرا حتى حمل حملا كثيرا والوزير أبو العباس بعد فى صدر الوزارة والشيخ الجليل أبو القاسم يسعى بينه وبين السلطان على سبيل السفاره يروم اصلاحه اياه كى يفسد به مكانه ويستدنى عرض الاستقامة شأنه وهو يأبى سوى اللجاج فى القضاء القول عن حدة المزاج حكما من الله

معهم وكان طائفة قليلة في الخيام شرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لانهم لم يروا فيه مقاتلا وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الاخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن بصورة وقهروا ودخل الفرنج القلعة التي للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين الى سطح القلعة وأرجلهم في القيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلعة وظن الفرنج ان المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا والقوا بايديهم الى الاسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله وامست خالية لادبارها وألقى المسلمون النار في بعض بيوتهم فاحترقت * ومن أعجب ما يحكى من السلامة انني رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالي القلعة الى طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة وهو يعدو في الجبل عرضا فالقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبجمجه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع الناس وجاء الحجر اليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الارض فوق للرجل فضربه المنحدر فارتفع عن الارض وجاز الرجل ثم عاد الى الارض من جانبه الآخر لم ينله منه اذى ولا ضرر وقام يعدو حتى لحق باصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست ام الجبان وأما صاحب برزية فانه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر فارسل صلاح الدين في الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب انطاكية أطلقهم وسيرهم اليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة بيمند صاحب انطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعمل كثيرا من الاحوال التي تؤثر فاطلق هؤلاء لاجلها

* (ذكر فتح درب ساك) *

لما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من انطاكية فاقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره ثم سار عنه الى قلعة درب ساك فنزل عليها ثامن رجب وهي من معاقل الداوية الحصينة وقلاعهم التي يدخرونها لحمايتهم نزول الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمي بالحجارة فهدمت من سورها شيأ يسيرا فلم يبال من فيه بذلك فامر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم المقاتلون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان الذي يريد المقاتلة ان يدخلوا منه وعادوا اليهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد أرسلوا الى صاحب انطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظرون جوابه اما بالنجادهم واما باخلاء المسلمين عنهم واما بالتخلي عنهم ليقوم عذرهم في التسليم فلما علموا بعجزه عن نصرتهم وخلوا الجيوم المسلمين عليها وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا الامان فامنهم على شرط أن لا يخرج أحد الا بثيابه التي عليه بغير مال ولا سلاح ولا اثاث ولا دابة ولا شيء سواها ثم أخرجهم منه وسيرهم الى انطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب

تعالى لم يسع أحدا رده وقضاء سابقا أعيا العالمين صده ومازالت هذه حاله لزوما للصدر على ما به من ضعة القدر الى أن ركب بنفسه الى قلعة غزنة مستترا وأمر بحمله الى الاعتقال عما قريب ومتسما بجملة ما حواه واقتناه فلم يسمع بمثله رجلا يشتري الحبس اختيارا ويستقبل صرف الزمان بدارا وغاظ السلطان ما أتاه فاستبذله الخط بغرامة ما جناه على أمواله وربعاياه فبذل خطه بمائة ألف دينار ثم لم يزل يستدر الى أن عرض حال الضائقة وعدم الطاقة ثم استخلفه السلطان بحياة راسه على ظاهر افلاسه وعلى اغلاق دمه ان وجد له على الطلب مالا مظهرا ومخبا ومدفونا ومستودعا وبقي على جملة يثابه أولاده معفى عن الارهاق والتعنيف مصونا عن التحامل والتكليف الى أن ظهر على ما ذكرته مال عند بعض التجار ببلخ فأخذوه وأمر بوضع الدهق عليه لاستصفائه واستخراج ما وقاه بنفسه وذماته وما

(ذكر فتح بغراس)

ثم سار من درب ساك الى قلعة بغراس فحصرها بعد ان اختلف أصحابه فى حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من انطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر فى الميزلة مقابل انطاكية فاذا كان الامر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول اليها فاستخار الله تعالى وسار اليها وجعل أكثر عسكره بين كامقابل انطاكية يغيرون على أعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها ان غفلوا القريب منها وصلاح الدين فى بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم يؤثر فيها شيأ لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم الا ان صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء اليها فخفف الامر عليهم فبينما هو على هذه الحال اذ قد فتح باب القلعة وخرج منه انسان يطلب الامان فاجيب الى ذلك فاذن له فى الحضور فحضر وطلب الامان لمن فى الحصن حتى يسلموه اليه بما فيه على قاعدة درب ساك فاجابهم الى ما طلبوا فعاد الرسول ومعه الاعلام الاسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرب وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين فان ابن ليون صاحب الارمن خرج اليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته واتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى بهم السواد الذى لحلب وهو الى الآن بايديهم

(ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية)

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه الى انطاكية وحصرها فخاف البيمند صاحبها من ذلك وأشفق منه فارسل الى صلاح الدين يطلب الهدنة ويبذل اطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار من عنده من أصحاب الاطراف وغيرهم فأشار أكثرهم باجابته الى ذلك ليعود الناس ليستريحوا ويجددوا ما يحتاجون اليه فاجاب الى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر أولها أول تشرين الاول وآخرها آخر ايار وسير رسوله الى صاحب انطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الاسرى وكان صاحب انطاكية فى هذا الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فانه كان الفرنج قد سلموا اليه طرابلس بعد موت القمص وجميع أعمالها مضافا الى ما كان له لان القمص لم يخلف ولدا فلما سلمت اليه طرابلس جعل ولده الاكبر فيها نائبا عنه وأما صلاح الدين فانه عاد الى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها الى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل وغيرها ثم رحل من حلب الى دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان مقيما هناك وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة وكان مع صلاح الدين الامير عز الدين أبو الفليتة قاسم بن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيرا وينبسط معه ويرجع الى قوله فى أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فاشير عليه بتفريق العساكر فقال ان العمر قصير والاجل غير مأمون وقد بقى

بقى من رمق جاهه وثمانه
واتفقت السلطان غزوة
حالت بينه وبين مشاهدة
حاله واستبراء ما يصدق
أو يكذب من مقاله والدهر
يستقر به على الدوم وينال
منه يوما بيوم حتى اتاه أجله
وحاق به ما كان يستعجله
وذلك فى سنة اربع واربعمائة
ولما عاد السلطان وراءه
ساءه ما سمع فيه وهيهات
اين من المساءة روح
مطموسه ونفس بين
أطباق الثرى مرموسه
كذلك من آثر المخلوق
على الخالق ولم يعتبر
بالماضين فى الزمن السابق
وقد أدرك له فى صدر
وزارته ولد يعرف بأبى
القاسم محمد بن الفضل فبرع
على سعة الشباب فى
وجوه الفضائل والآداب
حتى استطار ذكره
واستطال قدره واستفاض
نظمه ونثره فمن شعره فى
أبيه قوله من قصيدة
لقد أربى أبو العباس جودا
على جود الربيع لمعتفيه
ففى احدى يديه عمامات قوم
وفى الاخرى الحياة لمرتجيه
لقد خضعت لك الدنيا ودانت
فهل مرقى سواه فترتقيه

يد الفرنج هذه الحصون كوكب وصفد والكرك وغيرها ولا بد من الفراغ منها فانها في وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن شر أهلها وان أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم

(ذكر فتح الكرك وما يجاوره)

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك في جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو الى دربساك وبغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الامان فاجابهم الى ذلك وأرسل الى مقدم العسكر الذي يحصرها في المعنى فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضا ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الاسلام هنالك جرانه وأمنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فانهم كانوا ممن يتقلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين

(ذكر فتح قلعة صفد)

لما وصل صلاح الدين الى دمشق وأشير عليه بتفريق العساكر وقال لا عد من الفرنج من صفد وكوكب وغيرها أقام بدمشق الى منتصف رمضان وسار عن دمشق الى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمي اليها ليلا ونهارا بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى في المدة التي كانوا فيها محاصرين فان عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم كما ذكرناه فلما رأى أهله جد صلاح الدين في قتالهم خافوا أن يقيم الى أن يفنى ما بقي معهم من أقواتهم وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو انهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم فارسلوا يطلبون الامان فامنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا الى مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فانهم كانوا وسط البلاد الاسلامية

(ذكر فتح كوكب)

لما كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع من بصور من الفرنج وقالوا ان فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولوانها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على انفاذ نجدة لها سرا من رجال وسلاح وغير ذلك فاخرجوا مائتي رجل من شجعان الفرنج واجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى ان رجلا من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيدا فلقي رجلا من تلك النجدة فاستغربه بتلك الارض فضربه ليعلمه بحاله وما الذي أقدمه الى هنالك فاقر بالحال ودله على أصحابه فعاد الجندي المسلم الى قايماز النجمي وهو مقدم ذلك العسكر فأعلمه الخبر والفرنجي معه فركب في طائفة من العسكر الى الموضع الذي قد اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم في الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الاستبتار فحملوا الى صلاح الدين وهو على صفد فاحضرهما ليقتلهما وكانت عادته قتل الدابة والاستبتار بها لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما ما أظن بنا انما

وأقبل نحوك الاقبال حتى
غدا بصرا وأنت النور فيه
فنوروز ألف نيروز سعيدا
ورفيع الجد في عيش رفيه
وله أضحية
وزنجية قادت الى القوم بضة
لينكحها من كان يعشقها قدما
*فقام اليها واحد بعد واحد
ولم نرد ما فعلهم لا ولا اثما
وأدركته حرفة الادب
فاختطفته يد المنية أنضر
ما كان عودا *وأثبته عودا
وأبهره سعودا *وأحمده
قياما وقعودا *وحكى لي بعض
أصحابه انه أصبح ذات يوم
يروي بيتين تلقنهما في النوم
وهي
أرى الدنيا وزخرفها كحاس
تدور على اناس من اناس
فلا تبقى على أحد كما لا
يدوم بقاؤها في كف حاس
فتطير له منهما ولما قضى
نحبه زاد أبو الحسن المؤملي
الكاتب فيه أبياتا وهي
أبعد محمد بن الفضل أرجو
أمانا لي من الدهر العماس
أساس الفضل كان به فأودى
وأبقى الفضل منهدم الاساس
فتى في نثره والنظم أربى
على ابن ثوابة وأبي نواس

سوء وقد نظرنا الى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ولما فتح صفد سار عنها الى كوكب ونازلها وحصرها وأرسل الى من بها من الفرنج يبذل لهم الامان ان سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب ان امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمي الاحجار اليهم وزحف مرة بعد مرة وكانت الامطار كثيرة لا تنقطع ليلا ولا نهارا فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه وطال مقامهم عليها وفي آخر الامر زحف اليها دفعات متناوبة في يوم واحد ووصلوا الى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروخ فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من اعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا الى السور الاعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الامان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذي القعدة وسيرهم الى صور فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جرتهم وتابعوا الرسل الى من بالانداس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون والامداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين في اطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما واسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حدايله الى اقصى أعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد سار الى البيت المقدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار منه الى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة

(ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر)

في هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة عدتهم اثنا عشر رجلا ليلا ونادوا بشعار العلويين يال علي يال علي وسلكوا الدروب ينادون ظنا منهم ان رعية البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم فيعيدون الدولة العلوية ويخرجون بعض من بالقصر محبوسا منهم ويملكون البلد فلم يلتفت أحد منهم اليهم ولا أعارهم سمعه فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين فأخذوا وكتب بذلك الى صلاح الدين فأهمه أمرهم وازعجه فدخل عليه القاضي الفاضل فأخبره الخبر فقال القاضي الفاضل ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتم حيث علمت من بواطن رعيتك المحبة لك والنصح وترك الميل الى عدوك ولو وضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن اصحابك ورعيتك وخسرت الاموال الجليلة عليهم لكان قليلا فسري عنه وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين واكبر من بها وستأتي مناقبه عند وفاته ماتراه

(ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل)

في هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله عسكرا كثيرا وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس وسيرهم الى مساعدة قزل ليكف الناس طغرل عن البلاد فسار العسكر ثالث صفر الى أن قارب همذان فلم يصل قزل اليهم وأقبل طغرل اليهم فالتقوا ثامن ربيع الاول بداى مرج عندهمذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا وثبت الوزير قائما ومعه مصحف وسيف فأتاه من عسكر طغرل من أسره واخذ ما معه من خزانة

رأى في النوم معجزة جرير

يقصر دونها وأبو فراس
سأحفظ عهده مادمت حيا
وحفظ العهد من كرم التحاس

ورثاه بعض اهل العصر

يا عين جودي بدم ساجم
على الفتى الحر أبي القاسم
قد كاد أن يهدمني فقده
لولا التسلي بأبي القاسم

وقد سد الله مكان الماضيين بأبي الحسن علي بن الفضل المعروف بالحجاج بفضل ساطع نوره * وعلم جامع سوره * وحلم ثابت طوره * وجود موكل بانشار آمال الاحرار صوره * فتى السن في حصافة الكهول * جبان الرأي في شجاعة السيول * أدهم البأس في غرة السجاحة * فدم الحياء في ذلق الفصاحة * وندب لاعمال الجوزجان فقدرت على ابساس ولايته * ونقل الى أعمال نسا فضاقت عن فضفاض كفايته * يصون الاعمال صيانة عرضه عما يصديه * ويحيي الآمال احياء شرف أبيه ويميت بدع الرسوم اماتة ذكر أياديه * كما قيل تسمو الرجال بآبائها وآونة

وسلاح ودواب وغير ذلك وعاد العسكر الى بغداد متفرقين وكنت حينئذ بالشام فى عسكر صلاح الدين يريد الغزاة فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادى فقال كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم فقال له بعض الحاضرين وكيف ذلك فقال لا شك ان أصحابى واهلى أعرف بالحرب من الوزير وأطوع فى العسكر منه ومع هذا فما أرسل احدا منهم فى سرية للحرب الا وأخاف عليه وهذا الوزير غير عارف بالحرب وقريب العهد بالولاية ولا يراه الامراء اهلا أن يطاع وفى مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه وكان الامر كذلك ووصل الخبر اليه بانهزامهم فقال لاصحابه كنت أخبرتكم بكذا وكذا وقد وصل الخبر بذلك ولما عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء وهو أحمد بن الواثق بالله

اتركونا من جائحات الجريمه * طلعة طلعة تكون وخيمه
بركات الوزير قد شملتنا * فلهذا أمورنا مستقيمه
خرجت جندنا تريد خراسا * ن جميعا بأبهات عظيمه
بخيول وعدة وعديد * وسيوف مجربات قديمه
ووزير وطاق طنب ونفش * وخيول معدة للهزيمه
هم رأوا غرة العدو قد أقبل * ولواء وانحل عقد العزيمه
وأتونا ولا بخفى حنين * بوجوه سود قباح ذميمه
لو رأى صاحب الزمان ولوعا * ين أفعالهم وقبح الجريمه
قابل الكل بالنكال وناهيك بها سبة عليهم مقيمه

كان ينبغى أن تتقدم هذه الحادثة وانما أخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضا لتعلق كل واحدة منها بالاخرى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى شيخنا ابو محمد عبد الله بن على بن عبد الله بن سويدة التكريتى كان عالما بالحديث وله تصانيف حسنة وفيها توفيت سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود بن قلج ارسلان زوجة الخليفة وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن فلما توفى عنها تزوجها الخليفة ووجد الخليفة عليها وجدا عظيما ظهر للناس كلهم وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربى والى جانب التربة رباط المشهور بالرملة وفيها توفى علاء الدين تنامش وحمل تابوته الى مشهد الحسن عليه السلام وفيها توفى خادم الخليفة وكان اكبر أمير ببغداد ومات أبو الفرج بن النقور العدل ببغداد وسمع الحديث الكثير وهو من بيت الحديث رحمه الله

(ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة)

(ذكر فتح شقيف ارنوم)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار صلاح الدين الى شقيف أرنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو ارناط صاحب صيدا وكان هذا ارناط من أعظم الناس دهاء ومكرا فدخل اليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والموادة وقال له أنا محب لك ومعترف باحسانك واخاف أن يعرف المركيس ما بينى وبينك فينال أولادى واهلى منه أذى فانهم عنده

تسمو الرجال بأبناء وترتدان
كم من اب قد علا بابن ذرى شرف
كما علا برسول الله عدنان

(ذكر وزارة الشيخ الجليل أبى القاسم احمد ابن الحسن الميمندى)

قد كان الشيخ الجليل أبو القاسم يلى ديوان الرسائل للسلطان أيام سالاريته بخراسان وهو الكريم نسبا * العظيم حسبا * العريق مجدا وحريه * الوثيق رايا ورويه * ينادى عليه أقطار الارض بفصاحة القلم * وسجاحة الشيم ونفاسة الهمم * واحتقار الدينار والدرهم * ودرجه وفاؤه للسلطان على تصاريف الاحوال به الى أن ولاه عرض عساكره * فى اقطار ممالكه وزاده اعمالا بست والرخج وماوالاهما بأموالها وارتفاعاتها علاوة على ماوالاه * فقام بجميع ماتولاه * قيام من وفقه الله وحدا عليه جوده بنى الآمال من اطراف البلاد فوسعهم جداه * ونمرهم نداه * وكتبت لهم امانا من الفقر يداه * فأما مروأته فما يؤمن بالمعجزة الصادقة الصادعة منها الا

فأشتهي أن تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده وحينئذ أحضرانا وهم عندك ونسلم الحصن اليك واكون أنا وهم في خدمتك نقنع بما تعطينا من اقطاع فظن صلاح الدين صدقه فأجابه الى ماسأل فاستقر الامر بينهما أن يسلم الشقيف في جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر المعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند صاحب انطاكية فامر تقي الدين ابن أخيه ان يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتي من بلاد المشرق ويكون مقابل انطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الامداد في البحر وان ملك الفرنج الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما وانهم قد اجتمعوا في خلق لا تحصى فانهم قد خرجوا من مدينة صور الى ظاهرها فكان هذا واشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم الى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه الا انه مع هذه الاشياء مقيم على العهد مع ارناط صاحب الشقيف وكان ارناط في مدة الهدنة يشتري الاقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه وكان صلاح الدين يحسن الظن واذا قيل له عنه مما هو فيه من المكر وان قصده المطاولة الى أن يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدي فضيحته ويظهر مخالفته لا يقبل فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره الى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده ارناط وقد بقي من الاجل ثلاثة ايام فقال له في معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده واهله وان المركيس لم يمكنهم من المجيء اليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره ليحمل رسالة الى من بالشقيف ليسلموه فاحضروه عنده فسارّه بما لم يعلموا فمضى ذلك القسيس الى الشقيف فأظهر أهله العصيان فسير صلاح الدين ارناط الى دمشق وسجنه وتقدم الى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه عن الذخيرة والرجال

(ذكر وقعة البزلة مع الفرنج)

لما كان صلاح الدين بمرج عيون وعلى الشقيف جاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم بزكافي مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها ان الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذي لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين بريدة في شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل اليهم وقد فات الامر وذلك ان الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها لمقصدهم فلقيهم البزلة على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين ايضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فقتل كثيرا واعليه فقتلوه رحمه الله ثم ان الفرنج عجزوا عن الوصول الى صيدا فعادوا الى مكانهم

(ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوعة)

لما وصل صلاح الدين الى البزلة وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم في خيمة صغيرة ينتظر عودة

من شاهدها عيانا * واستفتى عدول احساسه عليها سبرا وامتحانا * وكان الوزير ابو العباس لا يصدر الا عن رايه ولا يحتشم غيره في تصاريف عزماته وانحائه * لفخامة شأنه ومكانته * المعمورة من سلطانه ووساطته * بينهما في معظم ما يزجيه ويرجيه * ويحبيه ويفنيه * ويذره ويأتيه * ويقدره ويقربه * ولما وهت عليه قوة أمره * وانكسرت سورة ظهره * واتفق للسلطان ان يرحل نحو نارا بن في الغزوة التي تقدم ذكرها استخلف الشيخ الجليل ابا القاسم على مهمات بابه * وامداد صاحب الديوان فيما يليه ويحبيه بصواب رايه * وبعثه على مواصلة الحمول وغنائه فهو متسم غير متسم بها الى ان التقى السلطان * استدعاء صاحب الديوان * في عمال خراسان لرفع الحسبانات * وتقرير المعاملات * فنهض الى السلطان كل رئيس ورؤس وشريف ومشروف ومستعمل ومعزول * وسمين ومهزول * قد اتخذوا الطعم

الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثارمن قتلوه من المسلمين فركب فى بعض الايام فى عدة يسيرة على أن ينظر الى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى مايشاهده وظن من هنالك من غزاة العجم والعرب المتطوعة انه على قصد المصاف والحرب فساروا مجدين وأوغلوا فى أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراءظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الامراء يردونهم ويحمونهم الى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد عبّوا وراءهم كمينا فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الامر فاتاهم الخبر انهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم مايخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلوهم فلم يلبثوا أن انامومهم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ماجرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم فى حق أنفسهم رحمهم الله ورضى عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم فى عسكره فحملوا على الفرنج فألقوهم الى الجسر وقد أخذوا طريقهم فألقوا أنفسهم فى الماء فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا الى مدينة صور فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين الى تبنين ثم الى عكا ينظر حالها ثم عاد الى العسكر والمخيم

(ذكر وقعة ثالثة)

لما عاد صلاح الدين الى العسكر أتاه الخبر ان الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين فكتب الى من بعكا من العسكر واعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمناء فى موضع من تلك الاودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم انهم اذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيأ من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فاذا تبعهم الفرنج استجرّوهم الى أن يجوزوا موضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوهم وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الامر ودامت الحرب وطال على الكمناء الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكامنهم نحوهم مسرعين واليهم قاصدين فأتوهم وهم فى شدة الحرب فازداد الامر شدة على شدة وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طيّ وكانوا يجهلون تلك الارض فلم يسلكوا مسلك أصحابهم فسلكوا الوادى ظنا منهم انه يخرج بهم الى أصحابهم وتبعهم بعض ممالك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادى علموا انهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فانه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتا ثم ان المسلمين جاؤا من الغد الى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيا فحملوه فى كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وأعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا اليه فرأوه وقد قويت نفسه فاقبلوا عليه بشراب فعوفى ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهدا الا كان له فيه الاثر العظيم

والغمض سراما * ووضعوا الارواح على الراح توكلا واستسلاما * ووافق وصولهم ركضة عزمها السلطان الى الهند فصعب عليهم لاذناب اهل عسكره بمارآه ووكلهم باستخراجه فى يومين لاهتمام الركض وضيق رقعة الوقت فصبوا عصب السلم * وسلخوا سلخ الغنم * واقيموا على بحرة الضرم * ونكسوا على الهام والقمم * حتى اعتصروها منهم عن تضاعيف اللحم والدم * وعندها صب السلطان على الشيخ الجليل خلعة الوزارة * وفوض اليه مهمات الامارة * وأمره بمحاسبات العمال * ومطالبتهم * بما صار فى ذممهم * من الاموال محكما فى الحل والعقد مخيرا بين الاخذ والرد وسار السلطان نحو مقصده * واقبل الشيخ الجليل على ماجعل بصدده * فهذب الامور ونظم المنثور * ووظف الاموال * وصرف العمال * وردّ صاحب الديوان اباأصبق صلى بملته الى خراسان مستوخما عليهم مابازمهم من حاصل وباق

(ذكر مسير الفرنج الى عكا ومحاصرتها)

لما كثر جمع الفرنج بصور على ماذكرناه من ان صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة اعطى أهلها الامان وسيرهم اليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الاموال مالا يفى على كثرة الاتفاق فى السنين الكثيرة ثم ان الرهبان والقسس وخلقا كثيرا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم وأخذهم البترك الذى كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الاخذ بثار البيت المقدس وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربى والعربى يضربه وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فانهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الاقران على ماذكره ان شاء الله تعالى ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والاموال مالا يتطرق اليه الاحصاء (وقد حدثنى) بعض المسلمين المقيمين بحصن الاكراد وهو من اجناد أصحابه الذين سلموه الى الفرنج قديما وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج فى الغارة على بلاد الاسلام والقتال معهم والسعى معهم وكان سبب اجتماعى به ما أذكره سنة تسعين وخمسمائة ان شاء الله تعالى قال لى هذا الرجل انه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الاكراد الى البلاد البحرية التى للفرنج والروم فى أربع شوانى يستنجدون قال فانتهى بنا التطواف الى رومية الكبرى فخرجنا منها وقد صلانا الشوانى نقرة (وحدثنى) بعض الاسرى منهم ان له والدة ليس لها ولد سواه ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيرا وكان عند الفرنج من الباعث الدينى والنفسانى ماهذا أحد منه فخرجوا على الصعب والذلول برا وبحرا من كل فج عميق ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الالمان لما خرج على ماذكره عند خروجه الى الشام والا كان يقال ان الشام ومصر كانتا للمسلمين فهذا كان سبب خروجهم فلما اجتمعوا بصور يموج بعضهم فى بعض ومعهم الاموال العظيمة والبحر يمدهم بالاقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها فأرادوا قصد صيدا وكان ماذكرناه فعادوا واتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها فساروا اليها بفارسهم وراجلهم وقضهم وقضيضهم ولزموا البحر فى مسيرهم لا يفارقونه فى السهل والوعر الضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلهم فى البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم ان جاءهم مالا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا وكان رحيلهم ثامن رجب ونزولهم على عكا فى منتصفه ولما كانوا سائرين كان بزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر الى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع امراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون فى غير الطريق التى سلكوها فقالوا لا حاجة بنا الى احتمال المشقة فى مسايرتهم فان الطريق وعر وضيق ولا يمكننا مايزيد منهم والرأى اتباعهم فى الطريق المهيع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونحزقهم فعلم ميلهم الى الراحة العاجلة فوافقهم

وسكان

وعتيق وناض وقعد فى الدست كالبدر المنير * والسيف الشهير منفردا بالتدبير محتشد الروعة الملك وهيبة السرير * فلما اتفق عود السلطان الى قرارة عزه وشاهد الامور فى كنف وزارته منظومة العقود * مضبوطة الحدود * والاموال وافرة الربوع * حافلة الضروع * رسم له بأن ينصدر الى خراسان * مستنظفا ماوهى أو وهن صاحب الديوان * فى جبايته واستيفائه * وقصر أو قصر عن تبرضه وامترائه * فانحدر الى هراة وهيبته تأخذ النفوس بمخنقها * وتختلج القلوب عن معلقها * ويكاد ينطق له كل مال مخزون * ويلفظ اليه كل درهم مدفون * فجمع عن تسمح النفوس بما جمعته * واستكراهها عما منعته * مالا لم يسمع بمثله محمولا اذهابا وأوراقا * وعصبا رقاقا * وعلانا رشاقا * وأفراسا عتاقا * وتلاقت الرفائع * على صاحب الديوان بما ناله من صنوف المنافع * ووجوه المطامع * فساءه السلطان

وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقال ان الفرنج اذا نزلوا لقوا بالارض فلا يتهيأ لنا ازعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول الى عكا لخلو القوة فتبعهم وساروا على طريق كفركنا فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل فى مقابل الفرنج جماعة من الامراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم فلوان العساكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ولكن اذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ولما وصل صلاح الدين الى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر الى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين اليها طريق فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته الى تل الغياظية وميسرته الى النهر الجارى ونزلت الاثقال بصفورية وسير الكتب الى الاطراف باستدعاء العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وأتاه تقى الدين ابن اخيه واتاه مظفر الدين ابن زين الدين وهو صاحب حران والرها وكانت الامداد تأتى المسلمين فى البر وتأتى الفرنج فى البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة منها اليوم المشهور ومنها ما هو دون ذلك وما عداها كان قتالا يسيرا من بعضهم مع بعض فلا حاجة الى ذكره ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا الى عكا حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبية فلما كان الغد باكرهم القتال بجده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة الى الظهر وصبر الفريقان صبرا حاز له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقى الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم فركب بعضهم بعضا لا يلوى أخ على أخ والتجؤا الى من يليهم من أصحابهم واجتمعوا بهم واخلوا نصف البلد وملك تقى الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين اليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والاموال والسلاح وغير ذلك ولو ان المسلمين لزموا قتالهم الى الليل لبلغوا ما أرادوه فان للصدمة الاولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا الى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غدا ونقطع دابرهم وكان فى جملة من أدخله صلاح الدين الى عكا من جملة الامراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين وهو من أكابر امراء عسكره وهو من الاكراد الخطية من بلاد اربل وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة

(ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب)

ثم ان المسلمين نهضوا الى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم فى استئصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد تدمروا على ما فرطوا فيه بالامس وهم قد حفظوا اطرافهم ونواحيهم وشرعوا فى حفر خندق يمنع من الوصول اليهم فالح المسلمون عليهم فى القتال فلم يتقدم الفرنج اليهم ولا فارقوا مراابضهم فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم ان جماعة من العرب بلغهم ان الفرنج تخرج من الناحية الاخرى الى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم فى معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان

تعصبا وتسببا وتحيلا الى بيت المال فاعتزل العمل ونزل عن كل ما حصل * وفزع من بعد الى خاص أملاكه وضياعه * ومواشيه وكراعه * وتجمله واثاثه * حتى حلى اثاثه فحل ما اعتقده منها على مال مصادرته * وما جمع عليه من بقايا عمله وكان الوزير أبو العباس قليل البضاعة * فى الصناعة * لم يعتن بها فى سالف الايام * ولم يرض بيانه بخدمة الاقلام فاستقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية * الى الفارسية * حتى كسدت سوق البيان * وبارت بضاعة الاجادة والاحسان * واستوت درجات العجزة والكفاة * والتقى الفاضل والمفضول على خطى الموازاة * ولما سعدت الوزارة بالشيخ الجليل أسعد الله به جدوده الافاضل * وردت بمكانه خدود الفضائل * ورفع ألوية الكتاب * وعمر أفنية الآداب * فجزم على أن يشمر ذيوانه أن يتشكبوا ويتعاشوا الفارسية الا عن ضرورة من جهل من يكتب اليه * ويعجز عن فهم

معهم وحملوا الرؤس الى صلاح الدين فاحسن اليهم وأعطاهم الخلع

(ذكر الوقعة الكبرى على عكا)

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقى المسلمون الى العشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه ثم ان الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا ان عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون اذا حضر والرأى اننا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والامداد اليهم وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل انطاكية ليردوا غائلة البيمند صاحبها عن أعمال حلب وبعضهم فى حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر فى مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بعسقلان يكون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذى بقى من عسكر مصر كانوا لم يصلوا الطول بيكارهم كما ذكرناه قبل وكان هذا مما أطمع الفرنج فى الظهور الى قتال المسلمين وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم الى القتال ومنهم من هو فى خيمته ومنهم من قد توجه فى حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج اليه هو وأصحابه ودوابه الى غير ذلك فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الارض قد ملؤها طولا وعرضا وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فلما رأى ان الفرنج نحوه قاصدين حذره وأصحابه فتقدموا اليه فلما قربوا منه تأخر عنهم فلما رأى صلاح الدين الحال وهو فى القلب أمد تقى الدين برجال من عنده ليتقوى بهم وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين فى جناح القلب فلما رأى الفرنج قلة الرجال فى القلب وان كثيرا منهم قد سار نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم كالامير مجلى بن مروان والظهير أخى الفقيه عيسى وكان والى البيت المقدس قد جمع بين الشجاعة والعلم والدين وكالحاجب خليل الهكارى وغيرهم من الشجعان الصابرين فى مواطن الحرب ولم يبق بين أيديهم فى القلب من يردهم فقصدوا التل الذى عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مروا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبو على بن رواحة الحموى وهو من أهل العلم وله شعر حسن وما ورث الشهادة من بعيد فان جده عبد الله بن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله الروم يوم موتة وهذا قتله الفرنج يوم عكا وقتلوا غيره وانحدروا الى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم اليها وانهزام العساكر بين أيديهم فكانوا انهزموا أجمعون ثم ان الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفا أن ينقطعوا عن أصحابهم وكان سبب انقطاعهم ان الميمنة وقفت مقابلتهم فاحتاج بعضهم يقف مقابلها وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال باصحابهم وعادوا الى طرف خنادقهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين الى خيمة صلاح الدين صادفوهم وهم راجعون فقاتلوهم وثاربهم غلمان العسكر وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم بنادبهم ويأمرهم بالكرة وبمعاودة القتال فاجتمع معه منهم جماعة صالحة فحمل بهم

على

حزب به عليه * فطارت وقعاته فى البلاد ولا شوارد الامثال * وأبيات المعانى من القصائد الطوال * ففى كل نادٍ نداء بألحانها وفى كل مشهد شهادة باستحسانها * فأما الشعر فقد نشر عليه محموده * وسعد به جدوده * وفتق بالعذب الرواء صيخوده * فأرباب كالعنادب تغريدا بمناقبه * والقمارى تسجيعا على الضرب الماذى فى ضرائبه * فهو بعدله فى الناس غياث ورحمه * وبفضله لأهل الفضل ثمال وعصمه * وانفرد بتدبير البلاد والعباد بناء على الاساس * وحلبا على الابساس * واخافة على الايمان * ومكافأة بالاساءة والاحسان طوأسوا الجراح القلوب بمراهم الترغيب * وانكارا بمعروف العمارة سابق التخريب * واشارة على السلطان فى امور مملكته بما يفيد عاجل التوفير وآجل الثواب الغزير لا جرم انه استتبت الامور بفنائه وانسدت الثغور على آرائه وكذلك من كان على العلم ايراده واصداره وعلى

على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد بل قتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى وفي جملة من أسر مقدم الداوية الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه فلما ظفر به الآن قتله وكانت عدة القتلى سوى من كان الى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل فأمر بهم فألقوا في النهر الذي يشرب الفرنج منه وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج فان الرجالة لم يلحقوهم وكان في جملة الاسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل فلما أسرن والقي عنهن السلاح عرفن انهن نساء وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الاردن وعاد ومنهم من بلغ دمشق ولولا ان العساكر تفرقت في الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج الاستئصال والاهلاك مرادهم على ان الباقين بذلوا جهدهم وجدوا في القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج في معسكرهم لعلمهم يفزعون منهم فجاءهم الصريخ بان رحالهم وأموالهم قد نهبت وكان سبب هذا النهب ان الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه وكان في عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون في جمعها وتحصيلها فامر بالنداء باحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الارض من المفارش والغيب المملوأة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه فنفاه ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج واصلحوا شان الباقين منهم

(ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا)

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الارض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الامزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده فحضر عنده الامراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأي ان نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فان رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وان أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم الى ما نحن فيه ثم ان مزاجك منحرف والالم شديد ولو وقع ارجاف لهلك الناس والرأي على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الاطباء على ذلك فأجابهم اليه الى ما يريد الله ان يفعله واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فرحلوا الى الخروبة رابع شهر رمضان وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها واغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا في تلك الارض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر الى البحر ومراكبهم ايضا في البحر تحصرها وشرعوا في حفر الخندق وعمل السور من التراب الذي يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن في الحساب وكان البرك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون انما هم معتقدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين ان عاد الى قتالهم فحينئذ ظهر رأي المشير بن بالرحيل وكان البرك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الامر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بان يرسل العساكر جميعها اليها ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم فقال اذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيأ وربما

البصيرة ارجاؤه وبداره

(ذكر الامير شمس المعالي قابوس بن وشمكير وما ختم به اجله وانتصاب ابنه الامير شمس فلك المعالي منوجهر منصبه ووراثته ملكه)

قد كان ذلك الامير على ما خص به من المناقب. والرأي البصير بالعواقب والمجد المنيف على النجم الثاقب *مر السياسة لا تستساغ كأسه *ولا يؤمن بحال سطوته وبأسه *يقابل زلة القدم *بارافة الدم *ولا يعرف في أدنى درجات العثار وان لم يقصد اليه مراد *ولم يشترك في كسبه اعتقاد *غير حر الانتقام *بحد الحسام *والتغليق عن مركب الهام *لا يذكر العفو عند الغضب * ولا يعرف معنى السوط والخشب *ولا يرى الحبس الا ما بين الصفائح والترب *وهلك على خشونة هذا الملمس وصعوبة هذا البطش فثام من حاشيته لو استبقاهم على خفة أجرامهم لكان أشبه بالجلالة *وألبق بالاصالة والعدالة فما زالت هذه حاله *حتى

كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير فتأخر الامر الى أن عوفي فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا واحكموا أمورهم وحصنوا انفسهم بما وجدوا اليه السبيل وكان من بعكا يخرجون اليهم كل يوم ويقاتلونهم ويقاتلونهم منهم بظاهر البلد

(ذكر وصول عسكر مصر والاسطول المصري في البحر)

في منتصف شوال وصلت العساكر المصرية وقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والاقواس شيأ كثيرا ومعهم من الرجالة الجم الغفير وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية رجالا كثيرا وهو على عزم الزحف اليهم بالفارس والراجل ووصل بعده الاسطول المصري ومقدمه الامير لؤلؤ وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة فوصل بغتة فوقع على بطسة كبيرة للفرنج ففتحها وأخذ منها أموالا كثيرة وميرة عظيمة فادخلها الى عكا فسكنت نفوس من بها بوصول الاسطول وقوي جنانهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في صفر خطب لولي العهد أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ونثرت الدنانير والدراهم وأرسل الى البلاد في اقامة الخطبة ففعل ذلك وفيها في شوال ملك الخليفة تكريت وسبب ذلك ان صاحبها وهو الامير عيسى قتله اخوته وملكوا القلعة بعده فسير الخليفة اليهم عسكرا فحصروها وتسلموها ودخل أصحابه الى بغداد فاعطوا اقطاعا وفيها في صفر فتح الرباط الذي بناه الخليفة بالجانب الغربي من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يوما مشهودا وفي هذه السنة في رمضان مات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون الفقيه الشافعي بدمشق وكان قاضيها وأضر وولي القضاء بعده ابنه وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعية وفيها في ذي القعدة توفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري بالخروبة مع صلاح الدين وهو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الاسدية وكان فقيها جنديا شجاعا كريما ذا عصبية ومروأة وهو من أصحاب الشيخ الامام ابي القاسم بن البرزي تفقه عليه بجزيرة ابن عمر ثم اتصل باسد الدين شيركوه فصار اماما له فرأى من شجاعته ما جعل له اقطاعا وتقدم عند صلاح الدين تقدما عظيما وفيها في صفر توفي شيخنا أبو العباس احمد بن عبد الرحمن ابن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان بمكة وكان رحمه الله عالما متبحرا في علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه والاصولين والحساب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك وختم أعماله بالزهد ولبس الخشن وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاورا فتوفي بها وكان من أحسن الناس صحبة وخلقا وفيها في ذي القعدة مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي مدرس النظامية وكان من أصحاب ابي الحسن بن الخل وكان صالحا خيرا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة وجاه عريض وكان حسن الخط يضرب به المثل

(ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة)

(ذكر وقعة الفرنج والبرلمند وعود صلاح الدين الى منازلة الفرنج)

استوحشت النفوس منه * وانقلبت القلوب عنه * وشحنت الصدور عليه * ومالت عنه الاهواء المائلة اليه * اذ كل أحد لا يأمن العثرة * ولا يملك العصمة * ومتى كان العقاب ملحقا بالخطا اليسير صارت النفوس مجتاحه * والارواح مستباحه * والمرء من البشر * لا من ورق الشجر * فهو اذا مات * فقد فات وليس مما يعود * بعد ما عرى العود واتفق ان حاجبا له كان يعرف بحاجب نعيم وهو أحد اعيان الكرا كلة * في حدود جرجان عديم الغائلة والعادية * سليم الناحية * من بين أفناء الحاشية * وكان اعتمده لضبط استراباذ وسياستها ورفع اليه انه طمع في بعض رعاياها في منال * وأمال الى الانتفاع منه بمال * فأمر بقتله وتعليقه عن خيط رقبته وهو يستغيث مفصحا ببراءة الساحة * ونقاء الجيب والراحة * وقصور ما سعى به عليه لو صح اسناده عن افاقة نفسه وأراقة دمه فزاد قتله في ايغار الصدور واضغان القلوب وتوامر

قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكا الى الخروبة لمرضه فلما برأ اقام بمكانه الى أن ذهب الشتاء وفى مدة مقامه بالخروبة كان يزكه وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج فلما دخل صفر من سنة ست وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج ان صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذى فى البرلك عندهم قليلا وان الوحل الذى فى مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد ان يقصد البرلك فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على البرلك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب وأحجم الفرنج عنهم حتى فنى نشابهم فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الامر وعلم المسلمون انه لا ينجيهم الا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل الى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج الى خندقهم ولما عاد صلاح الدين الى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس الى نصر اخوانهم فأتاه الخبر ان الفرنج عادوا الى خندقهم فأقام ثم انه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماة وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل بتل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون

(ذكر احراق الابراج ووقعة الاسطول)

كان الفرنج فى مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا طول كل برج منها فى السماء ستون ذراعا وعملوا كل برج منها خمس طبقات كل طبقة عملوا فيها من المقاتلة وقد جمع أخشابها من الجزائر فان مثل هذه الابراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب الا القليل النادر وغشوها بالجلود والخل والطين والادوية التى تمنع النار من احراقها وأصلحوا الطرق لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين من ربيع الاول فاشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا فى طم خندقها فاشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرا فأرسل اهله الى صلاح الدين انسانا يسبح فى البحر فاعلمه ما هم فيه من الضيق وما قد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب هو وعساكره وتقدموا الى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما يشغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل اهل عكا الا أن الامر قد خف عمن بالبلد ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهارا والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الابراج فانهم لم يتركوا حيلة الا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيأ وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك فأتاهم الله بنصر من عنده وإذن من احراق الابراج وكان سبب ذلك ان انسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسى انما اشتهى معرفتها وكان بعكا لامر يريده الله فلما رأى الابراج قد نصبت على عكا شرع فى عمل ما يعرفه من الادوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شئ من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الامير قراقوش وهو متولى الامور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيق أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الابراج ما أعطيه حتى أحرقه وكان عند

عند ذلك أعيان العسكر
على خلعه ونزع الايدى
عن طاعته وكفاية النفوس
شغلها بثقل وطأته *
وخشونة سياسته * ووافق
هذا التدبير منهم غيبته عن
جرجان الى العسكر بجناشك
استبد الاجواد بها عن لفح
الحرور * عند طلوع الشعرى
العبور * فعمى عليه وجه
الصورة * وشذ عنه علم تلك
المشورة * فلم يرعه ذات
ليلة غير زحام العسكر بباب
القلعة التى اعتصر بها
وانتهابهم أمواله * وأفراسه
وأبغاله ومراميهم قسره
واستزاله * فهتر فى وجوههم
من كانوا نزولا بفنائه * محامين
من ورائه * حتى انكشفوا
عنه صاغرين * وولوا على
أعقابهم داخرين * وولوا
الى جرجان * فتملكوها
عليه معلنين بشعار العصيان
لابسين عار الكفران *
وبعثوا الى الامير أبى منصور
منوجهر بن قابوس وهو
بطبرستان يستحثونه على
الورود لعقد البيعة له
وزفاف الملك اليه فطار
اليهم بقوادم العقاب
استعظاما للحادثة بأسه *
واكبارا لما نفذ من المكيدة

فيه * وطمعا في تدارك الخطب وتلافيه * فلما دنا منهم مضربه توافقوا على طاعته ان خلع أباه * وابتزازه رداء الملك ان أباه * فلم يجد في عاجل الحال غير المداراة ضبطا لما استعر وصونا لستر الحشمة من الانخراق * وابقاء على سكر الفساد من الانبثاق * واشفاقا على البيت من الضياع * وعلى الملك من التخطف والانتزاع * وقد كان شمس المعالي قابوس لما سمع بنبا القوم واجتماع كلمتهم على الخلع عطف بمن كان معه من رجال ومال الى ناحية بسطام ناظرا ما يسفر عنه عاقبة التحزب * وينتهي اليه ثائرة التغلب والتوثب فلما تسامعوا بنبائه حملوا الامير منوجهر على قصده * وازعاجه عن مكانه أو ردته فسار معهم اليه مضطرا ودافعا بالشر شرا كالجمل الآنف ان قيد انقاد وان أنيخ على صخرة استناخ فلما وصل الى أبيه * أذن له دون من يليه * من أتباعه وحواشيه * اذ قام قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظا بقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فاجابه الى ذلك وأمر المنجنيق بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج اذا رأوا القدور لا يحرق شيأ يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم ان الذي ألقاه قد تمكن من البرج الق قدرا مملوأة وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضطرمت النار في نواحي البرج وأعجلت من في طبقاته الخمر عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه وكان فيه من الزرديات والسلاح شئ كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا ان القدور الاولى لا تعمل بحملهم على الطمأنينة وترك السعي في الخلاص حتى عجل الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة فلما احترق البرج الاول انتقل الى الثاني وقد هرب من فيه خوفهم فاحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لانهم ليس فيهم أحد الا وله في البلد اما نسيب واما صديق وحمل ذلك الرجل الى صلاح الدين فبذل له الاموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال انما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء الا منه وسيرت الكتب الى البلاد بالبشائر وأرسل يطالب العساكر الشرقية فأول من اتاه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي سيره أبوه مقدما على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب اربل وكان كل منهم اذا وصل يتقدم الى الفرنج بعسكره وينضم اليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الاسطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا الى طريقه اسطولا ليلقاه ويقاتله فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الاسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشئ فكان القتال بين الفريقين برا وبحرا وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك الا أن القتل في الفرنج كان اكثر منه في المسلمين ووصل الاسطول الاسلامي سالما

(ذكر وصول ملك الالمان الى الشام وموته)

في هذه السنة خرج ملك الالمان من بلاده وهم نوع من الفرنج من اكثرهم عددا وأشدهم بأسا وكان قد أزعجه ملك الاسلام البيت المقدس بجمع عساكره وأزاح علتهم وسار عن بلاده وطريقه على القسطنطينية فارسل ملك الروم بهذا الى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعده انه لا يمكنه من العبور في بلاده فلما وصل ملك الالمان الى القسطنطينية عجز ملكه عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحدا من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم فضاقت بهم الازواد والاقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وصاروا على أرض بلاد الاسلام وهي مملكة الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن قتلمش بن سلجق فلما وصلوا الى أول بلاده ثار بهم التركمان الاريح فغنموا ما يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون

ما قدروا عليه وكان الزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديدا والثلج مترا كما فاهلكهم البرد والجوع والتركمان فقل عددهم فلما قاربوا مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج ارسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد الى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه وتفرق أولاده في بلاده وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في أثره فنازلوا قونية وأرسلوا الى قلج ارسلان هدية وقالوا له ما قصدنا بلادك ولا أردناها وانما قصدنا البيت المقدس وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في اخراج ما يحتاجون اليه من قوت وغيره فأذن في ذلك فاتاهم ما يريدون فشبعوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وان يسلم اليهم جماعة من امرائه رهائن وكان يخافهم فسلم اليهم نيفا وعشرين أميرا كان يكرههم فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض اليهم فقبض ملك الالمان وقيدهم فمنهم من هلك في أسره ومنهم من فدى نفسه وسار ملك الالمان حتى أتى بلاد الارمن وصاحبها الافون بن اصطفانة بن ليون فامدهم بالاقوات والعلوفات وحكمهم في بلاده وأظهر الطاعة لهم ثم سار وانحوا نطاكية وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليغتسل فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره وكان معه ولده فصار ملكا بعده وسار الى انطاكية فاختلف أصحابه عليه فاحب بعضهم العود الى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال الى تمليك أخ له فعاد أيضا وسار فيمن صحت نيته له فعرضهم وكانوا ثلثمائة وأربعين الفا ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا الى انطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور فتبرم بهم صاحبها وحسن لهم المسير الى الفرنج على عكا فساروا على جبلة واللاذقية وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون وخرج أهل حلب وغيرها اليهم وأخذوا منهم خلقا كثيرا ومات اكثر من أخذ فبالغوا طرابلس وأقاموا بها اياما فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم الا نحو ألف رجل فركبوا في البحر الى الفرنج الذين على عكا ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا الى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك قلج ارسلان يكاتب صلاح الدين باخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور في بلاده فلما عبروها وخلفوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم لان أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الالمان فانه استشار أصحابه فاشار كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم الى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير من عنده من العساكر منها عسكر حلب وجبلة واللاذقية وشيزر وغيرها ذلك الى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل (اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) فكفى الله شرهم ورد كيدهم في نحرهم ومن شدة خوفهم أن بعض امراء صلاح الدين كان له بيلد الموصل قرية وكان أخي رحمه الله يتولاها فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن فارسل اليه في بيع الغلة فوصل كتابه يقول لا تبع الحبة الفرد واستكثر لنا من التبن ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول تبيع الطعام فانا بحاجة اليه ثم ان ذلك الامير قدم

دونه من خاصته رجال يرون الموت شهدا دون خذلانه * والروح وقفا على على شكر احسانه * فلما وصل اليه كفر طاعة وخضوعا * وأسال أودية الشؤن دموعا * وتشاكيا صورة الحادث * وتذاكرا حق المورث والوارث * وغرض الامير منوجهر أن يكون حجابا بينه وبين أعاديه * وان ذهبت نفسه فيه * ورأى شمس المعالي قابوس ان العارض قصارى أمره * وختام عمره * وانه أحق بوراثة ملكه وولاية الامر من بعده وسلم خاتم الملك اليه من يده واستوصاه الخير به مادام في فسحة من أمده * فتواضعا على أن ينتقل هو الى قلعة جناشك منفردا للعبادة حتى يأتيه يقينه * فيسلم له نفسه ودينه وأن يتفرد الامير منوجهر بتقرير الملك فريا وتقديرا وتقديما وتأخيرا * وقدمت اليه عمارية على هذه الجملة فاستقل الى القلعة المذكورة مع من رضيه لخدمته ومعونته * على ضروب

الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الاذن فيها بعد مدة يسيرة فقال لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا انه ليس لنا بالشام مقام فكتبت بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا اذا جئنا اليكم فلما اهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها

(ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا)

وفي هذه السنة في العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا الى المسلمين وهم كثير لا يحصى عددهم وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا للقاء الفرنج فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فعطف المصريون عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فاخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت امدادهم ألقوا بايديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم الا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر وكان مقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فحملوا أيضا على الفرنج وبالغوا في قتالهم ونالوا منهم نيلا كثيرا هذا جميعه ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاص الا مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة وكان بها عماد الدين زنكي صاحب سنجار وعسكر اربل وغيرهم ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جرتهم ولانت عريكتهم وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الهلع والجزع فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الالمان وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والاسر وما صار أمرهم اليه من القلة والذلة واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بازائهم وظنوا ان الفرنج اذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهنا على وهنهم وخوفا على خوفهم فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد في البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكندهري ابن أخي ملك افرنسيس لابيه وابن أخي ملك انكلتار لامه ووصل معه من الاموال شئ كثير يفوق الاحصاء فوصل الى الفرنج فجند الاجناد وبذل الاموال فعادت نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم ان الامداد واصلة اليهم يتلو بعضها بعضا فتماسكوا وحفظوا امكانهم ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج الى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين من مكانه الى الخروبة في السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى ثم ان الكندهري نصب منجنيقا ودبابات وعرادات فخرج من بعكا من المسلمين فاخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم ان الكندهري بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقا فلم يتمكن من ذلك لان المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمي من المنجنيق فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد ثم ان الفرنج كانوا ينقلون التل الى البلد بالتدريج ويستترون به ويقربونه الى البلد فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا وراءه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا فارسل صلاح الدين الى الاسكندرية يأمرهم بانفاذ الاقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب الى عكا فتأخر انفاذها

مصلحته * وعطف الامير منوجهر الى جرجان فولى الصدر * وضبط الامر * وأخذ يداري القوم ترغيبا وتطميعا * ويمنيهم الاحسان جميعا * وهم على جملة النفور * خيفة الشور * مادام شمس المعالى في صحة البقاء * وزمرة الاحياء * وما زالوا في الاحتيال عليه حتى فرغوا من أمره * وسلوا كما زعموا من عادية شره * ولم يرضوا به وهو في صوان الاموات حتى كشفوا عن محياه * رداء ورداه * فطابوا نفوسا * حين عدموا شمس المعالى قابوسا * ووارروه في مقبرة كان ابقاها لنفسه بظاهر جرجان * على سمت خراسان وغدا الناس في معناه كما قال مهلهل

نبئت ان النار بعدك أوقدت
واستب بعدك يا كليب المجلس
وتفاوضوا في أمر كل عظيمة
لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

وعقد الامير منوجهر المأتم ثلاثة أيام على رسم الجيل في حسر الرؤس * وضرب النفوس * ورفض المنام * وهجر الطعام ولما قضى ايام العزى نسي المقبور

فسير الى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك فسير بطسة عظيمة مملوأة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا ملابس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان فلما وصلوا الى عكا لم يشك الفرنج انها لهم فلم يتعرضوا لها فلما حاذت مينا عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون واتعشوا وقويت نفوسهم وتبلغوا بما فيها الى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحى الاسكندرية وأخذ من معها ان الفرنج وصلهم كتاب من بابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ما هم بصدده ويعلمهم انه قد أرسل الى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير الى نجدتهم برا وبحرا ويعلمهم بوصول الامداد اليهم فازدادوا قوة وطمعا

(ذكر خروج الفرنج من خنادقهم)

لما تتابعت الامداد الى الفرنج وجند لهم الكندهرى جمعا كثيرا بالاموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم وصناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادى عشر شوال فى عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل اثقال المسلمين الى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ عن عكا وكان قد عاد اليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الالمان ولقى الفرنج على تعبية حسنة وكان أولاده الافضل على والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخوه العادل أبو بكر فى الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم اليه وكان فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق ان صلاح الدين أخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر اليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا الى رأس النهر فشاهدوا عساكر الاسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا الى غربى النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد تذمموا على مفارقة خنادقهم فلزموا امكانهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخنادقهم والجالشية فى اكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم فلولا ذلك الالم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصل وانما لله أمر هو بالغه فلما بلغ الفرنج خنادقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون الى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا وفى الثالث والعشرين من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين وتعرض للفرنج جماعة أخرى فخرج اليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيأ من قتال وتطاردوا اليهم وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة اكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا وكان المسلمون يحملون اليهم الطعام من البلدان منهم الامير أسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ومنهم سيف الدين على بن أحمد المعروف

واستؤنفت على البيعة السرور

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا *
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولما سمع القادر بالله أمير المؤمنين بخبر شمس المعالى واستئثار قضاء الله به خاطب الامير منوجهر معزيا ومسليا * ولقبه بذلك المعالى مشرفا ومحليا * وعزم الله له على الصواب فى اختياره * والرشد فى ايثاره * ففزع الى السلطان يمين الدوله * وأمين الملة * معتصما بحبله * معتصرا بظله * مستظهرا بطاعته * مستنصرا فى مشايعته * مستغشيا رداء عنايته * متلافيا وهن المصاب بقوة أشباله ورعايته * وأنهض عدة من ثقات بابه بمباد موفوره * ونفائس مذخوره * ورسائل على صدق الاخلاص وصفو الامحاض مقصوره * فصادف ما رجاه رغبة فى موالاته * وحرصا على تقمن مرضاته * وتردد السفراء على رباية هذه الحال * وتوكيد عقدة الوصال * واحتكم السلطان عليه فى اقامة الخطبة له

بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضا اليهم وكذلك من عسقلان وغيرها ولولا ذلك لهلكوا جوعا خصوصا في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم تهيج البحر

(ذكر تسيير البدل الى عكا والتفريط فيه حتى أخذت)

لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التي عندهم لانهم لم تمكن من المينا فسيروها الى بلادهم صور والجزائر ففتح الطريق الى عكا في البحر فارسل أهلها الى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الامير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فامر صلاح الدين باقامة البدل وانفاذه اليها واخراج من فيها وأمر اخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل الى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم اليها وأخرج عوضهم فدخل اليها عشرون أميرا وكان بها ستون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة الى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وانفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى وكانوا اذا جاءهم جماعة قد جندوا تمنتوهم بأنواع شتى تارة باقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وانضاف الى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه واهمال النواب فاحسر الشتاء والامر كذلك وعادت مراكب الفرنج الى عكا وانقطع الطريق الامن سابح يأتي بكتاب وكان من جملة الامراء الذين دخلوا الى عكا سيف الدين علي بن أحمد المشطوب وعز الدين أرسل مقدم الاسدية بعد جاولي وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بان يرسل الى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والاقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام فانهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه فلم يفعل وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل فكان الامر بالضد

(ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب اربل ومسير أخيه مظفر الدين اليها)

كان زين الدين يوسف بن زين الدين علي صاحب اربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان وذكر العماد الكاتب في كتابه البرق الشامي قال جئنا الى مظفر الدين نعزيه باخيه وظننا به الحزن وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه فاذا هو في شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ما خلفه وهو جالس في خيام أخيه المتوفى وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم ويحمل عليهم وما أغفلهم منهم بلد اجى صاحب قلعة خفتيذ كان وأرسل الى صلاح الدين يطلب منه اربل لينزل عن حران والرها فاقطعه اياها وأضاف اليها شهرزور وأعمالها ودربند قرابلي وبني قفجاق ولما مات زين الدين كاتب من كان باربل مجاهد الدين قايماز لهواهم فيه وحسن سيرته كانت فيهم وطلبوه اليهم ليملكوه فلم يجسر هو ولا صاحبه عز الدين أتابك مسعود بن مودود على ذلك خوفا من صلاح الدين وكان أعظم الاسباب في تركها ان عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين فتمكن زين الدين من اربل ثم ان عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلك أجمع فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه وجعل معه انسانا كان من بعض علمان مجاهد الدين فكان يشاركه في الحكم ويحمل عليه ما يعقده فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد فلما طلب الى اربل قال لمن يثق اليه لا أفعل لئلا يحكم فيها

على منابر ولاياته * امتحانا لصدوقة عقده في موالاته وأنهض اليه اباه محمد الحسن ابن مهران أحد ثقاته * بما رأى اصحابه من نفائس خلعه وكراماته فصادف منه قريبا مجيبا وسميعا مطيعا وأمر باقامة الدعوة باسمه على منابر جرجان وطبرستان * وقومس ودامغان * والتزم في السنة خمسين ألف دينار اتاوة * وعلى عكس الطاعة والاخلاص علاوه * واستدعى السلطان على تفئة ذلك وقد عزم على غزوة نارين انجاد جشمه بطائفة من الجيل والديلم يحسنون حروب المضايق * ويغتنون غناء الكماة البطارق * فهرب اليه ألفي رجل من خلص الجيلين ان راموا الوعور فهو ول * أو قصدوا السهول فسيول * وقد أمر باراحة علالهم في أعطياتهم * ونصب لهم من يقيم أود حاجاتهم * ويطلق لهم مدة الحاجة الى غنائهم * واجب أرزاقهم واستحقاقاتهم * فلما استحق باثاره في القربه * تزيد الرتبه * وبمساعيه

فلان ويكف يدى عنها فجاء مظفر الدين اليها وملكها وبقى غصة فى حلق البيت الا تابكى لا يقدرون على لساغتها وسنذكر ما اعتقده معهم مرة بعد أخرى ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها الى المسلمين)

فى هذه السنة ملك ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الاندلس مدينة شلب وهى من كبار مدن المسلمين بالاندلس واستولى عليها فوصل الخبر بذلك الى الامير أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب والاندلس فتجهز فى العساكر الكثيرة وسار الى الاندلس وعبر الجواز وسير طائفة كثيرة من عسكره فى البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالا شديدا حتى ذلوا وسألوا الامان فأمنهم وسلموا البلد وعادوا الى بلادهم وسير جيشا من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وفتكوا فى الفرنج فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين وعاد أبو يوسف الى مراكش وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم اظهار الخلاف فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة فتحركوا وسنذكر خبرهم هناك ان شاء الله تعالى

(ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان)

كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرض الى بلاد غياث الدين ومعز الدين ملكى الغورية من خراسان فتجهز غياث الدين وخرج من فيروزكوه الى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة فبقى يتردد بين بلاد الطالقان وبنجده ومرو وغيرها يريد حرب سلطان شاه فلم يزل كذلك الى أن دخلت سنة ست وثمانين فجمع سلطان شاه عساكره وقصد غياث الدين فتصافا واقتتلا فانهزم سلطان شاه وأخذ غياث الدين بعض بلاده وعاد الى غزنة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة وكان سير اليها جيشا حصروها سنة خمس وثمانين فقاتلوا عليها قتالا شديدا ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير فلما ضاقت عليهم الاقوات سلموها على اقطاع عينوها ووصل صاحبها وأهلها الى بغداد واعطوا اقطاعا ثم تفرقوا فى البلاد واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وانه يتعرض بالسؤال الى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته وفى هذه السنة توفى مسعود بن البادر وكان مكثرا من الحديث حسن الخط خيرا ثقة وفيها توفى أبو حامد محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى بالموصل كان قاضيا وقبلها ولى قضاء حلب وجميع الاعمال وكان رئيسا جوادا ذا مروأة عظيمة يرجع الى دين واخلاق

(ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة)

فى هذه السنة فى ربيع الاول سار تابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل الى جزيرة ابن عمر فحصرها وكان بها صاحبها سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو ابن أخى عز الدين وكان سبب حصره ان سنجرشاه كان كثير الاذى لعمه عز الدين والشناعة عليه

فى الطاعة قضاء الحاجة أنهض رئيس جرجان أبا سعد الجولكى المقدم فضلا وأدبا * المحتشم حسبا ونسبا * لاقتضاء هزيد الحال بوصله تقوم الكفاة بخطبتها عنه والطاعة باستيجابها له فنهض فى خفارة الادب تهديه * وكفالة الرفق فيما يذره ويأتيه * ولم يزل يأتى الامر من بابه ويستطلع المراد من حجابه * حتى أسمحت قرونة السلطان لما استدعاه * وأوجب الاسعاف بما توخاه * ولما انكفأ الفاضل أبو سعد وراءه بصورة الايجاب * وما صادفه من هزة المجد للاطلاب جشمه الامير فلك المعالى معاودة الحضرة مع القاضى بجرجان وهو شيخ العلم وراوية الحديث ورضيع أخلاف التدريب والتجريب * لتنجز النجاح * وتأريب عقدة النكاح * فنهضا الى حضرة السلطان مقيمين رسم الخدمة * وخاطبين ضم السدى الى اللحمة * فرأى السلطان تحقيق مبذول العدة *

والمراسلة الى صلاح الدين فى حقه تارة يقول انه يريد قصد بلادك وتارة يقول انه يكاتب اعداءك ويحثهم على قصدك الى غير ذلك من الامور المؤذية وعز الدين يصبر على ما يكره لامور تارة للرحم وتارة خوفا من تسليمها الى صلاح الدين فلما كان فى السنة الماضية سار صاحبها الى صلاح الدين وهو على عكا فى جملة من سار من أصحاب الاطراف واقام عنده قليلا وطلب دستورا للعود الى بلده فقال له صلاح الدين عندنا من اصحاب الاطراف جماعة منهم عماد الدين صاحب سنجار وغيرها وهو اكبر منك ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر منك وغيرهم ومتى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك فلم يلتفت الى قوله وأصر على ذلك وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجرشاه لانه ظلمهم وأخذ اموالهم واملاكهم فكان يخافه لهذا ولم يزل فى طلب الاذن فى العود الى البلاد الى عيد الفطر من سنة ست وثمانين فركب تلك الليلة سنجرشاه وجاء الى خيمة صلاح الدين وأذن لاصحابه فى المسير فسار وا بالاثقال وبقى جريدة فلما وصل الى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الاذن وكان صلاح الدين قد بات مهموما وقد عرق فلم يمكن أن يأذن له فبقى كذلك مترددا على باب خيمته الى أن اذن له فلما دخل عليه هناه بالعيد واكب عليه يودعه فقال له ما علمنا بصحة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ما جرت به العادة فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك عندنا على هذا الوجه فلم يرجع وودعه وانصرف وكان تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين قد أقبل من بلده حماة فى عسكره فكتب اليه صلاح الدين يأمره باعادة سنجرشاه طوعا أو كرها فحكى له عن تقى الدين انه قال ما رأيت مثل سنجرشاه لقيته بعقبة فيق فسألته عن سبب انصرافه فغالطنى فقلت له سمعت بالحال ولا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهديته فيضيع تعبك وسألته العود فلم يصغ الى قولى فكلمنى كأننى بعض عمالیکه فلما رأيت ذلك منه قلت له ان رجعت بالتى هى أحسن والا أعدتك كارها فنزل عن دابته وأخذ ذيلى وقال قد استجرت بك وجعل يبكى فعجبت من حماقته أولا وذلته ثانيا فعاد معى فلما عاد بقى عند صلاح الدين عشرة أيام وكتب صلاح الدين الى عز الدين انا بك يأمره بقصد الجزيرة ومحاصرتها وأخذها وانه يرسل الى طريق سنجرشاه ليقبض عليه اذا عاد فخاف عز الدين ان صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد فلم يفعل شيأ من ذلك بل أرسل اليه يقول أريد خطك بذلك ومنشورا منك بالجزيرة فتردد الرسل فى ذلك الى أن انقضت سنة ست وثمانين فاستقرت القاعدة بينهما فسار عز الدين الى الجزيرة فحصرها اربعة أشهر وأياما آخرها شعبان ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجرشاه على يد رسول صلاح الدين فانه كان قد أرسل بعد قصدها يقول ان صاحب سنجار وصاحب اربل وغيرهما قد شفعا فى سنجرشاه فاستقر الصلح على ان لعز الدين نصف أعمال الجزيرة ولسنجرشاه نصفها وتكون الجزيرة بيد سنجرشاه من جملة النصف وعاد عز الدين الى الموصل وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول ما قيل لى عن أحد شئ من الشر فرأيته الا كان دون ما يقال فيه الا سنجرشاه فانه كان يقال لى عنه أشياء استعظمتها فلما رأيته صغر فى عينى ما قيل

(ذكر عبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية وعصيانه على خلاط وموته)

وعصيان سلطان النفس طاعة لرب العزة * وفاز للامير فلك المعالى فلذة من كبده * وسمح له بزهرة الارض من نجوم ولده * وأى نجم كان فى فلك المعالى مداره * لم تبعد داره * أنى ومدار النجوم الافلاك * وأزواج الملكات الاملاك * وجرى من الاستبشار باتحاد النفوس والديار * وصب النثار * وصوب المبار * كالغيوث الغزار * ما أرخ به كتاب الدهر * ووسم بذكره سالفة العصر * وعاد الرسولان بدرك النجح الموقوت * ولا السعدان يقترنان فى الحوت * وعندهما تكلف الامير فلك المعالى حرمة للقربى * ولحلة بين يدى النجوى * مالا تبين من رآه على اختلاف أصنافه * واغراب نقوشه وأفوافه * أن له همة الى قمة الجوزاء مرفوعه * ونية على صدق الولاء مطبوعه * ولم يبق أحد من أركان الدولة وحواشيها * والراتعين حول مراعيها * من لم يضرب بسهم من سهام اللطف * ولم يشترك فى البر المعقود بالشرف * لاجرم ان

في هذه السنة في صفر سار تقي الدين من الشام الى البلاد الجزرية حران والرها كان قد أقطعه اياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من ظفر الدين مضافا الى ما كان له بالشام وقرر معه انه يقطع البلاد للجند ويعودوهم معه ليتقوى بهم على الفرنج فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار الى ميافارقين وكانت له فلما رأيناها تجدد له طمع في غيرها من البلاد المجاورة لها فقصد مدينة حاني من ديار بكر فحصرها واملكها وكان في سبعمائة فارس فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بملكه حاني جمع عساكره وسار اليه فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس فلما التقوا انهزموا فلم يثبت عسكر خلاط لتقي الدين بل انهزموا وتبعهم تقي الدين ودخل بلادهم وكان بكتمر قد قبض على محمد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه أرمن وسجنه في قلعة هناك فلما انهزم كتب الى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق فوصل القاصد وتقي الدين قد نازل القلعة فأخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار الى خلاط فحصرها ولم يكن في كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضا فعاد عنها وقصد ملازكرد وحصرها وضيق على من بها وطال مقامه عليها فلما ضاق عليهم الامر طلبوا منه المهلة اياما ذكروها فاجابهم اليها ومرض تقي الدين فمات قبل انقضاء الاجل بيومين وتفرقت العساكر عنها وحمله ابنه وأصحابه ميتا الى ميافارقين وعاد بكتمر قوي أمره وثبت ملكه بعد ان أشرف على الزوال وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة فان ابن رشيق نجا من القتل وبكتمر نجا من أن يؤخذ

(ذكر وصول الفرنج من الغرب في البحر الى عكا)

وفي هذه السنة وصلت أمداد الفرنج في البحر الى الفرنج الذين على عكا وكان اول من وصل منهم الملك فليب ملك افرنسيس وهو من اشرف ملوكهم نسبا وان كان ملكه ليس بالكثير وكان وصوله اليها ثاني عشر ربيع الاول ولم يكن في الكثرة التي ظنوها وانما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم وحموا في قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين يشغرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل الى الامير اسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشواني والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها في البحر لمنع الفرنج من الخروج الى عكا ففعل ذلك وسير الشواني في البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلتار الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها فاقتتلت شواني المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب ايضا صلاح الدين الى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما الفرنج الذين على عكا فانهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الاولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شقرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم في المجيء اليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد ثم وصل ملك انكلتار ثالث عشر جمادى الاولى وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم فانه لما وصل اليها غدر بصاحبها وملكها جميعا فكان ذلك زيادة في ملكه وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها الى من على عكا من الفرنج فوصل اليهم في خمس

السلطان أعز حرمة قرباه وجزاه * عما سمحت به يمناه * وأفرد كل واحد منهم ومن قواد جيوشه وأفراد رجاله بخلع علمت اجانب الملوك كيف شريطة الجود * والسماحة بالموجود * وتقصي الجهد بعفو الرأي دون الجهود * فأما ما صحب درة الصدف * ويا قوتة الشرف * فمال طال عهد الدهر بمثله مجموعا في مكان * مجموعا من خراسان ولا غرو فالشمس تفني البدور نورا * والبحر يدع الخلج مسجورا * وقد كان الامير فلك المعالي بعد ان استتب له امره واشتد بظاهرة السلطان ظهره * دمر على اعيان عسكره المشتركين في دم ابيه فصدع ذات بينهم بوجوه الحيل * وأنواع من العلل * حتى اباد خضراءهم * وسقى ظماء الارض دماءهم واحس ابن خركاش وهو القريب العاق * والنسيب المشاق * بالداهية الدهياء فانسل تائها * بين سمع الارض وبصرها * تأباه الرعان والاباطح * وتلفظه المنعان

وعشرين قطعة كبارا عملوا أة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم فى المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلى المسلمون منه بالداهية التى لا مثل لها ولما وردت الاخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوأة من الرجال والعدد والاقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل فلقيها ملك انكلتار مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها الى أسفلها وهو يعقوب الحلبى مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها اخراقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر ففرق جميع ما فيها وكانت عكا محتاجة الى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم ان الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلا وما زالوا يقربونه الى البلد ويقاتلون من وراءه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا الى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع

(ذكر ملك الفرنج عكا)

فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من بالبلد أن الامير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الامراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج الى ملك افرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه الى ذلك فعاد على بن أحمد الى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا واهتموا أنفسهم ثم ان أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب وان الفرنج لم يجيبوا الى الامان اتخذوا الليل جملا وركبوا فى شئ صغير وخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم عز الدين ارسل الاسدى وابن عز الدين جاولى وسنقر الوشاقى ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنا الى وهنهم وضعفا الى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم ان الفرنج ارسلوا الى صلاح الدين فى معنى تسليم البلد فأجابهم الى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من فى البلد ليطلقوا هم من بعكا وان يسلم اليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فارسل الى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم انه يتقدم الى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا فى ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه لظهوره فلما عجز الناس من حفظ البلد وزحف اليهم الفرنج بجدهم وحديدهم فظهروا من البلد على سوره يحركون اعلامهم ليراها المسلمون وكانت هى العلامة اذا اختبروهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم ان الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يعرضهم وهو فى أولهم وكان الفرنج قد خفوا عن خنادقهم ومالوا الى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا فى مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى

والصحاصح * فهما مس جانب القرار * طلبته هامة الماضى بالثار * فهام على وجهه ولا فقيد تقيف بين تشريق وتغريب * وتصعيد وتصويب * وكان أحد من أثار ذلك الشر على شمس المعالى قابوس على ما تساندت به الاخبار ابو القاسم الجعدى وكان صاحب جيشه فانحدر الى رأس الحد كباز * على قفا زيرى كل صيحة عليه * وكل حشيش سهم اقوامس بين جنبيه * فأمهله فلك المعالى زمانا * حتى ظن انه دون شؤن الآخرين شانا * ثم اطياه بتطميعه وترغيبه حتى اعلقه حبالة الاقتناص * وآيسه من الطمع فى الخلاص * وان لله حكما فى امور عباده معلقا بآماد معلومه * وغايات بحدوده * فليس قبلها مستقدم لما تأجل * ولا بعدها مستأجل لما تعجل * فاحتال ابو القاسم حتى انسل هاربا * واعتسف البيد جانبا ثم جانبا * وما زال على حاله واحتياله حتى ورد نيسابور يظن وبعض

المشطوب ان صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج الى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه باموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين واعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور فاجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا انهم يفعلون ذلك ليصل اليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال وكان هو الامان له انما يخرج ما يصل اليه من دخل البلاد أولا بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الامراء واستشارهم فأشاروا بان لا يرسل شيأ حتى يعاود يستحلفهم على اطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك لانهم اهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين في ذلك فقال الداوية لا نحلف ولا نضمن لانا نخاف غدر من عندنا وقال ملوكهم اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيأ وأعاد الرسالة اليهم وقال نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقي وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا لا نحلف انما ترسل الينا المائة ألف دينار التي حصلت والاسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وانما يطلقون علمان العسكر والفقراء والاكراد ومن لا يؤبه له ويمسكون عندهم الامراء وأرباب الاموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان الى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم واذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان جمعه وسير الاسرى والصليب الى دمشق

(ذكر رحيل الفرنج الى ناحية عسقلان وتخريبها)

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من اصلاح أمر عكا برزوا منها في الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطئ البحر لا يفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى في عسكره بالرحيل فساروا وكان على الميمنة ذلك اليوم الملك الافضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين اياز كوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الامراء فضايقوا الفرنج في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة وأرسل الافضل الى والده يستمده ويعرفه الحال فامر العساكر بالمسير اليه فاعتذروا بانهم ما ركبوا اهبة الحرب وانما كانوا على عزم المسير لا غير فبطل المدد وعاد ملك الانكليتار الى ساقة الفرنج فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون قريبا منهم وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعوض

الظن اثم ان انقطاعه الى السلطان * يمين الدولة وأمين الملة * على تغلغل دواخله * وارتهانه بسالف فعله وقابله * مع ما تعهد في ذات البين من عقود * وتأكد من عهود * واشترك فيه من طارف ومتلود * يحل عنه عقال آثامه ويكف عنه ما حق عليه من بأس الله وانتقامه * كلا ان سوء الفعل خذول * والقاتل لا محالة مقتول * وشر الحن ما أومض بالخلاص قبل ابانه * واستيفاء مدة النضج على بحرانه * انه ابو هم الفكال * ثم يعقب الهلال * كالهرة تطمع الفأرة في الخلاص حتى اذا كانت منها على غلوة * لحقتها بعدوة * لا جرم ان السلطان لما أنهى اليه صورة حاله * ومن قبل ما سمع بسوء فعاله * أمر برده وراءه في عقاله * ولقد أحسن ابن الرومي في مقاله * الخير مصنوع بصاحبه

فمتى فعلت الخير أعطيكا
والشر مفعول بفاعله
فمتى فعلت الشر أعطبكا

(ذكر داراه بن شمس المعالي قابوس بن وشمكير)

قد كان داراه بن قابوس بعد استثمانه من جانب ابي علي محمد بن محمد بن سيجور الى الامير نوح بن منصور الرضي مقيما على خدمته * سهيما في نعمته * الى أن فتح الله على أبيه جرجان وطبرستان فانحاز اليه مستغنيا بخدمته عن خدمة غيره وصادف من الاشبال والاقبال ما اقتضاه حكم الابوة والبنوة ثم حدثه شمس المعالي الى طبرستان فأقام بها سادا دون مخالفيه * وذماما على اوليائه وموالية * واستنهضه منها على قرقة ألقيت اليه فأتاه وهو باستراباذ بريه صحة أديمه * واستواء حديثه بقديمه * فأحسن استقباله وانزاله ثم دعاه لي وقت ارتاب به فركب على قصد مجلسه ثم عطف عطفة الليث الخادر نحو خراسان بين غياض تشكو الاراقم بينها ضيق المجال والمضطرب وصعوبة المنساب والمسرب * واستصحب من رافقه ووافقه من علمائه وأهل الثقة به الى أن عرف شمس المعالي خبره * واستركب

ما هالك من الخيل ثم سار وا الى قيسارية والمسلمون بساير ونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لان صلاح الدين كان قد أقسم انه لا يظفر باحد منهم الا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا فلما قاربوا قيسارية لاحقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فقتلوا منهم بشرا كثيرا ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريبا منهم فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فابعدوا من جماعتهم فاوقع بهم المسلمون الذين كانوا في البرك فقتلوا منهم وأسروا منهم ثم سار وا من قيسارية الى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم اليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج اليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتل منهم كثير فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي أحد على احد وكان كثير من الخيالة والسوقة قد أخذوا القيام وقت الحرب قريبا من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون الى القلب وفيه صلاح الدين فلما رأى الفرنج انها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا ونزل عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من الفرنج كثير كثير من طوائفهم وقتل من المسلمين مماليك صلاح الدين اسمه ايازا الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن في زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل المسلمون وأعنة خيلهم بايديهم ثم سار الفرنج الى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ولما كان من المسلمين بارزوف من الهزيمة ما ذكرناه سار صلاح الدين عنهم الى الرملة واجتمع باثقاله بها وجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا بالامس واذا جاء الفرنج الى عسقلان ووقفنا في وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا لننزاح عنها وينزلون عليها فاذا كان ذلك عدنا الى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الامر علينا لان العدو قد قوي باخذ عكا وما فيها من الاسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب النفاس الى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد الى ذلك وقالوا ان أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض اولادك الكبار والا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب اهل عكا فلما رأى الامر كذلك سار الى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا اليها وكان المركيس لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك انكلتار بالغدر به فهرب من عنده الى مدينة صور وهي لصويده وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثارها فلما خربت عسقلان أرسل الى الملك انكلتار يقول له ما ذلك لا ينبغي أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمح ان صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا أخا هل لما بلغك انه قد شرع في تخريبها كنت سرت اليه مجدا فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولا حصار فانه ما خربها الا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو انني معك كانت عسقلان اليوم بايدينا لم يخرب منها غير برج واحد فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثاني شهر رمضان ومضى الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة الفرن في مدة قصيرة لتخريب

عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبي بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين الى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج اليه وعاد الى الخيم ثامن رمضان وفي هذه الايام خرج ملك انكلتار من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديدا وكاد ملك انكلتار يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها ايضا كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون

﴿ذكر رحيل الفرنج الى نطرون﴾

لما رأى صلاح الدين ان الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا في عمارتها رحل من منزلته الى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به فراسله ملك انكلتار يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب اخي صلاح الدين فاستقرت القاعدة أن انكلتار يزوج أخته من العادل ويكون القدس وما بايدي المسلمين من بلاد الساحل للعادل ويكون عكا وما بايدي الفرنج من البلاد لاخت انكلتار مضافا الى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فاجاب اليه فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والاساقفة والرهبان الى أخت انكلتار وأنكروا عليها فامتنعت من الاجابة وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم وكان العادل وملك انكلتار يجتمعان بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح وطلب من العادل أن يسمعه غناء المسلمين فاحضره مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح وكان ملك انكلتار يفعل ذلك خديعة ومكرا ثم ان الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين الى الرملة جريدة وترك الاثقال بالنطرون وقرب من الفرنج وبقي عشرين يوما ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات في كلها ينتصر المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين الى النطرون ورحل الفرنج من يافا الى الرملة ثالث ذي القعدة على عزم قصد البيت المقدس فقرب بعضهم من بعض فعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين بالالقاء فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الاحوال والامطار بينهما

﴿ذكر مسير صلاح الدين الى القدس﴾

لما رأى صلاح الدين ان الشتاء قد هجم والامطار متوالية متتابعة والناس منها في ضنك وحرج ومن شدة البرد وابس السلاح والسهر في تعب دائم وكان كثير من العساكر قد طال بكارها فاذن لهم في العود الى بلادهم للاستراحة والاراحة وسار هو الى البيت المقدس فيمن بقي معه فنزلوا جميعا داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه ونزل هو بدار الاقصى مجاورا لقبة الصخرة وقدم اليه عسكر مصر مقدمهم الامير أبو الهيجاء السمين فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من الرملة الى النطرون ثالث ذي الحجة على عزم قصد القدس فكانت بينهم وبين يزك والمسلمين وقعات أسر المسلمون في وقعة منها نيفا وخمسين فارسا من مشهوري الفرنج وشجعانهم وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد ما وهن منه فاحكم الموضع الذي ملك البلد منه واتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج الى أمير يتولى عمله فعمل

لاقتناصه عسكره * ما قد طار به الركض * وحالت دون منساله الارض * ولما شاهد حد خراسان رفرفت الأسنة عليه بجناحها الى أن ورد حضرة السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * فقبله أحسن قبول * ولقاه حسن مقبول ومفعول * وما زال يرفع به تمويلا وتخويلا * وتفخيما وتبجيلا * حتى اغتره فضل الانبساط وعز الانتساب بما هذه قربته * وهدم رتبته * فاستوحش من عارض الاعراض * وأشفق من رهق التغير والانقباض * فلاذ بظل الليل هربا * وبات يطوي الارض تقريبا وخببا وأمر السلطان بطلبه * واتباعه في وجه مهربه * فالحق به حيث قامت الخيول تعبا * ولم تجد السيوف عليه مضربا * ففر هو وملتجئا الى الشار المعروف بالشاه الحال بينهما في الصفا معمورة * وأصول وذبالوفاء مأثورة * فلما استقر به المكان * وخبر حلله السلطان * كتب اليه فاسترقه * وخوفه أن يأتي عليه ما بعده * فاضطر الى رده واسلامه عن يده * وبقي في

الحبس مدة يكابد فيها بؤسا وشدة الى أن وجد فرصة الانفصال * عن رق العقال * ففارق معتقله من حيث لم يطمع فيه أحد * ولم يكن ليغنى عنه لولا المقدور رأى ولا جلد * وأبت عليه فجاجة المحنة أن يتم خلاصه * ويستتب مناصه * فأعثرت عليه حتى أعيد فى وثاقه * وزيد فى ارهاقه * الى أن شرح الله صدر السلطان لاطلاقه * فأنشأه نشأة ثانية * وأنبت ريشه قادمة وخافيه * وأعاد حاله بالاحسان حالية * ويده على أيدى الاضراب عالية * ووجهه لولاية جرجان وطبرستان معضودا بأبى الحرث ارسلان الجاذب وذوى النجدة من كماة الرجال * وكفاة الابطال * لولا ان الامير فلك المعالى منوجهر سبق تمام الرأى باظهار الطاعة * وعرض ما وراء الوسع والطاقة * ولما حالت حرمة التقرب دون الاختيار عليه واسترده السلطان الى حضرته * فجرى مجرى أركان دولته * واخدان عشرته لا يفارقه فى حفلة * ولا يزايله فى خلوة * ولا

وأده الافضل من ناحية باب عمود الى باب الرحمة وارسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الجصاصين لهم فى قطع الصخر اليد الطولى فعملوا له هناك برجا وبدنة وكذلك جميع الامراء ثم ان الحجارة قلت عند العمالين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الامكنة البعيدة فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العمالين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام

﴿ذكر عود الفرنج الى الرملة﴾

فى العشرين من ذى الحجة عاد الفرنج الى الرملة وكان سبب عودهم انهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ثم ان ملك انكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوروا لى مدينة القدس فانى ما رأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فاخبر انه عميق وعر الملك فقال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة لاننا ان نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل اليهم منها الرجال الذخائر وما يحتاجون اليه وان نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه ووقع احدى الطائفتين ولم يمكن الطائفة الاخرى انجاد أصحابهم لانهم ان فارقوا امكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه وان تركوا فيه من يحفظه وساروا ونحو أصحابهم فالى أن يتخلصوا من الوادى ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى ما يتعذر علينا من ايصال ما يحتاج اليه من العلوفات والاقوات فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجالبين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود الى الرملة فعادوا خائبين خاسرين

﴿ذكر قتل قزل ارسلان﴾

فى شعبان من هذه السنة قتل قزل ارسلان واسمه عثمان بن ايلدكز وقد ذكرنا انه ملك البلاد بعد وفاة أخيه البهلوان ملك أران واذربيجان وهمذان وأصفهان والرى وما بينهما واطاعه صاحب فارس وخوزستان واستولى على السلطان طغرل فاعتقله فى بعض القلاع ودانت له البلاد وفى آخر أمره سار الى اصفهان والتقى بها متصلة من لدن توفى البهلوان الى ذلك الوقت فتعصب على الشافعية وأخذ جماعة من اعيانهم فصلبهم وعاد الى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة وضرب النوب الخمس ثم انه دخل ليلة قتل الى منزله لينام وتفرق أصحابه فدخل اليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله فأخذ أصحابه صاحب بابه ظنا وتخمينا وكان كريما حسن الاخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع الى حلم وقلة عقوبة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين فى رمضان وكان سبب قدومه ان والده عز الدين قلج ارسلان فرق مملكته على اولاده واعطى ولده هذا ملطية وأعطى ولده قطب الدين ملك شاه سيواس فاستولى قطب الدين على أبيه وحجر عليه وأزال حكمه والزمه أن يأخذ ملطية من أخيه وسلمها اليه فخاف معز الدين فسار الى

صلاح الدين ملتجئا اليه معتمدا به فاكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة اخيه الملك العادل فامتنع قطب الدين من قصده وعاد معز الدين الى ماطية فى ذى القعدة وحدثنى من اثق به قال رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معز الدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلا فلما أراد الركوب عضده هذا معز الدين وركب وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه ابن عز الدين صاحب الموصل قال فعجبت من ذلك وقلت ما تبالى يا ابن أيوب أى موتة تموت يركبك ملك سلجوقى وابن أتابك زنكى وفيها توفى حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر وهو من أكابر امراء صلاح الدين أيضا وفى رجب توفى الصفى بن القابض وكان متولى دمشق لصلاح الدين يحكم فى جميع بلاده

(ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة)

(ذكر عمارة الفرنج عسقلان)

فى هذه السنة فى المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا فى عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس فسار ملك انكلتار جريدة من عسقلان الى يزك المسلمين فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض وفى مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد الفرنج فتارة توقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان مقدمها فارس الدين ميمون القصرى وهو من مقدمى المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة للفرنج فأخذها وغنم ما فيها

(ذكر قتل المركيس وملك الكندهرى)

فى هذه السنة فى ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجى لعنه الله صاحب صور وهو أكبر شياطين الفرنج وكان سبب قتله ان صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان ان أرسل من يقتل ملك انكلتار وان قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك انكلتار ولم ير سنان مصلحة لهم لئلا يحلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم وشره فى أخذ المال فعدل الى قتل المركيس فارسل رجلين فى زى الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان صاحب رملة وكانا مع المركيس بصور فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة فانس بهما المركيس ووثق اليهما فلما كان بعد التاريخ على الاسقف بصور دعوة للمركيس فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه وخرج من عنده فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحا وثيقة وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفى فيها فاتفق ان المركيس حمل اليها ليشد جراحه فوثب عليه ذلك الباطنى فقتله وقتل الباطنيان بعده ونسب الفرنج قتله الى وضع من ملك انكلتار لينفرد بملك الساحل الشامى فلما قتل ولى بعده مدينة صور كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكندهرى وتزوج بالملكة فى ليلته ودخل بها وهى حامل وليس الحمل عندهم عما يمنع النكاح وهذا الكندهرى هو ابن أخت ملك افرنسيس من أبيه وابن أخت ملك انكلتار من أمه وملك هذا كندهرى بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك انكلتار وعاش الى سنة أربع وتسعين وخمسمائة فسقط من سطح فمات وكان عاقلا كثير المداراة والاحتمال ولما رحل ملك انكلتار الى بلاده أرسل هذا كندهرى الى صلاح الدين يستعطفه ويستميله

يقعد عنه فى وقت ركوب * ولا يتردد ونه بكور وركوب * الى أن ورد الامير ابو الفوارس ابن بهاء الدولة حضرة السلطان منزعجه عن كرمان لقصد عسكر أخيه اياه مستظهرا به على معاودة مملكته * وارتجاع بيته ونعمته * فجمعهم ليلة مجلس دارت فيه الكؤس * وطابت النفوس * وجرى حديث الخلاف والسلف * واعراق من أعرق منهم فى الشرف * فنطق دارا بما لو سكت عنه لكان أشبه بحق الخدمة وحكم الحشمة ووقت الاجتماع على ارضاع العشرة * وحمله رمز الانكار عليه على قصد المراتة * وركوب المحاقة * حتى تأذى به الامير الى ازعاجه عن مكانه * واشجائه غصة المدل على سلطانه * وأمر به فى غد فرقة فى العقال وحمل الى بعض القلاع وقبض على ضياعه فأجريت مجرى الحوزيات تستغل اسوة سائرها الى أن سأل الشيخ الوزير فى بابه فأمر بردها عليه معونة له على مصلحة حاله * ومؤنة اعتقاله * وذلك

يطلب منه خلعة وقال أنت تعلم ان لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك فانفذ اليه خلعة سنية منها القباء والشربوش فلبسهما بعكا

(ذكر نهب بني عامر البصرة)

في هذه السنة في صفر اجتمع بنو عامر في خلق كثير وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة وكان الامير بها اسمه محمد بن اسمعيل ينوب عن مقطعها الامير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله فوصلوا اليها يوم السبت سادس صفر فخرج اليهم الامير محمد فيمن معه من الجند فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان بجانب الخريبة ودام القتال الى آخر النهار فلما جاء الليل ثلم العرب في السور عدة ثلم ودخلوا البلد من الغد فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين ونهبت العرب الخانات بالشاطئ وبعض محال البصرة وعبر أهلها الى شاطئ الملاحين وفارق العرب البلد في يومهم وعاد أهله اليه وكان سبب سرعة العرب في مفارقة البلد انهم بلغهم ان خفاجة والمنتفق قد ثاروا بهم فساروا اليهم وقاتلوهم أشد قتال فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق وعادوا الى البصرة بكرة الاثنين وكان الامير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعا كثيرا فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم فلم يقوموا للعرب وانهزموا ودخل العرب البصرة ونهبوها وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم وجرت أمور عظيمة ونهبت القساميل وغيرها يومين وفارقها العرب وعاد أهلها اليها وقد رأيت هذه القصة بعينها في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة والله أعلم

(ذكر ما كان من ملك انكلتار)

في تاسع جمادى الاولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا الى البيت المقدس وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة وكان سبب طمعهم ان صلاح الدين فرق عساكره الشرقية وغيرها لاجل الشتاء ويستريحوا وليحضر البلد عوضهم وسار بعضهم مع ولده الافضل وأخيه العادل الى البلاد الجزرية لما نذكره ان شاء الله تعالى وبقي من حلقته الخاص بعض العساكر المصرية فظنوا انهم ينالون غرضا فلما سمع صلاح الدين بقربهم منه فرق ابراج البلد على الامراء وسار الفرنج من بيت نوبة الى قلونية سلع الشهر وهي فرسخين من القدس فصب المسلمون عليهم البلاء وتابعوا ارسال السرايا قبل الفرنج منهم بما لا قبل لهم به وعلموا انهم اذا نازلوا القدس كان الشر اليهم أسرع والتسلط عليهم امكن فرجعوا القهقرى وركب المسلمون أكتافهم بالرماح والسهام ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره اليها فقاتلوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم فقتلوا منهم وأسروا وغنموا وكان ذلك آخر جمادى الاولى

(ذكر استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل)

في تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج الخبر بوصول عسكر من مصر ومعهم قفل كبير ومقدم العسكر فلك الدين سليمان أخو العادل لامه ومعه عدة من الامراء فاسرى الفرنج اليهم فواقعهم بنواحي الخليل فانهزم الجند ولم يقتل منهم أحد من المشهورين انما قتل من الغلمان والاصحاب وغنم الفرنج خيامهم وآلاتهم وأما القفل فانه أخذ بعضه وصعد من نجا جبل الخليل

في المحرم سنة تسع وأربعمائة

(ذكر مجد الدولة وكهف الملة أبي طالب رستم بن نخر الدولة) قد كان نخر الدولة كتب الى حسام الدولة أبي العباس تاش وهو بجرجان مخدوره اليها من خراسان على لسان الصاحب يبشره بولادته واجراء الله اياه في الصنع له على كريم عادته وكان مما كتب به وقد رزقني الله به تعالى ولدا كنيته أبا طالب طلبا للسلامة في مدته وسميته رستم لانه من أسماء ذوي بأسه وأرومته * فلما اخترمته المنية بايع الناس مجد الدولة الا أن التي قامت عنه كانت أختا للاصبهبذ بفريم وسائر مملكة الجيل وهي في منعة من أهلها * وعزة من جانب أرضها * فتملكت على الديلم واستأثرت بالامر والنهي والحل والعقد وجرت بينه وبينها مكاوحات تأدت بها الى استنهاض بدر بن حسنويه اليه * واستدلاله الرى عليه * وجرت بينهم مناوشات أفضت بالديلم أولا وبأهل الرى ثانيا الى

فلم يقدم الفرنج على اتباعهم ولو اتبعوهم نصف فرسخ لاتوا عليهم ومزق من نجا من القفل وتقطعوا واقواشده الى أن اجتمعوا حكى لى بعض أصحابنا وكنا قد سيرنا معه شيأ للتجارة الى مصر وكان قد خرج فى هذا القفل قال لما وقع الفرنج علينا كما قدرفعنا أحمالنا للسير فحملوا علينا وأوقعوا بنا فضربت جمالى وصعدت الجبل ومعى عدة اجمال لغيرى فلحقنا قوم من الفرنج فاخذوا الاجمال التى فى صحبتى وكنت بين أيديهم بمقدار رمية سهم فلم يصلوا الى فنجوت بما معى وسرت لاأدرى أين أقصد واذا قد لاح لى بناء كبير على جبل فسألت عنه فقيل لى هذا الكرك فوصلت اليه ثم عدت منه الى القدس سالما وسار هذا الرجل من القدس سالما فلما بلغ براعة عند حلب أخذه الحرامية فنجا من العطب وهلك عند ظنه السلامة

(ذكر سير الافضل والعادل الى بلاد الجزيرة)

قد تقدم ذكر موت تقى الدين عمر بن صلاح الدين واستيلاء ولده ناصر الدين محمد على بلاد الجزيرة فلما استولى عليها أرسل الى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه مضافا الى ما كان لابيه بالشام فلم يرصلاح الدين ان مثل تلك البلاد تسلم الى صبى فما أجابه الى ذلك فحدث نفسه بالامتناع على صلاح الدين لاشتغاله بالفرنج فطلب الافضل على بن صلاح الدين من أبيه أن يقطعه ما كان لتقى الدين و ينزل عن دمشق فاجابه الى ذلك وأمره بالمسير اليها فسار الى حلب فى جماعة من العسكر وكتب صلاح الدين الى أصحاب البلاد الشرقية مثل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها يأمرهم بانفاذ العساكر الى ولده الافضل فلما رأى ولد تقى الدين ذلك علم انه لاقوة له بهم فراسل الملك العادل عم أبيه يسأله اصلاح حاله مع صلاح الدين فانهى ذلك الى صلاح الدين وأصلح حاله وقرر قاعدته بان يقرر له ما كان لابيه بالشام وتؤخذ منه البلاد الجزرية واستقرت القاعدة على ذلك وأقطع صلاح الدين البلاد الجزرية وهى حران والرها وسميساط وميافارقين وحانى العادل وسيره الى ابن تقى الدين ليتسلم منه البلاد و يسيره الى صلاح الدين و يعيد الملك الافضل أين أدركه فسار العادل فلحق الافضل بحلب فاعاده الى أبيه وعبر العادل الفرات وتسلم البلاد من ابن تقى الدين وجعل نوابه فيها واستصحب ابن تقى الدين معه وعاد الى صلاح الدين بالعساكر وكان عوده فى جمادى الآخرة من هذه السنة

(ذكر عود الفرنج الى عكا)

لما عاد الملك الافضل فيمن معه وعاد الملك العادل وابن تقى الدين فيمن معهما من عساكرهما ولحقتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج انهم لاطاقة لهم بهم اذا فارقوا البحر فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها فأمر صلاح الدين ولده الافضل ان يسير اليها فى عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضا للفرنج فى مسيرهم نحوها فسار الى مرج العيون واجتمعت العساكر معه فاقام هنالك ينتظر مسير الفرنج فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها

(ذكر ملك صلاح الدين يافا)

بؤس وفاقه ودماء مهراقه * وفتن ليس فيها قدر فواق من افاقه * وعن قريب يعود الخلاف جذعا * وحبل الصلاح منقطعا * فينتج عنه ابادة الرجال * واستباحة الاموال * وشرود الصلحاء فى البلاد * وضراوة السفهاء بالافساد * ولما غرض مجد الدولة بالامر و بما ينقدح على الدوام من شرر الشر * آثر البر فى الاعتزال عن سمة الامارة وحمله الاعتراف لها بالطاعة على ترك العقوق المفضى بمن تحت ولايته * ورعايته الى خطة الاحتناك * المشفى بهم على خطة الاجتياح والاستهلاك * فلزم البيت منفردا بالكتب والدفاتر * ومبيضا وجه الفضل بسواد المحابر وانفرد أخوه شمس الدولة بولاية همذان وقرميسين وما والاها الى حدود بغداد وورث بدر ابن حسنويه أموالا عظيمة طالما حفظتها صدور القلاع مكتومه * وشققتها خيوط الاكياس مختومه * فلم يلبث الا قليلا حتى استغرقتها صلات الرجال *

لما رحل الفرنج نحو عكا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيره فسار الى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها منهم وملكها في العشرين من رجب بالسيف عنوة ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيرا وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذي كان معهم وقد ذكر ذلك وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شيء من الغنيمة أخذوه منه فان امتنع ضربوه وأخذوا ما معه قهرا ثم زحفت العساكر الى القلعة فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها فطلب من بالقلعة الامان على أنفسهم وخرج البترك الكبير الذي لهم ومعه عدة من اكابر الفرنج في ذلك وترددوا وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة فلما اصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا واذا قد وصلهم نجدة من عكا وادركهم ملك انكلتار فأخرج من بيافا من المسلمين وأتاه المدد من عكا وبرز الى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم اليه احد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل اكل فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم وبالجد في قتالهم فتقدم اليه بعض امرائه يعرف بالجناح وهو اخو المشطوب بن علي بن احمد الهكاري فقال له يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالجمالات يتقدمون فيقاتلون اذا كان القتال فنحن واذا كانت الغنيمة فلهم فغضب صلاح الدين من كلامه وعاد عن الفرنج وكان رحمه الله حليما كريما مقدرة ونزل في خيامه واقام حتى اجتمعت العساكر وجاء اليه ابنه الافضل واخوه العادل وعساكر الشرق فدخل بهم الى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها

(ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين الى دمشق)

في العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها هذا التاريخ وافق أول ايلول وسبب الصلح ان ملك انكلتار لما رأى اجتماع العساكر وانه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده راسل صلاح الدين في الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا فلم يجبه صلاح الدين الى ما طلب ظنا منه انه يفعل ذلك خديعة ومكرا وأرسل يطلب منه المصاف والحرب فاعاد الفرنجي رسله مرة بعد مرة وترك تتمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة وأرسل الى الملك العادل في تقرير هذه القاعدة فأشار هو وجماعة الامراء بالاجابة الى الصلح وعرفوه ما عند العسكر من الضجر والملل وما قد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم وقالوا ان هذا الفرنجي انما طلب الصلح ليركب البحر ويعود الى بلاده فان تأخرت اجابته الى ان يجيء الشتاء وينقطع الركوب في البحر نحتاج نبقى ههنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين واكثروا القول له في هذا المعنى فأجاب حينئذ الى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وحالفوا على هذه القاعدة وكان في جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذي كان صاحب الرملة ونابلس فلما حلف صلاح الدين قال له ما عمل أحد في الاسلام ما عملت ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة فانا أحصينا من خرج الينا في البحر من المقاتلة

فكانوا

واستنفدتها سوق الآمال * شيمة له في التحقق بالفضل * والتخرق في البذل * وقد كان ابن فولاذ نخم في دولة آل بويه أمره * وارتفع قدره * وانتشر صيته وذكره * والتفت عليه صناديد الديلم ومشاهير الاكراد والعرب فسأل مجد الدولة والكافلة بالتدبير أن ينزلا له عن قزوين طعمة له ولمن معه ليتقوى بولايتها وجبايتها ويكثر من اركان دولتهما * وظهرا من ظهوره وتهما * يذب عنهما بسيفه وسنانه متى دهاهما خطب أو دخن على نارهما حطب رطب * فضنا عليه بهم الضيق رقعة الملك وبكوره درة الدخل وادليا اليه بظاهر العذر فقصد أطراف الري على جله العصيان يفسد ويغير * ويقطع دون أهلها سبيل من يمير * وملك عليهما ما يلي جانبه من قرى وضياع * وربع وارتفاع * الى أن استعانا بالصاحب بن المقدم بغريم فأتاهما في رجراجة ضخمة من الجيلية * أولى البأس والحمية * فناوشوه القراع *

فكانوا ستمائة ألف وجل ملعادمنهم الى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج فى زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا وعادت كل طائفة الى بلادها وأقام بالساحل الشامى ملكا على الفرنج والبلاد التى بأيديهم الكندهرى وكان خيرا لطبع قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم وتزوج بالملكة التى كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين كما ذكرناه وأما صلاح الدين فانه بعد تمام الهدنة سار الى البيت المقدس وأمر باحكام سوره وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والاحرام منه فلم يمكنه ذلك فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستناب بالقدس أميرا اسمه جوريديك وهو من المماليك النورية ولما سار عنه جعل طريقه على الثغور الاسلامية كعكا وبانياس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت وتعهد هذه البلاد وأمر باحكامها فلما كان فى بيروت أتاه بيمند صاحب انطاكية وأعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده فلما عاد رحل صلاح الدين الى دمشق فدخلها فى الخامس والعشرين من شوال وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الاسلام

(ذكر وفاة قلج ارسلان)

فى هذه السنة منتصف شعبان توفى الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق السلجوقى بمدينة قونية وكان له من البلاد قونية وأعمالها واقصرا وسيواس وملطية وغير ذلك من البلاد وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة الى بلاد الروم فلما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا اليه وجرى عليه ولده قطب الدين وكان قلج ارسلان قد استناب فى مدينة ملكه رجلا يعرف باختيار الدين حسن فلما غاب قطب الدين على الامر قتل حسنا ثم أخذ والده وسار به الى قيسارية ليأخذها من أخيه الذى سلمها اليه أبوه فحصرها مدة فوجد والده قلج ارسلان فرصة فهرب ودخل قيسارية وحده فلما علم قطب الدين ذلك عاد الى قونية واقصرا فملكهما ولم يزل قلج ارسلان يتحول من ولد الى ولد وكل منهم يتبرم به حتى مضى الى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلو فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر وسار هو معه الى قونية فملكها وسار الى اقصرا ومعه والده قلج ارسلان فحصرها فمرض أبوه فعاد به الى قونية فتوفى بها ودفن هناك وبقى ولده غياث الدين فى قونية مالكا لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان على ما نذكره ان شاء الله تعالى وقد حدث ببعض من أثق اليه من أهل العلم بما يحكيه وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا ونحن نذكره قال ان قلج ارسلان قسم بلاده بين أولاده فى حياته فسلم قونية وما يليها الى ابنه ركن الدين سليمان وسلم قونية الى ولده كيخسرو غياث الدين وسلم انقرة وهى التى تسمى انكورية الى ولده محيى الدين وسلم ملطية الى ولده معز الدين قيصرشاه وسلم ابلستين الى ولده مغيث الدين وسلم قيسارية الى ولده نور الدين محمود وسلم سيواس واقصرا الى ولده قطب الدين وسلم نكسار الى ولد آخر وسلم اماسيا الى ولد أخيه هذه أمهات البلاد ويضاف الى كل بلد من هذه ما يجاورها من البلاد الصغار التى ليست مثل هذه ثم انه ندم على

وصدقوه المصاع * وجرت بينهما فى دفعات ملاحم استلحمت كثيرا من الفريقين وأصاب ابن فولاذ فى ساقه نشابة أثخنته فولى فيمن تبعه الى سمت الدامغان حتى ألم بها فرم الرث * وعالج المرتث * وكتب الى فلك المعالى منوجهر يستقدمه على عسكر الرى على أن يقيم له الخطبة ويظهر الطاعة ويلتزم الاتاوة فأمده بألفى رجل يوزن آحادهم بالآلاف * وأفرادهم بأضعاف * يرون الشرف فرضا لمن مات تحت المشرفيات * والتثريب حقا على من حاد عن البثريات * ووصل جناحهم بمال قضى به حق انقطاعه اليه * واعتماده عن ظهر الثقة عليه * ونهض نحو الرى حتى أناخ بظاهرها فأعاد الاغاره * ومنع المائرة والماره * وغادر الديلم فى ضنكة البلاء * وضيقة اللأواء * حتى اضطر مجد الدولة ومن وليت التدبير الى ايثاره بأصبهان فعقد له عليها وخلى بينه وبينها استمالة لقلبه * واستعاذة من شره * فطارت عند ذلك نعرة

ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الاكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام ليقوى به فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم فصار يتردد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدة وينتقل الى الآخر ثم انه مضى الى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته فخرج اليه واقيه وقبل الارض بين يديه وسلم قونية اليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو أريد أسير الى ولدي الملعون محمود وهو صاحب قيسارية وتجيء أنت معي لآخذها منه فتجهز وسار معه وحصر محمودا بقيسارية فرض قلج ارسلان وتوفي عليها فعاد كيخسرو وبقي كل واحد من الاولاد على البلد التي بيده وكان قطب الدين صاحب اقصرا وسيواس اذا أراد أن يسير من احدى المدينتين الى الاخرى يجعل طريقه على قيسارية ويمر بها أخوه نور الدين محمود ولا يمر على طريقه انما كان يقصدها لاظهار المودة لاخيه والمحبة له وفي نفسه الغدر فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به ففي بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر أخوه محمود عنده غير محتاط فقتله قطب الدين وألقى رأسه الى أصحابه واراد أخذ البلد فامتنع من به من اصحاب اخيه عليه ثم انهم سلموه اليه على قاعدة استقرت بينهم وكان عند محمود اميركبير وكان يحذره من اخيه قطب الدين ويخوفه فلم يصغ اليه وكان جوادا كثير الخير والتقدم في الدولة عند نور الدين فلما قتل قطب الدين اخاه قتل حسنا صنعه والقاه على الطريق فجاء كلب يأكل من لحمه فثار الناس وقالوا لا سمعا ولا طاعة هذا رجل مسلم وله ههنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وافعال حسنة لا نتركه تأكله الكلاب فأمر به فدفن في مدرسته وبقي اولاد قلج ارسلان على حالهم ثم ان قطب الدين مرض ومات فسار اخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط الى سيواس وهي تجاوره فملكها ثم سار منها الى قيسارية واقصرا ثم بقي مدينة وسار الى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها ففارقها غياث الدين الى الشام ثم الى بلد الروم وكان من أمره ما نذكره ان شاء الله تعالى ثم سار بعد ذلك الى ركن الدين الى نكسار واما سيا فملكها وسار الى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها وفارقها أخوه معز الدين الى الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان هذا معز الدين تزوج ابنة للعادل فاقام عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الاخوة ما عدا انقرة فانها امنيعة لا يوصل اليها فجعل عليها عسكرا يحصرها صيفا وشتاء ثلاث سنين فتسلمها سنة احدى وستمائة ووضع على أخيه الذي كان بها من يقتله اذا فارقها فلما سار عنها قتل وتوفي ركن الدين في تلك الايام ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه وانما أوردنا هذه الحادثة ههنا لنتبع بعضها بعضا ولاني لم أعلم تواريخ كل حادثة منها لاثبته فيه

(ذكر ملك شهاب الدين اجمير وغيرها من الهند)

قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغوري الى بلد الهند وانهزامه وبقي الى الآن وفي نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان فلما كانت هذه السنة خرج من غزنة وقد جمع عساكره وسار فيها يطلب غزوة الهندي الذي هزمه تلك النوبة فلما وصل الى برشاور تقدم اليه شيخ من الغورية كان يدل عليه فقال له قد قربنا من العدو وما يعلم أحد أين يمضي ولا من يقصد ولا ترد على الامراء سلاما وهذا لا يجوز فعله فقال له السلطان اعلم

الخلاف عن رأسه * ورحلت وحرة العناد من صدره * وأقبل يروض عسكره على رشاد وسداد * ويغل أيديهم دون امتداد الى فساد * وصرف عسكر الامير منوجهر وراءهم يذكر صلاح حاله واستغناءه عن رجاله * وعطف الى أصبهان خاطبا لمجد الدولة على منابرها وذلك في سنة سبع وأربعمائة * وكان نصر بن الحسن بن فيروزان قد انقطع الى السلطان يمين الدولة وأمين الملة فأقام على خدمته الى أن جعل ناحية بيار وجوه مندبرسمه فنهض اليهما وأقام بهما يستغلهما * ويتوفر عليه دخلهما * الى أن دعاه مجد الدولة من الري فاعتسف البيد اليها اشفاقا من عسكر شمس المعالي قابوس ومكايده * وعيون رياياه ومراصده * فلما وصل اليها عرف له حق قرابته * وقوبل بما اقتضاه حكم طاعته واستجابته * فبقي هذه السنين مرجوعا اليه في الرأي والتدبير * وموثوقا به في التقديم والتاخير * الى ان عثر منه على مما لا

أنى منذ هزمنى هذا الكافر ما نمت مع زوجتى ولا غيرت ثياب البياض عنى وأنا سائر الى عدوى ومعتمد على الله تعالى لا على الغورية ولا على غيرهم فان نصرنى الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وان انهزمنا فلا تطلبونى فانا انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل فقال له الشيخ سوف ترى بنى عمك من الغورية ما يفعلون فينبغى أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك وبقى امراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى ما نفعل وسار الى أن وصل الى موضع المصاف الاول وجاز مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو فلما سمع الهندى تجهز وجمع عساكره وسار يطلب المسلمين فلما بقى بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراءه والكافر فى أعقابه أربع منازل فارسل الكافر اليه يقول له أعطنى يدك انك تصافقنى فى باب غزنة حتى اجىء وراءك والا فنحن مثقلون ومثلك لا يدخل البلاد شبيه اللصوص ثم يخرج هاربا ما هذا فعل السلاطين فاعاد الجواب انى لا أقدر على حربك وتم على حاله عائدا الى أن بقى بينه وبين بلاد الاسلام ثلاثة أيام والكافر فى اثره يتبعه حتى لحقه قريبا من مرنده فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفا وقال أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو وعند صلاة الصبح تأتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذلك وطلع الفجر ومن عادة الهنود انهم لا يبرحون من مضاجعهم الى أن تطلع الشمس فلما اصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكوسات فلم يلتفت ملك الهند الى ذلك وقال من يقدم على انا هذا والقتل قد اكثر فى الهنود والنصر قد ظهر للمسلمين فلما رأى ملك الهند ذلك أحضر فرسه سابقا وركب ليهرب فقال له اعيان اصحابه انك حلفت لنا انك لا تخلينا وتهرب فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثر فى اصحابه فانتهى المسلمون اليه واخذوه اسيرا وحينئذ عظم القتل والاسر فى الهنود ولم ينج منهم الا القليل واحضر الهندى بين يدى شهاب الدين فلم يخدمه فاخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه الى الارض حتى اصابها جبينه واقعده بين يدى شهاب الدين فقال له شهاب الدين لو استأسرتنى ما كنت تفعل بى فقال الكافر قد استعملت لك قيدا من ذهب اقيدك به فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر ما نقيدك وغنم المسلمون من الهنود اموالا كثيرة وامتعة عظيمة وفى جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذى جرح شهاب الدين فى تلك الوقعة وقال ملك الهند لشهاب الدين ان كنت طالب بلاد فاب فى فيها من يحفظها وان كنت طالب مال فعندى أموال تحمل اجمالك كلها فسار شهاب الدين وهو معه الى الحصن الذى له يعول عليه وهو اجير فأخذه واخذ جميع البلاد التى تقاربه واقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين ايبك وعاد الى غزنة وقتل ملك الهند

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قبض على امير الحاج طاشتكين ببغداد وكان نعم الامير عادلا فى الحاج رفيقا بهم محبا لهم له اوراد كثيرة من صلوات وصيام وكان كثير الصدقة لاجرم وقفت اعماله بين يديه فخلص من السجن على ما نذكره ان شاء الله تعالى وفيها خرج السلطان طغرل بن ارسلان بن لبعض المخالفين فقبض عليه وحبسه فى قلعة أستوناوند وما زال بها محصورا * وفى مخلب الامتحان مأسورا * حتى عفى عما جناه * ورد ثانيا الى ما تولاه * ووافق ما به خلع الديلم لجام الهيبة لعدم السياسة * وانفراد مجد الدولة فى بيته بالدراسة * وتبسط الديلم فيما شاؤا من غصب * وقطع ونهب وكبس ونقب * لا يرتدع منهم الا من أشعره الله المخافة * وأودع صدره الرحمة والرأفة * فانبرى نصر بن الحسن لقمع أولئك الضلال فاجتاح منهم فريقا * وأوسع آخرين تفريقا وتمزيقا * فلما رأى القوم ما دهاهم فى أصرابهم من حصده واستئصاله * تجمعوا على قصده وقتاله * وأحاطوا بداره فدافعهم بخاصته مليا ثم انثنى عنهم منهزما * وغادر ملكه فى الدار منهوبا ومغتنما * وما زال يضطرب فى محنته * الى آخر مدته

(ذكر بهاء الدولة وما أفضى اليه أمره)

قد كان بهاء الدولة بعد أن

الامير السيد علي بن المرتضى العلوي الحنفي مدرس جامع السلطان ببغداد وفي شعبان منها توفي ابو علي الحسن بن هبة الله بن البوقي الفقيه الشافعي الواسطي وكان عالما بالمذهب انتفع به الناس

(ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة)

(ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته)

في هذه السنة في صفر توفي صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة وكان سبب مرضه ان خرج يتلقى الحاج فعاد ومرض من يومه مرضا حاد بقي به ثمانية ايام وتوفي رحمه الله وكان قبل مرضه قد احضر ولده الافضل عليا وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل وقال قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا في هذه البلاد شاغل فاي جهة نقصد فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لانه كان قد وعده اذا اخذها ان يسلمها اليه واشار ولده الافضل بقصد بلاد الروم التي بيد اولاد قلج ارسلان وقال هي اكثر بلادا وعسكرا ومالا واسرع مأخذا وهي ايضا طريق الفرنج اذا خرجوا على البر فاذا ملكناها منعناهم من العبور فيها فقال كلا كما مقصرنا قص الهمة بل اقصد أنا بلاد الروم وقال لاخيه تأخذ انت بعض اولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط فاذا فرغت انا من بلاد الروم جئت اليكم وندخل منها أذربيجان وتتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها ثم اذن لاخيه العادل في المضي الى الكرك وكان له وقال له تجهزوا حضر لتسير فلما سار الى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عوده وكان رحمه الله كريما حليما حسن الاخلاق متواضعا صبورا على ما يكره كثير التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه وبلغني أنه كان يوما جالسا وعنده جماعة فرمى بعض المماليك بعضا بسرموز فاخطأته ووصلت الى صلاح الدين فاخطأته ووقعت بالقرب منه فالتفت الى الجهة الاخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها وطلب مرة الماء فلم يحضر وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر فقال يا أصحابنا والله قد قتلني العطش فاحضر الماء فشربه ولم ينكر التواني في احضاره وكان مرة قد مرض مرضا شديدا أرجف عليه بالموت فلما برئ منه وأدخل الحمام كان الماء حارا فطلب ماء باردا فاحضره الذي يخدمه فسقط من الماء شئ على الارض فناله منه شئ فتألم له لضعفه ثم طلب الباردا أيضا فاحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الارض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على ان قال للغلام ان كنت تريد قتلي فعرفني فاعتذر اليه فسكت عنه وأما كرمه فانه كان كثير البذل لا يقف في شئ يخرجه ويكفي دليلا على كرمه انه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري وأربعين درهما ناصرية وبلغني انه أخرج في مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت الحصر ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الانواع ما يفوت الاحصاء ففرقه جميعه وأما تواضعه فانه كان ظاهرا لم يتكبر على احد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع فاذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا

فتح الله على السلطان سجستان راغبا في موالاته * خاطبا لمصافاته * مؤثرا لمكاتبته * حريصا على مقاربته * بحكم الجوار الواقع بين الدولتين * والصقب الحادث بين المملكتين * ووافق ذلك من السلطان رغبة في مثله من جهته اشرفه * بنفسه وسلفه * ولما حيزلهما من الكفاءة في الملك * والملاءة في سعة الملك * فسفر بينهما السفراء على الحمام سدى الغربه * واحصاد قوى المودة * حتى خلصت القلوب * ونقيت الجيوب * وتأكدت العهود * وتأحدت الحدود * وعندها أحب السلطان أن يجعل المصافاة مجاهره * والموالاة مصاهره * فأنهض القاضي أبا عمر البسطامي شيخ الحديث بنيسابور الى فارس وهو النبيه فضلا * والوجيه محلا * والامام علما وتحقيقا * والحسام لسانا فصيحا ورأيا وثيقا * وصادف من اجلال بهاء الدولة واكرامه * واظهار التلطف عليه في مرامه * ما اقتضته جلالة من أصدره * ومساعدة القدرة له في كل

يفعله

يقعد حتى يفرغ الفقير ولم يلبس شيأ مما ينكره الشرع وكان عنده علم ومعرفة وسمع الحديث واسمعه وبالجملة فكان نادرا في عسكره كثير المحاسن والافعال الجميلة عظيم الجهاد في الكفار وفتوحه تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولدا ذاكرا

(ذكر حال أهله وأولاده بعده)

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الاكبر الافضل نور الدين علي وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة في حياته فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الاعمال الى الدار وم وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازي بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر واعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغير ذلك وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الافضل وكان الملك العادل بالكرك قد سار اليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه فارسل اليه الملك الافضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل فأعاد مراسلته وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر ومن أتابك عز الدين صاحب الموصل فانه كان قد سار عنها الى بلاد العادل الجزرية على ما نذكره ويقول له ان حضرت جهزت العساكر وسرت الى بلادك حفظتها وان أقمت قصدك أخي الملك العزيز لما بينكما من العداوة واذا ملك عز الدين بلادك فليس له دون الشام مانع وقال لرسوله ان حضر معك والا فقل له قد أمرني ان سرت اليه بدمشق عدت معك وان لم تفعل أسير الى الملك العزيز حالفه على ما يختار فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجيء فلما رأى ان ليس معه منه شيء غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافقة العزيز فحينئذ سار الى دمشق وجهز الافضل معه عسكرا من عنده وأرسل الى صاحب حمص وصاحب حماة والى أخيه الملك الظاهر بحلب يحثهم على انفاذ العساكر مع العادل الى البلاد الجزرية ليمنعها من صاحب الموصل ويخوفهم ان هم لم يفعلوا وما قال لاخيه الظاهر قد عرفت محبة أهل الشام لبيت أتابك فوالله لئن ملك عز الدين حران ليفركن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأنت لا تعقل وكذلك يفعل في أهل دمشق فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه فجهزوا عساكرهم وسيروها الى العادل وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الريحان وسنذكر ما كان منه ان شاء الله تعالى

(ذكر مسير أتابك عز الدين الى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه)

لما بلغ أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأي من أصحابه وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته والمقدم على الكل من فيها وهو نائبه فيهم واستشارهم فيما يفعل فسكتوا فقال له بعضهم وهو أخي مجد الدين أبو السعادات المبارك أنا أرى انك تخرج مسرعا جريدة فيمن خف من أصحابك وحلقتك الخاص وتتقدم الى الباقين باللحاق بك وتعطي من هو محتاج الى شيء ما يتجهز به ويلحق بك الى نصيبين وتكاتب أصحاب الاطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل وسنجر شاه ابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر وابن خالك عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين تعرفهم انك قد سرت وتطلب منهم المساعدة

قدره وأقام عليه منقولا من مجلس الايجاب الى متوسد الاكرام ومن راحة الاشمال الى عاتق الاكبار غير أن بعيد طلوعه عليه وافق منه علة أحدثها سوء المزاج بين الف الراحة والراح فأعياه تنجز المراد على العارض العائق وقد كان نفر الملك معتمدا ببغداد وهو الوزير والنصير * ومن اليه الرأي والتدبير * فحشم القاضي الى ما قبله ليتفاوضا فيما يوجب صرف الرأي اليه * وتأريب العقد عليه * فاتفق مع وصوله استنثار قضاء الله تعالى ببهاء الدولة وانتقال روحه الى جوار ربه وبايع الناس ولده الامير أبا شجاع واقبه القادر بالله أمير المؤمنين بسلطان الدولة واستتب له طارق الامر واعتدل عليه عمود الملك وجرى له الطائر بالاقبال * وحسن الفال * ولما عاد القاضي من بغداد الى ما قبله لم يملك له من ذاته جوابا يغنيه * ولا حوارا يشفيه * اذ كان دونه

وتبذل لهم اليمين على مايلتمسونه فتى رأولك قد سرت خافوك وان أجابك أخولك صاحب سنجار ونصيبين الى الموافقة والابدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها ثم سرت نحو الخابور وهوله أيضا فاقطعه وتركت عسكرا مقابل اخيك يمنعه من الحركة ان اراد ها اوقصدت الرقة فلا تمنع نفسها وتأتى حران والرها فليس فيهما من يحفظهما لا صاحب ولا عسكر ولا ذخيرة فان العادل أخذهما من ابن تقى الدين ولم يقم فيهما ليصلح حالهما وكان القوم يتكلمون على قوتهم فلم يظنوا هذا الحادث فاذا فرغت من ذلك الطرف عدت الى من امتنع من طاعتك فقاتلته وليس وراءك ما تخاف عليه فان بلدك عظيم لا يبالى بكل من وراءك فقال مجاهد الدين المصلحة اثنان كاتب أصحاب الاطراف ونأخذ رأيهم فى الحركة وتستميلهم فقال له أخى ان اشار وا بترك الحركة تقبلون منهم قال لا قال فانهم لا يشيرون الا بتركها لانهم لا يرون ان يقوى هذا السلطان خوفا منه وكانى بهم يغالطونكم مهما كانت البلاد الجزرية فارغة من صاحب وعسكر فاذا جاء اليها من يحفظها جاهروكم بالعداوة ولم يمكنه أكثر من هذا القول خوفا من مجاهد الدين حيث رأى ميله الى ما تكلم به فانفصلوا على ان يكاتبوا أصحاب الاطراف فكاتبوهم فكل اشار بترك الحركة الى ان ينظر مايكون من اولاد صلاح الدين وعمهم فتنبط ثم ان مجاهد الدين كرر المراسلات الى عماد الدين صاحب سنجار يعده ويستميله فبينما هم على ذلك اذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق وقد سار عن دمشق الى بلاده يذكر فيه موت اخيه وان البلاد قد استقرت لولده الملك الافضل والناس متفقون على طاعته وانه هو المدبر لدولة الافضل وقد سيره فى عسكر جم كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه ان صاحبها تعرض الى بعض القرى التى له وذكر من هذا النحو شيأ كثيرا فظنوه حقا وان قوله لا ريب فيه ففتروا عن الحركة وذلك الرأى فسيروا الجواسيس فأتتهم الاخبار بانه فى ظاهر حران من نحو مائتى خيمة لا غير فعادوا وتحركوا فالى ان تقررت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار واقبلت العساكر الشامية التى سيرها الافضل وغيره الى العادل فامتنع بها وسار اتابك عز الدين عن الموصل الى نصيبين واجتمع هو واخوه عماد الدين بها وساروا على سنجار نحو الرها وكان العادل قد عسكر قريبا منها بمرج الريحان فخافهم خوفا عظيما فلما وصل اتابك عز الدين الى تل موزن مرض بالاسهال فأقام عدة ايام فضعفت منه الحركة وكثر مجىء الدم منه فخاف الهلاك فترك العساكر مع اخيه عماد الدين وعاد جريدة فى مائتى فارس ومعه مجاهد الدين واخى مجد الدين فلما وصل الى دنيسر استولى عليه الضعف فاحضر أخى وكتب وصية ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أول رجب

(ذكر وفاة أتابك عز الدين وشئ من سيرته)

فى هذه السنة توفى أتابك عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل بالموصل وقد ذكرنا عوده اليها مريضا فبقى فى مرضه الى التاسع والعشرين من شعبان فتوفى رحمه الله ودفن بالمدرسة التى انشأها متاخمة دار المملكة وكان قد بقى مايزيد على عشرة أيام لا يتكلم الا بالشهادتين وتلاوة القرآن واذا تكلم بغيرها استغفر الله ثم عاد الى ما كان عليه فرزق خاتمة خير رضى الله عنه وكان رحمه الله خير الطبع كثير الخير والاحسان لاسيما الى

رسولا لابيه * فصرفه مجملا من رسالته فى وراثة الود والوفاء * بسالف العهد واشتراء الخلوص بقاصية الجهد * ما اقتضاه حكم الابتداء بغرس الوداد * واستمرار الوفاء على ظهر البعاد * وقد كان الامير أبو الفوارس أخو الامير سلطان الدولة مقيما بكرمان فشجر بينهما خلاف اقتضى سلطان الدولة تجريد الجيوش لقصده * واستصفاء تلك النواحى واستخلاصها من يده * فنهض هو لمقاومتهم وكف عاديتهم وأوقدوا بينهم حربا افنت الرجال أكلا وشربا * واجتاحت الارواح طعنا وضربا * واستقرت الكشفة باتباع الامير أبى الفوارس فانقلبوا مهزومين وأقبل هو نحو بجستان * يوم حضرة السلطان * يمين الدولة ممتطيا رجاءه * ومستنهضا كرمه لرده وراءه * فلما شارفها وقد كان أنهى الى السلطان خبر اقباله أمر أبا منصور

شيوخ قد خدموا أباه فانه كان يتعهدهم بالبر والاحسان والصلة والاكرام ويرجع الى قولهم ويزور الصالحين ويقربهم ويشفعهم وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليسه الا وهو مطرق وما قال في شئ يسئله لا حياء وكرم طبع وكان قد حج ولبس بمكة حوسها الله خرقة التصوف وكان يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج الى مسجد قد بناه في داره ويصلي فيه نحو ثلث الليل وكان رقيق القلب شفيقا على الرعية بلغني عنه انه قال بعض الايام انني سهرت الليلة كثيرا وسبب ذلك أني سمعت صوت نائحة فظننت ان ولد فلان قد مات وكان قد سمع انه مريض قال فضاق صدري وقمت من فراشي أدور في السطح فلما طال علي الامر أرسلت خادما الى الجاندارية فأرسل منهم واحدا يستعلم الخبر فعاد وذكر انسانا لا أعرفه فسكن بعض ما عندي فنمت ولم يكن الرجل الذي ظن ان ابنه مات من أصحابه انما كان من رعيته كان ينبغي ان تتأخر وفاته وانما قدمناها لتتبع أخباره بعضها بعضا

(ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط)

في هذه السنة أول جمادى الاولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران فانه أسرف في اظهار الشماتة بموت صلاح الدين فلم يمهله الله تعالى ولما بلغه موت صلاح الدين فرح فرحا كثيرا وعمل تختا جلس عليه ولقب نفسه بالسلطان المعظم صلاح الدين وكان لقبه سيف الدين فغيره وسمى نفسه عبد العزيز وظهر منه اختلال وتخليط وتجهز ليقصدها فارقين بحصرها فادركته منيته وكان سبب قتله ان هزارديناري وهو ايضا من مماليك شاه أرمن ظهير الدين كان قد قوى وكثر جمعه وتزوج ابنة بكتمر فطمع في الملك فوضع عليه من قتله فلما قتل ملك بعده هزارديناري بلاد خلاط واعمالها وكان بكتمر دينا خيرا صالحا كثير الخير والصلاح والصدقة محبا لاهل الدين والصوفية كثير الاحسان اليهم قريبا منهم ومن سائر رعيته محبوبا اليهم عادلا فيهم وكان جوادا شجاعا عادلا في رعيته حسن السيرة فيهم

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة في برشاور وجهز مملوكه أيبك في عساكر كثيرة فادخله بلاد الهند يغنم ويسبي ويفتح من البلاد ما يمكنه فدخلها وعاد وخرج هو وعساكره سالما قد ملؤا أيديهم من الغنائم وفيها في رمضان توفي سلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان وملك اخوه علاء الدين تكش بلاده وسنذكره سنة تسعين ان شاء الله وفيها امر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل اليها من الكتب النفيسة الوقفا لا يوجد مثلها وفيها في ربيع الاول فرغ من عمارة الرباط الذي أمر بانشائه الخليفة أيضا بالحريم الظاهري غربي بغداد على دجلة وهو من أحسن الربط ونقل اليه كتبا كثيرة من أحسن الكتب وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان وسبب ذلك ان صاحبها سوسيان بن شملة جعل فيها دزدا فاساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله ونادوا بشعار الخليفة فأرسل اليها وملكها وفيها انقض كوكبان عظيمان وسمع صوت هدة عظيمة وذلك بعد طلوع الفجر وغاب ضوءهما القمر وضوء النهار وفيها مات الامير داود بن عيسى

نصر بن اسحق النائب عن الامير صاحب الجيش أبي المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين بخدمة استقباله * وتكلف الواجب من انزاله * واقامة أنزاله * وانزال من معه من طبقات رجاله * ونثر عشرة آلاف دينار له من خاصة بيت ماله * فبلغ من ذلك مبلغا شهد من كان شاهدا بسجستان من قرائها وطرائها ان أحدا من ملوك هذه الاقاليم لم يتكلف مثله لاحد من أولاد الملوك ولم يخل ان مثله يسمح به تيار البحور * فكيف اقطار الصدور * واكتسب ابو منصور بذلك لنفسه ذكرا عقد بالنجم ضفائره * وافاض على الشرق بعضه وعلى الغرب سائره * ولما وصل الى حضرة السلطان أوجب قضاء حق مقدمه بالاستقبال * وتلقى عظيم قدره بالاجلال * وحمل اليه من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام * والاقسام بكل ما ينتمي الى

ابن محمد بن أبي هاشم أمير مكة ومازالت مكة تكون له تارة ولاخيه مكثر تارة الى أن مات

(ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة)

(ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى)

كان شهاب الدين الغورى ملك غزنة قد جهز مملوكه قطب الدين وسيره الى بلاد الهند للغزاة فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد فلما سمع به ملك بنارس وهو أكبر ملك فى الهند ولايته من حد الصين الى بلاد ملاوا طولا ومن البحر الى مسيرة عشرة أيام من لهاور عرضا وهو ملك عظيم فعندها جمع جيوشه وحشرها وسار يطلب بلاد الاسلام ودخلت سنة تسعين فسار شهاب الدين الغورى من غزنة بعساكره نحوه فالتقى العسكران على ماخون وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل وكان مع الهندى سبعمائة فيل ومن العسكر على ماقيل ألف الف رجل ومن جملة عسكره عدة أمراء مسلمين كانوا فى تلك البلاد أبا عن جد من أيام السلطان محمود ابن سبكتكين يلازمون شريعة الاسلام ويواظبون على الصلوات وافعال الخير فلما التقى المسلمون والهنود اقتتلوا فصبر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون لشجاعتهم فانهزم الكفار ونصر المسلمون وكثر القتل فى الهنود حتى امتلأت الارض وجافت وكانوا لايأخذون الا الصبيان والجوارى وأما الرجال فيقتلون واخذ منهم تسعين فيلا وباقى الفيلة قتل بعضها وانهزم بعضها وقتل ملك الهند ولم يعرفه احد الا انه كانت اسنانه قد ضعفت أصولها فامسكوها بشريط الذهب فلذلك عرفوه فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس وحمل من خزائنها على الف واربعمائة جمل وعاد الى غزنة ومعه الفيلة التى اخذها من جملتها فيل أبيض حدثنى من رآه لما أخذت الفيلة وقدمت الى شهاب الدين وامرت بالخدمة فخدمت جميعها الا الابيض فانه لم يخدم ولايعجب احدا من قولنا الفيلة تخدم فانها تفهم مايقال لها واقد شاهدت فيلا بالموصل وفياله يحدثه فيفعل مايقول له

(ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الرى ووفاة اخيه سلطان شاه)

قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين خروج السلطان طغرل بن الب ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن الب ارسلان السلجقى من الحبس وملكه همذان وغيرها وكان قد جرى بينه وبين قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد حرب انهزم فيها قتلغ اينانج وتحصن بالرى وسار طغرل الى همذان وارسل قتلغ اينانج الى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده فسار اليه فى سنة ثمان وثمانين فلما تقاربا ندم قتلغ اينانج على استدعاء خوارزم شاه وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصن فى قلعة له فوصل خوارزم شاه الى الرى وملكها وحصر قلعة طبرك ففتحها فى يومين وراسله طغرل واصطلحا وبقيت الرى فى يد خوارزم شاه فرتب فيها عسكرا يحفظها وعاد الى خوارزم لانه بلغه ان أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فجد فى السير خوفا عليها فأتاه الخبر وهو فى الطريق ان أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها ولم يقدر على القرب منها وعاد عنها خائبا فشتى خوارزم شاه بخوارزم فلما انقضى الشتاء سار الى مرو وقصد أخيه سنة تسع وثمانين فتردد الرسل بينهما فى الصلح فبينما هم فى تقرير الصلح واذا قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لاخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم اليه القلعة لانه

قبيل الاكرام * ماوقع عند الخاص والعام موقع الاستعظام * ماخلا الهمة التى ترى الدنيا خارجة عن ملكها * شعرة من أبشارها * وصوفة من أوبارها * وغرفة من بحارها بل قطرة من امطارها * وأقام عنده قرابة ثلاثة اشهر ضيفا لايتميز عن الادنين أرحاما وشيجه * وانسابا قريبه * حتى اذا انشط للانصراف * والقمس معونته على عارض الخلاف * ارتاح السلطان لما استدعاه فأعطاه فوق رضاه اموالا أحفت أقلام الكتاب * وأوهت انامل الحساب * وانهض فى صحبته ونصرته * واقامة خدمته * اباسعيد عبد الرحمن بن محمد الطائى احد مشايخ بابه وافاضل كتابه * فى رجال قد تعودوا النصر منذ خدموا رايته فلم يعرفوا وجه الانقلاب الا بالانفال * على الاكفال * لعبد الصمد بن بابك تحملت صهوة اخرى شواكلها من طول ماحملت سبيا على الكفل

قد استوحش من صاحبه سلطان شاه فسار خوارزم شاه اليه مجدا فتسلم القلعة وصار معه وبلغ ذلك سلطان شاه ففت ذلك في عضده وتزايد كمده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته الى مرو وتسلمها وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه وأرسل الى ابنه علاء الدين محمد وكان بالقلب حينئذ قطب الدين وهو بخوارزم فاحضره فولاه نيسابور وولى ابنه الكبير ملكشاه مرو وذلك في ذي الحجة سنة تسع وثمانين فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلاد الرى فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه ففر منه قتلغ اينانج بن البهلوان وارسل الى خوارزم شاه يعتذر ويسأل انجاده مرة ثانية ووافق ذلك وصول رسول الخليفة الى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور باقطاعه البلاد فسار من نيسابور الى الرى فتلقاه قتلغ اينانج ومن معه بالطاعة وسار وامعه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة فلم يقف ليجمعها بل سار اليه فيمن معه فقيل له ان الذى يفعله ليس برأى والمصلحة ان تجمع العساكر فلم يقبل وكان فيه شجاعة بل تمم مسيره فالتقى العسكران بالقرب من الرى فحمل طغرل بنفسه فى وسط عسكر خوارزم شاه فاحاطوا به والقوه عن فرسه وقتلوه فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الاول وحمل رأسه الى خوارزم شاه فسيره من يومه الى بغداد فنصب بها بباب النوبى عدة أيام وسار خوارزم شاه الى همذان وملك تلك البلاد جميعها وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير عسكرا الى نجدة خوارزم شاه وسير له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب فنزل على فرسخ من همذان فأرسل اليه خوارزم شاه يطلبه اليه فقال مؤيد الدين ينبغى ان تحضر انت وتلبس الخلعة من خيمتى وترددت الرسل بينهما فى ذلك فقيل لخوارزم شاه انها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك فدخل خوارزم شاه اليه قصد الاخذه فاندفع بين يديه الى بعض الجبال فامتنع به فرجع خوارزم شاه الى همذان ولما ملك همذان وتلك البلاد سلمها الى قتلغ اينانج واقطع كثيرا منها المماليكه وجعل المقدم عليهم مياجق وعاد الى خوارزم

(ذكر مسير وزير الخليفة الى خوزستان وملكها)

فى هذه السنة فى شعبان خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب فى الوزارة مؤيد الدين أبى عبد الله محمد بن على المعروف بابن القصاب خلع الوزارة وحكم فى الولاية وبرز فى رمضان وسار الى بلاد خوزستان وولى الاعمال بها وصار له فيها أصحاب وأصدقاء ومعارف وعرف البلاد ومن أى وجه يمكن الدخول اليها والاستيلاء عليها فلما ولى ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يرسله فى عسكر اليها ليملكها له وكان عزمه انه اذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهرا للطاعة مستقلا بالحكم فيها ليأمن على نفسه فاتفق ان صاحبها ابن شملة توفى واختلف أولاده بعده فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجده لما بينهم من الصحبة القديمة فقوى الطمع فى البلاد فجهزت العساكر وسيرت معه الى خوزستان فوصلها سنة احدى وتسعين وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجز واعنها وملك مدينة تستر فى المحرم وملك غيرها من البلاد وملك القلاع منها قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الاموج وغيرها من الحصون والقلاع

وتوجه الامير ابو الفوارس فيهم وفى سائر خاصته نحو كرمان فخلا عنها من كان ولى عليها عاملا بعجزه عن المقاومه * واقتضاه ان تعرض للمعاكه * فملك تلك النواحى ملكه اياها من قبل واقام بها أبو سعيد الى ان قرت تلك الامور * ودرت للعبايات الشطور * ثم كر وراءه فيمن كانوا برسمه تحت قيادته واتت على ذلك مدة من الزمان تمنع حشمة السلطان يمين الدوله وامين الملة وحرمة الناهضين من اتباع رايته * فى امره وسمه بعز عنايته * ان يقصد بما يوهم خلافا عليه حتى اذا عاودت تلك الجيوش غزنة وانفرد الامير ابو الفوارس بالتدبير * وارتاش بعد التحسير * سرب سلطان الدولة عسكرا ثانيا لمواقعته * واستخلاص تلك الناحية عن يده * فتلاقيا على حرب اشابت القرون تحكيما لظبا الصفاح * فى مخارج الطلى * وتحويما لشبا الرماح * على موارد الكلى * حتى تشقرت الارض من

وأنفذ بني شملة أصحاب بلاد خوزستان الى بغداد فوصلوا في ربيع الاول

(ذكر حصر العزيز مدينة دمشق)

في هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وهو صاحب مصر الى مدينة دمشق فحصرها وبها أخوه الاكبر الملك الافضل علي بن صلاح الدين وكنت حينئذ بدمشق فنزل بنواحي ميدان الحصى فأرسل الافضل الى عمه الملك العادل أبي بكر بن أيوب وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان الافضل غاية الواثق به والمعتمد عليه وقد سبق ما يدل على ذلك فسار الملك العادل الى دمشق هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقي الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم ان العزيز ان ملكها أخذ بلادهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم انه لا قدرة له على البلد فتردد الرسل حينئذ في الصلح فاستقرت القاعدة على ان يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية واعمالها الغور للافضل على ما كانت عليه وان يعطى الافضل أخاه الملك الظاهر جبلة واللاذقية وان يكون للعادل بمصر اقطاعه الاول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز الى مصر ورجع كل واحد من الملوك الى بلاده

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة كانت زلزلة في ربيع الاول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد سقطت منها الجبانة التي عند مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام وفيها في جمادى الآخرة اجتمعت زعب وغيرهم من العرب وقصدوا مدينة النبي صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم هاشم بن قاسم أخو أمير المدينة فقاتلهم فقتلوه هاشم وكان أمير المدينة قد توجه الى الشام فلهذا طمعت العرب فيه وفيها توفي القاضي ابو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الصمد الطرسوسي الحلبي بها في شعبان وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله تعالى

(ثم دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم)

قد ذكرنا ملك مؤيد الدين بن القصاب بلاد خوزستان فلما ملكها سار منها الى ميسان من اعمال خوزستان فوصل اليه قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد وقد تقدم ذكر تغلب خوارزم شاه عليها ومعه جماعة من الامراء فاكرمه وزير الخليفة واحسن اليه وكان سبب مجيئه انه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان واقتتلوا فانهزم قتلغ اينانج وعسكره وقصد عسكر الخليفة ملتجئا الى مؤيد الدين الوزير فاعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج اليه وخلع عليه وعلى من معه من الامراء ورحلوا الى كرمانشاه ورحل منها الى همذان وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذين معهما فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا الى الري واستولى الوزير على همذان في شوال من هذه السنة ثم رحل هو وقتلغ اينانج خلفهم فاستولوا على كل بلد جازوا به منها خرقان ومزدغان وساوة وآوة وساروا الى الري ففارقها الخوارزميون الى خوار الري

(ذكر ايلك خان وما انتهت اليه حاله) قد كان ايلك بعد الكشفة التي اتجهت عليه بباب بلخ فركب ظهر جيحون وعاد وراءه يضطرب على نفسه غيظا مما دهاه واسفا على ما اعياه وما زال يعاتب طغان خان اخاه

صيب الاوراد وتغرت من رشاش الاكباد وعندها زلت قدم الامير ابي الفوارس فولى كسيرا لا يعرف قبيلا ولا دبيرا وانتهى به الركض الى همذان حضرة شمس الدولة بن فخر الدولة فقضى فيه حق القرابة اعظاما لقدره واهتماما بأمره واغتناما لشكره واستعدادا للنصره واقام مدة مديدة على هذه الجملة حتى استشعر أو اشعر انه مغرور ومقصود والى الامير سلطان الدولة مردود فنفر نفارا لا يرجى من نزية القاتل والوحش من كفة الحابل وفارق مظنته قاصدا بغداد وسنشرح ان شاء الله من بعد حاله وما انتهى اليه أمره مما كان عليه أوله

فسير الوزير خلفهم عسكرا ففارقها الخوارزميون الى دامغان وبسطام وجرجان فعاد عسكر الخليفة الى الرى فأقاموا بها فاتفق قتلغ اينانج ومن معه من الامراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لانهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزم شاه فطمعوا فيها فدخلوا الرى فحصرها وزير الخليفة ففارقها قتلغ اينانج وملكها الوزير ونهبها العسكر فأمر الوزير بالنداء بالكف عن النهب وسار قتلغ اينانج ومن معه من الامراء الى مدينة آوة وبها شحنة الوزير فمنعهم من دخولها فساروا عنها ورحل الوزير فى أثرهم نحو همذان فبلغه وهو فى الطريق ان قتلغ اينانج قد اجتمع معه عسكر وقصد مدينة كرج وقد نزل على دربند هناك فطلبهم الوزير فلما قاربهم التقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه ورحل الوزير من موضع المصاف الى همذان فنزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر فوصله رسول خوارزم شاه تكش وكان قد قصدهم منكرا اخذة البلاد من عسكره ويطلب اعادتها وتقرير قواعدها والصلح فلم يجب الوزير الى ذلك فسار خوارزم شاه مجدا الى همذان وكان الوزير مؤيد الدين ابن القصاب قد توفى فى أوائل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فقتل بينهم كثير من العسكرين وانهزم عسكر الخليفة وغنم الخوارزميون منهم شيأ كثيرا وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزير من قبره وقطع رأسه وسيره الى خوارزم وأظهروا انه قتله فى المعركة ثم ان خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب ان يعود اليها فترك البلاد وعاد الى خراسان

(ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالاندلس)

فى هذه السنة فى شعبان غزا ابو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والاندلس بلاد الفرنج بالاندلس وسبب ذلك ان الفنش ملك الفرنج بها ومعه ملكة مدينة طليطلة كتب الى يعقوب كتابا نسخته باسمك اللهم فاطر السموات والارض أما بعد أيها الامير فانه لا يخفى على كل ذى عقل لازب ولا ذى لب ثاقب انك أمير الملة الحنيفية كما انا امير الملة النصرانية وانك من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الاندلس من التضاغن والتواكل واهمال الرعية واشتغالهم على الراحات وأنا أسومهم الخسف واخلى الديار وأسبى الذرارى وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون ان الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عددا منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعا ولا تستطيعون امتناعا ثم حكى لى عنك انك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وعطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولا أدرى الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك ثم حكى لى عنك انك لا تجد سبيلا للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها فها أنا أقول لك ما فيه واعتذر عنك ولك ان توفينى بالعهود والمواثيق والايمان ان تتوجه بجملة من عندك فى المراكب والشوانى وأجوز اليك بجملتى وأبارزك فى أعز الاماكن عندك فان كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت اليك وهدية مثلت بين يديك وان كانت لى كانت يدى العليا عليك واستحققت امارة الملتين والتقدم على الفئتين والله يسهل الارادة ويوفق السعادة بمنه

ويستنصر قدر خان على ما أوهن من قواه * وقوته مراده ومغزاه * والقدر له معاند * والزمان مناكر ومناكد * حتى طرحه الكمد على فراشه وخفعه عن قليل بطيب حياته فأشبعه التراب * بعد ان جوعه الحرص والاضطراب * همة كانت معلقة بالاثير * محلقة على فلك التدوير * غير ان يد القدر فوق يد التدبير * وما يصنع المرء بالجد اذا وافق الجد سافلة الدبر

فهبه رحا يجرى لها اليم ماءه
وليس لها قطب بها اذ يديرها
وقد ينهض العصفور كثرة ريشه
وتسقط اذ لا ريش فيه نسورها

وكانت وفاته فى سنة ثلاث وأربعمائة وولى مكانه أخوه طغان خان فعالا السلطان يمين الدولة وأمين الملة ووالاه * وهاداه * متلافيا بزعمه لما أخل به اخوه * ومتودد من حيث ركب الخلاف ذووه * وجاشت

لارب غيره ولا خير الا خيره فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب في اعلاه هذه الآية ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعاده اليه وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر البحار الى الاندلس وقيل كان سبب عبوره الى الاندلس ان يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم بقي طائفة من الفرنج لم ترض الصلح كما ذكرناه فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعا من الفرنج وخرجوا الى بلاد الاسلام فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيثا شديدا فانتهى ذلك الى يعقوب فجمع العساكر وعبر البحار الى الاندلس في جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم واقبلوا اليه مجدين على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالي قرطبة عند قاعة رباح بمكان يعرف بمرج الحديد فاقتتلوا قتالا شديدا فكانت الدائرة اولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا والله عزيز حكيم وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر ثلاثة عشر ألفا وغنم المسلمون منهم شيأ عظيما فمن الخيام مائة ألف وثلاثة واربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة الف وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيأ فهو له سوى السلاح واحصى ما حمل اليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس وقتل من المسلمين نحو عشرين الفا ولما انهزم الفرنج اتبعهم ابو يوسف فرآهم قد اخذوا قاعة رباح وساروا عنها من الرعب والخوف فملكها وجعل فيها واليا وجندا يحفظونها وعاد الى مدينة اشبيلية واما الفنش فانه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حمارا واقسم ان لا يركب فرسا ولا بغلا حتى تنصر النصرانية فجمع جموعا عظيمة وبلغ الخبر بذلك الى يعقوب فأرسل الى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه فأتاه من المتطوعة والمرتزقين جمع عظيم فالتقوا في ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والدواب وغيرها وتوجه الى مدينة طليطلة فحصرها وقاتلها قتالا شديدا وقطع اشجارها وشن الغارة على ما حولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون فقتل رجالها وسبى حريمها وخرب دورها وهدم أسوارها فضعفت النصرانية حينئذ وعظم امر الاسلام بالاندلس وعاد يعقوب الى اشبيلية فاقام بها فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار عنها الى بلاد الفرنج وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح فأجابهم اليه بعد أن كان عازما على الامتناع مريدا الملازمة للجهاد الى ان يفرغ منهم فأتاه خبر علي بن اسحق الملثم الميورقي أنه فعل بافريقية ما تذكره من الافاعيل الشنيعة فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين وعاد الى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

من جانب الصين جيوش
القصد طغان خان واخذ
بلاد الاسلام من ديار
الترك وسائر ما وراء النهر
يزيد عددهم على مائة
ألف خركاه لم يعهد
الاسلام مثلها على صعيد
واحد يريدون ان يطفؤا
نور الله بافواههم ويغالطا لما
صرع اهله * واوردهم
كما يورد الهدى محله
فاستنفر من خطط الاسلام
حتى اجتمع اليه من رجال
الترك واحرار الغزاة والمطوعة
قرابة مائة الف رجل
واستمكت اسماع المسلمين
من قطاعة هذا النبا الهائل

(ذكر فعلة الملثم بافريقية)

لما عبر أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب الى الاندلس كما ذكرنا وأقام مجاهدا ثلاث سنين انقطعت أخباره عن افريقية فقوي طمع علي بن اسحق الملثم الميورقي وكان بالبرية مع العرب فعاود قصد افريقية فانبث جنوده في البلاد فخربوها واكثروا الفساد فيها فخربت آثار تلك البلاد وتغيرت وصارت خالية من الانيس خاوية على عروشها وأراد المسير الى بجاية ومحاصرتها

لاشتغال يعقوب بالجهاد واظهر انه اذا استولى على بجاية سار الى المغرب فوصل الخبر الى يعقوب بذلك فصالح الفرنج على ماذكرناه وعاد الى مراكش عازما على قصده واخراجه من البلاد كما فعله سنة احدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه

(ذكر ملك عسكر الخليفة اصفهان)

فى هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشا وسيره الى اصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف من العراق وكان باصفهان عسكر خوارزم شاه مع ولده وكان أهل اصفهان يكرهونهم فكاتب صدر الدين الخجندى رئيس الشافعية باصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد الى من يصل من الديوان من العساكر وكان بعد الحاكم باصفهان على جميع أهلها فسيرت العساكر فوصلوا الى اصفهان ونزلوا بظاهر البلد وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا الى خراسان وتبعهم بعض عسكر الخليفة فحفظوا منهم وأخذوا من ساقة العسكر من قدروا عليه ودخل عسكر الخليفة الى اصفهان وملكوها

(ذكر ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الرى وهمذان وغيرها)

لما عاد خوارزم شاه الى خراسان كما ذكرنا اتفق المماليك الذين للبهلوان والامراء وقدموا على أنفسهم كوكجه وهو من اعيان البهلوانية واستولوا على الرى وماجاورها من البلاد وساروا الى اصفهان لاخراج الخوارزمية منها فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها فأرسل الى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان ويظهر العبودية وانه انما قصد اصفهان فى طلب العساكر الخوارزمية وحيث رآهم فارقوا اصفهان سار فى طلبهم فلم يدركهم وسار عسكر الخليفة من اصفهان الى همذان وأما كوكجه فانه تبع الخوارزمية الى طبس وهى من بلاد الاسماعيلية وعاد فقصد اصفهان وملكها وأرسل الى بغداد يطلب أن يكون له الرى وخوار الرى وساوة وقم وقاشان وما ينضم اليها من حد مزدغان وتكون اصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة فأجيب الى ذلك وكتب له منشور بما طلب وأرسلت له الخلع فعظم شأنه وقوى أمره وكثرت عساكره وتعظم على أصحابه

(ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها)

وفى هذه السنة أيضا خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر فى عساكره الى دمشق يريد حصرها فعاد عنها منهزما وسبب ذلك ان من عنده من مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية فخر الدين جركس وسراسنقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الافضل على بن صلاح الدين لانه كان قد أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصرى وسنقر الكبير وايبك وغيرهم فكانوا لا يزالون يخوفون العزيز من أخيه ويقولون ان الاكراد والمماليك الاسدية من عسكر مصر يريدون أخاك ونخاف أن يميلهم اليه ويخرجوك من البلاد والمصلحة أن نأخذ دمشق فخرج فى العام الماضى وعاد كما ذكرناه فتجهز هذه السنة ليخرج فبلغ الخبر الى الافضل فسار من دمشق الى عمه الملك العادل فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه الى نصرته فسار من عنده الى حلب الى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجده وسار الملك العادل من قلعة جعبر الى دمشق فسبق الافضل اليها

والبناء المائل * فارتاعت له القلوب والتاعت النفوس وتناصرت الادعية والذكور وسار طغان خان مستقبلا من أقبل عليه من جموع الفجرة الكفرة بنيات مقصورة على الاستقتال * واستقبال الآجال * أو ينزل الله نصره * ويظهر حزبه ويصلح أمره * تحقيقا لما وعدهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد والتقوا أياما تباعا على ملاحم لم يدر من فتق العروق * وضرب الملوق * وشد الخيول على الخيول * أصوب أنواء * أم صب دماء * ولمع البروق أو وقع السيوف وظلمة ليال أو رهج نزال وفى كل ذلك يتولى الله عباده بالأيد المتين * والنصر والتمكين * حتى وثقوا بالصنع المتين * وطلوع النجيع مشرق الجبين * وتلاقوا ليوم منصوص عليه فى فصل الحرب فشد بهرام لها نطاقه * وأدار على الفريقين دهاقه * فأما أعداؤه

ودخلها وكان الافضل لتفقته به قد أمر نوابه بادخاله الى القلعة ثم عاد الافضل من حلب الى دمشق فأرسل مقدم الاسدية وهو سيف الدين ايازكوش وغيره منهم ومن الاكراد أبو الهيجاء السمين وغيره الى الافضل والعادل بالانحياز اليهما والكون معهما ويأمرهما بالاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموها اليهما وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم الى الافضل ان العزيز لما ملك مصر مال الى المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ولم يلتفت الى هؤلاء الامراء فاتفقوا من ذلك ومالوا الى أخيه وأرسلوا الى الافضل والعادل فاتفقا على ذلك واستقرت القاعدة بحضور رسل الامراء ان الافضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق الى عمه الملك العادل ويخرج من دمشق فانحاز اليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه الى أن وصل الى مصر وأما العادل والافضل فانهما أرسلا الى القدس وفيه نائب العزيز فسلمه اليهما وسارا فيمن معهما من الاسدية والاكراد الى مصر فرأى العادل انضمامة العساكر الى الافضل واجتماعهم عليه فخاف انه يأخذ مصر ولا يسلم اليه دمشق فأرسل حينئذ سرا الى العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بانه يمنع الافضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم ووصل العادل والافضل الى بلبيس فنازلوا من بها من الناصرية وأراد الافضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل الى مصر فمنعه العادل من الامرين وقال هذه عساكر الاسلام فاذا اقتتلوا في الحرب فمن يرد العدو الكافر ومابها حاجة الى هذا فان البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الاعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثال هذا فطالت الايام وأرسل الى العزيز سرا يأمره بارسال القاضي الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحي لعلو منزلته كان عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول وتقصر وانفسخت العزائم واستقر الامر على ان يكون للافضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والاردن وجميع ما بيده ويكون للعادل اقطاعه الذي كان قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز وانما اختار ذلك لان الاسدية والاكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد فلما استقر الامر على ذلك وتعاهدوا عاد الافضل الى دمشق وبقي العادل بمصر عند العزيز

(ذكر عدة حوادث)

في ذي القعدة تاسع عشره وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التي بين يديه وكان ابن البخيل الهراس وقيل كان ابتداؤها من دار ابن البخيل

(ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلاد الهند)

في هذه السنة سار شهاب الدين الغوري صاحب غزنة الى بلاد الهند وحصر قلعة بهنكر وهي قلعة عظيمة منيعة فحصرها فطلب أهلها منه الامان على أن يسلموا اليه فامنهم وتسلمها وأقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها وسار عنها الى قلعة كوالير وبينهما مسيرة خمسة

فكروا سكرا استوجبوا به الحدود بالحدود البواتك
فصبت عليهم من لدن لاح جبين الشمس الى أن ذكت سراجاوها جا * وكادت تصير على قم الرؤس تاجا * وأما أولياء الله تعالى فانتشوا نشوة طربوا معها للضرب فوق الهام * والعبث بطلائع الحمام * لاجرم ان الله حماهم ونصرهم * وآواهم وأظفرهم * فغادروا من جماهير الكفار قرابة مائة ألف عنان صرعى على وجه البسيطة عن نفوس موقوذة * ورؤس منبوذة * وأيد عن السواعد مجذوذة * تقرى للضباع * بل جفلى للسباع * والوحوش الجياع * وأفاء الله على المؤمنين مائة ألف رأس غلمانا كالبدور * واللؤلؤ المنثور * وجوار كالحور العين والبيض المكنون وسوائم غصت بها أقطار البيداء * وضاقت عنها أطراد الدهناء * وشرد الباقون وراءهم تسلبهم السيوف شل الانعام * وتختطف أرواحهم بأيدي الحمام * وتطايرت به البشارات في ديارات الاسلام * فنضرت

أيام وفي الطريق نهر فجازه ووصل الى كواليروهي قلعة منيعة حصينة على جبل لا يصل اليها
حجر منجنيق ولا نشاب وهي كبيرة فأقام عليها صفر اجميعه يحاصرها فلم يبلغ منها غرضا فراسله
من بها في الصلح فأجابهم اليه على أن يقر القلعة بأيديهم على مال يحملونه اليه فحملوا اليه فيلا
حمله ذهب فرحل عنها الى بلاد آي وسورفأغار عليها ونهبها وسبى وأسر ما يعجز العاد حصره ثم عاد
الى غزنة سالما

(ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الافضل)

في هذه السنة في السابع والعشرين من رجب ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة دمشق
من ابن أخيه الافضل علي بن صلاح الدين وكان أبلغ الاسباب في ذلك وثوق الافضل بالعادل
وانه بلغ من وثوقه انه أدخله بلده وهو غائب عنه ولقد ارسل اليه أخوه الظاهر غازي صاحب
حلب يقول له اخرج عمنا من بيننا فانه لا يجيء علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد
وأنا أعرف به منك وأقرب اليه فانه عمي مثل ما هو عمك وأنا زوج ابنته ولو علمت انه يريدنا
خيرا لكنت أنا أولى به منك فقال له الافضل أنت سيئ الظن في كل أحد أي مصلحة لعمنا في أن
يؤذينا ونحن اذا اجتمعت كلمتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كنا ملكنا من البلاد أكثر من
بلادنا ونزيح سوء الذكر وهذا كان أبلغ الاسباب ولا يعلمها كل أحد وأما غير هذا فقد ذكرنا
مسير العادل والافضل الى مصر وحصارهم بلبيس وصلحهم مع الملك العزيز بن صلاح الدين
ومقام العادل معه بمصر فلما أقام عنده استمالة وقرر معه أنه يخرج معه الى دمشق و يأخذها
من أخيه و يسلمها اليه فسار معه من مصر الى دمشق وحصروها واستمالوا أميرا من امراء
الافضل يقال له العزيز بن أبي غالب الحمصي وكان الافضل كثير الاحسان اليه والاعتماد
عليه والوثوق به فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقي ليحفظه فمال الى العزيز
والعادل ووعدهما انه يفتح لهما الباب و يدخل العسكر منه الى البلد غفلة ففتحه اليوم
السابع والعشرين من رجب وقت العصر وادخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم
يشعر الافضل الا وعمه معه في دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الاخضر غربي دمشق
فلما رأى الافضل ان البلد قد ملك خرج الى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد
واجتمعا بالعادل وقد نزل في دار اسد الدين شيركوه وتحادثوا فاتفق العادل والعزيز على ان
اوهما الافضل انهما يقيمان عليه البلد خوفا انه ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما
ومعه العامة فاخرجهم من البلد لان العادل لم يكن في كثرة واعاد الافضل الى القلعة وبات
العادل في دار شيركوه وخرج العزيز الى الخيم فبات فيها وخرج العادل من الغد الى جوسقه
فاقام به وعساكره في البلد في كل يوم يخرج الافضل اليهما و يجتمع بهما فبقوا كذلك أياما
ثم ارسلا اليه واقراه بفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له و يسلم
جميع أعمال دمشق فخرج الافضل ونزل في جوسق بظاهر البلد غربي دمشق وتسلم العزيز
القلعة ودخلها واقام بها أياما فجلس يوما في مجلس شرابه فلما اخذت منه الخمر جرى على لسانه
انه يعيد البلد الى الافضل فنقل ذلك الى العادل في رقعة فحضر المجلس في ساعته والعزيز
سكران فلم يزل به حتى سلم البلد اليه وخرج منه وعاد الى مصر وسار الافضل الى صرخد وكان

لها الوجوه وضحكت القلوب
وعم السرور وتوفر الشكور
وتباشرت الدور * حق
القصور والخدور * الطفا
من الله لدين ارتضاه *
ووعد أن يصل بيد التأييد
قواه * فلم ينشب طغان خان
بعد أن فرغ من هذه الحرب
العظيم راسها * الشديد
مراسها * ان استأثر الله به
فنقله الى جواره * وبوأه
مبوأ الصديقين من داره
قراره * ختمه له بالشهادة *
وحتما عليه بالسعادة *
وورث مكانه أخوه ارسلان
خان أبو منصور الاصم
صنو في التقية * وتلوه
في الامور الالهية * ثبت
المقام * في دين الاسلام *
لا تعرف له جاهلية ولا تنقم
منه غبهية ولا بجرفية *
يقيم الصلوات جماعه *
ويفترض العدل سمعا لله
وطاعه * وعمر الحال التي
كانت بين طغان خان أخيه
وبين السلطان يمين الدولة
وأمين الملة اظهارا للمصافاه *
واستشعارا للمواخاه *
وايثارا للاشتراك على
تصاريف الحالات وخطب
السلطان اليه والى أخيه

العادل يذكر ان الافضل سعى فى قتله فلهذا أخذ البلد منه وكان الافضل ينكر ذلك ويتبرأ منه والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة هبت ريح شديدة بالعراق واسودت لها الدنيا ووقع رمل أحمر واستعظم الناس ذلك وكبروا واشتعلت الاضواء بالنهار وفيها قتل صدر الدين محمود بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت الخجندى رئيس الشافعية باصفهان قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنة اصفهان بها وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة واستوطنها وولى النظر فى المدرسة النظامية ببغداد ولما سار مؤيد الدين بن القصاب الى خوزستان سار فى صحبته فلما ملك الوزير اصفهان أقام ابن الخجندى بها فى بيته وملكه ومنصبه فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة اصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر وفى رمضان درّس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادى الفقيه الشافعى بالمدرسة النظامية ببغداد وفى شوال منها أثبت نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الرازى فى الوزارة ببغداد وكان قد توجه الى بغداد لما ملك ابن القصاب الرى وفيها ولى أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الانشاء ببغداد وكان كاتبا فلقاوله شعر جيد وفى صفر منها توفى الفخر محمود بن على القوقانى الفقيه الشافعى بالكوفة عائدا من الحج وكان من اعيان أصحابه محمد بن يحيى وفى رجب منها توفى أبو الغنائم محمد بن على بن المعلم الشاعر الهرثى والهرث بضم الهاء والثاء المثلثة قرية من أعمال واسط عن احدى وتسعين سنة وفى رابع شعبان منها توفى الوزير مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن على بن القصاب بهمذان وقد ذكرنا من كفايته ونهضته مافيه كفاية

(ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ارسال الامير أبى الهيجاء الى همذان وما فعله)

وصل الى بغداد أمير كبير من امراء مصر اسمه أبو الهيجاء ويعرف بالسمين لانه كان كثير السمن وكان من أكابر أمراء مصر وكان فى اقطاعه أخيرا البيت المقدس وغيره مما يجاوره فلما ملك العزيز والعادل مرتبة دمشق من الافضل أخذ القدس منه ففارق الشام وعبر الفرات الى الموصل ثم انحدر الى بغداد لانه طلب من ديوان الخلافة فلما وصل اليها أكرم اكراما كثيرا ثم أمر بالتجهيز والمسير الى همذان مقدما على العساكر البغدادية فسار اليها والتقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه وابن سطمش وغيرهم وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة فلما اجتمع بهم وثقوا اليه ولم يحذروه فقبض على اوزبك وابن سطمش وابن قراجا وافقة من أمير علم فلما وصل الخبر بذلك الى بغداد انكرت هذه الحال على أبى الهيجاء وأمر بالافراج عن الجماعة وسيرت لهم الخلع من بغداد تطييبا لقلوبهم فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا أمنوا ففارقوا أبا الهيجاء السمين فخاف الديوان فلم يرجع اليه ولم يمكنه أيضا المقام فعاد الى بلاده اربل لانه من بلدها هو وتوفى قبله وصوله اليها وهو من الاكراد الحكمية من بلد اربل

(ذكر ملك العادل ياقلمش الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج بنسين ورحيلهم عنها)

ابلك كريمة له على ولده الامير الجليل أبى سعيد مسعود بن يمين الدولة وأمين الملة فأحسنا الاجابة * واعتنما القرابة * وتردد بينهما السفراء فى ذلك مدة على جملة التهادى * ورص الحال باقتسام الايادى * الى أن حققت الحقيقة * وتمت العقدة الوثيقة * وأنهض السلطان من اختارهم من ثقات بابه لنقل اليتيمة الكريمة فجهزت وديعة تشاح عليها ملك كان هذا صدر الملك * وذا ملك الترك * يختص بها الشبل ابن الليث * والوبل ابن الغيث * والتيار ابن البحر * والصباح بن الفجر * الامير الجليل أبو سعيد مسعود بن محمود يمين الدولة وأمين الملة ونقلت الى الحضرة ببلخ وقد حميها من فقدها ملك الدولة واعيان رجالها من عدوا أئمة المشرق * وأرباب المنطق * فادوا أمانتى اليد واللسان على ما ألحت لحال بين الجنبتين * ورفضت الخشمة فى ذات البين * وأمر السلطان أهل بلخ قبيل الوصول بعقد الاذين *

في هذه السنة في شوال ملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامي وهو بيد الفرنج لعنهم الله وسبب ذلك ان الفرنج كان قد ملكهم الكندهري على ماذكرنا قبل وكان الصلح قد استقر بين المسلمين والفرنج أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى فلما توفي وملك أولاده بعده كما ذكرناه جدد الملك العزيز الهدنة مع الكندهري وزاد في مدة الهدنة وبقي ذلك الى الآن وكان بمدينة بيروت أمير يعرف باسامة وهو مقطعها فكان يرسل الشوانى تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة الى الملك العادل بدمشق والى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا اسامة من ذلك فأرسلوا الى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون اليهم مايفعل بهم المسلمون ويقولون ان لم تجدونا والا أخذ المسلمون البلاد فامدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكان أكثرهم من ملك الالمان وكان المقدم عليهم قمس يعرف بالخنصليز فلما سمع العادل بذلك ارسل الى العزيز بمصر يطلب العساكر وارسل الى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر فجاءته الامراء واجتمعوا على عين جالوت فاقاموا شهر رمضان وبعض شوال ورحلوا الى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التي لها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهرا بالسيف في يومها وهو يوم الجمعة واخذ كل مابها غنيمة واسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا الى قيسارية فمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بها بملكها فعادوا وكان سبب تأخرهم ان ملكهم الكندهري سقط من موضع عال بعكا فمات فاختلفت احوالهم فتأخروا لذلك وعاد المسلمون الى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فرحل العادل والعسكر في ذي القعدة الى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت فسار اليها جمع من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذي الحجة وشرعوا في تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم اسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج من عكا الى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحي صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل وسار الفرنج تاسع ذي الحجة فوصلوا الى بيروت فلما قاربوها هرب منها اسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل الى صيدا من خرب ما كان بقي منها فان صلاح الدين كان قد خرب اكثرها وسافرت العساكر الاسلامية الى صور فقطعوا اشجارها وخربوا اماكنها من قرى وابراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت الى صور واقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين واذن للعساكر الشرقية بالعود ظنا منه ان الفرنج يقيمون ببلادهم وارادان يعطي العساكر المصرية دستورا بالعود فاتاه الخبر منتصف المحرم ان الفرنج يريدون ان يحصروا حصن تبنين فسير العادل اليه عسكرا يحمونه ويمنعون عنه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين اول صفر سنة اربع وتسعين وقاتلوا من به وجدوا في القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك ارسل الى العزيز بمصر يطلب منه ان يحضر هو بنفسه وبقول له ان حضرت والا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجدا فيمن بقي معه من العساكر واما من تحصن بتبنين فانهم لما رأوا النقوب قد خربت القلعة ولم يبق الا ان ملكوها بالسيف نزل بعض من فيها الى الفرنج يطلب الامان على انفسهم واموالهم ليسلموا القلعة وكان المرجع الى القسيس

وتكليف التمهيد والتزيين * فبلغوا من ذلك مبلغا لم يسبق فيه من الوسع مذخور * ولا من الرسم مذكور ومسطور * ورأى السلطان بعد ذلك أن يرفع من قيدره فعقد له على هراقسر تملكه ونواحيها وسيره اليها بعد أن وصله بمال عظيم يعده ذخيرة * ويوسعه تجملا وزينة * فنهض اليها رشيد السيرة * جميد السمريره * عادل الطريقة * فاضل الخليقة * خليقا بالملك على الحقيقة * وذلك في سنة ثمان وأربعمائة *(ذكر الامير أبي أحمد محمد بن عبد الدولة وأمين الملة)*

جملة ما يمكن الافصاح به والايضاح عنه من حاله * وذكر خصاله * قول القائل ان السرى اذا سرى فبنفسه وابن السرى اذا سرى أسراهما

وقد جمع الله له من الميل الى خصائص الادب * والسعي لمعالي الرتب * مادل على انه ابن أبيه شرفا سمقت على النجوم شرفاته * وكرما تعرفت لأهل الفضائل عرفاته *

الخلص ممن اصحاب ملك الالمان فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام ان سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا انفوسكم فعادوا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا فلما صعدوا اليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموها الى أن وصل الملك العزيز الى عسقلان في ربيع الاول فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين وان الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وان أمرهم الى امرأة وهي الملكة فاتفقوا وأرسلوا الى ملك قبرس واسمه هيمري فاحضروه وهو أخو الملك الذي أسر بحطين كما ذكرناه فزوجوه بالملكة زوجة الكندهري وكان رجلا عاقلا يحب السلامة والعافية فلما ملكهم لم يعد الى الزحف على الحصن ولا قاتل واتفق وصول العزيز أول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر الى جبل الخليل الذي يعرف بجبل عامله فاقاموا أياما والامطار متداولة فبقي الى ثالث عشر الشهر ثم سار وقارب الفرنج وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ورتب العساكر ليزحف الى الفرنج ويجد في قتالهم فرحلوا الى صور خامس عشر الشهر المذكور وليلا ثم رحلوا الى عكا فسار المسلمون فنزلوا اللجون وتراسلوا في الصلح وتطاول الامر فعاد العزيز الى مصر قبل انفصال الحال وسبب رحيله ان جماعة من الامراء وهم ميمون القصري واسامة وسراسنقر والجاف وابن المشطوب وغيرهم قد عزموا على القتل به وبتخر الدين جركس مدبر دولته والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك فلما سمع بذلك سار الى مصر وبقي العادل وترددت الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح في شعبان سنة أربع وتسعين فلما انتظم الصلح عاد العادل الى دمشق وسار منها الى ماردين من أرض الجزيرة فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة سيف الاسلام وملك ولده)

في شوال من هذه السنة توفي سيف الاسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين وهو صاحب اليمن بزبيد وقد ذكرنا كيف ملك وكان شديد السيرة مضيقا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء وأراد ملك مكة حرسها الله تعالى فأرسل الخليفة الناصر لدين الله الى أخيه صلاح الدين في المعنى فمنعه من ذلك وجمع من الاموال ما لا يحصى حتى انه من كثرته كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره ولما توفي ملك بعده ابنه اسمعيل وكان أهوج كثير التخليط بحيث انه ادعى انه قرشي من بني أمية وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادي فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساءه وأهمه وكتب اليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعود الى نسبه الصحيح ويترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه فلم يلتفت اليه ولم يرجع وانضاف الى ذلك انه أساء السيرة مع اجناده وامرائه فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا بعده أميرا من مماليك أبيه

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في ربيع الآخر توفي أبو بكر عبد الله بن منصور بن عمران الباقلاني المقرئ الواسطي ج اعن ثلاث وسبعين سنة وثلاثة أشهر وأيام وهو آخر من بقي من أصحاب القلانسي وفي جمادى الآخرة توفي قاضي القضاة أبو طالب علي بن البخاري ببغداد ودفن بتربته في مشهد باب التبن وفيها في ربيع الآخر توفي ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور وكان أبوه قد جعله فيها وأضاف اليه عساكر جميع بلاده التي بخراسان وجعله ولي عهده في الملك

خرج من حصن الكفالة خروج الابرين من جمرات السبائك * والهلال من تحت الشماع المتشابك * لم يعرف لطول أيام الايفاع * غير الارتفاع الى البفاع * نصرة فاعلى كرم الطباع * وتقييد اللمأثور بالسماع * وبذلا لما لفظته يد الطباع * وارتياضا بآداب الثقافة والمصاع * حتى اذا انزع يداه برد الحداثة * ولبس خذاه طوق الشهامة * رأى السلطان أن يوفيه حق البنوة * ويؤتيه شرط المروة * ويجذب بضبعه الى حيث اقتضته الفراسة فيه واستدعته العناية به والرعاية له فزوجه كريمة الامير أبي نصر الفريغوني والي الجوزجان وهي التي تجمع الى الاصالة جلالة * والى الكفاية كفاءة * والى النعمة همة * وعقد له على أعمال الجوزجان كما عقد للامير الجليل أبي سعيد مسعود على هراة وهي التي وليها قبله آل فريغون وهم الذين حكوا في العز افريدون وفي الهمة المجنون * وفي الغزارة والسماحة جيحون *

وخلف ولدا اسمه هندوخان فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الآخر قطب الدين محمدا وهو الذى ملك بعد أبيه وكان بين الاخوين عداوة مستحكمة أفضت الى أن محمدا الملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما نذكره وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعيش بن صدقة بن على الفرانى الضرير الفقيه الشافعى كان اماما فى الفقه مدرسا صالحا كثير الصلاح سمعت عليه كثيرا لم أر مثله رحمه الله تعالى ولقد شاهدت منه عجبا يدل على دينه وارادته بعمله وجه الله تعالى وذلك انى كنت اسمع عليه ببغداد سنن أبى عبد الرحمن النسائى وهو كتاب كبير والوقت ضيق لانى كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله فبينما نحن نسمع عليه مع معنا الاكبر مجد الدين أبى السعادات اذ قد أتاه انسان من اعيان بغداد وقال له قد برز الامر لتحضر لامر كذا فقال أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت والذى يراد منى لا يفوت فقال انا لا احسن اذكر هذا فى مقابل أمر الخليفة فقال لا عليك قل قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع فسألناه ليمشى معه فلم يفعل ذلك وقال اقرؤا فقرأنا فلما كان الغد حضر غلام لنا وذكر ان أمير الحاج الموصلى قد رحل فعظم الامر علينا فقال ولم يعظم عليكم العود الى أهلكم وبلدكم فقلنا لاجل فراغ هذا الكتاب فقال اذا رحلتم استعيروا به وأركبوا فاسيروا معكم وانتم تقرؤن فاذا فرغتم عدت فمضى الغلام ليتزود ونحن نقرأ فعاد وذكر ان الحجاج لم يرحلوا ففرغنا من الكتاب فانظر الى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ويريد يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا

(ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد)

فى هذه السنة فى المحرم توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وقد تقدم ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين وكان رحمه الله عادلا حسن السيرة فى رعيته عفيفا عن أموالهم وأملاكهم متواضعا يحب أهل العلم والدين ويحترمهم ويجالس معهم ويرجع الى أقوالهم الا انه كان بخيلا شديد البخل وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برتقش مملوك أبيه وكان دينا خيرا عادلا حسن السيرة كثير البر والاحسان الى الفقراء وكان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الحنفية كثير الذم للشافعية فمن تعصبه انه بنى مدرسة للحنفية بسنجار وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية وشرط أن يكون البواب والفراش على مذهب أبى حنيفة وشرط للفقهاء طبيخا يطبخ ذلك كل يوم وهذا نظر حسن رحمه الله

(ذكر ملك نور الدين نصيبين)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل الى مدينة نصيبين فملكها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد وسبب ذلك ان عمه عماد الدين كان له نصيبين فقط اول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهى تجاور نصيبين فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل

وولى أبا محمد الحسن بن مهران كفاية أموره *وولاية تدابيره *فبرز اليها بروز السيف من يد الصاقل وهمى على أهلها همى السحاب الهاطل *فأحياهم بندى العدل الشامل *وعدل فى العطف عليهم بين الايامى والارامل *فعلقته قلوب الخاص والعام *وكفته النفوس مؤنة الاستخدام *ولما رأى السلطان جده اثره *ورشيد مختبره *ازداد شغفا باثاره *وحرصا على اصطناعه وايثاره *فلم يخل من جديد انعام *ومزيد حفاوة واكرام *وسيأتى بيان خبر الاخوين الجليلين فى موضعه باذن الله تعالى

*(ذكر التاهرتى الرسول الوارد من مصر وما ختم به أجله)

قد كان السلطان يمين الدولة وامين الملة مذ شحذ عزيمته لغزوات الهند محييا لسنة ابيه *مقتفيا نهج آثاره ومساعيه *باحثا على طرق النظر وسبيل الجدل عن سنن الاسلام *والبدع المعترضة عليها فى سالف الايام *استبصارا منه فى الدين *

كلها والمرجوع اليه فيها فلم يعلم مخدومه بذلك لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا وخاف أن يجرى خلاف بينهم فأرسل من عنده رسولا الى عماد الدين فى المعنى وقبح هذا الفعل الذى فعله النواب بغير أمره وقال انى ما أعلمت نور الدين بالحال لئلا يخرج عن يدك فانه ليس كوالده وأخاف ان يبدو منه ما يخرج الامر فيه عن يدى فأعاد الجواب انهم لم يفعلوا الا ما أمرتهم به وهذه القرى من أعمال نصيبين فتردّدت الرسل بينهما فلم يرجع عماد الدين عن أخذها فحينئذ أعلم مجاهد الدين نور الدين بالحال فارسل نور الدين رسولا من مشايخ دولته ممن خدم جدّهم الشهيد زنكى ومن بعده وحمله رسالة فيها بعض الخشونة فمضى الرسول فلحق عماد الدين قد مرض فلما سمع الرسالة لم يلتفت وقال لا أعيد ملكى فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ما أخذه وحذره عاقبة ذلك فاغلظ عليه عماد الدين القول وعرّض بذم نور الدين واحتقاره فعاد الرسول وحكى لنور الدين جلية الحال فغضب نور الدين وعزم على المسير الى نصيبين وأخذها من عمه فاتفق ان عمه مات وملك بعده ابنه فقوى طمعه فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع وتجهز وسار اليها فلما سمع قطب الدين صاحبها سار اليها من سنجار فى عسكره ونزل عليها فمنع نور الدين عنها فوصل نور الدين وتقدم الى البلد وكان بينهما نهر فجازه بعض امرائه وقاتل من بازائه فلم يثبتوا له فعبر جميع العسكر النورى وتمت الهزيمة على قطب الدين فصعد هو ونائبه مجاهد الدين برتقش الى قلعة نصيبين وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين الى حرّان وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حرّان وغيرها وهو بدمشق وبذلوا له الاموال الكثيرة ليمدّهم ويعيد نصيبين اليهم وأقام نور الدين بنصيبين مالكها فتضعضع عسكره بكثرة الامراض وعودهم الى الموصل وموت كثير منهم ووصل العادل الى الديار الجزرية فحينئذ فارق نور الدين نصيبين وعاد الى الموصل فى شهر رمضان فلما فارقها تسلمها قطب الدين وممن توفى من امراء الموصل عز الدين جوردبك وشمس الدين عبد الله بن ابرهيم وفخر الدين عبد الله بن عيسى المهرانيان ومجاهد الدين قايماز وظهير الدين يولق بن بلنكرى وجمال الدين محاسن وغيرهم ولما عاد نور الدين الى الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها وضيق على اهلها على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكافرة)

فى هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود وهو ابن أخت غياث الدين وشهاب الدين صاحبى غزنة وغيرها وله باميان مدينة بلخ وكان صاحبها تركيا اسمه ازبه وكان يحمل الخراج كل سنة الى الخطا بما وراء النهر فتوفى فى هذه السنة فسار بهاء الدين سام الى المدينة فملكها وتمكن منها وقطع الحمل الى الخطا وخطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الاسلام بعد ان كانت فى طاعة الكفار

(ذكر انهزام الخطا من الغورية)

وفى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون الى ناحية خراسان فعاثوا فى البلاد وافسدوا فلقيهم عسكر غياث الدين الغورى وقاتلهم فانهزم الخطا وكان سبب ذلك ان خوارزم شاه تكش كان قد سار الى بلد الرى وهمذان واصفهان وما بينهما من البلاد وملكها وتعرّض الى عساكر

واستظهارا على قمع الملحدين فقرأ الكتب وسمع التأويل * وتتبع القياس والدليل * وعرف الناسخ والمنسوخ والخبر الصحيح والموضوع وثلقن من اصول الدين ما لم يستجز معه فى الدين بدعة * ورأى كل ما يخالف ظاهره نكرا وشنعه * وألقى اليه ان فى غمار الرعايا بخراسان اقواما ينتحلون مذهب الباطن المنسوب الى صاحب مصر ظاهره الرفض * وباطنه الكفر المحض * بتأويلات موضوعة تؤدّى الى رفع قواعد الدين * ودفع معاقد الحق واليقين * وابطال معالم شرع وتتبع احكام الله تعالى بالرفض والنقض فأمر بوضع العيون عليهم * والصاق التهم بهم * وعثر على رجل كان سفيرا بين المذكور وبين اوليائه * والمبين لنداءته * يعرف القوم بسيماهم واسمائهم فنص على طائفة منهم تحتلى البلدان والاوطان فأشخصوا الى الباب ورجوا تحت العصا بالاحجار * ولم

الخليفة وأظهر طاب السلطنة والخطبة ببغداد فارسل الخليفة الى غياث الدين ملك الغور وغزنة يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليعود عن قصد العراق وكان خوارزم شاه قد عاد الى خوارزم فراسله غياث الدين يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها فأرسل خوارزم شاه الى الخطا يشكو اليهم من غياث الدين ويقول ان لم تدركوه بانفاذ العساكر والا أخذ غياث الدين بلاده كما أخذ مدينة بلخ وقصد بعد ذلك بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عنه ويضعفون عن رده عما وراء النهر فجهز ملك الخطا جيشا كثيفا وجعل مقدمهم المعروف بطايشكوا وهو كالوزير فساروا وعبروا جيحون في جمادى الآخرة وكان الزمان شتاء وكان شهاب الدين الغوري أخو غياث الدين ببلاد الهند والعساكر معه وغياث الدين به من النقرس ما يمنعه من الحركة انما يحمل في محفة والذي يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب الدين فلما وصل الخطا الى جيحون سار خوارزم شاه الى طوس عازما على قصد هراة ومحاصرتها وعبر الخطا النهر ووصلوا الى بلاد الغور مثل كرزبان وشبرقان وغيرهما وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها فراسل الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمرونه بالافراج عن بلخ أو انه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال فلم يجبهم الى ذلك وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا فانتدب الامير محمد بن جربك الغوري وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين وكان شجاعا وكاتب الحسين بن خرميل وكان بقلعة كرزبان واجتمع معهما الامير حرّوش الغوري وساروا بعساكرهم الى الخطا فبيتوهم وكبسوهم ليلا ومن عادة الخطا انهم لا يخرجون من خيامهم ليلا ولا يفارقونها فاتاهم هؤلاء الغورية وقاتلوهم واكثروا القتل في الخطا وانهزم من سلم منهم من القتل وأين ينهزمون والعسكر الغوري خلفهم وجيحون بين أيديهم وظن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم في عساكره فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلموا ان غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم وثبتوا عامة نهارهم فقتل من الفريقين خلق عظيم ولحقت المتطوعة بالغوريين وأتاهم مدد من غياث الدين وهم في الحرب فثبت المسلمون وعظمت نكايتهم في الكفار وحمل الامير حرّوش على قلب الخطا وكان شيخا كبيرا فأصابه جراحة توفي منها ثم ان محمود بن جربك وابن خرميل حملا في أصحابهما وتنادوا ان لا يرمي أحد بقوس ولا يطعن برمح وأخذوا السيوف وحملوا على الخطا فهزموهم وألحقوهم بجيحون فمن صبر قتل ومن ألقى نفسه في الماء غرق ووصل الخبر الى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل الى خوارزم شاه يقول له أنت قتلت رجالي وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار وكان القتلى اثني عشر ألفا وانفذ اليه من رده الى خوارزم وألزموه بالحضور عنده فأرسل حينئذ خوارزم شاه الى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكو اليه ويستعطفه غير مرة فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة واعادة ما أخذه الخطا من بلاد الاسلام فلم ينفصل بينهما حال

﴿ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارا﴾

لما ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه بما ذكرناه أعاد الجواب ان عسكرك انما قصد انتزاع بلخ ولم يأتوا الى نصرتي ولا اجتمعت بهم ولا أمرتهم بالعبور وان كنت فعلت ذلك فانا

يزل يفعل ذلك بأضرابهم ومن كان يخرج لهذكر بألقابهم * حتى التقطتهم حجارة الرجم والرض * عن بسط الارض * وقد كان الاستاذ ابو بكر محمد بن اسحق بن محمشاد زعيم اصحاب ابي عبد الله بن كرام غزير الفضل * كبير المحل مذكورا في الناصية والدانيه * بالديانة الوافيه والامانة البادية والخافيه * مشهورا باليقظة على الفرق الغاليه * والبدع الجافيه * فوافق رأي السلطان على اجتياح من ركب بغيات الطريق * وعدم في العدول عن مثل مخارف النعم مساعدة التوفيق * ونبهه على عدة زعموا أنهم ضلال * وانهم في فضول القول وهذر المحال مجال * فسلكوا في أصفاد الآخرين * ونصبوا عبرة للناظرين * وازداد أبو بكر فيما تقرب به من ظاهر الحماه * على دين الله والمراماه * دون حق الله وتطهير بيضة الاسلام عن كل ذي ريبه بعيدة أو قريبه حشمه * أطمعت

مقيم بالمال المطلوب منى ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية عدتم على بهذا القول وهذا المطلب واما أنا فقد اصلحت الغورية ودخلت فى طاعتهم ولا طاعة لكم عندى فعاد الرسول بالجواب فجهز ملك الخطا جيشا عظيما وسيره الى خوارزم فحصرها فكان خوارزم شاه يخرج اليهم كل ليلة ويقتل منهم خلقا عظيما وأتاه من المتطوعة خلق كثير فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على اكثرهم فدخل الباقون الى بلادهم ورحل خوارزم شاه فى آثارهم وقصد بخارا فنازلها وحصرها وامتنع أهلها منه وقاتلوه مع الخطا حتى انهم أخذوا كلبا أعوروا ألبسوه قباء وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه لانه كان أعور وطافوا به على السور ثم القوه فى منجنيق الى العسكر وقالوا هذا سلطانكم وكان الخوارزميون يسبونهم ويقولون يا أجناد الكفار أنتم قد ارتددتم عن الاسلام فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزم شاه البلد بعد أيام يسيرة عنوة وعفا عن أهله وأحسن اليهم وفرق فيهم مالا كثيرا وأقام بها مدة ثم عاد الى خوارزم

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة توفى أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة كاتب الانشاء بديوان الخليفة وكان عالما فاضلا له كتابة حسنة وكان رجلا عاقلا خيرا كثير النفع للناس وله شعر جيد وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين فى شهر رمضان وقاتل من بها وكان صاحبها حسام الدين يولق ارسلان بن ايلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن ايلغازى بن أرتق كل هؤلاء ملوك ماردين وقد تقدم من أخبارهم ما يعلم به محلهم وكان صبيا والحاكم فى بلده ودولته مملوك أبيه النظام يرنقش وليس لصاحبه معه حكم البتة فى شئ من الامور ولما حصر العادل ماردين ودام عليها سلم اليه بعض أهلها الربض بمخامرة منهم فنهب العسكر أهله نهبا قبيحا وفعلوا بهم أفعالا عظيمة لم يسمع بمثلها فلما تسلم الربض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقى عليها الى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين على ما نذكره ان شاء الله وفيها توفى الشيخ أبو على الحسن بن مسلم بن أبى الحسن القادسى الزاهد المقيم ببغداد والقادسية التى ينسب اليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد وكان من عباد الله الصالحين العاملين ودفن بقريته وأبو المجد على بن أبى الحسن على بن الناصر بن محمد الفقيه الحنفى مدرس أصحاب ابى حنيفة ببغداد وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه

﴿ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الافضل ديار مصر﴾

فى هذه السنة فى العشرين من المحرم توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب ديار مصر وكان سبب موته انه خرج الى الصيد فوصل الى الفيوم متصيدا فرأى ذئبا فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه فى الارض ولحقته حمى فعاد الى القاهرة مريضا فبقى كذلك الى أن توفى فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس وهو الحاكم فى بلده فأحضر انسانا كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأراه العزيز مينا وسيره الى العادل وهو يحاصر ماردين كما ذكرناه ويستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الافضل على بن صلاح الدين فقال له قل

فيه الرجال * وأمالت اليه الآمال * وأيه حشمه ووضع الله عليها طابع الدين فهى فى جوار النجم علوا ومكان * وسموشان * وكفالك بم الخامة ما ورد فى الخبر المروى ان الله تعالى قال للدنيا من خدمنى فاخدميه * ومن خدمك فأتعبيه أو فاستخدميه * واتفق بعقب ذلك أن طلع رجل من بلاد العراق ينتسب الى شجرة العلوية يذكر انه رسول صاحب مصر الى السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * بكتاب تحمله * وبرتزوده * مدلا بسبب النسب ومدليا بصاف الشرف فاستوقف الى أن أنهى الى السلطان خبره * ووكل الى ماير دمن مثاله صدره * ونهض من بعد ذلك الى هراة ممتدا الى الحضره * فأمر برده الى نيسابور لتقرير ما تحمله على رؤس الاشهاد * ومرأى ومسمع من كل حاضر وباد * صيانة لخاص مجلسه عما عسى أن يضاف اليه من احاله * وسرتحت رسالة *

لصاحبان

اصاحبك ان أخاه العزيز توفى وليس فى البلاد من يمنعها فليسر اليها فليس دونها مانع وكان الافضل محبوبا الى الناس يريدونه فلم يلتفت الافضل الى هذا القول واذ قد وصله رسل الامراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه وكان السبب فى ذلك ان الامير سيف الدين يازكج مقدم الاسدية والفرقة الاسدية والامراء الاكراد يريدونه ويميلون اليه وكان المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الاسدية وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال فخر الدين نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين انه طفل وهذه البلاد ثغر الاسلام ولابد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها والرأى اننا نجعل الملك فى هذا الطفل الصغير ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره الى أن يكبر فان العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لامير فاتفقا على هذا فقال جهاركس فمن يتولى هذا فاشار يازكج بغير الافضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة آلا يتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحدا بعد آخر الى أن ذكر آخرهم الافضل فقال جهاركس هو بعيد عنا وكان بصرخد مقيما فيها من حين أخذت منه دمشق فقال يازكج نرسل اليه من يطلبه مجدا فأخذ جهاركس يغالطه فقال يازكج نمضى الى القاضى الفاضل ونأخذ رأيه فاتفقا على ذلك وأرسل يازكج يعرفه ذلك ويشير بتمليك الافضل فلما اجتمعا عنده وعرفاه صورة الحال أشار بالافضل فارسل يازكج فى الحال القصاد وراءه فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكرا فى تسعة عشر نفسا لان البلاد كانت للعادل ويضبط نوابه الطرق لئلا يجوز الى مصر ليجىء العادل ويملكها فلما قارب الافضل القدس وقد عدل عن الطريق المؤدى اليه لقيه فارسان قد ارسلا اليه من القدس فاخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته وجد فى السير فوصل الى بلبيس خامس ربيع الاول ولقيه أخوته وجماعة الامراء المصرية وجميع الاعيان فاتفق ان أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاما فابتدأ بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه انه يبدأ به فظن جهاركس انه فعل هذا انحرافا عنه وسوء اعتقاد فيه فتغيرت نيته وعزم على الهرب فحضر عند الافضل وقال ان طائفة من العرب قد اقتتلوا واثن لم تمض اليهم تصلح بينهم يؤدى ذلك الى فساد فاذن له الافضل فى المضى اليهم ففارقه وسار مجدا حتى وصل الى البيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجة الزرد كش وسراسنقر وأحضروا عندهم ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو أيضا من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الافضل وأرسلوا الى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه الى مصر ليملكوها فلم يسر اليهم لانه كانت اطماعه قد قويت فى أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها وانه يأخذها والذى يريدونه لا يفوته وأما الافضل فانه دخل الى القاهرة سابع ربيع الاول وسمع بهرب جهاركس فاهمه ذلك وترددت الرسل بينه وبينهم ليعودوا اليه فلم يزدادوا الا بعدا ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضا فاستوحش الافضل من الباقين فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور سوى من ليس مثلهم فى التقدم وعلو القدر وأقام الافضل بالقاهرة وأصلح الامور وقرر القواعد والمرجع فى جميع

فلما رد القهقرى وفتش عما صحبه عثر على تصانيف الباطنيه * وأغاليط فى الشريعة الحنيفيه * أصح منها فى الاسماع خياط الجمانين * ووسواس المبرسمين * لا تؤخذ فى محصول * ولا توجد فى معقول ومنقول * وناظره الاستاذ أبو بكر على أمور من جهة مرسله تفاوتت فيها الفاظه فلم يوجدها على نار الامتحان ثبات * ولا الى وجه التحقيق وجانب التميز التفات * ومازال يضرب اخماسا فى أسداس الى أن تبين له انه أخطأ فى تحمل تلك الرساله * وحرم التوفيق فى تقلد تلك السفاره * وقضى الله أن اشخص الى حضرة السلطان فلما اشخضر مجلس حفلة وقد غص بأعيان الاسلام ساداتها * وكبرائها وقضاتها * وفقهائها وزعمائها * وهنالك الحسن ابن طاهر بن مسلم العلوى ومن قصته أن جده مسلما لم يكن فى الطالبية من أولاد الحسين الاصغر رضى الله عنهم بناحية مصر أتيه

الامور الى سيف الدين يازكج

﴿ذكر حصر الافضل مدينة دمشق وعوده عنها﴾

لما ملك الافضل مصر واستقر بها ومعه ابن أخيه الملك العزيز اسم الملك له لصغره واجتمعت الكلمة على الافضل بها وصل اليه رسول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج الى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فبرز من مصر منتصف جمادى الاولى من السنة على عزم المسير الى دمشق وأقام بظاهر القاهرة الى ثالث رجب ورحل فيه ونعوق فى مسيره ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق لكنه تأخر فوصل الى دمشق ثالث عشر شعبان فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق وكان العادل قد أرسل اليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الافضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجد فى السير فسبق الافضل فدخل دمشق قبل الافضل بيومين وأما الافضل فانه تقدم الى دمشق من الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان الى دمشق من باب السلامة وسبب دخولهم ان قوما من أجناده ممن بيوتهم مجاورة الباب اجتمعوا بالامير مجد الدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه فى أن يقصدهو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الافضل ولا أخذ معه أحدا من الامراء بل سار وحده بمفرده ومعه نحو خمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الافضل واستسلم من به من الجند ونزلوا عن الاسوار وبلغ الخبر الى الملك العادل فكاد يستسلم وتماسك وأما الذين دخلوا البلد فانهم وصلوا الى باب البريد فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عددهم وانقطاع مددهم وثبوا بهم وأخرجوهم منه وكان الافضل قد نصب خيمه بالميدان الاخضر وقارب عسكره الباب الحديد وهو من أبواب القلعة فقدر الله تعالى أن أشير على الافضل بالانتقال الى ميدان الحصى ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم ان الامراء الاكراد منهم تحالفوا وصاروا يدا واحدة يغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا أحدهم فظن الافضل وباقى الاسدية أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا فى العشرين من شعبان ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص الى الافضل الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب ثانى عشر شهر رمضان وأرادوا الزحف الى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسدا له ولم يشعر أخوه الافضل بذلك وأما الملك العادل فانه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الامداد الى الافضل عظم عليه فأرسل الى الملك الناصر بالبيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم الى الافضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الامراء الى طريقهم ليمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاءوا وانتهوا ودخلوا دمشق خامس رمضان فقوى العادل بهم قوة عظيمة وأيس الافضل ومن معه من دمشق وخرج عسكر دمشق فى شوال فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على

واوجه منه * ولا أغنى ولا أقنى منه * فلما استقر معه أبو تميم المعز بمصر خطب اليه بعض بناته على ولده أبى منصور الملقب بالعزيز وسبب ذلك على ما قيل انه وجد فى داره رقعة فيها ان كنت من آل أبى طالب فاخطب الى بعض بنى طاهر فان رآك القوم كفوا لهم فى باطن الامر وفى الظاهر فأم من سنه خوزية يعض منها البظر بالآخر فنسبهم الشاعر الى أمهم الخوزية بالعسكر لان كورتها خوزستان وهى أم محمد بن عبد الله بن ميمون فاعتل مسلم عليه بأن لا واحدة من بناته الا وهى فى حبالة وتحت عقدة تفاديا من اجابته * وتحرجا من مصاهرته * فلما عرف امتناعه ذهابا بنفسه عنه * وترفعا بنسبه دونه * وضع عليه يد الاستقصاء * بعد أن أودعه الحبس سنين وخبطه خبط العصا * ورق السلم * وألبسه عن قضاض الغنى غلالة العدم وهلم من بعد على يده * فقال

دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين على ما نذكره ان شاء الله تعالى وهو بحران فاستدعاه اليه بعسكره فسار على طريق البر فدخل الى دمشق ثاني عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق الى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا الى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل منهم الى بلده فعاد الظاهر صاحب حلب وأسد الدين صاحب حمص الى بلادهما وعاد الافضل الى مصر فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد﴾

في هذه السنة ثامن عشر ربيع الآخر وقيل جمادى الاولى توفي أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والاندلس بمدينة سلا وكان قد سار اليها من مراكش وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية من أحسن البلاد وأنزهها فسار اليها يشاهدها فتوفي بها وكانت ولايته خمس عشرة سنة وكان ذا جهاد للعدو ودين وحسن سيرة وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك فعظم أمر الظاهرية في أيامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية منسوبون الى ابن محمد بن حزم رئيس الظاهرية الا انهم مغمورون بالمالكية ففي أيامه ظهروا وانتشروا ثم في آخر ايامه استقضى الشافعية على بعض البلاد ومال اليهم

﴿ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب وطاعتهم لولده محمد﴾

كان أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب لما عاد من أفريقية كما ذكرناه سنة احدى وثمانين وخمسمائة استعمل أبا سعيد عثمان وأبا علي يونس بن عمر ابني وهما وأبوهما من أعيان الدولة فولى عثمان مدينة تونس وولى أخاه المهدية وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم وهو شجاع مشهور فعظمت نكايته في العرب فلم يبق منهم الا من يخافه فاتفق انه أتاه الخبر بان طائفة من عوف نازلين بمكان نخرج اليهم وعدل عنهم حتى جازهم ثم أقبل عائدا يطلبهم وأتاهم الخبر بخروجه اليهم فهربوا من بين يديه فلقيهم أمامهم فهربوا وتركوا المال والعيال من غير قتال فاخذ الجميع ورجع الى المهدية وسلم العيال الى الوالي وأخذ من الاسلاب والغنيمة ما شاء وسلم الباقي الى الوالي والى الجند ثم ان العرب من بني عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر ابني فوحدوا وصاروا من حزب الموحدين واستجاروا به في رد عيالهم وأموالهم فاحضر محمد بن عبد الكريم وأمره باعادة ما أخذ لهم من النعم فقال أخذه الجند ولا اقدر على رده فاغلظ له في القول وأراد أن يبطش به فاستمهله الى أن يرجع الى المهدية ويسترد من الجند ما يجده عندهم وما عدم منه غرم العوض عنه من ماله فامهله فعاد الى المهدية وهو خائف فلما وصلها جمع أصحابه واعلمهم ما كان من أبي سعيد وحالفهم على موافقته فحلفوا له فقبض على أبي علي يونس وتغلب على المهدية وملكها فارسل اليه أبو سعيد في معنى اطلاق أخيه يونس فاطلقه على اثني عشر ألف دينار فلما ارسلها اليه أبو سعيد فرقها في الجند وأطلق يونس وجمع أبو سعيد العساكر وأراد قصد محاصرته فارسل محمد بن عبد الكريم الى علي بن اسحق الملثم فخالفه واعتضد به

قوم غيب عن محبسه فلا يدرى كيف صار أمره * وأين وضع قبره * وزعم آخرون انه هرب من الحبس على طريق الحجاز فاحتضر في الطريق وعند ذلك لجأ طاهر والد الحسن المذكور الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم متأمرا على أهلها ومعه ابن عم له يعرف بأبي علي بن طاهر ختنه على أخته فلما مضى طاهر لسبيله ورث أبو علي المذكور ومكانه من الامارة الى أن لحق به وورثه ولداه * هاني ومهني دون الحسن لاستضعافهما اياه * وتقويهما بالحال والمال عليه فرحل نحو خراسان ملتجئا الى السلطان يمين الدولة وأمين الملة * سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة فلما ورد الطاهر في زعمه رسولا صغر الحسن شانه * ووضع فيه لسانه * وأبى أن يكون له نبات على دوحة الرسالة * وانتساب الى نبعة النبوة * وادعى عليه الكذب وتحمل الزور والتقول وعزاه الى فساد الدين * واستحقاقه ضرب

فامتنع أبو سعيد من قصده ومات يعقوب وولى ابنه محمد فسير عسكرا مع عمه فى البحر وعسكرا آخر فى البر مع ابن عمه الحسن بن أبى حفص بن عبد المؤمن فلما وصل عسكر البحر الى بجاية وعسكر البر الى قسنطينة الهوى هرب الملثم ومن معه من العرب من بلاد افريقية الى الصحراء ووصل الاسطول الى المهدية فشكا محمد بن عبد الكريم ما لقى من أبى سعيد وقال أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد ولا أسلمها الى أبى سعيد وانما أسلمها الى من يرسله أمير المؤمنين فارسل محمد من يتسلمها منه وعاد الى الطاعة

﴿ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين﴾

فى هذه السنة زال الحصار عن ماردين ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل وسبب ذلك أن الملك العادل لما حصر ماردين عظم ذلك على نور الدين صاحب الموصل وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة وخافوا ان ملكها لا يبقى عليهم الا ان العجز عن منعه حملهم على طاعته فلما توفى العزيز صاحب مصر وملك الافضل مصر كما ذكرناه وبينه وبين العادل اختلاف فارسل أخذ عسكر مصر من عنده وأرسل الى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك يدعوهم الى موافقته فاجابوه الى ذلك فلما رحل الملك العادل عن ماردين الى دمشق كما ذكرناه برز نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عنها ثانى شعبان وسار الى نصيبين فنزل عليها ووافقه ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود صاحب سنجار وابن عمه الآخر سنجر شاه بن غازى بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر فاجتمعوا كلهم بنصيبين الى ان عيدوا عيد الفطر ثم ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرزم وتقدم العسكر الى تحت الجبل ليرتادوا موضعا للنزول وكان أهل ماردين قد عدمت الاقوات عندهم وكثرت الامراض فيهم حتى ان كثيرا منهم كان لا يطيق القيام فلما رأى النظام وهو الحاكم فى دولة صاحبها ذلك أرسل الى ابن العادل فى تسليم القلعة اليه الى أجل معلوم ذكره على شرط ان يتركهم يدخل اليهم من الميرة ما يقوتهم حسب فاجابهم الى ذلك وتحالفوا عليه ورفعوا أعلامهم الى رأس القلعة وجعل ولد العادل بباب القلعة أميرا لا يترك يدخلها من الاطعمة الا ما يكفيهم يوما بيوم فأعطى من بالقلعة ذلك الامير شيأ فمكنهم من ادخال الذخائر الكثيرة فبينما هم كذلك اذ أتاهم خبر وصول نور الدين صاحب الموصل فقويت نفوسهم وعزموا على الامتناع فلما تقدم عسكره الى ذيل جبل ماردين قدر الله تعالى ان الملك الكامل بن العادل نزل بعسكره من ربض ماردين الى لقاء نور الدين وقتاله ولو أقاموا بالربض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود اليهم ولا ازالتهم لكن نزلوا بقضى الله أمرا كان مفعولا فلما أصحروا من الجبل اقتتلوا وكان من عجيب الاتفاق ان قطب الدين صاحب سنجار كان قد واعد العسكر العادلى أن ينهزم اذا التقوا ولم يعلم بذلك أحدا من العسكر فقدر الله تعالى انه لما نزل العسكر العادلى واصطفت العساكر للقتال الجأت قطب الدين الضرورة بالزحمة الى أن وقف فى سفح بجبل ماردين ليس اليه طريق للعسكر العادلى ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين فظنه ما أراده من الانهزام فلما التقى العسكران واقتتلوا حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه واصطلى الحرب الناس أنفسهم بين يديه فانهزم العسكر العادلى وصعدوا فى الجبل الى الربض وأسر منهم كثير فحملوا الى بين يدى نور الدين

الوتين * فخلى السلطان بينه وبين ما يستجيزه لنفسه ودينه * فقام الى جيده * بضربة غرقته فى دم وريده * وقد كان القادر بالله أمير المؤمنين العباسى كتب الى السلطان يمين الدولة يأمره بما تقدم اليه من خبر الرسول وما يقتضيه الدين من التعلب عليه وتقديم الجد فى الانتصاف للاسلام والمسلمين منه فلما ختم أمره بما تقدم ذكره أنهى الى مجلس الخلافة صورة الحال * وكم السيف أفواه العذال * فقوبل من القبول بمقتضاه * وجزى الخير على ما أتاه وتوخاه * فكان مثل الطاهر فى كما قيل

ومن يشرب السم الذعاف فانه
يحقق بأنياب المنايا النواهر

(ذكر الامير أبى العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه وما ختم به أمره الى أن ورث السلطان مملكته)

قد كان أبو الحسن على بن مأمون لما ورث أباه مأمونا مملكته وقد كان استضاف خوارزم الى الجرجانية خطب الى السلطان يمين

فاحسن اليهم ووعدهم الاطلاق اذا انفصلوا ولم يظن ان الملك الكامل ومن معه يرحلون عن ماردين سريعا فاما هم أصر لم يكن فى الحساب فان الملك الكامل لما صعد الى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا الى الذين جعلوهم بالربض من العسكر فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا فالقى الله الرعب فى قلوب الجميع فاعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلا فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال وتركوا كثيرا من أثقالهم ورحالهم وما أعدوه فاخذه أهل القلعة ولو ثبت العسكر العادلى بمكانه لم يمكن أحدا أن يقرب منهم ولما رحلوا نزل صاحب ماردين حسام الدين يولق بن ايلغازى الى نور الدين ثم عاد الى حصنه وعاد أتابك الى دنيسر ورحل عنها الى رأس عين على عزم قصد حران وحصرها فاتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبة والسكة وغير ذلك فتغيرت نية نور الدين وفتر عزمه عن حصرها فعزم على العود الى الموصل فهو يقدم الى العود رجلا ويؤخر أخرى اذ أصابه مرض فتحقق عزم العود الى الموصل فعاد اليها وأرسل رسولا الى الملك الافضل والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه فوصل الرسول ثانى ذى الحجة اليهم وهم على دمشق وكان عود نور الدين من سعادة الملك العادل فانه كان هو وكل من عنده ينتظرون ما يجىء من أخباره فان من بحران استسلموا فقد رالله تعالى انه عاد فلما عاد جاء الملك الكامل الى حران وكان قد سار عن ماردين الى ميافارقين فلما رجع نور الدين سار الكامل الى حران وسار الى أبيه بدمشق على ما ذكرناه فازداد به قوة والافضل ومن معه ضعفا

﴿ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان﴾

فى هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين ملك الغور وغزنة وهو بفيروزكوه عمت الرعية والملوك والامراء وسببها ان الفخر محمد بن عمر بن الحسين الرازى الامام المشهور الفقيه الشافعى كان قدم الى غياث الدين مفارقا لبهاء الدين سام صاحب باميان وهو ابن أخت غياث الدين فاكرمه غياث الدين واحترمه وبالغ فى اكرامه وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع فقصده الفقهاء من البلاد فعظم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة وأما الغورية فكلهم كرامية وكرهوه وكان أشد الناس عليه الملك ضياء الدين وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته فاتفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين بفيروزكوه للمناظرة وحضر فخر الدين الرازى والقاضى مجد الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة وهو من الكرامية الهيصمية وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه وبيته فتكلم الرازى فاعترض عليه ابن القدوة وطال الكلام فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر وسبه وشتمه وبالغ فى أذاه وابن القدوة لا يزيد على أن يقول لا يفعل مولانا لا وأخذ الله استغفر الله فانفصلوا على هذا وقام ضياء الدين فى هذه الحادثة وشكى الى غياث الدين وذم الفخر ونسبه الى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ غياث الدين اليه فلما كان الغد وعظ ابن عمر المجد بن القدوة بالجامع فلما صعد المنبر قال بعد ان حمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم لا اله الا الله ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين أيها الناس انا لا نقول الا ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما علم ارسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى فلا نعلمها فلا أى حال يشتم بالامس شيخ من شيوخ الاسلام يذب عن دين الله وعن سنة نبيه وبكى وضج

الدولة احدى أخواته تقوية لعمدة الحال * وتسدية للحمة الوصال * فاوجب اسعافه بما استدعاه استكفاه اياه * وتوخيا لرضاه * وزف اليه من خطبه * ووصل بأسبابه سببه * ودر التهادى بينهما حتى صارت الديار واحده * والاسرار لغير الاخلاص جاحده * وغيرت الحال على جلتها فى الانشاج والامتزاج * الى أن قضى خوارزم شاه نحبه * ولقى بانقراض الاجل ربه * وورث أبو العباس مأمون ابن مأمون مكان أخيه * وولى ما كان يليه فكتب الى السلطان يسأله أن يعقد له على شقيقته عقده على أخيه من قبل فهو تاليه فى الطاعة بل أتم اخلاصا * وثانيه فى القربة بل أشد اختصاصا * فشفع السلطان فيه داعى الكفاء * واستجد للحال روثق الطراء * وعقد له عليها عقدا خلطه فيه بنفسه * وفرغ له فريقا من قلبه وخلبه * ومازال الامر بينهما على جملة

الناس وبكي الكرامية واستغاثوا وأعانهم من يؤثر بعد الفخر الرازي عن السلطان وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة وكادوا يقتتلون ويجري ما يهلك فيه خلق كثير فبلغ ذلك السلطان فارسل جماعة من عنده الى الناس وسكنهم ووعدهم باخراج الفخر من عندهم وتقدم اليه بالعود الى هراة فعاد اليها

﴿ذكر مسير خوارزم شاه الى الري﴾

في هذه السنة في ربيع الاول سار خوارزم شاه علاء الدين تكش الى الري وغيرها من بلاد الجبل لانه بلغه أن نائبه بها ميا جق قد تغير عن طاعته فسار اليه فخافه ميا جق فجعل يفر من بين يديه وخوارزم شاه في طلبه يدعوه الى الحضور عنده وهو يمتنع فاستأمن اكثر أصحابه الى خوارزم شاه وهرب هو فحصل بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فسارت العساكر في طلبه فأخذ منها وأحضر بين يدي خوارزم شاه فامر بحبسه بشفاعة أخيه أقجة وسيرت الخلع من الخليفة لخوارزم شاه ولولده قطب الدين محمد وتقليد ما بيده من البلاد فلبس الخلعة واشتغل بقتال الملاحدة فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى ارسلان كشاه وانتقل الى حصار ألموت فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالري وكان قد تقدم عنده تقدما عظيما قتله الملاحدة وعاد خوارزم شاه الى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين فامر تكش ولده قطب الدين بقصد الملاحدة فقصد قلعة ترشيش وهي من قلاعهم فحصرها فاذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينار فقارقها وانما صالحهم لانه بلغه خبر مرض أبيه وكانوا يراسلونه بالصلح فلا يفعل فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة في ربيع الاول توفي مجاهد الدين قايماز رحمه الله بقلعة الموصل وهو الحاكم في دولة نور الدين والمرجوع اليه فيها وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل في ذي الحجة سنة احدى وسبعين وخمسمائة وولي اربل سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما مات زين الدين علي كوكج سنة ثلاث وستين بقي هو الحاكم فيها ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم وكان عاقلا أديبا خيرا فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة ويحفظ من التاريخ والاشعار والحكايات شيأ كثيرا وكان كثير الصوم يصوم من كل سنة نحو أربعة اشهر وله أوراد كثيرة حسنة كل ليلة ويكثر الصدقة وكان له فراسة حسنة فمن يستحق الصدقة ويعرف الفقير المستحق ويبرهم وبنى عدة جوامع منها الجامع الذي بظاهر الموصل بباب الجسر وبنى الربط والمدارس والخانات في الطرق وله من المعروف شيء كثير رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية وصار شافعي المذهب وكان سبب ذلك أنه كان عنده انسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية متفننا في كثير من العلوم فاوصل الى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المروروذي الفقيه الشافعي فاوضح له مذهب الشافعي وبين له فساد مذهب الكرامية فصار شافعيا وبنى المدارس للشافعية وبنى بغزنة مسجدا لهم أيضا واكثر مراعاتهم فسعى الكرامية في اذى

الاشتراك والاشتباك * الى أن دعا السلطان داعي الاختبار الى سومه * اقامة الخطبة باسمه * وأنهض رسولا يتجزه العمل بما يقتضيه ظاهر حكمه * فصادف منه حرصا على الاجابه * وافتراضا لحق الطاعه * غير أنه عرض الحال فيه على من حوله من أعيان أشياعه وأتباعه * فأظهر وانفارا * وأصروا واستكبروا استكبارا * وقالوا نحن اتباعك وأطواعك * ماسلم لك الملك عن الاشتراك فأما اذا وضعت خدك للطاعة وضعنا السيوف على العواتق خلعا لك وتمليكا عليك وجهادا فيك فعاد الرسول الى السلطان بما رآه عيانا * وسمعه بغيا وعدوانا * واحس القوم بجمرة الدم * من وراء جراتهم * على ولي نعمتهم * بالقول الفظيع * والرد الشنيع * وزعيمهم في الامر يومئذ يا تكين البخاري صاحب الجيش فأوجسوا خيفه * وتوامروا على القتك به غيله * وما زالوا في

وجيه الدين فلم يقدروهم الله تعالى على ذلك وقيل ان غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا في خراسان قيل لهما ان الناس في جميع البلاد يزورون على الكرامية ويحتقرونهم والرأى ان تفارقا مذاهبهم فصارا شافعيين وقيل ان شهاب الدين كان حنفيا والله أعلم وفي هذه السنة توفي أبو القاسم يحيى بن علي بن فضلان الفقيه الشافعي وكان اماما فاضلا ودرس ببغداد وكان من أعيان أصحاب محمد بن يحيى نجى النيسابوري

(ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك العادل الديار المصرية)

قد ذكرنا سنة خمس وتسعين حصر الافضل والظاهر ولدى صلاح الدين دمشق ورحيلهما الى رأس الماء على عزم المقام بحوران الى ان يخرج الشتاء فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر بردا شديدا لان البرد في ذلك المكان في الصيف موجود فكيف في الشتاء فتغير العزم على المقام واتفقوا على ان يعود كل انسان منهم الى بلده ويعودوا الى الاجتماع فتفرقوا تاسع ربيع الاول فعاد الظاهر وصاحب حمص الى بلادهما وسار الافضل الى مصر فوصل ببلبيس فأقام بها ووصلته الاخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصدا مصر ومعه الممالك الناصرية وقد حلفوه على ان يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك الى ان يكبر فساروا على هذا وكان عسكره بمصر قد تفرق عن الافضل من الخشبي فسار كل منهم الى اقطاعه ليريح العواد وابهم فرام الافضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الامر عن ذلك ولم يجتمع منهم الا طائفة يسيرة ممن قرب اقطاعه ووصل العادل فأشار بعض الناس على الافضل ان يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم الى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السائح في طرف البلاد والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر فانهزم الافضل ودخل القاهرة ليلا وفي تلك الليلة توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني كاتب الانشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الافضل الصلاة عليه وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فجمع الافضل من عنده من الامراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل رسولا الى عمه في الصلح وتسليم البلاد اليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه العادل فنزل عنها الى حران والرها فلم يجبه فنزل الى ميافارقين وحاني وجبل جور فأجابه الى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الافضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار الى صرخد ودخل العادل الى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ولما وصل الافضل الى صرخد أرسل من تسلم ميافارقين وحاني وجبل جور فامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميافارقين وسلم ما عداها فترددت الرسل بين الافضل والعادل في ذلك والعادل يزعم ان ابنه عصاه فامسك عن المراسلة في ذلك لعلمه ان هذا فعل بأمر العادل ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز في شوال من السنة وخطب لنفسه وحاقق الجند في اقطاعاتهم واعترضهم في أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم فكان ما نذكره سنة سبع وتسعين ان شاء الله

(ذكر وفاة خوارزم شاه)

التدبير عليه * الى ان دخلوا ذات يوم اليه * على رسم السلام * فاذا هو صريع كامس الحام * لا يدرى كيف قتل * ومن اى وجه اليه قد وصل * فبادروا الى العقد لاحد اولاده * وبسطوا ايدى الاصفاق على بيعته * وعلموا ان السلطان يمتعض للحادثه ويقصد قصد الاتصاف للوارثه * فتحالفوا على مقارعته ان غزاهم في عقر دارهم * وجزاهم على مسخوط آثارهم * ولما انتهى الى السلطان خبر صنيعهم بولى نعمتهم وهو قيم شقيقته * وحامى حقيقته * أزعجته قوة الحفاظ للانتقام من أولئك الغدرة الفجره * والمرقة الفسقه * فجاش لمناهضتهم على جمة مسجوره * وحفيظة على استغاث ذات الله مقصوره * وكانت سعادة أيامه قد لقنت أولئك العتاة البغاة ما أتوا استحقاقا للنقمه * وبراءة من العصمه * وتمهيدا لعذره قربا وبعدا في استخلاص مملكة كانت

في هذه السنة في العشرين من رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن ارسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان والري وغيرها من البلاد الجبالية بشهرستانة بين نيسابور وخوارزم وكان قد سار من خوارزم الى خراسان وكان به خوانيق فأشار عليه الاطباء بترك الحركة فامتنع وسار فلما بلغ شهرستانة اشتد مرضه ومات ولما اشتد مرضه أرسلوا الى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ويعرفونه شدة مرض أبيه فسار اليهم وقد مات أبوه فولي الملك بعده ولقب علاء الدين لقب أبيه وكان لقبه قطب الدين وأمر فحمل أبوه ودفن بخوارزم في تربة عملها في مدرسة بناها كبيرة عظيمة وكان عادلا حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه على مذهب ابي حنيفة ويعرف الاصول وكان ولده على شاه باصفهان فأرسل اليه أخوه خوارزم شاه محمد يستدعيه فسار اليه فنهب أهل اصفهان خزانته ورحله فلما وصل الى أخيه ولاه حرب خراسان والتقدم على جنده واسلم اليه نيسابور وكان هند وخان ملك شاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمه محمدا فهرب منه ونهب كثيرا من خزائن جده تكش لما مات وكان معه وسار الى مرو ولما سمع غياث الدين ملك غزنة وفاة خوارزم شاه أمر ان لا تضرب نوبته ثلاثة أيام وجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة والمحاربة فعل ذلك عقلا منه ومروأة ثم ان هند وخان جمع جمعا كثيرا بخراسان فسير اليه عمه خوارزم شاه جيشا مقدمهم جقر التركي فلما سمع هند وخان بمسيرهم هرب عن خراسان وسار الى غياث الدين يستنجده على عمه فأكرم لقاءه وانزاله وأقطعه ووعده النصرة فأقام عنده ودخل جقر مدينة مرو وبها والدة هند وخان وأولاده فاستظهر عليهم وأعلم صاحبه فأمره بارسالهم الى خوارزم مكرمين فلما سمع غياث الدين ذلك أرسل الى محمد بن جربك صاحب الطالقان يأمره ان يرسل الى جقر يتهدده ففعل وسار من الطالقان فأخذ مرو الروذ والخمس قرى وتسمى بالمارسية پنجده وارسل الى جقر يأمره بامة الخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارق البلد أعاد الجواب يتهدد ابن جربك ويتوعده وكتب اليه سرا يسأله ان يأخذ له أمانا من غياث الدين ليحضر خدمته فكتب الى غياث الدين بذلك فلما قرأ كتابه علم ان خوارزم شاه ليس له قوة فلهذا طاب جقر الانحياز اليه فقوى طمعه في البلاد وكتب الى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج الى خراسان ليتقوى على أخذ بلاد خوارزم شاه محمد

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الآخرة وثب الملاحدة الاسماعيلية على نظام الملك مسعود بن علي وزير خوارزم شاه تكش فقتلوه وكان صالحا كثير الخير حسن السيرة شافعي المذهب بنى للشافعية بمرو جامعا مشرفا على جامع الحنفية فتعصب شيخ الاسلام وهو مقدم الحنابلة بها فيهم والرياسة وجمع الاوباش فأحرقه فأخذ خوارزم شاه فأحضر شيخ الاسلام وجماعة ممن سعى في ذلك فأغرمهم مالا كثيرا وبنى الوزير ايضا مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعا وجعل فيها خزانة كتب وله آثار حسنة بخراسان باقية ولما مات خلف ولدا صغيرا فاستوزره خوارزم شاه رعاية لحق أبيه فأشير عليه ان يستعفي فأرسل يقول اني صبي لا أصلح لهذا المنصب الجليل فيولي السلطان فيه من يصلح له الى ان أكبر فان كنت أصلح فأنا المملوك فقال خوارزم شاه لست أعفيك وأنا وزيرك فكن مراجعي في الامور فانه لا يقف منها شيء فاستحسن الناس هذا ثم ان الصبي

الى عزا بالله نازعه * ولباب الاقبال برفق سياسته قارعه * وجر الجحافل كالجبال سائره * والبحار زاخره * حتى أناخ بعقوتهم مستعينا بالله على قتالهم * واستنزالهم الى مناهل آجالهم * وشاور صاحب الجيش الخوارزمي عامة قواده في ركضة على طلائع السلطان بياتا تعضهم بأنياب الحديد * ان لم تسلمهم للتشريد والتبديد * وطار تحت خوافي الليل حتى انقض على أبي عبد الله محمد ابن ابراهيم الطائي وهو طليعة السلطان في كماة العرب حين أنفض الكرى رؤسهم * وشغل برد الصباح نفوسهم * واختلط البعض بالبعض ضربا بالسيوف القواصل * وطعنا بالرماح الدوابل * فطار الخبر الى السلطان بركض القوم فزحف بجيوشه الى معترك الحرب وثبتت العساكر الخوارزمية من لدن طلوع الشمس الى أن حمي وطيس النهار جاهدين في القراع * ومجاهدين دون المساكن والرباع * يظنون

لم تطل أيامه فتوفي قبل خوارزم شاه بيسير وفي هذه السنة في ربيع الاول توفي شيخنا ابو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحراني المقيم ببغداد وله ست وتسعون سنة وشهران وكان عالي الاسناد في الحديث وكان ثقة صحيح السماع وفي ربيع الآخر منها توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه ودفن بظاهر مصر بالقرافة وكان دينا كثير الصدقة والعبادة وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الاسارى وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان وكان السلطان صلاح الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع الى قوله رحمهما الله

(ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الافضل مدينة دمشق وعودهما عنها)

قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وانه لما فعل ذلك لم يرضه الامراء المصريون وخبثت نياتهم في طاعته فراسلوا اخويه الظاهر بحلب والافضل بصرخد وتكررت المكاتبات والمراسلات بينهم يدعونهما الى قصد دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل اليهم فاذا خرج اليهم من مصر أسلموه وصاروا معهما فقتلوا البلاد وكثر ذلك حتى فشا الخبر واتصل بالملك العادل وانضاف الى ذلك ان النيل لم يزد بمصر الزيادة التي تركب الارض ليزرع الناس فكثر الغلاء فضعفت قوة الجند وكان فخر الدين جهاركس قد فارق مصر الى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل وكانت لاميركبير تركي اسمه بشارة قد اتهمه العادل فأمر جهاركس بذلك وكان أمير من أمراء العادل يعرف بعز الدين أسامة قد حج هذه السنة فلما عاد من الحج وقارب صرخد نزل الملك الافضل فالقيه وأكرمه ودعاه الى نفسه فأجابه وحالفه وعرفه الافضل جلية الحال وكان أسامة من بطانة العادل وانما حلف ليستكشف له الامر فلما فارق الافضل أرسل الى العادل وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه فارسل الى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الافضل بصرخد وكتب الى اياس جركس وميمون القصري صاحب بلبيس وغيرهما من الناصرية يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الافضل وسمع الافضل الخبر فسار الى أخيه الظاهر بحلب مستهل جمادى الاولى من السنة ووصل الى حلب عاشر الشهر وكان الظاهر قد أرسل أميرا كبيرا من أمرائه الى عمه العادل فمنعه العادل من الوصول اليه وأمره بأن يكتب رسالته فلم يفعل وعاد لوقته فتحرك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد منبج فملكها السادس والعشرين من رجب وسار الى قلعة نجم وحصرها فتسلمها سلخ رجب وأما الملك المعظم عيسى بن العادل المقيم بدمشق فانه سار الى بصرى وارسل الى جهاركس ومن معه وهم على بانياس يحصرونهم يدعوهم اليه فلم يجيبوه الى ذلك بل غالطوه فلما طال مقامه على بصرى عاد الى دمشق وارسل الامير أسامة اليهم يدعوهم الى مساعدته فاتفق انه جرى بينه وبين البكاء الفارس بعض المماليك الكبار الناصرية منافرة أغاظه البكاء القول وتعدى الى الفعل باليد وثار العسكر جميعه على أسامة فاستخفوا بميمون فأمنه وأعاده الى دمشق واجتمعوا كلهم عند الملك الظاهر بحضر

أن يظفروا وقد غدروا بمن رباهم في حجور الانعام * وأرواهم من ثدي الاكرام * هيهات ان الغدر قلادة منظومة أحد طرفيها عاجل العار وثانيه آجل النار * ولم تشرف الشمس على التكسير حتى أضحكت الخيول ثم الفيول رجالا * بكوا جهالا * قد صفقت أصلابهم * وانتهبت أسلابهم * وفلقت بالسيوف هاماتهم * وبضعت بها أجسامهم * وانهزم الباقون في خمر الغياض على شاطئ جيحون والصوارم من ورائهم * تخطف أرواحهم حتى اذا واقعتها نحلتها الطلا في صدافا واستأسرزها فخسة آلاف حقن الله دماءهم عبرة للنظار * وعظة لامثالهم من الغدرة الفجار * وركب البخاري ظهر الماء موائلا في الهرب ومقدرا خلاصه من العطب * ولم يدر أن فعله السوء يجزيه * واقدامه على ولي نعمته يرديه * وان حافر البئر لاخيه * ساقط لامحالة فيه * وجرت في

ابن صلاح الدين وانزلوه من صرخد وارسلوا الى الملك الظاهر والافضل يحثونهما على الوصول اليهم والملك الظاهر يتربص ويتعوق فوصل من منبج الى حماة فى عشرين يوما وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقى الدين الى تاسع عشر شهر رمضان فاصطلحا وحمل له ابن تقى الدين ثلاثين ألف دينار صورية وساروا عنها الى حمص وسار منها الى دمشق على طريق بعلبك فنزلوا عليها عند مسجد القدم فلما نزلوا على دمشق أتاهم الممالك الناصرية مع الملك الظافر خضر بن صلاح الدين وكانت القاعدة استقرت بين الظاهر وأخيه الافضل انهم اذا ملكوا دمشق تكون بيد الافضل ويسيرون الى مصر فاذا ملكوها تسلم الظاهر دمشق فيبقى الشام جميعه له وتبقى مصر للافضل وسلم الافضل صرخد الى زين الدين قراجة مملوك والده ليحوضبها فى خدمته وانزل والدته وأهله منها وسيرهم الى حمص فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها وكان الملك العادل قد سار من مصر الى الشام فنزل على مدينة نابلس وسير جمعا من العسكر الى دمشق ليحفظها فوصلوا قبل وصول الظاهر والافضل وحضر فخر الدين جهاركس وغيره من الناصرية فوصلوا قبل وصول الظاهر والافضل وزحفوا الى دمشق وقاتلوها رابع عشر ذى القعدة واشتد القتال عليها فالتصق الرجال بالسور فأدركهم الليل فعادوا وقد قوى الطمع فى أخذها ثم زحفوا اليها مرة ثانية وثالثة فلم يبق الا ملكها الان العسكر صعد الى سطح خان بن المقدم وهو ملاصق السور فلو لم يدركهم الليل لملكوا البلد فلما أدركهم الليل وهم عازمون على الزحف بكرة وليس لهم عن البلد مانع حسد الظاهر أخاه الافضل فارسل اليه يقول له تكون دمشق له وبيده ويسير العساكر معه الى مصر فقال له الافضل قد علمت ان والدتى وأهلى وهم أهلك أيضا على الارض ليس لهم موضع يأوون اليه فاحسب ان هذا البلد لك تعيرنا اياه ليسكنه أهلى هذه المدة الى ان يملك مصر فلم يجبه الظاهر فى ذلك ولج فلما رأى الافضل ذلك الحال قال للناصرية وكل من جاء اليهم من الجند ان كنتم جئتم الىّ فقد أذنت لكم فى العود الى العادل وان كنتم جئتم الى أخى الظاهر فأنتم وهو أخبر وكان الناس كلهم يريدون الافضل فقالوا ما نريد سواك والعادل أحب الينا من أخيك فاذن لهم فى العود فهرب فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجة الذى أعطاه الافضل صرخد فمنهم من دخل دمشق ومنهم من عاد الى اقطاعه فلما انفسخ الامر عليهم عادوا الى تجديد الصلح مع العادل فتردد الرسل بينهم واستقر الصلح على ان يكون للظاهر منبج وافامية وكفرطاب وقرى معينة من المعرة ويكون للافضل سميساط وسروج ورأس العين وحلين ورحلوا عن دمشق أول المحرم سنة ثمان وتسعين فقصد الافضل حمص فأقام بها وسار الظاهر الى حلب ووصل العادل الى دمشق تاسع المحرم وسار الافضل اليه من حمص فاجتمع به بظاهر دمشق وعاد من عنده الى حمص وسار منها ليتسلم سميساط فتسلمها وتسلم باقى ما استقر له برأس العين وسروج وغيرها

(ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان)

قد ذكرنا مسير محمد بن خرميل من الطالقان واستيلاءه على مرو وذو سؤال جقر التركى نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه بمرو وأن يكون فى جملة عسكر غياث الدين ولما وصل كتاب ابن خرميل الى غياث الدين فى معنى جقر علم ان هذا انما دعاه الى الانتماء اليهم ضعف صاحبه

الزورق بينه وبين بعض أضرابه منافرة حملته على الاستيثاق منه وبعث الملاح على استقبال المعسكر بوجه الزورق فلم ينشب الا يسيرا حتى حصل فى يد السلطان أسيرا وأحضره السلطان مجلسه فى سائر القواد المأسورين يسأله واياهم عن استحلالهم دم صاحبهم من غير داعيه واجترائهم عليه من غير وطأة عاتبه فرد جواب المستبسل المستقتل وأما الباقون فسقط فى أيديهم لا يدرون ماذا يردون وذلك سنة ثمان وأربعمائة وأمر السلطان بضرب الاعواد والجذوع تجاه مقبرة صاحبهم ابى العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه وصلبهم أجمعين عليها مع عدة ممن اتهمهم بالدين وعدهم معدا الناكبين عن قصد السبيل وأمر بالكتابة على جدران تلك المقبرة بأن هذا قبر فلان بن فلان بغى عليه حشمه واجترأ على دمه خدمه فقيض

فارسل الى أخيه شهاب الدين يستدعيه الى خراسان فسار من غزنة فى عساكره وجنوده وعدته ومايحتاج اليه وكان بهراة الامير عمر بن محمد المرغنى نائبا عن غياث الدين وكان يكره خروج غياث الدين الى خراسان فأحضره غياث الدين واستشاره فأشار بالكف عن قصدها وترك المسير اليها فأنكر عليه ذلك وأراد ابعاده عنه ثم تركه ووصل شهاب الدين فى عساكره وعساكر سجستان وغيرها فى جمادى الاولى من هذه السنة فلما وصلوا الى مينة وهى قرية بين الطالقان وكرزيان وصل الى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو يطلبه ليسلمها اليه فاستأذن أخاه غياث الدين فأذن له فسار اليها فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمى وقاتلوه فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجد فى قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد وزحفوا بالفيلة الى ان قاربوا السور فطلب أهل البلد الامان فأمنهم وكف الناس عن التعرض اليهم وخرج جقر الى شهاب الدين فوعده الجميل ثم حضر غياث الدين الى مرو بعد فتحها فأخذ جقر وسيره الى هراة مكرما وسلم مرو الى هندوخان ابن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش وقد ذكرنا هربه من عمه خوارزم شاه محمد بن تكش الى غياث الدين ووصاه بالاحسان الى أهلها ثم سار غياث الدين الى مدينة سرخس فأخذها صلحا وسلمها الى الامير زنكى بن مسعود وهو من أولاد عمه واقطعه معها نساوا بيورد ثم سار بالعساكر الى طوس فأراد الامير الذى بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها فأغلق باب البلد ثلاثة أيام فبلغ الخبز ثلاثة أمناء بدينار ركنى فضج أهل البلد عليه فارسل الى غياث الدين يطلب الامان فأمنه فخرج اليه فخلع عليه وسيره الى هراة ولما ملكها أرسل الى على شاه بن خوارزم شاه تكش وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ويحذره ان أقام سطوة أخيه شهاب الدين وكان مع على شاه عسكر من خوارزم شاه فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد وحصره وخربوا مابظاهره من العمارة وقطعوا الاشجار وسار غياث الدين الى نيسابور فوصل اليها أوائل رجب وتقدم عسكر أخيه شهاب الدين الى القتال فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو وهم يريدون يفتحون نيسابور فيحصلون بالاسم فاحمل الى البلد ولا ترجع حتى تصل السور فحمل وحمل معه وجوه الغورية فلم يردهم أحد عن السور حتى اصعدوا علم غياث الدين اليه فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور قال لاصحابه اقصدوا بنا هذه الناحية واصعدوا السور من ههنا وأشار الى مكان فيه فسقط السور منهدما ففضج الناس بالتكبير وذهل الخوارزميون وأهل البلد ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة ونهبوه ساعة من نهار فبلغ الخبر الى غياث الدين فأمر بالنداء من نهب مالا أو آذى أحدا فقد حل دمه حلال فأعاد الناس مانهبوه عن آخره ولقد حدثنى بعض أصدقائنا من التجار وكان بنيسابور فى هذه الحادثة نهب من متاعى شئ من جملته سكر فلما سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا منى وبقى لى بساط وشئ من السكر مع جماعة فطلبته منهم فقالوا أما السكر فأكلناه فنسألك أن لا يسمع أحد وان أردت ثمنه أعطيناك فقلت أنتم فى حل منه ولم يكن البساط معى أولئك قال فمشيت الى باب البلد مع النظارة فرأيت البساط الذى لى قد ألقى عند باب البلد لم يجسر أحد يأخذه فأخذته وقلت هذا لى فطلبوا منى من يشهد به فأحضرت من شهد لى وأخذته ثم ان الخوارزميين تحصنوا بالجامع فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا مالهم وأخذ على شاه بن

اقتله يمين الدولة * وأمين الملة * حتى انتصر له منهم وصلبهم على الجذوع عبرة للناظرين * وآية للعالمين * وأمر من بعد بالاسرى فوضعت الاغلال فى أعناقهم يقادون الى غزنة دار الملك فوجا بعد فوج حتى اذا حصلوا بها وقد امتلأت منهم العيون * وغصت بهم الحابس والسجون * من عليهم بالافراج وفرض لهم فى جملة سائر الحشم والاجناد ووضعهم مواضع أمثالهم من ديار الهند ربا يحمون أقطارها * وينقضون عن وجوه العيث مناكبها وأطرارها * وولى خوارزم حاجبه الكبير التونتاش فأقام بها قامعا نجوم الفساد * وفاقئا عيون الغى والعناد * الى أن نضب ماؤهم * وأذعن للسلطان افناؤهم * واستقرت تلك الاسباب * ودرت الاحلاب * وذلك تقدير العزيز العليم

* (ذكر فتح صهرة وقنوج) *

ولما فرغ السلطان يمين

خوارزم شاه وأحضر عند غياث الدين راجلا فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الامر فيه وحضرت دابة كانت لعلى شاه وقال لغياث الدين أهكذا يفعل بأولاد الملوك فقال لا بل هكذا وأخذ بيده وأقعده معه على السرير وطيب نفسه وسير جماعة الامراء الخوارزمية الى هراة تحت الاستظهار وأحضر غياث الدين ابن عمه وصهره على ابنة ضياء الدين محمد بن أبى الغورى وولاه حرب خراسان وخراجها ولقبه علاء الدين وجعل معه وجوه الغورية ورحل الى هراة وسلم على شاه الى أخيه شهاب الدين وأحسن الى أهل نيسابور وفرق فيهم مالا كثيرا ثم رحل بعده شهاب الدين الى ناحية قهستان فوصل الى قرية فذكر له ان أهلها اسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة ونهب الاموال وسبى الذرارى وخرب القرية فجعلها خاوية على عروشها ثم سار الى كاباد وهى من المدن التى جميع أهلها اسماعيلية فنزل عليها وحصرها فارسل صاحب قهستان الى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين ويقول بيننا عهد فما الذى بدا منا حتى تحاصر بلدى واشتد خوف الاسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين فطلبوا الامان ليخرجوا منه فأمنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلمها الى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعار الاسلام ورحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للاسماعيلية فوصل اليه رسول أخيه غياث الدين فقال الرسول معى تقدم من السلطان فلا يجرى حردان فعلته فقال لا أرحل قال اذن افعل ما أمرنى قال افعل فسل سيفه وقطع اطناب سرادق شهاب الدين وقال ارحل بتقدم السلطان فرحل شهاب الدين والعسكر وهو كاره الى بلد الهند ولم يقم بغزنة غضبا لما فعله أخوه معه

(ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما)

فى هذه السنة أيضا تجهز نور الدين ارسلان صاحب الموصل وجمع عساكره وسار الى بلاد الملك العادل بالجزيرة حران والرها وكان سبب حركته ان الملك العادل لما ملك مصر على ما ذكرناه قبل اتفق نور الدين والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وغيرهما على ان يكونوا يدا واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم فلما تجدد حركة الافضل والظاهر ارسلا الى نور الدين ليقصد البلاد الجزرية فسار عن الموصل فى شعبان من هذه السنة وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى صاحب سنجار ونصيبين وصاحب ماردين ووصل الى رأس العين وكان الزمان قيظا فكثرت الامراض فى عسكره وكان بحران والد العادل يلقب بالملك الفائز ومعه عسكر يحفظ البلاد فلما وصل نور الدين الى رأس العين جاءت رسل الفائز ومن معه من أكابر الامراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه وكان نور الدين قد سمع بأن الصلح بدا يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والافضل وانضاف الى ذلك كثرة الامراض فى عسكره فأجاب اليه وحلف الملك الفائز ومن عنده من أكابر الامراء على القاعدة التى استقرت وحلفوا انهم يحالفون الملك العادل له فان امتنع كانوا معه عليه وحلف هو للملك العادل وسارت الرسل من عنده ومن عند والده فى طلب العين من العادل فأجاب الى ذلك وحلف له واستقرت القاعدة وأمنت البلاد وعاد نور الدين الى الموصل فى ذى القعدة من السنة

(ذكر ملك شهاب الدين غزنة وما)

لما سار شهاب الدين من خراسان على ما ذكرناه لم يقم بغزنة وقصد بلاد الهند وأرسل مملوكه قطب

الدين

الدولة من مهم خوارزم وقد انضافت كاحدى أخواتها الى سائر ممالكه الموشحة بآثار ولايته * الموشعة بأصباغ عدله ورعايته * رأى أن يختم صحيفة العام * بطابع الاستتمام * اجمالا للركائب والركب * وتقليبا للرأى الغزو بين جوانح القلب * فعدل الى بست كالشمس قد جنحت للشمال * وجاوزت نقطة الاعتدال * فالدنيا بها حواشى المطارف * أو عواشر المصاحف * أو عقود المخانق * أو نهود المعصرات العواتق * يدبر أعمالها * ويروى فيما صار أحمى لها * الى أن أذن الله له تعالى فى معاودة غزنة منشأ سحاب الفكر فى غزوة تحقق اعجاز القرآن * بما تضمنه من وعد الله المنان * فى اظهار دينه المرموم بسيد البشر * ومولى البدو والحضر * محمد تاج الانام * وسراج الظلام * صلى الله عليه وعلى آله الخيرة البررة الكرام * على الدين كله وان سخطت نفوس

الدين ايبك الى نهرواله فوصلها سنة ثمان وتسعين فلقيه عسكر الهنود فقاتلوه قتالا شديدا فهزمهم ايبك واستباح معسكرهم وما لهم فيه من الدواب وغيرها وتقدم الى نهرواله فملكها عنوة وهرب ملكها فجمع وحشد فكثر جمعه وعلم شهاب الدين انه لا يقدر على حفظها الا بأن يقيم هو فيها ويخليها من أهلها فيتعذر عليه ذلك فان البلد عظيم هو أعظم بلاد الهند وأكثرهم أهلا فصالح صاحبها على مال يؤديه اليه عاجلا وآجلا وأعاد عساكره عنها وسلمها الى صاحبها

(ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم)

فى هذه السنة فى شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان مدينة ملطية وكانت لاخيه مؤيد الدين قيصر شاه فسار اليه وحصره أياما وملكها وسار منها الى ارزن الروم وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق وهم بيت قد ملكوا ارزن الروم مدة طويلة فلما سار اليها وقاربها خرج صاحبها اليه ثقة به ليقرر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وكان هذا آخر أهل بيته ملكوا افتبارك الله الحى القيوم الذى لا يزول ملكه أبدا سرمدا

(ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود)

فى هذه السنة توفى قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا ارسلان بن داود بن سقمان صاحب آمد وحصن كيفا سقط من سطح جوسق كان له بظاهر حصن كيفا فمات وكان شديد الكراهة لاخيه هذا والنفور عنه قد أبعده وأنزله حصن منصور فى آخر بلادهم واتخذ مملوكا اسمه اياس فزوجه أخته وأحبه حبا شديدا وجعله ولى عهده فلما توفى ملك بعده عدة أيام وتهدد وزيرا كان لقطب الدين وغيره من أمراء الدولة فارسلوا الى أخيه محمود سرا يستدعونه فسار مجدا فوصل الى آمد وقد سبقه اليها اياس مملوك أخيه فلم يقدم على الامتناع فتسلم محمود البلاد جميعها وملكها وحبس المملوك فبقى مدة محبوسا ثم شفع له صاحب بلاد الروم فأطلق من الحبس وسار الى الروم فصار أميرا من أمراء الدولة

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل وتعذرت الاقوات حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضا ثم لحقهم عليه وباء وموت كثيرا ففى الناس وفى شعبان منها تزلزلت الارض بالموصل وديار الجزيرة كلها والشام ومصر وغيرها فأثرت فى الشام آثارا قبيحة وخربت كثيرا من الدور بدمشق وحمص وحماة وانخسفت قرية من قرى بصرى وأثرت فى الساحل الشامى أثرا كثيرا فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعكا وناباس وغيرها من القلاع ووصلت الزلزلة الى بلاد الروم وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دورا وفيها ولد ببغداد طفل له رأسان وذلك ان جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل وفى هذه السنة فى شهر رمضان توفى أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى الواعظ ببغداد وتصانيفه مشهورة وكان كثير الوقيعة فى الناس لا سيما فى العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له وكان مولده سنة عشر وخمسمائة وفيها أيضا توفى عيسى بن نصير النميرى الشاعر وكان حسن الشعر وله أدب وفضل وكان مولده ببغداد وفيها توفى العماد أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد وله باللام المشددة وهو العماد

وضربت خدود ورجمت معاطس وأنوف بعدان كانت الشقة قد بعدت عليه وعلى أعوان دين الله السائرين تحت رايته * بنور هدايته * اذ كانت الهند قد تحيفت من شواها وأطرافها سبيا وانتهابا * وملكت على أربابها سهوبا وشعابا * فلم يبق الا ما أجنه ضمير قشمير * ومن دونها فياف تصم عن كل عزيف وصفير * وتضل بينها وفود الرياح الا بتحفير * واتفق أن حشر اليه من أدنى ديار ما وراء النهر الى أقصى حدوده زهاء عشرين ألفا من مطوعة الغزاة وقد وضعوا سيوفهم على عواتقهم محتسبين للجهاد * منتدبين فى ذات الله للاستشهاد * يخطبون الجنان بصداق الارواح * ويستامون الغفران بحدود الصفاح * فحرك من السلطان نفيرهم * وذمر نفوس المسلمين تكبيرهم * واقتضى رأيه أن يزحف بهم الى قنوج وهى التى أعيت الملوك الماضين غير

الكاتب الاصفهانى كتب لنور الدين محمود بن زنكى ولصلاح الدين يوسف بن أيوب رضى الله عنهما وكان كاتبا مفلقا قادرا على القول وفيها جمع عبد الله بن حمزة العلوى المتغلب على جبال اليمن جموعا كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس ومن الرجالة ما لا يحصى كثرة وكان قد انضاف اليه من جند المعز بن اسمعيل بن سيف الاسلام طغدكين بن أيوب صاحب اليمن خوفا منه وأيقنوا بملك البلاد واقتسموها وخافهم ابن سيف الاسلام خوفا عظيما فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة لبلا ليتفقوا على رأى يكون العمل بمقتضاه وكانوا اثنى عشر قائدا فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم فأتى الخبر ابن سيف الاسلام فى باقى الليلة بذلك فسار اليهم مجدا فأوقع بالعسكر المجتمع فلم يثبتوا له وانهزموا بين يديه ووضع السيف فيهم فقتل منهم ستة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك وثبت ملكه واستقر أمره وفيها وقع فى بنى عنزة بأرض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم وكانوا يسكنون فى عشرين قرية فوقع الوباء فى ثمان عشرة قرية فلم يبق منهم أحد وكان الانسان اذا قرب من تلك القرى يموت ساعة ما يقارب افتحاماها الناس وبقيت ابلهم وأغنامهم لا مانع لها وأما القريتان الاخريان فلم يمت فيهما أحد ولا أحسوا بشئ مما كان فيه أولئك

(ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة)

(ذكر ملك خوارزم شاه ما كان أخذه الغورية من بلاده)

قد ذكرنا فى سنة سبع وتسعين ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين ما كان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخراسان ومرو ونيسابور وغيرها وعودهما عنها بعد ان أقطعا البلاد ومسير شهاب الدين الى الهند فلما اتصل بخوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش عود العساكر الغورية عن خراسان ودخول شهاب الدين الهند أرسل الى غياث الدين يعاتبه ويقول كنت أعتقد ان تخاف على بعد ابى وان تنصرنى على الخطا وترد هم عن بلادى فحيث لم تفعل فلا أقل من ان لا تؤذينى وتأخذ بلادى والذى أريده ان تعيد ما أخذته منى والا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الاتراك الآن عجزت عن أخذ بلادى فانى انما شغلنى عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدى وتقرير أمر بلادى والآن فأنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها فغالطه غياث الدين فى الجواب ليمهد الايام بالمراسلات ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر فان غياث الدين كان عاجزا باستيلاء الفرس عليه فلما وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل الى علاء الدين الغورى نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده ان لم يفعل فكتب علاء الدين الى غياث الدين بذلك ويعرفه ميل أهل البلد الى الخوارزميين فأعاد غياث الدين جوابه يقوى قلبه ويعده النصرة والمنع عنه وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذى الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة فلما قارب نسا وابيورد هرب هندوخان ابن أخى ملك شاه من مرو الى غياث الدين بفيروزكوه وملك خوارزم شاه مدينة مرو وسار الى نيسابور وبها علاء الدين فحصره وقاتله قتالا شديدا وطال مقامه عليها وراسله غير مرة فى تسليم البلد اليه وهو لا يجيب الى ذلك انتظارا للمدد من غياث الدين فبقى نحو شهرين فلما أبطأت عليه النجدة أرسل الى خوارزم شاه يطلب الامان لنفسه ولمن معه من الغورية وانه لا يتعرض اليهم بحبس ولا غيره من الاذى فأجابه الى ذلك وحلف لهم وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه

كشتاسب على ما يزعمه المجوس وهو كيش أقرانه * وملك الاملاك بزعمهم فى زمانه * فشار * وبين غزنة دار الملك وخطة قنوج مسيرة ثلاثة أشهر للراكب القود * والخوانف السود * فاستخار ربه وسار * وهجر النوم والقرار * واستصحب من شهد من أنصار دين الله * وأعوان حق الله * رجالا يقتحمون أشداق المنايا شوقا الى السعادة * بالشهادة * وحرصا على الموعود من الحسنى وزيادة * وعبر مياه سيحون وجيلم وجندراهة وايرابه وبيت هرزوشتلدر سالما فى سالمين * وهذه أودية تخجل أعماقها عن الاوصاف * وتمتنع أطرافها على الاطواف * منها ما يغمر غوارب الفيول * فكيف كواهل الخيول * ويدهده ثقال الصخور * فكيف خفاف المطايا والظهور * صنعا من الله لمن والاه * وغرر بروحه فى استدامة رضاه * ولم يطأ مملكة من تلك الممالك الا أتاه الرسول واضعا له خد الطاعة *

اليهم ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة وطلب من علاء الدين ان يسعى فى الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه فأجابه الى ذلك وسار الى هراة وفيها اقطاعه ولم يمض الى غياث الدين تجنيا عليه لتأخر أمداده ولما خرج الغورية من نيسابور احسن خوارزم شاه الى الحسين بن خرميل وهو من اعيان امرائهم زيادة على غيره وبالغ فى اكرامه فقيل ان من ذلك اليوم استحلفه لنفسه وان يكون معه بعد غياث الدين واخيه شهاب الدين ثم سار خوارزم شاه الى سرخس وبها الامير زنكى فحصره اربعين يوما وجرى بين الفريقين حروب كثيرة فضاقت الميرة على اهل البلد لاسيما الحطب فأرسل زنكى خوارزم شاه يطلب منه ان يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو واصحابه ويترك البلد له فراسله خوارزم شاه فى الاجتماع به ليحسن اليه والى من معه فلم يجبه الى ذلك واحتج بقرب نسبه من غياث الدين فابعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره فخرج زنكى فأخذ من الغلات وغيرها التى فى المعسكر ما أراد لاسيما من الحطب وعاد الى البلد واخرج منه من كان قد ضاق به الامر وكتب الى خوارزم شاه العود اليه فقدم حيث لم ينفعه الندم ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الامراء يحصرونه فلما بعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك من الطالقان وهو من امراء الغورية وارسل الى زنكى امير سرخس يعرفه انه يريد يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج اذا سمع الغلبة وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس وخرج زنكى ولقى محمد بن جربك وعسكر فى مرو الروذ واخذ اخراجها وما يجاورها فسير اليهم خوارزم شاه عسكرا مع خاله فلقيهم محمد بن جربك وقاتلهم وحمل بات فى يده على صاحب علم الخوارزمية فضربه فقتله والقى علمهم وكسر كوساتهم فانقطع صوتها عن العسكر ولم يروا اعلامهم فانهزموا وركبهم الغورية قتلا واسرا نحو فرسخين فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك فى تسعمائة فارس وغنم جميع معسكرهم فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد الى خوارزم وارسل الى غياث الدين فى الصلح فأجابه عن رسالته مع امير كبير من الغورية يقال له الحسين بن محمد المرغنى ومرغن من قرى الغور فقبض عليه خوارزم شاه

(ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها)

لما أرسل خوارزم شاه الى غياث الدين فى الصلح وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغنى مغالطا قبض خوارزم شاه على الحسين وسار الى هراة ليحاصرها فكتب الحسين الى أخيه عمر بن محمد المرغنى أمير هراة يخبره بذلك فاستعد للحصار وكان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة ان رجلين أخوين ممن كان يخدم محمد اسلطان شاه اتصلا بغياث الدين بعد وفاة سلطان شاه فأكرمهما غياث الدين وأحسن اليهما يقال لاحدهما الامير الحاجى فكاتبا خوارزم شاه واطمعاه فى البلاد وضمنا له تسليمه اليه فسار لذلك ونازل المدينة وحصرها فسلم الامير عمر المرغنى أمير البلد مفاتيح الابواب اليهما وجعلهما على القتال ثقة منه بهما وظنا منه انهما عدوا خوارزم شاه تكش وابنه محمد بعده فاتفق ان بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغنى عند خوارزم شاه بحال الرجلين وانهما اللذان يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل فلم يصدقه وأتاه بخط الامير حاجى فاخذه وأرسله الى أخيه عمر أمير هراة فأخذهما واعتقلهما وأخذ اصحابهما ثم ان ألب غازى وهو ابن اخت غياث الدين جاء فى عسكر من الغورية فنزل على

عارضا فى الخدمة كنسه الاستطاعه * الى أن جاءه جنكى بن سهى صاحب درب قشمير عالما بأنه بعث الله الذى لا يرضيه الا الاسلام مقبولا * أو الحسام مفلولا * فأظهر العبودية عن حاضر التوفيق * وضمن الارشاد فى الطريق وجعل يسير أمامه هاديا * ويجزع واديا فواديا * وكلما انتصف الليل آذن بالمسير خفق الطبول * واستوى أولياء الله على الخيول * يجشمون تعب الركض والسلوك * الى أن تبخ الشمس من غد للدلوك * حتى استظهر ما عجون لعشر بقين من رجب سنة تسع وأربعمائة ومازال يفتح الصياصى والقلاع منيفة على ربود الجبال * وحروف القلال * بحيث تألم متالع الاعناق * متى شخصت اليها نواظر الاحداق * الى أن شافه قلعة برنة من ولاية هرديب وهو أحد الرأيين أعنى الملوك بلغة الهند فاطلع على الارض اطلاعة وهى تموج بأنصار حق الله

خمسة فراسخ من هراة فكان يمنع الميرة عن عسكر خوارزم شاه ثم ان خوارزم شاه سير عسكرا الى أعمال الطالقان للغارة عليها فلقيهم الحسن بن جربك فقاتلهم فظفر بهم فلم يفلت منهم أحد وسار غياث الدين عن فيروزكوه الى هراة فى عسكره فنزل برباط رزين بالقرب من هراة ولم يقدم على خوارزم شاه لقلة عسكره لان أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل لانه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان وقرب غياث الدين وكذلك أيضا قرب الب غازى وسمع أيضا ان شهاب الدين قد خرج من الهند الى غزنة وكان وصوله اليها فى رجب من هذه السنة فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد فأرسل الى أمير البلد عمر المرغنى فصالحه على مال حمله اليه وارتحل عن البلد وأما شهاب الدين فانه لما وصل الى غزنة بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان وملكه لها فسار الى خراسان فوصل الى بلخ ومنها الى باميان ثم الى مرو عازما على حرب خوارزم شاه وكان نازلا هناك فالتقت أوائل عسكريهما واقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين خلق كثير ثم ان خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المنهزم وقطع القناطر وقتل الامير سنجر صاحب نيسابور لانه اتهمه بالمخامرة عليه وتوجه شهاب الدين الى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المصير الى خوارزم ليحصرها فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فقصد هراة وترك ذلك العزم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة درس مجد الدين أبو على يحيى بن الربيع الفقيه الشافعى بالنظامية ببغداد فى ربيع الاول وفيها توفيت بنفشة جارية الخليفة المستنصر بالله وكان كثير الميل اليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والاحسان والصدقة وفيها أيضا توفى الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعى خطيب دمشق وكان فقيها شافعيا والدولعية قرية من أعمال الموصل

(ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة)

(ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها)

فى هذه السنة فى المحرم سير الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب دمشق ومصر عسكرا مع ولده الملك الاشرف موسى الى ماردين فحصروها وشحنوا على أعمالها وانضاف اليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما ونزلوا بخرزم تحت ماردين ونزل عسكر من قلعة البارعية وهى لصاحب ماردين يقطعون الميرة عن العسكر العادلى فسار اليهم طائفة من العسكر العادلى فاقتتلوا فانهزم عسكر البارعية وثار التركمان وقطعوا الطريق فى تلك الناحية واكثروا الفساد فتعذر سلوك الطريق الا لجماعة من أرباب السلاح فسار طائفة من العسكر العادلى الى رأس العين لاصلاح الطرق وكف عادية الفساد واقام ولد العادل ولم يحصل له غرض فدخل الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب فى الصلح بينهم وأرسل الى عمه العادل فى ذلك فاجاب اليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار فجاء صرف الدينار احد عشر قيراطا من أميرى ويخطب له ببلاده ويضرب اسمه على السكة ويكون عسكره فى خدمته أى وقت طلبه وأخذ الظاهر عشرين ألف دينار من النقد المذكور وقرية القرادى من أعمال شبختان فرحل ولد العادل عن ماردين

*(ذكر

مدمة من فوقها التراتك * ومن حولها الملائك * فتزلزلت قدمه * وأشفق من أن يستباح دمه * فرأى أن يتقى بالاسلام بأس الله وقد شهرت حدوده * ونشرت بعذبات العذاب بنوده * ونزل فى نحو عشرة آلاف منادين بدعوة الاسلام * منقادين عن ولاية الاصنام * فحقق الله تعالى ميعاده * وأحسن بفضله اسعادهم واسعاده * ثم تحرك وامتد به الوجيف بعده الى قلعة كلجند * وهو من أعلام الشياطين * وأعيان أوائل الملاعين * يدل على الملول بعز أقعس * ويرنو الى القروم بطرف أشوس * قد قضى فى الكفر معظم عمره * وغفى بهيبة الملك وبسطة الامر عن تحشيم بيضه وسمره * ولم يقصده أحد الا ارتد عنه مفلولا * وعاد عقده عليه محلولا * عزة حال وكثرة مال * وقوة رجال وعدة افيال * ومنافة معاقل وحصون * وملك عن مطامع الانام ومطامع الوهن والاستلام مصون *

(ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشئ من سيرته)

فى هذه السنة فى جمادى الاولى توفى غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام الغورى صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها وأخفيت وفاته وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازما على قصد خوارزم شاه فاتاه الخبر بوفاة أخيه فسار الى هراة فلما وصل اليها جلس للعزاء باخيه فى رجب وأظهرت وفاته حينئذ وخلف غياث الدين من الولد ابنا اسمه محمود لقب بعد موت أبيه غياث الدين وسنورد من اخباره كثيرا ولما سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الامير محمد بن جربك فسار اليه جماعة من الامراء الخوارزمية فخرج اليهم محمد ليلا وبيتهم فلم ينج منهم الا القليل وأنفذ الاسرى والرؤس الى هراة فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل وجهز خوارزم شاه جيشا وسيرهم مع برفور التركى الى قتال محمد بن جربك فسمع بهم فخرج اليهم ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو فاقتتلوا قتالا شديدا قتل بين الفريقين خلق كثير وانهزم الغورية ودخل محمد بن جربك مرو وفى عشرة فرسان وجاء الخوارزميون فحصروه خمسة عشر يوما فضعف عن الحفظ فأرسل فى طلب الامان فحلفوا له ان خرج اليهم على حكمهم انهم لا يقتلونه فخرج اليهم فقتلوه وأخذوا كل ما معه وسمع شهاب الدين الخبر فعظم عليه وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه فلم يستقر الصلح وارادا العود الى غزنة فاستعمل على هراة ابن أخيه الب غازى وفلك الملك علاء الدين محمد بن ابى على الغورى على مدينة فيروزكوه وجعل اليه حرب خراسان وأمر كل ما يتعلق بالمملكة وأتاه محمود ابن أخيه غياث الدين فولاه مدينة بست واسفزار وتلك الناحية وجعله يعزل من الملك جميعه ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه ولا على غيره من أهله فمن جملة فعله ان غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنية فهويها وتزوجها فلما مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضربا مبرحا وضرب ولدها غياث الدين وزوج أختها وأخذ أموالهم واملاكهم وسيرهم الى بلاد الهند فكانوا فى أقبح صورة وكانت قد بنت مدرسة ودفنت فيها أباها وأمها وأخاها فهدمها ونبش قبور الموتى ورمى بعظامهم منها وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه فانه كان مظفرا منصورا فى حروبه لم تنهزم له راية قط وكان قليل المباشرة للحروب وانما كان له دهاء ومكر وكان جوادا حسن الاعتقاد كثير الصدقات والوقوف بخراسان بنى المساجد والمدارس بخراسان لاصحاب الشافعى وبنى الخانكاهات فى الطرق واسقط المكوس ولم يتعرض الى مال احد من الناس ومن مات ببلده يسلم ماله الى اهل بلده من التجار فان لم يجد أحدا يسلمه الى القاضى ويختم عليه الى أن يصل من يأخذه بمقتضى الشرع وكان اذا وصل الى بلد عم احسانه اهله والفقهاء وأهل الفضل يخلع عليهم ويفرض لهم الاعطيات كل سنة من خزانته ويفرق الاموال فى الفقراء وكان يراعى كل من وصل الى حضرته من العلويين والشعراء وغيرهم وكان فيه فضل غزير وادب مع حسن خط وبلاغة وكان رحمه الله ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها فى المدارس التى بناها ولم يظهر منه تعصب على مذهب ويقول التعصب فى المذاهب من الملك قبيح الا انه كان شافعى المذهب فهو يميل الى الشافعية من غير ان يطمعهم فى غيرهم ولا اعطاهم ما ليس لهم

(ذكر اخذ الظاهر قلعة نجم من اخيه الافضل)

فلما رأى السلطان قد قصد قصده * وجرد لجاهدته جهده * رتب فيوله وخيوله * وراء غياض لو رميت بافراد الابر * لاقتنتها الارض بأوراق الشوك والشجر * وأغرى السلطان به بعض طلائع جيوشه فثاروا اليهم يخرقون تلك الآجام خرق الامشاط منابت الشعور * بل الاشافى مخارز السبور * وأعرض للسلطان طريق من فوق القلعة المذكورة فلم يرع أهلها الا البحر الاخضر * والله أكبر والسيوف لا تبقى ولا تذر فثبتوا للجلاد مستقتلين وتواصلوا بالمنايا مستبسلين * والسيوف تأخذهم من فوق وقدام * وتضعهم ما بين لحوم وعظام * وحلاتهم بينها تتصل اتصال الكعوب * وضرباتهم تتوالى توالى الغيث المصبوب * غير ان الله منزل الحديد * ذى البأس الشديد * هو الذى اذا شاء قطع * واذا شاء نبا وامتنع * كذلك سيوف الهند تنبو ظباتها وتقطع احيانا مناط القلائد

فان نالت من أولياء الله فلأجر الاستشهاد * وثواب المعاد * وان نبت فلا بحاز القدرة * واظهار لعبرة * ليعلم ان الحكم لله في كل مخذول * ومعصوم * ومحروس ومقصوم * وظل المخاذيل يتقامسون بينهم * وقد عاينوا سيوفهم نابية * وسيوف أهل الحق عليهم ماضية * وحملاتهم واهية * وحملات أهل الدين أولى وثانية * ما هؤلاء من جنس الانس * ولا من زمر البشر * هيهات ان وقع الحديد ليحز في الجبال * ولا حزله في هؤلاء الابطال * حتى اذا مثل لهم شخص الطغيان * في صورة الخذلان تواصوا باقتحام ماوراءهم من زخارة المياه يظنون انها تقيهم بأس الانتقام * وتحميهم كأس الحمام * اولا يرون ان الكفر لا يهدى سبيله * وان الله يردى بكثير ماء يحيى قليله * لاجرم ان صفائح الماء * وافقت صفاح الدهماء * فأوسعوا قتلا واسارا * وأغرقوا فأدخلوا نارا * ولعل عدد القتلى والغرقى يزيد على خمسين الفا

في هذه السنة أخذ الظاهر غازى قلعة نجم من أخيه الافضل وكانت في جملة ما أخذ من العادل لما صالحه سنة سبع وتسعين فلما كان هذه السنة أخذ العادل من الافضل سروج وحلين ورأس العين وبقى بيده سميساط وقلعة نجم فأرسل الظاهر اليه يطلب منه قلعة نجم وضمن له انه يشفع الى عمه العادل في اعادة ما أخذ منه فلم يعطه فتهدده بان يكون الباعليه ولم تزل الرسل تتردد حتى سلمها اليه في شعبان وطلب منه أن يعوضه قرى أو مالا فلم يفعل وكان هذا من أقبح ما سمع عن ملك يزاحم أخاه في مثل قلعة نجم مع خستها وحقارتها وكثرة بلاده هو وعدمها لاخيه وأما العادل فانه لما أخذ سروج ورأس العين من الافضل أرسل والدته اليه تسأل في ردها فلم يشفعها وردها خائبة ولقد عوقب البيت الصلاحي بما فعله أبوهم مع البيت الاتابكي فانه لما قصد حصار الموصل سنة ثمانين وخمسمائة أرسل صاحب الموصل والدته وابنة عم نور الدين اليه يسألانه ان يعود فلم يشفعهما فجرى لاولاده هذا وردت زوجته خائبة كما فعل ولما رأى الافضل عمه وأخاه قد أخذا ما كان بيده ارسل الى ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان صاحب ملطية وقونية وما بينهما من البلاد يبذل له الطاعة وأن يكون في خدمته ويخطب له ببلده ويضرب السكة باسمه فاجابه ركن الدين الى ذلك وأرسل له خلعة فلبسها الافضل وخطب له بسميساط في سنة ستمائة وصار في جملته

(ذكر ملك الكرج مدينة دوين)

في هذه السنة استولى الكرج على مدينة دوين من اذربيجان ونهبوها واستباحوها وأكثروا القتل في اهلها وكانت هي وجميع بلاد اذربيجان للامير ابى بكر بن البهلوان وكان على عادته مشغولا بالشرب ليلا ونهارا لا يفيق ولا يصحو ولا ينظر في امر مملكته ورعيته وجنده قد ألقى الجميع عن قلبه وسلك طريق من ليس له علاقة وكان اهل تلك البلاد قد كثرت الاستغاثة اليه واعلامه بقصد الكرج بلادهم بالغارة مرة بعد اخرى فكانهم ينادون صخرة صماء فلما حصر الكرج هذه السنة مدينة دوين سار منهم جماعة يستغيثون فلم يغثهم وخوفه جماعة من امرائه عاقبة اهماله وتوانيه واصراره على ما هو فيه فلم يصغ اليهم فلما طال الامر على اهلها ضعفوا وعجزوا واخذهم الكرج عنوة بالسيف وفعلوا ما ذكرنا ثم ان الكرج بعد ان استقر امرهم بها احسنوا الى من بقى من اهلها فالله تعالى ينظر الى المسلمين ويسهل لشغورهم من يحفظها ويحميها فانها مستباحة لاسيما هذه الناحية فانا لله وانا اليه راجعون فقد بلغنا من فعل الكرج باهل دوين من القتل والسبى والامر ما تقشعر منه الجلود

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة احضر الملك العادل محمدا ولد العزيز صاحب مصر الى الرها وذلك انه لما قطع خطبته من مصر سنة ست وتسعين كما ذكرنا خاف شيعة ابيه ان يجتمعوا عليه ويصيروا معهم فتنة فاخرجه سنة ثمان وتسعين الى دمشق ثم نقله هذه السنة الى الرها فاقام بها ومعه جميع اخوته واخواته ووالدته ومن يخصه وفيها في رجب توفى الشيخ وجيه الدين محمد بن محمود المروروذى الفقيه الشافعي وهذا الذى كان السبب في ان صار غياث الدين شافعيا وفي ربيع الاول منها توفى ابو الفتح عبيد الله بن ابى المعمر الفقيه الشافعي المعروف بالمستملى ببغداد وله خط

حسن وفى ربيع الآخر توفيت زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله واخرجت جنازتها ظاهرة وصلى الخلق الكثير عليها ودفنت فى التربة التى بنتها لنفسها وكانت كثيرة المعروف

(ثم دخلت سنة ستمائة)

﴿ذكر حصار خوارزم شاه هراة ثانية﴾

فى هذه السنة اول رجب وصل خوارزم شاه محمد الى مدينة هراة فحصرها وبها اب غازى بن أخت شهاب الدين الغورى ملك غزنة بعد مراسلات جرت بينه وبين شهاب الدين فى الصلح فلم يتم وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة الى الهاو ورعازما على غزو الهند فاقام خوارزم شاه على حصار هراة الى سلخ شعبان وكان القتال دائما والقتل من الفريقين كثيرا وممن قتل رئيس خرآسان وكان كبير القدر يقيم بمشهد طوس وكان الحسين بن خرميل بكرزيان وهى اقطاعه فارسل الى خوارزم شاه يقول له ارسل الى عسكرا انسلم اليهم الفيلة وخزانة شهاب الدين فارسل اليه ألف فارس من أعيان عسكره الى كرزيان فخرج عليه هو والحسين بن محمد المرغنى فقتلوهم الا القليل فبلغ الخبر الى خوارزم شاه فسقط ما فى يديه وندم على انفاذ العسكر وارسل الى أب غازى يطلب منه أن يخرج اليه من البلد ويخدمه خدمة سلطانية ليرحل عنه فلم يجبه الى ذلك فاتفق ان اب غازى مرض واشتد مرضه فخاف أن يشتغل بمرضه فيملك خوارزم شاه البلد فاجاب الى ما طلب منه واستحلفه على الصلح وأهدى له هدية جليلة وخرج من البلد ليخدمه فسقط الى الارض ميتا ولم يشعر أحد بذلك وارتحل خوارزم شاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار الى سرخس فاقام بها

﴿ذكر عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزم وانهزامه من الخطا﴾

فى هذه السنة فى رمضان عاد شهاب الدين الغورى الى خراسان من قصد الهند وسبب ذلك انه بلغه حصر خوارزم شاه هراة وموت أب غازى نائبه بها فعاد حنقا على خوارزم شاه فلما بلغ ميمند عدل الى طريق أخرى قاصدا الى خوارزم فارسل خوارزم شاه يقول له ارجع الى لاحاربك والا سرت الى هراة ومنها الى غزنة وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس الى مرو فاقام بظاهرها فاعاد اليه شهاب الدين جوابه لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة لكن خوارزم تجمعنا ففرق خوارزم شاه عساكره وأحرق ما جمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين الى خوارزم فسبقه اليها فقطع الطريق وأجرى المياه فيها فتعذر على شهاب الدين سلوكها واقام أربعين يوما يصلحها حتى أمكنه الوصول الى خوارزم والتقى العسكران بسوقرا ومعناه الماء الاسود فجرى بينهم قتال شديد كثرت القتلى فيه بين الفريقين وممن قتل من الغورية الحسين المرغنى وغيره وأسر جماعة من الخوارزمية فامر شهاب الدين بقتلهم فقتلوا وأرسل خوارزم شاه الى الاتراك الخطا يستنجدهم وهم حينئذ أصحاب ما وراء النهر فاستعدوا وساروا الى بلاد الغورية فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم فلقى أوائلهم فى صحراء اندخوى أول صفر سنة احدى وستمائة فقتل فيهم وأسر كثيرا فلما كان اليوم الثانى دهمه من الخطا ما لا طاقة له بهم فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة وبقى شهاب الدين فى نفر يسير وقتل بيده أربعة أفيال له لانها أعيت واخذ الكفار فيلين ودخل شهاب الدين اندخوى فيمن معه وحصره الكفار ثم صالحوه

أصبحوا طعما للنسور والضباع * وأقواتا للقاسيح والحيتان * وعمد كلجند الى قتاله فأهلك بها عرسه * ثم كر فألحق بها نفسه * واغنم الله السلطان مائة وخمسة وثمانين رأسا من الفيلة الضخام * مضافة الى سائر ما اطرد عليه حكم الاغتنام * من نعم الله الجسام * وقسمه الراجحة بالاقسام * ولما وضعت تلك الحروب أوزارها * وحلت له الغنائم أزرارها * عطف عنانه الى شط البلد * الواقع عليه اسم المتعبد * وهو الذى بناه مهرة الهند يطالع ابنيتها التى يزعم أهلها انها من صنيع الجنان * دون الانسان * ابداع أساس وسقوف * واعجاز اوساط وحروف * فرأى ما يخالف العادات * وتفتقر رواياتها الى الشهادات بل المشاهدات * بلد اصبى السور * من صم الصخور * وقد أشرع بابان منها الى الماء المحيط به موضوعة أبنيتها فوق شواخص القلال صيانة لها من مضار سيول الماء * ومغار غيوث السماء * وعن جنبتيها القصر شبيهة بسائر الابنية فى الوثاقة مشتملة على بيوت أصنام

قد هندمت مفاصل اعراقها
بسامير تساوى سطوح
البناء * وتوارى ما وراءها
من الحزوز تحت الخفاء *
وفى صدر البلد بيت أصنام
يحكى اخوانه أو احسن *
ويجرى مجرى أضرابه بل
أتقن * لا يمتدى الكتاب
بأقلام الدواة * ولا النقاشون
بأطراف الخامات * الى
أمثالها تحسينا وتزويقا *
ونقوشا تختطف الابصار
بريقا * وكان فيما كتب
السلطان به انه لو أراد مريد
أن يبنى ما يعادل هذه
الابنية لعجز عنه بانفاق
مائة ألف ألف درهم فى
مدة مائتى سنة على أيدى
عملة كملة * ومهرة مهرة *
وفى جملة الاصنام خمسة
من الذهب الاحمر مضروبة
على قدر خمسة أذرع فى
الهواء منصوبة * قد ألقمت
عينا واحدة منها ياقوتتين
لو بيع مثلهما على السلطان
لاشتراه بخمسين ألف
دينار استرخاصا * ولم يستثن
فيه درك ولا خلاصا *
وعلى آخر قطعة ياقوت
أزرق ريان من ريق الماء *
وبريق البهاء * تتزن أربعمائة
وخمسين مثقالا * وخرج

على أن يعطيهم فيلا آخر ففعل وخلص ووقع الخبر فى جميع بلاده بانه قد عدم وكثرت الارجيف بذلك ثم وصل الى الطالقان فى سبعة نفر وقد قتل اكثر عسكره ونهبت خزائنه جميعها فلم يبق منها شئ فأخرج له الحسين بن خرميل صاحب الطالقان خياما وجميع ما يحتاج اليه وسار الى غزنة وأخذ معه الحسين بن خرميل لانه قيل له عنه انه شديد الخوف لانهزامه وانه قال اذا سار السلطان هربت الى خوارزم شاه فأخذه معه وجعله أمير حاجب ولما شاع الخبر بقتل شهاب الدين جمع تاج الدين الدز وهو مملوك اشتراه شهاب الدين أصحابه وقصد قلعة غزنة ليصعد اليها فمنعه مستحفظها فعاد الى داره فاقام بها وأفسد الخلج وسائر المفسدين فى البلاد وقطعوا الطرق وقتلوا كثيرا فلما عاد شهاب الدين الى غزنة بلغه ما فعله الدز فاراد قتله فشفع فيه سائر المماليك فاطلقه ثم اعتذر وسار شهاب الدين فى البلاد فقتل من المفسدين من تلك الامم نفرا كثيرا وكان له أيضا مملوك آخر اسمه ايلبال ترفسلم من المعركة ولحق بالهند ودخل المولتان وقتل نائب السلطان بها وملك البلد وأخذ الاموال السلطانية وأساء السيرة فى الرعية وأخذ أموالهم وقال قتل السلطان وأنا السلطان وكان يحمله على ذلك ويحسنه له انسان اسمه عمر بن يزان وكان زنديقا ففعل ما أمره وجمع المفسدين وأخذ الاموال فاخاف الطريق فبلغ خبره الى شهاب الدين فسار الى الهند وأرسل اليه عسكرا فاخذوه ومعه عمر بن يزان فقتلهما أقبح قتلة وقتل من وافقهما فى جمادى الآخرة من سنة احدى وستمائة ولما رآهم قتلى قرأ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا الآية وأمر شهاب الدين فى جميع بلاده بالتجهز لقتال الخطا وغزوهم والاخذ بثارهم وقيل كان سبب انهزامه انه لما عاد الى الخطا من خوارزم فرق عسكره فى المفازة التى فى طريقه لقلة الماء وكان الخطا قد نزلوا على طرف المفازة فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل والاسر ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد ولم يرجع اليه أحد يعلم الحال وجاء شهاب الدين فى ساقة العسكر فى عشرين ألف فارس ولم يعلم الحال فلما خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين وهو ومن معه قد تعبوا وأعيوا وكان الخطا أضعاف أصحابه فقاتلهم عامة نهاره وحمى نفسه منهم وحصروه فى اندخوى فجرى بينهم فى عدة أيام اربعة عشر مصافا منها مصاف واحد كان من العصر الى بكرة الغد ثم انه بعد ذلك بعث طائفة من عسكره ليلا سرا وأمرهم أن يرجعوا اليه بكرة كأنهم قد أتوه مددا من بلاده فلما فعلوا ذلك خافه الخطا وقال لهم صاحب سمرقند وكان مسلما وهو فى طاعة الخطا وقد خاف على الاسلام والمسلمين ان هم ظفروا بشهاب الدين فقال لهم ان هذا الرجل لا نجد قط أضعف منه لما خرج من المفازة ومع ضعفه وتعبه وقلة من معه لم تظفروا به والامداد أتته وكأنكم بعساكره وقد أقبلت من كل طريق وحينئذ نطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه والرأى لنا الصلح معه فاجابوا الى ذلك فارسلوا اليه فى الصلح وكان صاحب سمرقند قد أرسل اليه وعرفه الحال سرا وأمره باظهار الامتناع من الصلح أولا والاجابة اليه أخيرا فلما أتته الرسل امتنع واظهر القوة بانتظار الامداد وطال الكلام فاصطلحوا على ان الخطا لا يعبرون النهر الى بلاده ولا يعبر الى بلادهم ورجعوا عنه وخلص هو وعاد الى بلاده والباقى نحو ما تقدم

* (ذكر

﴿ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان﴾

فى هذه السنة وصل رسول الى شهاب الدين الغورى من عند مقدم الاسماعيلية بخراسان برسالة انكرها فامر علاء الدين محمد بن أبى على متولى بلاد الغورية بالمسير اليهم ومحاصرة بلادهم فسار فى عساكر كثيرة الى قهستان وسمع به صاحب زوزن فقصده وسار معه وفارق خدمة خوارزمشاه ونزل علاء الدين على مدينة قاين وهى للاسماعيلية وحصرها وضيق على أهلها ووصل خبر قتل شهاب الدين على ماذكره فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية ورحل عنهم وقصد حصن كاخك فاخذه وقتل المقاتلة وسبى الذرية ورحل الى هراة ومنها الى فيروزكوه

﴿ذكر ملك القسطنطينية من الروم﴾

فى هذه السنة فى شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك ان ملك الروم بها تزوج أخت ملك أفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا ثم وثب على الملك أخ له فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولده ومضى الى خاله مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا الى بلاد الشام لاستنقاذ البيت المقدس فاخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصدا لاصلاح الحال بينه وبين عمه ولم يكن له طمع فى سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه فى عساكر الروم محاربا لهم فوقع القتال بينهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم الى اطراف البلاد وقيل ان ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وانما حصروه فيها وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبى فالقوا النار فى البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك فى ذلك الصبى وليس له من الحكم شئ وأخرجوا أباه من السجن انما الفرنج هم الحكام فى البلد فنقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وما هو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الاناجيل من ذلك أيضا فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا الى ذلك الصبى الملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الابواب واستحضروا الملك وكان ذلك فى جمادى الاولى سنة سبعمائة فاقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا واضعفا كثيرا فارسلوا الى السلطان ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد الى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وقصدوا الابواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة ايام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا فاصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيأ ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التى تدعى سوفيا فجاء الفرنج اليها فخرج اليهم جماعة من القسيسين والاساقفة والرهبان بايديهم الانجيل والصليب يتوسلون بها الى الفرنج ليبقوا

من وزن قدمى أحد الاصنام المذكورة أربعة آلاف وأربعمائة مثقال * وكانت جملة الذهبيات الموجودة عن اجرام الاشخاص المنصوبة ثمانية وتسعين ألفا وثلثمائة مثقال وزادت الفضيات منها على مائتى قطعة لم يمكن وزنها لابعد التفصيل والعرض على كنف المعايير * وأمر السلطان بسائر بيوت الاصنام فضربت بالنفط والضرام * وجعلت سقوفها مواطئ الاقدام * وسار من بعد قد مايروم قنوج * وقد اشتق له الفال من تصحيفه فتوحا * وعده صنعا من الله ممنوحا * وخلف وراءه معظم العسكر تطميعا لراجى المال ملكها فى الثبات لخفة الزحام * وتقبيحا له قبل اللقاء صورة الانهزام * اذ كان أمراء الهند على غلب رقابها * وقوة أسبابها وأصحابها * اطواعا لرأى قنوج اعتزازا بمكانه * واغترارا بفخامة شانه * ولم يعبر على قلعة من قلاع تلك الرباع الا وضعها بالارض وعرض أهلها على الاسلام أو السيف * وحاز من السبايا والنهاب * والنعم الرغاب * مايعجز أنامل

عليهم فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين وهم بوا الكنيسة وكانوا ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفي مراكبه ركبوا الى القسطنطينية وهو شيخ أعمى اذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الافرنسيس والآخر يقال له كندافلند وهو اكثرهم عددا فلما استولى على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فاعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى ما يجاورها وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة اقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الافرنسيس البلاد التي هي شرقي الخليج مثل أزنيق ولاذيق فلم يحصل لاحد منهم شيء غير الذي أخذ القسطنطينية وأما الباقي فلم يسلم من به من الروم واما البلاد التي كانت لملك القسطنطينية شرقي الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان ومن جملتها ازنيق ولاذيق فانها تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه اشكري وهي يده الى أن توفي

﴿ذكر انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية﴾

في هذه السنة في العشرين من شوال انهزم نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية وسبب ذلك ان نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وحشة مستحكمة اولا فاتفقا وسار معه الى ميافارقين سنة خمس وتسعين وقد ذكرناه فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة الى قطب الدين واستماله فمال اليه وخطب له فلما سمع نور الدين ذلك سار الى مدينة نصيبين سلخ شعبان وهي لقطب الدين فحصرها وملك المدينة وبقيت القلعة فحصرها مدة ايام فبينما هو يحاصرها وقد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر ان مظفر الدين بوكبري بن زين الدين علي صاحب اربل قد قصد أعمال الموصل فنهب نينوى وأحرق غلاتها فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها سار عن نصيبين الى الموصل على عزم العبور الى بلد أربل وينهبه جزاء بما فعل صاحبه ببلده فوصل الى مدينة بلد وعاد مظفر الدين الى بلده وتحقق نور الدين ان الذي قيل له وقع فيه زيادة فسار الى تل أعفر من بلد وهي لصاحب سنجار وحصرها وأخذها ورتب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوما وكان الملك الاشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران الى رأس عين نجدة لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب اربل وصاحب الحصن وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على ذلك وعلى منع نور الدين من أخذ شيء من بلاده وكلهم خائفون منه ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين فلما فارقها نور الدين سار الاشرف اليها وأتاه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الحصن وصاحب الجزيرة وصاحب دارا وساروا عن نصيبين نحو بلد البقعا قريبا من بوشري وسار نور الدين من تل أعفر الى كفر زمار وعزم على المطاولة ليتفرقوا فاتاه كتاب من بعض عساكره يسمى جرديك وقد أرسله يتجسس أخبارهم فيقف لهم في عينه ويطمعه فيهم ويقول ان أذنت لي القيتهم بفردي فسار حينئذ نور الدين الى بوشري فوصل اليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه ولقوا شدة من الحر فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة وأتاه الخبر ان عساكر الحصن قد ركبوا

الحساب * ووصل ثامن شعبان الى قنوج * وقد فارقها راجپال حين سمع باقدامه فراق من لا يرى الهزيمة عنه عارا ولا يعتد الفضيحة بها شنارا * وعبر السلطان الماء المسمى كنك * وهو الذي يتواصف الهنود قدره وشرفه * ويرون من عبر الخلد في السماء مغترفه ان أحرق منهم ميت ذروه فيه بعظامه * وظنوه طهرة لآثامه * وربما أتاه الغاسك من بعيد فغرق نفسه فيه * يرى ان ذلك ينجيه * وهو في العاجل يرديه * وفي الآجل يصليه ويخزيه * ثم لا يميته ولا يحييه * وتتبع السلطان قلاع قنوج فاذا هي سبع موضوعة على الماء المذكور * كالبحر المسجور * وفيها قريب من عشرة آلاف بيت للاصنام يزعم المشركون انها متوارثة لهم منذ مائتي ألف سنة الى ثلثمائة ألف سنة كذبا وزورا * وقولا موزورا * وعدولا عن سنن الهدى وكفورا * وبحسب قدمتها كانت عبادتهم لها * واجهاشهم بالدعوات اليها * وقد شرد عنها اكثر أهلها خيفة الايم واليتم * وحلول النكير

فركب هو وأصحابه وساروا نحوهم فلم يروا لهم أثرا فعاد الى خيامه ونزل هو وعساكره وتفرق كثير منهم فى القرى لتحصيل العلوفات وما يحتاجون اليه فجاءه من أخبره بحركة الخصم وقصده فركب نور الدين وعسكره وتقدموا اليهم وبينهم نحو فرسخين فوصلوا وقد ازداد تعبهم والخصم مستريح فالتقوا واقتتلوا فلم يطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نور الدين وانهزم هو أيضا وطلب الموصل فوصل اليها فى أربعة أنفس وتلاحق الناس وأتى الاشرف ومن معه فنزلوا فى كفرزمار ونهبوا البلاد ما بقيها وأهلكوا ما لم يصلح لهم لاسيما مدينة بلد فانهم أفحشوا فى نهبها ومن أعجب ما سمعنا ان امرأة كانت تطبخ فرأت النهب فألقت سوارين كانتا فى يديها فى النار وهربت فجاء بعض الجند ونهب ما فى البيت فرأى فيه بيضا فأخذه وجعله فى النار ليأكله فرأى السوارين فيها فأخذهما وطال مقامهم والرسل تتردد فى الصلح فوقف الامر على اعادة تل اعفر ويكون الصلح على القاعدة الاولى وتوقف نور الدين فى اعادة تل اعفر فلما طال الامر سلمها اليهم واصطلحوا أوائل سنة احدى وستمائة وتفرقت العساكر من البلاد

(ذكر خروج الفرنج بالشام الى بلاد الاسلام والصلح معهم)

فى هذه السنة خرج كثير من الفرنج فى البحر الى الشام وسهل الامر عليهم بذلك ملكهم قسطنطينية وأرسوا بعكا وعزموا على قصد البيت المقدس حرسه الله واستنقاذه من المسلمين فلما استراحوا بعكا ساروا ونهبوا كثيرا من بلاد الاسلام بنواحى الاردن وسبوا وفتكوا فى المسلمين وكان الملك العادل بدمشق فأرسل فى جمع العساكر من بلاد الشام ومصر وسار فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الاسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على كفركنا فأخذوا كل من بها وأموالهم والامراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها فلم يفعل فبقوا كذلك الى أن انقضت السنة وذلك سنة احدى وستمائة فاصطلح هو والفرنج على دمشق واعمالها وما بيد العادل من الشام ونزل لهم عن كثير من المناصفات فى الرملة وغيرها واعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماة فلقيهم صاحبها الناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان فى قلة فهزموه الى البلد فخرج العامة الى قتالهم فقتل الفرنج منهم جماعة وعاد الفرنج

(ذكر قتل كوجكة بلاد الجبل وولاية ايتغمش)

قد ذكرنا قبل تغلب كوجكة مملوك البهلوان على الرى وهمذان وبلد الجبل وبقى الآن وكان قد اصطنع مملوكا آخر كان للبهلوان اسمه ايتغمش وقدمه وأحسن اليه ووثق به فجمع ايتغمش الجموع من المماليك وغيرهم ثم قصد كوجكة فتصافوا واقتتل الفريقان فقتل كوجكة فى الحرب واستولى ايتغمش على البلاد وأخذ معه أوزبك بن البهلوان له اسم الملك وايتغمش هو المدبر له والقيم بأمر المملكة وكان شهما شجاعا عاقلا وكان كوجكة عادلا حسن السيرة رحمه الله

(ذكر وفاة ركن الدين بن قلج ارسلان وملك ابنه بعده)

وفى هذه السنة سادس ذى القعدة توفى ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب ديار الروم ما بين ملطية وقونية وكان موته بمرض القولنج فى سبعة أيام وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب انكورية وتسمى

يا آلهتهم الصم البكم * فمن
بين ناج أغاثه فجاؤه * وثاو
أباده ثواؤه * ولم ينجه من
سيوف الحق أرضه ولا
سماؤه * فقصها كلها فى يوم
واحد ثم أباحها لاهل
عسكريته * وبنها طلقا
حلالا * وبتاريونها وقتا
واذلا * وركض منها الى
قلعة منبج المعروفة بقلعة
البراغمة وهم حى لقاح *
وعتة مالهم عن الفساد
فى تلك البلاد براح * فثبتوا
للقراع أشباه العفاريت
عارجه * والشياطين ماردة
أو مارجه * حتى اذا أعوزهم
النبات * وأعجزهم النجات *
وعلموا أن ليست لهم بالمسلمين
طاقه * وان دماءهم لاشك
مهراقه * تهاووا من غرفات
الجدران * وشرفات
البنيان * على شبا الرماح *
وظبا الصفاح * استخفافا
بالنفوس والارواح *
واستسلاما لامر الله
المتاح * لاجرم ان السيوف
أشربت الارض دماءهم *
وأطعمت النسور أشلاءهم *
كذلك المنايا أصبحن من
خطب اليها لم تزله ردا *

أيضا أنقرة وهى مدينة منيعة وكان مشاقفا لركن الدين فحصره عدة سنين حتى ضعف وقلت الاقوات عنده فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه فعوضه قلعة فى أطراف بلاده وحلف له عليها فنزل أخوه عن مدينة أنقرة وسلمها ومعه ولدان له فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ أولاده معه فقتله فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات واجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان وكان صغيرا فبقى فى الملك الى بعض سنة احدى وستمائة وأخذ منه على ما نذكره هنالك وكان ركن الدين شديدا على الاعداء قيما بأمر الملك الا ان الناس كانوا ينسبونه الى فساد الاعتقاد كان يقال انه يعتقد ان مذهبه مذهب الفلاسفة وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوى اليه ولهذه الطائفة منه احسان كثير الا انه كان عاقلا يحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه حكى لى عنه انه كان عنده انسان وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة وهو قريب منه فحضر يوما عنده فقيه فتناظرا فأظهر شيأ من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه اليه ولطمه وشتمه بحضرة ركن الدين وركن الدين ساكت وخرج الفقيه فقال لركن الدين يجرى على مثل هذا فى حضرتك ولا تنكره فقال لو تكلمت لقتلنا جميعا ولا يمكن اظهار ما تريده أنت

(ذكر قتل الباطنية بواسط)

فى هذه السنة فى رمضان قتل الباطنية بواسط وسبب كونهم بها وقتلهم انه ورد اليها رجل يعرف بالركم محمد بن طالب بن عصية وأصله من القاروب من قرى واسط وكان باطنيا ملحدا ونزل مجاورا الدور بنى الهروى وغشيه الناس وكثر أتباعه وكان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن الصابونى فاتفق أنه اجتاز بالسويقة فكلمه رجل نجار فى مذهبهم فرد عليه الصابونى ردا غليظا فقام اليه النجار وقتله وتسامع الناس بذلك فوثبوا وقتلوا من وجدوا ممن ينتسب الى هذا المذهب وقصدوا دار ابن عصية وقد اجتمع اليه خلق من أصحابه وأغلقوا الباب وصعدوا الى سطحها ومنعوا الناس عنهم فصعدوا اليهم من بعض الدور من على السطح وتحصن من بقى فى الدار باغلاق الابواب والممارق فكسروها ونزلوا فقتلوا من وجدوا فى الدار وأحرقوا وقتل ابن عصية وفتح الباب وهرب منهم فقتلوا وبلغ الخبر الى بغداد وانحدر فخر الدين أبو البدر بن أمينا الواسطى لاصلاح الحال وتسكين الفتنة

(ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت)

فى هذه السنة استولى انسان اسمه محمود بن محمد الحيرى على مدينة مرباط وظفار وغيرهما من حضرموت وكان ابتداء أمره انه كان له مركب يكريه فى البحر للتجار ثم وزر لصاحب مرباط وفيه كرم وشجاعة وحسن سيرة فلما توفى صاحب مرباط ملك المدينة بعده وأطاعه الناس محبة له لكرمه وسيرته ودامت أيامه بها فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباط وظفارا وبنى مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط وعندها عين عذبة كبيرة أجراها الى المدينة وعمل عليها سورا وخندقا وحصنها وسماها الاحمدية وكان يحب الشعر ويكثر الجائزة عليه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة خرج اسطول من الفرنج الى الديار المصرية فنهبوا مدينة فوة وأقاموا خمسة أيام يسيرون وينهبون وعساكر مصر مقابلهم بينهم النيل ليس لهم وصول اليهم لانهم لم تكن لهم

ولم تجد من انكاحه بدا * وأخذ السلطان على تغيبه ذلك نحو قلعة آسى وصاحبها المعروف بجندار بهور أحد أنياب الهنود * وأرباب الجنود * ولم يزل ذا منعة بالملك وسعة فى الملك فعرض له رأى قنوج منازعا * وماده الحرب مكاوحا ومقارعا * فلم يزد أن أتعب أولياءه * ونكل على الخيبة وراءه * وقد أحاط بهذه القلعة غياض متكاثفه * كأعراف الجياد ومتداخله * كأشعار الحداد * لا تستجيب الافاعى بينها للرقاه * ولا يستنير البدر عندها للسراه * قد أحاطت بها خنادق قعيرات الحفائر * فسيحات الدوائر * احاطة الثور بالثريا فما له عنها انفراج * ولا لها دونه انعراج * فلما شعر المذكور بزحف السلطان اليه فى كواكب دولته * وسواكب جلته * فقد قلبه فرط الحذار * وجس نبضه فاذا هو ذئب الفرار * ورأى الموت فاغرا فاه * فلم يملك الا ان يوليه قفاه * فأمر

بقلع قلعته من اصولها وتعويرها * على من بهم آنفا بجاولها * وقفى آثاره بعفاريت أنصاره * ينهبون ويغنمون * ويقتلون ويأسرون * حتى علم الكافرون * انهم هم الخاسرون * وكان المخذول يرى ان أعوانه من كماة المقانب * وحماة الاشاهب ورماة الكتائب * حتى رأى عسكر السلطان بين تلك المشاعب * وآثارهم بالقنا والقواضب * والقسى المواطر كالسحائب * فعلم أن ضرب اللاعب * خلاف ضرب الثائر الغالب * وقوس المحلج غير قوس الناشب * ولما فصل السلطان أمر جندال وأذاقه فى مهرب الداء العضال * عطف على جندراى أحد أكابر الهند فى قلعة شروة وهو يظن بنفسه ان القائل يعنيه بقوله عطست بأنف شامخ وتناولت يداى الثريا قاعدا غير قائم قد ذهب بها عن أن يعطى غيره مقاده * أو يألف غير التعزز عاده * وكانت

سفن وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت أكثر البلاد مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس ووصلت الى الموصل والعراق وغيرها وخربت من مدينة صور سورها وأثرت فى كثير من الشام وفيها فى رجب اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغداد وفيهم صوفى اسمه أحمد بن ابراهيم الدارى من أصحاب شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسمعيل رحمهم الله ومعهم مغن يغنى يقول الشعر

أعاذلتى أقصرى * كفى بمشيبى عذل
شباب كأن لم يكن * وشيب كأن لم يزل
وحق ليالى الوصال * وآخرها والاول
وصفرة لون المحب عند استماع العذل
لئن عاد عيشى بكم * حلا العيش لى واتصل

فتحرك الجماعة عادة الصوفية فى السماع وطرب الشيخ المذكور وتواجد ثم سقط مغشيا عليه فحركوه فاذا هو ميت فصلى عليه ودفن وكان رجلا صالحا وفيها توفى أبو الفتوح أسعد بن محمود المجلى الفقيه الشافعى بأصفهان فى صفر وكان اماما فاضلا وفى رمضان منها توفى قاضى هراة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساوى وولى بعده ابنه صاعد

(ثم دخلت سنة احدى وستمائة)

(ذكر ملك كيخسرو بن قلج ارسلان بلاد الروم من ابن أخيه)

فى هذه السنة فى رجب ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج ارسلان بلاد الروم التى كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان وكان سبب ملك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لاخيه غياث الدين وهو مدينة قونية فهرب غياث الدين منه وقصد الشام الى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب فلم يجد عنده قبولا وقصر به فسار من عنده وتقلب فى البلاد الى ان وصل الى القسطنطينية فأحسن اليه ملك الروم وأقطعه وأكرمه فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين الى حميه وهو بقلعته فانزله عنده وقال له نشترك فى هذه القلعة ونقنع بدخلها فأقام عنده فلما مات أخوه سنة سبعمائة كما ذكرناه اجتمع الامراء على ولده وخالفهم الاتراك الاوجق وهم كثير بتلك البلاد وأنف من اتباعهم وأرسل الى غياث الدين يستدعيه اليه ليملكه البلاد فسار اليه فوصل فى جمادى الاولى اجتمع به وكثر جمعه وقصد مدينة قونية ليحصرها وكان ولد ركن الدين والعساكر بها فأخرجوا اليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه فبقى حيران لا يدرى أين يتوجه فقصد بلدة صغيرة يقال لها أوكرم بالقرب من قونية فقدر الله تعالى ان أهل مدينة اقصرا وثبوا على الوالى فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل اقصرا قالوا نحن أولى بفعل هذا لانه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم فنادوا باسمه أيضا وأخرجوا من عندهم واستدعوه فحضر عندهم وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه وآتاه الله الملك وجمع له البلاد جميعها فى ساعة واحدة فسبحان من اذا أراد أمرا هيأ أسبابه وكان أخوه قيصر شاه الذى كان صاحب ملطية

لما أخذها ركن الدين منه سنة سبع وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب لانه كان زوج ابنته مستنصرا به فأمره بالمقام بمدينة الرها فأقام بها فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار اليه فلم يجد عنده قبولا انما أعطاه شيأ وأمره بمفارقة البلاد فعاد الى الرها وأقام بها فلما استقر ملك غياث الدين سار اليه الافضل صاحب سميساط فلقيه بمدينة قيسارية وقصده أيضا نظام الدين صاحب خرت برت وصار معه فعظم شأنه وقوى أمره

(ذكر حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها)

كانت خرت برت لعماد الدين بن قرا ارسلان فمات وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر والتجأ الى ركن الدين بن قلج ارسلان وبعده الى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود ابن محمد بن قرا ارسلان فامتنع به وكان صاحب آمد ملتجئا الى الملك العادل وفي طاعته وحضر مع ابنه الملك الاشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنه يسير معه عساكره ويأخذ له خرت برت وانما طمع فيها بموت ركن الدين فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقر الامر عليه فسار معه الملك الاشرف وعساكر ديار الجزيرة من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وغيرها وكان نزولهم عليها في شعبان وفي رمضان تسلموا ربضها وكان صاحبها قد اجتمع بغياث الدين بعد أن ملك البلاد الرومية وصار معه في طاعته فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث الدين يستنجده بعسكر يرحلهم عنه فجهز عسكرا كثيرا عدتهم ستة آلاف فارس وسيرهم مع الملك الافضل صاحب سميساط فلما وصل العسكر الى ملطية فارق صاحب آمد ومن معه من خرت برت ونزلوا الى الصحراء وحصروا البحيرة المعروفة ببحيرة سمنين وبها حصنان أحدهما لصاحب آمد والآخر لصاحب خرت برت فحصره وزاحفه فتحصن ثاني ذي الحجة ووصل صاحب خرت برت مع العسكر الرومي الى خرت برت فرحل صاحب آمد عن البحيرة وقوى الحصن الذي فتحه فيها فأزاح علته ورحل الى خلف مرحلة ونزل وتردد الرسل والعسكر الرومي يطلب اعادة البحيرة وصاحب آمد يمتنع من ذلك فلما طال الامر بقي الحصن بيد صاحب آمد وانفصل العسكران وعاد كل فريق الى بلاده

(ذكر الفتن ببغداد)

في سابع عشر شعبان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الازج وأهل المأمونية وسببها ان أهل باب الازج قتلوا سبعا وأرادوا أن يطوفوا به فمنعهم أهل المأمونية فوقعت الفتنة بينهما عند البستان الكبير فجرح منهم خلق كثير وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة فجرح فرسه فعاد فلما كان الغد سار أهل المأمونية الى باب الازج فوقعت بينهم فتنة شديدة وقتال بالسيوف والنشاب واشتد الامر فنهبت الدور القريبة منهم وسعى الركن بن عبد القادر ويوسف في تسكين الناس وركب الاتراك فصاروا يبيتون تحت المنظرة فامتنع أهل الفتنة من الاجتماع فسكنوا وفي العشرين منه جرت فتنة بين أهل قطفتا والقرية من محال الجانب الغربي بسبب قتل سبع أيضا أراد أهل قطفتا ان يجتمعوا ويطوفوا به فمنعهم أهل القرية ان يجروا به عندهم فاقتتلوا وقتل بينهم عدة قتلى فأرسل اليهم عسكر من الديوان لتلافي الامر ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا وفي تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان

في غابر الايام بينه وبين بروجيال هناوشات تجاحش عن خيوط الرقاب فدامت حتى استلحمت رجالا واصطلمت أبطالا فأبطالا ثم قام دست الحرب بينهما فاضطرا الى التوادع والتكاف حقنا للدماء وصونا للاطراف وخطب بروجيال اليه ابنته على ابنه بهمذان استدامة للالفه واماطة للفرقه واستدفاعا للشر والفساد واستبقاء للسيوف في الاغماد وسرح ابنه اليه على تنجزه عقد الوصله وشرط الانشاج في اللحمه والاشتراك في البيت والنعمه فلما حصل الختن في يده جعله تحت قده وقيده وطالبه بعوض ماذهب له على والده فعجز بروجيال عن قصد قلعته واقتباض بيضته واستخلاص ابنه من اسار محنته غير أن المنازعة لم تنثلم بينهما قائمة الى أن طلعت رايات السلطان يمين الدولة على تلك الحدود وسفر صنع

والجعفرية

والجعفرية منشؤها ان رجلين من المحلتين اختصما وتوعد كل واحد منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا في مقبرة الجعفرية فسير اليهم من الديوان من تلافى الامر وسكنه فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة فطاف في البلد وقتل جماعة ممن فيه شبهة فسكن الناس

(ذكر غارة الكرج على بلاد الاسلام)

في هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الاسلام من ناحية اذربيجان فأكثروا العنت والفساد والنهب والسبي ثم أغاروا على ناحية خلاط من ارمينية فأوغلوا في البلاد حتى بلغوا ملازكرد ولم يخرج اليهم أحد من المسلمين يمنعهم فجاسوا خلال البلاد ينهبون ويأسرون وكلما تقدموا تأخرت عساكر المسلمين منهم ثم انهم رجعوا فالله تعالى ينظر الى الاسلام وأهله ويسر لهم من يحمي بلادهم ويحفظ ثغورهم ويغزو أعداءهم وفيها أغارت الكرج على بلاد خلاط فأتوا الى ارجيش ونواحيها فنهبوا وسبوا وخربوا البلاد وساروا الى حصن التين من اعمال خلاط وهو مجاور لارزن الروم فجمع صاحب خلاط عسكره وسار الى طغل شاه ولد قلج ارسلان صاحب ارزن الروم فاستنجده على الكرج فسير عسكره جميعه معه فتوجهوا نحو الكرج فلقوهم وتصافوا واقتتلوا فانهزمت الكرج وقتل زكرى الصغير وهو من أكابر مقدميهم وهو الذي كان مقدم هذا العسكر من الكرج والمقاتل بهم وغنم المسلمون ما معهم من الاموال والسلاح والكراع وغير ذلك وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وعاد الى بلاده

(ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة)

وفي هذه السنة أيضا كانت الحرب بين الامير قتادة الحسيني أمير مكة وبين الامير سالم بن قاسم الحسيني أمير المدينة ومع كل واحد منهما جمع كثير فاقتتلوا قتالا شديدا وكانت الحرب بذي الحليفة بالقرب من المدينة وكان قتادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فلقيه سالم بعد ان قصد الحجرة على ساكنها الصلاة والسلام فصلى عندها ودعا وسار فلقيه فانهزم قتادة وتبعه سالم الى مكة فحصره بها فارسل قتادة الى من مع سالم من الامراء فأفسدهم عليه فمالوا اليه وحالفوه فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائدا الى المدينة وعاد أمر قتادة قويا

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة قطعت خطبة ولي العهد وأظهر خط قرئ بدار الوزير نصير الدين بن مهدي الرازي واذهو خط ولي العهد الامير أبي نصر ابن الخليفة الى أبيه الناصر لدين الله أمير المؤمنين يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد ويطلب الاقالة ويشهد عدلان انه خطه وان الخليفة أقاله وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء وفي هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولدا له رأسان وأربع أرجل ويدان ومات في يومه وفيها أيضا وقع الحريق في خزانة السلاح التي للخليفة فاحترق فيها منه شئ كثير وبقيت النار يومين وسار ذكر هذا الحريق في البلدان لحمل الملوك من السلاح الى بغداد شيأ كثيرا وفي هذه السنة وقع الثلج بمدينة هراة اسبوعا كاملا فلما سكن جاء بعده سيل من الجبل من باب سراخرب كثيرا من البلد ورمى من حصنه قطعة عظيمة وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار فلم يكن بها تلك السنة شئ

الله له في المقصود بعد المقصود * فاما بروجيال فلحق ببهو جذو أحد المتعززين بحصانة المعاقل * وحزونة المداخل * وخشونة المواقل * خلاصا بمهجته * واعتياصا بزعمه على من هم باقتناص أثره وأما جندراى فانه استعد للمدافعه * واحتشد للممانعه * اعتزازا بوثاقة قلعته * ولوثبت لاقتلعته وادلالا بمنعته * ولووقف لاختلعته * فراسله بجيال بأن محمودا ليس من جنس أكابر الهنود * وأمراء رجالهم السود * ان السلامة من مثله تغتنم * والجيش باسمه وباسم أبيه يستهزم * وقد رأينا من كان أقوى منك حكمه * واعلى اكمه لم يقم لضربة من ضربات حدوده * ولم يف بهضبة من هضبات جنوده * فان أردت الافتضاح فشانك أو الخلاص فغمض ما استطعت مكانك * فعلم ان الرجل قد نصحه * وأنه ان خالف الحق فضحه * فسرب أثقاله وأفياله *

وخزائنه وأمواله * نحو جبال تنافى كواكب الجوزاء * وآجام تواري خدالارض عن عين السماء وورى بوجه مقصده فلم يدر أين سار * والى أى الاقطار طار * امتطى الليل أم اقتعد النهار * وكان غرض النصيح المظلوم فى تهريبه وتغريبه اشفاقه من حبالة الاقتناص فيسأم من كامة الاسلام * ماسئم أعمامه وأقاربه حين اضطروا الى الاستئمان والاستسلام * فلما أحاط السلطان تلك القلعة وافتتحها على حصانة قواعدها * ومناعة مراقيها ومصاعدها * وتوسع منها فى علف كثير * ومال على اختلاف أصنافه خطير * لم يهنه الموجود * وقد فاته الكافر المقصود * وضاقت به الارض دون طلبه * وانتزاعه من يدمهر به فاقتص أثره ركضا نحو خمسة عشر فرسخا بين منابت أشجار تصك الوجوه قدميها * ومساقط

الا اليسير وفيها فى شعبان خرج عسكر من الغورية مقدمهم الامير زنكى بن مسعود الى مدينة مرو فلقيهم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس وهو الامير جقر وكان لهم كمينا فلما وصلوا اليه هزمهم وأخذ وجوه الغورية اسرى فلم يفلت منهم الا القليل وأخذ أميرهم زنكى أسيرا فقتل صبرا وعلقت رؤسهم بمرو أياما وفيها فى ذى القعدة سار الامير عماد الدين عمر بن الحسين الغورى صاحب بلخ الى مدينة ترمذ وهى للاتراك الخطا فافتتحها عنوة وجعل بها ولده الاكبر وقتل من بها من الخطا ونقل العلويين منها الى بلخ وصارت ترمذ دار اسلام وهى من أمنع الحصون وأقواها وفيها توفى صدر الدين السجزى شيخ خانكاه السلطان بهراة وفيها فى صفر توفى أبو على الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطى وهو من الشعراء المجيدين واجتمعت به بالموصل وردها ماد حا لصاحبها نور الدين ارسلان شاه وغيره من المقدمين وكان نعم الرجل حسن الصحبة والعشرة وفيها اجتمع ببغداد رجلان أعميان على رجل أعمى أيضا وقتلاه بمسجد طمعا ان يأخذا منه شيأ فلم يجدا معه ما يأخذانه وأدركهما الصباح فهربا من الخوف يريدان الموصل وربما الرجل مقتولا ولم يعلم قاتله فاتفق ان بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحريم فى خصومة جرت فرأى الرجلين الضريرين فقال لمن معه هذان اللذان قتلا الاعمى يقوله مزاحا فقال أحدهما هذا والله قتله فقال الآخر بل أنت قتلته فأخذا الى صاحب الباب فأقرا فقتل أحدهما وصلب الآخر على باب المسجد الذى قتلا فيه الرجل

(ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة)

(ذكر الفتنة بهراة)

فى هذه السنة فى المحرم ثار العامة بهراة وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين الحذادين والصفارين قتل فيها جماعة ونهبت الاموال وخربت الديار فخرج أمير البلد ليكفهم فضربه بعض العامة بحجر فاله منه ألم شديد واجتمع الغوغاء عليه فرفع الى القصر الفيروزى واختفى أياما الى أن سكنت الفتنة ثم ظهر

(ذكر قتال شهاب الدين الغورى بنى كوكر)

قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغورى صاحب غزنة من الخطا الكفار وان الخبر ظهر بيلاده انه عدم من المعركة لم يقف أصحابه له على خبر فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون فى أطراف البلاد وكان ممن أفسد انيال صاحب جبل الجودى فانه كان قد أسلم فلما بلغه الخبر ارتد عن الاسلام وتابع بنى كوكر وساكنهم فى جبال بين لها وورو الموالتان حصينة منيعة وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا له الخراج فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فمن معهم من قبائلهم وعشائرهم وأطاعهم صاحب جبل الجودى وغيره من القاطنين بتلك الجبال ومنعوا الطريق من لها وورو وغيرها الى غزنة فلما بلغ شهاب الدين من قتل مملوكه ايبك بال وقد ذكرناه ارسل الى نائبه بلها وورو الموالتان وهو محمد بن ابى على يأمره بحمل المال لسنة ستمائة وسنة احدى وستمائة ليتجهز به لحرب الخطا فأجاب ان أولاد كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه ارسال المال وحضر جماعة من التجار وذكروا ان قفلا كبيرا أخذه أولاد كوكر ولم ينج منه الا القليل فأمر شهاب الدين مملوكه ايبك مقدم عساكر الهند أن يراسل بنى كوكر يدعوهم الى الطاعة ويتهددهم

ان لم يجيبوا ففعل ذلك فقال ابن كوكر لاى معنى لم يرسل السلطان الينا رسولا فقال له الرسول وما قدركم أنتم حتى يرسل اليكم وانما مملوكه يبصركم رشدكم ويهددكم فقال ابن كوكر لو كان شهاب الدين حيا لراسلناه وقد كنا دفع الاموال اليه فحيث عدم فقل لابيك يترك لنا لهاور وما والاها وفرشابور ونحن نصالحه فقال الرسول نفذ أنت جاسوسا تشق اليه يأتيك بخبر شهاب الدين من فرشابور فلم يصغ الى قوله فرده فعاد وأخبر بما سمع ورأى فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين ايبك بالعود الى بلاده وجمع العساكر وقتال بنى كوكر فعاد الى دهلى وأمر عساكره بالاستعداد فأقام شهاب الدين فى فرشابور الى نصف شعبان من سنة احدى وستمائة ثم عاد الى غزنة فوصلها أول رمضان وأمر بالنداء فى العساكر بالتجهز لقتال الخطا وان المسير يكون أول شوال فتجهزوا لذلك فاتفق ان الشكايات كثرت من بنى كوكر وما يتعهدونه من اخافة السبل وأنهم قد أنفذوا شحنة الى البلاد ووافقهم أكثر الهنود وخرجوا من طاعة أميرها وور والمولتان وغيرهما ووصل كتاب الوالى يذكر ما قد دهمه منهم وان عماله قد أخرجهم بنو كوكر وجبوا الخراج وان ابن كوكر مقدمهم أرسل اليه ليترك له لهاور والبلاد والا قتله ويقول له ان لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر والا خربت البلاد من يده وتحدث الناس بكثرة من معهم من الجموع ومالهم من القوة فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا وأخرج خيامه وسار عن غزنة خامس ربيع الاول سنة اثنتين وستمائة فلما سار وأبعد انقطعت أخباره عن الناس بغزنة وفرشابور حتى أرجف الناس بانهزامه وكان شهاب الدين لما سار عن فرشابور أتاه خبر ابن كوكر انه نازل فى عساكره ما بين حمل وسودرة فجد السير اليه فدهمه قبل الوقت الذى كان يقدر وصوله فيه فاقتتلوا قتالا شديدا يوم الخميس خلس بقين من ربيع الآخر من بكرة الى العصر واشتد القتال فيما هم فى القتال واذ قد أقبل قطب الدين ايبك فى عساكره فنادوا بشعار الاسلام وحملوا حملة صادقة فانهزم الكوكرية ومن انضم اليهم وقتلوا بكل مكان وقصدوا أجمة هنالك فاحتموا بها وأضرموا نارا فكان أحدهم يقول لصاحبه لا تترك المسلمين يقتلونك ثم يلقى نفسه فى النار فيلقى صاحبه نفسه بعده فيها فعمهم الفناء قتلا وحرقا فبعدا للقوم الظالمين وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يغادروها فغنم المسلمون منهم ما لم يسمع بمثله حتى ان المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار وكنى ونحوه وهرب ابن كوكر بعد أن قتل اخوته وأهله وأما ابن دانيال صاحب جبل الجودى فانه جاء ليلا الى قطب الدين ايبك فاستجار به فأجاره وشفع فيه الى شهاب الدين فشفعه فيه وأخذ منه قلعة الجودى فلما فرغ منهم سار لمحوالها وور ليؤمن أهلها ويسكن روعهم وأمر الناس بالرجوع الى بلادهم والتجهيز لحرب الخطا وأقام شهاب الدين بلهاور الى سادس عشر رجب وعاد نحو غزنة وأرسل الى بهاء الدين سام صاحب بامیان ليتجهز للمسير الى معرقند ويعمل جسرا ليعبر هو وعساكره عليه

(ذكر الظفر بالتيراهية)

كان من جملة الخارجين المفسدين أيضا على شهاب الدين التيراهية فانهم خرجوا الى حدود سوران ومكرهان للغارة على المسلمين فأوقع بهم نائب تاج الدين الذى مملوك شهاب الدين بتلك الناحية ويعرف بالخايجى وقتل منهم خلقا كثيرا وحمل رؤس المعروفين فعلقت ببلاد الاسلام

أحجار تصدم الحوافر فتعقرها * ولحق القوم ليلة الاحد خامس بقين من شعبان وقت العتمة وهم يطوون مجاهل الارض هبوطا وصعودا ولاطى التجار بحضرموت برودا * وأهاب الى أولياء الاسلام * وابناء الصلاة والسلام * باقتناصهم * واذراع الظلام فى اقتناصهم * ثقة بالله الناصر لدينه * القاضى على الكفر بتوهينه * فكم من قتيل هنالك قبل أن يمسه حر الحديد * وأسير تقيد قبل يد التقييد * فأما الاموال فبانت جيادون الارواح * وسترادون حد السلاح وحر الجراح * فلا يعبأ بها أو تشفى النفوس من عندة الكفار * وعبدة الشمس و النار * وظل الاولياء يتتبعون طرائح المخاذيل ثلاثة أيام تباعا تنقلا واختناما * وحلالا بعد ان جمعها الكفار حراما * وأما الفيلة فمن بين مقهور و مردود * ومتطوع بالعود الى السلطان

وكانت فتنة هؤلاء التتر اهية على بلاد الاسلام عظيمة قديما وحديثا وكان اذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب وكان أهل فرشابور معهم فى ضر شديد لانهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها لاسيما آخر أيام سكتكين فان الملوك ضعفوا وقوى هؤلاء عليهم وكانوا يغيرون على أطراف البلاد وكانوا كفار الادين لهم يرجعون اليه ولا مذهب يعتمدون عليه الا انهم كانوا اذا ولد لاحدهم بنت وقف على باب داره ونادى من يتزوج هذه من يقبلها فان أجابه أحد تركها والا قتلها او يكون للمرأة عدة أزواج فاذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب فاذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد ولم يزالوا كذلك حتى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغورى فكفوا عن البلاد وسبب اسلامهم انهم أسروا انسانا من فرشابور فعذبوه فلم يمت ودامت أيامه عندهم فأحضره يوما مقدمهم وسأله عن بلاد الاسلام وقال له لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطينى فقال له كان يعطيك الاموال والاقطاع ويرد اليك حكم جميع البلاد التى لكم فارسله الى شهاب الدين فى الدخول فى الاسلام فعاد ومعه رسول بالخلع والمنشور بالاقطاع فلما وصل اليه الرسول سار هو وجماعة من أهله الى شهاب الدين فأسلموا وعادوا وكان للناس بهم راحة فلما كانت هذه الفتنة واختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال فلم يكن لهذه الطائفة بهم قدرة لمنعهم فأفسدوا وعملوا ماذكرناه

(ذكر قتل شهاب الدين الغورى)

فى هذه السنة أول ليلة من شعبان قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام الغورى ملك غزنة وبعض خراسان بعد عوده من لهاور بمنزل يقال له دمينك وقت صلاة العشاء وكان سبب قتله ان نفرا من الكفار الكوكرية لزموا عسكره عازمين على قتله لما فعل بهم من القتل والاسر والسبى فلما كان هذه الليلة تفرق عنه أصحابه وكان قد عاد ومعه من الاموال مالا يحد فانه كان عازما على قصد الخطا والاستكثار من العساكر وتفريق المال فيهم وقد أمر عساكره بالهند باللحاق به وأمر عساكره الخراسانية بالتجهز الى ان يصل اليهم فأتاه الله من حيث لم يحتسب ولم يغن عنه ماجمع من مال وسلاح ورجال لكن كان على نية صالحة من قتال الكفار فلما تفرق عنه أصحابه وبقى وحده فى خركاه فثار أولئك النفر فقتل أحدهم بعض الحرس بباب سرادق شهاب الدين فلما قتلوه صاح فثار أصحابه من حول السرادق لينظروا ما بصاحبهم فاخلوا مواقفهم وكثر الزحام فاغتنم الكوكرية غفلتهم عن الحفظ فدخلوا على شهاب الدين وهو فى الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة فقتلوه فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلا وهو ساجد فأخذوا أولئك الكفار فقتلوهم وكان فيهم اثنان مختونان وقيل انما قتله الاسماعيلية لانهم خافوا خروجه الى خراسان وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم على ماذكرناه فلما قتل اجتمع الامراء عند وزيره مؤيد الملك بن خواجا بحستان فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك ولزوم السكينة الى أن يظهر من يتولاه واجلسوا شهاب الدين وخيطوا جراحه وجعلوه فى المحفة وساروا به ورتب الوزير الامور وسكن الناس بحيث لم تر قى محجمة دم ولم يوجد فى أحد شئ وكانت المحفة محفوفة بالحشم والوزير والعسكر والشمسية على حاله فى حياته وتقدم الوزير الى أمير دار العسكر باقامة السياسة وضبط العسكر وكانت الخزانة التى فى صحبته ألفى

محمود * لطفا من الله تعالى بيتيم له غنائم الاموال * حتى يسوق اليه بهائم الانسال * لاجرم انها سميت خداى آورد شكرا لله على الهام مالا يسئل الا بالمقامع * ولا يملك فى المراتع * الا بالحمل الخوادع * أن يأتى طوعا فيهجر الاصنام * ويخدم الدين والاسلام * ولقد أحسن من قال

قل للامير عبدت حتى
قد أتاك الفيل عبدا
سجدان من جمع الهما *
سن عنده قربا وبعدا
لو مس أعطاف النجو *
م جرين فى الترييع سعدا
أو سار فى أفق السما *
لا نبتت زهرا وورد
ويلغ مارد من خزائن
السارب ذهبا وفضه
ويواقيت محجرة وفرائد
مبيضه * قرابة ثلاثة آلاف
ألف درهم فأما السبى
فالشاهد على كثرة عدده
ووفور مدده * وقوع
الاستيام على الواحد منهم
بما بين درهمين الى عشرة
دراهم

حمل وما بقي حمل وشغب الغلمان الاتراك الصغار لينهبوا المال فمنعهم الوزير والامراء الكبار من المماليك وهو صونج صهر الدز وغيره وأمروا كل من له اقطاع عند قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ببلاد الهند بالعود اليه وفرقوا فيهم أموالا كثيرة فعادوا وسار الوزير ومعه من له اقطاع وأهل بغزنة وعلموا انه يكون بين غياث الدين محمود بن غياث الدين أخي شهاب الدين الاكبر وبين بهاء الدين صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين حروب شديدة وكان ميل الوزير والاتراك وغيرهم الى غياث الدين محمود وكان الامراء الغورية يميلون الى بهاء الدين سام صاحب باميان فارسل كل طائفة الى من يميلون اليه يعرفونه قتل شهاب الدين وجلية الامور وجاء بعض المفسدين من أهل غزنة فقال للمماليك ان فخر الدين الرازي قتل مولاكم لانه هو أوصل من قتله فوضع من خوارزمشاه فثار وابه ليقتلوه فهرب وقصد مؤيد الملك الوزير فاعلمه الحال فسيره سرا الى مأمنه ولما وصل العسكر والوزير الى فرشابور اختلفوا فالغورية يقولون نسير الى غزنة على طريق مكرهان وكان غرضهم ان يقربوا من باميان ليخرج صاحبها بهاء الدين سام فيملك الخزانة قال الاتراك بل نسير على طريق سوران وكان مقصودهم ان يكونوا قريبا من تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين وهو صاحب كرمان مدينة بين غزنة ولها وور وليست بكرمان التي تجاور بلاد فارس ليحفظ الدز الخزانة ويرسلون من كرمان الى غياث الدين يستدعونه الى غزنة ويملكونه وكثر بينهم الاختلاف حتى كادوا يقتتلون فتوصل مؤيد الملك مع الغورية حتى اذنوا له وللاتراك بأخذ الخزانة والتحفة التي فيها شهاب الدين والمسير على كرمان وساروا هم على طريق مكرهان ولقي الوزير ومن معه مشقة عظيمة وخرج عليهم الامم الذين في تلك الجبال التيراهية واوغان وغيرهم فنالوا من أطراف العسكر الى ان وصلوا الى كرمان فخرج اليهم تاج الدين الدز يستقبلهم فلما عاين التحفة وفيها شهاب الدين ميتا نزل وقبل الارض على عادته في حياة شهاب الدين وكشف عنه فلما رآه ميتا مزق ثيابه وصاح وبكى فابكى الناس وكان يوما مشهودا

(ذكر ما فعله الدز)

كان الدز من أول مماليك شهاب الدين وأكبرهم وأقدمهم وأكبرهم محلا عنده بحيث ان أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه ويقصدونه في أشغالهم فلما قتل صاحبه طمع ان يملك غزنة فاول ما عمل انه سأل الوزير مؤيد الملك عن الاموال والسلاح والدواب فاخبره بما خرج من ذلك وبالباقي معه فانكر الحال وأساء أدبه في الجواب وقال ان الغورية قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب باميان ليملكوه غزنة وقد كتب الى غياث الدين محمود وهو مولاي يأمرني انني لا أترك أحدا يقرب من غزنة وقد جعلني نائبه فيها وفي سائر الولاية المجاورة لها لانه مشتغل بأمر خراسان وقال للوزير انه قد أمرني أيضا أن أتسلم الخزانة منك فلم يقدر على الامتناع لميل الاتراك اليه فسلمها اليه وسار بالتحفة والمماليك والوزير الى غزنة فدفن شهاب الدين في التربة بالمدرسة التي أنشأها ودفن ابنته فيها وكان وصوله اليها في الثاني والعشرين من شعبان من السنة

(ذكر بعض سيرة شهاب الدين)

وذلك فضل الله الذي ذخره لايام السلطان يمين الدولة وأمين الملة وهو الملي به بتمام الثواب يوم قيام الحساب فالحمد لله خير معبود ومحمود وله الشكر على ما أقر به عين محمد صلى الله عليه وسلم بمحمود

(ذكر المسجد الجامع بغزنة)

ولما عاد السلطان يمين الدولة وأمين الملة على تفيئة النصر الموكل بقمع الكافر المفتري المكلل بسعدي السماء الزهرة والمشتري الى دار الملك بغزنة وقد كاد أن يغيض سيحها على عدد الارقاء من العبيد والاماء حتى استغرقت عليها اكياس التجار الضاربين اليها عن نوازح الديار ونوازع الامصار فحص ما وراء النهر الى مرابع العراق ومبادي الاشراق منها ما خلط بياضهم بالسود وعدل في التقليب بين المسود والمسود أحب أن ينفق ما أفاءه الله عليه من أنفال أولئك الغلف الاغفال في عمل بر يشيع جدواه ويربع الى أمر الاحتساب معناه وكان قد أوعز باختطاط صعيد من ساحة غزنة

كان رحمه الله شجاعا مقداما كثيرا الغزو الى بلاد الهند عادلا فى رعيته حسن السيرة فيهم حاكما بينهم بما يوجبه الشرع المطهر وكان القاضى بغزنة يحضر داره من كل أسبوع السبت والاحد والاثنين والثلاثاء ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب التربة فيحكم القاضى وأصحاب السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع وان طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره وسمع كلامه وأمضى عليه أوله حكم الشرع فكانت الامور جارية على أحسن نظام (حكى عنه) انه لقيه صبى علوى عمره نحو خمس سنين فدعاله وقال لى خمسة أيام ما كانت شيأ فعاد من الركوب لوقته ومعه الصبى فنزل فى داره وأطعم العلوى أطيب الطعام بحضرته ثم أعطاه مالا بعد ان أحضر أباه وسلمه اليه وفرق فى سائر العلويين مالا عظيما (وحكى) ان تاجرا من مراغة كان بغزنة وله على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف دينار فقتل المملوك فى حرب كانت له فرفع التاجر حاله فامر بأن يقتطع المملوك بيد التاجر الى ان يستوفى دينه ففعل ذلك (وحكى عنه) انه كان يحضر العلماء بحضرته فيتكلمون من المسائل الفقهية وغيرها وكان فخر الدين الرازى يعظ فى داره فحضر يوما فوعظ وقال فى آخر كلامه ياسلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازى وأن مردنا الى الله فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه وكان رقيق القلب وكان شافعى المذهب مثل أخيه قيل وكان حنفيا والله أعلم

(ذكر مسير بهاء الدين سام الى غزنة وموته)

لما ملك غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود وزوجه اخته فاتاه منها ولد اسمه سام فبقى فيها الى ان توفى وملك بعده ابنه الاكبر واسمه عباس وأمه تركية ففضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين فى ذلك وأرسلا من أحضر عباسا عندهما فاخذا الملك منه وجعلا ابن أختهما سام ملكا على باميان ولقب بهاء الدين وعظم شأنه ومحله وجمع الاموال لمملك البلاد بعد خاله وأحبه أمراء الغورية حبا شديدا وعظموه فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الامراء الغورية الى بهاء الدين سام فاخبره بذلك فلما بلغه قتله كتب الى من بغزنة من الامراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد ويعرفهم انه على الطريق سائر اليهم وكان والى قلعة غزنة ويعرف بامير دار قد أرسل ولده الى بهاء الدين سام يستدعيه الى غزنة فاعاد جوابه انه تجهز ويصل اليه ويعده الجميل والاحسان وكتب بهاء الدين الى علاء الدين محمد بن نبى على ملك الغور يستدعيه اليه والى غياث الدين محمود بن غياث الدين والى ابن خرميل والى هراة يأمرهما باقامة الخطبة له وحفظ ما بايديهما من الاعمال ولم يظن ان أحدا يخالفه فاقام أهل غزنة ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود والاتراك يقولون لا نترك غير ابن سيدنا يمنون غياث الدين يدخل غزنة والغورية يتظاهرون بالميل الى بهاء الدين ومنع غيره فسار من باميان الى غزنة فى عساكره ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعا فنزل يستريح ينتظر خفته عنه فازداد الصداع وعظم الامر عليه فايقن بالموت فاحضر ولديه وعهد الى علاء الدين وأمرهما بقصد غزنة وحفظ مشايخ الغورية وضبط الملك وبالرفق بالرعايا وبذل الاموال وأمرهما ان يصالحا غياث الدين على ان يكون له خراسان

للمسجد الجامع اذ كان ما اختط قديما على قدرها حيث عدت من زمعات البلاد شحوطا دار * وشطون مزار * فوافق عوده من مضربه حصول المراد من تقطيعه وتوسعه * واقامة الجدران على ترابيعه * فصب بدر المال على الصناع * كما صب دماء الابطال يوم القراع * ونصب لمشارفتهم أحد الزعماء بحضرته فهو يطوف عليهم مطالبا بصدق العمل * ومعاتبا على رمز الخلل * حتى اذا توسدت الشمس قلة الجبل * اقام ألسن الموازين ناطقة بالانصاف * وازنة بالجزاف * فيمون بين أجرين عاجل على السلطان منقود * وآجل على الرحمن موعود * ونقل اليه من أقطار الهند والسند جذوع توافقت قدودا ورصانة * وتناسبت تدويرا وتخانة * كأنها استودعت أرحام الارض لامر معلوم * وجمعت بأعمارها اليوم محتوم * فجاءت ولا الحق كمالا * والعدل استقامة واعتدالا * يبقى عليها الملاسة والسداد *

و بلاد الغور ويكون لهما غزنة و بلاد الهند

(ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه)

لما فرغ بهاء الدين من وصيته توفى فسار ولداه الى غزنة فخرج أمراء الغورية وأهل البلد فلقوهما وخرج الاتراك معهم على كره منهم ودخلوا البلد وملكوه ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهل رمضان وكانوا قد وصلوا فى ضر وقلة من العسكر وأراد الاتراك منعهم فنهاهم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقلتهم ولاشتغال غياث الدين بابن خرميل والى هراة على ما ذكره فلم يرجعوا ولما استقروا بالقلعة ونزلا بدار السلطانية راسلهما الاتراك بأن يخرجا من الدار والا قاتلوهما فتزقا فيهم أموالا كثيرة واستمالتهم فخافوا واستدعوا غياث الدين محمودا وانفذا خلعا الى تاج الدين الدزوهو باقطاعه مع رسول وطلباه الى طاعتهما ووعداه بالاموال والزيادة فى الاقطاع وامارة الجيش والحكم فى جميع الممالك فاتاه الرسول فلقيه وقد سار عن كرمان فى جيش كثير من الترك والخلج والغز وغيرهم فابلغه الرسالة فلم يلتفت اليه وقال قل لهما يعودان الى باميان وفيها كفاية فانى قد أمرنى مولاى غياث الدين ان أسير الى غزنة وأمنعهما عنها فان عادا الى بلادهما والا فعلت بهما وبمن معهما ما يكرهون ورد ما معه من الهدايا والخلع ولم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه وانما أراد ان يجعل هذا طريقا الى ملك غزنة لنفسه فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدز فارسل وزيره وكان قبله وزير أبيه الى باميان و بلخ وترمذ وغيرها من بلادهم ليجمع العساكر ويعود اليه فارسل الدز الى الاتراك الذين بغزنة يعرفهم ان غياث الدين أمره أن يقصد غزنة ويخرج علاء الدين وأخاه منها فحضروا عند وزير علاء الدين وطلبوا منه سلاحا ففتح خزانة السلاح فهرب ابن الوزير الى علاء الدين وقال له قد كان كذا وكذا فلم يقدر أن يفعل شيأ وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين فركب وانكر على الخازن تسليم المفاتيح وأمره فاسترد ما نهبه الترك جميعه لانه كان مطاعا فيهم ووصل الدز الى غزنة فاخرج اليه علاء الدين جماعة من الغورية ومن الاتراك وفيهم صونج صهر الدز فاشار عليه اصحابه أن لا يفعل وينتظر العسكر مع وزيره فلم يقبل منهم وسير العساكر فالتقوا خامس رمضان فلما القوه خدعه الاتراك وعادوا معه على عسكر علاء الدين فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم وهو محمد بن على بن خردون ودخل عسكر الدز المدينة فنهبوا بيوت الغورية والباميانية وحصر الدز القلعة فخرج جلال الدين منها فى عشرين فارسا وسار عن غزنة فقالت له امرأة تستهزئ به الى أين تمضى خذ الجتر والشمسة معك ما أقبح خروج السلاطين هكذا فقال لها انك سترين ذلك اليوم وافعل بكم ما تقرون به بالسلطنة لى وكان قد قال لاخيه احفظ القلعة الى ان آتيك بالعساكر فبقى الدز يحاصرها وأراد من مع الدز نهب البلد فنهاهم عن ذلك وأرسل الى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة وتهدده ان لم يخرج منها وترددت الرسل بينهما فى ذلك فاجاب الى مفارقتها والعود الى بلده وأرسل من حلف له الدز أن لا يؤذيه ولا يعترض اليه ولا الى احد ممن يحلف له وسار عن غزنة فلما رآه الدز وقد نزل من القلعة عدل الى تربة شهاب الدين مولاه ونزل اليها ونهب الاتراك ما كان مع علاء الدين والقوه عن فرسه واخذوا ثيابه وتركوه عريانا بسراويله فلما سمع الدز ذلك ارسل اليه بدواب وثياب ومال واعتذر اليه فاخذ ما لبسه

وكأن بها صمما فهى لا تصغى ولا تكاد * وقد فرشت ساحتها بالمرمر منقولا من كل فج عميق * ومضرب سحيق * على تقطيع الترسيع أشد ملاسة من راحة الفتاة * وصفحة المرآة * وعقدت عند منتهى الابصار طاقات كما تقطع الدوائر على نقط المراكز * فلو عانس سمارا عقد فى جنبها معقد الواهن العاجز * فاما الاصباغ فطالع روضة الربيع ضاحكة الثغور باكية الجفون تستوقف الابصار * وتقيد النظار * وأما التذهيب فحسبك به ان صناع الرصافة قد عزت عليهم الحقاق * وصح لهم تكليف ما لا يطاق * وليس بصفائح الزرياب فقط لكنه ضبات الذهب الاحمر أفرغت عن صور الاصنام المحذوة * والبددة المأخوذة * فطفقت تعرض على النار * بعد ان كانت آلهة للكفار * وتضرب بالمطارق * بعد أن عبدت بالخدود والعناق * أوليس الذى ينفق على جدران مساجد الله عبرة للموحدين * وغيظا على

وترك الباقى فلما وصل الى باميان لبس ثياب سواد وركب حمارا فاخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة فلم يركب ولم يلبس وقال اريد أن يرانى الناس وما صنع بى اهل غزنة حتى اذا عدت اليها وخربتها ونهبتها الا يلومنى احد ودخل دار الامارة وشرع فى جمع العساكر

(ذكر ملك الدز غزنة)

قد ذكرنا استيلاء الدز على الاموال والسلاح والدواب وغير ذلك مما كان صحبة شهاب الدين وأخذه من الوزير مؤيد الملك فجمع له العساكر من أنواع الناس الاتراك والخلج والغز وغيرهم وسار الى غزنة وجرى له مع علاء الدين ما ذكرنا فلما خرج علاء الدين من غزنة أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين الا انه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره وانما يخطب للخليفة ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب فلما كان فى اليوم الرابع أحضر مقدمى الغورية والاتراك وذم من كاتب علاء الدين وأخاه وقبض على أمير داروالى غزنة فلما كان الغد وهو سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين وأحضر أيضا رسول الخليفة وهو الشيخ مجد الدين ابو على بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد وكان قد ورد الى غزنة رسولا الى شهاب الدين فقتل شهاب الدين وهو بغزنة فارسل اليه والى قاضى غزنة يقول له انى أريد أن انتقل الى الدار السلطانية وان اخاطب بالملك ولا بد من حضورك والمقصود من هذا ان تستقر امور الناس فحضر عنده فركب الدز والناس فى خدمته وعليه ثياب الحزن وجلس فى الدار فى غير مجلس كان يجلس فيه شهاب الدين فتغيرت لذلك نيات كثير من الاتراك لانهم كانوا يطيعونه ظنا منهم انه يريد الملك لغياث الدين فحيث رأوه يريد الانفراد تغيروا عن طاعته حتى ان بعضهم بكى غيظا من فعله واقطع الاقطاعات الكثيرة وفرق الاموال الجليلة وكان عند شهاب الدين جماعة من اولاد ملوك الغور وسمرقند وغيرهم فانتزعوا من خدمة الدز وطلبوا منه ان يقصدوا خدمة غياث الدين واخيه صاحبى باميان وارسل غياث الدين الى الدز يشكره ويثنى عليه لاخراج أولاد بهاء الدين من غزنة وسيره الخلع وطلب منه الخطبة والسكة فلم يفعل واعاد الجواب فغالطه وطلب منه ان يخاطبه بالملك وان يعتقه من الرق لان غياث الدين ابن اخى سيده لا وارث له سواه وان يزوج ابنه بابنة الدز فلم يجبه الى ذلك واتفق ان جماعة من الغوريين من عسكر صاحب باميان أغاروا على اعمال كرمان وسوران وهى اقطاع الدز القديمة فغنموا وقتلوا فارسل صهره صوتج فى عسكر فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم وقتل منهم كثيرا وانفذ رؤسهم الى غزنة فنصبت بها واجرى الدز فى غزنة رسوم شهاب الدين وفرق فى اهلها اموالا جليلة المقدار وألزم مؤيد الملك ان يكون وزيراله فامتنع من ذلك فالح عليه فاجابه على كره منه فدخل على مؤيد الملك صديق له يهنئه فقال بماذا تهنئنى من بعد ركوب الجواد بالحمار وانشد

ومن ركب النور بعد الجوا * دانكر اطلاقه والغبب

فبينما الدز يأتى الى باب الف مرة حتى آذن له فى الدخول أصبح على بابه ولو حفظ النفس مع هؤلاء الاتراك لكان لى حكم آخر

(ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه)

واما غياث الدين محمود بن غياث الدين فانه كان فى اقطاعه وهو بست واسفزار وكان الملك علاء الدين

الملحدين * أتم سماحة * واكرم راحة * ممن يفرغه معبودا * ويتصبه للنفع والضر مقصودا * نعوذ بالله من رب شواره عار * وهو محتاج الى شعار * وجزى الله عن الاسلام ملكا هذه أفعاله * وأعماله * وامتهان الروح * والممنوح * فى سبيل الله دأبه * وآدابه * نعم وقد أفرد السلطان لخاصته بيتا فى المسجد مشرفا عليه مكعب البناء * موسع الفناء * متناسب الزوايا والارجاء * فرشه وازاره من الرخام كدت عليه الظهور * حتى نقل من أرض نيسابور * وقد أحيط بكل رخامة مربعة محراب من الذهب الاحمر مكملا باللازورد * فى تعاريج من ألوان المنثور والورد * هى من يراها بعينه يقل بلسانه * لاستحسانه * لا زال هذا الاستاذ ممتعا بيمنه * ألا من رأى مسجد دمشق فراعه مرآه * وشاقه النظر حتى ثناه * وقضى بأن ليس يوجد شرواه * دونك هذا البيت يلزمك المثنوية * وتنعكس عليك القضية * وبينك ان الحسن بعض صفاته * والابداع أحد سماته * وأنفال الهند

الدين بن محمد بن ابى على قد ولاه شهاب الدين بلاد الغور وغيرها من ارض الراون فلما بلغه قتله سار الى فيروزكوه خوفا ان يسبقه اليها غياث الدين فيملك البلد ويأخذ الخزائن التى بها وكان علاء الدين حسن السير فمن أكابر بيوت الغورية الا ان الناس كرهوه لميلهم الى غياث الدين وأبى الامراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم ولانه كان كراميا مغاليا فى مذهبه وأهل فيروزكوه شافعية وألزمهم ان يجعلوا الاقامة مثنى فلما وصل الى فيروزكوه أحضر جماعة من الامراء منهم محمد المرغنى وأخوه ومحمد بن عثمان وهم من أكابر الامراء وحلفهم على مساعدته على قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان ولم يذكر غياث الدين احتقارا له فحلفوا له ولولده من بعده وكان غياث الدين بمدينة بست لم يتحرك فى شئ انتظارا لما يكون من صاحب باميان لانهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين ان تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين وكان بهاء الدين أقوى فلهذا لم يفعل شيأ فلما بلغه خبر موت بهاء الدين جلس على التخت وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان وحلف الامراء الذين قصدوه وهم اسمعيل الخلجى وسونج أمير اشكار وزنكى بن خرجوم وحسين الغورى صاحب تيكاباذ وغيرهم وتلقب بالقاب أبيه غياث الدين وكتب الى علاء الدين محمد بن أبى على وهو بفيروزكوه يستدعيه اليه ويستعطفه ليصده عن رأيه ويسلم مملكته اليه وكتب الى الحسين بن خرميل والى هراة مثل ذلك ايضا ووعده الزيادة فى الاقطاع فاما علاء الدين فأغلظ له فى الجواب وكتب الى الامراء الذين معه يتهددهم فرحل غياث الدين الى فيروزكوه فارسل علاء الدين عسكرا مع ولده وفرق فيهم مالا كثيرا وخلع عليهم ليمنعوا غياث الدين فلقوه قريبا من فيروزكوه فلما تراءى الجمعان كشف اسمعيل الخلجى المغفر عن وجهه وقال الحمد لله ان الاتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيعوا حق التربية وردوا ابن ملك باميان وانتم مشايخ الغورية الذين انعم عليكم والده هذا السلطان وربا كم واحسن اليكم كفرتم الاحسان وجئتم تقاتلون ولده اهذا فعل الاحرار فقال محمد المرغنى وهو مقدم العسكر الذين يصدرون عن رأيه لا والله ثم ترجل عن فرسه والقى سلاحه وقصد غياث الدين وقبل الارض بين يديه وبكى بصوت عال وفعل سائر الامراء كذلك فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده فلما بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هاربا نحو الغور وهو يقول انا امشى اجاور بمكة فانفذ غياث الدين خلفه من ردّه اليه فاخذه وحبسه وملك فيروزكوه وفرح به اهل البلد وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية وقتل بعضهم ولما دخل غياث الدين فيروزكوه ابتدأ بالجامع فصلى فيه ثم ركب الى دار ابيه فسكنها واعاد رسوم ابيه واستخدم حاشيته وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيرانى وزير ابيه واستوزره وسلك طريق ابيه فى الاحسان والعدل ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همة الا ابن خرميل بهراة واجتذابه الى طاعته فكاتبه وراسله واتخذه اباه واستدعاه اليه وكان ابن خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان فجمع اعيان الناس منهم قاضى هراة صاعد ابن الفضل النيسابورى وعلى بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وشيخ الاسلام رئيس هراة ونقيب العلويين ومقدمى المحال وقال لهم قد بلغنى وفاة السلطان شهاب الدين وانا فى بحر خوارزمشاه واخاف الحصار واريد ان تحلفوا لى على المساعدة على كل من نازعنى

من خدم نقوشه * والهمة العلياء قد سمت بعروشه * نعم وأمام هذا البيت مقصورة تتعارج عليها منصوبة تسع ثلاثة آلاف غلام متى شهدوا للفرض أخذوا أماكنهم منها صفوفا * وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفا * وأضيف الى المسجد مدرسة فيها تشتمل بيوتها من بساط الارض الى مناط السقوف على تصانيف الائمة الماضين * من علوم الاولين والآخرين * منقولة من خزائن الملوك لصيد نقروا عن ديار العراق * وبقاع الآفاق * حتى اقتنوها بخطوط * كفرائد سموط * مصححة بشهادات التقييد * وعلامات التخفيف والتشديد * يفتى بها فقهاء دار الملك وعلماؤها للتدريس والنظر فى علوم الدين على كفاية ذوى الحاجة منهم ما يهمهم بجراية وافرة * ومعيشة حاضرة * وقد اقتطع من دار الامارة الى البيت الموصوف طريق تفضى اليه فى أمن من ابتذال العيون اللوامح * واعتراض الرجال من بين صالح وطالح *

فأجابه القاضي وابن زياد بأنا نحلف على كل الناس الا ولد غياث الدين فحقد عليهما فلما وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس اليه فغالطه في الجواب وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزمشاه يطلب منه ان يرسل اليه عسكرا يصير في طاعته ويمتنع به على الغورية فطلب منه خوارزمشاه انفاذ ولده رهينة ويرسل اليه عسكرا فسير ولده الى خوارزمشاه فكتب خوارزمشاه الى عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه الى هراة وان يكونوا يتصرفون بامر ابن خرميل ويمتثلون أمره هذا وغياث الدين يتابع الكتب الى ابن خرميل وهو يحتج بشيء بعد شيء انتظار العسكر خوارزمشاه ولا يؤيسه من طاعته ولا يخطب له ويطمعه طاعة غير مستوية ثم ان الامير علي بن ابي علي صاحب كالوين أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل فعزم غياث الدين على التوجه الى هراة فثبطه بعض الامراء الذين معه وأشاروا عليه بانتظار آخر أمره وترك محاققته واستشار ابن خرميل القاضي في أمر غياث الدين فقال له علي بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وهو متولي وقوف خراسان التي بيده للغورية جميعها ينبغي ان تخطب للسلطان غياث الدين وتترك المغالطة اني اخاف على نفسي فامض أنت وتوثق لي منه وكان قصده ان يبعده عن نفسه فمضى برسالته الى غياث الدين وأطلعه على ما يريد ابن خرميل بفعله من الغدر به والميل الى خوارزمشاه وحثه على قصد هراة وقال له انا اسلمها اليك ساعة تصل اليها ووافقه بعض الامراء وخالفه غيرهم وقال ينبغي ان لا تترك له حجة فترسل اليه تقليدا بولاية هراة ففعل ذلك وسيره مع ابن زياد وبعض أصحابه ثم ان غياث الدين كاتب اميران بن قيصر صاحب الطالقان يستدعيه اليه فتوقف وارسل الى صاحب مرو يسير اليه فتوقف أيضا فقال له اهل البلد ان لم تسلم البلد الى غياث الدين وتتوجه والا سلمناك وقيدناك وارسلناك اليه فاضطر الى المجيء الى فيروزكوه فخلع عليه غياث الدين واقطعه اقطاعات شتى واقطع الطالقان سونج مملوك ابيه المعروف باميراشكار

(ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان)

قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل والي هراة خوارزمشاه ومراسلته في الانتماء اليه والطاعة له وترك طاعة الغورية وخداعه لغياث الدين ومغالطته له بالخطبة له والطاعة انتظار الوصول عسكر خوارزمشاه ووصول رسول غياث الدين وابن زياد بالخطبة فقال يوم الجمعة نخطب له فاتفق قرب عسكر خوارزمشاه منهم فلما كان يوم الجمعة قيل له في معنى الخطبة فقال نحن في شغل اهم منها بوصول هذا العدو فطالت المجادلات بينهم في ذلك وهو مصر على الامتناع منها ووصل عسكر خوارزمشاه فلقيهم ابن خرميل وانزلهم على باب البلد فقالوا له قد امرنا خوارزمشاه ان لا نخالف له امرا فشكرهم على ذلك وكان يخرج اليهم كل يوم واقام لهم الوظائف الكثيرة واتاه الخبر ان خوارزمشاه نزل على بلخ فحاصرها فلقيه صاحبها وقاتله بظاهر البلد فلم ينزل بالقرب منها فنزل على اربعة فراسخ فندم ابن خرميل على طاعة خوارزمشاه وقال لخواصه لقد اخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل فاني اراه عاجزا وشرع في اعادة العسكر فقال للامراء ان خوارزمشاه قد ارسل الى غياث الدين يقول له اني على العهد الذي بيننا وانا اترك ما كان لابيك بخراسان والمصلحة ان ترجعوا حتى ننظر ما يكون فعادوا وارسل اليهم الهدايا الكثيرة

فيركب اليه على وفور سكينة * وشمول طمأنينة * حتى يقضي المكتوبة * ويقتضي الأجر والمثوبة * فأما سائر دور الجناب وقصور القواد فما يثق بحقائق الانفاق عليها الا من أتاها اعتبارا * وشاهدها اختبارا * فيرى ملء الاباطح أبنية تشرف على الهضاب شرفاتها * وتكاد تغترف من نهر المجرة غرفاتها * وناهيك من بلد يحتوي على مرابض ألف فيل يشغل كل منها بساسته ومارته دارا كبيرة وخطة وسيعة ان الله تعالى اذا أراد عمر البلاد * وكثر العباد * وهو على ما يشاء قدير

(ذكر الافغانية)

ولما قضى السلطان وطره القيظ بغزنة وأقبل الخريف بسفيفه * وسمح الوقت بحاضر ريفه * وقد كان طوائف من الافغانية المستوطنين قلال تلك الجبال الشوامخ * والرعان البواذخ * تعرضوا فعل القطاع لذنابي عسكره منصرفه من غزوة قنوج اغترارا بمناعة أماكنهم * وحصانة مساكنهم * أو تظنيا بخفاء أفعالهم * والتباسها

وكان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزمشاه الى هراة أخذ اقطاع ابن خرميل وارسل الى كرزبان واخذ كل ماله بها من مال واولاد ودواب وغير ذلك واخذ أصحابه فى القيود وأتاه كتب من يميل اليه من الغورية يقولون له ان رأى غياث الدين قتلك ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين باهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه والمكاتبة الى غياث الدين بانفاذ من يتسلم البلد وكتب القاضى صاعد قاضى هراة وابن زياد الى غياث الدين بذلك فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين باهله وبما عزم عليه أهل هراة خاف ان يعاجله بالقبض فحضر عند القاضى وأحضر اعيان البلد وألان لهم القول وتقرب اليهم وأظهر طاعة غياث الدين وقال قد رددت عسكر خوارزمشاه وأريد ارسل رسولا الى غياث الدين بطاعتى والذى اوثره منكم ان تكتبوا معه كتابا بطاعتى فاستحسنوا قوله وكتبوا له بما طلب وسير رسوله الى فيروزكوه وأمره اذا جنه الليل ان يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزمشاه ويجد السير فاذا لحقهم رد هم اليه ففعل الرسول ما امره ولحق العسكر على يومين من هراة فامرهم بالعود فعادوا فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا الى هراة والرسول بين ايديهم فلقيهم ابن خرميل وادخلهم البلد والطبول تضرب بين ايديهم فلما دخلوا اخذ ابن زياد الفقيه فسمله واخرج القاضى صاعدا من البلد فسار الى غياث الدين بفيروزكوه واخرج من عنده من الغورية وكل من يعلم انه يريدهم وسلم ابواب البلد الى الخوارزمية واما غياث الدين فانه برز من فيروزكوه نحو هراة وارسل عسكرا فاخذوا حشيرا كان لاهل هراة فخرج الخوارزمية فشنوا الغارة على هراة الرود وغيره فامر غياث الدين عسكره بالتقدم الى هراة وجعل المقدم عليهم على بن ابى على وأقام هو بفيروزكوه لما بلغه ان خوارزمشاه على بلخ فسار العسكر وعلى يزكه الامير امير ان بن قيصر الذى كان صاحب الطالقان فارسل الى ابن خرميل يعرفه انه على اليزك ويأمره بالمجىء اليه فانه لا يمنعه وحلف له على ذلك فسار ابن خرميل فى عسكره فكبس عسكر غياث الدين فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم فقتلوا فيهم فكف ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفا ان يهلكوا وغنم واسر اسمعيل الخلجى واقام بمكانه وارسل عسكره فشنوا الغارة على البلاد باذغيس وغيرها وعظم الامر على غياث الدين فعزم على المسير الى هراة بنفسه فاتاه الخبر ان علاء الدين صاحب باميان قد عاد الى غزنة على ما ذكره فاقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدزوا ما بلخ فان خوارزمشاه لما بلغه قتل شهاب الدين اخرج من كان عنده من الغورية بين الذين كان اسرهم فى المصاف على باب خوارزم فخلع عليهم واحسن اليهم واعطاهم الاموال وقال ان غياث الدين اخى ولا فرق بينى وبينه فمن احب منكم المقام عندى فليقم ومن احب ان يسير اليه فانى اسيره ولو اراد منى مهما اراد نزلت له عنه وعهد الى محمد بن على بن بشير وهو من اكابر الامراء الغورية فاحسن اليه واقطعه استمالة للغورية وجعله سفيرا بينه وبين صاحب بلخ فسير اخاه على شاه بين يديه فى عسكره الى بلخ فلما قاربها خرج اليه عماد الدين عمر بن الحسين الغورى اميرها فدفعه عن النزول عليها فنزل على اربعة فراسخ عنها فارسل الى اخيه خوارزمشاه يعلمه قوتهم فسار اليها فى ذى القعدة من السنة فلما وصل الى بلخ خرج صاحبها فقاتلهم فلم يقووا بهم لكثرتهم فنزلوا فصار يوقع بهم ليلا فكانوا معه على اقبح صورة فاقام صاحب بلخ محاصرا وهو

بمناكيرأمثالهم * ورأى أن ينقم منهم بركضة تبيح عليهم أوكارهم * وملاجئهم * ويخضب بدماء النحور ما جئهم * فعزم على ما دبر * وصمم على ما قدر * وورى بنهضته * نحو احدى أقطار بيضته * ثم ركض عليهم فى خاصته ركضا صبحهم فى مراقدهم فلم يشعروا الا بحر الصفاح * على برد الصباح * ضربات تقطف الرؤس على النحور * وتفرغ البحور على الجحور * صرعى الى صرعى كان جلودهم طليت بها الشيان والعلام فيا لها نبهة أتمت عليهم الرقود * وآلت حلفة أن لا تعود * أو تشهد اليوم الموعود * بكم من جثث فوق الاعلام * ورؤس تحت الاقدام * حتى اذا اسلحمت السيوف أجسامهم * ولم تستبق الا أياما هم وأيامهم * كف كف الاقتدار * وعلا ذروة العز بالانحدار * وعادت تلك الوعور سهولا * وكان امر الله مفعولا * وعطف الى غزنة ميلا للرأى بين أن يشتو ببلخ مستجما * ولغابر السنة فى القرار مستقما * وبين أن يركب نية يمينية

ينتظر المدد من أصحابه اولاد بهاء الدين صاحب باميان وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزنة على ماذكرناه وعلى ماذكره ان شاء الله تعالى فاقام خوارزمشاه على بلخ اربعين يوما كل يوم يركب الى الحرب فيقتل من اصحابه كثير ولا يظفر بشئ فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن علي بن بشير الغوري وبذل له بذلا كثيرا ليسلم اليه البلد فلم يجبه الى ذلك وقال لا أسلم البلد الا الى أصحابه فعزم على المسير الى هراة فلما سار اصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان الى غزنة المرة الثانية على ماذكره ان شاء الله تعالى واسرهم تاج الدين الدزعاد عن ذلك العزم وأرسل محمد بن علي بن بشير الى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسرهم وانه لا يبقى عليه حجة ولا له في التأخر عنه عذر فدخل اليه ولم يزل يخدعه تارة يرغبه وتارة يرهبه حتى أجاب الى طاعة خوارزمشاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة وقال انا اعلم انه لا يفي له وارسل من يستحلفه على ما اراد فتم الصلح وخرج الى خوارزمشاه فخلع عليه وأعاده الى بلده وكان سلخ ربيع الاول سنة ثلاث وستمائة ثم سار خوارزمشاه الى كرزيان ليحاصرها وبها علي بن أبي علي وارسل الى غياث الدين يقول ان هذه كان قد أقطعها عمك لابن خرميل فتنزل عنها فامتنع وقال بيني وبينكم السيف فارسل اليه خوارزمشاه مع محمد بن علي بن بشير فرغبه وآيسه من نجدة غياث الدين ولم يزل به حتى نزل عنها وسلمها وعاد الى فيروزكوه فأمر غياث الدين بقتله فشفع فيه الامراء فتركه وسلم خوارزمشاه كرزيان الى ابن خرميل ثم أرسل الى عماد الدين صاحب بلخ يطلبه اليه ويقول قد حضر مهم ولا غنى عن حضورك فانت اليوم من أخص أوليائنا فحضر عنده فقبض عليه وسيره الى خوارزم ومضى هو الى بلخ فاخذها واستناب بها جعفرا التركي

(ذكر ملك خوارزمشاه ترمذ وتسليمها الى الخطا)

لما أخذ خوارزمشاه مدينة بلخ سار عنها الى مدينة ترمذ مجدا وبها ولد عماد الدين الذي كان صاحب بلخ فارسل اليه محمد بن علي بن بشير يقول له ان أباك قد صار من أخص أصحابي وأكابر أمرائي وقد سلم الى بلخ وانما ظهر لي منه ما انكرته فسيرته الى خوارزم مكرما محترما وأما أنت فتكون عندي أخا ووعده واقطعه الكثير فخدعه محمد بن علي فرأى صاحبها ان خوارزمشاه قد حصره من جانب والخطا قد حصروه من جانب آخر واصحابه قد اسرهم الدزبغزنة فضعفت نفسه وارسل من يستحلف له خوارزمشاه فحلف له وتسلم منه ترمذ وسلمها الى الخطا فلقد اكتسب بها خوارزمشاه مسبة عظيمة وذكر اقبيحا في عاجل الامر ثم ظهر للناس بعد ذلك انه انما سلمها اليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان ثم يعود اليهم فيأخذها وغيرها منهم لانه لما ملك خراسان وقصد بلاد الخطا واخذها وافناهم ظهر على الناس انه فعل ذلك خديعة ومكرا غفر الله له

(ذكر عود اصحاب باميان الى غزنة)

قد ذكرنا قبل وصول الدز التركي الى غزنة واخراجه علاء الدين وجلال الدين ولدي بهاء الدين سام صاحب باميان منها بعد ان ملكها واقام هو في غزنة من عاشر رمضان سنة اثنتين وستمائة الى خامس ذي القعدة من السنة يحسن السيرة ويعدل في الرعية واقطع البلاد للاجناد فبعضهم اقام وبعضهم سار الى غياث الدين ولم يخطب لاحد ولا لنفسه وكان يعد الناس بأن

في غزوة تقشع باقي ضبابات الكنود * عن ديارات الهنود * مجهزا على من كان يضرب بذنبه * في مهربه * كالوزغة المتخنثة لاتلبث أن تموت قابت عليه حمية الاسلام أن يسيغ على القعود جريضه * أو يستبقي في محابر الاغماد بيضه * وثنى عنانه نحو الهند في رجال يرون منتهى الشهوات صهوات الخيول * وقصوى اللذات ملاقاة الفحول * ويجتزؤن بالظهور أسرة مرفوعة * وبالاكوار وسائد موضوعة * وبالسموم رياحير مقطوفة * وبالآجن الطرق صهباء مرشوفة * وبالعرق السائل ماء مورد * وبالقسطل الثائر مشار عبير نفحات مسك وند * ويجتزؤن بالليل سكنا وقرارا * وبالنجوم ندامى وسمارا * فمن ينهه نسب فان آباءهم المشرفيات البواتك * والزاعبيات القواتك * وأعمامهم القسي الجوازع * وأخوالهم النبال القوازع *

رسولى عنـد مولاى غياث الدين فاذا عاد خطبت له ففرح الناس بقوله وكان يفعل ذلك مكرا وخديعة بهم وبغياث الدين لانه لولم يظهر ذلك لفارقه اكثر الاتراك وسائر الرعايا وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان فكان يستخدم الاتراك وغيرهم بهـذا القول واشباهه فلما ظفر بصاحب باميان على ماذكره أظهر ما كان يضمره فبينما هو فى هـذا أتاه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين صاحب باميان فى العساكر الكثيرة وانهم قد عزموا على نهب غزنة واستباحة الاموال والانفس فخاف الناس خوفا شديدا وجهز الدز كثيرا من عسكره وسيرهم الى طريقهم فلقوا اوائل العسكر فقتل من الاتراك وادركهم العسكر فلم يكن لهم قوة بهم فانهزموا وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون ويأسرون فوصل المنهزمون الى غزنة فخرج عنها الدز منهزما يطلب بلده كرمان فأدركه بعض عسكر باميان نحو ثلاثة آلاف فارس فقاتلهم قتالا شديدا فردهم عنه وأحضر من كرمان مالا كثيرا وسلاحا ففرقه فى العسكر وأما علاء الدين وأخوه فانهما تركا غزنة لم يدخلاها وسارا فى أثر الدز فسمع بهم فسار عن كرمان فنهب الناس بعضهم بعضا وملك علاء الدين كرمان وأمنوا اهلها وعزموا على العود الى غزنة ونهبها فسمع اهلها بذلك فقصدوا القاضى سعيد بن مسعود وشكوا اليه حالهم فمشى الى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب واخبره بحال الناس فطيب قلوبهم واخبرهم غيره ممن يثقون اليه انهم مجموعون على النهب فاستعدوا وضيقوا ابواب الدروب والشوارع واعدوا العرادات والاحجار وجاءت التجار من العراق والموصل والشام وغيرها وشكوا الى اصحاب السلطان فلم يسكنهم احد فقصدوا دار مجد الدين بن الربيع رسول الخليفة واستغاثوا به فسكنهم ووعدهم الشفاعة فيهم وفى اهل البلد فأرسل الى امير كبير من الغورية يقال له سليمان بن سبسر وكان شيخا كبيرا يرجعون الى قوله يعرفه الحال ويقول له يكتب الى علاء الدين واخيه يتشفع فى الناس ففعل وبالغ فى الشفاعة وخوفهم من اهل البلد ان اصروا على النهب فأجابوه الى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة فعوضوهم من الخزانة فسكن الناس وعاد العسكر الى غزنة او اخرى القعدة ومعهم الخزانة التى اخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد ومعه شهاب الدين قتيلا فكانت مع ما اضيف اليها من الثياب والعين تسعمائة حمل ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج المنسوج بالذهب اثنا عشر الف ثوب وعزم علاء الدين أن يستوزر مؤيد الملك فسمع اخوه جلال الدين فأحضره وخلع عليه على كراهة منه للخلعة واستوزره فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك وقيده وحبسه فتغيرت نيات الناس واختلفوا ثم ان علاء الدين وجلال الدين اقتسما الخزانة وجرى بينهما من المشاحنة فى القسمة ما لا يجرى بين التجار فاستدل بذلك الناس على انهما لا يستقيم لهما حال لبخلهما واختلافهما وندم الامراء على ميلهم اليهما وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه واحسانه ثم ان جلال الدين وعمه عباسا سارا فى بعض العسكر الى باميان وبقى علاء الدين بغزنة فأساء وزيره عماد الملك السيرة مع الاجناد والرعية ونهب اموال الاتراك حتى انهم باعوا أمهات اولادهم وهن يبكين ويصرخن ولا يلتفت اليهن

ومازال يخـوض أنهارا هائجة * ودوافع مائجة * وأودية هادية * لم تضمن قط عن غرقاها دية * وعين الله ترعاه * فى كل سعى يسعاه * حتى اقتحم مغارات أولئك المغاوير * بل ديارات اولئك المدابير * فظلت رذايا الفل يضجون بالويل والثبور * ضجيج النوق رواجع بيت الله المعمور * ومازال السلطان يمسح بمن آمن وأطاع * ويقصح من أظهر الامتناع * بعد ان أصاب غنائم لا يضبطها حساب * ولا يطعمها ماء ولا تراب * حتى انتهى به المسير الى ماء يعرف براهب غائر المخاض * حتى القرارة كالحضاض * يبتلع الخف والحافر * ويقتلع الدارع كما يقتلع الحاسر * فاذا هو ببر وجبال من تلك الجبرة فى رجال كالصريم * وأفيال تحت الأديم * قد أخذ من فاجئ لركضة حذره * وأسند الى زاخر النهر ظهره * ورام ان يمنع السلطان عبوره * ويشغل

(ذكر عود الدز الى غزنة)

لما سار جلال الدين عن غزنة واقام بها اخوه علاء الدين جمع الدز ومن معه من الاتراك عسكرا كثيرا وعادوا الى غزنة فوصلوا الى كلواذكوها وقتلوا جماعة من الغورية ووصل المنهزمون الى كرمان فسار الدز اليهم وجعل على مقدمته مملوكا كبيرا من مماليك شهاب الدين اسمه اى دكز التتر فى ألفى فارس من الخلج والاتراك والغز والغورية وغيرهم وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد ومعه جماعة من الامراء منهم أبو على بن سليمان بن سيسر وهو وأبوه من اعيان الغورية وكانا مشتغلين باللعب واللهو والشرب لا يفترقان عن ذلك فقيل لهما ان عسكر الاتراك قد قربوا منكم فلم يلتفتا الى ذلك ولا تركا ما كانا عليه فهجم عليهم اى دكز التتر ومن معه من الاتراك فلم يمهلهم يركبون تخبولهم فقتلوا عن آخرهم منهم من قتل فى المعركة ومنهم من قتل صبرا ولم ينج الا من تركه الاتراك عمدا وواصل الدز فرأى أمراء الغورية كلهم قتلى قال كل هؤلاء قاتلونا فقال اى دكز التتر لا بل قتلناهم صبرا فلامه على ذلك ووبخه وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه فسجد شكرا لله تعالى وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا وكان فى جملة القتلى أبو على بن سليمان بن سيسر ووصل الخبر الى غزنة فى العشرين من ذى الحجة من هذه السنة فصاب علاء الدين الذى جاء بالخبر فتغيمت السماء وجاء مطر شديد خرب بعض غزنة وجاء بعده برد كبار مثل بيض الدجاج ففجع الناس الى علاء الدين بانزال المصاب فانزله آخر النهار فانكشفت الظلمة وسكن ما كانوا فيه وملك الدز كرمان وأحسن الى اهلها وكانوا فى ضر شديد مع أولئك والما صح الخبر عند علاء الدين ارسل وزيره الصاحب الى اخيه جلال الدين فى باميان يخبره بحال الدز ويستنجده وكان قد أعد العساكر ليسير الى بلخ يرحل عنها خوارزمشاه فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ وسار الى غزنة وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه وقصدوا غياث الدين فلما كان أواخر ذى الحجة وصل الدز الى غزنة ونزل هو وعسكره بازاء قلعة غزنة وحصر علاء الدين وجرى بينهم قتال شديد وأمر الدز فنودى فى البلد بالامان وتسكين الناس من أهل البلد والغورية وعسكر باميان واقام الدز محاصرا للقلعة فوصل جلال الدين فى أربعة آلاف من عسكر باميان وغيرهم فرحل الدز الى طريقهم وكان مقامه الى ان سار اليهم أربعين يوما فلما سار الدز سير علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا الدز من خلفه ويكون أخوه من بين يديه فلا يسلم من عسكره أحد فلما خرجوا من القلعة سار سليمان بن سيسر الغورى الى غياث الدين بفيروزكوه فلما وصل اكرمه وعظمه وجعله اميرا رفيروزكوه وكان ذلك فى صفر سنة ثلاث وستمائة وأما الدز فانه سار الى طريق جلال الدين فالتقوا بقرية بلق فاقتتلوا قتالا صبر وا فيه فانهزم جلال الدين وعسكره وأخذ جلال الدين اسيرا واتى به الى الدز فلما رآه ترجل وقبل يده وأمر بالاحتياط عليه وعاد الى غزنة وجلال الدين معه أسير والف اسير من الباميانية وغنم اصحابه اموالهم ولما عاد الى غزنة ارسل الى علاء الدين يقول له يسلم القلعة اليه والاقتل من عنده من الاسرى فلم يسلمها فقتل منهم اربعمائة اسير بازاء القلعة فلما رأى علاء الدين ذلك ارسل مؤيد الملك يطلب الامان فامنه الدز فلما خرج قبض عليه ووكل به

عن قتام الغمر تجهوره * حتى اذا انجحل الليل بقاره * مر فى ذمة استاره * مرور مروان على حماره * فلما علم السلطان ذلك من قصده * ورأى استعداده واحتشاده لصده * امر بالاطواف فهيئت للعبور واهاب بعدته من عليانه للركوب فامتثل الامر ثمانية منهم يبتدرون العدوة القصوى * ويلتزمون كلمة التقوى * فلما رأى بروجيبال استقلال الماء بهم رماهم بخمسة من فيلته المجففة * وفوج من رجاله المصففة * فأراد الله سبحانه وتعالى ان يحقق قول نبيه الأمى الأمين * ورسوله المؤيد بالتمكين * حيث قال صلى الله عليه وسلم زويت لى الارض فأريت مشارقها ومغاربها * وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها * فألهم تلك العدة ان استوقفوها على أماكنها خرزا لاطراف هاتيك الاخفاف بالنبال * وغرزا لها بعد فى وجنات

وباخيه

وباخيه من يحفظهما وقبض على وزيره لسوء سيرته وكان هندوخان بن ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنة فلما خرج منها قبض عليه أيضا وكتب الى غياث الدين بالفتح وارسل اليه الاعلام وبعض الاسرى

(ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب اربل اذربيجان)

فى هذه السنة اتفق صاحب مراغة وهو علاء الدين هو ومظفر الدين كوكبرى صاحب اربل على قصد اذربيجان وأخذها من صاحبها أبى بكر بن البهلوان لاشتغاله بالشرب ليلا ونهارا وتركه النظر فى احوال المملكة وحفظ العساكر والرعايا فسار صاحب اربل الى مراغة واجتمع هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحو تبريز فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل الى ايتغمش صاحب بلاد الجبل همذان واصفهان والرى وما بينهما من البلاد وهو مملوك أبيه البهلوان وهو فى طاعة أبى بكر الا انه قد غلب على البلاد فلا يلتفت الى أبى بكر فأرسل اليه أبو بكر يستنجده ويعرفه الحال وكان حينئذ ببلد الاسماعيلية فلما أتاه الخبر سار اليه فى العساكر الكثيرة فلما حضر عنده أرسل الى صاحب اربل يقول له اتانا عنك انك تحب اهل العلم والخير وتحسن اليهم فكنا نعتقد فيك الخير والدين فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الاسلام وقتال المسلمين ونهب أموالهم واثارة الفتنة فاذا كنت كذلك فما لك عقل يجيء الينا وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان الى خلاط والى اربل واحسب انك هزمت هذا أما تعلم ان له مماليك أتا أحدهم ولو أخذ من كل قرية شحنة او من كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له اضعاف عسكرك فالمصلحة انك ترجع الى بلدك وانما أقول لك هذا ابقاء عليك ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسيره ايتغمش عزم على العود فاجتهد به صاحب مراغة ليقيم بمكانه ويسلم عسكره اليه وقال له انى قد كاتبنى جميع امرائه ليكونوا معى اذا قصدتهم فلم يقبل مظفر الدين من قوله وعاد الى بلده وسلك الطريق الشاقة والمضايق الصعبة والعقاب الشهقة خوفا من الطلب ثم ان ابا بكر وايتغمش قصدا مراغة وحصراها فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه الى أبى بكر هى كانت سبب الاختلاف واقطعه أبو بكر مدينتى استوا وارمية وعاد عنه

(ذكر ايقاع ايتغمش بالاسماعيلية)

وفى هذه السنة سار ايتغمش الى بلاد الاسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم مقتلة كبيرة ونهب وسبى وحصر قلاعهم ففتح منها خمس قلاع وصمم العزم على حصر الموت واستئصال أهلها فاتفق ما ذكرناه من حركة صاحب مراغة وصاحب اربل واستدعاه الامير ابو بكر ففارق بلادهم وسار الى ابى بكر كما ذكرناه

(ذكر وصول عسكر خوارزم الى بلاد الجبل وما كان منهم)

وفى هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس باهليهم واولادهم فوصلوا الى زنكان وكان ايتغمش صاحبها مشغولا مع صاحب اربل وصاحب مراغة واغتنموا خلو البلاد فلما عاد مظفر الدين الى بلده وانفصل الحال بين ايتغمش وصاحب مراغة سار ايتغمش نحو الخوارزمية فلقيهم وقاتلهم فاشتد القتال بين الطائفتين ثم انهزم

اولئك الضلال * معجزة لم يسمع بمثلها قبلها ثمانية تجزع سيلا * وتدفع قبيلة وخيلا * وبدر من لفظ السلطان * عند عيان ذلك البرهان * ان قال من قدر على السباحة * فليتعب اليوم للراحة * فاذا هو بخاصته * ومعظم عامته * خائضين * واصعب الماء رائضين * فتارة يسبحون بالاطواف * واخرى يستريحون الى الاعراف * حتى لفظهم النهر سالمين * لم تنصب لهم جنيبه * ولم تعطب لهم حريبه * ولم تذهب بحمد الله سليبه * وحمل السلطان بهم وقد نزلوا الى الظهور رحلة توزعتهم بين عقير سكران * من عقار الحدود * وأسير حيران * من اسر القدود * وطريد يخاف وقع القواضب * وقتيل يمر أى النجوم الثواقب * فصار ما حصل فى الوقعة من عدد الفيلة مائتين وسبعين فيلا تقال الاجسام * كتقال الغمام * وطار الكافر هزيعا * لا يلتفت عزيما * ولا يقدر تأخيرا

الخوارزميون واخذهم السيف فقتل منهم واسر خلق كثير ولم ينج منهم الا الشريد وسبى نساؤهم وغنمت اموالهم وكانوا قد افسدوا فى البلاد بالنهب والقتل فلقوا عاقبة فعلهم

(ذكر الغارة من ابن ليون على اعمال حلب)

وفى هذه السنة توالت الغارة من ابن ليون الارمنى صاحب الدروب على ولاية حلب فنهب وحرق وأسر وسبى فجمع الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب عساكره واستنجد غيره من الملوك فجمع كثيرا من الفارس والراجل وسار عن حلب نحو ابن ليون وكان ابن ليون قد نزل فى طرف بلاده مما يلى بلد حلب فليس اليه طريق لان جميع بلاده لا طريق اليها الا من جبال وعرة ومضايق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول اليها لا سيما من ناحية حلب فان الطريق منها متعذر جدا فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه يعرف بميمون القصرى ينسب الى قصر الخلفاء العلويين بمصر لان أباه منهم أخذه فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحا الى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون اسمه دربساك وأنفذ الى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده الى طريق هذه الذخيرة ليسير وامعها الى دربساك ففعل ذلك وسير جماعة كثيرة من عسكره وبقى فى قلة فبلغ الخبر الى ابن ليون فجد فوافاه وهو مخف من العسكر فقاتله واشتد القتال بينهم فأرسل ميمون الى الظاهر يعرفه وكان بعيدا عنه فطالت الحرب بينهم وحمى ميمون نفسه واثقاله على قلة من المسلمين وكثرة من الارمن فانهزم المسلمون ونال العدو منهم فقتل وأسر وكذلك أيضا فعل المسلمون بالارمن من كثرة القتل وظفر الارمن باثقال المسلمين فغنموها وساروا بها فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر الى دربساك فلم يشعروا بالحال فلم يرعهم الا العدو وقد خالطهم ووضع السيف فيهم فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم المسلمون أيضا وعاد الارمن الى بلادهم بما غنموا واعتصموا بجبالهم وحصونهم

(ذكر نهب الكرج ارمينية)

فى هذه السنة قصدت الكرج فى جموعها ولاية خلاط من ارمينية ونهبوا وقتلوا واسروا وسبوا أهلها كثيرا وجاسوا خلال الديار آمنين ولم يخرج اليهم من خلاط من يمنعهم فبقوا متصرفين فى النهب والسبى والبلاد شاغرة لا مانع لها لان صاحبها صبى والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند فلما اشتد البلاء على الناس ثذامروا وحرض بعضهم بعضا واجتمعت العساكر الاسلامية التى بتلك الولاية جميعها وانضاف اليهم من المتطوعة كثير فساروا جميعهم نحو الكرج وهم خائفون فرأى بعض الصوفية الاخيار الشيخ محمدا البستى وهو من الصالحين وكان قد مات فقال له الصوفى أراك ههنا فقال جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم فاستيقظ فرحا بحمل البستى من الاسلام وأتى الى مدبر العسكر والقيم بأمره وقص عليه رؤياه ففرح بذلك وقوى عزمه على قصد الكرج وسار بالعساكر اليهم فنزل منزلا فوصلت الاخبار الى الكرج فعزموا على كبس المسلمين فانتقلوا من موضعهم بالوادى الى اعلاه فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين اذا أظلم الليل فأتى المسلمين الخبر فقصدوا الكرج وأمسكوا عليهم رأس الوادى واسفله وهو واد ليس اليه غير هذين الطريقين فلما رأى الكرج ذلك أيقنوا بالهلاك

ولا نقديما * وقد كان السلطان قبل ان لقى الكافر * ولبس جيوشه الدروع والمغافر * اخذ فألا من كتاب الله تعالى يهديه * عاقبة ما ينويه * فخرج له قوله تعالى عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون * فلما حقق الله وعده * ونصر بفضله جنده * ضمن على نفسه ان يفى بواجب حمده عدلا يرفه الانام * وغزوا يؤيد الاسلام * وشكرا يقيد الانعام * لاجرم ان الله حافظه وحاميه * ومصيبه باغراض آماله وامانيه * والذى يدخره له من ثواب المعاد ارجح مقاديره * وارجح مكاييل ومعاييره

*(ذكر ابى بكر محمد بن اسحق ابن محمشاد والقاضى شيخ الاسلام ابى العلاء صاعد ابن محمد وما انتهى اليه امرهما بنيسابور)

قد كان ابو بكر مرموقا بعين النباهة فى صدر هذه الدولة لمكانة ابيه من الزهادة * وضمه الاطراف على

وسقط ما في أيديهم وطمع المسلمون فيهم وضايقوهم وقاتلوهم فقتلوا منهم كثيرا واسروا امثالهم ولم يفلت من الكرج الا القليل وكفى الله المسلمين شرهم بعد ان كانوا أشرفوا على الهلاك

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في جمادى الآخرة توفي الامير طاشتكين مجير الدين أمير الحاج بتشتر وكان قد ولاه الخليفة على جميع خوزستان وكان أميرا على الحاج سنين كثيرة وكان خيرا صالحا حسن السيرة كثير العبادة يتشيع ولما مات ولى الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر وهو صهر طاشتكين زوج ابنته وفيها قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بالعراق وكان سبب قتله انه سعى بأبيه مقلد الى الخليفة الناصر لدين الله فأمر بالتوكيل على أبيه فبقي مدة ثم أطلقه الخليفة ثم ان سنجرا قتل أخاله اسمه ٣ فأوغر بهذه الاسباب صدور أهله واخوته فلما كان هذه السنة في شعبان نزل بأرض المعشوق وركب في بعض الايام ومعه اخوته وغيرهم من أصحابه فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه علي بن مقلد بالسيف فسقط الى الارض فنزل اخوته اليه فقتلوه وفيها تجهز غياث الدين خسرو شاه صاحب مدينة الروم الى مدينة طرابزون وحصر صاحبها لانه كان قد خرج عن طاعته فضيق عليه فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها برا وبحرا ولم يخرج منهم أحد الى بلاد غياث الدين فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس لانهم كانوا يتجرون معهم ويدخلون بلادهم ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير فحيث لم يتفتح الطريق تأذوا أذى كثيرا فكان السعيد منهم من عاد الى رأس ماله وفيها تزوج أبو بكر بن البهلوان صاحب اذربيجان وارّان بابنة ملك الكرج وسبب ذلك ان الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهماكه في الشرب واللعب وما جانسهما واعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد فلما رأى هو أيضا ذلك ولم يكن عنده من الحمية والانفة من هذه المناحس ما يترك ما هو مصر عليه وانه لا يقدر على الذب عن البلاد عدل الى الذب عنها بأيره فخطب ابنة ملكهم فتزوجها فكف الكرج عن النهب والاغارة والقتل فكان كما قيل أغمد سيفه وسل أيره وفيها حمل الى ازبك خروف وجهه صورة آدمي وبدنه بدن خروف وكان هذا من العجائب وفيها توفي القاضي أبو محمد بن محمد الماندائي الواسطي بها وفيها في شوال توفي فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المروروذي وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهراة وغيرهما وكان له دار ضيافة فيها كتب وشطرنج فالعلماء يطالعون الكتب والجهال يلعبون بالشطرنج وفيها في ذي الحجة توفي أبو الحسن علي بن علي بن سعادة الفارقي الفقيه الشافعي ببغداد وبقي مدة طويلة معيدا بالنظامية وصار مدرسا بالمدرسة التي احدثتها أم الخليفة الناصر لدين الله وكان مع علمه صالحا طلب للنيابة في القضاء ببغداد فامتنع فألزم بذلك فوليه يسيرا ثم في بعض الايام مشى الى جامع ابن المطلب فنزل ولبس مئزر صوف غليظ وغير ثيابه وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف وأقام به حتى سكن الطلب عنه وعاد الى داره بغير ولاية وفيها وقع الشيخ ابو موسى المكي المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد من سطح الجامع فمات وكان رجلا صالحا كثير العبادة وفيها

٣ هكذا بياض بالاصل

العبادة واقتفاده نهج ابيه * فيما كان ينتحله وينتحيه * وكان الامير ناصر الدين ابو منصور سبكتكين يرى من عصابته في التزهد والتعفف * والترهب والتقشف * ما قل وجود مثله في كثير من فقهاء الدين * واعيان المتعبدين * فحلى ذلك بقلبه * كما حلى بعينه والمجاهد في الله محبوب * وقد يكرم أهل الشفاعات من له ذنوب * واستمر السلطان بعده على وتيرته في ملاحظتهم بعين الاحترام * وايثار طوائف الكرامية بالاكرام * حتى قال ابو الفتح البستي فيما شاهد من نفاق أسواقهم الفقه فقه ابي حنيفة وحده

والدين دين محمد بن كرام

ان الذين أراهم لم يؤمنوا بمحمد بن كرام غير كرام

وانضاف الى هذه الوسيلة القوية * والذريعة الالهية * انه لما ورد جيوش الخانية خراسان * عند غزوة السلطان ناحية الملتان * قبضوا بنيسابور على أبي بكر احتياطا لانفسهم من شيعته * واحتراسا من غوائل

أيضا توفى العفيف أبو المكارم عرفة بن على بن بصلا البندنيجى ببغداد وكان رجلا صالحا منقطعا الى العباده رحمه الله

(ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة)

(ذكر ملك عباس باميان وعودها الى ابن أخيه)

فى هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولدى أخيه بهاء الدين وسبب ذلك ان عسكر باميان لما انهزموا من الدز وعادوا اليها أخبروا ان علاء الدين وجلال الدين أسروا وان الدز ومن معه عنموا ما فى أيديهما فأخذوزير أبيهما المعروف بالصاحب من الاموال كثيرا ومن الجواهر وغيرها من التحف واخذ فيلا وسار الى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليسير معه عسكرا يستخلص به صاحبيه فلما فارق باميان ورأى عمهما عباس خلو البلد منه ومن ابنى أخيه جمع أصحابه وقام فى البلد فملكه وصعد الى القلعة فملكها وأخرج أصحاب ابنى أخيه علاء الدين وجلال الدين منها فبلغ الخبر الى الوزير السائر الى خوارزم شاه فعاد الى باميان وجمع الجموع الكثيرة وحصر عباسا فى القلعة وكان مطاعا فى جميع ممالك بهاء الدين وولديه من بعده وأقام محاصرا الا انه لم يكن معه من المال ما يقوم بما يحتاج اليه انما كان معه ما أخذه ليحمله الى خوارزم شاه فلما خلص جلال الدين من أسر الدز على ما نذكره وسار الى باميان فوصل الى أرصف وهى مدينة باميان وجاءه اليه وزير أبيه الصاحب واجتمع به وسار الى القلاع وراسلوا عباسا المتغلب عليها ولاطفوه فسلم الجميع الى جلال الدين وقال انما حفظتها خوفا ان يأخذها خوارزم شاه فاستحسن فعله وعاد الى ملكه

(ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان)

لما سلم خوارزم شاه ترمذ الى الخطا سار عنها الى ميمنة واندخوى وكتب الى سونج أمير اشكار نائب غياث الدين محمود بالطالقان يستميله فعاد الرسول خائبا لم يجبه سونج الى ما اراد منه وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه فالتقوا بالقرب من الطالقان فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجدا حتى قارب عسكر خوارزم شاه فالقى نفسه الى الارض ورمى سلاحه عنه وقبل الارض وسأل العفو فظن خوارزم شاه انه سكران فلما علم انه صاح ذمه وسبه وقال من يثق الى هذا واشباهه ولم يلتفت اليه واخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب وأنفذه الى غياث الدين مع رسول وحمله رسالة تتضمن التقرب اليه والملاطفة له واستنابه بالطالقان بعض أصحابه وسار الى قلاع كالوين وبيوار فخرج اليه حسام الدين على ابن أبى على صاحب كالوين وقاتله على رؤس الجبال فأرسل اليه خوارزم شاه يتهدده ان لم يسلم اليه فقال اما أنا فمملوك وهذه الحصون فهى أمانة بيدى ولا أسلمها الا الى صاحبها فاستحسن خوارزم شاه منه هذا واثنى عليه وذم سونج ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليم الطالقان الى خوارزم شاه عظم عنده وشق عليه فسلاه أصحابه وهونوا الامر ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار الى هراة فنزل بظاهرها ولم يمكن ابن خرميل احدا من الخوارزميين ان يتطرق بالاذى الى أهلها وانما كان يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة فيقطعون الطريق وهذه عادة الخوارزميين ووصل رسول غياث الدين الى خوارزم شاه

بالهدايا

مكيدته * ونقلوه فى جملتهم حين طلعت رايات السلطان من مغاربها * وأومضت سيوف الحق عن مضاربها * الى ان وجد منهم فرصة الافلات * والسلامة على مس تلك الآفات * فاعتد السلطان ذلك فى سائر موالته * واوجب له حقا يلحظه بعين مراعاته * ونبغت من أرباب البدع الباطنية على ما تنامست به البلاغات * والله اعلم بما تجنه الضمائر والنيات * فتمام وافقت تصليا من السلطان فى استئصالهم * وتعصبا لدين الله تعالى فى احتنائك أمثالهم * فحشروا من اطراف البلاد * وصلبوا عبرة للعباد * وكان أبو بكر هذا احد أعوان السلطان على رأيه حشرا اليه * وتصويبا للرأى عليه * فصار البرىء كالسقيم مذعورا * وعاد الملائى عارض الخطب شورى * ورأى الناس ان ريقته السم القاتل * ومتنه السيف القاصل * فخضعوا له بالطاعة * وفرشوا له خدود الضراعة * وانعقدت له الرياسة فى لبسة الصوف * ولحظته الخاصة والعامة

بالهدايا ورأى الناس عجبا وذلك ان الخوارزميين لايذكرون غياث الدين الكبير والد هذا غياث الدين ولايذكرون أيضا شهاب الدين أخاه وهما حيان الا بالغورى وصاحب غزنة وكابل وزير خوارزم شاه الآن مع عظم شأنه وقلة هذا غياث الدين لايذكره الا بموالانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلة بلاده وأما ابن خرميل فانه سار من هراة فى جمع من عسكر خوارزم شاه فنزل على اسفزار فى صفر وكان صاحبها قد توجه الى غياث الدين فحصرها وأرسل الى من بها يقسم بالله لئن سلموها أن يؤمنهم وان امتنعوا أقام عليهم الى أن يأخذهم فاذا أخذهم قهرا لايبقى على كبير ولا صغير فخافوا فسلموها فى ربيع الاول فامنهم ولم يتعرض الى أهلها بسوء فلما أخذها ارسلها الى حرب بن محمد صاحب سجستان يدعوه الى طاعة خوارزم شاه والخطبة له ببلاده فأجابه الى ذلك وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك فى الخطبة والدخول فى طاعته فغالطه ولم يجبه الى ماطلب ولما كان خوارزم شاه على هراة عاد اليها القاضى صاعد بن الفضل الذى كان بن خرميل قد أخرجه من هراة فى العام الماضى وسار الى غياث الدين فعاد الآن من عنده فلما وصل قال ابن خرميل لخوارزم شاه ان هذا يميل الى الغورية ويريد دولتهم ووقع فيه فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن وولى القضاء بهراة الصنى أبا بكر بن محمد السرخسى وكان ينوب عن صاعد وابنه فى القضاء بهراة

(ذكر حال غياث الدين مع الدزوايبك)

لما عاد الدز الى غزنة واسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كما ذكرناه وكتب اليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له فأجابه فى هذه المدة أشد منه فيما تقدم فأعاد غياث الدين اليه يقول اما ان تخطب لنا واما ان تعرفنا ما فى نفسك فلما وصل الرسول بهذا احضر خطيب غزنة وأمره بخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين فخطب لتاج الدين الدز بغزنة فلما سمع الناس ذلك ساءهم وتغيرت نياتهم ونيات الاتراك الذين معه ولم يروا هلا ان يخدموه وانما كان يطيعونه ظنا منهم انه ينصر دولة غياث الدين فلما خطب لنفسه أرسل الى غياث الدين يقول له بماذا تشترط على وتتحكم هذه الخزانة نحن جمعناها باسيافنا وهذا الملك قد أخذته وانت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة واقطعتهم الاقطاعات ووعدتنى بأمور لم تف بها فان أنت اعتقتنى خطبت لك وحضرت خدمتك فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين الى عتق الدز بعد الامتناع الشديد والعزم على مصالحة خوارزم شاه على مايريد وقصد غزنة ومحاربته بها فلما أجابه الى العتق أشهد عليه به وأشهد عليه أيضا بعتق قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند وأرسل الى كل واحد منهما ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفا كثيرة وجترين ومائة رأس من الخيل وأرسل الى كل واحد منهما رسولا فقبل الدز الخلع ورد الجتر وقال نحن عبيد ومماليك والجتر له أصحاب وسار رسول أيبك اليه وكان بفرشابور وقد ضبط المملكة وحفظ البلاد ومنع المفسدين من الفساد والاذى والناس معه فى أمن فلما قرب الرسول منه لقيه على بعد وترجل وقبل حافر الفرس ولبس الخلعة وقال اما الجتر فلا يصلح للمماليك واما العتق فمقبول وسوف أجازيه بعبودية الابد وأما خوارزم شاه فانه أرسل الى غياث الدين يطالب منه ان يتصاهر او يطلب منه ابن خرميل صاحب هراة الى طاعته ويسير معه

بعين المرجو والمخوف * ووجدت خاصته سوقا للاطماع * بعلة الابتداع * فاستزبنوا الناس * واستفتحوا الاكياس * فمن الطمنهم بمكايس * رمى بفساد معتقده * أو يعطى الجزية عن يده * وغبرت على هذه الجملة سنون لامطمع لاحد فى تبديل شكلها * وتحويل فادح الحال عن اهلها * ولا علم لهم بأن الزمان بتغيير الاحوال ضمين * وبانخلاف عن صورة المعتاد رهين * ومن صبر على الايام رأى الرفيع وضيعا * والضليع ضريعا * وشاهد عن سموم القيظ صرا كالحا وصقيعا * واتفق للقاضى ابى العلاء صاعد بن محمد ان حج بيت الله الحرام سنة اثنتين واربعمائة وهو الامام المرموق * والزاهد الموموق * والفاضل الجزل * والبازل الفحل * قضى اكثر عمره على الحظ النفيس * من نشر الدرس والتدريس * تتطفل عليه الاعمال نيابا * وتنصب اليه الاعراض فيرى الخيار فيما عداها * ومن حاز شرف العلم لم يشتر به ثمنا قليلا * ولم يعدل به حظا وان كان جليلا * فلما حصل بدار السلام وانهى الى

في العساكر الى غزنة فاذا ملكها من الدز اقتسموا المال اثلاثا ثلثا لخوارزمشاه وثلثا لغياث الدين وثلثا للعسكر فأجابه الى ذلك ولم يبق الا الصلح فوصل الخبر الى خوارزمشاه بموت صاحب مازندران فسار عن هراة الى مرو وسمع الدز بالصلح فجزع لذلك جزعا عظيما ظهر أثره عليه وأرسل الى غياث الدين يقول له ما حملك على هذا فقال حملني عليه عصيانك وخلافك على فسار الدز الى تكيناباذ فأخذها والى بست وتلك الاعمال فملكها وقطع خطبة غياث الدين منها وأرسل الى صاحب سجستان يأمره باعادة الترحم على شهاب الدين وقطع خطبة خوارزمشاه وأرسل الى ابن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهددهما بقصد بلادهما فخافه الناس ثم ان الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس مع أيد كز التتر مملوك شهاب الدين الى باميان ليعيدوه الى ملكه ويزيلون بن عمه عنه وزوجها ابنته وسار ومعه ايد كز فلما خلا به لامه على لبسه خلعة الدز وقال أنتم ما رضيتم تلبسون خلعة غياث الدين وهو أكبر سنا منكم وأشرف بيتا تلبس خلعة هذا المأبون يعني الدز ودعاه الى العود معه الى غزنة واعلمه ان الاتراك كلهم مجمعون على خلاف الدز فلم يجبه الى ذلك فقال ايد كز فانني لا أسير معك وعاد الى كابل وهي اقطاعه فلما وصل ايد كز الى كابل لقيه رسول من قطب الدين ايبك الى الدز يقبح له فعله ويأمره باقامة خطبة غياث الدين ويخبره انه قد خطب له في بلاده ويقول له ان لم يخطب له هو أيضا بغزنة ويعود الى طاعته والا قصده وحاربه فلما علم ايد كز ذلك قويت نفسه على محاربة الدز وصمم العزم على قصد غزنة ووصل ايضا رسول ايبك الى غياث الدين بالهدايا والتحف ويشير باجابة خوارزمشاه الى ما طلب الآن وعند الفراغ من أمر غزنة تسهل أمور خوارزمشاه وغيره وأنفذ له ذهبا عليه اسمه فكتب ايد كز الى ايبك يعرفه عصيان الدز على غياث الدين وما فعله في البلاد وانه على عزم مشاقة الدز وهو ينتظر أمره فأعاد ايبك جوابه يأمره بقصد غزنة فان حصلت له القلعة أقام بها الى أن يأتيه وان لم تحصل له القلعة وقصده الدز انحاز اليه او الى غياث الدين او يعود الى كابل فسار الى غزنة وكان جلال الدين قد كتب الى الدز يخبره خبر ايد كز وما عزم عليه فكتب الدز الى نوابه بقلعة غزنة يأمرهم بالاحتياط منه فوصلها أيد كز أول رجب من السنة وقد حذره فلم يسلموا اليه القلعة ومنعوه عنها فأمر أصحابه بنهب البلد فنهبوا عدة مواضع منه فتوسط القاضي الحال بأن سلم اليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية وأخذ له من التجار شيأ آخر وخطب ايد كز بغزنة لغياث الدين وقطع خطبة الدز ففرح الناس بذلك وكان مؤيدا الملك ينوب عن الدز بالقلعة ووصل الخبر الى الدز بوصول ايد كز الى غزنة ووصول رسول ايبك اليه فقت في عضده وخطب لغياث الدين في تكيناباذ واسقط اسمه من الخطبة فخطب له ورحل الى غزنة فلما قاربها رحل ايد كز عنها الى بلد الغور فاقام في تمران وكتب الى غياث الدين يخبره بحاله وأنفذ اليه المال الذي أخذه من الخزانة ومن اموال الناس فارسل اليه خلعا واعتقه وخاطبه بملك الامراء وردّ عليه المال الذي كان اخذه من الخزانة وقال له اما مال الخزانة فقد أعدناه اليك لتخرجه وأما أموال التجار واهل البلد فقد ارسلته مع رسولي ليعاد الى أربابه لئلا نفتتح دولتنا بالظلم وقد عوضتك عنه ضعفه وأرسل أموال الناس الى غزنة الى قاضي غزنة وأمره ان

القادر بالله امير المؤمنين خبره في حج بيت الله الحرام * قوبل بمقتضى حقه في الاسلام * من واجب الاثرة والاكرام * وظاهر التوقير والاعظام * وعضد بالكتاب الى السلطان فيما تقرر من حاله * وفي مهمات أوجب الاحتياط شرحها على لسان مقاله * فلما عاد من وجهه * شخص الى حضرة السلطان بغزنة فعرض ما صحبه وقرر ما تحمله * وادى من حق الامانة ما لزمه * وبها الاستاذ ابو بكر محمد بن اسحق فجرى في مجلسه ذكر الكرامية واطلاقهم القول بالتجسيم * وتعريض الله تعالى لما لا يليق بذاته الكريم * فأنف السلطان لهذه الشنعاء من مقالهم * والعوراء من فحوى جدالهم * ودعا السلطان أبا بكر ساتلا عنه * وباحثا صورة الحال منه * فأنكر أبو بكر اعتقاد ما نسب اليه * وأظهر البراءة مما احيل به عليه * فسلم مع الانكار * عن مس العتب والانكار * فأما الباقون فان الكتب من السلطان نفذت الى العمال في تقديم الاستقصاء عليهم فمن اظهر البراءة عن قوله الشنيع * واعتقاده الموجب للتبديع * ترك وشأنه من

يرد المال المنفذ على اربابه فانهى القاضى الحال الى الدز وأشار عليه بالخطبة لغياث الدين وقال أنا اسعى فى الوصلة بينكما والصلح فاعرره بذلك فبلغ الخبر الى غياث الدين فارسل الى القاضى ينهاه عن المجىء اليه وقال لا تسأل فى عبد أبق قد بان فساده واتضح عناده فاقام بغزنة هو والدز وسير غياث الدين عسكرا الى اى دكز الترفاقاموا معه وسير الدز عسكرا الى روين كان وهى لغياث الدين وقد أقطعها البعض الامراء فهجموا على صاحبها فنهبوا ماله وأخذوا أولاده فنجا وحده الى غياث الدين فاقتضى الحال ان سار غياث الدين الى بست وتلك الولاية فاسترد ها وأحسن الى أهلها واطلق لهم خراج سنة لما نالهم من الدز من الاذى

﴿ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده﴾

فى هذه السنة توفى حسام الدين اردشير صاحب مازندران وخلف ثلاثة اولاد فملك بعده ابنه الاكبر واخرج أخاه الاوسط من البلاد فقصد جرجان وبها الملك على شاه بن خوارزم شاه تكش أخو خوارزم شاه محمد وهو ينوب عن أخيه فيها فشكا اليه ما صنع به اخوه من اخراجه من البلاد وطلب منه أن ينجده عليه ويأخذ له البلاد ليكون فى طاعته فكتب على شاه الى أخيه خوارزم شاه فى ذلك فامره بالمسير معه الى مازندران وأخذ البلاد له واقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها فساروا عن جرجان فاتفق ان حسام الدين صاحب مازندران مات فى ذلك الوقت وملك البلاد بعده أخوه الاصغر واستولى على القلاع والاموال فوصل على شاه البلاد ومعه صاحب مازندران فنهبوها وخربوها وامتنع منهم الاخ الصغير بالقلاع وأقام بقلعة كوراو هى التى فيها الاموال والذخائر وحصره فيها بعد أن ملكوا اسامة البلاد مثل سارية وآمل وغيرها من البلاد والحصون وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها فصارت فى طاعته وعاد على شاه الى جرجان واقام ابن ملك مازندران فى البلاد مالكها جميعها سوى القلعة التى فيها أخوه الاصغر وهو يراسله ويستميله ويستعطفه وأخوه لا يرد جوابا ولا ينزل عن حصنه

﴿ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة انطاكية﴾

فى هذه السنة ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وبلد الروم مدينة انطاكية بالامان وهى للروم على ساحل البحر وسبب ذلك انه كان حصرها قبل هذا التاريخ وأطال المقام عليها وهدم عدة ابراج من سورها ولم يبق الا فتحها عنوة فارسل من بها من الروم الى الفرنج الذين بجزيرة قبرس وهى قريبة منها فاستنجدوهم فوصل اليها جماعة منهم فعند ذلك يئس غياث الدين منها ورحل عنها وترك طائفة من عسكره بالقرب منها بالجبال التى بينها وبين بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها فاستمر الحال على ذلك مدة حتى ضاق باهل البلد واشتد الامر عليهم فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم فظن الفرنج ان الروم يريدون اخراجهم من المدينة بهذا السبب فوقع الخلاف بينهم فاقتتلوا فارسل الروم الى المسلمين وطلبوهم ليسلموا اليهم البلد فوصلوا اليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج فانهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به فارسل المسلمون يطلبون غياث الدين وهو بمدينة قونية فسار اليهم مجدا فى طائفة من عسكره فوصلها ثانى شعبان وتقرر الحال بينه وبين الروم وتسلم المدينة ثالثه وحصر الحصن الذى فيه الفرنج وتسلمه وقتل كل من كان به من الفرنج

عقد المجالس للتدريس ونشر ف المنابر للتذكير
ومن أصر على دعواه * ولم يحتر لنفسه سواه * جعل
مغناه عليه حصيرا * ورد لسانه دون الفضول قصيرا *
وخلع السلطان على القاضى أبى العلاء * خلعة لائقة
بجلالة قدره * وزخارة بحره * ورعاية أمير المؤمنين
لحقه وايعازه بتمهيد أمره * وصرف كلامنهما
على جملة الاستئناس *
والتفخيم على أعين الناس *
ولم تزل غصة القول بالتجسيم
ناشبة فى صدر أبى بكر
يصارع الايام على نهزة
المكافأة بها الى أن استتب
له الامر فى عقد محضر على
انتحاله مذهب الاعتزال
وتنجز خطوط قوم من
الاعيان سلكوا فيه طريق
المساعدة * وتنفسوا به عن
وغرة المنافسة * فغيظ ما لا
يطاق داء دخيل * وهم
على صدر النفوس ثقيل *
واحتيل فى عرض المحضر
على السلطان استفسادا
لصورته لديه * فوقع التدبير
موقعه من الاحتياط عليه
فرأى السلطان أن يبحث

(ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين الى خلاط وعوده)
وفى هذه السنة قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان وكتب اهل خلاط الى ناصر الدين ارتق بن ايلغازى بن أبى بن تمرتاش بن ايلغازى بن ارتق يستدعونه اليها وسبب ذلك ان ولد بكتمر كان صبيا جاهلا فقبض على الامير شجاع الدين قتلغ مملوك من مماليك شاه أرمن وهو كان أتابكه ومدبر بلاده وكان حسن السيرة مع الجند والرعية فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة واشتغل هو باللهو واللعب وادمان الشرب فكاتب جماعة من اهل خلاط وجماعة من الجند ناصر الدين صاحب ماردين يستدعونه اليهم وانما كاتبوه دون غيره من الملوك لان اباه قطب الدين ايلغازى كان ابن أخت شاه ارمن ابن سكمان وكان شاه ارمن قد حلف له الناس فى حياته لانه لم يكن له ولد فلما تجددت بعده هذه الحادثة تذاكروا تلك الايمان وقالوا نستدعيه ونملكه فانه من أهل شاه أرمن فكاتبوه وطلبوه اليهم ثم ان بعض مماليك شاه ارمن اسمه بلبان وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان سار من خلاط الى بلاد ملازكرد وملكها واجتمع الاجناد عليه وكثر جمعه وسار الى خلاط فملكها واتفق وصول صاحب ماردين اليها وهو يظن ان أحدا لا يمتنع عليه ويسلمون اليه المدينة فنزل قريبا من خلاط عدة ايام فارسل اليه بلبان يقول له ان اهل خلاط قد اتهموني بالميل اليك وهم ينفرون من العرب والرأى انك ترحل عائدا مرحلة واحدة وتقيم فاذا تسلمت البلد سلمته اليك لانى لا يمكننى ان أملكه انا ففعل صاحب ماردين ذلك فلما أبعد عن خلاط ارسل اليه يقول له تعود الى بلدك والا جئت اليك وأوقعت بك وبمن معك وكان فى قلة من الجيش فعاد الى ماردين وكان الملك الاشرف موسى بن العادل ابى بكر بن أيوب صاحب حران وديار الجزيرة قد ارسل الى صاحب ماردين لما سمع انه يريد قصد خلاط يقول له ان سرت الى خلاط قصدت بلدك وانما خاف أن يملك خلاط فيقوى عليهم فلما سار الى خلاط جمع الاشرف العساكر وسار الى ولاية ماردين فاخذ خلها وأقام بديار بكر حتى تجبى الاموال اليه فلما فرغ منه عاد الى حران فكان مثل صاحب ماردين كما قيل خرجت تطلب قرنين عادت بلا أذنين وأما بلبان فانه جمع العسكر وحشد وحصر خلاط وضيق على اهلها وبها ولد بكتمر فجمع من عنده بالبلد من الاجناد والعامة وخرج اليه فالتقوا فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه وعاد الى الذى بيده من البلاد وهو ملازكرد وأرجيش وغيرهما من الحصون وجمع العساكر واستكثر منها وعاود حصار خلاط وضيق على أهلها فاضطرهم الى خذلان ولد بكتمر لصغره وجهله بالملك واشتغاله بلهوه ولعبه ثم قبضوا عليه فى القلعة وأرسلوا الى بلبان وحلفوه على ما أرادوا وسلموا اليه البلد وابن بكتمر واستولى على جميع أعمال خلاط وسجن ابن بكتمر فى قلعة هناك واستقر ملكه فسبحان من اذا أراد امرا هيأ أسبابه بالامس يقصدها شمس الدين محمد بن البهلوان وصلاح الدين يوسف بن أيوب فلم يقدر احدهما عليها والآن يظهر هذا المملوك العاجز القاصر عن الرجال والبلاد والاموال فيملكها صفوا عفوا ثم ان نجم الدين أيوب بن العادل صاحب ميافارقين سار نحو ولاية خلاط وكان قد استولى على عدة حصون من أعمالها منها حصن موسى ومدينته فلما قارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته فطمع

واوغل

عن صورة المرفوع اليه
فى احقاق من صور * أو
ابطال من زور * أنهض
قاضى قضاته * وأوحد
ثقاته * أبا محمد الناصحى من
لم يشركه أحد فى اصطناعه *
والجذب الى العلياء بباعه *
فانه استخصه على طراءة
شبابه لخلتين قلما توجدان
فى قرح الاسنان * فضلا
عن أحداث الفتيان
والشبان * وهما العلم
والورع اخوان دونهما الدر
بالياقوت * والصحة بكفاف
القوت * وأقعده بغرفة دار
الملك للتدريس والفتوى *
واصباح الناس من ساطع
نوره فى الفتوى * حتى اذا
بهر كماله * وطفح بالفضائل
مكياله * ولاه القضاء على
القضاة فى عامة ديار مملكه
ثقة بقوته وامانته * وورعه
ونزاهته * فتولاه بنفس
كصفحة الشمس طهارة
ونقاء * أو روضة الحزن ديمتها
السماء عشاء * وأمره ان
يستحضر القاضى أبا العلاء
صاعدا وأبا بكر الاستاذى
وجوه الرئوث وأعيان
الشهود ويطالب باقامة
الشهادة على الدعوى

وأوغل فى القرب فاخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه ولم يفلت من أصحابه الا القليل وهم جرحى وعاد الى ميافارقين

﴿ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج﴾

فى هذه السنة ملك الكرج حصن قرس من أعمال خلاط وكانوا قد حصروه مدة طويلة وضيقوا على من فيه وأخذوا دخل الولاية عدة سنين وكل من نزل خلاط لا ينجدهم ولا يسعى فى راحة تصل اليهم وكان الوالى بها يواصل رسله فى طلب النجدة واراحة من عليه من الكرج فلا يجاب لدعاء فلما طال الامر عليه ورأى ان لا ناصر له صالح الكرج على تسليم القلعة على مال كثير واقطاع يأخذه منهم وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد فانا لله وانا اليه راجعون ونسأل الله أن يسهل للاسلام وأهله نصرا من عنده فان ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد ثم ان الله تعالى نظر الى قلة ناصر الاسلام فتولاه فأماتت ملكة الكرج واختلفوا فيما بينهم وكفى الله شرهم الى آخر السنة

﴿ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان﴾

فى هذه السنة فى رمضان سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر وهو كان المتولى لتلك الاعمال وليها بعد موت طاشتكين أمير الحاج لانه زوج ابنة طاشتكين الى جبال كرستان وصاحبها يعرف بابى طاهر وهى جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان فقاتلوا أهلها وعادوا منهزمين وسبب ذلك ان مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من اكابر مماليكه كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوى الرازى واحتاز بخوزستان وأخذ منها ما أمكنه ولحق بابى طاهر صاحب كرستان فاكرمه وعظمه وزوجه ابنته ثم توفى أبو طاهر فقوى أمر قشتمر واطاعه اهل تلك الولاية فامر سنجر بجمع العساكر وقصده وقتاله ففعل سنجر ما أمر به وجمع العساكر وسار اليه فارسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يقصده ويخرج الى الخروج عن العبودية فلم يقبل عذره فجمع أهل تلك الاعمال ونزل الى العسكر فالتقيهم فهزمهم وأرسل الى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين ايتغمش صاحب أصبهان وهمذان والرى يعرفهما الحال ويقول انى لا قوة لى بعسكر الخليفة لما أضيف اليهم عساكر أخرى من بغداد وعادوا الى حربى وحينئذ لا أقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوفهما من عسكر الخليفة ان ملك تلك الجبال فاجاباه الى ما طلب فقوى جنانه واستمر على حاله

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قتل صبى صبيا آخر ببغداد وكانا يتعاشران وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة فقال أحدهما للآخر الساعة أضربك بهذه السكين يمازحه بذلك وأهوى نحوه بها فدخلت فى جوفه فمات فهرب القاتل ثم احضر وأمر به ليقتل فلما أراد قتله طلب دواة وبياضا وكتب فيها من قوله

قدمت على الكريم بغير زاد * من الاعمال بل قلب سليم
وسوء الظن ان تعتد زادا * اذا كان القدوم على كريم

وفيها توفى برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مازة البخارى رئيس الحنفية

المذكورة على رؤس الملا من غير محاشاة * أو جنوح الى مداهنة ومحاباة * فقابل الامر بالامتثال * وتجافى من حرمة العلم لحشمة الملك وهيبة الجلال * وسأل ارباب الخطوط عما عندهم من قضية الحال * وجلية المقال * فأما أبو بكر فانه اراد أن يتلافى بانى الخطب فزعم أن الاشتراك فى رتبة العلم أحدث بينهما منافسة تنازعا معها مذهبى التجسيم والاعتزال فلا صح ما نسبنى اليه * ولا تقر ما ادعيته عليه * وأما الآخرون فمن جار على حكم المساعدة * فى المحاباة والمهاودة * ومن حاد لئام الاحتشام فى التصريح * واطلاق الدعوى باللفظ الفصيح * مكاشفة عدت الشهادة الى التعصب * وجاوزت حد المعلوم الى التغضب * وفى ذلك وجوه اهل الرأى حتى كادت تثور فتنة لولا أن هيبة السلطان أجرت الالسن الطوال * وضربت على النفوس التطامن والانخزال * وتلطف قاضى القضاة

بخارا وهو كان صاحبها على الحقيقة يؤدى الخراج الى الخطا وينوب عنهم فى البلد فلما جاج لم تحمد سيرته فى الطريق ولم يصنع معروفا وكان قد اكرم ببغداد عند قدومه من بخارا فلما عاد لم يلتفت اليه لسوء سيرته مع الحاج وسماه الحجاج صدر جهنم وفيها فى شوال مات شيخنا أبو الحرم مكى بن ريان بن شبة النحوى المقرى بالموصل وكان عارفا بالنحو واللغة والقراآت لم يكن فى زمانه مثله وكان ضريرا وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة حسنة وكان من خيار عباد الله وصالحيهم كثير التواضع لا يزال الناس يشتغلون عليه من بكرة الى الليل وفيها فارق أمير الحاج مظفر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرخوم ومضى فى طائفة من أصحابه الى الشام وسار الحاج ومعهم الجند فوصلوا سالمين ووصل هو الى الملك العادل أبى بكر بن أيوب فأقطعه اقطاعا كثيرا بمصر وأقام عنده الى أن عاد الى بغداد سنة ثمان وستمائة فى جمادى الاولى فانه لما قبض الوزير أمن على نفسه وأرسل يطلب العود فأجيب اليه فلما وصل اكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة وفيها فى جمادى الآخرة توفى أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الاسكندرانى المعروف بابن النطرونى فى مارستان بغداد وكان قد مضى الى الماوردى فى رسالة بافريقية فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربية ففرقها جميعها فى بلده على معارفه وأصدقائه وكان فاضلا خيرا نعم الرجل رحمه الله وله شعر حسن وكان قيما بعلم الادب وأقام بالموصل مدة واشتغل على الشيخ ابى الحرم واجتمعت به كثيرا عند الشيخ ابى الحرم رحمه الله

﴿ثم دخلت سنة اربع وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزم شاه ما وراء النهر وما كان بخراسان من الفتن واصلاحها﴾

فى هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا وسبب ذلك ان الخطا كانوا قد طالت ايامهم ببلاد تركستان وما وراء النهر وثقلت وطأتهم على اهلها ولهم فى كل مدينة نائب يجبى اليهم الاموال وهم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا وكان مقامهم بنواحى اوزكند وبلاساغون وكاشغر وتلك النواحى فاتفق ان سلطان سمرقند وبخارا ويلقب خان خانان يعنى سلطان السلاطين وهو من أولاد الخانية عريق النسب فى الاسلام والملك أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين فارسل الى خوارزم شاه يقول له ان الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدى الكفار وتخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم فى الاموال والابشار ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل اليك ما نحمله اليهم وتذكر اسمك فى الخطبة وعلى السكة فاجابه الى ذلك وقال أخاف انكم لا توفون لى فسير اليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارا وسمرقند بعد أن حلفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمنه وضمنوا عنه الصدق والثبات على ما بذل وجعلوا عنده رهائن فشرع فى اصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها فولى أخاه على شاه طبرستان مضافة الى جرجان وأمره بالحفظ والاحتياط وولى الامير ركن الدين خان وهو من اقارب أمه واعيان دولته نيسابور وجعل معه عسكرا وولى الامير جلال الدين مدينة الخام وولى الامير أمين الدين ابا بكر مدينة زوزن وكان هذا أمين الدين حاما لاتم صار اكبر الامراء وهو الذى ملك

كرمان

لعرض الحال * وتقرير صورة المحال * واتفق أن تحين الامير أبو المظفر نصر ابن ناصر الدين فى مجلس السلطان فرصة القول فى باب القاضى أبى العلاء صاعد فنبه على سمته وسماه وأنبأ عن ورعه وتقواه * والتمس على سبيل التلطف أن يقع تلاف للغضاضة به وتدارك للمهانة الطارئة عليه يعرف من تصدى لمكاشفته * وتعرض لاستفسار مكاتبته * فوثق به السلطان فيما قال * وحدث ان صاعدا اجل من أن يعتقد الاعتزال * وأمر باشخاص من انتدب لمراغمته * ومقابلته بما اقتضاه حكم وقاحته * واستحاس القاضى قرارة بيته * فلم يكن يبرز الا الفرض يقضيه * أو علم يمليه * مجتزئا بالله تعالى جده عن غيره * ومقتنعا بما ادره عليه من خيره * ورأى ان بقية العمر أعز من ان تضاع على القيل والقال * وخدمة فضول الآمال * ومزاولة ما يصم قدر العلم بالابتذال * واستتاب ولده له كالفرقدين

كرمان على ماذكره ان شاء الله تعالى وأقر الامير الحسين على هراة وجعل معه فيها ألف فارس من الخوارزمية وصالح غياث الدين محمودا على ما بيده من بلاد الغور وكرمسير واستناب في مرو وسرخس وغيرهما من خراسان نوابا وأمرهم بحسن السياسة والحفظ والاحتياط وجمع عساكره جميعها وسار الى خوارزم ويتجهز منها وعبر جيحون واجتمع بسلطان سمرقند وسمع الخطا فحشدوا وجمعوا وجاؤا اليه فجرى بينهم وقعات كثيرة ومغاورات فتارة له وتارة عليه

﴿ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه﴾

ثم ان ابن خرميل صاحب هراة رأى سوء معاملة عسكر خوارزمشاه للرعية وتعديهم الى الاموال فقبض عليهم وحبسهم وبعث رسولا الى خوارزمشاه يعتذر ويعرفه ما صنعوا فعظم عليه ولم يمكنه مجاهرته لاشتغاله بقتال الخطا فكتب اليه يستحسن فعله ويأمره بانفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته اليهم وقال له انني قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل صاحب الخام أن يكون عندك لما أعلمه من عقله وحسن سيرته وارسل الى جلدك يأمره بالمسير الى هراة وأسر اليه أن يحتال في القبض على حسين بن خرميل ولو أول ساعة يلقاه فسار جلدك في ألفي فارس وكان أبو طغرل ايام السلطان سنجر واليا بهراة فهو اليها بالاشواق يختارها على جميع خراسان فلما قارب هراة أمر ابن خرميل الناس بالخروج بتلقيه وكان للحسين وزير يعرف بخواجه الصاحب وكان كبيرا قد حنكته التجارب فقال لابن خرميل لا تخرج الى لقائه ودعه يدخل اليك منفردا فانني أخاف ان يغدر بك وان يكون خوارزمشاه أمر بذلك فقال لا يجوز أن يقدم مثل هذا الامير ولا التقيه وأخاف ان يضطغن ذلك علي خوارزمشاه وما اظنه يتجاسر على ذلك فخرج اليه الحسين بن خرميل فلما ابصر كل واحد منهما بصاحبه ترجل للالتقاء وكان جلدك قد أمر اصحابه بالقبض عليه فاختلطوا بهما وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه وقبضوا عليه فانهزم اصحابه ودخلوا المدينة واخبروا الوزير بالحال فامر باغلاق الباب والطلوع الى الاسوار واستعد للحصار ونزل جلدك على البلد وأرسل الى الوزير يبذل له الامان ويتهدده ان لم يسلم البلد بقتل ابن خرميل فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغوري وقال لجلدك لا أسلم البلد اليك ولا الى الغادر ابن خرميل وانما هو لغياث الدين ولابيه قبله فقدموا ابن خرميل الى السور وخاطب الوزير وأمره بالتسليم فلم يفعل فقتل ابن خرميل وهذه عاقبة الغدر فقد تقدم من أخباره عند شهاب الدين الغوري ما يدل على غدره وكفرانه الاحسان ممن أحسن اليه فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك الى خوارزمشاه بجلية الحال فانفذ خوارزمشاه الى كزلك خان والى نيسابور والى أمين الدين ابي بكر صاحب زوزن يأمرهم بالمسير الى هراة وحصارها وأخذها فساروا في عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة وراسلوا الوزير بالتسليم فلم يلتفت اليهم وقال ليس لكم من المحل ما يسلم اليكم مثل هراة لكن اذا وصل السلطان خوارزمشاه سلمتها اليه فقاتلوه وجدوا في قتاله فلم يقدروا عليه وكان ابن خرميل قد حصن هراة وعمل لها أربعة اسوار محكمة وحفر خندقها وشحنها بالميرة فلما فرغ من كل ما أراد قال بقيت اخاف على هذه المدينة شيأ واحدا وهو ان تسكر المياه التي لها اياما كثيرة ثم ترسل دفعة واحدة فتخرق اسوارها فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل فسكروا

أو الشعريين * أبا الحسن وابا سعيد شريكي عنان في المروة والفتوة * ورضيعي لبان في أوامر النبوة * وأحكام آيات الله المتلوة * في قضاء الواجب * واحتمال النوائب * فعفا له عن حقوق الناس * وفرغ لعلم النظر والقياس * وحظي بمثل ما أنبأ عنه ابو الفتح البستي من حاله

قد جمع الله أربعا لي
فيهن عزي وحسن حالي
بلاغ علم مساغ شرب
ورفاغ عيش فراغ بال

نعم واطلق عادي الايام على نباهة أبي بكر وارتفاع مكانته * واتساع حشمته ومهابته * وانبساط أيدي حاشيته * في اموال واعراض اهل ناحيته * واستمرار العناد بينه وبين أعيان الاشراف في جيرته * ألسن الجمهور بحضرة السلطان بما طغى من حاله * وبغى من جرح خباله * ادلالا بأفاعيله * واعتمادا بزعمه على ما سبق العلم به من خلوص ضميره ورشاد سبيله * فتداركه الاحتمال * مدة من الزمان

المياه حتى اجتمعت كثيرا ثم أطلقوها على هراة فاحاطت بها ولم تصل الى السور لان ارض المدينة مرتفعة فامتلأ الخندق ماء وصار حولها وحل فانتقل العسكر عنهم ولم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة وهذا كان قصد ابن خرميل أن يمتلئ الخندق ماء ويمنع الوحل من القرب من المدينة فاقاموا مدة حتى نشف الماء فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل ونعود الى قتال خوارزمشاه انلطا وأسره واما خوارزمشاه فانه دام القتال بينه وبين الخطائي بعض الايام اقتتلوا واشتد القتال ودام بينهم ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة وأسر كثير منهم وقتل كثير وكان من جملة الاسرى خوارزمشاه وأسر معه امير كبير يقال له فلان بن شهاب الدين مسعود أسرهما رجل واحد ووصلت العساكر الاسلامية الى خوارزم ولم يروا السلطان معهم فارسلت اخت كزلك خان صاحب نيسابور وهو يحاصر هراة وأعلمته الحال فلما اتاه الخبر سار عن هراة ليلا الى نيسابور واحمى به الامير أمين الدين أبو بكر صاحب زوزن فاراد هو ومن عنده من الامراء منعه مخافة أن يجرى بينهم حرب يطمع بسببها اهل هراة فيهم فيخرجون اليهم فيبلغون منهم ما يريدونه فامسكوا عن معارضته وكان خوارزمشاه قد خرب سور نيسابور لما ملكها من الغورية فشرع كزلك خان يعمره وادخل اليها الميرة واستكثر من الجند وعزم على الاستيلاء على خراسان ان صح فقد السلطان وبلغ خبر عدم السلطان الى أخيه علي شاه وهو ببطبرستان فدعا الى نفسه وقطع خطبة اخيه واستعد لطلب السلطنة واختلطت خراسان اختلاطا عظيما وأما السلطان خوارزمشاه فانه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود يجب ان تدع السلطنة في هذه الايام وتصير خادما لعلي احتال في خلاصك فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه ويخفه ويعظمه فقال الرجل الذي اسرهما لابن مسعود أرى هذا الرجل يعظمك فمن أنت فقال أنا فلان وهذا غلامي فقام اليه واكرمه وقال لولا ان القوم عرفوا بمكانك عندي لاطلقتك ثم تركه اياما فقال له ابن مسعود اني أخاف ان يرجع المنهزمون فلا يرانى أهلي معهم فيظنون اني قتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالي فاهلك واحب أن تقرر على شيأ من المال حتى احمله اليك فقرر عليه مالا وقال له اريد أن تأمر رجلا عاقلا يذهب بكتابي الى اهلي ويخبرهم بعافيتي ويحضر معه من يحمل المال ثم قال ان اصحابكم لا يعرفون اهلنا ولكن هذا غلامي اثق به ويصدقه اهلي فاذن له الخطائي بانفاذه فسيره وأرسل معه الخطائي فرسا وعدة من الفرسان يحمونه فساروا حتى قاربوا خوارزم وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ووصل خوارزمشاه الى خوارزم فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الاخبار بما صنع كزلك بنيسابور وبما صنع أخوه علي شاه ببطبرستان

﴿ذكر ما فعله خوارزمشاه بخراسان﴾

لما وصل خوارزمشاه الى خوارزم اتته الاخبار بما فعله كزلك خان وأخوه علي شاه وغيرهم فسار الى خراسان وتبعته العساكر فقطعت ووصل هوالها في اليوم السادس ومعه ستة فرسان وبلغ كزلك خان وصوله فاخذ أمواله وعساكره وهرب نحو العراق وبلغ اخاه علي شاه نخافه وسار على طريق قهستان ملتجئا الى غياث الدين محمود الغوري صاحب فيروزكوه

مديدة محافظة على الصنيعة من الانتزاع * والعارفة من الارتجاع * وابقاء على المحل المرموق في الله من ان يلم به الحطاط * أو ينحل له رباط * حتى اذا جاوز الاحتمال حده * وامتنع المستزاد بعده * عقد السلطان ولاية نيسابور لابي علي الحسن بن محمد بن العباس وقد كان جده في ملوك آل سامان مجدودا * وفي جملة الاعيان والسناء معدودا * وأثره فيما بين آثار الرجال محمودا * ووافق أبوه ايام السلطان * أول مقدمه خراسان * وانتصابه منصب اصحاب الجيوش بها لآل سامان * فانجبل خلقاهما على مناسبة الاشتراك ومتابعة الشباب * وعرف السلطان له حق الخدمة والاصطحاب * غير انه اعتبط في شبابه فعاد كما بدا

كل امرئ يوما مداه الى الردى
وكان يضرب أبا نصر احمد ابن مكال بقرابة * واواصر مستجابة * فنشأ في جملته نشأة المقبل * وخرج خروج

فتلقاه واكرمه وانزله عنده وأما خوارزمشاه فانه دخل نيسابور وأصلح امرها وجعل فيها نائبا وسار الى هراة فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه واحسن الى أولئك الامراء ووثق بهم لانهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا ولم يبلغوا من هراة غرضا بحسن تدبير ذلك الوزير فارسل خوارزمشاه الى الوزير يقول له انك وعدت عسكري انك تسلم المدينة اذا حضرت وقد حضرت فسلم فقال لا أفعل لانى اعرف انكم غدارون لا تبقون على احد ولا أسلم البلد الا الى غياث الدين محمود فغضب خوارزمشاه من ذلك وزحف اليه بعساكره فلم يكن فيه حيلة فاتفق جماعة من اهل هراة وقالوا اهلك الناس من الجوع والقلة وقد تعطلت علينا معايشنا وقد مضى سنة وشهر وكان الوزير بعد تسليم البلد الى خوارزمشاه اذا وصل اليه وقد حضر خوارزمشاه ولم يسلم ويجب ان نحتال فى تسليم البلد والخلاص من هذه الشدة التى نحن فيها فانتهى ذلك الى الوزير فبعث اليهم جماعة من عسكره وامرهم بالقبض عليهم فمضى الجند اليهم فثارت فتنة فى البلد عظم خطبها فاحتاج الوزير الى تداركها بنفسه فمضى لذلك فكتب من البلد الى خوارزمشاه بالخبر وزحف الى البلد واهله مختلطون فخربوا برجين من السور ودخلوا البلد فملكوه وقبضوا على الوزير فقتله خوارزمشاه وملك البلد وذلك سنة خمس وستمائة واصلح حاله وسلمه الى خاله امير ملك وهو من اعيان امرائه فلم تزل بيده حتى هلك خوارزمشاه واما ابن شهاب الدين مسعود فانه اقام عند الخطا مدة فقال له الذى استأسره يوما ان خوارزمشاه قد عدم فايش عندك من خبره فقال له اما تعرفه قال لا قال هو اسيرك الذى كان عندك فقال لم لا عرفتنى حتى كنت اخدمه واسير بين يديه الى مملكته قال خفتكم عليه فقال الخطائى سرينا اليه فسار اليه فأكرمهما واحسن اليهما وبالغ فى ذلك

(ذكر قتل غياث الدين محمود)

لما سلم خوارزمشاه هراة الى خاله أمير ملك وسار الى خوارزم أمره أن يقصد غياث الدين محمود ابن غياث الدين محمد بن سام الغورى صاحب الغور وفيروزكوه وأن يقبض عليه وعلى أخيه على شاه بن خوارزمشاه ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين فسار أمير ملك الى فيروزكوه وبلغ ذلك الى محمود فارسل يبذل الطاعة ويطلب الامان فأعطاه ذلك فنزل اليه محمود فقبض عليه أمير ملك وعلى على شاه أخى خوارزمشاه فخاف أن يحملهما الى خوارزمشاه ليرى فيهما رأيه فأرسل الى خوارزمشاه يعرفه الخبر فأمره بقتلهما فقتلا فى يوم واحد واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه وذلك سنة خمس وستمائة أيضا وهذا غياث الدين هو آخر ملوك الغورية ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة واعدلها وأكثرها جهادا وكان محمود هذا عادلا حليما كريما من اكرم الملوك اخلاقا رحمه الله تعالى

(ذكر عود خوارزمشاه الى الخطا)

لما استقر أمر خراسان لمحمد خوارزمشاه وعبر نهر جيحون جمع له الخطا جمعا عظيما وساروا اليه والمقدم عليهم شيخ دواتهم القائم مقام الملك فيهم المعروف بطايانكو وكان عمره قد جاوز مائة سنة ولقى حروبا كثيرة وكان مظفرا حسن التدبير والعقل واجتمع خوارزمشاه وصاحب سمرقند وتصافوا هم والخطا سنة ست وستمائة فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبروا فانهزم

القدح قدح ابن مقبل * واحدث له شكر النعمة حشمه * وصفوا لخدمة أدبا وهمه * فلما مضى أبو نصر لسبيله * أنهى الى السلطان حاله فى كيسه وذلاقته * وظرفه وباقته * فاستحضره ليختبره * فوافق أولى النظرة قبولا * وطرفا بمرود الاعجاب منه مكحولا * وازداد على طول الخبرة وفاقا * وعلى سوق الخدمة نفاقا * فما نمق الاشياء اصلحها التدبير * ولقحها التابير * والماء الثمر * حتى سمت به المراتب * وتوجهت اليه الرغائب * وقابلت حشمته حشمة ارباب الجنود * وسادات الاقلام والحدود * وكان غرض السلطان فى عقد الرياسة له أن يقمع به من انعقدت له بدالة التأله والتعبد * وسابقة الترهب والتزهد * فقدر ان الذى حظى به معقود بالدين فلا سبيل الى حله * ولا محاق أبدا المستهله * ويرجع به الى ما يوجبه حكم التقية * من رفض المراتب العلية والمطامع

الخطا هزيمة منكرة وقتل منهم وأسر خلق لا يحصى وكان فيمن اسر طايبكو مقدمهم وجيء به الى خوارزمشاه فاكرمه واجلسه على سريره وسيره الى خوارزم ثم قصده خوارزمشاه الى بلاد ماوراء النهر فملكها مدينة مدينة وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند وجعل نوابه فيها وعاد الى خوارزم ومعه سلطان سمرقند وكان من أحسن الناس صورة فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا اليه فزوجه خوارزمشاه بابنته وردّه الى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا

(ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين)

لما عاد صاحب سمرقند اليها ومعه شحنة لخوارزمشاه واقام معه نحو سنة فرأى سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ندم على مفارقة الخطا فأرسل الى ملك الخطا يدعوه الى سمرقند ليسلمها اليه ويعود الى طاعته وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديما وحديثا وأخذ أصحاب خوارزمشاه فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم في الاسواق كما يعلق القصاب اللحم وأساء غاية الاساءة ومضى الى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزمشاه فأغلقت الابواب ووقفت بجواريها تمنعه وارسلت اليه تقول انا امرأة وقتل مثلي قبيح ولم يكن مني اليك ما أستوجب به هذا منك ولعل تركي أحمد عاقبة فاتق الله في فتركها ووكل بها من يمنعها التصرف في نفسها ووصل الخبر الى خوارزمشاه فقامت قيامته وغضب غضبا شديدا وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فمنعته أمه عن ذلك وقالت ان هذا البلد قد أتاه الناس من اقطار الارض ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى وأمر عساكره بالتجهيز الى ماوراء النهر وسيرهم ارسالا كلما تجهز جماعة عبروا فيحون فعبر منهم خلق كثير لا يحصى ثم عبر هو بنفسه في آخرهم ونزل على سمرقند وانفذ الى صاحبها يقول له قد فعلت ما لم يفعله مسلم واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل لا مسلم ولا كافر وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت فقال لا أخرج وافعل ما بدا لك فامر عساكره بالزحف فأشار عليه بعض من معه بان يأمر بعض الامراء اذا فتحوا البلد ان يقصدوا الدرب الذي يسكنه التجار فيمنع من نهبه والتطرق اليهم بسوء فانهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل فأمر بعض الامراء بذلك وزحف ونصب السلاليم على السور فلم يكن باسرع من أن أخذوا البلد واذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من اهل سمرقند فنهب البلد وقتل أهله ثلاثة أيام فيقال انهم قتلوا منهم مائتي ألف انسان وسلم ذلك الدرب الذي فيه الغرباء فلم يعدم منهم الفرد ولا الآدمي الواحد ثم أمر بالكف عن النهب والقتل ثم زحف الى القلعة فرأى صاحبها ما ملا قلبه هيبة وخوفا فارسل يطلب الامان فقال لا أمان لك عندي فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزمشاه فقبل الارض فطلب العفو فلم يعف عنه وأمر بقتله فقتل صبرا وقتل معه جماعة من اقاربه ولم يترك أحدا ممن ينسب الى الخانية ورتب فيها وفي سائر البلاد نوابه ولم يبق لاحد معه في البلاد حكم

(ذكر الوقعة التي أفنت الخطا)

لما فعل خوارزمشاه بالخطا ما ذكرناه مضى من سلم منهم الى ملكهم فانه لم يحضر الحرب فاجتمعوا

الدنيوية * فلما ورد هاساس اهلها اساسة لو عاش اليها زياد لعاد الى ساسته * بعين استزادته * خفت عليه حتى صرير الجنادب * وسكن حتى دبيب العقارب وهدأ حتى شغب المراتب * وسكت حتى دوى المذاهب فكأنما اقبل به شفيف الشتاء

فلكل سامة أو هامة في الوجار انجحار * وبالمغار استتار * وقد بث عبد الله خوف انتقامه على الليل حتى ما تدب عقاربه ها ان هيبة السلطان هي التي خطمت اللهاميم * وحطمت الاقاليم * فلو وكل بعض همه برواسي الجبال لاصبحت منسوفة * أو بطوامي البحار لعادت منزوفة * فاخطر خطة يتيه بها عن الرشد ثائه * ويعمى عندها من قصد الصواب نبيه أو نابه * ومن احسن في جنب مثاله * فعن عون القدر وحكم الفلك الدوار على البشر * أبى الله ان يحمد على دحر المريد شهاب * أو يمدح على سق المحول ذهاب

عنده وكان طائفة عظيمة من الترك قد خرجوا من بلادهم حدود الصين قديما ونزلوا وراء بلاد تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا بما فعله خوارزمشاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلى خان فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل الى خوارزمشاه يقول له أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفونا عنه وقد أتى من هذا العدو من لا قبل لنا به وانهم ان انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة ان تسير الينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم ونحن نحلف لك اننا اذا ظفرنا بهم لا نتعرض الى ما أخذت من البلاد ونقنع بما في ايدينا وأرسل اليه كشلى خان ملك الترك يقول ان هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم ونحلف أننا اذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع التي ينزلونها فأجاب كلا منهما الى ما طلب منه وسار بعساكره الى ان نزل قريبا من الموضع الذي تصافوا فيه فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها انه من أحدهما فكانت كل طائفة منهم تظن انه معها ووقع الخطا والترك فانهزم الخطا هزيمة عظيمة فمال حينئذ خوارزمشاه وجعل يقتل ويأسر وينهب ولم يترك أحدا ينجو منهم فلم يسلم منهم الا طائفة يسيرة مع ملكهم في موضع من نواحي الترك يحيط به جبال ليس اليه طريق الا من جهة واحدة تحصنوا فيه وانضم الى خوارزمشاه منهم طائفة وسار وافي عسكره وأنفذ خوارزمشاه الى كشلى خان ملك الترك يعلمه بأنه حضر لمساعدته ولولاه ما تمكن من الخطا فاعترف له كشلى خان بذلك مدة ثم أرسل اليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا وقال كما انا انفقنا على اباد تهم ينبغي أن نقتسم بلادهم فقال ليس لك عندي غير السيف ولست بأقوى من الخطا شوكة ولا أعز ملكا فان قنعت بالمساكنة والا سرت اليك وفعلت بك شرا مما فعلت بهم وتجهز وسار حتى نزل قريبا منهم وعلم خوارزمشاه انه لا طاقة له به فكان يراوغه فاذا سار الى موضع قصد خوارزمشاه أهله وأثقالهم فينهبها واذا سمع ان طائفة سارت عن موطنهم سار اليها فأوقع بها فأرسل اليه كشلى خان يقول له ليس هذا فعل الملوك هذا فعل اللصوص والا ان كنت سلطانا كما تقول فيجب أن نلتقي فاما ان تهزمني وتملك البلاد التي بيدي واما أن أفعل أنا بك ذلك فكان يغالطه ولا يجيبه الى ما طلب لكنه أمر أهل الشاش وفرغانة واسفيجاب وكاسان وما حولها من المدن التي لم يكن في الدنيا أنزه منها ولا أحسن عمارة بالجلاء منها واللحاق ببلاد الاسلام ثم خرج بها جميعها خوفا من التتر أن يملكوها ثم اتفق خروج هؤلاء التتر الآخرين الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكزخان النهرجي على كشلى خان التتري الاول فاشتغل بهم كشلى خان عن خوارزمشاه فخلا وجهه فعبر النهر الى خراسان

(ذكر ملك نجم الدين ابن الملك العادل خلاط)

في هذه السنة ملك الملك الاوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب مدينة خلاط وسبب ذلك انه كان بمدينة ميافارقين من جهة أبيه فلما كان من ملك بلبان خلاط ما ذكرناه قصد هو مدينة موش وحصرها وأخذها وأخذ غيرها مما يجاورها وكان بلبان لم تثبت قدمه حتى يمنعه فلما ملك خلاط سار اليها فهزمه بلبان كما ذكرناه أيضا فعاد الى بلده وجمع وحشد وسير اليه أبوه جيشا فقصد خلاط فسار اليه بلبان فتصافوا واقتتلوا فانهزم بلبان وتمكن نجم الدين من البلاد وازداد منها ودخل بلبان خلاط واعتصم بها وأرسل رسولا الى مغيث الدين

وتطرف الرئيس أبو علي حواشي المقصود ينتزع منهم بعض ما اخذوه رشى * واحتسوه ثروبا وكشى * ثم نقلهم الى بعض القلاع عبرة لمن أكل بالله * وأظهر الزهد في الدنيا ثم لم يتوكل على الله * وهتك بصاحبهم فأخذ حذره * وأرخى من دونه ستره * ولم يقصد السلطان قصد استئصاله * ولا انفضه عن فضول ماله * فترك من وراء الحجاب على قدم الزهادة * وغصص الطعام عن العادة * وعطف من بعد الى جماعة الاشراف العلوية * ذوي الاقدار العلية * فأشعرهم أن حشمتهم بالطاعة موصولة * وحرمتهم بلزوم القصد وترك تعدي الحد مكفولة * فتلقوه بالاجلال * وقابلوا أمره بالامتثال * علما بأنه ظل الله في أرضه فما يغني عنه غير الانقياد * والميل على الغلو للاقتصاد * واستخلف أبو علي علي الرياسة عند الشخوص الى الحضرة أبا نصر منصور بن رامش وهو يضربه بقرابة أبي السلطان الا قطعها عليه صيانة له

طغرل شاه بن قلج أرسلان وهو صاحب ارزن الروم يستنجده على نجم الدين فحضر بنفسه ومعه عسكره فاجتمعوا وهزموا نجم الدين وحصروا موش فأشرف الحصار على أن تملك فغدر ابن قلج أرسلان بصاحب خلاط وقتله طمعا في البلاد فلما قتله سار الى خلاط فمنعه أهلها عنها فسار الى ملازكرد فردته أهلها أيضا وامتنعوا عليه فلما لم يجد في شئ من البلاد مطمعا عاد الى بلاده فأرسل أهل خلاط الى نجم الدين يستدعونه اليهم ليملكوه فحضر عندهم وملك خلاط وأعمالها سوى البسير منها وكره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفا من أبيه وكذلك أيضا خافه الكرج وكرهوه فتابعوا الغارات على اعمال خلاط وبلادها ونجم الدين مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها فلقي المسلمون من ذلك أذى شديدا واعتزل جماعة من عسكر خلاط واستولوا على حصن وان وهو من أعظم الحصون وأمنعها وعصوا على نجم الدين واجتمع اليهم جمع كثير وملكوا مدينة ارجيش فأرسل نجم الدين الى أبيه الملك العادل يعرفه الحال ويطلب منه نجدة وان يمده بعسكر فسير اليه أخاه الملك الاشرف موسى بن العادل في عسكر فاجتمعا في عسكر كثير وحصرا قلعة وان وبها الخلاطية وجدوا في قتالهم فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلموها صلحا وخرجوا منها وتسلمها نجم الدين واستقر ملكه بخلاط وأعمالها وعاد أخوه الاشرف الى بلاده حران والرها

(ذكر غارات الفرنج بالشام)

وفي هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس وحصن الاكراد وأكثروا الاغارة على بلد حمص وولاياتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة ولا يقدر على دفعهم ومنعهم فاستنجد الظاهر غازي صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد الا الظاهر فانه سير له عسكرا أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ثم ان الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها الفرنجي على قاعدة استقرت من اطلاق اسرى من المسلمين وغير ذلك ثم سار الى حمص فنزل على بحيرة قدس وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة فدخل الى بلاد طرابلس وحاصر موضعا يسمى القليعات وأخذه صلحا وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس فنهب وأحرق وسبى وغنم وعاد الى بحيرة قدس وتردد الرسل بينه وبين الفرنج في الصلح فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود الى بلادهم قبل البرد فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد الى دمشق فشتى بها وعادت عساكر ديار الجزيرة الى أماكنها وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر ان أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة قطع من اسطول مصر وأسروا من فيها فأرسل العادل الى صاحب عكا في ردما أخذوا ويقول نحن صلح فلم غدرتم بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لي عليهم حكم وان مرجعهم الى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم ان أهل قبرس ساروا الى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم تعذرت عليهم الاقوات وعاد حكم قبرس الى صاحب عكا وأعاد العادل مراسلته فلم يتفصل حال فخرج بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا فأجابه حينئذ صاحبها الى ما طلب وأرسل الاسرى

(ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها)

لما تم ملك خلاط واعمالها للملك الاوحد نجم الدين بن العادل سار عنها الى ملازكرد ليقرر

من نهير الكرام * وتثريب الرجال عند ذكر الارحام * وطوع له قياد الاحرار * والاشراف الكبار * والزمهم أن يخدموه بكرة وأصيلا * ويختصوا بطاعته جملة وتفصيلا * فمن ورم أنفه شريفا كان أو مشروفا نفى عن بلاده * وعرى عما تحت يده * فشخصت اليه الاعناق * وأحدقت بفنائه الاحداق * واستتب له رياسة لا عهد لأحد بمثلها من رؤساء خراسان الا أبا عبد الله العصمي فانه بلغ مثلها ولكن على عمر مديد * وعز عتيد * وبأس شديد * وخدم وعبيد * ومال يتنادى على العفاة هل من مزيد * وفرش في زمانه بساط العدل بقواعد الاحماش * كرجالات الثروة والرياش * اشتراكا في الانصاف * ونفقت سوق الاحتساب بالدرر فوق الاكتاف * فمن بدعة مرفوضة * ورتبة مخفوضة وحدود على الحق مقامة * وعيون على الفضول صنامة * وبطلت معها الحانات والمواخير * وخرست العيدان

قواعدها

قواعدها أيضا ويفعل ما ينبغي أن يفعله فيها فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم وعصوا وحصروا القلعة وبها أصحاب الاوحدوناذ وابشعارشاه ارمن وان كان صبيا يعنون بذلك رد الملك الى أصحابه ومماليكه فبلغ الخبر الى الملك الاوحد فعاد اليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوى بهم وحصر خلاط فاختلف أهلها فمال اليه بعضهم حسدا للآخرين فملكها وقتل بها خلقا كثيرا من أهلها وأسر جماعة من الاعيان فسيرهم الى ميافارقين وكان كل يوم يرسل اليهم فيقتل منهم جماعة فلم يسلم الا القليل وذل أهل خلاط بعد هذه الوقعة وتفرقت كلمة الفتيان وكان الحكم اليهم وكفى الناس شرهم فانهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا ويقتلون آخر والسلطنة عندهم لا حكم لها وانما الحكم لهم والبهم

(ذكر ملك ابي بكر بن البهلوان مراغة)

في هذه السنة ملك الامير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان صاحب اذربيجان مدينة مراغة وسبب ذلك ان صاحبها علاء الدين قراسنقر مات هذه السنة وولي بعده ابن له طفل وقام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لابيه فعصى عليه أمير كان مع أبيه وجمع جمعا كثيرا فأرسل اليه الخادم من عنده من العسكر فقاتلهم ذلك الامير فانهزموا واستقر ملك ولد علاء الدين الا انه لم تطل أيامه حتى توفي في أول سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته ولم يبق منهم أحد فلما توفي سار نصرة الدين أبو بكر من تبريز الى مراغة فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما عدا قلعة روين دز فانها اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن والذخائر فامتنع بها على الامير أبي بكر

(ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة)

كان هذا نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي من أهل الري من بيت كبير فقدم بغداد لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الري ولقي من الخليفة قبولا فجعله نائب الوزارة ثم جعله وزيرا وحكم ابنه صاحب المخزن فلما كان في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل وأغلق بابه وكان سبب عزله انه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة فنهم أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجع السبع فانه هرب من يده الى الشام سنة ثلاث وستمائة فارق الحاج بالمرخوم وأرسل يعتذر ويقول ان الوزير يريد أن لا يبقى في خدمة الخليفة أحدا من مماليكه ولا شك انه يريد أن يدعي الخلافة وقال الناس في ذلك فأكثروا وقالوا الشعر فمن ذلك قول بعضهم

ألا مبلغ عني الخليفة أحمدا * بوق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما * فعالك يا خير البرية ضائع
فان كان حقا من سلالة أحمد * فهذا وزير في الخلافة طامع
وان كان فيما يدعي غير صادق * فأضيع ما كانت لديه الصنائع

فعزله وقيل في سبب ذلك غيره ولما عزل أرسل الى الخليفة يقول انني قدمت الى ههنا وليس لي دينار ولا درهم وقد حصل لي من الاموال والاعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسة آلاف دينار ويسأل أن يؤخذ منه الجميع ويمكن من المقام بالمشهد اسوة ببعض العلويين فأجابه انا

والمزامير * وركدت ألحان النائحات والسكارى * واستوت في الانجحار واللياذ بما وراء الاستار عون النساء والعذارى * فأما شوارع أسواق البلد فقد كانت منذ بنيت نيسابور فضاء لا يكنها غطاء * ولا يظلها دون السماء سماء * تخرقها الاعاصير تارة وتردغها الاهاضيب أخرى فاما التراب مثارا * واما الانداء ثلوجا وأمطارا * لم يقطن أحد من ملوك خراسان وأصحاب الجيوش بها * لالحاقها بأخواتها * من ديار خراسان تسقيفا لها وتستيرا * وتنظيفا عن الاقذاء وتطهيرا * حتى ورد الرئيس أبو علي وطالب أهلها به فلم يمض شهران حتى سقفت نحو السكالك سقوفها * وقامت على ركائز الاعواد حروفها * فمن بين منقش ومزخرف * ومدبج بالاصباغ ومفوف * تتفتح منها فرج بقدر ما يملى ضياء النهار * على الابصار * دون ما توسع لذرور الغبار * وتمكن لدرور القطار * ويخن البصراء

ما أنعمنا عليك بشئ فنوينا اعادته ولو كان ملء الارض ذهبا ونفسك فى أمان الله وأماننا ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك فخبران الاعداء قد أكثروا فيك فاخترلنفسك موضعا تنتقل اليه مو قرا محترما فاختار أن يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو فتذهب نفسه ففعل به ذلك وكان حسن السيرة قريبا الى الناس حسن اللقاء لهم والانبساط معهم عفيفا عن أموالهم غير ظالم لهم فلما قبض عاد اميرا لحاج من مصر فى الخدمة العادلية وعاد ايضا فشكر وأقيم فى النيابة فى الوزارة فخر الدين أبو البدر محمد بن أحمد بن امسينا الواسطى الا انه لم يكن متحكما

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة ليلة الاربعاء خامس بقين من رجب زلزلت الارض وقت السحر وكنت حينئذ بالموصل ولم تكن بها شديدة وجاءت الاخبار من كثير من البلاد بأنها زلزلت ولم تكن بالقوية وفيها اطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع وما يؤخذ من ارباب الامتعة من المكوس من سائر المبيعات وكان مبلغا كثيرا وكان سبب ذلك أن بقتا العز الدين نجاح شرابى الخليفة توفيت فاشترى لها بقرة لتذبح ويتصدق بلحمها عنها فرفعوا فى حساب ثمنها مؤنة البقرة فكانت كثيرة فوقف الخليفة على ذلك وأمر باطلاق المؤنة جميعها وفيها فى شهر رمضان امر الخليفة ببناء دور فى المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء وسميت دور الضيافة يطبخ فيها اللحم الضأن والخبز الجيد عمل ذلك فى جانبى بغداد وجعل فى كل دار من يوثق بامانته وكان يعطى كل انسان قدحا مملوأ من الطبيخ واللحم ومناصن الخبز فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لا يحصون كثرة وفيها زادت دجلة زيادة كثيرة ودخل الماء فى خندق بغداد من ناحية باب كلواذى فخيف على البلد من الغرق فاهتم الخليفة بسد الخندق وركب فخر الدين نائب الوزارة وعز الدين الشرابى ووقفا ظاهر البلد فلم يبرحا حتى سد الخندق وفيها توفى الشيخ حنبل بن عبد الله ابن الفرج المكبر بجامع الرصافة وكان عالى الاسناد روى عن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل وله اسناد حسن وقدم الموصل وحدث بها وبغيرها

(ثم دخلت سنة خمس وستمائة)

(ذكر ملك الكرج ازجيش وعودهم عنها)

فى هذه السنة سارت الكرج فى جموعها الى ولاية خلاط وقصدوا مدينة ازجيش فحصروها وملكوها عنوة ونهبوا جميع ما بها من الاموال والامتعة وغيرها وأسروا وسبوا أهلها وأحرقوها وخربوها بالكلية ولم يبق بها من أهلها أحد فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وكان نجم الدين أيوب صاحب ارمينية بمدينة خلاط وعنده كثير من العساكر فلم يقدم على الكرج لاسباب منها كثرتهم وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف اليهم من القتل والاذى وخاف ان يخرج منها فلا يمكن من العود اليها فلما لم يخرج الى قتال الكفار عادوا الى بلادهم سالمين لم يذعرهم ذاعر وهذا جميعه وان كان عظيما شديدا على الاسلام وأهله فانه يسير بالنسبة الى ما كان عملذ كره سنة أربع عشرة الى سنة سبع عشرة وستمائة

(ذكر قتل سنجر شاه وملك ابنه محمود)

استغراق قدر العمارة مائة ألف دينار عن طيب النفوس وفضل الكسوب لم يكلف أحد عليها * ولم يستكره دون المثال فيها * بل عمهم المباهاة * وشملتهم المباراة * فأنفقوا موفرين ومستبصرين * ولا نفسهم على العجز دون المراد مستقصرين * فمن تسوق تاسعا أو عاشرا ليس بادئا أو ثانيا رادا الى الكاهل قذاله * وترك على شغل النظر أشغاله * فيالها من سمك شاخص نحو السماك * وزائد فلكا تاسعا على الافلاك * ولما عاد الرئيس الى الحضرة وقرر حال ما تولاه * ومن عزله وولاه * وافق هوى السلطان ورضاه * فصادف تقريرا وتمكينا * واحمادا واسعا مستبينا * وسنورد شرح ما يتجدد من هذه الاحوال ان أراد الله تعالى ذلك ويسره

(ذكر الأمير صاحب الجيش أبى المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين)

قد كان السلطان يمين الدولة وأمين الملة لما ملك خراسان

في هذه السنة قتل سنجرشاه ابن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب جزيرة ابن عمر وهو ابن عم نور الدين صاحب الموصل قتله ابنه غازي ولقد سلك ابنه في قتله طريقا عجيبا يدل على مكر ودهاء وسبب ذلك أن سنجر كان سيئ السيرة مع الناس كلهم من الرعية والجند والحريم والاولاد وبلغ من قبيح فعله مع اولاده أنه سير ابنيه محمودا ومودودا الى قلعة فرح من بلد الزوزان وأخرج ابنه هذا الى دارا بالمدينة أسكنه فيها ووكل به من يمنعه من الخروج وكانت الدار الى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل اليه منها الحيات والعقارب وغيرهما من الحيوان المؤذي ففي بعض الايام اصطاد حية وسيرها في منديل الى أبيه لعله يرق له فلم يعطف عليه فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التي كان بها واختفى ووضع انسانا كان يخدمه فخرج من الجزيرة وقصد الموصل وأظهر أنه غازي بن سنجر فلما سمع نور الدين بقربه منها أرسل نفقة وثيابا وخيلا وأمره بالعود وقال ان أباك يتجنى لنا الذنوب التي لم نعملها ويقبح ذكرنا فاذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشناعات والبشاعات ونقع معه في صداع لا ينادى وليده فسار الى الشام وأما غازي بن سنجر فانه تسلق الى دار أبيه واختفى عند بعض سراريه وعلم به أكثر من بالدار فسترت عليه بغضا لابيه وتوقعا للخلاص منه لشدته عليهن فبقي كذلك وترك أبوه الطلب له ظنا منه انه بالشام فاتفق ان أباه في بعض الايام شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه فكان يقترح على المغنين ان يغنوا في الفراق وماشاكل ذلك ويبكي ويظهر في قوله قرب الاجل ودنو الموت وزوال ماهو فيه فلم يزل كذلك الى آخر النهار وعاد الى داره وسكر عند بعض حظاياه ففي الليل دخل الخلاء وكان ابنه عند تلك الحظية فدخل اليه فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة ثم ذبحه وتركه ملقى ودخل الحمام وقعد يلعب مع الجواري فلما فتح باب الدار وأحضر الجند واستحلفهم لملك البلد لكنه أمن واطمأن ولم يشك في الملك فاتفق ان بعض الخدم الصغار خرج الى الباب وأعلم استاذدار سنجر الخبر فأحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك وأغلق الابواب على غازي واستحلف الناس لمحمود بن سنجرشاه وأرسل اليه أحضره من فرح ومعه أخوه مودود فلما حلف الناس وسكنوا فتحوا باب الدار على غازي ودخلوا عليه ليأخذوه فمانعهم عن نفسه فقتلوه وألقوه على باب الدار فأكلت الكلاب بعض لحمه ثم دفن باقيه ووصل محمود الى البلد وملكه ولقب بعز الدين لقب أبيه فلما استقر أخذ كثيرا من الجواري اللواتي لابيه فغرقهن في دجلة ولقد حدثني صديق لنا أنه رأى بدجلة في مقدار غلوة سهم سبع حواري مغرقات منهن ثلاث قد احرقت وجوههن بالنار فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتى حدثني جارية اشتريتها بالموصل من جواريه ان محمودا كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها في النار فاذا احترقت ألقاها في دجلة وباع من لم يغرقه منهن فتفرق أهل تلك الدار أيدي سبا وكان سنجرشاه قبيح السيرة ظالما غاشما كثير المخاتلة والمواربة والنظر في دقيق الامور وجليلها لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيته وغيرهم من أخذ الاموال والاملاك والقتل والاهانة وسلك معهم طريقا وعرا من قطع الالسنة والانوف والآذان وأما اللحى فانه حلق منها ما لا يحصى وكان جل فكره في ظلم يفعله وبلغ من شدة ظلمه انه كان اذا استدعى انسانا ليحسن اليه لا يصل الا وقد قارب الموت من شدة الخوف واستعلى في أيامه السفهاء ونفقت سوق الاشرار والساعين بالناس فخرب البلد وتفرق

وأخلاها من شر ذمة آل سامان * عرف له موالاته اياه وهجرته فيها اسمعيل بن ناصر الدين أخاه اعظاما لحق الكبير واعترافا بواجب الفرض فولاه نيسابور مظنة أصحاب الجيوش الاكابر على وجه الزمان الغابر ساد ابه مكانه من قبل اذ هو سائس الجمهور * ومدبر هاتيك الامور * ومن وضع أخاه موضعا قدسته قبل بنفسه * ورآه أهلا لبعض قدره * فقد بالغ في البر والتوقير * وخرج من عهدة التقصير * فوليها سنين عدة حميد السيرة في الخبرة كريم الفعال * في سياسة الرجال وجرى على يده من جمة الآثار في مطاردة أبي ابراهيم المنتصر عند ركضاته وكفاية ما كان يطرأ من معرته وشذاته * ما تقدم شرحه ثم رأى السلطان بعد ذلك أن يجمع به شمله ويصل بمشاهدته حبله فاستدعاه * وأهل به مستجمه ومغزاه * فلم يزايله بعد بحال ولم يفاصله في حالي حل وترحال * وحيثما كان يراه

أهله لا جرم سلط الله عليه أقرب الخلق اليه فقتله ثم قتل ولده غازى وبعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودودا وجرى فى داره من التحريق والتغريق والتفريق ماذكرنا بعضه ولو رمنا شرح قبح سيرته لطال والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة ثانى المحرم توفى أبو الحسن ورام بن أبى فراس الزاهد بالحلة السيفية وهو منها وكان صالحا وفى صفر توفى الشيخ مصدق بن شبيب النحوى وهو من أهل واسط وفى شعبان توفى القاضى محمد بن أحمد بن المنداى الواسطى بها وكان كثير الرواية للحديث وله اسناد عال وهو آخر من حدث بمسند أحمد بن حنبل على بن الحصين وفيه توفى القوام أبو فراس نصر بن ناصر بن مكى المدائنى صاحب المخزن ببغداد وكان أديبا فاضلا كامل المروأة يحب الأدب واهله ويحب الشعر ويحسن الجوائز عليه ولما توفى ولى بعده أبو الفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين أبى الفرج بن رئيس الرؤساء وأكرم وأعلى محله فبقى متوليا الى سابع ذى القعدة وعزل لعجزه وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان وكان أشدها بنيسابور وخرج أهلها الى الصحراء أياما حتى سكنت وعادوا الى مساكنهم

(ثم دخلت سنة ست وستمائة)

(ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين ارسلان شاه ومظفر الدين)

فى هذه السنة ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين وحصر مدينة سنجار والجميع من أعمال الجزيرة وهى بيد قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود وسبب ذلك ان قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين ارسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وقد تقدم ذكر ذلك فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل فان ولد العادل تزوج بابنة لنور الدين وكان لنور الدين وزراء يحبون ان يشتغل عنهم فحسنوا له مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يقتسما البلاد التى لقطب الدين وبالولاية التى لولد سنجر شاه بن غازى بن مودود وهى جزيرة ابن عمر وأعمالها فيكون ملك قطب الدين للعادل وتكون الجزيرة لنور الدين فوافق هذا القول هوى نور الدين فأرسل الى العادل فى المعنى فأجابه الى ذلك مستبشرا وجاءه مالم يكن يرجوه لانه علم أنه متى ملك هذه البلاد أخذ الموصل وغيرها وأطمع نور الدين أيضا فى أن يعطى هذه البلاد اذا ملكها الولده الذى هو زوج ابنة نور الدين ويكون مقامه فى خدمته بالموصل واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها فبادر العادل الى المسير من دمشق الى الفرات فى عساكره وقصد الخابور فأخذه فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر فأحضر من يرجع الى رأيهم وقولهم وعرفهم وصول العادل واستشارهم فيما يفعله فاما من أشار عليه فسكتوا وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال فعظم الامر وأشار بالاستعداد للحصار وجمع الرجال وتحصيل الذخائر وما يحتاج اليه فقال نور الدين نحن فعلنا ذلك وخبره الخبر فقال بأى رأى تجىء الى عدو لك هو أقوى منك وأكثر جمعا وهو بعيد منك متى تحرك لقصدك تعلم به فلا يصل الا وقد فرغت من جميع ما تريده تسعى حتى يصير قريبا

منك

فى مقاماته أول من سمح بروحه فى الصاماة على دين الله * والمراما من دون حق الله * وواقيا أثناءها بمهجته نفسه ان كنف زحام * أو عظم على جيوش حق الله استلحام * شفقة تجيش بها لحمة القربى * وشحنة من الرحم الدنيا * وكان ينصر مذهب الامام أبى حنيفة رحمه الله تعالى اعتقادا ويرى الاستمساك به رشادا فأمر بمدرسة بنيسابور فى جوار القاضى أبى العلاء صاعد بن محمد وأنفق مالا حتى ابتناها * وحبس حبائس على من أواها * ودارس بأمالى العلم فى ذراها * فبقيت تذكرة عنه تغدى بالعلم وتراح * ويثنى عليها الامساء والاصباح * ولم ينقم السلطان منه طول أيامه قولا محالا * ولفظا دون الصواب مستحالا * ولا شكا أحد من الكاره جانبا وفعلا لاشفاق الرؤس على الاتباع مجانبا * وقضى الله أن خانه الشباب ولما استولى أمده * ونقض بياق الامل فيه يده * فلحق بالواحد

منك ويزداد قوة الى قوته ثم ان الذى استقر بينكما انه له يملكه أولا بغير تعب ولا مشقة وتبقى أنت لا يمكنك ان تفارق الموصل الى الجزيرة وتحصرها والعادل ههنا هذا ان وفى لك بما استقرت القاعدة عليه لا يجوز ان تفارق الموصل وان عاد الى الشام لانه قد صار له ملك خلاط وبعض ديار بكر وديار الجزيرة جميعها والجميع يبدأ ولاده فتى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها فما زدت على أن آذيت نفسك وابن عمك وقويت عدوك وجعلته شعارك وقدفات الامر وليس يجوز الا ان تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة ويتدئ بك هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين وسار الى سنجار فحصرها وكان فى عزم صاحبها قطب الدين ان يسلمها الى العادل بعوض يأخذه عنها فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن برنقش مملوك أبيه زنكى وقام بحفظ المدينة والذب عنها وجهز نور الدين عسكرا مع ولده الملك القاهر ليسيروا الى الملك العادل فبينما الامر على ذلك اذ جاءهم أمر لم يكن لهم فى حساب وهو أن مظفر الدين كوكبرى صاحب اربل أرسل وزيره الى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار وان الاتفاق معه على ما يريده فوصل الرسول ليلا فوقف مقابل دار نور الدين وصاح فعبر اليه سفينة عبر فيها واجتمع بنور الدين ليلا وأبلغه الرسالة فأجاب نور الدين الى ما طلب من الموافقة وحلف له على ذلك وعاد الوزير من ليلته فسار مظفر الدين واجتمع هو ونور الدين ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل وكان سبب ما فعله مظفر الدين ان صاحب سنجار أرسل ولده الى مظفر الدين يستشفع به الى العادل ليبقى عليه سنجار وكان مظفر الدين يظن انه لو شفع فى نصف ملك العادل لشفعه لاثره الجميل فى خدمته وقيامه فى الذب عن ملكه غير مرة كما تقدم فشفع اليه فلم يشفعه العادل ظنا منه انه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالى بمظفر الدين فلما رده العادل فى شفاعته راسل نور الدين فى الموافقة عليه ولما وصل الى الموصل واجتمع بنور الدين أرسلا الى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين وهو صاحب حلب والى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما فكلاهما أجاب الى ذلك وتداعوا على الحركة وقصد بلاد العادل ان امتنع من الصلح والابقاء على صاحب سنجار وأرسلا أيضا الى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولا الى العادل فى الصلح ايضا فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع ووصلت رسل الخليفة وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك استاذ الدار والامير آق باش وهو من خواص مماليك الخليفة وكبارهم فوصلا الى الموصل وسارا منها الى العادل وهو يحاصر سنجار وكان من معه لا يناصحونه فى القتال لاسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فانه كان يدخل اليها الاغنام وغيرها من الاقوات ظاهرا ولا يقاتل عليها وكذلك غيره فلما وصل رسول الخليفة الى العادل أجاب أولا الى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط وأطال الامر لعله يبلغ منها غرضا فلم ينل منها ما أمله وأجاب الى الصلح على ان له ما أخذ وتبقى سنجار لصاحبها واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفوا على هذا كلهم وعلى ان يكونوا يدا واحدة على الناكث منهم ورحل العادل عن سنجار الى حران وعاد مظفر الدين الى اربل وبقى كل واحد من الملوك فى بلاده وكان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكى

الغفار
ان الكرام قليلة الاعمار
وكتبت فى مرثيته رسالة
سئلت اثباتها فى ذكره
ففعلت اذ كان فى ضمنها
ما ينى بشرح حاله * وتقرير
بعض خصاله * وهى
بسم الله الرحمن الرحيم
آه من سفرة بغير اياب
آه من حسرة على الاحباب
آه من مضجع الامير المفدى
فوق فرش من الحصى والتراب
نصر بن الامير ناصر دين الله
صدر الحروب والحراب
صاحب الجيش درة الشرق
تاج الـ * ـفخر غوث الكرام
والكتاب
نعاه يا ساسة الرجال * يا سادة
الفعال * يا أعيان العلوم
يا اخوان النجوم * يا شيوخ
الاسلام * يا عيون الكرام
يا أحرار الزمان * يا أنصار
السلطان
نعاه الى كل حى نعاه
فتى الكرم احتل ربع الفناء
أتدرون أى ركن انهدم
وأى حد استلم * وأى عقد
انفصم * وأى سوار انفصم
وأى روض ذبل * وأى بحر
أفل * وأى بحر نضب * وأى
طود تحصب * وأى خطب

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الاول عزل فخر الدين بن امسينا عن نيابة الوزارة للخليفة وألزم بيته ثم نقل الى المخزن على سبيل الاستظهار عليه وولى بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برز القمى كاتب الانشاء ولقب مؤيد الدين ونقل الى دار الوزارة مقابل باب النوبى وفيها فى شوال توفى مجد الدين يحيى بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد وفيها توفى فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الرى الفقيه الشافعى صاحب التصانيف المشهورة فى الفقه والاصولين وغيرهما وكان امام الدنيا فى عصره وبلغنى ان مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفيها فى سلخ ذى الحجة توفى اخى مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب مولده فى أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وكان عالما فى عدة علوم منها الفقه والاصولان والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة فى التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتبا مفلقا يضرب به المثل ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم رحمه الله ورضى عنه فلقد كان من محاسن الزمان ولعل من يقف على ماذكرته يتهمنى فى قولى ومن عرفه من اهل عصرنا يعلم أنى مقصر وفيها توفى المجد المطرزى النحوى الخوارزمى وكان اماما فى النحو له فيه تصانيف حسنة وفيها توفى المؤيد بن عبد الرحيم ابن الاخوة باصفهان وهو من أهل الحديث رحمه الله

(ثم دخلت سنة سبع وستمائة)

(ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر اليه)

كان قطب الدين سنجر مملوك الخليفة الناصر لدين الله قد ولاه الخليفة خوزستان بعد طاشتكين أمير الحاج كما ذكرناه فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة فروسل فى القدوم الى بغداد فغالط ولم يحضر وكان يظهر الطاعة ويبطن التغلب على البلاد فبقى الامر كذلك الى ربيع الاول من هذه السنة فتقدم الخليفة الى مؤيد الدين نائب الوزارة والى عز الدين بن نجاح الشرابى خاص الخليفة بالمسير بالعساكر اليه بخوزستان واخراجه عنها فسارا فى عساكر كثيرة فلما تحقق سنجر قصدهم اليه فارق البلاد ولحق بصاحب شيراز وهو اتابك عز الدين سعد بن دكلا ملتجئا اليه فأكرمه وقام دونه ووصل عسكر الخليفة الى خوزستان فى ربيع الآخر بغير ممانعة فلما استقروا فى البلاد راسلوا سنجر يدعونه الى الطاعة فلم يجب الى ذلك فساروا الى أرجان عازمين على قصد صاحب شيراز فأدركهم الشتاء فأقاموا شهورا والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز فلم يجبهم الى تسليمه فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز فحينئذ أرسل صاحبها الى الوزير والشرابى يشفع فيه ويطلب العهد له على ان لا يؤذى فأجيب الى ذلك وسلمه اليهم هو وماله وأهله فعادوا الى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار وولى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوتا أمير الحاج ووصل الوزير الى بغداد فى المحرم سنة ثمان وستمائة هو والشرابى والعساكر وخرج أهل بغداد الى تلقيهم فدخلوها وسنجر معهم راكبا على بغل باكاف وفى رجله سلسلتان فى يدكل جندى سلسلة وبقى محبوسا الى أن دخل صفر فجمع الخلق الكثير من الامراء والاعيان الى دار مؤيد الدين نائب الوزارة فأحضر سنجر وقرر بامور

نزل *واى نصر رحل *رحل والله نصر بن الامير الجليل ناصر الدين الامير ابن الامير والشهاب ابن الاثير *والبحر ابن الصبير *والحبر ابن التحرير *والعنبر ابن العبير مرخ الملك أوعفاره *وسور الدين أوسواره *وركن العز أوغراره *ونور المجد أوعراره غارت به بحيرة الادب التى استعذبتها الشفاه *وضلت قبلة العلم التى وليت شطرها الجباه *وعريت دوحة الكرم التى خبطتها العفاه وجفت طينة الفضل التى خدمتها الكفاه *وطلقت كريمة البر التى درس عليها التوحيد *وغذى بها اليافع والوليد *وأحيت عليها فواصل النهار *وحليت بها عواطل الاسحار وأقشعت سماء شام أبناء الدين بوارقها *وخاف أحزاب الكفر والجحود صواعقها *فلا نار ولا ماء ولا خوف ولا رجاء *فأضحى به جيب الزمان مشقوقا وسكر الحدثان مبثوقا وبناء العز منقوضا *ولواء المجد مخفوضا *وجمع الدين مسفوحا *وطرف

نسبت اليه منكرة فأقر بها فقال مؤيد الدين للناس قد عرفتم ما تقتضيه السياسة من عقوبة هذا الرجل وقد عفا أمير المؤمنين عنه وأمر بالخلع عليه فلبسها وعاد الى داره فعجب الناس من ذلك وقيل ان أتابك سعد نهب مال سنجر وخزانته ودوابه وكل ماله ولاصحابه وسيرهم فلما وصل سنجر الى الوزير والشرابي طلبوا المال فأرسل شيأ يسيرا والله أعلم

(ذكر وفاة نور الدين أرسلانشاه وشئ من سيرته)

في هذه السنة أواخر رجب توفي نور الدين أرسلانشاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه فكانوا يخافونه خوفا شديدا وكان ذلك مانعا من تعدي بعضهم على بعض وكان له همة عالية أعاد ناموس البيت الاتابكي وجاهه وحرمته بعد ان كانت قد ذهبت وخافه الملوك وكان سريع الحركة في طلب الملك الا انه لم يكن له صبر فلهذا لم يتسع ملكه ولو لم يكن له من الفضيلة الا انه لما رحل الكامل بن العادل عن ماردين كما ذكرناه سنة خمس وتسعين وخمسمائة عف عنها وأبقاها على صاحبها ولو قصدها وحصرها لم يكن فيها قوة الامتناع لان من كان بها كانوا قد هلكوا أو ضجروا ولم يبق لهم رمق فابقاها على صاحبها ولما ملك استغاث اليه انسان من التجار فسأل عن حاله فقيل انه قد أدخل قماشه الى البلد ليبيعه فلم يتم له البيع ويريد اخراجه وقد منع من ذلك فقال من منعه فقيل ضامن البز يريد منه ما جرت به العادة من المكس وكان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين قايماز وهو الى جانبه فسأله عن العادة كيف هي فقال ان اشترط صاحبه اخراج متاعه مكن من اخراجه وان لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ما جرت العادة بأخذه فقال والله ان هذه العادة مدبرة انسان لا يبيع متاعه لاى شئ يؤخذ منه ماله فقال مجاهد الدين لاشك في فساد هذه العادة فقال اذا قلت أنا وأنت انها عادة فاسدة فما المانع من تركها وتقدم باخراج مال الرجل وأن لا يؤخذ الا ممن باع وسمعت أخي مجد الدين أبا السعادات رحمه الله وكان من اكثر الناس اختصاصا به يقول ما قلت له يوما في فعل خير فامتنع منه بل بادر اليه بفرح واستبشار واستدعى في بعض الايام أخي المذكور فركب الى داره فلما كان بباب الدار ناولته امرأة رقعة وهي تشكو وتطلب عرضها على نور الدين فأخذها فلما دخل اليه جاراه في مهم له فقال قبل كل شئ تقف على هذه الرقعة وتقضي شغل صاحبتها فقال لا حاجة الى الوقوف عليها عرفنا ايش فيها فقال والله لا أعلم الا اني رأيت امرأة بباب الدار وهي متظلمة شاكية فقال ثم عرفت حالها ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب وعنده رجلان هما القيمان بامور دولته فقال لاخي ابصر الى أي شئ قد دفعت مع هذين هذه المرأة كان لها ابن وقدمات في الموصل وهو غريب وخلف قماشا ومملوكين فاحتاط نواب بيت المال على القماش واحضروا المملوكين الينا فبقيا عندنا ننتظر من يستحق التركة ليأخذها فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكمي بان المال الذي مع ولدها لها فتقدمنا بتسليم ماله اليها وقلت لهذين اشتريا المملوكين منها وانصفاها في الثمن فعادا وقالا لم يتم بيننا بيع لانها طلبت ثمنا كثيرا فامرتهما باعادة المملوكين اليها من مدة شهرين وأكثر والى الآن ما عدت سمعت لها حديثا وظننت انها أخذت مالها

الاسلام مجروحا وأقبل العلم في صورة المجموع * وبزة الخشوع * بقرمط خطوه * وينفث الى أهله شكوه * مغرقا في صعداه تذوب لها جوامد الدموع * وتنقد عليها الواحب الضلوع * فلو غير المنون أتانا أهوى اليه أخوه بالبيض البواتر يمين الدولة الملك المرجى صباح الدين مصباح المفاخر ولكن القضاء له مضاء تذل لعزمضربه المناخر ألا ياصاحبي سعكما الى أن كنتما مسعدين * وجامعين الى كلتا اليدين الما على نصر وقولا لقبره سقتك الغوادي مربعا ثم مربعا فيا قبر نصر أنت أول حفرة من الارض خطت للسماحة مضجعا ويا ابن نصر كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا بلى قد وسعت الجود والجود ميت

ولا شك انهم لم يسلما المملوكين اليها وقد استغاثت اليهما فلم ينصفاها فجاءت اليك وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظن انى أنا منعتها من مالها فيذمنى وينسبنى الى الظلم وليس لى علم وكل هذا فعل هذين اشتهى أن تسلم أنت المملوكين وتسلمهما اليها فأخذت المرأة مالها وعادت شاكرة داعية وله من هذا الجنس كثير لا نطول بذكره

﴿ذكر ولاية ابنه الملك القاهر﴾

لما حضر نور الدين الموت أمر ان يرتب فى الملك بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود وأحلف له الجند واعيان الناس وكان قد عهد اليه قبل موته بمدة فجدد العهد له عند وفاته وأعطى ولده الاصغر عماد الدين زنكى قلعة عقر الحميدية وقلعة شوش وولايتها وسيره الى العقر وأمر ان يتولى تدبير مملكتها ويقوم بحفظها والنظر فى مصالحها فاقام الامير بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداده وحسن سياسته وتدبيره وكمال خلال السيادة فيه وكان عمر القاهر حينئذ عشر سنين ولما اشتد مرضه وايس من نفسه أمره الاطباء بالانحدار الى الحامة المعروفة بعين القيارة وهى بالقرب من الموصل فانحدر اليها فلم يجد بها راحة وازداد ضعفا فأخذه بدر الدين واصعده فى الشبارة الى الموصل فتوفى فى الطريق ليلا ومعه الملاحون والاطباء بينه وبينهم ستر وكان مع بدر الدين عند نور الدين مملوك فلما توفى نور الدين قال لهما لا يسمع أحد بموته وقال للاطباء والملاحين لا يتكلم أحد فقد نام السلطان فسكتوا ووصلوا الى الموصل فى الليل فامر الاطباء والملاحين بمفارقة الشبارة ان لا يروه ميتا وأبعدوا حملها هو والمملوك وأدخله الدار وتركه فى الموضع الذى كان فيه ومعه المملوك ونزل على بابه من يشق اليه لا يمكن أحدا من الدخول والخروج وقعد مع الناس يمضى أمورا كان يحتاج الى اتمامها فلما فرغ من جميع ما يريده أظهر موته وقت العصر ودفن ليلا بالمدرسة التى انشأها مقابل داره وضبط البلد تلك الليلة ضبطا جيدا بحيث ان الناس فى البلد لم يزالوا متر ددين لم يعدم من أحد مقدار الحبة الفرد واستقر الملك لولده وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر فى مصالحها

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر درس القاضى أبو زكريا بن القاسم بن المفرج قاضى تكريت بالمدرسة النظامية ببغداد واستدعى من تكريت اليها وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصا كثيرا حتى كان يجرى الماء ببغداد فى محو خمسة أذرع وأمر الخليفة أن يكرى دجلة فجمع الخلق الكثير وكانوا كلما حفروا شيأ عاد الرمل وغطاه وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد وهذا لم يعهد مثله وحج بالناس هذه السنة علاء الدين محمد ولد الامير مجاهد الدين بانوت أمير الحاج وكان قد ولاه الخليفة خوزستان وجعله هو أمير الحاج وجعل معه من يدبر الحاج لانه كان صبيا وفيها فى العشرين من ربيع الآخر توفى ضياء الدين احمد عبد الوهاب بن على بن عبد الله الامير البغدادى ببغداد وهو سبط صدر الدين اسمعيل شيخ الشيوخ وعمره سبع وثمانون سنة وشهور وكان صوفيا فقيها محدثا سمعنا معه الكثير رحمه الله وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح وفيها توفى شيخنا ابو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادى وكان عالى الاسناد

ولو كان حيا ضاقت حتى تصدعا
يكى الجود لما مات نصر فلم يدع
لعينيه لما أن بكى الجود مدمعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل مجراه مرتعا
ولما مضى نصر مضى الجود وانقضى
وأصبح عرنين السماحة أجدعا
أتى جاز للموت أن يغصب
الامير نصرا القدساغ لى أن
أغصبها معنا وأين معن من
شقيق ملك الشرق * وسائر
جمهور الخلق * والقاعد من
قمة الفرقدين على الفرق *
سلطان الزمان يمين الدولة *
وأمين الملة * من دانت لعزه
القروم * واستكانت لهيبته
الترك والروم * فتى بعض
خصاله ألف معنى لم يرق اليه
معن بهمته * ولم يلق له
ذكرا فى ديوان نعمته * نال
حظوة من سلطان زمانه
باتفاق * اذا الحرب قامت
على ساق * وداوت كؤسها

﴿ثم دخلت سنة ثمان وستمائة﴾

﴿ذكر استيلاء منكلى على بلاد الجبل واصفهان وغيرها وهرب ايتغمش﴾

فى هذه السنة فى شعبان قدم ايتغمش صاحب همذان واصفهان والرى وما بينهما من البلاد الى بغداد هاربا من منكلى وسبب ذلك ان ايتغمش كان قد تمكن فى البلاد وعظم شأنه وانتشر صيته وكثر عسكره حتى انه حصر صاحبه ابابكر بن البهلوان صاحب هذه البلاد اذربيجان وارّان كما ذكرناه فلما كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلى ونازعه فى البلاد وكثر اتباعه وأطاعه المماليك البهلوانية فاستولى عليها وهرب منه شمس الدين ايتغمش الى بغداد فلما وصل اليها امر الخليفة بالاحتفال به فى اللقاء فخرج الناس كافة وكان يوم وصوله مشهودا ثم قدمت زوجته فى رمضان فى محمل فأكرمت وأنزلت عند زوجها وأقام ببغداد الى سنة عشر وستمائة فسار عنها فكان من امره ما نذكره

﴿ذكر نهب الحاج بمنى﴾

وفى هذه السنة نهب الحاج بمنى وسبب ذلك ان باطنيا وثب على بعض اهل الامير قتادة صاحب مكة فقتله بمنى ظنا منه انه قتادة فلما سمع قتادة ذلك جمع الاشراف والعرب والعبيد واهل مكة وقصدوا الحاج ونزلوا عليهم من الجبل ورموهم بالحجارة والنبل وغير ذلك وكان امير الحاج ولد الامير ياقوت المقدم ذكره وهو صبى لا يعرف كيف يفعل فخاف وتحير وتمكن أمير مكة من نهب الحاج فنهبوا منهم من كان فى الاطراف وأقاموا على حالهم الى الليل فاضطرب الحاج وباتوا باسوأ حال من شدة الخوف من القتل والنهب فقال بعض الناس لامير الحاج لينتقل بالحاج الى منزلة حجاج الشام فأمر بالرحيل فرفعوا أثقالهم على الجمال واشتغل الناس بذلك فطمع العدو فيهم وتمكن من النهب والتحق من سلم بحجاج الشام فاجتمعوا بهم ثم رحلوا الى الزاهر ومنعوا من دخول مكة ثم أذن لهم فى ذلك فدخلوها وتمموا حجهم وعادوا ثم أرسل قتادة ولده وجماعة من أصحابه الى بغداد فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والاكفان فقبلوا العتبة واعتذروا مما جرى على الحجاج

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة أظهر الاسماعيلية ومقدمهم جلال الدين بن فلان بن حسن بن الصباح الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها وامر باقامة الصلوات وشرائع الاسلام ببلادهم من خراسان والشام وأرسل مقدمهم رسلا الى الخليفة وغيره من ملوك الاسلام يخبرهم بذلك وأرسل ولده الى الحج فأكرمت ببغداد اكراما عظيما وكذلك بطريق مكة وفيها اسلح جمادى الآخرة توفى أبو حامد محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعى بمدينة الموصل وكان اماما فاضلا اليه انتهت رياسة الشافعية لم يكن فى زمانه مثله وكان حسن الاخلاق كثير التجاوز عن الفقهاء والاحسان اليهم رحمه الله وفيها فى شهر ربيع الاول توفى القاضى أبو الفضائل على بن يوسف بن أحمد بن الآمدى الواسطى قاضيها وكان نعم الرجل وفيها فى شعبان توفى المعين أبو النتوح عبد الواحد بن أبى أحمد بن على الامين شيخ الشيوخ ببغداد وكان مولده بجزيرة كاس مضى اليها رسولا من الخليفة وكان من أصدقائنا وبيننا وبينه مودة متأكدة وصحبة كثيرة وكان من عباد الله الصالحين

بين حاس وساق * وقد فضحه ابن بنان فى جوده * وفضله بالسخاء عن موجوده * ثم لم يعترض له صيانة لفعاله * ولم يقترف عليه من بعدها بابعز حاله وجماله * هذا ان الامير نصر اورث العز أباه * ولم يخدم مدى العمر الا أخاه ولم يثنه غير فراغ الاكياس عن شغل المواهب * وملول الاسياف عن قراع الكتائب * وقطيعة الدنيا فى صلة الرحم * وعصيان الهوى فى طاعة السلطان ولى النعم * نشأ بين القرآن والتفسير والايمان والتذكير * والعلم بالصلاة والصيام * والفرق بين الحلال والحرام * وسخر الورى بطرف العنان * وسن العلا بحد السنان * قد اقتسمت أيامه شرائط السلم باسمة الثغور * أو الحرب ظاهرة البسور * فاما المفاخر والبواتر * واما الدفاتر والمحابر واما المحاضر والمنابر

رحمه الله ورضى عنه وله كتابة حسنة وشعر جيد وكان عالما بالفقه وغيره ولما توفى رتب أخوه زين الدين عبد الرزاق بن أبى احمد وكان ناظرا على المارستان العضدى فتركه واقتصر على الرباط وفيها فى ذى الحجة توفى محمد بن يوسف بن محمد بن عبيد الله النيسابورى الكاتب الحسن الخط وكان يؤدى طريقة ابن البواب وكان فقيها حاسبا متكلما وفيها توفى عمر بن مسعود أبى العز أبو القاسم البزاز البغدادى بها وكان من الصالحين يجتمع اليه الفقراء كثيرا ويحسن اليهم وتوفى أيضا أبو سعيد الحسن بن محمد بن الحسن بن حمدون الثعلبى العذوى وهو والد مصنف التذكرة وكان عالما

﴿ثم دخلت سنة تسع وستمائة﴾

﴿ذكر قدوم ابن منكلى بغداد﴾

فى هذه السنة فى المحرم قدم محمد بن منكلى المستولى على بلاد الجبل الى بغداد وسبب ذلك ان أباه منكلى لما استولى على بلاد الجبل وهرب ايتغمش صاحبها منها الى بغداد خاف أن يساعده الخليفة ويرسل معه العساكر فيعظم الامر عليه لانه لم يكن قد تمكن فى البلاد فأرسل ولده محمدا ومعه جماعة من العسكر فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يتلقونه وانزل وأكرم وبقى ببغداد الى أن قتل ايتغمش فخلع عليه وعلى من معه وأكرموا وسيرهم الى أبيه

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر والشام على أمير اسمه اسامة كان له اقطاع كثيرة من جملتها حصن كوكب من أعمال الاردن بالشام وأخذ منه حصن كوكب وخربه وعفى أثره ومن بعده بنى حصنا بالقرب منه على جبل يسمى الطور وهو معروف هناك وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح وفيها توفى الفقيه محمد بن اسمعيل بن أبى الصيف اليمنى فقيه الحرم الشريف بمكة

﴿ثم دخلت سنة عشر وستمائة﴾

﴿ذكر قتل ايتغمش﴾

فى هذه السنة فى المحرم قتل ايتغمش الذى كان صاحب همذان وقد ذكرنا سنة ثمان انه قدم الى بغداد وأقام بها فانعم عليه الخليفة وشرفه بالخلع وأعطاه الكوسات وما يحتاج اليه وسيره الى همذان فسار فى جمادى الآخرة عن بغداد قاصدا الى همذان فوصل الى بلاد ابن تركجم واجتمعا وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد اليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم وكان الخليفة قد عزل سليمان بن تركجم عن الامارة على عشيرته من التركمان الايوانية وولى أخاه الاصغر فأرسل سليمان الى منكلى يعرفه بحال ايتغمش ومضى هو على وجهه فأخذوه فقتلوه وحملوا رأسه الى منكلى وتفرق من معه من أصحابه فى البلاد لا يلوى أخ على أخيه ووصل الخبر بقتله الى بغداد فعظم على الخليفة ذلك وأرسل الى منكلى ينكر عليه ما فعل فاجاب جوابا شديدا وتمكن من البلاد وقوى أمره وكثرت جموعه وعساكره وكان من أمره ما نذكره ان شاء الله

﴿ذكر عدة حوادث﴾

حج بالناس فى هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلى نيابة عن أمير الحاج ابن ياقوت

ومنع

*واما القماطر والمساطر
فيوما فى جحيم الغضب
ويوما فى نعيم الادب*ويوما
بين ظلال السيوف*ويوما
بين معانى الحروف*رفيقه
اذا احتبى زج أو قبعه*
ونديمه اذا احتبى حكمة
أو شريعه*فكم له فى ديار
الهند من وقائع أنطقت
الحديد*وأخرست الوليد
*وسكرت البنوق*وخجرت
العروق*وغادرت بيض
الرباع فى خمرة الليل
*وخضبت الجربى عن
ثميلة الكحيل*وكم فى نوادى
الفضل له من محاسن تلثم
أطرافها الكلم*وتعشق
أوصافها الاسم*وتسجد
لاعقابها الحكم*ويأوى
الى برد ظلالها الكرم*
وقد غنيت بذوب العقول*
عن صفو الشمول*وجلو
المقال*عن كعب الغزال
وبفرد البراهين*عن نزه
الرياحين*فالخامل على

ومنع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاج فى ولايته وفيها فى المحرم توفى الحكيم المهذب على بن أحمد بن مقبل الطبيب المشهور وكان أعلم أهل زمانه بالطب روى الحديث وكان مقيما بالموصل وبها مات وكان كثير الصدقة حسن الاخلاق وله تصنيف حسن فى الطب وفيها توفى اسمعيل بن على البغدادى الفقيه الحنبلى صاحب ابن المنى وفيها توفى أيضا احمد بن مسعود التركستانى الفقيه الحنفى ببغداد وهو مدرس مشهد أبى حنيفة وفيها فى جمادى الاولى توفى معز الدين أبو المعالى سعد بن على المعروف بابن حديد الذى كان وزير الخليفة الناصر لدين الله وكان قد ألزم بيته ولما توفى حمل تابوته الى مشهد أمير المؤمنين على عليه السلام بالكوفة وكان حسن السيرة فى وزارته كثير الخير والنفع للناس

﴿ثم دخلت سنة احدى عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند﴾

هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة اى سنة كانت انما هى اما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل لان الذى اخبر بها كان من اجناد الموصل وسافر الى تلك البلاد واقام بها عدة سنين وسار مع الامير ابى بكر الذى فتح كرمان ثم عاد فاخبرنى بها على شك من وقتها وقد حضرها فقال خوارزمشاه محمد بن تكش كان من جملة أمراء ابيه اميرا اسمه ابو بكر ولقبه تاج الدين وكان فى ابتداء امره جمالا يكرى الجمال فى الاسفار ثم جاءته السعادة فاتصل بخوارزمشاه وصار سيروان جماله فرأى منه جلدا وامانة فقدمه الى أن صار من اعيان أمراء عسكره فولاه مدينة زوزن وكان عاقلا ذا رأى وحزم وشجاعة فتقدم عند خوارزمشاه تقدما كثيرا فوثق به اكثر من جميع امراء دولته فقال أبو بكر لخوارزمشاه ان بلاد كرمان مجاورة لبلادى فلو أضاف السلطان الى عسكرا لملكتها فى اسرع وقت فسير معه عسكرا كثيرا فمضى الى كرمان وصاحبها اسمه حرب بن محمد بن أبى الفضل الذى كان صاحب سجستان ايام السلطان سنجر فقاتله فلم يكن له به قوة وضعف فملك أبو بكر بلاده فى اسرع وقت وسار منها الى نواحى مكران فملكها كلها الى السند من حدود كابل وسار الى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران فاطاعه صاحبها واسمه ملشك وخطب بها لخوارزمشاه وحمل عنها مالا وخطب له بقلهات وبعض عمان لان اصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة والبحر يقطع بينهم انهم يتقربون اليه بالطاعة ليأمن اصحاب المراكب التى تسير اليهم عنده فان هرمز مرسى عظيم ومجمع للتجار من اقاصى الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد وكان بين صاحب هرمز وبين صاحب كيش حروب وغاورات وكل منهما ينهى أصحاب المراكب ان ترسى ببلد خصمه وهم كذلك الى الآن وكان خوارزمشاه يصيف بنواحى سمرقند لاجل الترا صحاب كشلى خان لئلا يقصد بلاده وكان سريع السير اذا قصد جهة سبق خبره

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة قتل مؤيد الملك الشهرى وكان قد وزر لشهاب الدين الغورى ولتاج الدين الدز بعده وكان حسن السيرة جميل الاعتقاد محسنا الى العلماء وأهل الخير يزورهم ويبرهم ويحضر الجمعة ماشيا وحده وكان سبب قتله ان بعض عسكر الدز كرهوه وكان كل سنة يتقدم

ذكره محشور * وكان سيبويه من نشره منشور وأئمة الهدى عليه عكوف وملائكة العرش حوله صفوف * فمن صحيفة الذكر منشوره * وأخرى بأقلام العدل مسطوره * لا لغو فيها ولا تأثيم الا قيلا صوابا وحديثا كخالص التبر مذابا نقص عليه الدهر كانه ان الدهر غيور * وعلى عقائل الزمان جسور * فصرعه كيادا للنظار * وأضجعه عنادا للاحرار * شاغلا عن الجود يمينه * وعن البجود جبينه * وعن الذكر لسانه * وعن الغزو

الى البلاد الحارة بين يدى الدز اول الشتاء فسار هذه السنة كعادته فجاء أربعون نفرا اتراكا وقالوا له السلطان يقول لك تحضر جريدة فى عشرة نفرلهم تجند فسار معهم جريدة فى عشرة مماليك فلما وصلوا الى نهر وند بالقرب من ماء السند قتلوه وهربوا ثم انهم ظفروا بهم خوارزمشاه محمد فقتلهم وفيها فى رجب توفى الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلى البغدادى ببغداد وكان قد ولى عدة ولايات وكان يتهم بمذهب الفلاسفة حتى انه رأى أبوه يوما عليه قميصا بخاريا فقال ما هذا القميص فقال بخارى فقال ابوه هذا اعجب ما زلنا نسمع مسلم والبخارى وأما كافر والبخارى ما سمعنا وأخذت كتبه قبل موته بعدة سنين وأظهرت فى ملا من الناس ورؤى فيها من تبخير النجوم ومخاطبة زحل بالالهية وغير ذلك من الكفريات ثم أحرقت بباب العامة وحبس ثم أفرج عنه بشفاعة أبيه واستعمل بعد ذلك وفيها ايضا توفى ابو العباس احمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بابن الزاهد ببغداد وكان عالما بالنحو واللغة وفى شعبان منها توفى أبو المظفر محمد بن على بن البسل اللورى الواعظ ودفن برباط على نهر عيسى ومولده سنة عشر وخمسمائة وفى شوال منها توفى عبد العزيز بن محمود بن الاخضر وكان من فضلاء المحدثين وله سبع وثمانون سنة

﴿ثم دخلت سنة اثنتى عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر قتل منكلى وولاية ايغمش ما كان بيده من الممالك﴾

فى هذه السنة فى جمادى الاولى انهزم منكلى صاحب همذان واصفهان والرى وما بينهم من البلاد ومضى هاربا فقتل وسبب ذلك انه كان قد ملك البلاد كما ذكرناه وقتل ايتغمش فأرسل اليه من الديوان الخليفى رسول ينكر ذلك عليه وكان أوحش الامير أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان وهو صاحبه ومخدومه فارسل الخليفة اليه يحرضه على منكلى ويعده البصرة وارسل ايضا الى جلال الدين الاسماعيلى صاحب قلاع الاسماعيلية ببلاد العجم ألموت وغيرها يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلى واستقرت القاعدة بينهم على ان يكون للخليفة بعض البلاد ولاوزبك بعضها ويعطى جلال الدين بعضها فلما استقرت القواعد على ذلك جهز الخليفة عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم مملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع وأرسل الى مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك وهو اذ ذاك صاحب اربل وشهرزور واعمالها يأمره أن يحضر بعساكره ويكون مقدم العساكر جميعها واليه المرجع فى الحرب فحضر وحضر معه عسكر الموصل وديار الجزيرة وعسكر حلب فاجتمعت عساكر كثيرة وساروا الى همذان فاجتمعت العساكر كلها فانزاح منكلى من بين ايديهم وتعلق بالجبال وتبعوه فنزلوا بسفح جبل هو فى أعلاه بالقرب من مدينة كرج وضاقت الميرة والاقوات على العسكر الخليفى جميعه ومن معهم فلو أقام منكلى بموضعه لم يمكنهم المقام عليه اكثر من عشرة ايام لكنه طمع فنزل ببعض عسكره من الجبل مقابل الامير اوزبك فحملوا عليه فلم يثبت اوزبك ومضى منهزما فعاد اصحاب منكلى وصعدوا الجبل وعاد اوزبك الى خيامه فطمع منكلى حينئذ ونزل من الغد فى جميع عسكره واصطفت العساكر للحرب واقتتلوا أشد قتال يكون فانهزم منكلى وصعد الجبل فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود اليه وكان قصارا هم العود عنه لكنه

سيفه وسنانه * حتى اذا كاد يطمع فى انتعاشه واستكانه وقد وزن على معيار الفداء باضعاف جثمانه * فجعه بروحه الطاهره * ونفسه القيم تفرد الانعيم الآخره * فسعاه عن العمر أنضر ما كان غصن شباب * وأنطقه فصل خطاب * واكرمه عود نضاره * وأحفظه حق ذمار وأوثقه بالدنيا دار قرار * فكم هنالك من ستور مهتوكة * ودموع مسفوكة * وجيوب مشقوقة * ورؤس محلوقة * وصدور مكلومة * وخدود بنعال السبت ملطومة * ومى الحدثان نسوة آل نصر

اتخذ الليل جملا وفارق موضعه ومضى منهزما فاتبعه نفر يسير من عسكره وفارقه الباقون وتفرقوا أيدي سبا واستولى عسكر الخليفة واوزبك على البلاد فاعطى جلال الدين ملك الاسماعيلية من البلاد ما كان استقر له وأخذ الباقي اوزبك فسلمه الى اعلمش مملوك اخيه وكان قد توجه الى خوارزمشاه علاء الدين محمد وبقي عنده ثم عاد عنه وشهد الحرب وابلى فيها فولاه اوزبك البلاد وعاد كل طائفة من العسكر الى بلادهم واما منكلي فانه مضى منهزما الى مدينة ساوة وبها شحنة هو صديق له فارسل اليه يستأذنه في الدخول الى البلد فاذن له ودخل اليه وخرج فلقيه وقبل الارض بين يديه وادخله البلد وأنزله في داره ثم اخذ سلاحه واراد أن يقيده ويرسله الى اعلمش فسأله ان يقتله هو ولا يرسله فقتله وارسل رأسه الى اوزبك وارسله اوزبك الى بغداد وكان يوم دخوله يوما مشهودا الا أنه لم تتم المسرة للخليفة بذلك فانه وصل ومات ولده في تلك الحال فاعيد ودفن

﴿ذكر وفاة ابن الخليفة﴾

في هذه السنة في العشرين من ذي القعدة توفي ولد الخليفة وهو الاصغر وكان يلقب الملك المعظم واسمه ابو الحسن علي وكان احب ولدي الخليفة اليه وقد رشحه لولاية العهد بعده وعزل ولده الاكبر عن ولاية العهد واطرحه لاجل هذا الولد وكان رحمه الله كريما كثير الصدقة والمعروف حسن السيرة محبوبا الى الخاص والعام وكان سبب موته انه أصابه اسهال فتوفي وحزن عليه الخليفة حزنا لم يسمع بمثله حتى انه أرسل الى اصحاب الاطراف ينهاهم عن انفاذ رسول اليه يعزيه بولده ولم يقرأ كتابا ولا سمع رسالة وانقطع وخلا بهمومه واحزانه ورؤي عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله ولما توفي أخرج نهارا ومشى جميع الناس بين يدي تابوته الى تربة جدثه عند قبر معروف الكرخي فدفن عندها ولما أدخل التابوت اغلقت الابواب وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة فقيل ان ذلك صوت الخليفة وأما العامة ببغداد فانهم وجدوا عليه وجدا شديدا ودامت المناحات عليه في اقطار بغداد ليلا ونهارا ولم يبق ببغداد محلة الا وفيها النوح ولم تبق امرأة الا واظهرت الحزن وما سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه وكان موته وقت وصول رأس منكلي الى بغداد فان الموكب أمر بالخروج الى لقاء الرأس فخرج الناس كافة فلما دخلوا بالرأس الى رأس درب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة فاعيد الرأس وهذا دأب الدنيا لا يصفو ابدا فرحها من ترح وقد تخلص مصائبها من شوائبه الترح

﴿ذكر ملك خوارزمشاه غزنة واعمالها﴾

في هذه السنة في شعبان ملك خوارزمشاه محمد بن تكش مدينة غزنة واعمالها وسبب ذلك ان خوارزمشاه لما استولى على عامة خراسان وملك باميان وغيرها ارسل الى تاج الدين صاحب غزنة وقد تقدمت اخباره حتى ملكها يطلب منه ان يخطب له ويضرب السكة باسمه ويرسل اليه قيلا واحدا لينصالحه ويبذل غزنة ولا يعارضه فيها فاحضر الامراء واعيان دولته واستشارهم وكان فيهم اكبر امير اسمه قتلغ تكين وهو من مماليك شهاب الدين الغوري ايضا واليه الحكم في دولة الدز وهو النائب عنه بغزنة فقال الرأي ان تخطب له وتعطيه ما طلب وتستريح من

بعقد ارسمدن له سمودا
فرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوههن البيض سودا
حتى اذا نشر رداء الردى
عليه * وقربت حولة البلى
اليه * تنازعته اكف الرجال
كما تنازعته من قبل ظماء
الآمال * فكأن الشمس
غبراء من حشو التراب *
والارض غرقى من دموع
المصاب * والآذان
موقورة من رفع العقائر
والابصار مخطوفة من
نقض الغدائر * وقد غدت
الوجوه مستورة للنظار *
والجوع محشورة للاعتبار *
والعيون بين جوم تجري
سواقيه * وجود لا تندى
ماقيه * ووقت زهر
النجوم لوصادفن ليلا

الحرب والقتال وليس لنا بهذا السلطان قوة فقال الجماعة مثل قوله فاجاب الى ما طلب منه وخطب لخوارزمشاه وضرب السكة باسمه وارسل اليه رسولا واعاد رسوله اليه ومضى الى الصيد فارسل قتلغ تكين من غزنة الى خوارزمشاه يطلبه ليسلم اليه غزنة فسار مجدا وسبق خبره فسلم اليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها فلما دخل اليها قتل من بها من عسكر الغورية لاسيما الاتراك فوصل الخبر الى الدز بذلك فقال ما فعل قتلغ تكين وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها فقيل هو الذى احضره وسلم اليه فمضى هاربا هو ومن معه الى لهاور وأقام خوارزمشاه بغزنة فلما تمكن منها احضر قتلغ تكين فقال له كيف حالك مع الدز وكان علم ما به وانما أراد ان تكون له الحجة عليه فقال كلانا مماليك شهاب الدين ولم يكن الدز يقيم بغزنة الا أربعة اشهر الصيف وأنا الحاكم فيها والمرجع الى فى كل الامور فقال له خوارزمشاه اذا كنت لا ترعى لرفيقك ومن احسن اليك صحبته واحسانه فكيف يكون حالى انا معك وما الذى تصنع مع ولدى اذا تركته عندك فقبض عليه وأخذ منه اموالا جمة حملها ثلاثون دابة من اصناف الاموال والامتعة واحضر أربعمائة مملوك فلما أخذ ماله قتله وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وأمرائه وقيل ان ملك خوارزمشاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستمائة

﴿ذكر استيلاء الدز على لهاور وقتله﴾

لما هرب الدز من غزنة الى لهاور لقيه صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغورى ايضا وله من البلاد لهاور وملتان واوجه وديبل وغير ذلك الى ساحل البحر ومعه نحو خمسة عشر الف فارس وكان قد بقى مع الدز نحو ألف وخمسمائة فارس فوقع بينهما مصاف واقتتلوا فانهزمت ميمنة الدز وميسرته وأخذت الفيلة التى معه ولم يبق له غير فيلين معه فى القلب فقال الفيال اذا الخاطر بسعادتك وأمر احد الفيلين أن يحمل على العلم الذى لقباجة يأخذه وامر الفيل الآخر الذى له ايضا أن يأخذ الجتر الذى له فاخذه ايضا والفيلة المعلمة تفهم ما يقال لها هذا رأيناه فحمل الفيلان وحمل معهما الدز فمن بقى عنده من العسكر وكشف رأسه وقال بالهجمية ما معناه اما ملك واما هالك واختلط الناس بعضهم ببعض وفعل الفيلان ما أمرهما الفيال من أخذ العلم والجتر فانهزم قباجة وعسكره وملك الدز مدينة لهاور ثم سار الى بلاد الهند لملك مدينة دهلى وغيرها مما بيد المسلمين وكان صاحب دهلى أميرا اسمه الترمش واقبه شمس الدين وهو من مماليك قطب الدين ايبك مملوك شهاب الدين ايضا كان قد ملك الهند بعد سيده فلما سمع به الترمش سار اليه فى عساكره كلها فلقيه عند مدينة سمانا فاقتتلوا فانهزم الدز وعسكره وأخذ وقتل وكان الدز محمود السيرة فى ولايته كثير العدل والاحسان الى الرعية لاسيما التجار والغرباء ومن محاسن اعماله انه كان له أولاد ولهم معلم يعلمهم فضرب المعلم أحدهم فمات فاحضره الدز وقال له يا مسكين ما حملك على هذا فقال والله ما أردت الا تأديبه فاتفق ان مات فقال صدقت واعطاه نفقة وقال له تغيب فان امه لا تقدر على الصبر فربما أهلكتك ولا أقدر امنع عنك فلما سمعت ام الصبى بموته طلبت الاستاذ لتقتله فلم تجده فسلم وكان هذا من أحسن ما يحكى عن احد من الناس

فدعون ويلا وتناوحن على المصاب خميلا خميلا
وأما الليل فقد أحسن فيه من قال وان ركب الارتجال
لقد بكت الليالى فى دجاها لموت القرم مصباح الانام
فأشخاص النجوم الزهر مما تجسم من مدامعها السجام
ويظل هجيرى كل ثاكل سائر وصائر الى موقف الوداع حائر
من كان مسرورا بموت أميرنا فليأت نسوته بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه بالصبح قبل تبلج الاسحار
يخمشن حر وجوههن على فتى عف الشمائل طيب الاخبار
قد كن يخبأن الوجوه تسترا فاليوم حين برزن للنظار
ها انا لله وانا اليه راجعون من شعوب تركت القلوب شعوبا

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة توفى الوجيه المبارك بن أبى الازهر سعيد بن الدهان الواسطى النحوى الضرير كان نحويا فاضلا قرأ على الكمال بن الانبارى وعلى غيره وكان حنبليا فصار حنفيا ثم صار شافعيا فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتى

ألا مبلغا عنى الوجيه رسالة * وان كان لا تجدى لديه الرسائل
تذهبت للنعمان بعدا بن حنبل * وفارقته اذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعى تدينا * ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعد قليل أنت لاشك صائر * الى مالك فافطن لما انا قائل

(ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة الملك الظاهر)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام وكان مرضه اسهالا وكان شديد السيرة ضابطا للامور كلها كثير الجمع للاموال من غير جهاتها المعتادة عظيم العقوبة على الذنب لا يرى الصفح وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجرى عليهم الجارى الحسن ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولده الصغير اسمه محمد ولقبه الملك العزيز غياث الدين عمره ثلاث سنين وعدل عن ولده الكبير لان الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل ابى بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد فعهد بالملك له ليبقى عمه البلاد عليه ولا ينازعه فيها ومن أعجب ما يحكى ان الملك الظاهر قبل مرضه أرسل رسولا الى عمه العادل بمصر يطلب منه ان يحلف لولده الصغير فقال العادل سبحان الله أى حاجة الى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادى فقال الرسول قد طلب هذا واختاره ولا بد من اجابته اليه فقال العادل كم من كبش فى المرعى وخروف عند القصاب وحلف فاتفق فى تلك الايام أن توفى الملك الظاهر والرسول فى الطريق ولما عهد الظاهر الى ولده بالملك جعل أتابكه ومربيه خادما روميا اسمه طغربل ولقبه شهاب الدين وهو من خيار عباد الله كثير الصدقة والمعروف ولما توفى الظاهر أحسن هذا شهاب الدين السيرة فى الناس وعدل فيهم وأزال كثيرا من السنن الجائرة وأعاد أملاكا كانت قد أخذت من أربابها وقام بتربية الطفل أحسن قيام وحفظ بلاده واستقامت الامور بحسن سيرته وعدله وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه فمن ذلك تل باشر كان الملك الظاهر لا يقدر أن يتعرض اليه فلما توفى ملكها كيكاوس ملك الروم كما نذكره ان شاء الله تعالى انتقلت الى شهاب الدين وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون هذا الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعف عن أموال الرعية وأقرب الى الخير منهم ولا أعلم اليوم فى ولاة امور المسلمين أحسن سيرة منه فالله يبقيه ويدفع عنه فلقد بلغنى عنه كل حسن وجميل

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى المحرم وقع بالبصرة برد كثير وهو مع كثرته عظيم القدر قيل كان أصغره مثل

واوسعت الاكباد ثقوبا * وكلمت النفوس كروبا
وسفحت العيون غروبا * ونضحت الوجوه قطوبا
ونثرت فناء الاصلاب أنبوبا * وأنبوبا * وسار شخص العلا الى فرضة البلى * فريدا وحيدا * لم يغن عنه جوده * ولم تجد عليه جنوده * ولم تقاتل عنه فيوله * ولم تناضل دونه مرده وكهوله * خلا انه فاح ذكاه ماثره * كما فاح بكاء مجامره * ووهت على عرشه الرغاب * كما وهت حين أثقلها النعم الرغاب *

فليس نسيم المسك ريح حنوطه
ولكنه ذاك الثناء المخلف
وليس سرير العرش ما تسمعونه
ولكنه أصلاب قوم تقصف
أيا ويل العفاة من بعده ما حالهم * وما فعلت بهم آمالهم * لقد انقصم محالهم

النار نجمة الكبيرة وقيل في أكبره ما يستحي الانسان أن يذكره فكسر كثيرا من رؤس النخيل وفي المحرم ايضا سير الخليفة الناصر لدين الله ولدى ابنه المعظم على الى تستر وهما المؤيد والموفق وسار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة وعز الدين الشرابي فأقاما بها يسيرا ثم عاد الموفق مع الوزير والشرابي الى بغداد وأخر رسيع الآخر وفيها في صفر هبت ببغداد ريح سوداء شديدة كثيرة الغبار والقتام وألقت رملا كثيرا وقلعت كثيرا من الشجر فخاف الناس وتضرعوا ودامت من العشاء الآخرة الى ثلث الليل وانكشفت وفيها توفي التاج زيد بن الحسن ابن زيد الكندي أبو اليمن البغدادي المولد والمنشا انتقل بالشام فأقام بدمشق وكان اماما في النحو واللغة وله الاسناد العالي في الحديث وكان ذا فنون كثيرة من أنواع العلوم رحمه الله

(ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة)

(ذكر ملك خوارزم شاه بلاد الجبل)

في هذه السنة سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش الى بلاد الجبل فملكها وكان سبب حركته في هذا الوقت أشياء أحدها انه كان قد استولى على ما وراء النهر وظفر بالخطا وعظم أمره وعلا شأنه وأطاعه القريب والبعيد ومنها انه كان يهوى ان يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان وكان الامر بالضد لانه كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولا وكان سبيله اذا ورد الى بغداد أن يقدم غيره عليه ولعل في عسكره مائة مثل الذي يقدم سبيله عليه فكان اذا سمع ذلك يغضبه ومنها ان اعملش لما ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها كما ذكرناه فلما قتله الباطنية غضب له وخرج لئلا تخرج البلاد عن طاعته فسار مجدا في عساكر تطبق الارض فوصل الى الري فملكها وكان أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس لما بلغه مقتل اعملش جمع عساكره وسار نحو بلاد الجبل طمعا في تملكها فملكها ثم عاد عنها عن حام وممانع فوصل الى اصفهان فأطاعه أهلها وسار منها يريد الري ولم يعلم بقدوم خوارزم شاه فلقيه مقدمة خوارزم شاه فظنها عساكر تلك الديار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد فقاتلهم وجد في محاربتهم حتى كاد يهزمهم فبينما هو كذلك واذا هو قد ظهر له جتر خوارزم شاه فسأل عنه فأخبر به فاستسلم وانهزمت عساكره وأخذ أسيرا وحمل الى بين يدي خوارزم شاه فأكرمه ووعده الاحسان والجميل وأمنه على نفسه واستحلفه على طاعته واستقرت القاعدة بينهما على ان يسلم بعض البلاد اليه ويبقى بعضها وأطلقه وسير معه جيشا الى بلاد فارس ليسلم اليهم ما استقرت القاعدة عليه فلما قدم على ولده الاكبر رآه قد تغلب على بلاد فارس فامتنع من التسليم الى أبيه ثم انه ملك البلاد كما ذكره وخطب فيها لخوارزم شاه وسار خوارزم شاه الى ساوة فملكها وأقطعها العماد الملك عارض جيشه وهو من أهلها ثم سار الى قزوين وزنجان وأبهر فملكها كلها بغير ممانع ولا مدافع ثم سار الى همذان فملكها وأقطع البلاد لاصحابه وملك اصفهان وكذلك قم وقاشان واستوعب ملك جميع البلاد واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان وارّان بأن يخطب له أوزبك في بلاده ويدخل في طاعته ثم انه عزم على المسير الى بغداد فقدم بين يديه أميرا كبيرا في خمسة عشر ألف فارس وأقطعه حلوان فسار حتى وصل اليها ثم أتبعه بأمير آخر فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله فهلكت دوابهم ومات كثير منهم

وانقطع دون هاتيك الموات حقوقهم ومحالهم
كانت بني بهم غادين على سدة
كانت بالابواء تلتزم
وبالافواه تستلم * وبمشير
ركنها يتمسك * وبخدمة
أركانها يتنسك * قد أقفرت
فلا باب ولا بواب * ولا حجاب
ولا حجاب * يسألون أين
الامير * وما فعل السرير *
وأين الحاجب والوزير *
وأين المنادم والسمير * وما
هذه الوحشة المستطاره
والغيرة المثاره * والظلمة
الساجيه * والغمة
الشاجيه * يقولون ركب
الامير يزور أباه * ويحيي
بالسلام محياه * يقضي
نذر الاعتكاف على ثراه *
ويعتذر من هجرة طال
عليها مداه * أفمن يركب
للسلام تضذل أبوابه
ويعدم بقوابه * ويعذل
حجابه * ويوحش منتابه

وطمع فيمن بقي بنو ترجم الاتراك وبنو هكار الاكراد فتخطفوهم فلم يرجع منهم الى خوارزم شاه الا اليسير فقطع خوارزم شاه من ذلك الطريق وعزم على العود الى خراسان خوفا من التركمان انه ظن انه يقضي حاجته ويفرغ من ارادته في المدة اليسيرة فخاب ظنه ورأى البكار بين يديه طويلا فعزم على العود فولى هذان أميرا من أقاربه من جهة والدته يقال له طائيسي وجعل في البلاد جميعها ابنه ركن الدين وجعل معه متوليا لامر دولته عماد الملك الساوي وكان عظيم القدر عنده وكان يحرص على قصد العراق وعاد خوارزم شاه الى خراسان فوصل الى مرو في المحرم سنة خمس عشرة وستمائة وسار من وجهه الى ماوراء النهر ولما قدم الى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر لدين الله وقال انه قدمات وكان ذلك في ذي القعدة سنة أربع عشرة وستمائة ولما قدم مرو قطع الخطبة بها وكذلك ببلخ وبخارا وسرخس وبقي خوارزم وسمرقند وهراة لم تقطع الخطبة فيها الا عن قصد اتركها الان البلاد كانت لا تعارض من اشباه هذا ان أحبوا خطبوا وان أرادوا قطعوا فبقيت كذلك الى ان كان منه ما كان وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسي لم يقصده أحد بأذى الا ألقيه فعله وخبث نيته لاجرم لم يمهل هذا خوارزم شاه حتى جرى له ما نذكره مما لم يسمع بمثله في الدنيا قديما ولا حديثا

(ذكر ما جرى لاتابك سعد مع أولاده)

لما قتل اغلمش صاحب بلاد الجبل هذان واصفهان وما بينهما من البلاد جمع أتابك سعد بن دكلا صاحب فارس عساكره وسار عن بلاده الى اصفهان فملكها وأطاعه أهلها فطمع في تلك البلاد جميعها فسار عن اصفهان الى الري فلما وصل اليها لقي عساكر خوارزم شاه قد وصلت كما ذكرناه فعزم على محاربة مقدمة العسكر فقاتلها حتى كاد يهزمها فظهرت عساكر خوارزم شاه ورأى الجتر فسقط في يديه وألقى نفسه وضعفت قوته وقوة عسكره فولوا الادبار وأخذ أتابك سعد أسيرا وأحضر بين يدي خوارزم شاه فأكرمه وطيب نفسه ووعده الاحسان واستصحبه معه الى ان وصل الى اصفهان فسيره منها الى بلاده وهي تجاورها وسير معه عسكرا مع أمير كبير ليتسلم منه ما كان استقر بينهما فانهما اتفقا على ان يكون لخوارزم شاه بعض البلاد ولاتابك سعد بعضها وتكون الخطبة لخوارزم شاه في البلاد جميعها وكان أتابك سعد قد استخلف ابنه على البلاد فلما سمع الابن باسر أبيه خطب لنفسه بالملكة وقطع خطبة أبيه فلما وصل أبوه ومعه عسكر خوارزم شاه امتنع الابن من تسليم البلاد الى أبيه وجمع العساكر وخرج يقاتله فلما تراءى الجمعان انحازت عساكر فارس الى صاحبهم أتابك سعد وتركوا ابنه في خاصته فحمل على أبيه فلما رآه أبوه ظن انه لم يعرفه فقال له أنا فلان فقال اياك أردت فحينئذ امتنع منه وولى الابن منهزما ووصل أتابك سعد الى البلاد فدخلها ما لكا لها وأخذ ابنه أسيرا فسجنه الى الآن الاني سمعت الآن وهو سنة عشرين وستمائة انه قد خفف حبسه ووسع عليه ولما عاد خوارزم شاه الى خراسان غدر سعد بالامير الذي عنده فقتله ورفع عن طاعة خوارزم شاه واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التي شغلته عن هذا وغيره لكن الله انتقم له بابنه غياث الدين كما ذكرناه سنة عشرين وستمائة لان سعدا كفر احسان خوارزم شاه وكفر الاحسان عظيم العقوبة

ها انه الركوب فتى المعاد
يقولون ميعاده والله المعاد
ألم تروا عروشه بالامس
مهدوده * وغروسه
مخضوده * وجياده مهلوبه
وسروجه مقلوبه * وأياماه
مفجوعه * وأيدي يتاماه
فوق الهام موضوعه *
هنالك نادوا ثبورا * وعلموا
أنه الحق مقدورا * وعقدوا
دون حامة البيت مناحه
وندبوا عين الورى أدبا
وفصاحه * وكرما وسماحه
وأفعالا كما أسفر الصريح
وأبرز كفه الكليم * مغداه
ومراحه يعتبون على
الحجاب * وقد غدوا في بيض
الثياب * أينزع السواد
قد كذب الحداد * الآن
أحوج ما كنتم اليه نزعتموه
هلا خالفتم الرسم للوجوب
ولبستم لبسة المنكوب
وهلا وقفتم وقفة الحجاب
للسيد المحجوب

(ذكر ظهور الفرنج الى الشام ومسيرهم الى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها الى المسلمين)

كان من أول هذه الحادثة الى آخرها أربع سنين غير شهر وانما ذكرناها ههنا لان ظهورهم كان فيها وسقناها سياقة متتابعة ليتلو بعضها بعضا فنقول فى هذه السنة وصلت امداد الفرنج فى البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج فى الغرب والشمال الآن المتولى لها كان صاحب رومية لانه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرّهم وساءهم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمى الفرنج وأمر غيره من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر فسار منها الى الشام فوصل الى الرملة ومنها الى الداروم وبرز الفرنج من عكا يقصدونه فسار العادل نحوهم فوصل الى نابلس عازما على ان يسبقهم الى أطراف البلاد مما يلى عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الاردن فتقدم الفرنج اليه فى شعبان عازمين على محاربته لعلمهم انه فى قلة من العسكر لان العساكر كانت متفرقة فى البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم فى الطائفة التى معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل الى البلاد ويجمع العساكر فوصل الى مرج الصفر فنزل فيه وكان أهل بيسان وتلك الاعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه فلما أقدموا صاروا على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة الا القليل فأخذ الفرنج كل ما فى بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا شيأ كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان الى بانياس وبثوا السرايا فى القرى فوصلت الى خسفين ونوى وأطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها الى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبى والاسرى ما لا يحصى كثرة سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما استراحوا ثم جاؤا الى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا الى عكا وكان هذا من نصف رمضان الى العيد والذى سلم من تلك البلاد كان مختفيا حتى قدر على النجاة ولقد بلغنى أن العادل لما سار الى مرج الصفر رأى فى طريقه رجلا يحمل شيأ وهو يمشى تارة وتارة يقعد ليستريح فعدل العادل اليه وحده فقال له يا شيخ لا تعجل وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال يا سلطان المسلمين أنت لا تعجل فانا اذا رأيتك قد سرت الى بلادك وتركتنا مع الاعداء كيف لا نعجل وبالجملة الذى فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر بالقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق فى قطعة صالحة من الجيش الى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس

(ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها)

لما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهى قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها عن قريب فتقدموا اليها وحصروها وزحفوا اليها وصعدوا فى جبلها حتى وصلوا الى سورها وكادوا يملكونه فاتفق

يا قوم ليس بياض الثوب زينتكم
وقد فجعتم بمولى كله كرم
وردوا عليكم جميعا فضل لبستكم
ان الحداد على المفقود ما التزم
وطفقوا يتناشدون بينهم
عتبا على الزمان * وندبة للفضل والاحسان
يا دهر دونك ما فعلت فقد غدا
بك كل ما يخشى الرجال سليما
من ذا الذى يرجو وفاءك بعدما
غادرت نصرا فى التراب رميما
من كان أعذب شيمة وبحيمة
وألذ مكرمة وأطيب خيما
ومن العجائب والعجائب جمة
أن لا تلام وقد غدوت مليما
يا دهر مالك طاول وقتك ترتمى
روض المعالى بارضا وجميما
يا دهر مالك والكرام
أولى النهى
ماذا يضرك لو تركت كريما
لتسر الامير أباه بلقياه

أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا في البحر الى ديار مصر على ما نذكره ان شاء الله تعالى فتوجه الملك المعظم الى قلعة الطور فخربها الى ان ألحقها بالارض لانها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها

(ذكر حصر الفرنج دمياط الى ان ملكوها)

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا الى ان دخلت سنة خمس عشرة وستمائة فساروا في البحر الى دمياط فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل فان بعض النيل يصب في البحر المالح عند دمياط وقد بنى في النيل برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظا ومدوها في النيل الى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح ان تصعد في النيل الى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصي ديار مصر وادانيها فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرمات وابراجا يزحفون بها في المراكب الى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه وكان البرج مشحونا بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده الى دمياط لمنع العدو من العبور الى أرضها وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشئ وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا البرج فلما ملكوه قطعوا السلاسل فتدخل مراكبهم من البحر المالح في النيل ويتحكموا في البر فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ثم انهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا متتابعا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت المراكب من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري عليه قديما فحفروا ذلك الخليج وعمقوه فوق المراكب التي جعلت في النيل وأجروا الماء فيه الى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه الى موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضا مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك فانهم لم يكن لهم اليه طريق يقاتلونه فيها كانت دمياط تحجز بينهم وبينه فلما صاروا في بورة حاذوه فقاتلوه في الماء وزحفوا اليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شئ لان الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل اليهم أذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل أن الملك العادل توفي في جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة على ما نذكره ان شاء الله فضعفت نفوس الناس لانه السلطان حقيقة وأولاده وان كانوا ملوكا الا انهم بحكمه والامر اليه وهو ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الامراء بمصر أمير يقال له عماد الدين أحمد بن علي ويعرف بابن المشطوب وهو من الاكراد الهكارية وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير وجميع الامراء ينقادون اليه ويطيعونه لا سيما الاكراد فاتفق هذا الامير

وشفى لوعة فلته وصداه
لقد ساء أخاه * بأن عدم
مثواه * وافتقد مصحبه
وعساه * ووكل من بعده
الى نواهس الارض ولو
أحس التراب قراه * لكنه
طويصنع وسيف القضاء
أحد * وحكم السماء حتم
لا يرد

ومن قبله ما قد أصيب نبينا
أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخبر قيس بالجلية في ابنه
فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال علي في التعازي
لا شعث
وخاف عليه بعض تلك المآثم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة
فتؤجر أو تسلو سلو البهائم
خلقنا رجالا للتجلد والاسى
وتلك الغواني للبكا والمآتم
لا در در الموت من وقاح
وقرن كفاح * ما انثنى نابه
الا افترس * ولا ألحج مخلبه
الا انتهس * سواء عليه

مع غيره من الامراء وأرادوا ان يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليسير الحكم اليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر الى الكامل ففارق المنزلة بلاجريدة وسار الى قرية يقال لها اشمون طناح فنزل عندها وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل انسان منهم هواه ولم يقف الاخ على أخيه ولم يقدروا على اخذ شئ من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم الا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقى بحاله من مير وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فانهم أصبحوا من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطئ النيل كجارى عادتهم فبقوا لا يدرون ما الخبر واذا قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته، فعبروا حينئذ النيل الى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع وكان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لانه لم يثق بأحد من عسكره وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وصل الى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين والناس فى أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب الى الشام فاتصل بالملك الاشرف وصار من جنده فلما عبر الفرنج الى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الافساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شئ على أهل دمياط أنهم لم يكن بها من العسكر أحد لان السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وكان ذلك من فعل ابن المشطوب لاجرم لم يمهله الله وأخذه أخذة رابية على ما نذكره ان شاء الله وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليهم خندقا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين وهذه كانت عادتهم وأداموا القتال واشتد الامر على أهلها وتعذرت عليهم الاقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لان الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ومع هذا فصبروا صبرا لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والامراض ودام الحصار عليهم الى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقى من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم فسلموا البلد الى الفرنج فى هذا التاريخ بالامان فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدى سبا

(ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج)

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ما جاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون فجلى أهلها عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى انها بقيت لاتراام وأما الملك الكامل فانه أقام بالقرب منهم فى أطراف بلاده يجمعها ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق الى الشام فخرب البيت المقدس فى ذى القعدة من السنة وانما فعل ذلك لان الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الاسلام وكافة أهله وبلاده على خطة خسف فى شرق الارض وغربها

الملك المجيب * والسلطان المغلب * والمقتر المستضعف والسوقة المتنصف
ألا تعس هذا الموت كيف ارتقى الى حمى قصره العالى المنيع الجوانب
فمر على تلك القنابل والقنا وجاز على تلك القواضى القواضب
عجبت له والموت ليس بعجب وفيه اذا فكرت كل العجائب
لعمرى لقد جراحين غزا على نهاب نفوس واغتيال الكتائب
وفهمه فتح الحصون وانما سوامى المراقى ساميات المراتب
وبصره بالفتك فى غزواته ورمى الرزايا وافتراص المضارب
فكر عليه شدة الليث واتحى كطوف فحول السوء حول القرائب

أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا الى نواحى العراق واذربيجان وأران وغيرها على ماذكره ان شاء الله تعالى وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط فى الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الاعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تملك وخافهم الناس كافة وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها وانما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه الى اخويه المعظم صاحب دمشق والملك الاشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وارمينية وغيرهما يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فان لم يمكن فيرسلان العساكر اليه فسار صاحب دمشق الى الاشرف بنفسه فرآه مشغولا عن انجاده بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستمائة ان شاء الله عند وفاة الملك القاهر صاحب الموصل فليطلب من هناك فعذره وعاد عنه وبقى الامر كذلك مع الفرنج فأما الملك الاشرف فزال الخلف من بلاده ورجع الملوك الخارجون عن طاعته اليه واستقامت له الامور الى سنة ثمان عشرة وستمائة والملك الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة علم بزوال المانع للاشرف عن انجاده فارسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فسار صاحب دمشق بحثه على المسير ففعل وسار الى دمشق فيمن معه من العساكر وأمر الباقين باللحاق به الى دمشق وأقام بها ينتظرهم فأشار عليه بعض أمرائه وخواصه بانفاذ العساكر والعود الى بلاده خوفا من اختلاف يحدث فلم يقبل قولهم وقال قد خرجت للجهاد ولابد من اتمام ذلك العزم فسار الى مصر وكان الفرنج قد سارو اعن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمى بحر اشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ الى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية وأما الاشرف فانه سار حتى وصل مصر فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجه اليه فلقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما على الله يحدث بذلك نصرا وظفرا وأما الملك المعظم صاحب دمشق فانه سار أيضا الى ديار مصر وقصد دمياط ظنا منه ان اخويه وعسكريهما قد نازلوها وقيل بل أخبر فى الطريق ان الفرنج قد توجهوا الى دمياط فاستقبلهم اليها ليلقاهم من بين أيديهم واخواه من خلفهم والله أعلم ولما اجتمع الاشرف بالكامل استقر الامر بينهما على التقدم الى خليج من النيل يعرف بحر المحلة فتقدموا اليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الاموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم هذا يجرى والرسل مترددة بينهم فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ما عدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس لما مروا بها فلم يتم بينهم أمر وقالوا لابد من الكرك فبينما الامر فى هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون الى قتالهم وكان الفرنج لاقتدارهم فى نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظنا منهم ان العساكر

ومن عجيب الامور فى حكم المقدور * أن اختر الامير الماضى برد الله حفرته * ونور غرته * حتف أنفه * على اخطاره بنفسه * فى لحم الحتوف * واعتراضه للشهادة بين الاسنة والسيوف * كخالد بن الوليد حين وافى أجله اذ قال ثاورت الحروب منذ عقلت فما فى بدنى مغرز ابره * الا وفيه جرح ضربة أو وخز طعنه * وها انا أموت ميتة الجبارة ان الحكم الا لله الواحد القهار * أو كلاما شبيها به أما ان خالدا لم يدر أن سيف الله لا يقتل بالسيف * وكذا القتل يرتو الى موت الشباب من خصاص الحيف * وأن الله تعالى لما جعله أكرم النفوس مناقب * قيض له أحمد الامور عواقب * وقد فرغ ابن الرومى من

الاسلامية لاتقوم لهم وان القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لامر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين الى الارض التى عليها الفرنج ففجروا النيل فركب الماء أكثر تلك الارض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فلما سلك الطريق الذى يسلكه الفرنج ان أرادوا العود الى دمياط فلم يبق لهم خلاص واتفق فى تلك الحال انه وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليها شوانى المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط فى أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الامر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف الى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود الى دمياط فرأوا ما أملوه بعيدا وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وان ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وأن المنايا قد كشرت لهم عن انيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل والاشرف يطلبون الامان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات متردّدة اذ أقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا واذ هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل اليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط لما ذكرناه فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والايمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقماصتهم الى الملك الكامل والاشرف رهائن على تسليم دمياط ملك عكا ونائب بابا صاحب رومية وكند ريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكا وراسلوا قسوسهم ورهبانهم الى دمياط فى تسليمها فلم يمتنع من بها وسلموها الى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب ان المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة فى البحر فلو سبقوا المسلمين اليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا ولم يبق بها من أهلها الا آحاد وتفرقوا أيدى سبا بعضهم سار عنها باختياره وبعضهم مات وبعضهم أخذه الفرنج ولما دخلها المسلمون رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق الى نصابه وردّه الى أربابه وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن فى حسابهم فانهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التى أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله اعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكفانا هم شر التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى المحرم كانت ببغداد فتنة بين أهل المأمونية وبين أهل باب الازج بسبب قتل

هذا المعنى مفقود * وبيض وجه البرهان بما سود
ان لم يكن ظفرا فيا حبذا منيته * كرم النبت يذوى غير مختضد
اما ترى الغرس لا تذوى كرائمه * الا على سوقها فى آخر الابد
لمبتة السيف قوم يشرفون بها * كما اكتسوا من المجد فى غاياته البعد
عز الحياة وعز الموت ما اجتمعا * أسنى وأبنى لبيت العز ذى العمد
موت السلامة للانسان نعمته * وانما القتلة الشنعاء للاسد
لم يعمل السيف ظلما فى ضرائبه * فلم يسلط عليه كف ذى قود
ولعمرى ان الرزية به * قدس الله روحه لقاطرة الغموم * مشاطرة بين الرجال على العموم * غير ان القاضى أبا العلاء

سبع وزاد الشر بينهم واقتتلوا فجرح بينهم كثير فحضر نائب الباب وكفهم عن ذلك فلم يقبلوا ذلك وأسمعوه ما يكره فأرسل من الديوان أمير من مماليك الخليفة فردّ أهل كل محلة الى محلتهم وسكنت الفتنة وفيها كثر الفار ببلدة دجيل من اعمال بغداد فكان الانسان لا يقدر أن يجلس الا ومعه عصا يرد الفار عنه وكان يرى الكثير منه ظاهرا يتبع بعضه بعضا وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد فى قديم الزمان مثلها وأشرفت بغداد على الغرق فركب الوزير وكافة الامراء والاعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد وقلق الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك وأعدوا السفن لينجوا فيها وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل وكان مما قال لهم لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت ولو دفع بحرب لفعلت ولكن أمر الله لا يرد ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقى وغرق كثير منه وغرق مشهد أبى حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدى وقرية الملكية والكسك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان واما الجانب الغربى فتهدم اكثر القرية ونهر عيسى والشطيات وخربت البساتين ومشهد باب التبن ومقبرة أحمد بن حنبل والحريم الظاهرى وبعض باب البصرة والدور التى على نهر عيسى واكثر محلة قطفتا وفيها توفى أحمد بن ابى الفضائل عبد المنعم بن ابى البركات محمد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبى الخير الميهنى الصوفى أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد وكان صالحا من بيت التصوف والصلاح

﴿ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته الى أن استقرت الامور﴾

فى هذه السنة توفى الملك القاهر عز الدين مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى ابن آق سنقر صاحب الموصل ليلة الاثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الاول وكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر وكان موته انه أخذته حمى ثم فارقته الغد وبقى يومين موعوكا ثم عاودته الحمى مع قىء كثير وكرب شديد وقلق متتابع ثم برد بدنه وعرق وبقى كذلك الى وسط الليل ثم توفى وكان كريما حليما قليل الطمع فى أموال الرعية كافا عن اذى يوصله اليهم مقبلا على لذاته كانما ينهبها ويبادر بها الموت وكان عنده رقة شديدة ويكثر ذكر الموت * حكى لى بعض من كان يلازمه قال كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لى قد وجدت ضجرا من القعود فقم بنا نتمشى الى الباب العمادى قال فقمنا فخرج من داره نحو الباب العمادى فوصل التربة التى عملها لنفسه عند داره فوقف عندها مفكرا لا يتكلم ثم قال لى والله ما نحن فى شىء أليس مصيرنا الى ههنا وندفن تحت الارض وأطال الحديث فى هذا ونحوه ثم عاد الى الدار فقلت له الا نمشى الى الباب العمادى فقال ما بقى عندى نشاط الى هذا ولا الى غيره ودخل داره وتوفى بعد أيام وأصيب أهل بلاده بموته وعظم عليهم فقده وكان محببا اليهم قريبا من قلوبهم فى كل دار لاجله رنة وعويل ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الاكبر نور الدين ارسلان شاه وعمره نحو عشر سنين وجعل الوصى عليه والمدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذى كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نور الدين قبله وقد تقدم من اخباره ما يعرف به محله وسيرد منها أيضا ما يزيد الناظر بصيرة

صاعد بن محمد وسائر شيعته الشاربين من زلال شريعته أوفر من الاحزان اقساطا وأشد على مرود الاشجان ارتباطا * فقد كان عرف الله تربته لهم ظلا ممدودا وشربا موردا * وكهفا مقصودا * ولواء على نصرة الدين معقودا * ولولا ان الله سد ثلمة المصاب * وخلة الاكتئاب * بملك الشرق وسيد الغرب وحجة الله فى الارض سلطان الزمان يمين الدولة * وأمين الملة * أطال الله تعالى بقاءه * وحفظ على الدين والدنيا بهاءه وسناءه فنى بقائه عوض من كل شاجب * وخلف من كل غارب أو عازب * لا تسع القول فى عظم هذا النعى وفقد ذلك النهاب المضىء والنقاب الالمعى * غير ان النعمة بحمد الله فيما بقى ضافية اللباس * نامية الغراس * ناضرة الاكناف

فيه فلما قضى نحبه قام بدر الدين بامر نور الدين وأجلسه فى مملكة أبيه وأرسل الى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف وأرسل الى الملوك وأصحاب الاطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهد لنور الدين على القاعدة التى كانت بينهم وبين أبيه فلم يصبح الا وقد فرغ من كل ما يحتاج اليه وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من التزلزل والتغير مع صغر السلطان وكثرة الطامعين فى الملك فانه كان معه فى البلد أعمام أبيه وكان عمه عماد الدين زنكى بن اوسلان شاه بولايته وهى قلعة عقر الحميدية يحدث نفسه بالملك لا يشك فى أن الملك يصير اليه بعد أخيه فرفع بدر الدين ذلك الخرق ورتق ذلك الفتق وتابع الاحسان والخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم فلم يخص بذلك شريفا دون مشروف ولا كبيرا دون صغير وأحسن السيرة وجلس لكشف ظلامات الناس وانصاف بعضهم من بعض وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر فى أمر دولته والتشريفات لهما أيضا وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وبذل ما طلب منهم من العهود واستقرت القواعد لهما

﴿ذكر ملك عماد الدين زنكى قلاع الهكارية والزوزان﴾

قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة انه أعطى ولده الاصغر زنكى قلعتى العقر وشوش وهما بالقرب من الموصل فكان تارة يكون بالموصل وتارة بولايته متجنيا لكثرة تلونه وكان بقلعة العمادية مستحفظ من مماليك جده عز الدين مسعود بن مودود قيل انه جرى له مع زنكى مراسلات فى معنى تسليم العمادية اليه فنمى الخبر بذلك الى بدر الدين فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع وسلم القلعة الى نائب بدر الدين كذلك وجعل بدر الدين فى غير العمادية من القلاع نوابا له وكان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضا من جروح كانت به وغيرها من الامراض وكان يبقى المدة الطويلة لا يركب ولا يظهر للناس فأرسل زنكى الى من بالعمادية من الجند يقول ان ابن أخى توفى ويريد بدر الدين يملك البلاد وأنا أحق بملك آبائى وأجدادى فلم يزل حتى استدعاه الجند منها وسلموا اليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة وقبض على النائب البدرى وعلى من معه فوصل الخبر الى بدر الدين ليلا فجد فى الامر ونادى فى العسكر لوقته بالرحيل فساروا مجدين الى العمادية وبها زنكى ليحصروه وفيها فلم يطلع الصبح الا وقد فرغ من تسيير العساكر فساروا الى العمادية وحصروها وكان الزمان شتاء والبرد شديدا والثلج هناك كثير فلم يتمكنوا من قتال من بها لكنهم أقاموا يحصرونها وقام مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب اربل فى نصر عماد الدين وتجرد لمساعدته فراسله بدر الدين يذكره الايمان والعهود التى من جملتها انه لا يتعرض الى شئ من أعمال الموصل ومنها قلاع الهكارية والزوزان باسمائها ومتى تعرض اليها أحد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره وأعان نور الدين وبدر الدين على منعه ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضى منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم فلم يفعل وأظهر معاضدة عماد الدين زنكى فحينئذ لم تمكن مكاثرة زنكى بالرجال والعساكر لقرب هذا الخصم من الموصل وأعمالها الا ان العسكر البدرى محاصر للعمادية وبها زنكى ثم ان بعض الامراء من عسكر الموصل ممن لا علم له بالحرب وكان شجاعا وهو جديد الامارة أراد أن يظهر شجاعته ليزداد بها تقدما وأشار على من هناك من

العسكر

سائلة الاخلاف * فلا زال فضل الله عليه عظيما وصنعه اليه جسيما * ولطفه كريما * ولا خلف عنه الزمان يتيما * وألهمه فيما عراه راجحة الصبر * وعرفه فيما غزاه فاتحة النصر * ولقاه حيث الوهم مواهب تخرط الدنيا فى سلك ملكه وتقررها بحق الوجوب فى قبضة ملكه * ورحم الله ذلك الامير العديم النظير والجليل * الفقيد المثل والبديل رحمة تبرد ضريحه وتقدس روحه وريحه * وعرف له مساعيه فى الذب عن دين الله * والسعى فى سبيل الله * والقرض من ماله لاولياء الله * وعوض الله المشايخ السادة عما دهاهم فأوهاهم ثوابا يحفظ عليهم دينهم * ويثقل فى موقف العدل موازينهم * وجعلنا من المستعدين ليوم الدين ان حكم الله

العسكر باتقدم الى العمادية ومباشرتها بالقتال وكانوا قد تأخروا عنها شيأ يسيرا لشدة البرد والثلج فلم يوافقوه وقبحوا رأيه فتركهم ورحل منقطعا اليهم ليلا فاضطروا الى اتباعه خوفا عليه من اذى يصيبه ومن معه فساروا اليه على غير تعبية لضيق المسالك ولانه أعجلهم عن ذلك وحكم الثلج عليهم أيضا فسمع زنكى ومن معه فنزلوا واقبلوا أوائل الناس وأهل مكة أخبر بشعاعها ثم بثبتهم والهم وانهزموا وعادوا الى منزلتهم ولم يقف العسكر عليهم فاضطروا الى العود فلما عادوا راسل زنكى باقى قلاع الهكارية والزوزان واستدعاهم الى طاعته فأجابوه وساروا اليه فجعل فيها الولاة وتسلمها وحكم فيها

﴿ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الاشرف﴾

لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه ولم ينفع معهم اللين ولا الشدة وانهما لا يزالان يسعيان فى أخذ بلاده ويتعرضان الى اطرافها بالنهب والاذى أرسل الى الملك الاشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة كلها الا القليل وصاحب خلاط وبلادها يطلب منه الموافقة والمعاضدة وانتمى اليه وصار فى طاعته فخرطا فى سلك موافقته فأجابه الاشرف بالقبول والفرح به والاستبشار وبذل له المساعدة والمعاضدة والمحاربة دونه واستعادة ما أخذ من القلاع التى كانت له وكان الملك الاشرف حينئذ بحلب نازلا بظاهرها لما ذكرناه من تعرض كيكاوس ملك بلاد الروم التى بيد المسلمين قونية وغيرها الى أعمالها وملكوا بعض قلاعها فأرسل الى مظفر الدين يقبح هذه الحالة ويقول له ان هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رسلك وانا نكون على الناكث الى أن يرجع الى الحق ولا بثمن اعادة ما أخذ من بلاد الموصل لندوم على اليمين التى استقرت بيننا فان امتنعت وأصررت على معاضدة زنكى ونصرته فانا اجيء بنفسى وعساكرى وأقصد بلادك وغيرها واسترد ما اخذتموه واعيده الى اصحابه والمصلحة انك توافق وتعود الى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية واجلاء الفرنج عنها قبل ان يعظم خطبهم ويستطير شرهم فلم تحصل الاجابة منه الى شيء من ذلك وكان ناصر الدين محمود صاحب الحصن وآمد قد امتنع عن موافقة الاشرف وقصد بعض بلاده ونهبها وكذلك صاحب ماردين واتفقا مع مظفر الدين فلما رأى الاشرف ذلك جهز عسكرا وسيره الى نصيبين لنجدة بدر الدين ان احتاج اليهم

﴿ذكر انهزام عماد الدين زنكى من العسكر البدرى﴾

لما عاد العسكر البدرى من حصار العمادية وبها زنكى كما ذكرناه قويت نفسه وفارقها وعاد الى قلعة العقر التى له ليتسلط على أعمال الموصل بالصحراء فان بلاد الجبل كان قد فرغ منه وأمده مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر فلما اتصل الخبر ببدر الدين سير طائفة من عسكره الى اطراف بلاد الموصل يحمونها فاقاموا على أربعة فراسخ من الموصل ثم انهم اتفقوا بينهم على المسير الى زنكى وهو عند العقر فى عسكره ومحاربته فقعلوا ذلك ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل أعلموه بمسيرهم جريدة ليس معهم الا سلاحهم ودواب يقاتلون عليها فساروا الى بلتهم وصبحوا زنكى بكرة الاحد لاربع بقين من المحرم من سنة ست عشرة وستمائة فالتقوا واقتتلوا تحت العقر وعظم الخطب فأنزل الله نصره على العسكر البدرى فانهزم عماد الدين وعسكره وساروا الى

على العباد بالموت يقرى الجفلى * والخلق فيها شرع * والآخر الاول تبع * والحمد لله على كل حال * والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله خير آل * (ذكر ما انتهى اليه أمرى بعد بلوغ هذا المكان من شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة * من قصد الوزير شمس الكفاه * واقتضائه حق الخدمة والموالاة)

قد سبق فى أول الكتاب ما سلف لى الى الامير ناصر الدين * أبى منصور سبكتكين أثار الله برهانه من خدمه * وتعهد عنده من الوذمه وغرست أثناء ذلك فى التقرب الى الوزير شمس الكفاه * والتكفل بما رآه والتجرد لما أرضاه ما رجوت على الايام ايراق شجره وايناق نوره وثمره بعد أن

اربل منهزما وعاد العسكر البدرى الى منزلته التى كان بها وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله ومن الملك الاشرف فى تجديد الصلح فاصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسل

(ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه)

ولما تقرر الصلح توفى نور الدين ارسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل وكان لا يزال مريضا بعدة امراض فرتب بدر الدين فى الملك بعده أخاه ناصر الدين وله من العمر نحو ثلاث سنين ولم يكن للقاهر ولد غيره وحلف له الجند وركبه فطابت نفوس الناس لان نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه فلما ركبوا هذا علموا ان لهم سلطانا من البيت الاتابكى فاستقروا واطمأنوا وسكن كثير من الشغب بسببه

(ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين)

لما توفى نور الدين وملك أخوه ناصر الدين تجدد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر الدين فجمعا الرجال وتجهزا للحركة فظهر ذلك وقصد بعض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب والفساد وكان بدر الدين قد سير ولده الاكبر فى جمع صالح من العسكر الى الملك الاشرف بحلب نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التى بساحل الشام ينهبها ويخربها ليعود بعض من بدمياط الى بلادهم فيخف الامر على الملك الكامل صاحب مصر فلما رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين وان بعض عسكره بالشام أرسل الى عسكر الملك الاشرف الذى بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم وكان المقدم عليهم مملوك الاشرف اسمه ايبك فسار الى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة فلما رآهم بدر الدين استقلهم لانهم كانوا أقل من العسكر الذى له بالشام أو مثلهم فالح ايبك على عبور دجلة وقصد بلاد اربل فمنعه بدر الدين من ذلك وأمره بالاستراحة فنزل بظاهر الموصل أياما وأصر على عبور دجلة فعبرها بدر الدين موافقة له ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقى دجلة فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار اليهم ومعه زنكى فعبر الزاب وسبق خبره فسمع به بدر الدين فعبى أصحابه وجعل ايبك فى الجاشية ومعه شجعان أصحابه وأكثر معه منهم بحيث انه لم يبق معه الا اليسير وجعل فى ميسرته أميرا كبيرا وطلب الانتقال منها الى الميمنة فنقله فلما كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الامير الطلب بالانتقال من الميمنة الى الميسرة والخصم بالقرب منهم فمنعه بدر الدين وقال متى انتقلت أنت ومن معك فى هذا الليل ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد فأقام بمكانه وهو فى جمع كبير من العسكر فلما انتصف الليل سار ايبك فأمره بدر الدين بالمقام الى الصبح اقرب العدو منهم فلم يقبل لجهله بالحرب فاضطر الناس لاتباعه فتقطعوا فى الليل والظلمة والتقوا هم والخصم فى العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل فأما عز الدين فانه تيامن والتحق بالميمنة وحمل فى اطلابه هو والميمنة على ميسرة مظفر الدين فهزمها وبها زنكى وكان الامير الذى انتقل الى الميمنة قد أبعد عنها فلم يقاتل فلما رأى ايبك قد هزم الميسرة تبعه وتقدم اليه مظفر الدين فيمن معه فى القلب لم يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد الى الموصل وعبر دجلة الى القلعة ونزل منها الى البلد فلما رآه الناس فروا عنه وساروا معه وقصد باب الجسر والعدو بازائه بينهما دجلة فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره وزايل حصن نينوى فاقام ثلاثة أيام فلما رأى اجتماع العسكر البدرى

بالموصل

صادفت من آثار رعايته
مالم يكن يليق الابهمته
ومانشأ من كريمة المجد فى
ضمان ذمته * فرأى عند
وصولى اليه * وعرضى
موضوع الكتاب ومجموعه
عليه * أن يسمى بالتقليد
ويسيرنى الى كنج رستاق
على البريد * وعليها فرعون
يون ابو الحسن البغوى
الغوى شيخ ظاهره نور
وباطنه ديجور * ومنظاره متن
السيف * ومخبره رد الزيف
وأول مشور العاسل * وآخره
قرون السنابل * فافتتح
موفدى عليه باستهانة لم
تناسب حشمة الامراء ولا
حرمة الاقلام والمحابر
يوهم من جانب انه مبعوث
ومن آخران الحقد موروث
وقد كذب ان الزعاق
من منبع الشريب محال
ووراثة محبات الاولاد حلال
* ومن علمنا ان موالاة الابناء
معاداة الآباء وان والدا

بالموصل وانهم لم يفقد منهم الا اليسير وبلغه الخبر ان بدر الدين بريد العبور اليه ليلا بالفارس والراجل على الجسور وفى السفن ويكبسه فرحل ليلا من غير أن يضرب كاسا أو بوقا وعادوا نحو اربل فلما عبروا الزاب نزلوا ثم جاءت الرسل وسعوا فى الصلح فاصطلحوا على أن كل من بيده شئ هو له وتقررت العهود والايمان على ذلك

(ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشى وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الاشرف سنجار)

كواشى هذه من أحصن قلاع الموصل واعلاها وامنعها وكان الجند الذين بها المار أوامافعل اهل العمادية وغيرهامن التسليم الى زنكى وانهم قد تحكموا فى القلاع لا يقدر احد على الحكم عليهم احبوا ان يكونوا كذلك فأخرجوا النواب بدر الدين عنهم وامتنعوا بها وكانت رهائنهم بالموصل وهم يظهرون طاعة بدر الدين ويبطنون المخالفة فتردد الرسل فى عودهم الى الطاعة فلم يفعلوا وراسلوا زنكى فى المجئ اليهم وتسلم القلعة واقام عندهم فرسل مظفر الدين يذكرهم الايمان القريبة العهد ويطلب منه اعادة كواشى فلم تقع الاجابة الى ذلك فأرسل حينئذ بدر الدين الى الملك الاشرف وهو بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات الى حران واختلفت عليه الامور من عدة جهات منعته من سرعة السير وسبب هذا الاختلاف ان مظفر الدين كان يراسل الملوك اصحاب الاطراف ليستميلهم ويحسن لهم الخروج على الاشرف ويخوفهم منه اذا خلى وجهه فأجابه الى ذلك عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم وصاحب آمد وحصن كيفا وصاحب ماردين واتفقوا كلهم على طاعة كيكاوس وخطبوا له فى بلادهم ونحن نذكر ما كان بينه وبين الاشرف عند منجم لما قصد بلاد حلب فهو موغر الصدر عليه فاتفق ان كيكاوس مات فى ذلك الوقت وكفى الاشرف وبدر الدين شره ولا جد الا ما أقعص عنك الرجال وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الامراء الذين مع الاشرف واستمالهم فاجابوه منهم أحمد بن على بن المشطوب الذى ذكرنا انه فعل على دمياط ما فعل وهو اكبر امير معه ووافقه غيره منهم عز الدين محمد بن بدر الحميدى وغيرهما وفارقوا الاشرف ونزلوا بدنيسر تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الاشرف من العبور الى الموصل لمساعدة بدر الدين فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد الى موافقة الاشرف وفارقهم واستقر الصلح بينهما وسلم اليه الاشرف مدينة حانى وجبل جور وضمن له أخذ دارا وتسليمها اليه فلما فارقهم صاحب آمد انحل امرهم فاضطرب بعض أولئك الامراء الى العود الى طاعة الاشرف وبقى ابن المشطوب وحده فسار الى نصيبين ليسير الى اربل فخرج اليه شحنة نصيبين فمن عنده من الجند فاقتتلوا فانهزم ابن المشطوب وتفرق من معه من الجمع ومضى منهزما فاجتاز بطرف بلد سنجار فسير اليه صاحبها فروخ شاه بن زنكى بن مودود بن زنكى عسكرا فهزموه وأخذوه اسيرا وحملوه الى سنجار وكان صاحبها موافقا للاشرف وبدر الدين فلما صار عنده ابن المشطوب حسن له مخالفة الاشرف فاجابه الى ذلك وأطلقه فاجتمع معه من يريد الفساد فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل ونهبوا فيها عدة قرى وعادوا الى سنجار ثم ساروا وهو معهم الى تل يعفر وهى لصاحب سنجار ليقصدوا بلاد الموصل وينهبوا فى تلك الناحية فلما سمع بدر الدين بذلك سير اليه عسكرا فقاتلوهم فمضى منهزما وصعد الى تل يعفر واحتمى بها منهم ونازلوه وحصروه فيها فسار

يكاشح ولده * ويطوى على الداء الدفين معتقده * حتى يباغض من وافقه وعاهده * وضرب على وجوب عقد الموالاة يده * وسامنى خيانة الدين بمواطأته على كبائر تغلق الرقاب * وتوجب فى عواقبها العقاب * حتى اذا علم ان مثلى لا يقر على الباطل * ولا يرضى باستيكال الايامى والارامل * رام ان يغرقنى فى درور * ويتيه بى فى تيهوره فاحتال واكتال وحرش على الامراء الاشبال * وأبى الله لعلمه بعباده الا أن يحيق به مكيدته * ويكشف عن أقواه الزور وايطاء الغرور قصيدته * ولما أيس مما رامه * وأبلس دون ما جرد له اهتمامه واعتزامه * عرج على استنزال شمس الكفاة بسحر التمويه * وعرض صورتى عليه فى

بدر الدين من الموصل اليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الاول سنة سبع عشرة وستمائة وحد في حصره وزحف اليها مرة بعد أخرى فملكها سابع عشر ربيع الآخر من هذه السنة وأخذ ابن المشطوب معه الى الموصل فسجنه بها ثم أخذه منه الاشرف فسجن بحران الى أن توفي في ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة ولقاه الله عقوبة ما صنع بالمسلمين بدمياط وأما الملك الاشرف فانه لما اطاعه صاحب الحصن وآمد وتفرق الامراء كما ذكرناه رحل من حران الى دنيسر فنزل عليها واستولى على بلد ماردين وشحن عليه واقطعه ومنع الميرة عن ماردين وحضر معه صاحب آمد وتردّدت الرسل بينه وبين صاحب ماردين في الصلح فاصطلحوا على أن يأخذ الاشرف رأس العين وكان هو قد اقطعها لصاحب ماردين ويأخذ منه ايضا ثلاثين ألف دينار ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شبختان فلما تم الصلح سار الاشرف من دنيسر الى نصيبين يريد الموصل فبينما هو في الطريق لقيه رسل صاحب سنجار يبذل تسليمها اليه ويطلب العوض عنها مدينة الرقة وكان السبب في ذلك أن خاتون بعفر منه فانخلع قلبه وانضاف الى ذلك ان ثقاته ونصحاءه خانوه وزادوه رعبا وخوفا لانهم تهددوه فتغذ وابه قبل أن يتعشى بهم ولانه قطع رحمه وقتل أخاه الذي ملك سنجار بعد أبيه قتله كما ذكرناه ان شاء الله وملكها فلقاه الله سوء فعله ولم يمتعه بها فلما تيقن رحيل الاشرف تحير في أمره فارسل في التسليم اليه فاجابه الاشرف الى العوض وسلم اليه الرقة وتسلم سنجار مستهل جمادى الاولى سنة سبع عشرة وستمائة وفارقها صاحبها واخوته باهليهم وأموالهم وكان هذا آخر ملوك البيت الاتابكي بسنجار فسبحان الحي الدائم الذي ليس لملكه آخر وكان مدة ملكهم لها أربعا وتسعين سنة وهذا دأب الدنيا بابنائها فتعسا لها من دار ما أغدرها باهلها

﴿ذكر وصول الاشرف الى الموصل والصلح مع مظفر الدين﴾

لما ملك الملك الاشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها فقدم بين يديه عساكره فكان يصل كل يوم منهم جمع كثير ثم وصل هو في آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الاولى من السنة المذكورة وكان يوم وصوله مشهودا وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين في الصلح وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها الى بدر الدين ما عدا قلعة العمادية فانها تبقى بيد زنكي وان المصلحة قبول هذا لتزول الفتن ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج وطال الحديث في ذلك نحو شهرين ثم رحل الاشرف يريد مظفر الدين صاحب اربل فوصل الى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب وكان مظفر الدين نازلا عليه من جانب اربل فاعاد الرسل وكان العسكر قد طال بكاره والناس قد ضجروا وناصر الدين صاحب آمد يميل بهواه الى مظفر الدين فاشار بالاجابة الى ما بذل واعانه عليه غيره فوقعت الاجابة اليه واصطلحوا على ذلك وجعل لتسليمها اجل وجعل زنكي الى الملك الاشرف يكون عنده رهينة الى حين تسليم القلاع وسلمت قلعة العقر وقلعة شوش أيضا وهما لزنكي الى نواب الاشرف رهنا على تسليم ما استقر من القلاع فاذا سلمت اطلق زنكي وأعيد عليه قلعة العقر وقلعة شوش وحلفوا على هذا وسلم الاشرف الى زنكي القلعتين وعاد الى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثاني شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة فارسلوا الى القلاع لتسلم الى نواب بدر الدين فلم يسلم اليه غير قلعة جل صور امن أعمال الهكارية وأما باقي

القلاع

معرض التشويه * موهما اياه ان لي صغوا في بعض من ناظره يوما على رتبة المقابلة * أو وزانه بعيار الموازنة والمماثلة * علما منه بان حمله لا يستخف الا بهذا التأويل * وان رأيه لا يستنزل الا على مثل هذا التخييل * حتى نفذت فيه رقيته * وعملت في استنزاله دخيته * فتشرب حقدا ولا الارض من صوب العهاد * والكف من وشم السواد * والثوب من لون الجساد * أو صبغ الفرصاد وعلم الله اني لم اكن لاضمر كدرا على صفاء * أو اسر حسوا في ارتغاء * أو استجيز نجما صنعه * أو طمعا على عين شريعه * غيري من نكب عن نهج الوفاء * وغرب دون فرض النعماء * ووتع حق المنعم المثيب *

القلاع فان جندها أظهروا الامتناع من ذلك ومضى الاجل ولم يسلم الاجل صوروا ولزم عماد الدين زنكى لشهاب الدين غازى بن الملك العادل وخدمه وتقرب اليه فاستعطف الله أخاه الملك الاشرف فمال اليه وأطلقه وازال نوابه من قلعة العقر وشوش وسلمها اليه وبلغ بدر الدين عن الملك الاشرف ميل الى قلعة تل يعفر وانها كانت لسنجار من قديم الزمان وحديثه وطال الحديث فى ذلك فسلمها اليه بدر الدين

﴿ذكر عود قلاع الهكارية والزوزان الى بدر الدين﴾

لما لم تزنكى قلاع الهكارية والزوزان لم يفعل مع اهلها ما ظنوه من الاحسان والانعام بل فعل ضده وضيق عليهم وكان يبلغهم أفعال بدر الدين مع جنده ورعاياه واحسانه اليهم وبذله الاموال لهم وكانوا يريدون العود اليه ويمنعهم الخوف منه لما اسلفوه من ذلك فلما كان الآن اعلنوا بما فعل معهم فارسلوا الى بدر الدين فى المحرم سنة ثمان عشرة وستمائة فى التسليم اليه وطلبوا منه اليمين والعهد عنهم وذكروا شيأ من أقطاع تكون لهم فاجابهم الى ذلك وارسل الى الملك الاشرف يستأذنه فى ذلك فلم يأذن له وعاد زنكى من عند الاشرف فجمع جموعا وحصر قلعة العمادية فلم يبلغ منهم غرضا وأعاد وامر اسله بدر الدين فى التسليم اليه فكتب الى الملك الاشرف فى المعنى وبذل له قلعة جديدة ونصيبين وولاية بين النهرين ليأذن له فى اخذها فاذن له فارسل اليها النواب وتسلموها وأحسن الى اهلها ورحل زنكى عنها ووفى له بدر الدين بما بذله له فلما سمع جند باقى القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الاحسان والزيادة رغبوا كلهم فى التسليم فسير اليهم النواب واتفقت كلمة اهلها على طاعته والانقياد اليه والعجب ان العساكر اجتمعت من الشام والجزيرة وديار بكر وخلاط وغيرها فى استعادة هذه القلاع فلم يقدروا على ذلك فلما تفرقوا حضر أهلها وسألوا أن نؤخذ منهم فعادت صفوا عفوا بغير منة ولقد أحسن من قال

لا سهل الا ما جعلت سهلا * وان تشأ تجعل بحزن وحلا

فتبارك الله الفعال لما يريد لا مانع لما اعطى ولا معطى لما منع وهو على كل شئ قدير

﴿ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للاشرف وانهزام كيكاوس﴾

فى هذه السنة سار عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ملك الروم الى ولاية حلب قصدا للتغلب عليها ومعه الافضل بن صلاح الدين يوسف وسبب ذلك انه كان بحلب رجلان فيهما شر كثير وسعاية بالناس فكانا ينقلان الى صاحبها الملك الظاهر ابن صلاح الدين عن رعيته فاوغروا صدره فلقى الناس منهما شدة فلما توفى الظاهر وولى الامر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيرهما ممن يفعل فعلهما وسد هذا الباب على فاعل ولم يطرق اليه أحد من اهله فلما رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما وتاربهما الناس وآذوهما وتهددوهما لما كانا أسلفاه من الشر فخافا فارقا حلب وقصدا كيكاوس فاطمعاه فيها وقررا فى نفسه انه متى قصدها لا يثبت بين يديه وانه يملكها ويهون عليه ملك ما بعدها فلما عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأى من اصحابه وقالوا له لا يتم لك هذا الا بان يكون معك أحد من بيت ايوب ليسهل على اهل البلاد وجندها الانقياد اليه وهذا الافضل ابن صلاح الدين هو فى طاعتك والمصلحة

ورد الحجر على قرارة القليب
ونزعنى هما قلدنيه بقدم
من أهل جرجان لا يعرف
الرشد من الغى * ولا الظل
من الفى * ولا النشر من
الطى * ولا النقد من اللى
ولا الاثبات من النفى *
ولا جرجان من الرى * شوهة
بوهة قد صيغ من طول
القناه * وزرقة السزاه *
ولبقة الدواه * وصفاقة
الصفاه * وتجدير العصف
بالعشرات طالما خر على
العنون تشمه التراب *
وتكففا للعصا فى الجراب *
وتصرفا على المكس بالصروف
وتهجما للالف بنقطتين من
بين الحروف * وطفق من
بعد يتضخ لكنة عجمية
فى شعر كشعره الموصوف
بوثارة الصوف * مستميحا
كل صراف واسكاف *
وعطار ويطار * على سعر

انك تستحبه معك وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد فتى كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ما تريد فاحضر الافضل من سميساط اليه واكرمه وحمل اليه شيأ كثيرا من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك واستقرت القواعد بينهما أن يكون ما يفتحه من حلب وأعمالها للافضل وهو فى طاعة كيكاوس والخطبة له فى ذلك أجمع ثم يقصدون ديار الجزيرة فما يفتحونه مما بيد الملك الاشرف مثل حران والرها من البلاد الجزرية تكون لكيكاوس وجرت الايمان على ذلك وجمعوا العساكر وساروا فملكوا قلعة رعبان فتسلمها الافضل فمال الناس حينئذ اليهما ثم سارا الى قلعة تل باشر وفيها صاحبها ابن بدر الدين دلدرم المارووقى فحصروه وضيقوا عليه وملكوها منه فاخذها كيكاوس لنفسه ولم يسلمها الى الافضل فاستشعر الافضل من ذلك وقال هذا اول الغدر وخاف انه ان ملك حلب يفعل به هكذا فلا يحصل الا أن يكون قد قلع بيته غيره ففترت بيته وأعرض عما كان يفعله وكذلك ايضا أهل البلاد فكانوا يظنون ان الافضل يملكها فيسهل عليهم الامر فلما رأوا ضد ذلك وقفوا وأما شهاب الدين اتابك ولد الظاهر صاحب حلب فانه ملازم قلعة حلب لا ينزل منها ولا يفارقها البتة وهذه كانت عادته مذ مات الظاهر خوفا من ثائر يثور به فلما حدث هذا الامر خاف ان يحصروه وربما سلم اهل البلد والجند المدينة الى الافضل فيملكهم اليه فارسل الى الملك الاشرف ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها يستدعيه لتكون طاعتهم له ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ويأخذ من اعمال حلب ما اختار ولان ولد الظاهر هو ابن أخته فاجاب الى ذلك وسار اليهم فى عساكره التى عنده وأرسل الى الباقين يطلبهم اليه وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم وأحضر اليه العرب من طى وغيرهم ونزل بظاهر حلب ولما أخذ كيكاوس تل باشر كان الافضل يشير بمعاجلة حلب قبل اجتماع العساكر بها وقبل أن يحتاطوا ويتجهزوا فعاد عن ذلك وصار يقول الرأى اثنا نقصد منبج وغيرها ثلاثيفى لهم وراءظهورنا شئ قصدا للتمادى ومرور الزمان فى لاشئ فتوجهوا من تل باشر الى جهة منبج وتقدم الاشرف نحوهم وسارت العرب فى مقدمته وكان طائفة من عسكر كيكاوس نحو ألف فارس قد سبقت مقدمته له فالتقواهم والعرب ومن معهم من العسكر الاشرفى فاقتتلوا فانهزم عسكر كيكاوس وعادوا اليه منهزمين واكثر العرب الاسر منهم والنهب لجودة خيلهم ودبر خيل الروم فلما وصل اليه أصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابه يطوى المراحل الى بلاده خائفا يترقب فلما وصل الى أطرافها اقام وانما فعل هذا لانه صبى وغر لا معرفة له بالحرب والا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض فسار حينئذ الاشرف فملك رعبان وحصر تل باشر وبها جمع من عسكر كيكاوس فقاتلوه حتى غلبوا فأخذت القلعة منهم وأطلقهم الاشرف فلما وصلوا الى كيكاوس جعلهم فى دار وأحرقها عليهم فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة واستقبحوه واستضعفوه لاجرم لم يمهله الله تعالى وعجل عقوبته للؤم قدرته وشدة عقوبته ولعدم الرحمة فى قلبه ومات عقيب هذه الحادثة وسلم الاشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب الى شهاب الدين اتابك صاحب حلب وكان عازما على اتباع كيكاوس ويدخل بلاده فاتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل فاقتضت المصلحة العود الى حلب لان الفرنج بديار مصر ومثل ذلك السلطان

صفقته الاولى اذا السلعة قائمه * والجلة راثمه * والسخنة مطوره * والنخلة مأبوره * وغبر زمانا على هذه الجلة فى الوتاحة والوقاحة * ثم انتجع خراسان بيضاء عقته المزجاة فوافقت على النظرة الخرقاء قبولا * ولبست من عز العطاء غرة وحجولا * فلما تعقبها التأمل * علم ان خرق الانتقاد ضيع المال * وأورث الوبال * فأهمل مخذولا * وغودر فى قدر شعره مرذولا * الى أن غر شمس الكفاة عن نفسه فاختاره على * ونفذ معه مكيدة البغوى الغوى فى * فقصدت من المكروه فى الروح * دون سائر الممنوح * بما لولا مكان الامير السيد أبى سعيد مسعود بن يمين الدولة وامين الملة * وفضل

العظيم اذا توفى ربما جرى خلل فى البلاد لا تعرف العاقبة فيه فعاد اليها ركنى كل منهما اذى صاحبه

﴿ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده﴾

توفى الملك العادل أبو بكر بن ايوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمه أسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر بعد عمه وسار الى الشام استخلفه بمصر ثقة به واعتمادا عليه وعلما بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة فلما توفى أخوه صلاح الدين ملك دمشق كما ذكرناه وبقى مالكا للبلاد الى الآن فلما ظهر الفرنج كما ذكرناه سنة اربع عشرة وستمائة قصد هو مرج الصفر فلما سار الفرنج الى ديار مصر انتقل هو الى عالقين فاقام به ومرض وتوفى وحمل الى دمشق فدفن بالتربة التى له وكان عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما ذا أناة يسمع ما يكره ويغض عليه حتى كأنه لم يسمعه كثير الحرج وقت الحاجة لا يقف فى شئ واذا لم تكن حاجة فلا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا لان مولده كان فى المحرم من سنة أربعين وخمسمائة وملك دمشق فى شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة من الافضل ابن أخيه وملك مصر فى ربيع الآخر من سنة ست وتسعين منه ايضا ومن أعجب ما رأيت من مناقاة الطوالع انه لم يملك الافضل مملكة قط الا وأخذها منه عمه العادل فاول ذلك ان صلاح الدين أعطى ابنه الافضل حران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقى الدين فسار اليها فلما وصل الى حلب أرسل ابوه الملك العادل بعده فرد من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الافضل بعد وفاة ابيه مدينة دمشق فاخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فاخذها ايضا منه ثم ملك صرخد فاخذها منه وأعجب من هذا انى رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة فى بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذى بالبيعة هذه كان قد أخذها الملك الافضل لينقلها الى دمشق ثم ان العادل أخذها بعد ذلك من الافضل طلبها منه فاخذها وهذا غاية وهو من أعجب ما يحكى وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والاردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل ببعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الاشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل منهم فى المملكة التى أعطاه اياها أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يشق الى الآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولا يخافه فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الامر والحكم ما لم يره أبوهم ولعمرى انهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام وفى نوبة دمياط كفاية وأما الملك الاشرف فليس للمال عنده محل بل يعطره مطرا كثيرا كهفته عن أموال الرعية دائم الاحسان لا يسمع سعاية ساع

﴿ذكر عدة حوادث﴾

فى هذه السنة فى ذى القعدة رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط لانه بلغه ان جماعة

احسانه * واستنقاذه اياى من نجوات أشداقهما بأحد غلمانه * اتدافق الخطب الى ما يعز تلافيه * ولغلق رهن الحياة بما فيه * ولو كنت عرفت من سيرة البغوى قبل ما عرفته بعد لاستعفيت من جواره * واسترست من مساقط أحجاره * لكن السرائر بيد الله تعالى لا يكشفها الا الاختبار والظلم فى خلق النفوس فان تجد

ذا عفة فلعلة لا يظلم

وقد كتبت الى جماعة الافاضل فى ذكر المذكور وشكوا. * وتقرير سجايا. * ما هذه نسخته بسم الله الرحمن الرحيم لجماعة أرباب الصناعة * وعصابة أعلام الاصابة * من مبادى الاشراق * الى أقاصى العراق * من محمد بن عبد

المقدس ومابنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا ياجوج وماجوج وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من اطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها الى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما فملكوها وتفعلون باهلها ما تذكره ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ثم يقصدون بلاد اذربيجان وارانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج الا الشريد النادر فى أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من اذربيجان وارانية ساروا الى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد اللان واللكز ومن فى ذلك الصقع من الامم المختلفة فاوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا الا بمقدار مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء واشد هذا ما لم يطرق الاسماع مثله فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة انما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض اخلاقا وسيرة فى المحوسنة ولم يبق أحد من البلاد التى لم يطرقوها الا وهو خائف يترقب وصولهم اليه ثم انهم لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم فانهم معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها الا غير وأمادابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من خارج وأما دياناتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجل فاذا جاء الولد لا يعرف اباه ولقد بلى الاسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الامم منها هؤلاء التتر قبحهم الله اقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من سمع بها وسنراها مشروحة متصلة ان شاء الله تعالى ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها ولا لطف الله تعالى ونصره عليهم وقد ذكرنا مسنة أربع عشرة وستمائة ومنها ان الذى سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضا فانا لله وانا اليه راجعون نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين

كالجيب يعطر من نوافج
الند ود والمعطرة * والجو
يذفر من روائح الحشوش
المقبرة * والمزن يسقط على
عرصة الروض * فتوليه
طهارة ونضارة * ويهبط على
فروة الكلب تتعديه نجاسة
وقذارة * والماء القراح
يبقى عروق الشعير *
فيقضى عليها باختلاف
الثمر فيقبله كل منها على
ما كتب له من مرارة
وحلاوة * ومرارة
وحرافة * وكثافة ولطافة
* تسقى بماء واحد وتفضل
بعضها على بعض فى الاكل
* قدرة من البدى الاول *
والابدى الموجود فى الازل
* ان شر خلق الله نفسا وشيمة *
وأخشهم قدرا وقيمة * من
يضيفه صنع الله ريان من
ماء الطلاقة * نشوان من
صهباء اللباقة * فينان من

والذاب عن الاسلام معدوم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فان هؤلاء انما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمدا كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ليقضى الله أمرا كان مفعولا وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم الى البلاد

(ذكر خروج التتر الى تركستان وماوراء النهر ومافعلوه)

فى هذه السنة ظهر التتر الى بلاد الاسلام وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الاسلام مايزيد على ستة أشهر وكان السبب فى ظهورهم ان ملكهم ويسمى بجنكزخان المعروف بقوجين كان قد فارق بلاده وسار الى نواحى تركستان وسير جماعة من التجار والاتراك ومعهم شئ كثير من النقرة والقندر وغيرهما الى بلاد ماوراء النهر ليمتاروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار وهى آخر ولاية خوارزمشاه وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتار سل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له مامعهم من الاموال فبعث اليه خوارزمشاه يأمره بقتلهم وأخذ مامعهم من الاموال وانفاذه اليه فقتلهم وسير مامعهم وكان شيأ كثيرا فلما وصل الى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم وكان بعد ان ملك ماوراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان ومابعدها من البلاد وان طائفة من التتر أيضا كانوا قد خرجوا قديما والبلاد للخطا فلما ملك خوارزمشاه البلاد بماوراء النهر من الخطا وقتلهم واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون وغيرها صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها وقيل فى سبب خروجهم الى بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر فى بطون الدفاتر

فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس الى جنكزخان لينظر ماهو وكم مقدار مامعه من الترك ومايريد أن يعمل فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التى على طريقهم حتى وصلوا اليه فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وانهم يخرجون عن الاحصاء وانهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة وانهم يعملون مايحتاجون اليه من السلاح بأيديهم فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم واخذ اموالهم وحصل عنده فكر زائد فاحضر الشهاب الخيوقى وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف مايشير به فحضر عنده فقال له قد حدث أمر عظيم لابد من الفكر فيه فأخذ رأيك فى الذى نفعله وذلك انه قد تحرك الينا خصم من ناحية الترك فى كثرة لا تحصى فقال له فى عساكرك كثرة ونكاتب الاطراف ونجمع العساكر ويكون النفير عاما فانه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم نذهب بجميع العساكر الى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام فنكون هنالك فاذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من ارباب المشورة فاستشارهم

غال السماحه * ميسان فى حال الصباحه * حتى اذا حط رحله * وخالط بالبشر الخصيب أهله * قراه من بؤس الخصال * وعبوس الملال * وضرة الاستبذال * ومضرة الابتذال * مايطير واقعه * ويهيج وادعه * وينشز ودوده * ويعقر عليه ولوده * فرحل فى سواد الحداد شاكيا سوء الجوار * وخفرة الذمار * وذلة المقدار * وغلظة الاحماء والاصهار * ثانيا على ثنية الوداع صليفه متمثلا بقول القائل

نعمة الله لا نعاب ولكن ربما استقبحت على أقوام
لا يليق الغنى بوجه أبى يعلى ولا نور بهجة الاسلام ونخ
الثوب والعمامة والبرذون * والوجه والقفا والغلام

المقدس ومابنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا ياجوج وماجوج وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الاجنة فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من اطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها الى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما فملكوها وتفعلون باهلها ما تذكره ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزونها الى الرى وهمذان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ثم يقصدون بلاد اذربيجان وارانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج الا الشريد النادر فى أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من اذربيجان وارانية ساروا الى دربند شروان فملكوا مدينة ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها الى بلد اللان واللكز ومن فى ذلك الصقع من الامم المختلفة فاوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون الى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا الا بعقدار مسيرهم لا غير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة الى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء واشد هذا ما لم يطرق الاسماع مثله فان الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على انه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة انما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحدا انما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الارض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الارض اخلاقا وسيرة فى الحوسنة ولم يبق أحد من البلاد التى لم يطرقوها الا وهو خائف يترقبهم ويترقب وصولهم اليه ثم انهم لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم فانهم معهم الاغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها الا غير وأمادوابهم التى يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات لا تعرف الشعير فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون الى شئ من خارج وأما دياناتهم فانهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيأ فانهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لا يعرف اباه ولقد بلى الاسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الامم منها هؤلاء التتر قبحهم الله اقبلوا من المشرق ففعلوا الافعال التى يستعظمها كل من سمع بها وسنراها مشروحة متصلة ان شاء الله تعالى ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب الى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها ولا لطف الله تعالى ونصره عليهم وقد ذكرنا مسنة أربع عشرة وستمائة ومنها ان الذى سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضا فانا لله وانا اليه راجعون نسأل الله ان ييسر للاسلام والمسلمين نصرا من عنده فان الناصر والمعين

كالجيب يعطر من نوافج
الند ود والمعطرة * والجو
يذفر من روائح الحشوش
المقبرة * والمزن يسقط على
عرصة الروض * فتوليه
طهارة ونضارة * ويهبط على
فروة الكلب تتعديه نجاسة
وقذارة * والماء القراح
يبقى عروق الشعير *
فيقضى عليها باختلاف
الثمرة فيقبله كل منها على
ما كتب له من مرارة
وحلاوة * ومرارة
وحرافة * وكثافة ولطافة
* تسقى بماء واحد وتفضل
بعضها على بعض فى الاكل
* قدرة من البدى الاول *
والابدى الموجود فى الازل
* ان شر خلق الله نفسا وشيمة *
وأخسهم قدرا وقيمة * من
يضيفه صنع الله ريان من
ماء الطلاقة * نشوان من
صهباء اللباقة * فينان من

والذاب عن الاسلام معدوم واذا أراد الله بقوم سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فان هؤلاء انما استقام لهم هذا الامر لعدم المانع وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمدا كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها ليقضى الله أمرا كان مفعولا وهذا حين نذكر ابتداء خروجهم الى البلاد

(ذكر خروج التتر الى تركستان وماوراء النهر ونافعلوه)

فى هذه السنة ظهر التتر الى بلاد الاسلام وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الاسلام مايزيد على ستة أشهر وكان السبب فى ظهورهم ان ملكهم ويسمى بجنكزخان المعروف بقوجين كان قد فارق بلاده وسار الى نواحى تركستان وسير جماعة من التجار والاتراك ومعهم شئ كثير من النقرة والفندر وغيرهما الى بلاد ماوراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا الى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار وهى آخر ولاية خوارزمشاه وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل الى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له مامعهم من الاموال فبعث اليه خوارزمشاه يأمره بقتلهم وأخذ مامعهم من الاموال وانفاذه اليه فقتلهم وسير مامعهم وكان شيأ كثيرا فلما وصل الى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم وكان بعدان ملك ماوراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان ومابعدها من البلاد وان طائفة من التتر أيضا كانوا قد خرجوا قديما والبلاد للخطا فلما ملك خوارزمشاه البلاد بماوراء النهر من الخطا وقتلهم واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون وغيرها صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها وقيل فى سبب خروجهم الى بلاد الاسلام غير ذلك مما لا يذكر فى بطون الدفاتر

فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس الى جنكزخان لينظر ماهو وكم مقدار مامعه من التتر ومايريد أن يعمل فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التى على طريقهم حتى وصلوا اليه فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وانهم يخرجون عن الاحصاء وانهم من أصبر خلق الله على القتال لا يعرفون هزيمة وانهم يعملون مايحتاجون اليه من السلاح بأيديهم فندم خوارزمشاه على قتل اصحابهم واخذ اموالهم وحصل عنده فكر زائد فاحضر الشهاب الخيوقى وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لا يخالف مايشير به فحضر عنده فقال له قد حدث أمر عظيم لابد من الفكر فيه فأخبرنى بالذى نفعله وذلك انه قد تحرك الينا خصم من ناحية الترك فى كثرة لا تحصى فقال له فى عساكرك كثرة ونكاتب الاطراف ونجمع العساكر ويكون النفير عاما فانه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم نذهب بجميع العساكر الى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الاسلام فنكون هناك فاذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسهم النصب والتعب فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من ارباب المشورة فاستشارهم

غال السباحه * ميسان فى حال الصباحه * حتى اذا حط رحله * وخالط بالبشر الخصيب أهله * قراه من بؤس الخصال * وعبوس الملال * وضرة الاستبدال * ومضرة الابتذال * مايطير واقعه * ويهيج وادعه * وينشز رودده * ويعقر عليه ولوده * فرحل فى سواد الحداد شاكيا سوء الجوار * وخفرة الذمار * وذلة المقدار * وغلظة الاحماء والاصهار * ثانيا على ثقيبة الوداع صليفه متمثلا بقول القائل

نعمة الله لا نعاب ولكن ربما استقبحت على أقوام
لا يليق الغنى بوجه أبى يعلى ولا نور بهجة الاسلام ونفخ الثوب والعمامة والبرذون * والوجه والقفا والغلام

فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا نتركهم يعبرون سيحون الينا ويسلكون هذه الجبال والمضايق فانهم جاهلون بطرقهم ونحن عارفون بها فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد فبينما الاتراك كذلك اذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهددخوارزمشاه ويقول تقتلون اصحابي وتأخذون أموالهم استعدوا للحرب فاني واصل اليكم بجمع لا قبل لكم به وكان جنكزخان قد سار الى تركستان فملك كاشغار وبلاساغون وجميع البلاد وأزال عنها التتر الاولى فلم يظهر لهم خبر ولا بقي لهم أثر بل بادوا كما أصاب الخطا وأرسل الرسالة المذكورة الى خوارزمشاه فلما سمعها خوارزمشاه أمر بقتل رسوله فقتل وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم الى صاحبهم جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له ان خوارزمشاه يقول لك أنا سائر اليك ولو انك في آخر الدنيا حتى انتقم وافعل بك كما فعلت باصحابك وتجهز خوارزمشاه وسار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره ويكبسهم فاد من السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل الى بيوتهم فلم ير فيها الا النساء والصبيان والاطفال فاوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا الى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم في الطريق الخبر بما فعل خوارزمشاه بحلفائهم فجدوا السير فادركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله فبقوا في الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين ما لا يعد ولم ينهزم أحد منهم اما المسلمون فانهم صبروا حمية للدين وعلموا أنهم ان انهزموا لم يبق للمسلمين باقية وانهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم وأما الكفار فصبروا لاستنقاذ أهليهم وأموالهم واشتد بهم الامر حتى ان أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلا ويتضاربون بالسكاكين وجرى الدم على الارض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنفد الطائفتان وسعهم في الصبر والقتال هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها فأحصى من قتل من المسلمين في هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفا واما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم فلما كان الليلة الرابعة افترقوا فنزل بعضهم مقابل بعض فلما اظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا وكذلك فعل المسلمون أيضا كل منهم سئم القتال فاما الكفار فعادوا الى ملكهم جنكزخان وأما المسلمون فرجعوا الى بخارا فاستعد للحصار لعلمه بعجزه لان طائفة من عسكره لم يقدر خوارزمشاه على أن يظفر بهم فكيف اذا جاؤا جميعهم مع ملكهم فامر أهل بخارا وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع وجعل في بخارا عشرين ألف فارس من العسكر يحمونها وفي سمرقند خمسين الفا وقال لهم احفظوا البلد حتى أعود الى خوارزم وخراسان واجمع العساكر واستنجد بالمسلمين وأعود اليكم فلما فرغ من ذلك رحل عائدا الى خراسان فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك وأما الكفار فانهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ماوراء النهر فوصلوا الى بخارا بعد خمسة أشهر من وصول خوارزمشاه وحصروها وقاتلوها ثلاثة أيام قتالا شديدا متتابعا فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم قوة ففارقوا البلد عائدين الى خراسان فلما أصبح اهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم فارسلوا القاضي وهو بدر الدين قاضيخان ليطلب الامان للناس فاعطوهم

ولولا ان العقاب * تبع للخطاب * وان التأسر على الاعراض مجهول في حكم الاعتبار ونص الكتاب * وان مجازات الشعراء غير حقائق الكتاب * لادعيت غضب الله على نعمه حين ابتلاها بمجاورة الانذال * وزواها عن مظان الاستحقاق من كرام الرجال * غير ان المقصود فيها بالكرامة وقد قابلها بالاستخفاف * وكابر عقله في جوارها بغير الانصاف * أولى بأن يقهره عاجل الغضب * ويصهره آجل اللهب * فكم من وارد ماء أشرقه نميره * وفادح زند أحرقه سعيره * وشاحذ حد قطع به وريده * وراكب جواد قصم عليه جيده * وقد تختلف مواقع النعم من أربابها على شيء منها من

الامان

الامان وكان قد بقى من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما اجابهم جنكزخان الى الامان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارا ولم يتعرضوا الى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه الينا وساعدونا على قتال من بالقلعة وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى فى البلد بان لا يتخلف أحد ومن تخلف قتل فخرجوا جميعهم فامرهم بطم الخندق فطموه بالاخشاب والتراب وغير ذلك حتى ان الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن فيلقونها فى الخندق فانا لله وانا اليه راجعون ويحق سعى الله نفسه صبورا حليما والا كان خسف بهم الارض عند فعل مثل هذا ثم تابعوا الزحف الى القلعة وبها نحو أربعمائة فارس من المسلمين فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثنى عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا اليهم ووصل النقابون الى سور القلعة فنقبوه واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام فغضب اللعين ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدوا فى القتال وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم ما لا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم فلما فرغ من القلعة أمر ان يكتب له رؤس البلد ورؤساؤهم ففعلوا ذلك فلما عرضوا عليه أمر باحضارهم فحضروا فقال أريد منكم النقرة التى باعكم خوارزمشاه فانها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فاحضركل من كان عنده شئ منها بين يديه ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من اموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التى عليه ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين فامر أصحابه ان يقتسموهم فاقتسموهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدى سبا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء ايضا وأصبحت بخارا خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن انفسهم شيأ مما نزل بهم فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل ومن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الامام ركن الدين امام زاده وولده فانهما رأيا ما يفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضى صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيرا وألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بانواع العذاب من طلب المال ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارا اسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشى قتل فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والاسارى والاثقال وراءهم حتى تقدموا شيأ فشيأ ليكون أرعب لقلوب المسلمين فلما رأى اهل البلد سوادهم استعظموه فلما كان اليوم الثانى وصل الاسارى والرجالة والاثقال ومع كل عشرة من الاسارى علم فظن أهل البلد ان الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة فخرج اليهم شجعان أهله واهل الجلد والقوة رجالة ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمى أحد لما فى قلوبهم من خوف هؤلاء

صارت اليه * وبيلها ممن مالت بسوء اختياره وقبح آثاره عليه * فالاحداث فيها أحسن حالا * وازين خصالا * من الكهول الطاعنين فى الاسنان * والشيوخ الحالبين أشطر الزمان * فليس من قرح وحنك * وسبر وسبك * وأخذ على وجه الاستبصار وترك كالغر لم تلفحه هواجر الامور * والغمر لم تردعه زواجر الدهور * والغفل لم تدربه الحادثات بأحوالها والمهر * لم ترضه الرجال بأكفالها * وقد يتعذر التمازى فى طول الجهالة بالشباب الذى هو طليعة الحياة * وشريعة الشهوات واللذات * وان سائس العقل لم يضرب عليه عقاله * وصيقل التجريب لم يحكم على متنيه

الملاعين فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينا فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع الباقون الذين انشبوا القتال أولا فبقوا في الوسط وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد قتلوا عن آخرهم شهداء رضي الله عنهم وكانوا سبعين ألفا على ما قيل فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكا نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا فطلبوا الامان فاجابوهم الى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يقدر العامة على منعهم وخرجوا الى الكفار باهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا الينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم الى مأمنكم ففعلوا ذلك فلما أخذوا اسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا اموالهم ودوابهم ونساءهم فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج اهله جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارا من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقي البلد على حاله وانتضوا الابكار وعذبوا الناس بانواع العذاب في طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبي وكان ذلك في المحرم سنة سبع عشرة وستمائة وكان خوارزمشاه بمنزلته كلما اجتمع اليه عسكر سيره الى سمرقند فيرجعون ولا يقدمون على الوصول اليها نعوذ بالله من الخذلان سير مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسير عشرين ألفا فعادوا أيضا

﴿ذكر مسير التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته﴾

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان لعنه الله وسير عشرين ألف فارس وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربة لانهم اسارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لانهم هم الذين أوغلوا في البلاد فلما أمرهم جنكزخان بالمسير سار واوقصدوا موضعا يسمى فنجاب ومعناه خمس مياه فوصلوا اليه فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الاحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها اسلحتهم وأمتعتهم والقوا الخيل في الماء وامسكوا اذنابها وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة اليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزمشاه الا وقد صاروا معه على ارض واحدة وكان المسلمون قد ملئوا منهم رعبا وخوفا وقد اختلفوا فيما بينهم انهم كانوا يقاسكون بسبب ان نهر جيحون بينهم فلما عبروه اليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدي سبا وطلب كل طائفة منهم جهة ورحل خوارزمشاه لا يلوي على شيء في نفر من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر اليها وكانوا لم يتعرضوا في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير في طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم فلما سمع بقربهم منه رحل الى مازندران وهي له أيضا فرحل التتر المغربون في أثره ولم يعترجوا على نيسابور بل تبعوه فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل الى مرسى من بحر طبرستان تعرف باب سكون وله هناك قاعة في البحر فلما نزل

صقاله * وان الرى برعومة
لا يفتقها الا كرا الجديدين
يدور يدور * وشمس تطلع ثم
تغور * وموسم زمان ينفق
فيه النور والنور * وان
الشباب شعبة من الجنون *
وان قلم التكليف مرفوع
عن المجنون * والحدث الغر
كالبيداء جرحها جبار *
وعجمها دون جنابتها
اعتذار * فما بال من خلع
لباس الحداثة * ووضع عنه
جلباب الطراءة * واجتلى
نهار المشيب عيانا * وأفنى
ثلاث عمائم الوانا *
سوداء داجية وسحق مغرق
وأجدلونا بعد ذاك هجانا

هو وأصحابه فى السفن وصلت التتر فلما رأوا خوارزمشاه وقد دخل البحر ووقفوا على ساحل البحر فلما ايسوا من لحاق خوارزمشاه رجعوا فهم الذين قصدوا الرى وما بعدها على ما نذكره ان شاء الله هكذا ذكر لى بعض الفقهاء ممن كان بخارا وأسروه معهم الى سمرقند ثم نجا منهم ووصل الينا وذكر غيره من التجار أن خوارزمشاه سار من مازندران حتى وصل الى الرى ثم منها الى همذان والتتر فى اثره ففارق همذان فى نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد الى مازندران وركب فى البحر الى هذه القلعة وكان هذا هو الصحيح فان الفقيه كان حينئذ مأسورا وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان ووصل خوارزمشاه ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر ففارق همذان وكذلك أيضا هؤلاء التجار فارقوها ووصل التتر اليها بعدهم ببعض نهار فهم يخبرون عن مشاهدة ولما وصل خوارزمشاه الى هذه القلعة المذكورة توفى فيها

(ذكر صفة خوارزمشاه وشئ من سيرته)

هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش وكان مدة ملكه احدى وعشرين سنة وشهورا تقريبا واتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم باسره ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه فانه ملك من حد العراق الى تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس وفعل بالخطا الافاعيل العظيمة وملك بلادهم وكان فاضلا عالما بالفقه والاصول وغيرهما وكان مكرما للعلماء محبا لهم محسنا اليهم يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه وكان صبورا على التعب وادمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات انما همه فى الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظما لاهل الدين مقبلا عليهم متبركا بهم (حكى) لى بعض خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم وقد عاد من خراسان قال وصلت الى خوارزم فنزلت ودخلت الحمام ثم قصدت باب السلطان علاء الدين فبين حضرت اقبل فى انسان فقال ما حاجتك فقلت له أنا من خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فامرنى بالجلوس وانصرف عنى ثم عاد الى وأخذنى وادخلنى الى دار السلطان فتسلمنى منه حاجب من حجاب السلطان وقال لى قد أعلمت السلطان خبرك فامر باحضارك عنده فدخلت اليه وهو جالس فى صدر ايوان كبير فخين توسطت صحن الدار قام قائما ومشى الى بين يدى فاسرعت السير فلقيته فى وسط الايوان فاردت أن اقبل يده فمنعنى واعتنقنى وجلس واجلسنى الى جانبه وقال لى أنت تخدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فقلت نعم فأخذ يدى وأمرها على وجهه وسألنى عن حالنا وعيشنا وصفة المدينة ومقدارها واطال الحديث معى فلما خرجت من عنده قال لولا اشتغالى على عزم السفر هذه الساعة لما ودعتك انما نريد أن نعبر جيحون الى الخطا وهذا طريق مبارك حيث رأيناك من خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم ثم ودعنى وأرسل الى جملة كثيرة من النفقة ومضى وكان منه ومن الخطا ما ذكرناه وبالجملة فاجتمع فيه ما تفرق فى غيره من ملوك العالم رحمه الله ولو أردنا ذكر مناقبه لطال

(ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران)

لما ايس التتر المغربة من ادراك خوارزمشاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها فى

وحان له ان يعصو عن قهوة البطاله * وينزل عن صهوة الاستطاله * ويبكى لضحك المشيب براسه * ونصول الانقاص عن قرطاسه * وتمشى الوهى فى عظامه * وقعود القوى به عند قيامه * واصباحه على خمار نديمه * وافتضاحه بعثار قدمه * ونداء برهان الله عليه بانسداع محجته * وانقطاع حجته * واتلاع النار اعناقها لالتقاطه * واختطافه هاويا عن سراطه * يستجيز العمى عن سبيل الله * والصمم دون أمر الله * خبطا فى ليل الضلال * وحطبا فى حبل الضلال * ورجوعا فى حافرة الخسار * وولوعا بفاجرة الآثار * وخلاعا فى شطن العتو والغلو * واباء الاعلى

أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها فانها لم تزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه حتى ان المسلمين لما ملكوا بلاد الاكاسرة جميعها من العراق الى أقاصى خراسان بقيت اعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد الى ان ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفواعفوا الامر يريده الله تعالى ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الري فرأوا في الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التي لم يسمع بمثلها من الاعلاق النفيسة وكان سبب ذلك ان والدة خوارزمشاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت فسارت خوارزم وقصدت نحو الري لتتصل الى اصفهان وهمذان وبلاد الجبل تمتنع فيها فصادفوها في الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها الى الري فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس من الجوهر وغير ذلك وسيروا الجميع الى جنكزخان بسمرقند

(ذكر وصول التتر الى الري وهمذان)

في سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله الى الري في طلب خوارزمشاه محمد لانهم بلغهم انه مضى منهزما منهم نحو الري فجدوا السير في اثره وقد انضاف اليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك ايضا من المفسدين من يريد النهب والشر فوصلوا الى الري على حين غفلة من اهلها فلم يشعروا الا وقد وصلوا اليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الاطفال وفعلوا الافعال التي لم يسمع بمثلها ولم يقيموا ومضوا مسرعين في طلب خوارزمشاه فنهبوا في طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها وفعلوا في الجميع اضعاف ما فعلوا في الري واحرقوا وخربوا ووضعوا السيف في الرجال والنساء والاطفال فلم يبقوا على شيء وتمموا على حالهم الى همذان وكان خوارزمشاه قد وصل اليها في نفر من اصحابه ففارقها وكان آخر العهد به فلا يدري ما كان منه فيما حكاه بعضهم عنه وقيل غير ذلك وقد ذكرناه فلما فارقها همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الاموال والثياب والدواب وغير ذلك يطلب الامان لاهل البلد فامنوهم ثم فارقوها وساروا الى زنجان ففعلوا أضعاف ذلك ثم وصلوا الى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا في قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف فاقتتلوا هم واهل البلد في باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصى ثم فارقوا قزوين فعدد القتلى من أهل قزوين فزادوا على اربعين الف قتيل

(ذكر وصول التتر الى اذربيجان)

لما هجم الشتاء على التتر في همذان وبلاد الجبل رأوا بردا شديدا وثلجا متراكما فساروا الى اذربيجان ففعلوا في طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدم منهم وخربوا وأحرقوا ووصلوا الى تبريز وبها صاحب اذربيجان اوزبك بن البهلوان فلم يخرج اليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من ادمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق وانما ارسل اليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع اليهم فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لانه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعي به كثيرة لاجل دوابهم فوصلوا الى

النفس الامارة بالسوء * فلا
درّ درّ الشيب * مشوبا بدنس
الجيب * ولا تورت اقاحى
القذال * الاعلى مكارم
الافعال
فاقبح ما اجتلاه الطرف يوما
ضياء الشيب في حلك الخصال
نعوذ بالله من غضب الرحمن *
وخفة العمر بطابع
الخذلان * وتعريضه
المشيب لما يهتك من
أستاره * ويكشف من
أسراره * ويمحق من
نواره * ويحرق من نوره
بناره * وعصم أقمار
الكرام * واحرار الانام *
عن مصرع الغوي أبي
الحسن البغوي دلة
الاحتيال * وسلة
الاغتيال * وجراب المخاريق
وجراب التخاليط وعقرب
التضريب * وبلع

موقان وتطرفوا فى طريقهم الى بلاد الكرج فجاءهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل فقاتلوهم فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم وأرسل الكرج الى أوزبك صاحب اذربيجان يطلبون منه الصلح والاتفاق معهم على دفع التتر فاصطلحوا ليجتمعوا اذا انحسر الشتاء وكذلك ارسلوا الى الملك الاشرف بن الملك العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم ان التتر يصبرون فى الشتاء الى الربيع فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف اليهم مماليك تركى من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والاكراد وغيرهم فاجتمع معه خلق كثير وراسل التتر فى الانضمام اليهم فاجابوه الى ذلك ومالوا اليه للجنسية فاجتمعوا وساروا فى مقدمة التتر الى الكرج فلكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم حتى وصلوا الى قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بجدها وحديدها اليهم فلقيهم أقوش أولا فمن اجتمع اليه فاقتتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلهم فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وادركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال وقتل منهم أيضا كثير فلم يثبتوا للتتر وانهزموا اقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم ما لا يحصى كثرة وكانت الوقعة فى ذى القعدة من هذه السنة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم الى بلاد ارمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان وتالله لا أشك ان من يجىء بعدنا اذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها ولحق بيده فمتى استبعد ذلك فلينظر انا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى ازماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والاسلام من يحفظهم ويحوطهم فلقد دفعوا من العدو الى عظيم ومن الملوك المسلمين الى من لا تنعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين اذى وشدة مذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم الى هذا الوقت مثل ما دفعوا اليه الآن هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ما وراء النهر وملكوها وخربوها وناهيك بسعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر الى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ثم الى الرى وبلاد الجبل واذربيجان وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم فى اقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا الى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنها ولا اخراجهم منها وباقى ديار مصر على خطر فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ومن أعظم الامور على المسلمين ان سلطانهم خوارزمشاه محمد قد عدم لا يعرف حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته وتارة دخل اطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لئلا يقصدها التتر لثأره وتارة يقال عاد الى طبرستان وركب البحر فتوفى فى جزيرة هناك وبالجملة فقد عدم ثم صح موته بصر طبرستان وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد على انهم لم يقووا على مدينة الا خربوها بكل ما مروا عليه منهموه وما لا يصطلح لهم احرقوه فكانوا يجمعون الابريسم تلالا

الاكاذيب * وشبه التدليس وزنبق التمويه ومرآة القريب * ومقراض المغيب * وآفة الجود * وخرافة الموعود * وحرباء الالحاد * وكيمياء العناد * وبربوع النفاق * ويعسوب الشقاق * وضبة العقوق * وفأرة الفسوق * وثعلب الخداع * وخنزير القصاع * وكلب الهنات * واسود التراث * وحرضة الانذال * وفرضة الخبث والخبال * وسكين الارحام * ويبرين الدم الحرام * ولعل بعض من يتصفح هذه الالفاظ منسوقه * والاجماع مجموعة ومفروقه * يظن بها ركوب البهت فى حلبة الاقتدار * وعصيان القصد فى طاعة الاجبار * ولا لا يقتضى البلاغة *

ويلقون فيه النار وكذلك غيره من الامتعة

(ذكر ملك التتر مراغة)

في صفر سنة ثمان عشرة وستمائة ملك التتر مدينة مراغة من اذربيجان وسبب ذلك انا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة ما فعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم في بلاد الكرج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة سار وا من ناحية الكرج لانهم رأوا ان بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج الى قتال وصداع فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم اذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فرصلوا الى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب فساروا عنه الى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لان صاحبها كانت امرأة وهي مقيمة بقلعة رويندز وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا اليها وكانت عادتهم اذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فان عادوا قتلوا فكانوا يقاتلون كرها وهم المساكين كما قيل كالاشقران تقدم ينحر وان تأخر يعقر وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل في المسلمين الاسارى وهم بنصوة منه فاقاموا عليها عدة ايام ثم ملكوا المدينة عنوة وقهرا رابع صفر ووضعوا السيف في أهلها فقتل منهم ما يخرج عن الحد والاحصاء ونهبوا كل ما صلح لهم وما لا يصلح لهم احرقوه واختفى بعض الناس منهم فكانوا يأخذون الاسارى ويقولون لهم نادوا في الدروب ان التتر قد رحلوا فاذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل (ويبلغني) ان امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنون انها رجلا فوضعت السلاح واذا هي امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا (وسمعت) من بعض اهلها ان رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحدا واحدا حتى افناهم ولم يمد أحد يده اليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان ثم رحلوا عنها نحو مدينة اربل ووصل الخبر الينا بذلك بالموصل فخفنا حتى ان بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب اربل الى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جماعة صالحا من عسكره واراد ان يمضي الى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد فانها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أن يجوزها الا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز اليه ووصلت كتب الخليفة ورسله الى الموصل والى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر فانهم ربما عدلوا عن جبال اربل لصعوبتها الى هذه الناحية ويطرقون العراق فسار مظفر الدين من اربل في صفر وسار اليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير وأرسل الخليفة أيضا الى الملك الاشرف يأمره بالحضور بنفسه في عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم فاتفق ان الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق الى أخيه الاشرف وهو بحران يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه ان يحضر بنفسه ليسيروا كلهم الى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج فاعتذر الى الخليفة باخيه وقوة الفرنج وان لم يتداركها خرجت هي وغيرها وشرع يتجهز للمسير الى الشام ليدخل مصر وكان حاذكرناه من استنقاذ

واعما الاقراض السفاهة بالفصاحة * وحذوا على غرار الشعراء في استعمال الجاز * واغفال التحفظ والاحتراز * انكارا لانتقاء هذه المساوى * وفي شخص قد شرى على تصاريف الزمان وجرب * وأكل طعمي احواله وشرب * ولم يعلم ان الله تعالى اذا أخذ شخصا ممن شاء من عباده لم يبق منه الا حامسنونا * وجلدا على اخلاط الفساد معطونا * وعلى شك خاصرة الشك عن واضحة اليقين بالافصاح عما أبهم * والاصباح على ما أظلم * تحذيرا لغفلة الانام * وتيسيرا لشاكلة الاستعصام * وتنبيها على مزلة الاغترار بظواهر النعم * والانخداع

دمياط فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سيّر الخليفة اليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الامراء في نحو ثمانمائة فارس. فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر (وحكى مظفر الدين) قال لما ارسل الى الخليفة في معنى قصد التتر قلت له ان العدو قوي وليس لي من العسكر ما القاه به فان اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرني بالمسير ووعدني بوصول العسكر فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشي فأقمت وما رأيت الخاطر بنفسي وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنا منهم ان العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الاسلامي عند دقوقا فلما لم يروا ان العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا الى بلادهم

(ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها)

لما تفرق العسكر الاسلامي عاد التتر الى همذان فنزلوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة يحكم فيها فارسلوا اليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفدوا أموالهم في طول المدة وكان رئيس همذان شريفا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذي يسعى في أمور أهل البلد مع التتر ويوصل اليهم ما يجمعه من الاموال فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه اليهم فحضروا عند الرئيس ومعه انسان فقيه قد قام في اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد افنوا أموالنا ولم يبق لنا ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم اموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم في أهلها بما يختاره فقال الشريف اذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة فليس لنا الا مصانعتهم بالاموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار واغلظوا له في القول فقال أنا واحد منكم فاصنعوا ما شئتم فأشار الفقيه باخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا في البلد فتقدم التتر اليهم وحصروهم وكانت الاقوات متعذرة في تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر احد على الطعام الا قليلا واما التتر فلا يبالون لعدم الاقوات لانهم لا يأكلون الا اللحم ولا تأكل دوابهم الا نبات الارض حتى انها تحفر بحوافرها الارض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا همذان قاتلهم اهلها والرئيس والفقيه في أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا اشد من القتال الاول وقتل أيضا من التتر أكثر من اليوم الاول وجرح الفقيه أيضا عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضا الخروج في اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوي فلم يجدوه وكان قد هرب في سرب صنعه الى ظاهر البلد هو واهله الى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون الا انهم اجتمعت كلمتهم على القتال الى ان يموتوا فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلما لم يروا أحدا خرج اليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم في رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس في الدروب فبطل السلاح للزحمة

لز واهر الاحاظي والقسم *
فكم من صفيح بروق
العيون نوره * ويروع
النفوس مشهوره * قد
قطف عنا قيد رؤس
وأراق أباريق عروق *
وفر المنايا عن عسل من
الانياب روق * ومن
شهاب كما خط بالابرين
كاتب * أوحل عن معقود
اللواء راكب * يستوقف
الابصار ضياء ممدودا *
وبهاء بأفق السماء معقودا *
قدر مد من طار بطواره *
وهمد من رام النهوض في
جواره * وكذلك الدنيا
يغر الناظر بمجرده * ويفتر
عن عقيق الورد زبرجده *
ثم هو الداء المجلوب لمن
خبر * والسم المقشوب
لمن فكر واعتبر * ولولا ان
قصد الشريعة أن تسمح
بخبرها على العموم *
وتكافئ بين الكافة في
فضلها المعلوم * اباحة للكتابة
التي هي قيد العلوم *
وصيد الحكم المبثوثة في
الرقوم * لقلت لله در ساسة

واقتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين مالا يحصيه الا الله تعالى وقوى التتر على المسلمين فافنوهم قتلا ولم يسلم الا من كان عمل له نفقا يختفي فيه وبقي القتل في المسلمين عدة أيام ثم القوا النار في البلد فاحرقوه ورحلوا عنها الى مدينة اردويل وقيل كان السبب في ملكها ان أهل البلد لما شكوا الى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ اليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم فاتفقوا على ذلك فكتب الى الخليفة ينهي اليه ما هم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصغار والخزي ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه فلما سار القصاد بالكتب ارسل بعض من علم بالحال الى التتر يعلمهم ذلك فارسلوا الى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا الى الرئيس ينكرون عليه الحال فجمد فأرسلوا اليه كتبه وكتب الجماعة فسقط في أيديهم وتقدم اليهم التتر حينئذ وقاتلوهم وجرى في القتال كما ذكرنا

(ذكر مسير التتر الى اذربيجان وملكهم اردويل وغيرها)

لما فرغ التتر من همذان ساروا الى اذربيجان فوصلوا الى اردويل فملكوها وقتلوا فيها واكثروا وخربوا أكثرها وساروا منها الى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائي وجمع كلمة أهلها وقد فارقها صاحبها اوزبك بن البهلوان وكان اميرا متخلفا لا يزال منهمكا في الخمر ليلا ونهارا لا يبقى الشهر والشهرين لا يظهر واذا سمع هيعة طار مجفلا لها وله بجميع اذربيجان وارّان وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونساءه الى خوي ليبعد عنهم فقام هذا الطغرائي بأمر البلد وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني وحصن البلد بجهده وطاقته فلما قارب التتر وسمعوا بما اهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم وانهم قد حصنوا المدينة واصلحوا اسوارها وخندقها ارسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا فاستقر الامر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروه اليهم فأخذوه ورحلوا الى مدينة سراو فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها الى بيلقان من بلاد ارّان فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من اهلها فلما وصلوا الى بيلقان حصروها فاستدعى اهلها منهم رسولا يقررون معه الصلح فأرسلوا اليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم فقتله اهل البلد فزحف التتر اليهم وقاتلوهم ثم انهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى انهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الاجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها وكان الانسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يعدّ أحد منهم اليه بدا فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وساروا الى مدينة كنجة وهي أم بلاد ارّان فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة تدربهم بقتال الكرج وحصانتها فلم يقدموا عليها فأرسلوا الى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم

(ذكر وصول التتر الى بلاد الكرج)

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين باذربيجان وارّان بعضه بالملك وبعضه بالصلح ساروا الى بلاد

الكرج

البحر * ورفعة أقدار الدواة والقلم * حين عنسوها دون ذوي الاستحقاق * وخذروها الا عن الكرام العتاق * لله در أنوشروان من رجل لما كان أعرفه بالدون والسفل نهاهم أن يسوا بعده قلما وأن يذل بنو الاحرار بالعمل فما كل نحيزة لها كفاءة في مناكحة الآداب * وملاءة في مناجزة الكتاب * ولا كل مسك يصلح للمسك وعاء * ولا كل ذرور يصلح للعين جلاء * وأضيع شيء عقد في نحر خنزير * وحد بكف ضرير * وخطر بجنب قتير * ونقس على بنان فاجر شرير * هاان المذكور معيدي الاحرار بخراسان دناءة همة * وقماءة قيمة * وخساسة مفعول * وخصاصة معقول * نشأ في بيت الفضل والنعمة * ونما على فرش اللين والنعمة * فرف عليه نعيم التنشب * وعاق به نسيم الادب * فأصبح مخيلا لصوب

الكرج من هذه الاعمال ايضا وكان الكرج قد اعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشا كثيرا الى طرف بلادهم ليمنعوا الترعنها فوصل اليهم الترفالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فأخذهم السيف فلم يسلم منهم الا الشريد ولقد بلغني انهم قتل منهم نحو ثلاثين الفا ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم فلما وصل المنهزمون الى تفليس وبها ملكهم جمع جموعا اخرى وسيرهم الى الترأيضا ليمنعوهم من توسط بلادهم فرأوا الترقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك فلما رأوا فعلهم عادوا الى تفليس فاخلوا البلاد ففعل الترفيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا عنها وداخل الكرج منهم خوف عظيم حتى سمعت عن بعض اكابر الكرج وكان قدم رسولا انه قال من حدثكم ان الترانهزموا وانصرفوا فلا تصدقوه واذا حدثتم انهم قتلوا فصدقوا فان القوم لا يفرون ابدا ولقد اخذنا اسيرا منهم فالقى نفسه من الدابة وضرب راسه بالحجر الى ان مات ولم يسلم نفسه للاسر

(ذكر وصولهم الى دربند شروان وما فعلوه)

لما عاد الترمن بلاد الكرج قصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ثم ان الترصعدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتلى الناس منهم ومن قتل من غيرهم والقوا بعضه فوق بعض فصار مثل التل وصعدوا عليه فاشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها فصبروا واشتد القتال ثلاثة أيام فاشرفوا على ان يؤخذوا فقالوا السيف لا بد منه فالصبر أولى بنا نموت كراما فصبروا تلك الليلة فانثنت تلك الجيوف وانهضمت فلم يبق للترعلى السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فعاودوا الزحف وملازمة القتال فضجر اهلها ومسهم التعب والكلال والاعياء فضعفوا فملك الترالبلد وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الاموال واستباحوها فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك فأرسلوا رسولا الى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل اليهم رسولا يسعى بينهم في الصلح فأرسل عشرة رجال من اعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقين ان انتم عرفتمونا طريقا نعبر فيه فلكم الامان وان لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم ان هذا الدربند ليس فيه طريق البتة ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق فساروا معهم الى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوه وراظهورهم

(ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق)

لما عبر الترالدربند شروان سار وا في تلك الاعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترلكنهم نهبوا وقتلوا من اللكز كثيرا وهم مسلمون وكفاروا وقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا الى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندهم جمعا من قفجاق فقاتلوهم فلم تظفر احدى الطائفتين بالاخرى فأرسل الترالى قفجاق يقولون نحن وانتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم انا لا نعترض اليكم ونحمل اليكم من الاموال والثياب ما شئتم وتتركون بيننا وبينهم فاستقر الامر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك فحملوا اليهم ما استقروا فارقهم قفجاق فأوقع الترت

الصواب في افعاله * جديرا بحكم الانتجاب في أمثاله *
يظن به وبعض الظن اثم ان * الفرع الى الاصل نازع *
والغيث للغيم مضارع * ولا علم يقضي بأن النار
تهفو على رمادها مائل * والخمر تطفو على عكرها فل *
حتى اذا أينع وأينع * حلته نذالة الطباع *
وخبائة السنخ تحت يد * الطباع * على عقوق أبيه *
سعايته به الى السلطان فيما * يحويه * وابتياعه بأملاكه
وأملاك ذويه * فامتلك عليه
قبل الاستحقاق ماله * وقصم
محاله وأحال حاله * وفجع به
أمه وكانت عياله * واجتره
دون ما اقتناه على كبر سنه
وضعف أساسه * واشتعال
المشيب براسه * ورسوب
قذى العمر آخر كاسه *
فطفق يمرى الشؤن دموعا *
ويقتضي أجل الكتاب
مخمصة وجوعا * ويزجى
مطايا الاسحار بين برد
الياس * وحر الانفاس *
بدعوات لم ترجع مجانيقها

بالليل فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا الى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم الا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الاول فالاول واخذوا منهم اضعاف ما حملوا اليهم وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وابعد وا بعضهم اعتصم بالغياض وبعضهم بالجبال وبعضهم لحق ببلاد الروس وأقام التتر في بلاد قفجاق وهي ارض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف وفيها أماكن باردة في الصيف كثيرة المرعى وأماكن حارة في الشتاء كثيرة المرعى وهي غياض على ساحل البحر ووصلوا الى مدينة سوداق وهي مدينة قفجاق التي منها مادتهم فانها على بحر خزرية والمراكب تصل اليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجواري والمماليك والبرطامي والقندر والسنجاب وغير ذلك مما هو في بلادهم وبحر خزرية هذا بحر متصل بخليج القسطنطينية ولما وصل التتر الى سوداق ملكوها وتفرق أهلها منها فبعضهم صعد الجبال بأهله وماله وبعضهم ركب البحر وسار الى بلاد الروم التي بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان

(ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس)

لما استولى التتر على أرض قفجاق وتفرق اهل قفجاق كما ذكرنا سار طائفة كثيرة منهم الى بلاد الروس وهي بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية فلما وصلوا اليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتر ان قصدوهم وأقام التتر بأرض قفجاق مدة ثم انهم ساروا سنة عشرين وستمائة الى بلاد الروس فسمع الروس وقفجاق خبرهم وكانوا مستعدين لقتالهم فساروا الى طريق التتر ليلقوهم قبل ان يصلوا الى بلادهم ليمنعوهم عنها فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس وقفجاق فيهم وظنوا انهم عادوا خوفا منهم وعجزا عن قتالهم فجدوا في اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أثرهم اثنى عشر يوما ثم ان التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم الا وقد لقوهم على غرة منهم لانهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال الا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله ودام القتال بينهم عدة أيام ثم ان التتر ظفروا واستظهروا فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر وكثر القتل في المنهزمين فلم يسلم منهم الا القليل ونهب جميع ما معهم ومن سلم وصل الى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها فاجتمع كثير من اعيان تجار الروس واغنيائهم وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر الى بلاد الاسلام في عدة مراكب فلما قاربوا المرسى الذي يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق الا ان الناس نجوا وكانت العادة جارية ان السلطان له المركب الذي ينكسر فاخذ من ذلك شيأ كثيرا وسلم باقي المراكب وأخبر من بها بهذه الحال

(ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق الى ملكهم)

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغارا واخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كتموا لهم في عدة مواضع وخرجوا اليهم فلقوهم واستجروهم الى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراظهورهم فبقوا في الوسط

واخذهم

الا بقايا صبغة الظهور * وحالقة الدين لا حالقة الشعور * وعطف بعد على من طلعت عليه شمس والده * ووقف عليه اغصان فوائده * فنجبهم نجب السلم * وقرضهم قرض الجلم * وعركهم عرك الادم * وقشرهم قشر القلم * فعادوا اعرى من الصخر معصورا * والسيف مشهورا * والغصن مخبوطا * والدجاج على السفود مربوطا * كل ذلك بين يديه * ونصب عينيه * حتى أضمرته الارض نديما للزفرات * كظيما بالحسرات * غريقا في العبرات * شرقا بماء الحياة * وعقد على مال خطته بكتيج رستاق عقدا اشترى به أهلها وأخذ يطيبهم بما يريهم من سداد السيرة * ورعاية حق الجيرة * ذريعة الى استئكالهم واستئصالهم * دون حرائبهم وأموالهم * وسامح عدة من شيوخ قتالهم * ببعض ما لزمهم استمالة لهم على بؤساء معزورين

وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم الا القليل قيل كانوا نحو أربعة آلاف رجل فساروا الى سقسين عائدين الى ملكهم جنكزخان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم منهم الى بلادهم وكان الطريق منقطعا منذ دخلها التتر فلم يصل منهم شئ من البرطاسي والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل من تلك البلاد فلما فارقوها عادوا الى بلادهم واتصلت الطريق وحملت الامتعة كما كانت هذا أخبار التتر المغربة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع

(ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند)

قد ذكرنا ما فعله التتر المغربة التي سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله الى خوارزمشاه وأما جنكزخان فانه بعد ان سير هذه الطائفة الى خوارزمشاه وبعد انهزام خوارزمشاه من بخراسان قسم أصحابه عدة أقسام فسير قسما منها الى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر منها الى ترمذ وسير قسما منها الى كالنة وهي قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وامنع الحصون فسارت كل طائفة الى الجهة التي أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والاسر والسبي والنهب والتخريب وأنواع الفساد مثل ما فعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا الى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند فجهز جيشا عظيما مع أحد اولاده وسيره الى خوارزم وسير جيشا آخر فعبروا جيحون الى خراسان

(ذكر ملك التتر خراسان)

لما سار الجيش المنفذ الى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الامان فامنوهم فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا اليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وميمند واندخوى وقاريات فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا الى أهلها بسوء ولا أذى سوى انهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا الى الطالقان وهي ولاية تشتمل على عدة بلاد وفيها قلعة حصينة يقال لها منصور كوه لا ترام علوا وارتفاعا وبها رجال يقاتلون شجعان فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ولا يظفرون منها بشئ فأرسلوا الى جنكزخان يعرفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه اليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين اسرى فامرهم بمباشرة القتال والا قتلهم فقاتلوا معه واقام عليها اربعة اشهر اخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير فلما رأى ملكهم ذلك أمر ان يجمع له من الحطب والاخشاب ما أمكن جمعه ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفا من خشب وفوقه صفا من تراب فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازي القلعة فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب وأما الرجالة فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والاطفال ونهبوا الاموال والامتعة ثم ان جنكزخان جمع اهل البلاد التي اعطاهم الامان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض اولاده الى مدينة مرو فدخلوا اليها وقد اجتمع بها من الاعراب والاتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة

وضعفاء مضرورين وساموهم بعد الاحتكام عليهم في التراضي بزعامته * والتواصي بطاعته * عقد الوثائق عليهم بتصحيح مال من ضمانه بتكسير وجبران حق من عقده بتعبير * حتى اذا استتب له ما أراد * واستوفى عليهم الحق وزاد * وضع عليهم يد الاستقصاء بعلة حاصل وباق وحاضر وتاو فأخذ ما وجد من صامت وناطق وصاهل وناهق * حتى اذا أرب كل من ذي يديه * وباد غير اطلال الضياع والرباع عليه * رام استنزالهم عنها كراهية أو طواعيه * فمن اهتبل منهم فرصة الخلاص على التظلم بما دهاه * فأوهاه وعراه فعزاه * بسبقه بحضر العصبة القائمة بالافك في خفارة التوفير * وكفارة التزوير * فارتد على عقبيه

لهم والاستيلاء عليهم فلما وصل الترالهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون وأما الترفلا يعرفون الهزيمة حتى ان بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين ان قيل ان الترية قتلون فصدقوا وان قيل انهم ينهزمون فلا تصدقوا فلما رأى المسلمون صبر الترواقدامهم ولوا منهزمين فقتل الترمنهم وأسروا الكثير ولم يسلم الا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم وأرسل الترالى ماحولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا الى مرو وحصروها وجدوا فى حصرها ولازموا القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والاسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل الترالى الامير الذى بها متقدما على من فيها يقولون له لاتهلك نفسك وأهل البلد واخرج الينا فنحن نجعلك أميرا على هذه البلدة ونرحل عنك فارسل يطلب الامان لنفسه ولاهل البلد فأمنهم فخرج اليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له أريد أن تعرض على أصحابك حتى تنظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه أقطاعا ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم فلما فرغ منهم قال لهم اكتبوا الى تجار البلد ورؤسائه وأرباب الاموال فى جريدة واكتبوا الى أرباب الصناعات والحرف فى نسخة أخرى واعرضوا ذلك علينا ففعلوا ما أمرهم فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج اهل البلد منه بأهليهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد فجلس على كرسى من ذهب وامر ان يحضر أولئك الاجناد الذين قبض عليهم فأحضروا وضربت رقابهم صبرا والناس ينظرون اليهم ويبكون واما العامة فانهم قسموا الرجال والنساء والاطفال والاموال فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل واخذوا ارباب الاموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوباب فى طلب الاموال فربما مات احدهم من شدة الضرب ولم يكن بقى له ما يفتدى به نفسه ثم انهم احرقوا البلد واحرقوا تربة السلطان سنجر ونبشوا القبر طلبا للمال فبقوا كذلك ثلاثة ايام فلما كان اليوم الرابع امر بقتل اهل البلد كافة وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم اجمعين وامر باحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل فانا لله وانا اليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم ثم ساروا الى نيسابور فحصروها خمسة ايام وبها جمع صالح من العسكر الاسلامى فلم يكن لهم بالترقوة فملكوا المدينة واخرجوا اهلها الى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو وأقاموا خمسة عشر يوما يخربون ويفتشون المنازل عن الاموال وكانوا لما قتلوا اهل مرو قيل لهم ان قتلاهم لم منهم كثير ونجوا الى بلاد الاسلام فأمروا بأهل نيسابور ان تقطع رؤسهم لئلا يسلم من القتل احد فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم الى طوس ففعلوا بها كذلك ايضا وخربوها وخربوا المشهد الذى فيه على بن موسى الرضى والرشيد حتى جعلوا الجميع خرابا ثم ساروا الى هراة وهى من احسن البلاد فحصروها عشرة ايام فملكوها وامنوا اهلها وقتلوا منهم البعض وجعلوا عندهم من سلم منهم شحنة وساروا الى غزنة فالقيهم جلال الدين ابن خوارزمشاه فقاتلهم وهزمهم على ما نذكره ان شاء الله فوثب اهل هراة على الشحنة فقتلوه فلما عاد المنهزمون اليهم دخلوا البلد قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيه ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها واحرقوها وعادوا الى ملكهم جنكزخان وهو

خزيان * قد سال به السيل وأسوان * طاف به الويل وناح عليه النهار والليل فاما ان يزول على كرب وقلق واما أن يؤل على غيظ وحنق * حتى استخلص الضاحية والضامنه واعتصر البادية والكامنه وغادر الضياع حشين وشرد عنها الزراع عزين وأخرس الثغاء والرغاء وأنطق الهام والاصداء وطمس المنابع والمشارع وحمى المراعى والمراتع * فلو ملك عصافير الهواء * ويعافير البيداء * لاستكرهها على طغوم القوانص * وحقوق الملاجئ والمفاحص * قد شحافاه للاطماع ولامداخل الكهوف * ومفاتح الولائج الجوف كالحوت لا يرويه شئ يلهمه يصبح ظمآن وفى البحر فمه ومابه التخريب لولا اجتياح

بالطالقان يرسل السرايا الى جميع بلاد خراسان ففعلوا بها كذلك ولم يسلم من شرهم وفسادهم شئ من البلاد وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة

(ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها)

وأما الطائفة من الجيش التي سيرها جنكزخان الى خوارزم فانها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلاد فساروا حتى وصلوا الى خوارزم وفيها عسكر كبير وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير الا ان القتلى من التتر كانوا أكثر لان المسلمين كانوا يحمون السور فارسل التتر الى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا الى البلد زحفوا زحفا متتابعا فملكوا طرفا منه فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم في طرف الموضع الذي ملكوا فلم يقدروا على افراجهم ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون في المحلة التي تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ونهبوا كل ما فيه ثم انهم فتحوا السكر الذي يمنع ما جيحون عن البلد فدخله الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الابنية وبقي موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة فان غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفي ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو واما اهل خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء او قتله الهدم فأصبحت خرابا يبابا

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهذا لم يسمع بمثله في قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الحور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الاسلام وأهله فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لان القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرا مضى الجميع تحت السيف ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا الى ملكهم بالطالقان

(ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور)

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا الى ملكهم جهز جيشا كثيفا وسيره الى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزمشاه مالكا لها وقد اجتمع اليه من سلم من عسكر ابيه قيل كانوا ستين ألفا فلما وصلوا الى أعمال غزنة خرج اليهم المسلمون مع ابن خوارزمشاه الى موضع يقال له بلق فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديدا وبقوا كذلك ثلاثة أيام ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤا ومن سلم منهم عاد الى ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالي الذي عندهم للتتر فقتلوه وسيروا اليهم جنكزخان عسكرا فملكوا البلد وخربوه كما ذكرناه فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولا الى جنكزخان يقول له في أي موضع تريد يكون الحرب حتى نأتي اليه فجهز جنكزخان عسكرا كثيرا أكثر من الاول مع بعض أولاده وسيره اليه فوصل الى كابل فتوجه العسكر الاسلامي اليهم وتصافوا هناك وجرى بينهم قتال عظيم فانهزم الكفار ثانيا فقتل كثير منهم وغنم المسلمون ما معهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير فاستنقذوهم وخلصوهم ثم ان المسلمين جرى بينهم فتنة لاجل الغنيمة وسبب

المال بجوعه * واستحلال حرام الملك بربوعه * كأنما عقد على الدهر حلفا لا يخونه * واتخذ عنده عهدا يصونه * ويتحاماه من دونه صونه * وهيهات انها مظالم حديدات الشفائر ومغارم ثقيلات الغرائر ومصايد طالما خفقت فخاخها وضربت عليها الشباك مات رخاخها * ومطاعم ظاهرها الأثرى وباطنها السم وان من الربيع ما يقتل حبطا أو يلم * نعم وأقام سوق الفسوق خاصة وعامه وأباح حمى الفجور بطانة وحامه * ملتزما سمة الشطاره ومستطرا بقية الجباره ومضاهيا تيوس المجوس في خبث الاحماد * وصلة الاخوات والاولاد * بلاغا غمته ثقات خدمه * وأدته على وجه الاكبار جيران حرمه * وربما أرادوا له

ذلك ان أميرا منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الاتراك الخلج كان شجاعا مقداما ماذا رأى في الحرب ومكيدة واصطلى الحرب مع التتر بنفسه وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملتم منهم رعبا وهو الذي كسر التتر على الحقيقة وكان من المسلمين أيضا أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزمشاه نسب وهو صاحب هراة فاختلف هذان الاميران في الغنيمة فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق أنا أهزم الكفار ويقتل أخي لاجل هذا السحت فغضب وفارق العسكر وسار الى الهند فتبعه من العسكر ثلاثون ألفا كلهم يريدونه فاستعطفه جلال الدين بكل طريق وسار بنفسه اليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقا فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا فبيناهم كذلك اذ ورد الخبر ان جنكزخان قد وصل في جموعه وجيوشه فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لاجل من فارقهم من العسكر ولم يقدر على المقام فسار نحو بلاد الهند فوصل الى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن ما يعبر فيه وكان جنكزخان يقص أثره مسرعا فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكزخان في التتر فاضطر المسلمون حينئذ الى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا في ذلك كالاشقران تأخر ينحر وان تقدم يعقر فتصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا هم انهم ان كل ما مضى من الحروب كان لعبا بالنسبة الى هذا القتال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الامير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير وكان القتل في الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم فابعدوا ونزلوا فلما رأى المسلمون أنهم لامدد لهم وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك فارسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمون ليقضي الله أمرا كان مفعولا فلما كان الغد عاد الكفار الى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء الى جهة الهند وبعدهم فلما وصلوا اليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والحماة فقتلوا أهلها ونهبوا الاموال وسبوا الحريم ولم يبق أحد وخربوها واحرقوها وفعلوا بوادها كذلك ونهبوا وقتلوا وأحرقوا فأصبحت تلك الاعمال جميعها خالية من الانيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس

(ذكر تسليم الاشرف خلاط الى أخيه شهاب الدين غازي)

أواخر هذه السنة أقطع الملك الاشرف موسى بن العادل مدينة خلاط وجميع الاعمال الارمنية ومدينة ميافارقين من ديار بكر ومدينة حاني أخاه شهاب الدين غازي بن العادل وأخذ منه مدينة الرها ومدينة سروج من بلاد الجزيرة وسيره الى خلاط أول سنة ثمان عشرة وستمائة وسبب ذلك ان الكرج لما قصدوا التتر بلادهم وهزموهم ونهبوها وقتلوا كثيرا من أهلها أرسلوا الى اوزبك صاحب اذربيجان وارران يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع التتر وأرسلوا الى الملك الاشرف في هذا المعنى وقالوا للجميع ان لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم ودفعهم عن بلادنا ونحضر وا بانفوسكم وعساكركم لهذا المهم والا صالحناهم عليكم فوصلت رسلهم الى الاشرف وهو يتجهز الى الديار المصرية لاجل الفرنج وكانوا عندهم أهم الوجوه لاسباب أولها ان الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط وقد أشرفت الديار المصرية على ان تملك فلو ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لاحد وثانيها ان الفرنج أشد شكيمة وطالبو ملك

في السر ملاما * وراموا من تحذيره حدود الله وتخويفه عقاب الله مراما * فما زيدهم على ظاهرتين عاهرتين كحدق الجراد مالها أجفان تواريها * ولا أهداب تقيها تصلفا بركوب الآثام وتكلفا لمحظور الحرام وانما أثبت لفظ التكلف قطعا على ما سمعته من بعض مشايخ الادب يحكي عن سأل أبا حاتم السجستاني عن قول رسول الله عليه السلام أبغض الناس الى الله شيخ زان وعائل متكبر وفقير فخور وزعم ان القياس يقتضي كون الشاب الشديد الفحلة القوي المنة أبغض اليه من الشيخ المضعوف والمعتصر المتزوف * فقال هو بناء على قوله عليه السلام أبغض الاشياء الى الله التكلف فأبغض الشيخ لان فعله تكلف * وتقدمه

فاذا ملكوا قرية لا يفارقونها الا بعد أن يجزوا عن حفظها يوما واحدا وثالثها ان الفرنج قد طمعوا فى كرسى مملكة البيت العادلى وهى مصر والتتر لم يصلوا اليها ولم يجاوزوا شيأ من بلادهم وليسوا أيضا ممن يريد المنازعة فى الملك وما غرضهم الا النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد الى آخر فلما أتاه رسل الكرج بما ذكرناه أجابهم يعتذر بالمسير الى مصر لدفع الفرنج ويقول لهم انى قد أقطعت ولاية خلاط لاخى وسيرته اليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فتى احتجتم الى نصرته حضر لدفع التتر وسار هو الى مصر كما ذكرناه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة فى ربيع الآخر ملك بدر الدين قلعة تل اعفر وفيها فى جمادى الاولى ملك الاشرف مدينة سنجار وفيها أيضا وصل الموصل وأقام بظاهرها ثم سار يريد اربل لقصد صاحبها فتردد الرسل بينهم فى الصلح فاصطلحوا فى شعبان وقد تقدم هذا جميعه مفصلا سنة خمس عشرة وستمائة وفيها وصل التتر الرى فملكوها وقتلوا كل من فيها ونهبوها وسار واعنها فوصلوا الى همذان فلقيهم رئيسها بالطاعة والحمل فابقوا على أهلها وسار وا الى اذربيجان فخربوا وحرقوا البلاد وقتلوا وسبوا وعملوا ما لم يسمع بمثله وقد تقدم أيضا مفصلا وفيها توفى نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الذى كان وزير الخليفة وصلى عليه بجامع القصر وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد وفيها توفى صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجوينى شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان مولده بالموصل وورد هراسولا وكان فقيها فاضلا وصوفيا صالحا من بيت كبير من خراسان رحمه الله كان نعم الرجل وفيها عاد جمع بنى معروف الى مواضعهم من البطيحة وكانوا قد سار وا الى الاجناو القطيف فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم فقصدوا شحنة البصرة وطلبوا منه ان يكاتب الديوان ببغداد بالرضا عنهم فكتب معهم بذلك وسيرهم مع أصحابه الى بغداد فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم فقتلوا

(ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى قتادة بن ادريس العلوى ثم الحسينى أمير مكة حرسها الله وكان عمره نحو سبعين سنة وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن الى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وله قلعة ينبع بنواحى المدينة وكثر عسكره واستكثر من المماليك وخافه العرب فى تلك البلاد خوفا عظيما وكان فى أول ملكه لما ملك مكة حرسها الله حسن السيرة أزال عنها العبيد المفسدين وحمى البلاد واحسن الى الحجاج واكرمهم وبقى كذلك مدة ثم انه بعد ذلك اساء السيرة وجدد المكوس بمكة وفعل أفعالا شنيعة ونهب الحاج فى بعض السنين كما ذكرناه ولما مات ملك بعده ابنه الحسن وكان له ابن آخر اسمه راجح مقيم فى العرب بظاهر مكة يفسد وينازع أخاه فى ملكه فلما سار حاج العراق كان الامير عليهم مملوكا من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه اقباش وكان حسن السيرة مع الحاج فى الطريق كثير الحماية فقصده راجح بن قتادة وبذل له وللخليفة مالا ليساعده على ملك مكة فأجابه الى ذلك ووصلوا الى مكة ونزلوا بالزاهر وتقدم الى مكة مقاتلا لاصاحبها حسن وكان حسن قد جمع جموعا كثيرة من العرب

استكراه للطبع وهو تخلف كذلك هذا الخرف المتكلف والشره المتورة قد قضى شبيبته على اقتراف المحارم واختراف المآثم * حتى اذا وضع القتير * ورزح المسير وانحل المرير * وأفرغ ماء الصبير * أبت عليه عادة السوء أن ترخيه من عقالها وتعريه عن سربالها * ونحيه عن وبالها * وتريه الاعلى شعب الاران يوم فصالها لا تتعود يا اخى عادة تحوى بها ضربا من الشين فعادة السوء اذا استحكمت شرت على المرء من الدين هذا ولم يرض بالعقوق الذى وسمه * ووشمه وسخم وجهه وحمه * ورداه بالخزى وعممه حتى قطع على رؤس الاشهاد رحمه * وقتل فى الشائع المستفيض ولده وكان لحمه

وغيرها فخرج اليه من مكة وقاتله وتقدم أمير الحاج من بين يدى عسكره منفردا وصعد الجبل ادلالا بنفسه وانه لا يقدم أحد عليه فأحاط به أصحاب حسن وقتلوه وعلقوا رأسه فانهزم عسكر أمير المؤمنين وأحاط أصحاب حسن بالحاج لينهبوهم فارسل اليهم حسن عمامته أمانا للحجاج فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيأ وسكن الناس وأذن لهم حسن فى دخول مكة وفعل ما يريدونه من الحج والبيع وغير ذلك وأقاموا بمكة عشرة أيام وعادوا فوصلوا الى العراق سالمين وعظم الامر على الخليفة فوصلت رسل حسن يعتذرون ويطلبون العفو عنه فأجيب الى ذلك وقيل فى موت قتادة ان ابنه حسنا خنقه فمات وسبب ذلك ان قتادة جمع جموعا كثيرة وسار عن مكة يريد المدينة فنزل بوادى الفرع وهو مريض وسير أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة فلما أبعدوا بلغ الحسن ان عمه قال لبعض الجند ان أخى مريض وهو ميت لا محالة وطلب منهم ان يحلفوا له ليكون هو الامير بعد أخيه قتادة فحضر الحسن عند عمه واجتمع اليه كثير من الاجناد والمماليك الذين لابيه فقال الحسن لعمه قد فعلت كذا وكذا فقال لم أفعل فأمر حسن الحاضرين بقتله فلم يفعلوا وقالوا أنت أمير وهذا أمير ولا نمد أيدينا الى أحد كما فقال له غلامان لقتادة نحن عبيدك فمرنا بما شئت فأمرهما ان يجعلا عمامة عمه فى عنقه ففعلا ثم قتله فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كل مبلغ وحلف ليقتلن ابنه وكان على ما ذكرناه من المرض فكتب بعض أصحابه الى الحسن يعرفه الحال ويقول له ابدأ به قبل ان يقتلك فعاد الحسن الى مكة فلما وصلها قصد دار أبيه فى نفر يسير فوجد على باب الدار جمعا كثيرا فأمرهم بالانصراف الى منازلهم ففارقوا الدار وعادوا الى مساكنهم ودخل الحسن الى أبيه فلما رآه أبوه شتمه وبالغ فى ذمه وتهديده فوثب اليه الحسن فخنقه لوقته وخرج الى الحرم الشريف وأحضر الاشراف وقال ان أبى قد اشتد مرضه وقد أمركم أن تحلفوا لى أن أكون أنا أميركم فحلفوا له ثم انه أظهر تابوتا ودفنه ليظن الناس أنه مات وكان قد دفنه سرا فلما استقرت الامارة بمكة له ارسل الى أخيه الذى بقلعة ينبع على لسان أبيه يستدعيه وكتم موت أبيه عنه فلما حضر أخوه قتله أيضا واستقر امره وثبت قدمه وفعل بأمير الحاج ما تقدم ذكره فارتكب عظيما قتل أباه وعمه وأخاه فى أيام يسيرة لاجرم لم يمهله الله سبحانه وتعالى نزع ملكه وجعله طريدا شريدا خائفا يترقب وقيل ان قتادة كان يقول شعرا فمن ذلك انه طلب ليحضر عند أمير الحاج كما جرت عادة أمراء مكة فامتنع فعوتب من بغداد فأجاب بأبيات شعر منها

ولى كف ضرغام أدل ببطشها * وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الارض تلثم ظهرها * وفى وسطها للمجد بين ربيع
أأجعلها تحت الرغائم أبتغى * خلاصا لها انى اذا لرقيع
وما أنا الا المسك فى كل بلدة * يضوع واما عندكم فيضيع

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصرية من الفرنج وقد تقدم ذكرها مشروحا مفصلا وفيها فى صفر ملك التتر مراغة وخربوها وأحرقوها وقتلوا أكثر أهلها ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وسار التتر منها الى همذان وحصروها فقاتلهم أهلها وظفر بهم التتر

وقتلوا

ودمه * فلو كان كأحد أولاد السوقه * فى أخلاق لهم بين الجدة والخلوقه لكنه الخمر بماء العهد والزبد بذوب الشهد * واللثم برشف الرضاب * والملك بشرخ الشباب * والأمن بطعم الوصال * والخلق بطيب الحلال * والعفو بنشر النوال والعيش بموت العذال وشمس الجنوب بروح الشمال * عشق الادب قبل أن عقدت عنه تمائمه وزينته دون الاحتضان روائمه * فجاء كالصرح هدى أوله النصل المطار * وحدا أسفله الريش الظهار وناهز عشرين من سنيه يرى الخليل فى جنب فضله خليلا * وسيبويه كليلا وعبد الحميد رديدا * وابن العميد عميدا * ان خط

وقتلوا منهم مالا يحصى ونهبوا البلد وساروا الى اذربيجان فأعادوا النهب ونهبوا ما بقى من البلاد ولم ينهبوه أولا ووصلوا الى بيلقان من بلاد اران فحصروها وملكوا وقتلوا أهلها حتى كادوا يفنونهم وقتل منهم كثير ونهبت أموالهم واكثر بلادهم وقصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخى وملكوها وقتلوا كثيرا من اهلها وساروا الى بلاد اللان واللكز ومن عندهم من الامم فأوقعوا ورحلوا عن قفجاق واجلوهم عنها واستولوا عليها وساحوا فى تلك الارض حتى وصلوا الى بلاد الروس وقد تقدم ذكر جميعه مستقصى وانما اوردناه ههنا جملة ليعلم الذى كان فى هذه السنة من حوادثهم وفيها توفى صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلى ولم يكن فى زمانه من يكتب ما يقاربه ولا من يؤدى طريقة ابن البواب مثله وكان ذا فضائل جمة من علم الادب وغيره وكان كثير الخير نعم الرجل مشهورا فى الدنيا والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له ولهم فيه اقوال كثيرة نظما ونثرا فمن ذلك ما قاله نجيب الدين الحسين بن على الواسطى من قصيدة يمدحه بها

جامع شارد العلوم ولولا * ه لكانت ام الفضائل ثكلى
ذو يراع تخاف سطوته الاسـ * ـد وتعنو له الكتائب ذلا
واذا افترّ ثغره عن سواد * فى بياض فالبيض والسمر تخلى
انت بدر والكاتب بن هلال * كأبيه لا خير فيمن تولى

ومنها

ان يكن أولا فانك بالتفـ * ـضيل اولى لقد سبقت وصلى

وهى طويلة والكاتب بن هلال هو ابن البواب الذى هو أشهر من ان يعرف وفيها توفى جلال الدين الحسن وهو من أولاد الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكره صاحب ألموت وكردكوه وهو مقدم الاسماعيلية وقد ذكرنا انه كان قد أظهر شريعة الاسلام من الاذان والصلاة وولى بعده ابنه علاء الدين محمد

(ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة)

(ذكر خروج طائفة من قفجاق الى اذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم)

لما استولى التتر على أرض قفجاق تفرق قفجاق فطائفة قصدت بلاد الروس وطائفة تفرقت فى جبالهم واجتمع طائفة كثيرة منهم وساروا الى دربند شروان واوسلوا الى صاحبه واسمه رشيد وقالوا له ان التتر قد ملكوا بلادنا ونهبوا أموالنا وقد قصدناك لنقيم فى بلادك ونحن عمالیك لك ونفتح البلاد لك وأنت سلطاننا فمنعهم من ذلك وخافهم فأعادوا الرسالة اليه انا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا على الطاعة والخدمة لك والانقياد لحكمك فلم يجبهم الى ما طلبوا فسألوه ان يمكنهم ليتزودوا من بلده تدخل عشرة عشرة فاذا اشتروا ما يحتاجون اليه فارقوا بلاده فأجابهم الى ذلك فصاروا يدخلون متفرقين ويشترون ما يريدون ويخرجون ثم ان بعض كبرائهم والمقدمين منهم جاء الى رشيد وقال انى كنت فى خدمة السلطان خوارزمشاه وأنا مسلم والدين يحملنى على نصحك اعلم ان قفجاق أعداؤك ويريدون الغدر بك فلا تمكنهم من المقام ببلادك فأعطنى عسكرا حتى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد ففعل ذلك وسلم اليه طائفة

فنقش العيد * على ايدى الكواعب الغيد * وان لفظ نعقود الدر منظومه واقاحى البطاح مرهومه ولولا أن اباه اعتبطه دون مداه خلف من آثار بنانه وخلد من أنوار ابداعه واحسانه * ما يفضح ماء الورد فى تصعيده * وعصير الخمر من عناقيده * لكنه لم يغن الاقدر ما لحته العيون حتى اختطفته المنون * فقامت نواعى المجد يندبنه جميعا ويبكينه نجيعا * فظللت من بينهم صريعا * أنشدهم والله القلب وجيعا قد كان لى فى رأيه وذكائه أشراط صدق أن يموت سريعا ولقد ضمنى واياه مجلس لبعض أركان الدولة اليمينية فاتفقنا ثانى اثنين من بين الحضور فى تنافت الهموم

من عسكره واعطاهم مايحتاجون اليه من سلاح وغيره فسار وامعه فأوقعوا بطائفة من قفجاق فقتل منهم جماعة ونهب منهم فلم يتحرك قفجاق لقتال بل قالوا نحن مماليك الملك شروان شاه رشيد ولولا ذلك لقاتلنا عسكره فلما عاد ذلك المقدم القفجاقي ومعه عسكر رشيد سالمين فرح بهم ثم ان قفجاق فارقوا موضعهم فسار ثلاثة أيام فقال ذلك القفجاقي لرشيد أريد عسكرا اتبعهم فأمر له من العسكر بما أراد فسار يقفو أثر القفجاق فأوقع بأواخرهم وغنم منهم وقصده جمع كثير من قفجاق من الرجال والنساء يكون وقد جزوا شعورهم ومعهم تابوت وهم محيطون به يبكون حوله وقالوا له ان صديقك فلانا قدمات وقد أوصى ان نحمله اليك فتدفنه في أي موضع شئت ونكون نحن عندك فحمله معه والذين يبكون عليه أيضا وعاد الى شروان شاه رشيد وأعلمه ان الميت صديق له وقد حمله معه وقد طلب أهله ان يكونوا عنده في خدمته فأمر ان يدخلوا البلد وانزلهم فيه فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدم ويركبون بركوبه ويصعدون معه الى القلعة التي لرشيد ويقعدون عنده ويشربون معه هم ونساؤهم فأحب رشيد امرأة ذلك الرجل الذي قيل له انه ميت ولم يكن مات وانما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد والذي أظهروا موته معهم في المجلس ولا يعرفه رشيد هو من أكبر مقدمي قفجاق فبقوا كذلك عدة أيام فكل يوم يجيء جماعة من قفجاق متفرقين فاجتمع بالقلعة منهم جماعة وأرادوا قبض رشيد وملك بلاده ففطن لذلك فخرج عن القلعة من باب السر وهرب ومضى الى شروان وملك قفجاق القلعة وقالوا لاهل البلد نحن خير لكم من رشيد وأعادوا باقي أصحابهم اليهم وأخذوا السلاح الذي في البلد جميعه واستولوا على الاموال التي كانت لرشيد في القلعة ورحلوا عن القلعة وقصدوا قبلة وهي للكرج فنزلوا عليها وحصروها فلما سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع اليها وملكها وقتل من بها من قفجاق ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك فارسلوا طائفة منهم الى القلعة فقتلهم رشيد أيضا فبلغ الخبر الى القفجاق فعادوا الى دربند فلم يكن لهم في القلعة طمع وكان صاحب قبلة لما كانوا يحصرونه قد أرسل اليهم وقال لهم أنا أرسل الى ملك الكرج حتى يرسل اليكم الخلع والاموال ونجتمع نحن وأنتم ونملك البلاد فكفوا عن نهب ولايته أياما ثم انهم مدوا أيديهم بالنهب والفساد ونهبوا بلاد قبلة جميعها وساروا الى قريب كنجة من بلاد اران وهي للمسلمين فنزلوا هناك فأرسل اليهم الامير بكنجة وهو مملوك لاوزبك صاحب اذربيجان اسمه كوشخرة عسكرا فمنعهم من الوصول الى بلاده وسير رسولا اليهم يقول لهم غدرتم بصاحب شروان وأخذتم قلعته وغدرتم بصاحب قبلة ونهبتم بلاده فما يليق بكم أحد فأجابوا انا ما جئنا الا قصدا لخدمة سلطانكم فتعنا شروان شاه عنكم فلهذا قصدنا بلاده وأخذنا قلعته ثم تركناها من غير خوف وأما صاحب قبلة فهو عدو لكم ولو أردنا ان نكون عند الكرج لما كنا جعلنا طريقنا على دربند شروان فانه اصعب وأشق وبعد وكنا جئنا الى بلادهم على عادتنا ونحن نوجه الرهائن اليكم فلما سمع هذا سار اليهم فسمع به قفجاق فركب اميران منهم هما مقدماهم في نفر يسير وجاؤا اليه ولقوه وخدموه وقالوا له قد أتينا لك جريدة في قلة من العدد لتعلم انا ما قصدنا الا الوفاء والخدمة لسلطانكم فأمرهم كوشخرة بالرحيل والنزول عند كنجة وتزوج ابنة أحدهم وأرسل الى صاحبه أوزبك يعرفه حالهم فأمر لهم

وتذاكر العلوم * وتناشد أبيات الكرم واللوم * فما كان الا أن حمي المجلس بنار وعقر الشرب بعقاره * حتى انحل عنه عقال اختياره وانفضت له أقفال أسراره ففرق في بحر الدموع عينه وأتى الى ما دار بين أبيه وبينه * يقتر ما نشأ عليه من خدمة الادب * والاستغناء بعصام النفس عن عظام النسب * على طاعة من ولد في حجره * والبروز على حكم أمره وزجره * وانه حين ملك أمره * وعرف من خلة خبره * وانفرد بتدبير معاشه وتوفير نعمته ورياشه * ناهض بأمله معونة أبيه ببعض ما يستحقه ببرة الابناء على الآباء فلم يزده على أن زاحمه في ارثه عن أمه

بالخلع والنزول بجبل كيلكون ففعلوا ذلك وخافهم الكرج فجمعوا لهم ليكبسوهم فوصل الخبر بذلك الى كوشخرة أمير كنجة فاخبر قجاق وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة فعادوا ونزلوا عندها وسار أمير من أمراء قجاق في جمع منهم الى الكرج فكبسهم وقتل كثيرا منهم وهزمهم وغنم ما معهم واكثر القتل فيهم والاسر منهم وتمت الهزيمة عليهم ورجع قجاق الى جبل كيلكون فنزلوا فيه كما كانوا فلما نزلوا أراد الامير الآخر من أمراء قجاق ان يؤثر في الكرج مثل ما فعل صاحبه فسمع كوشخرة فارسل اليه ينهاه عن الحركة الى ان يكشف له خبر الكرج فلم يقف فسار الى بلادهم في طائفته ونهب وخرب وأخذ الغنائم فسار الكرج من طريق يعرفونها وسبقوه فلما وصل اليهم قاتلوه وحملوا عليه وعلى من معه على غرة وغفلة فوضعوا السيف فيهم واكثروا القتل فيهم واستنقذوا الغنائم منه فعاد هو ومن معه على أقبح حالة وقصد وا برذعة وارسلوا الى كوشخرة يطلبون ان يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقصدوا الكرج فيأخذوا بثارهم منهم فلم يفعل وأخافهم وقال انتم خالفتموني وعملتم برأيكم فلا أنجدكم بفارس واحد فارسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم فلم يعطهم فاجتمعوا وأخذوا كثيرا من المسلمين عوضا من الرهائن فثار بهم المسلمون من أهل البلاد وقاتلوهم فقتلوا منهم جماعة كثيرة فخافوا وساروا نحو شروان وجازوا الى بلد اللكز فطمع الناس فيهم المسلمون والكرج واللكز وغيرهم فافنوهم قتلا ونهبا وأسرا وسبيا بحيث ان المملوك منهم كان يباع في دربند شروان بالثمن البخس

(ذكر ذهاب الكرج ببلقان)

في هذه السنة في شهر رمضان سار الكرج من بلادهم الى بلاد اران وقصدوا مدينة بيلقان وكان التتر قد خربوها ونهبوها كما ذكرناه قبل فلما سار التتر الى بلاد قجاق عاد من سلم من اهلها اليها وعمروا ما امكنهم عمارته من سورها فبينما هم كذلك اذ أتاهم الكرج ودخلوا البلد وملكوه وكان المسلمون في تلك البلاد ألفوا من الكرج انهم اذا ظفروا ببلد صانعوهم بشيء من المال فيعودون عنهم فكانوا أحسن الاعداء مقدرة فلما كان هذه الدفعة ظن المسلمون انهم يفعلون مثل ما تقدم فلم يبالغوا في الامتناع منهم ولا هربوا من بين أيديهم فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف في أهلها وفعلوا من القتل والنهب ما فعل بهم التتر هذا جميعه يجري وصاحب بلاد اذربيجان اوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز ولا يتحرك في صلاح ولا يبعثه خير بل قد قنع بالاكل وادمان الشرب والفساد فقبحه الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمد وآله

(ذكر ملك بدر الدين قلعة شوش)

في هذه السنة ملك بدر الدين صاحب الموصل قلعة شوش من أعمال الحميدية وبينها وبين الموصل اثنا عشر فرسخا وسبب ذلك انها كانت هي وقلعة العقر متجاورتين لعماد الدين زنكي ابن ارسلانشاه وكان بينهما من الخلاف ما تقدم ذكره فلما كان هذه السنة سار زنكي الى اذربيجان ليهدم صاحبها اوزبك بن البهلوان فاتصل به وصار معه واقطعه اقطاعات وأقام عنده فسار بدر الدين الى قلعة شوش فحاصرها وضيق عليها وهي على رأس جبل عال فطال

وحال بينه وبين ما كتب الله له من حقه مطاوعة لرقيق اعتقده * فذاق عسيلته * وأذاقه ذيلته * فخلاه بنهما تريب دانيته وقاصيته وولاه تدبير حاشيته وغاشيته * وحكمه في عرض ولده * وسائر ما تحت يده * فاحجر ذلك الفاضل دون نعمته * وأقعده دون الاستمتاع بلمته * وجعل كل من يعتزى اليه منقوما ومقدوعا * ومن يعتريه ملطوما وموقوعا * حتى اضطره صراخ الباس والحاح الافلاس * الى قصد شمس الكفاة لاستماحته * واقتباع ندى راحته * فحين علم أبوه المعتوه تخييمه على شاطئ الاقبال * واستقلاله على مواطئ الآمال * ندب الفكر لاغتياله * أو سهر الليل لاقتناصه باحدى حبائله وحباله * فدس اليه على ماشاع وذاع * وشحن

مقامه عليها لحصانتها فعاد الى الموصل وترك عسكره محاصرا لها فلما طال الامر على من بها ولم يروا من يرحله عنهم ولا من ينجدهم سلموها على قاعدة استقرت بينهم من اقطاع وخلع وغير ذلك فتسلمها نوابه في التاريخ ورتبوا امورها وعادوا الى الموصل

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة في العشرين من شعبان ظهر كوكب في السماء في الشرق كبير له ذؤابة طويلة غليظة وكان طلوعه وقت السحر فبقي كذلك عشرة أيام ثم انه ظهر أول الليل في الغرب مما يلي الشمال فكان كل ليلة يتقدم الى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع في رأي العين فلم يزل يقرب من الجنوب حتى صار غربا محضا ثم صار غربا ماثلا الى الجنوب بعد ان كان غربا مما يلي الشمال فبقي كذلك الى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب وفيها توفي ناصر الدين محمود بن محمد قرا ارسلان صاحب حصن كيفا وآمد وكان ظالما قبيح السيرة في رعيته قيل انه كان يتظاهر بمذهب الفلاسفة في ان الاجساد لا تحشر كذبوا لعنهم الله ولما مات ملك ابنه الملك المسعود

(ثم دخلت سنة عشرين وستمائة)

(ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى)

في هذه السنة سار الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد صاحب مصر الى مكة وصاحبها حينئذ حسن بن قتادة بن ادريس العلوي الحسيني قد ملكها بعد أبيه كما ذكرناه وكان حسن قد أساء الى الاشراف والمماليك الذين كانوا لابيه وقد تفرقوا عنه ولم يبق عنده غير اخواله من غيره فوصل صاحب اليمن الى مكة ونهبها عسكره الى العصر فحدثني بعض المجاورين المتأهلين انهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم وأمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة ويحرق فنبشوه فظهر التابوت الذي دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون اليه فلم يروا فيه شيأ فعلموا حينئذ ان الحسن دفن أباه سرا وانه لم يجعل في التابوت شيأ وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم وعجل الله مقابلته وأزال عنه ما قتل أباه وأخاه وعمه لاجله خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

(ذكر حرب بين المسلمين والكرج بارمينية)

في هذه السنة في شعبان سار صاحب قلعة سرماري وهي من اعمال ارمينية الى خلاط لانه كان في طاعة صاحب خلاط وهو حينئذ شهاب الدين غازي بن العادل أبي بكر بن أيوب فحضر عنده واستخلف ببلده أميرا من أمرائه فجمع هذا الامير جمعا وسار الى بلاد الكرج فنهب منها عدة قرى وعاد فسمعت الكرج بذلك فجمع صاحب دوين واسمه شلوة وهو من أكابر أمراء الكرج عسكره وسار الى سرماري فحصرها أياما ونهب بلدها وسوادها ورجع فسمع صاحب سرماري الخبر فعاد الى سرماري فوصل اليها في اليوم الذي رحل الكرج عنها فأخذ عسكره وتبعهم فأوقع بساقتهم فقتل منهم وغنم واستنقذ ما أخذوا من غنائم بلاده ثم ان صاحب دوين جمع عسكره وسار الى سرماري ليحصرها فوصل الخبر الى صاحبها بذلك فحصنها وجمع الذخائر وما يحتاج اليه فأتاه من أخبره ان الكرج نزلوا بواد بين دوين وسرماري وهو واد ضيق فسار بجميع عسكره جريدة وجد السير ليكبس الكرج فوصل الى الوادي الذي هم فيه وقت السحر

المسامع والبقاع * من ذعف له نقيعا * غادره على فراش المنون صريعا * وانتقل غير بعيد الى جوار ربه ودار كرامته * مشبكا يديه فوق هامته * ومستصرخا ولي العدل ومالك الخلق على ظلامته * ومحتصما حول العرش الى يوم قيامته * وحدث عن قهرمان بيته وقد عاد الى أبيه السفيه بما كان استفضله عن رواتب نفقاته * واقتطعه دون عوارض حاجاته * استظهارا على حوادث النوب * أو استنفادا على معالي الرتب * أنه وآخر من رفقائه أنفقا من جملة المال قدر ما قطعا به المسافة اليه * ووضعاه في اكياسه يختومها بين يديه * فكان جزاؤهما منه ان وضع الدهق عليهما * حتى استغرق ملكيهما * وانتزف صليب العظام ثم

ففرق عسكره فرقتين فرقة من أعلى الوادى وفرقة من أسفله وحملوا عليهم وهم غافلون ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأسروا فكان فى جملة الاسرى شلوة أمير دوين فى جماعة كثيرة من مقدميهم ومن سلم من الكرج عاد الى بلدهم على حال سيئة ثم ان ملك الكرج أرسل الى الملك الاشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وهو الذى أعطى خلاط واعمالها الامير شهاب الدين يقول له كنا نظن انا على صلح والآن فقد عمل صاحب سرمارى هذا العمل فان كنا على الصلح فنريد اطلاق أصحابنا من الاسر وان كان الصلح قد انفسخ بيننا فتعرفنا حتى ندبر أمرنا فارسل الاشرف الى صاحب سرمارى يأمره باطلاق الاسرى وتجديد الصلح مع الكرج ففعل ذلك واستقرت قاعدة الصلح وأطلق الاسرى

(ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة انهزم ايغان طائسى وهو خال غياث الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش وهذا غياث الدين هو صاحب بلاد الجبل والرى واصبهان وغير ذلك وله أيضا بلاد كرمان وكان سبب ذلك ان خاله ايغان طائسى كان معه وفى خدمته وهو أكبر أمير معه لا يصدر غياث الدين الا عن رأيه والحكم اليه فى جميع المملكة فلما عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك وحسن له ذلك غيره وأطمعه فيه قيل ان الخليفة الناصر لدين الله أقطعه البلاد سرا وأمره بذلك فقويت نفسه على الخلاف فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين وخرج عن طاعته أوزبك وصار فى البلاد يفسد ويقطع الطريق وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها وانضاف اليه جمع كثير من أهل العنف والفساد ومعه مملوك آخر اسمه ايلك الشامى كانا متفقين على العصيان فقوى بهما وساروا جميعهم الى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها فجمع غياث الدين عسكره والتقوا بنواحى (٣) واقتتلوا فانهزم خال غياث الدين ومن معه وقتل من عسكره وأسر كثير وعاد المنهزمون الى اذربيجان على أقبح حال وأقام غياث الدين فى بلاده وثبت قدمه

(حادثة غريبة لم يوجد مثلها)

كان أهل مملكة الكرج لم يبق منهم غير امرأة وقد انتهى الملك اليها فوليته وقامت بالامر فيهم وحكمت فطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها ويكون من أهل بيت مملكة فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الامر وكان صاحب ارزن الروم هذا الوقت هو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج ارسلان بن مسعود قلج ارسلان وبيته مشهور ومن أكابر ملوك الاسلام وهم من الملوك السلجوقية وله ولد كبير فارسل الى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من اجابته وقالوا لا نفعل هذا لانا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم فقال لهم ان ابنى يتنصر ويتزوجها فأجابوه الى ذلك فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية وتزوج الملكة وانتقل اليها وأقام عندها الكرج حاكما فى بلادهم واستمر على النصرانية نعوذ بالله من الخذلان ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها وخير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاه ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكا لها فكان زوجها يسمع عنها القبائح ولا يمكنه الكلام لعجزه ثم انه يوما دخل عليها فرآها نائمة مع مملوكها فى فراش فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه فقالت ان رضيت بهذا والا

قصدهما فى روحهما اشفاقا على صورة الحال * ومستورة المآل * من هتكة الاذاعة * وفضيحة الكشف والاشاعة * لولا انه اعتصم بالاستتار دون صاحبه مرعدا بما تحاماه * ومبرقا باستبرازما واراه * ولم يرض بالارث وقد حازه دون مستحقيه * من قرابته وذويه * حتى قطع سياط المطالبة على وكلائه ومواليه * وهلم جرا الى شقيقة له معجزة فى الحجاب * معنسة دون الخطاب * خلافا على الله فى حكمه * واجتراء عليه فى فرض الاسلام وحتمه * واستحقاقا لواغ الانس فى دينه المجروح * وعرضه المفضوح * وعقده المحلول * وسره المخزون بالغلول * فعراهم ذكرانا واناثا عما البسوه من بال وجديد * وطارف وتليد * اعتلالا عليهم

(٣) بياض بأصله

فأنت أخبر فقال انى لا أرضى بهذا فنقلته الى بلد آخر ووكلت به من يمنعه من الحركة وحجرت عليه وأرسلت الى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة فتزوجت أحدهما فبقى معها يسيرا ثم انها فارقته وأحضرت انسانا آخر من كنجة وهو مسلم فطلبت منه ان يتنصر ليتزوجها فلم يفعل فأرادت أن تتزوجه وهو مسلم فقام عليها جماعة الامراء ومعهم ابوانى وهو متقدم العساكر الكرجية فقالوا لها قد افتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدين أن يتزوجك مسلم وهذا لا يمكن منه أبدا والامر بينهم متردد والرجل الكنجى عندهم لم يجبهم الى الدخول فى النصرانية وهى تهواه

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة كان الجراد فى أكثر البلاد وأهلك كثيرا من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها وفيها فى رمضان توفى عبد الرحمن بن هبة الله بن عساكر الفقيه الشافعى الدمشقى بها وكان غزير العلم عالما بالمذهب كثير الصلاح والزهد والخير رحمه الله وفيها تجمع العرب فى خلق كثير على حجاج الشام وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم وكان الامير على الحجاج شرف الدين يعقوب بن محمد وهو من أهل الموصل أقام بالشام وتقدم فيه فمنعهم بالرغبة والرهبة ثم صانعهم بمال وثياب وغير ذلك فأعطى الجميع من ماله ولم يأخذ من الحجاج الدرهم الفرد وفعل فعلا جميلا وكان عنده كثير من العلوم ويرجع الى دين متين

(ثم دخلت سنة احدى وعشرين وستمائة)

(ذكر عود طائفة من التتر الى الرى وهمذان وغيرهما)

أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان وهؤلاء غير الطائفة الغربية التى ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرى وكان من سلم من أهلها قد عادوا اليها وعمروها فلم يشعروا بالتتر الا وقد وصلوا اليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا فى أهلها السيف وقتلوهم كيف شاؤا ونهبوا البلد وخربوه وساروا الى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم الى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من التتر أولا فانهم لم يقربوهما ولا أصاب أهلهما أذى فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلهما وخربوهما والحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ثم ساروا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا همذان وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا وخربوا البلد وكانوا لما وصلوا الى الرى رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون الى اذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا الا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين فوصل طائفة منهم الى تبريز وارسلوا الى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون ان كنت موافقنا فسلم الينا من عندك من الخوارزمية والا فعرفنا انك غير موافق لنا ولا فى طاعتنا فعمد الى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم وحمل الاسرى والرؤس الى التتر وأنفذ معها من الاموال والثياب والدواب شيأ كثيرا فعادوا عن بلاده نحو خراسان فعلوا هذا وليسوا فى كثرة كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس وعسكر أوزبك أكثر من الجميع ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم نسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين

بيقايا أخرجه للمتوفى على ضياعه وهى تحت استغلاله * وفى ضمان من زار عيه وعماله * ولم يستبق أحدا من جملة الداخلين كانوا عليه رحمه الله لتسليمه * غير موسوم بجريمة * ومكدوم بهضيمة * ومنقوض عن ذخيرة وكريمة * ومغلوب على ماحواه من تبعة وتيمة * فزارته المقصورة المهجورة * تشكو اليه بلابلها خضوعا * وتمرى عليه مكاحلها دموعا * ضيقا بمادها ها من اضاقه * وأفدحها على مس التسبيب من فاقه * وتسأله سؤال المضطر أن يملك عليها ماملكته من أخيها ارثا * ويحوى ماحوته عتقا وحدثا * مصانعة له دون ما أطلقه عليها من أيدى الجنود * وأخياف الترك والهنود * فهرفى وجهها ضجرا بما تشوفته من نظره وقلقا لما خصفته عليها من

والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقد دفعوا الى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الاموال واسترقاق الاولاد وسبي الحريم وقتلهن وتخريب البلاد

(ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس)

قد ذكرنا ان غياث الدين بن خوارزمشاه محمد كان بالري وله معها اصفهان وهمذان وما بينهما من البلاد وله أيضا بلاد كرمان فلما هلك أبوه كما ذكرناه وصل التتر الى بلاده وامتنع باصفهان وحصره التتر فيها فلم يقدروا عليها فلما فارق التتر بلاده وساروا الى بلاد قفجاق عاد وملك البلاد وعمرها أحسن منها وأقام بها الى أواخر سنة عشرين وستمائة وجرى له ما ذكرناه ففي آخر سنة عشرين سار الى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها وهو أتابك سعد بن دكلا الا وقد وصل غياث الدين الى أطراف بلاده فلم يتمكن من الامتناع فقصد قلعة اصطخر فاحتمى بها وسار غياث الدين الى مدينة شيراز وهي كرسي مملكة فارس وأكبرها وأعظمها فملكها بغير تعب أول سنة احدى وعشرين وستمائة وبقي غياث الدين بها واستولى على أكثر البلاد ولم يبق بيد سعد الدين الا الحصون المنيعة فلما طال الامر على سعد الدين صالح غياث الدين على أن يكون لسعد الدين من البلاد قسم اتفقوا عليه ولغياث الدين الباقي وأقام غياث الدين بشيراز وازداد اقامة وعزما على ذلك لما سمع ان التتر قد عادوا الى الري والبلاد التي له وخربوها

(ذكر عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الملك الاشرف وأخذ خلاط منه)

كان الملك الاشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب قد أقطع أخاه شهاب الدين غازي مدينة خلاط وجميع اعمال ارمينية وأضاف اليها ميافارقين وحاني وجبل جور ولم يقنع بذلك حتى جعله ولي عهده في البلاد التي له جميعها وحلف له جميع النواب والعساكر في البلاد فلما سلم اليه ارمينية سار اليها كما ذكرناه وأقام بها الى آخر سنة عشرين وستمائة فأظهر مغاضبة أخيه الملك الاشرف والتجنى عليه والعصيان والخروج عن طاعته فراسله الاشرف يستميله ويعاتبه على ما فعل فلم يرعو ولا ترك ما هو عليه بل أصر على ذلك واتفق هو وأخوه المعظم عيسى صاحب دمشق ومظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل على الخلاف للاشرف والاجتماع على محاربته وأظهروا ذلك وعلم الاشرف فارسل الى أخيه الكامل بمصر يعرفه ذلك وكانا متفقين وطلب منه نجدة فجهز العساكر وارسل الى أخيه صاحب دمشق يقول له ان تحركت من بلدك سرت اليه وأخذته وكان قد سار نحو ديار الجزيرة للميعاد الذي بينهم فلما وصلت اليه رسالة أخيه وسمع بتجهيز العساكر عاد الى دمشق وأما صاحب اربل فانه جمع العساكر وسار الى الموصل فكان منه ما نذكره ان شاء الله وأما الاشرف فانه لما اتفق عصيان أخيه جمع العساكر من الشام والجزيرة والموصل وسار الى خلاط فلما قرب منها خافه أخوه غازي ولم يكن له قوة على أن يلقاه محاربا ففرق عسكره في البلاد ليحصنها وانتظر أن يسير صاحب اربل الى ما يجاوره من الموصل وسنجار وأن يسير أخوه صاحب دمشق الى بلاد الاشرف عند الفرات الرقة وحران وغيرهما فيضطر الاشرف حينئذ الى العود عن خلاط فسار الاشرف اليه وقصد خلاط وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته لحسن سيرته كانت فيهم وسوء سيرة غازي فلما حصرها سلمها أهلها اليه يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة وبقي غازي في القلعة ممتنعا فلما جنه الليل نزل

ورق الصيانة عن شجره * وجعل يرميها في جواب التلطف والتألف بأحد من مؤللة القراع * وأشد من ململة القلاع * فعل من لا تكفه حرمه * ولا تكنفه رحمه * ولا ترف عليه رافه * ولا تخف اليه في ذات الله مخافه * ولا يثنيه عن وجوه الناس حياء في درة تذال * وعورة تنالها الايدي الطوال * فلما آيسها الاعراض * أدركها الامتعاض * وآلت حلفة مصبورة لئن لم يفته عما لم يقصد بمثله والذات خدر * وكريمة وراء ستر * لتهتكن الحجاب * ولتطرحن الجلباب * ولتحثين على قرونها التراب * منطلقة الى حضرة السلطان في ايضاح ما وارته الجدر منه * وطرحته المجاملة عنه وكتمته ضمائر الاشفاق فيه وطمسته ذيول الهوادة دونه فقال المجنون لاخيه

الى أخيه معتذرا ومتنصلا فعاتبه الاشرف وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين

(ذكر حصار صاحب اربل الموصل)

قد ذكرنا اتفاق مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على صاحب اربل وشهاب الدين غازى صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق على قصد بلاد الملك الاشرف فأما صاحب دمشق فانه سار عنهما مرتحلا بسيرة وعاد اليها الان أخاه صاحب مصر أرسل اليه يتهدده ان سار عن دمشق انه يقصدها ويحصرها فعاد وأما غازى فانه استحصر فى خلاط وأخذت منه كما ذكرناه وأما صاحب اربل فانه جمع عسكره وسار الى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ظنا منه ان الملك الاشرف اذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط ويخرج غازى فى طلبه فتنخبط أحواله وتقوى نفس صاحب دمشق على المجىء اليهم فلما نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم امورها من استخدام الجند على الاسوار واظهار آلة الحصار واخراج الذخائر وانما قوى طمع صاحب اربل على حصر الموصل لان أكثر عسكرها كان قد سار الى الملك الاشرف الى خلاط وقد قل العسكر فيها وكان الغلاء شديدا فى البلاد جميعها والسعر فى الموصل كل ثلاث مكاكى بدينار فلهذا السبب أقدم على حصرها فلما نزل عليها أقام عشرة أيام ثم رحل عنها يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان سبب رحيله انه رأى امتناع البلد عليه وكثرة من فيه وعندهم من الذخائر ما يكفيهم الزمان الكثير ووصل اليه خبر الملك الاشرف انه ملك خلاط فانفسخ عليه كل ما كان يؤمله من صاحبها ومن دمشق وبقى وحده متلبسا بالامر فلما وصلت الاخبار اليه بذلك سقط فى يده ورأى انه قد أخطأ الصواب فرحل عائدا الى بلده وأقام على الزاب ومدة مقامه على الموصل لم يقاتلها انما كان فى بعض الاوقات يجىء بعض التركمان الذين له يقاتلون البلد فيخرج اليهم بعض الفرسان وبعض الرجالة فيجرى بينهم قتال ليس بالكثير ثم يتفرقون وترجع كل طائفة الى صاحبها

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة أول آب جاء ببغداد مطر برعد وبرق وجرت المياه بباب البصرة والحريمة وكذلك بالمحول بحيث ان الناس كانوا يخوضون فى الماء والوحل بالمحول وفيها سار صاحب المخزن الى بعقوبا فى ذى القعدة فعسف أهلها فنقل اليه عن انسان منها انه يسبه فأحضره وأمر بمعاقبته وقال له لم تسبنى فقال له أنتم تسبون أبا بكر وعمر لاجل أخذهما فدك وهى عشر نخلات لفاطمة عليها السلام وأنتم تأخذون منى ألف نخلة ولا أتكلم فعفا عنه وفيها وقعت فتنة بواسط بين السنية والشيعة على جارى عادتهم وفيها قلت الامطار فى البلاد فلم يجئ منها شئ الى سباط ثم انها كانت تجىء فى الاوقات المتفرقة مجيئا قريبا لا يحصل منه الرى للزرع فجاءت الغلات قليلة ثم خرج عليها الجراد ولم يكن فى الارض من النبات ما يشتغل به عنها فأكلها الا القليل وكان كثيرا خارجا عن الحد فغلت الاسعار فى العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة وديار بكر وغيرها وقلت الاقوات الا ان أكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة

(ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة)

*(ذكر

وهو معه فى ناديه * اغلق على هذه القحبة الورهاء فقد أبطرتها الفضول * وأنطقتها الدالة الاحتمال فما تدرى ما تقول * هذه والله حمية الابطال فى حماية الذمار * ورعاية حقوق الحرم الابكار * ورحم الله أبا الفتح البستى حيث يقول

لى جار فيه حيره
عرسه تلعن أيره
خلق الله اله السخ
لق للغيرة غيره

ولما فرغ هذا الفاضل من هلاك ولده * ووراثة ما كان تحت يده * واعتصار المظلومة عن بلالة حالها * وعلالة مالها * ندب أخاها وهو بحجرة أولاده * ومن يرجوه مثله لمعاشه ومعاده * للتقبل بما ملأت ناحيته احتيالا عليه فى الحاقه بأخيه * واقتطاعه دون كفاف يتصرف فيه * فتلطف واعتذر * واعترف بالعجز

(ذكر حصر الكرج مدينة كنجة)

فى هذه السنة سارت الكرج فى جموعها الى مدينة كنجة من بلاد ران قصدا لحصرها واعتدوا لها بما أمكنهم من القوة لان أهل كنجة كثير عددهم قوية شوكتهم وعندهم شجاعة كبيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكرج فلما وصلوا اليها وقاربوا قاتلوا أهلها عدة أيام من وراء السور ولم يظهر من اهلها أحد ثم فى بعض الايام خرج أهل كنجة ومن عندهم من العسكر من البلد وقاتلوا الكرج بظاهر البلد أشد قتال وأعظمه فلما رأى الكرج ذلك علموا انهم لا طاقة لهم بالبلد فرحلوا بعد ان أثخن أهل كنجة فيهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا

(ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى خوزستان والعراق)

فى أول هذه السنة وصل جلال الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش الى بلاد خوزستان والعراق وكان مجيئه من بلاد الهند لانه كان وصل اليها لما قصد التتر غزنة وقد ذكرنا ذلك جميعه فلما تعذر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان ووصل الى اصفهان وهى بيد أخيه غياث الدين وقد تقدمت أخباره فملكها وسار عنها الى بلاد فارس وكان أخوه قد استولى على بعضها كما ذكرناه فأعاد ما كان أخوه أخذه منها الى أن نابك سعد صاحبها وصالحه وسار من عنده الى خوزستان فحصر مدينة تستر فى المحرم وبها الامير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله حافظا لها وأميرا عليها فحصره جلال الدين وضيق عليه فحفظها وجد السبع وبالغ فى الحفظ والاحتياط وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا الى بادرايا وباكسايا وغيرهما وانحدر بعضهم الى ناحية البصرة فنهبوا هنالك فسار اليهم شحنة البصرة وهو الامير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة فدام الحصار نحو شهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكه جمال الدين قشتمر بالقرب منه فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار الى أن وصل الى بعقوبا وهى قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ فلما وصل الخبر الى بغداد تجهز واللحصار وأسلحوا السلاح من الجروخ والقسى والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفة الى بغداد وأما عساكر جلال الدين فنهب البلاد وأهلها وكان قد وصل هو وعسكره الى خوزستان فى ضر شديد وجهد جهيد وقلة من الدواب والذى معهم فهو من الضعف الى حد لا ينتفع به فغنموا من البلاد جميعها واستغنوا واكثروا من أخذ الخيل والبغال فانهم كانوا فى غاية الحاجة اليها وسار من بعقوبا الى دقوقا فحصرها فصعد أهلها الى السور وقاتلوه وسبوه وأكثروا من التكبير فعظم ذلك عنده وشق عليه وجد فى قتالهم فافتتحها عنوة وقهرا ونهبها عساكره وقتلوا كثيرا من أهلها فهرب من سلم منهم من القتل وتفرقوا فى البلاد ولما كان الخوارزميون على دقوقا سارت سرية منهم الى البت والراذان فهرب أهلها الى تكريت فتبعهم الخوارزمية فجرى بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة فعادوا الى العسكر ولقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا وهم بقويعلى وهم أغنياء فنهبوا وسلم أحدهم ومعه ولدان له وشئ يسير من المال فسير ما سلم معه الى الشام مع الولدين ليتجر بما ينتفعون به و ينفقونه على نفوسهم فمات أحد الولدين بدمشق واحتاط الحاكم على

ما قدر * حتى اذا اعياه التلطف * ولم يقنعه الا التصرف * مد رقبته لربقة التقليد * وكبر سبعا على طارف الملك والتليد فازال بحى كل ولود ونزور * ويمرى كل بكى وثرور * حتى انضب المال الا قليلا * وعصب ريقه الا بليلا * فطفق يعيره بعجزه وتضييعه * ويكته على خرقه وتوسيعه * فأمر المحاسبين بحسابه فجمع عليه مالم ينبته سمع ولا بصر * ولا ينبته نجم ولا شجر * ولم يطلع عليه شمس ولا قمر * وسبب عليه لاعلاج الهنود * وغلاظ كفارهم السود * مالا أوهى متن طاقته * وأتى من وراء فاقته * وحرشهم على ابنه بتطميع فى عاجل موزون * وترغيب فى آجل مضمون * حتى أوهنوه شدا وايثاقا وأثخنوه ضربا وارهاقا ويضعوا عليه فى بعض

مامعهم فلقد رأيت أباهم على حالة شديدة لا يعلمها الا الله يقول أخذت الاملاك وقتل بعض الاهل وفارقنا من سلم منهم والوطن بهذا القدر الحقير أردنا نكتفيه وجوهنا من السؤال ونصون أنفسنا فقد ذهب الولد والمال ثم سار الى دمشق ليأخذ ما سلم مع ابنه الآخر فأخذه وعاد الى الموصل فلم يبق غير شهر حتى توفي * ان الشقي بكل حبل يخنق * وأما جلال الدين فانه لما فعل بأهل دقوقا ما فعل خافه أهل البوازيج وهي لصاحب الموصل فارسلوا اليه يطلبون منه ارسال شحنة اليهم يحميهم وبذلوا له شيأ من المال فأجابهم الى ذلك وسير اليهم من يحميهم قيل كان بعض أولاد جنكزخان ملك التتر أسره جلال الدين في بعض حروبه مع التتر فأكرمه فحماهم وأقام بمكانه الى أواخر ربيع الآخر والرسل متردّدة بينه وبين مظفر الدين صاحب اربل فاصطلحوا فسار جلال الدين الى اذربيجان وفي مدّة مقام جلال الدين بخوزستان والعراق ثارت العرب في البلاد يقطعون الطريق وينهبون القرى ويخيفون السبيل فنال الخلق منهم أذى شديد وأخذوا في طريق العراق قفلين عظيمين كانوا سائرين الى الموصل فلم يسلم منهم شيء البتة

(ذكر وفاة الملك الافضل وغيره من الملوك)

في هذه السنة في صفر توفي الملك الافضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب فجأة بقلعة سميساط وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة وقد ذكرنا سنة تسع وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده رحمه الله ملكه مدينة دمشق والبيت المقدس وغيرهما من الشام وذكرنا سنة اثنتين وتسعين أخذ الجميع منه ثم ذكرنا سنة خمس وتسعين ملكه ديار مصر وذكرنا سنة ست وتسعين أخذها منه وانتقل الى سميساط وأقام بها ولم يزل بها الى الآن فتوفي بها وكان رحمه الله من محاسن الزمان لم يكن في الملوك مثله كان خيرا عادلا فاضلا حليما كريما قال ان عاقب على ذنب ولم يمنع طالبا وكان يكتب خطا حسنا وكتابة جيدة وبالجملة فاجتمع فيه من الفضائل والمناقب ما تفرق في كثير من الملوك لا جرم حرم الملك والدنيا وعاداه الدهر ومات بموته كل خلق جميل وفعل حميد فرحمه الله ورضي عنه ورأيت من كتابته أشياء حسنة فما بقي على خاطري منها انه كتب الى أصحابه لما أخذت دمشق منه كتابا من فصوله وأما أصحابنا بدمشق فلا علم لي بأحد منهم وسبب ذلك اني أي صديق سألت عنه فني الذل وتحت الحول والوطن وأي ضد سألت عن حالته سمعت ما لا تحبه أذني فتركت السؤال عنهم وهذا غاية الجودة في الاعتذار عن ترك السؤال عنهم ولما مات اختلف أولاده وعمهم قطب الدين موسى ولم يقو أحد منهم على الباقين ليستبد بالامر ومات في هذه السنة صاحب أرزن الروم وهو مغيث الدين طغرل بن قلج أرسلان وهو الذي سير ولده الى الكرج وتنصر وتزوج ملكة الكرج ولما مات ملك بعده ابنه ومات فيها ملك ارزنكان وتوفي فيها عز الدين الخضر بن ابراهيم بن أبي بكر بن قرا ارسلان بن داود بن سقمان صاحب خرت برت وملك بعده ابنه نور الدين ارتق شاه وكان المدبر لدولته ودولة والده معين الدين عبد الرحمن

(ذكر خلع شروان شاه وظفر المسلمين بالكرج)

في هذه السنة ثار على شروان شاه ولده فنزعه من الملك وأخرجه من البلاد وملك بعده وسبب

لما لديه دهقا استقر به الى الصباح النائر * حتى اذا لم يبق منه غير ناقر الطائر * علموا انه مظلوم وان الانحاء عليه في دينهم المدخول وشركهم المخذول * قزم واوم فنفضوا أيديهم عنه لاعنين أباه * ومن أرضعه ورباه * وأطعمه بعد الله وسقاه * وما ظن الافاضل الكرام بمن يوفي رحمة الكافر الفاجر على قساوته * وطبع قلبه وغشاوته * وبمن يزعم انه والد يخنوع على ولده * ويعتده فلذة من كبده * وبضعة من روحه وجسده * كل ذلك طمعا في استزادة مال * واستضافة حال * فصار اها الى تمعق وزوال * فلا رحم الله كل جاف العقيده * خافي المكيده * قاسي الفؤاد * حامي

ذلك ان شروان شاه كان سيئ السيرة كثير الفساد والظلم يتعرض الى أموال الرعايا وأملاكهم وقيل أيضا انه كان يتعرض الى النساء والولدان فاشتدت وطأته على الناس فاتفق بعض العسكر مع ولده وأخرجوا أباه من البلاد وملك الابن وأحسن السيرة فأحبه العساكر والرعية وأرسل الولد الى أبيه يقول له انى أردت أن أتركك فى بعض القلاع وأجرى لك الجرايات الكثيرة ولكل من تحب ان يكون عندك والذى حملنى على ما فعلت معك سوء سيرتك وظلمك لاهل البلاد وكراهيتهم لك ولد ولتك فلما رأى الاب ذلك سار الى الكرج واستنصر بهم وقرر معهم ان يرسلوا معه عسكرا يعيدونه الى ملكه ويعطيهم نصف البلاد فسيروا معه عسكرا كثيرا فسار حتى قارب مدينة شروان فجمع ولده العسكر وأعلمهم الحال وقال ان الكرج متى حصرونا ربما ظفروا بنا وحينئذ لا يبقى أبى على أحد منا ويأخذ الكرج نصف البلاد وربما أخذوا الجميع وهذا أمر عظيم انا نسير اليهم جريدة ونلقاهم فان ظفرنا بهم فالحمد لله وان ظفروا بنا فالحصر بين أيدينا فأجابوه الى ذلك فخرج فى عسكره وهم قليل نحو ألف فارس ولقوا الكرج وهم فى ثلاثة آلاف مقاتل فالتقوا واقتتلوا وصبر أهل شروان فانهزم الكرج فقتل كثير منهم وأسر كثير ومن سلم عاد بأسوأ حال وشروان شاه المخلوع معهم فقال له مقدمو الكرج انا لم نلق بسببك خيرا ولا نؤاخذك بما كان منك فلا تقم ببلادنا فغادرهم وبقى متردداً لا يأوى الى أحد واستقر ولده فى الملك وأحسن الى الجند والرعية وأعاد الى الناس أملاكهم ومصادراتهم فاغتبطوا بولايته

(ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا)

وفى هذه السنة أيضا سار جمع من الكرج من تفليس يقصدون اذربيجان والبلاد التى بيد أوزبك فنزلوا وراء مضيق فى الجبال لا يسلك الا للفارس معه الفرس فنزلوا آمنين من المسلمين استضعافا لهم واغترارا بحصانة موضعهم وانه لا طريق اليهم وركب طائفة من العساكر الاسلامية وقصدوا الكرج فوصلوا الى ذلك المضيق فجازوه مخاطرين فلم يشعر الكرج الا وقد غشيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا وولى الباقون منهزمين لا يلوى والد على ولده ولا أخ على أخيه وأسر منهم جمع كثير صالح فعظم الامر عليهم وعزموا على الاخذ بثارهم والجد فى قصد اذربيجان واستئصال المسلمين منه وأخذوا يتجهزون على قدر عزمهم فبينما هم فى ذلك اذ وصل اليهم الخبر بوصول جلال الدين بن خوارزمشاه الى مراغة على ما نذكره ان شاء الله فتركوا ذلك وارسلوا الى أوزبك صاحب اذربيجان يدعونه الى الموافقة على رد جلال الدين وخوفوه منه ان لم نتفق نحن وأنت والا أخذك ثم أخذنا فعاجلهم جلال الدين قبل اتفاقهم واجتماعهم فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر ملك جلال الدين اذربيجان)

فى هذه السنة استولى جلال الدين على اذربيجان وسبب ذلك انه لما سار من دقوقا كما ذكرناه قصد مراغة فملكها وأقام بها وشرع فى عمارة البلد فاستحسنه فلما وصل اليها أتاه الخبر ان الامير ايغان طائيسى وهو خال أخيه غياث الدين قد قصد همذان قبل وصول جلال الدين بيومين وكان ايغان طائيسى هذا قد جمع عسكرا يتجاوز خمسين ألف فارس ونهب كثيرا من

دماء الاولاد * ان للآباء فروضا على الابناء * وللابناء حقوقا على الآباء * فان يكن من فرض الوالد أن لا يقتص منه ان قتل ولده * وقطع بيده يده * فمن حق الولد أن يطاع الله فى صلة رحمه * وتقوى الاقدام على روحه ودمه * نعم ولما أن خف عن البائس كربه * وانجلى عنه وصبه * أسرى الى جانب الامير أرسلان الجاذب فتى السلطان يمين الدولة * وأمين الملة * فى زحفة السهو المارق * والرجم المقذوف على المارد السارق * متقيا به عارض البأس * ومستبقيا روحا معلقة بخيط اليأس * فآواه وقبله ونشر عليه جناحه رحمة له وكنب الى أركان الدولة فى بابه بما أطل عليه سعاية أبيه * وغل دونه فكاية قصده وتجنيه * وحاذر الفاسق المارق افتضاحه

اذربيجان وسار الى البحر من بلد اران فشتى هناك لقلة البرد ولما عاد الى همذان ذهب اذربيجان أيضا مرة ثانية وكان سبب مسيره الى همذان ان الخليفة الناصر لدين الله راسله وأمره بقصد همذان واقطعه اياها وغيرها فسار ليستولى عليها كما أمر فلما سمع جلال الدين بذلك سار جريدة اليه فوصل الى ايغان طائيسى ليلا وكان اذا نزل جعل حول عسكره جميع ما غنموا من اذربيجان واران من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم فلما وصل جلال الدين أحاط بالجميع فلما اصبح عسكر ايغان طائيسى ورأى العسكر والجتر الذى يكون على رأس السلطان علموا انه جلال الدين فسقط فى أيديهم لانهم كانوا يظنونه عند دقوقا فارسل ايغان طائيسى زوجته وهى أخت جلال الدين تطلب له الامان فأمنه وأحضره عنده وانضاف عسكره الى جلال الدين وبقى ايغان طائيسى وحده الى أن اضاف اليه جلال الدين عسكرا غير عسكره وعاد الى مراغة وأعجبه المقام بها وكان أوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان واران قد سار من تبريز الى كنجة خوفا من جلال الدين وأرسل جلال الدين الى من فى تبريز من وال وأمير ورئيس يطلب منهم أن يتردد عسكره اليهم يمتارون فاجابوه الى ذلك وأطاعوه فتردد العسكر اليها وباعوا واشتروا الاقوات والكسوات وغيرها ومدوا ايديهم الى اموال الناس فكان أحدهم يأخذ الشئ ويعطى الثمن ما يريد فشكا بعض أهل تبريز الى جلال الدين منهم فارسل اليهم شحنة يكون عندهم وأمره ان يقيم بتبريز ويكف أيدى الجند عن اهلها ومن تعدى على احد منهم صلبه فاقام الشحنة ومنع الجند من التعدى على أحد من الناس وكانت زوجة اوزبك وهى ابنة السلطان طغرل ابن ارسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مقيمة بتبريز وهى كانت الحاكمة فى بلاد زوجها وهو مشغول بلذاته من اكل وشرب ولعب ثم ان اهل تبريز شكوا من الشحنة وقالوا انه يكلفنا اكثر من طاقتنا فامر جلال الدين انه لا يعطى الا ما يقيم به لا غير ففعلوا ذلك وسار جلال الدين الى تبريز وحصرها خمسة ايام وقاتل اهلها قتالا شديدا وزحف اليها فوصل العسكر الى السور فاذعن أهلها بالطاعة وأرسلوا يطلبون الامان منه لانه كان يذمهم ويقول قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤسهم الى التتر الكفار وقد تقدمت الحادثة سنة احدى وعشرين وستمائة فخافوا منه لذلك فلما طلبوا الامان ذكرهم فعلهم باصحاب أبيه وقتلهم فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيأ من ذلك وانما فعله صاحبهم ولم يكن لهم من القدرة ما يمنعونه فعذرهم وامنهم وطلبوا منه ان يؤمن زوجة أوزبك ولا يعارضها فى الذى لها باذربيجان ومدينة خوى وغيرها من ملك ومال وغيره فاجابهم الى ذلك وملك البلد سابع عشر رجب من هذه السنة وسير زوجة أوزبك الى خوى ومعها طائفة من العسكر مع رجل كبير القدر عظيم المنزلة وأمرهم بخدمتها فاذا وصلت الى خوى عادوا عنها ولما رحل جلال الدين الى تبريز أمر ان لا يمنعوا عنه أحدا من أهلها فاتاه الناس مسلمين عليه فلم يحجبوا عنه وأحسن اليهم وبث فيهم العدل ووعدهم الاحسان والزيادة منه وقال لهم قد رأيتم ما فعلت بمراغة من الاحسان والعمارة بعد ان كانت خرابا وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم وعمارة بلادكم وأقام الى يوم الجمعة فحضر الجامع فلما خطب الخطيب ودعا للخليفة قام قائما ولم يزل كذلك حتى فرغ من الدعاء وجلس ودخل الى كشك كان أوزبك قد عمره وأخرج عليه من الاموال كثيرا فهو فى غاية الحسن

باخر ولده كما افصح بمن
قبله أروى الله صداه * وفسح
أناه * فلم يزل يلقاه بشعوذة
الخوارق * وبرقشة
التزاويق * حتى أقرضه
مالا سديد منخر باسه * ورد
معه عدوى امتعاضه
وشماسه * كابن المنتفع حين
أقرض السحبان * واستوجب
الامن والامان * فانقلب
عن صنافس فتوقه * ومنافخ
جلده وعروقه * لا تنفخت
حيلا تعجز كل صباغ وصواغ *
وتعلب بين الوحوش رواغ *
ومازال هذا المذكور *
يختلف به السرج والكور *
الى ان قدم شمس الكفاة
وزير السلطان يمين الدولة
وامين الملة مر والروذ
مستوفيا على العمال * بقايا
الارتفاعات والاموال * سنة
ثلاث عشرة وأربعمائة فجمح
اليه لانذا بكنفه * وعائذا
بواقية الكرام وراقية
الانام من شرفه * ومقررا

مشرف على البساتين فلما طاف فيه خرج منه وقال هذا مسكن الكسالى لا يصلح لنا واقام اياما استولى فيها على غيرها من البلاد وسير الجيوش الى بلاد الكرج

(ذكر انهزام الكرج من جلال الدين)

قد ذكرنا فيما تقدم من السنين ما كان الكرج يفعلونه فى بلاد الاسلام خلاط وأعمالها واذربيجان وارمان وارزن الروم ودربند شروان وهذه ولايات تجاور بلادهم وما كانوا يسفكون من دماء المسلمين وينهبون من أموالهم ويملكون من بلادهم والمسلمون معهم فى هذه البلاد تحت الذل والخزى كل يوم قد أغاروا وفتكوا فيهم وقاطعوهم على ما شاؤا من الاموال فكنا كلما سمعنا بشئ من ذلك سألنا الله تعالى نحن والمسلمون فى ان ييسر للاسلام والمسلمين من يحميهم وينصرهم ويأخذ بثارهم فان أوزبك صاحب اذربيجان منعكف على شهوة بطنه وفرجه لا يفيق من سكره وان أفاق فهو مشغول بالقمار بالبيض وهذا مما لم يسمع ان أحدا من الملوك فعله لا يهتدى لمصلحة ولا يغضب لنفسه بحيث ان بلاده ماخوذة وعساكره طماعة ورعيته قد قهرها وقد كان كل من أراد ان يجمع جمعا ويتغلب على بعض البلاد فعل كما ذكرناه من حال بغدى وايبك الشامى وايغان طائيسى فنظر الله تعالى الى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة فرحمهم ويسر لهم جلال الدين هذا ففعل بالكرج ما تراه وانتقم للاسلام والمسلمين منهم فنقول فى هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين وبين الكرج فى شهر شعبان فان جلال الدين من حين قصد الى هذه النواحى لا يزال يقول انى أريد أقصد بلاد الكرج وأقاتلهم وأملك بلادهم فلما ملك اذربيجان ارسل اليهم يوذنهم فاجابوه بانا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأبيك وهو أعظم منك ملكا وأكثر عسكرا وأقوى نفسا ما تعلم وأخذوا بلادكم فلم ينالوا بهم وكان قصاراهم السلامة منا وشرعوا يجمعون العساكر فجمعوا ما يزيد على سبعين الف مقاتل فسارا اليهم فملك مدينة دوين وهى للكرج كانوا قد أخذوها من المسلمين كما ذكرناه وسار منها اليهم فلقوه وقاتلوه اشد قتال وأعظمه وصبر كل منهم لصاحبه فانهزم الكرج وأمر ان يقتلوا بكل طريق ولا يبقوا على أحد منهم فالذى تحققناه انه قتل منهم عشرون ألفا وقيل أكثر من ذلك فقيل الكرج جميعهم قتلوا وافترقوا وأسر كثير من اعيانهم من جملتهم شلوة فقت الهزيمة عليهم ومضى ايوانى منهزما وهو المقدم على الكرج جميعهم ومرجعهم اليه ومعولهم عليه وليس لهم ملك انما الملك امراة واقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول لن يفلح قوم ولوا امرهم امراة فلما انهزم ايوانى أدركه الطلب فصعد قلعة لهم على طريقهم فاحتمى فيها وجعل جلال الدين عليها من يحصرها ويمنعه من النزول وفرق عساكره فى بلاد الكرج ينهبون ويقتلون ويسبون ويخربون البلاد فلولا ما اتاه من تبريز مما اوجب عوده لملك البلاد بغير تعب ولا مشقة لان اهلها كانوا قد هلكوا فهم بين قتيل واسير وطريد

(ذكر عود جلال الدين الى تبريز وملكه مدينة كنجة وتزوجه زوجة اوزبك)

لما فرغ جلال الدين من هزيمة الكرج ودخل البلاد وبث العساكر فيها امرهم بالمقام بها مع اخيه غياث الدين وعاد الى تبريز وسبب عوده انه كان قد خلف وزيره شرف الملك فى تبريز ليحفظ البلد وينظر فى مصالح الرعية فبلغه عن رئيس تبريز وشمس الدين الطغرائى وهو المقدم على كل

حاله فى الظلم الذى ضربه بحريره * ومعسه معس الملحاح غارب بعيره * وموطئا لسانه فراش التقية طاعة لله تعالى فى لزومها الاحترام * وصيانة للعرض من وشوم المذام * الى ان حشرت مطالبة العمال أباه الى مثواه * من باب ولى نعمته ومولاه * فكم ضرع اليه فما نفع * وخشع فما تجبع * وتلطف فما أقصر * واستعطف فما سمع ولا أبصر * حتى اذا عارضه الرد بجوابه * وكلمه اليأس من وراء نقابه * صاح على شمس الكفاة ببعض تلك الخوارق * وصب عليه جرعا من أكواب تلك الابارق * وأشعره ان صنيعته لم تنجم منه الا جاحدا لاياديه * مخافتا بمساويه * موالبا لاعاديه * مخالفا لكريمة الحفاظ فى مواليه * يبراهين كما سطع الصباح السافر * أو متع

من فى البلد وعن غيرهما من المقدمين انهم قد اجتمعوا وتحالفوا على الامتناع على جلال الدين واعادة البلد الى اوزبك وقالوا ان جلال الدين قد قصد بلاد الكرج فلا يقدر على المقام ويجتمع اوزبك والكرج ويقصدونه فينحل نظام امره وتتم عليه الهزيمة فبنوا امرهم على ان جلال الدين يسير الهوينا الى بلاد الكرج ويتريث فى الطريق احتياطا منهم فلما اتفقوا على ذلك أتى الخبر الى الوزير فارسل الى جلال الدين يعرفه الحال فاتاه الخبر وقد قارب بلاد الكرج فلم يظهر من ذلك شيأ وسار نحو الكرج مجدا فلقيهم وهزمهم فلما فرغ منهم قال لامراء عسكره انى قد بلغنى من الخبر كذا وكذا فتقيمون أنتم فى البلاد على ما أنتم عليه من قتل من ظفرتم به وتخريب ما أمكنكم من بلادهم فانى خفت ان اعرفكم قبل هزيمة الكرج لئلا يلحقكم وهن وخوف فاقاموا على حالهم وعاد هو الى تبريز وقبض على الرئيس والطغرائى وغيرهما فاما الرئيس فامر ان يطاف به على أهل البلد وكل من له عليه مظلمة فليأخذها منه وكان ظالما ففرح الناس بذلك ثم قتله وأما الباقون فحبسوا فلما فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك ابنة السلطان طغرل وانما صح له نكاحها لانه ثبت عن أوزبك انه حلف بطلاقها انه لا يقتل مملوكا له اسمه ثم قتله فلما وقع الطلاق بهذا اليمين نكحها جلال الدين وأقام بتبريز مدة وسير منها جيشا الى مدينة كنجة فملكوها وفارقها اوزبك الى قلعة كجة فتحصن فيها فبلغنى ان عساكر جلال الدين تعرضوا الى أعمال هذه القلعة بالنهب والاخذ فارسل أوزبك الى جلال الدين يشكو ويقول كنت لا أرضى بهذه الحال لبعض أصحابى فانا أسأل ان تكف الايدى المتطرقة الى هذه الاعمال عنها فارسل جلال الدين اليها من يحميها من التعرض لها من أصحابه وغيرهم

(ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله)

فى هذه السنة آخر ليلة من شهر رمضان توفى الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لامر الله أبى العباس محمد بن المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبى جعفر عبد الله بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق أبى أحمد محمد بن جعفر المتوكل على الله ولم يكن الموفق خليفة وانما كان ولى عهد أخيه المعتمد على الله فمات قبل المعتمد فصار ولده المعتضد بالله ولى عهد المعتمد على الله وكان المتوكل على الله ابن المعتصم بالله أبى اسحق محمد بن هرون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله أبى جعفر العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم

نسب كان عليه من شمس الضحى * نورا ومن فلق الصباح عمودا

فكان فى آبائه أربعة عشر خليفة وهم كل من له لقب والباقون غير خلفاء وكان فيهم من ولى العهد محمد بن القائم والموفق بن المتوكل وأما باقى الخلفاء من بنى العباس فلم يكونوا من آبائه فكان السفاح أبو العباس عبد الله أخا المنصور وولى قبله وكان موسى أخا الرشيد وولى قبله وكان محمد الامين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد اخوى المعتصم وليا قبله وكان محمد المنتصر بن المتوكل

ولى

النهار الجاشر * مقرطة بصحائح الاقوال * مشنفة بفضائح الافعال * فلولا كرم هذى بلبانه * وعجن على مسكه وبانه * لرجمه رجم العفريت * وضربه بالنفط والكبريت * لكنه رأى أن يضم عليه طرفى بساطه * ويستبقى مختوم سره بين خرزه ورباطه * تقديما لشفاعة المشيب * وتفويضا الى ما وراءه من الاجل القريب * واقتناعا ان سمع أو نظر * وروى واخبر * بما قدمناه به الآفاق من ذكر شيخ معاييه احداث * ولؤمه مكتسب وفضله ميراث * ولما تسامع اهل عمله بمباركه من ريحه * وظهر من رغوة صريحه * تبادروا الى مفصل الظلامات صارخين كما تنفق فى الجوبنات الاعداد * وجهروا فى الشعب بحيث البلاد * واختلفوا الى المظالم فمن قائل هتكت

ولى بعده ثم ولى بعده المنتصر بالله المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وولى بعده المستعين المعتز بالله محمد وقيل طلحة وهو ابن المتوكل وولى بعده المعتز المهتدى بالله محمد بن الواثق ثم ولى بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكل فالمنتصر والمعتز والمعتمد اخوة الموفق والمهتدى ابن عمه والموفق من اجداد الناصر لدين الله ثم ولى المعتضد بعده المعتمد وولى بعده المعتضد ابنه أبو محمد على المكتفى بالله وهو أخو المقتدر بالله وولى بعده المقتدر أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد وولى بعده القاهر الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر ثم ولى بعده المقتفى لله أبو اسحق ابراهيم بن المقتدر ثم ولى بعده المكتفى بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفى بالله على ابن المعتضد ثم ولى بعده المطيع لله أبو بكر عبد الكريم فالقاهر أخو المقتدر والراضى والمقتفى والمطيع بنوه والمستكفى ابن أخيه المكتفى ثم ولى الطائع لله بن المقتدر ثم ولى بعده الطائع القادر بالله وهو من اجداد الناصر لدين الله ثم ولى بعده المستظهر بالله ثم ولى بعده ابنه المسترشد بالله أبو منصور وولى بعده المسترشد بالله ابنه الراشد أبو جعفر فالمسترشد أخو المقتفى والراشد ابن أخيه فجميع من ولى الخلافة ممن ليس فى سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة وكانت أم الناصر أم ولد تركية اسمها زمرد وكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره نحو سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه الا ما قيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فانه ولى ستين سنة ولا اعتبار به فانه ولى وله سبع سنين فلا تصح ولايته وبقى الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية وقد ذهبت احدى عينيه والاخرى يبصر بها ابصارا ضعيفا وفى آخر الامر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما ومات ووزر له عدة وزراء وقد تقدم ذكرهم ولم يطلق فى طول مرضه شيأ كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما لمن قرب فى ايامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشئ وضده فمن ذلك انه عمل دور الضيافة ببغداد لفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ثم أعادها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها الامن يلبس منه سراويل يدعى اليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك أيضا منع الطيور المناسيب لغيره الا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق الامن ينتمى اليه فاجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك الا انسانا واحدا يقال له ابن السقت من بغداد فانه هرب من العراق ولحق بالشام فارسل اليه يرغبه فى المال الجزيل ليرمى عنه وينسب فى الرمى اليه فلم يفعل فبلغنى ان بعض أصدقائه أنكر عليه الامتناع من أخذ المال فقال يكفينى فخرا انه ليس فى الدنيا أحد الا يرمى للخليفة الا انا فكان غرام الخليفة بهذه الاشياء من أعجب الامور وكان سبب ما ينسب اليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم

(ذكر خلافة الظاهر بأمر الله)

قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبة للامير ابى نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله

حرمته * وآخر انتهكت نعمته * وثالث انتهبت ثلته * ورابع طلقت عليه طلته * وخامس قتيل على التعصب اخوه وابوه * وسادس خدشت على المعروف بشرته وفض فوه * فنهم من وصل فسعد بالانصاف * ومنهم من حذر فشقى على يأس الانصراف * فرأى شمس الكفاة ان يسلك به شعب المجاملة فطم بصرفه على نبائث مساويه * وصدعن مسامع السلطان خبائث أفعاله وذوى هيه * وأصم صدى التظلم عن شريف نادبه * فعاد المذكور وراءه مخذولا مفلولا * وأراد الله أن يقضى فيه أمرا كان مفعولا * ولما رأى أن قد ضبطت عليه أفعاله * وضحكت منه حيله وادغاله * وان الالسن قد مضغته حين أطاع عبدا مملوكا له فى معصية خالقه * ووصل شهوة

بولاية العهد فى العراق وغيره من البلاد ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد وارسل الى البلاد فى قطع الخطبة له وانما فعل ذلك لانه كان يميل الى ولده الصغير على فاتفق ان الولد الصغير توفى سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد غيره ولى العهد فاضطر الى اعادته الا انه تحت الاحتياط والحجر لا يتصرف فى شئ فلما توفى أبوه ولى الخلافة واحضر الناس لاخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله وعنى ان اباه وجميع أصحابه اراد واصرف الامر عنه فظهر وولى الخلافة بأمر الله لا يسعى من احد ولما ولى الخلافة اظهر من العدل والاحسان ما اعاد به سنة العمرين فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا فانه اعاد من الاموال المغصوبة فى ايام ابيه وقبله شيأ كثيرا واطلق المكوس فى البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وان يسقط جميع ما جدده ابوه وكان كثيرا لا يحصى فمن ذلك ان قرية بعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار فلما تولى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون الف دينار فحضر اهلها واستغاثوا وذكروا ان املاكهم اخذت حتى صار يحصل منها هذا المبلغ فامر ان يؤخذ الخراج الاول وهو عشرة آلاف دينار فقيل له ان هذا المبلغ يصل الى المخزن فمن اين يكون العوض فاقام لهم العوض من جهات اخرى فاذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين الف دينار فما الظن بباقى البلاد ومن افعاله الجميلة انه امر بأخذ الخراج الاول من باقى البلاد جميعها فحضر كثير من اهل العراق وذكروا ان الاملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديما قد يبس اكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخراج الاول لا يبقى دخل الباقى بالخراج فامر ان لا يؤخذ الخراج الا من كل شجرة سليمة واما الذاهب فلا يؤخذ منه شئ وهذا عظيم جدا ومن ذلك ايضا ان المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه الى الوزير وأوله ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم قد بلغنا ان الامر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن الى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى فكتب بعض النواب اليه يقول ان هذا مبلغ كثير وقد حسبناه فكان فى السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار فاعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لو انه ثلثمائة ألف وخمسون ألف دينار يطلق وكذلك أيضا فعل فى اطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة وتقدم الى القاضى ان كل من عرض عليه كتابا صحيحا لملك يعيده اليه من غير اذن وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان الرجل حنبليا فقال انى من مذهبى ان أورث ذوى الارحام فان أذن أمير المؤمنين ان أفعل ذلك وليت والا فلا فقال له اعط كل ذى حق حقه واتق الله ولا تتق سواه ومنها ان العادة كانت ببغداد ان الحارس بكل درب يكرى ويكتب بطاقة الى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الاصدقاء يعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من صغير وكبير فكان الناس من هذا فى بحر عظيم فلما ولى هذا الخليفة جزاه الله خيرا أتته المطالعات على العادة فامر بقطعها وقال اى غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد الينا الا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له ان العامة تفسد بذلك

الفجور فى قطيعة ولده
وعمر اطلال ضيعته * بخراب
آخرته * وشب به وشوب الثائر
الموتور * والجائش المسعور *
يرتجع منه ما حلاه على
الفسوق * ووفاه من ثمن
الاستلذاذ بسلعة تلك السوق
ويرى ان صنيعه ذلك يحميه
سمة الالامة * ويقيه نبال
الالسنة الذامة * فاسترد ما تحمله
من صداق * ورجع عليه
بقيمة ما أشربه من تجاجة
اشداق * وعزاه عما أعطاه *
بعد ان عراه وامتطاه *
وبطمه للسياط * بعد ان
بطمه لوطاة اللواط * مبتذلا
منه جردة طال ما امتصها
بثغوره * وكنسها بعارضيه *
وفداها بنفسه وأبويه *
ودفن عليها أحد ولديه *
هذا والله هو الجود لا ما نبئ
عن حاتم العرب * وروى عن
سادات بنى عبد المطلب *
فلعا الله من رضى بها لنفسه
سيرة * وخبأها عن تناسخ

ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله فى أن يصلحهم ومنها انه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل الاموال فاصعد ومعه من المال ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الامر فى حمله فاعاد الجواب بأن يعاد الى أربابه فلا حاجة لنا اليه فاعيد عليهم ومنها انه أخرج كل من كان فى السجون وأمر باعادة ما اخذ منهم وارسل الى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس الشرع وليس له مال ومن حسن نيته للناس ان الاسعار فى الموصل وديار الجزيرة كانت غالية فرخصت الاسعار واطلق حمل الاطعمة اليها وان يبيع كل من اراد البيع للغلة فحمل منها الكثير الذى لا يحصى فقيل له ان السعر قد غلا شيأ والمصلحة منع حمله فقال أولئك مسلمون وهؤلاء مسلمون وكما يجب علينا النظر فى امر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لاولئك وامر ان يباع من الاهراء التى له طعام ارخص مما يبيع غيره ففعلوا ذلك فرخصت الاسعار عندهم ايضا اكثر مما كانت اولا وكان السعر فى الموصل لما ولى كل مكوكين بدينار وثلثى قيراط فصار كل اربعة مكاكيك بدينار فى ايام قليلة وكذلك باقى الاشياء من التمر والدبس والارز والسمسم وغيرها فالله تعالى يؤيده وينصره ويقيه فانه غريب فى هذا الزمان الفاسد ولقد سمعت عنه كلمة اعجبتنى جدا وهى انه قيل له فى الذى يخرجه ويطلقه من الاموال التى لا تسمح نفس ببعضها فقال لهم انا فتحت الدكان بعد العصر فاتركونى افعل الخير فكم اعيش وتصدق ليلة عيد الفطر من هذه السنة وفرق فى العلماء واهل الدين مائة الف دينار

(ذكر ملك بدر الدين قلعتى العمادية وهرور)

فى هذه السنة ملك بدر الدين قلعة العمادية من اعمال الموصل وقد تقدم ذكر عصيان اهلها عليه سنة خمس عشرة وستمائة وتسليمها الى عماد الدين زنكى ثم عودهم الى طاعة بدر الدين وخلافهم على عماد الدين فلما عادوا الى بدر الدين أحسن اليهم وأعطاهم الاقطاع الكثير وملكهم القرى ووصلهم بالاموال الجزيلة والخلع السنية فبقوا كذلك مدة يسيرة ثم شرعوا يراسلون عماد الدين زنكى ومظفر الدين صاحب اربل وشهاب الدين غازى بن العادل لما كان بخلاط ويعدون كلا منهم بالانحياز اليه والطاعة له وأظهروا من المخالفة لبدر الدين ما كانوا يطلبونه فكانوا لا يمكنون ان يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين الا من يريدونه ويمنعون من كرهوه فطال الامر وهو يحتمل فعلهم ويداريهم وهم لا يزدادون الا طمعا وخروجا عن الطاعة وكانوا جماعة فاختلفوا وافترق بعضهم وهم أولاد خواجه ابراهيم وأخوه ومن معهم على الباقين فاخرجوهم عن القلعة وغلبوا عليها وأصروا على ما كانوا عليه من النفاق فلما كان هذه السنة سار بدر الدين اليهم فى عساكره فاتاهم بغتة فحصرهم وضيق عليهم وقطع الميرة عنهم وأقام بنفسه عليهم وجعل قطعة من الجيش على قلعة هرور يحصرونها وهى من أمنع الحصون وأحصنها لا يوجد مثلها وكان أهلها أيضا قد سلكوا طريق أهل العمادية من عصيان وطاعة ومخادعة فاتاهم العسكر وحصروهم وهم فى قلة من الذخيرة فحصروها أياما فقضى ما فى القلعة فاضطر أهلها الى التسليم فسلموها ونزلوا منها وعاد العسكر الى العمادية فاقاموا عليها مع بدر الدين فبقى بدر الدين بعد أخذ هرور يسيرا وعاد الى الموصل وترك العسكر بحاله مقيما عليهم مع

الاحقاب كنزا وذخيرة * انه
وذات الاستار بيطن مكة
لا يرذل من والغ فى جيفة
مغلوب * وأنذل من طامع
فى شريطة مصلوب * ان
كان ما أتاه اتقاما فهلا
ذلك والولدى * وفى البدمن
ملك الخيار شئ * آلآن
وقد سبق السيف العذل * وقد
فعل القضاء ما فعل * أوردا
وقد نضب الماء * وشيما وقد
أصحت السماء * وغبرة وقد
سقط الجدار * وسترة وقد
ظهر الشوار * هيهات هيهات
لظن حائل * ورأى فائل *
وظل زائل * وورد سائل *
أيها النفس اجملى جزعا
ان الذى تحذرين قد وقعا
واحتمال مفترش لذته *
ومقتصر شهوته * للانقطاع

فأجابه امين الدين لؤلؤ فبقي الحصار الى اول ذي القعدة فارسلوا يذعنون بالطاعة ويطلبون العوض عنها ليسلموها فاستقرت القواعد على العوض من قلعة يحكمون فيها واقطاع ومال وغير ذلك فاجابهم بدر الدين الى ماطلبوا وحضر نوابهم ليحلفوا بدر الدين فبينما هو يريد ان يحلف لهم وقد احضر من يشهد اليمين اذ قد وصل طائر من العمادية وعلى جناحه رقعة من امين الدين لؤلؤ يخبر انه قد ملك العمادية قهرا وعنوة واسر بني خواجه الذين كانوا تغلبوا عليه فامتنع بدر الدين من اليمين واما سبب غلبة امين الدين عليها فانه كان قد ولاه بدر الدين عليها لما عاد اهلها الى طاعته فبقي فيها مدة فاحسن اليهم واحسن السيرة فيهم واستمال جماعة منهم ليتقوى بهم على الحزب الذين عصوا اولا فمضى الخبر اليهم فاساؤا مجاورته واستقالوا من ولايته عليهم ففارقهم الى الموصل وكان أولئك الذين استمالهم يكاتبونه ويراسلونه فلما حصرهم كانوا ايضا يكاتبونه في النشاب يخبرونه بكل ما يفعله اولاد خواجه من انفاذ رسول وغير ذلك وبما عندهم من الذخائر الا انهم لم يكونوا في الكثرة الى انهم يقهرون أولئك فلما كان الآن واستقرت القواعد من التسليم لم يذكر اولاد خواجه احدا من جند القلعة في نسخة اليمين بمال ولا غيره من امان واقطاع فسخطوا هذه الحال وقالوا لهم قد حلفتم لانفسكم بالحصون والقرى والمال ونحن قد خربت بيوتنا لاجلكم فلم تذكرونا فاهانوهم ولم يلتفتوا اليهم فحضر عند امين الدين رجلان منهم ليلا وطلبوا منه ان يرسل اليهم جماعة يصعدونهم الى القلعة ويثبون بأولئك ويأخذونهم فامتنع وقال اخاف ان لا يتم هذا الامر وينفسد علينا كل ما فعلناه فقالوا نحن نقبض عليهم غدا بكرة وتكون انت والعسكر على ظهر فاذا سمعتم النداء باسم بدر الدين وشعاره تصعدون الينا فاجابهم الى ذلك وركب بكرة هو والعسكر على العادة واما أولئك فانهم اجتمعوا وقبضوا على اولاد خواجه ومن معهم ونادوا بشعار بدر الدين فبينما العسكر قيام اذا الصوت من القلعة باسم بدر الدين فصعدوا اليها وملكوها وتسلم أمين الدين اولاد خواجه فحبسهم وكتب الرقعة على جناح الطائر بالحال وملكوا القلعة صفوا عفوا بغير عوض وكان يريد ان يغرم مالا جليلا واقطاعا كثيرة وحصنا منيعا فتوفر الجميع عليه وأخذ منهم كل ما احتقبوه واذخروه واذا أراد الله أمرا فلا مرد له

(ذكر عدة حوادث)

في هذه السنة ليلة الاحد والعشرين من صفر زلزلت الارض بالموصل وديار الجزيرة والعراق وغيرها زلزلة متوسطة وفيها اشتد الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها فاكل الناس الميتة والكلاب والسنانير فقل الكلاب والسنانير بعد ان كانوا كثيرا واقد دخلت يوما الى داري فرأيت الجواري يقطعن اللحم ليطبخوه فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثني عشر سنورا ورأيت اللحم في هذا الغلاء في الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لكثرتها وليس بين المرتين كثير وغلا مع الطعام كل شئ فبيع الرطل الشيرج بقيراطين بعد ان كان بنصف قيراط قبل الغلاء وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلا بدينار ومن العجب ان السلق والجزر والسلجم بيع كل خمسة ارطال بدرهم وبيع البنفسج كل ستة أرطال بدرهم وبيع في بعض الاوقات كل سبعة ارطال بدرهم وهذا ما لم يسمع بمثله ولقد رأينا ما لم نر ولا سمعنا بمثله فان الدنيا

الى بعض كبراء الامراء فقبله وآواه * وانتزعه من قبضة مولاه * مراغمة كونه بثار أضغانه * وشوقه على حرارة غمومه وأشجانه * فلا حميم ولا قريب * ولا ولي ولا حبيب * ولا والد ولا مولود * ولا عابد ولا معبود * واما الشرع وطريقه * والدين وتحقيقه * فحيهلا به * ان في وضوح هذه الخلال على شوه احكامها * وسفه احلامها * لغنية دون شرح الحال وتشريحها * وتبليغ لسان المقال وتفصيحها * غير ان التقرب الى الرسول المصطفى * الابطحي المجتبى * صلى الله عليه وعلى آله بقوله اذكروا الفاسق بما فيه * يقتضي التنبيه على مخازيه * تلخيصا لخفايا نكره وخباياه * وتشكيلا لاضلاع خبثه وزواياه

مازالت قديما وحديثا اذا غلت الاسعار متى جاء المطر رخصت الا هذه السنة فان الامطار مازالت متتابعة من اول الشتاء الى آخر الربيع وكلما جاء المطر غلت الاسعار وهذا ما لم يسمع بمثله فبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط يكون وزنه خمسة واربعين رطلا دقيقا بالبغدادي وكان الملح مكوك بدرهم فصار المكوك بعشرة دراهم وكان الارز مكوك باثني عشر درهما فصار المكوك بخمسين درهما وكان التمر كل اربعة ارطال وخمسة ارطال بقيراط فصار كل رطلين بقيراط ومن عجيب ما يحكى ان السكر النادر الاسعر كان كل رطل بدرهم وكان السكر الابلوج المصري النقي كل رطل بدرهمين فصار السكر الاسعر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف والسكر الابلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع وسببه ان الامراض لما كثرت واشتد الوباء قال النساء هذه الامراض باردة والسكر الاسمر حار فينفع منها والابلوج بارد يقويها وتبعهن الاطباء استمالة لقلوبهن ولجهلهن فغلا الاسمر بهذا السبب وهذا من الجهل المفرط ومازالت الاشياء هكذا الى اول الصيف واشتد الوباء وكثر الموت والمرض في الناس فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى فمن مات فيه شيخنا عبد المحسن بن عبد الله الخطيب الطوسي خطيب الموصل وكان من صالحي المسلمين وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر وفيها هرب امير حاج العراق وهو حسام الدين ابو فراس الحلي الكردي الورامي وهو ابن اخي الشيخ ورام كان عمه من صالحي المسلمين وخيارهم من اهل الحلة السيفية فارق الحاج بين مكة والمدينة وسار الى مصر حكى لي بعض اصدقائه انه انما حمله على الهرب كثرة الخرج في الطريق وقلة المعونة من الخليفة ولما فارق الحاج خافوا خوفا شديدا من العرب فامن الله خوفهم ولم ير عهم ذا عر في جميع الطريق ووصلوا آمنين الا ان كثيرا من الجمال هلك أصابها غدة عظيمة لم يسلم الا القليل وفيها في آب جاء مطر شديد ورعد وبرق ودام حتى جرت الاودية وامتلأت الطرق بالوحل ثم جاء الخبر من العراق والشام والجزيرة وديار بكر انه كان عندهم مثله ولم يصل الينا أحد الا وأخبر ان المطر كان عندهم في ذلك التاريخ وفيها كان في الشتاء ثلج كثير ونزلت بالعراق فسمعت أنه نزل في جميع العراق حتى في البصرة اما الى واسط فلا شك فيه وأما البصرة فان الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها وفيها خربت قلعة الزعفران من أعمال الموصل وهي حصن مشهور يعرف قديما بدير الزعفران وهو على جبل عال قريب من نوشابور وفيها أيضا خربت القلعة الجديدة من بلد الهكارية من أعمال الموصل أيضا وأضيف عملها وقراها الى العمادية وفيها في ذي الحجة سار جلال الدين بن خوارزمشاه من تبريز الى بلد الكرج قاصدا الاخذ بلادهم واستقصالهم وخربت السنة ولم يبلغنا انه فعل بهم شيأ ونحن نذكر ما فعل بهم سنة ثلاث وعشرين وستمائة ان شاء الله وفيها ثالث شباط سقط ببغداد ثلج وبرد الماء برد اشديدا وقوي البرد حتى مات به جماعة من الفقراء وفيها في ربيع الاول زادت دجلة زيادة عظيمة واشتغل الناس باصلاح سكر القورج وخافوا فبلغت الزيادة قريبا من الزيادة الاولة ثم نقص الماء واستبشر الناس

(ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة)

(ذكر ملك جلال الدين تفليس)

لبعد الافاضل أتى جاورته على
البريد قريبا من سنتين فلا
والله ان تضيفت الاحداق
به في المسجد الجامع الا يوما
واحدا كبيضة العقر * أو
كقضة البكر * فما أدري
أخطأت به خطاه * أم الجاه
عذر تخوف عتباه *
وتجاذبنا حديث الصلاة
فقال عما زحا وما صدقا
الامازح أو سكران قام
بعضهم وهو يسعى يوم
جمعة للفرض وقد نودي
للصلاة فقال له صاحبه
مكانك ان أربعة من خير

في هذه السنة ثامن ربيع الاول فتح جلال الدين بن خوارزمشاه مدينة تفليس من الكرج وسبب ذلك انا قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة الحرب بينه وبينهم وانهزامهم منه وعوده الى تبريز بسبب اختلاف الواقع فيها فلما استقر الامر في اذربيجان عاد الى بلد الكرج في ذي الحجة من السنة وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ودخلت هذه السنة فقصد بلادهم وقد عادوا وحشدوا وجمعوا من الامم المجاورة لهم اللان واللكز وقفجاق وغيرهم فاجتمعوا في جمع كثير لا يحصى فطمعوا بذلك ومنتهم أنفسهم الاباطيل ووعدهم الشيطان الظفر وما بعدهم الشيطان الا غرورا فلقيهم وجعل لهم الكمين في عدة مواضع واقتتلوا فولى الكرج منهزمين لا يلوي الاخ على أخيه ولا الوالد على ولده وكل منهم قد اهمته نفسه وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب فلم ينج منهم الا اليسير الشاذ الذي لا يعبأ به وأمر جلال الدين عسكره ان لا يقفوا على أحد وان يقتلوا من وجدوا فتبعوا المنهزمين يقتلونهم واشار عليه اصحابه بقصد تفليس دار ملكهم فقال لا حاجة انا الى ان نقتل رجالنا تحت الاسوار انما اذا أفنيت الكرج أخذت البلاد صفوا عفوا ولم تزل العساكر تتبعهم وتستقصي في طلبهم الى ان كادوا يفنونهم فحينئذ قصد تفليس ونزل بالقرب منها وسار في بعض الايام في طائفة من العسكر وقصدها لينظر اليها ويبصر مواضع النزول عليها وكيف يقاتلها فلما قاربها كمن أكثر العسكر الذي معه في عدة مواضع ثم تقدم اليها في نحو ثلاثة آلاف فارس فلما رآه من بها من الكرج طمعوا فيه لقلة من معه ولم يعلموا ما معهم فظهروا اليه فقاتلوه فتأخر عنهم فقوي طمعهم فظنوه منهزما فتبعوه فلما توسطوا العساكر خرجوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتل اكثرهم وانهزم الباقون الى المدينة فدخلوها وتبعهم المسلمون فلما وصلوا اليها نادى المسلمون من اهلها بشعار الاسلام وباسم جلال الدين فالقى الكرج بايديهم واستسلموا لانهم كانوا قد قتل رجالهم في الوقعات المذكورة فقل عددهم وملئت قلوبهم خوفا ورعبا فملك المسلمون البلد عنوة وقهرا بغير أمان وقتل كل من فيه من الكرج ولم يبق على كبير ولا صغير الا من أذعن بالاسلام وأقر بكلمتي الشهادة فانهم أبقى عليهم وامرهم فتختنوا وتركهم ونهب المسلمون الاموال وسبوا النساء واسترقوا الاولاد ووصل الى المسلمين الذين بها بعض الاذى من قتل ونهب وغيره وهذه تفليس من احصن البلاد وأمنعها وهي على جانبي نهر الكر وهو نهر كبير ولقد جل هذا الفتح وعظم موقعه في بلاد الاسلام وعند المسلمين فان الكرج كانوا قد استطالوا عليهم وفعلوا بهم ما أرادوا فكانوا يقصدون أي بلاد اذربيجان أرادوا فلا يمنعهم عنها مانع ولا يدفعهم عنها دافع وهكذا ارزن الروم حتى ان صاحبها لبس خلعة ملك الكرج ورفع على رأسه علما منه في أعلاه صليب وتنصر ولده رغبة في نكاح ملكة الكرج وخوفا منهم ليدفع الشر عنه وقد تقدمت القصة وهكذا دربند شروان وعظم أمرهم الى حد أن ركن الدين بن قلج ارسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وسائر بلاد الروم التي للمسلمين جمع عساكره وحشد معها غيرها فاستكثروه وقصد ارزن الروم وهي لاخيه طغرل شاه بن قلج ارسلان فأتاه الكرج وهزموه وفعلوا به وبعسكره كل عظيم وكان أهل دربند شروان معهم في الضنك والشدة وأما ارمينية فان الكرج دخلوا مدينة ارجيش وملكوا قرس وغيرها وحصروا خلاط فلولا أن الله سبحانه من على المسلمين بامر

البيوت للحبر من اثنين من عمل السوق وقد كان من طريق التجوز مساغ للتأويل على وجه التسلم ولكن من هذا قيله * وترك العبادات سبيله * فلا عبد يعتاد * ولا فرض كما يقضيه العباد * محال به غير اليقين بالالحاد * وتلقي أوامر الشرع بالعناد * وأظن قول الغلام الواصف مولاه انه ليعرب في الشتم ويلحن في الاعراب ويصلي من قعود ويفيك من قيام يحمى الى صورة حاله *

ايوانى مقدم عساكر الكرج لملكوها فاضطر أهلها الى ان بنوا لهم بيعة فى القلعة يضرب فيها الناقوس فرحلوا عنهم وقد تقدم تفصيل هذه الجملة ولم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضررا على المجاورين من الفرس قبل الاسلام وعلى المسلمين بعدهم من أول الاسلام الى الآن ولم يقدم أحد عليهم هذا الاقدام ولا فعل بهم هذه الافاعيل فان الكرج ملكوا تفليس سنة خمس عشرة وخمسمائة والسلطان حينئذ محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى وهو من أعظم السلاطين منزلة وأوسعهم مملكة وأكثرهم عساكر فلم يقدر على منعهم عنها هذا مع سعة بلاده فانه كان له الرى وأعمالها وبلاد الجبل واصفهان وفارس وخوزستان والعراق واذربيجان وارران وارمينية وديار بكر والجزيرة والموصل والشام وغير ذلك وعمه السلطان سنجر له خراسان وماوراء النهر فكان أكثر بلاد الاسلام بايديهم ومع هذا فانه جمع عساكره سنة تسع عشرة وخمسمائة وسار اليهم بعد أن ملكوها فلم يقدر عليهم ثم ملك بعده أخوه السلطان مسعود فكذلك وملك الكرج بلد الجبل والرى واذربيجان وارران وأطاعه صاحب خلاط وصاحب فارس وصاحب خوزستان وجمع وحشد لهم وكان قصاراه أن يتخلص منهم ثم ابنه البهلوان بعده وكانت البلاد فى أيام أولئك كثيرة الاموال والرجال فلم يحدثوا أنفسهم بالظفر بهم ولا حتى جاء هذا السلطان والبلاد خراب قد أضعفها الكرج أولا ثم استأصلتها التتر لعنهم الله على ما ذكرنا ففعل بهم هذه الافاعيل فسبحان من اذا أراد أمرا قال له كن فيكون

(ذكر مسير مظفر الدين صاحب اربل الى الموصل وعوده عنها)

فى هذه السنة فى جمادى الآخرة سار مظفر الدين بن زين الدين صاحب اربل الى أعمال الموصل قاصدا اليها وكان السبب فى ذلك انه استقرت القاعدة بينه وبين جلال الدين بن خوارزمشاه وبين الملك المعظم صاحب دمشق وبين صاحب آمد وبين ناصر الدين صاحب ماردين ليقصدوا البلاد التى بيد الاشرف ويتغلبوا عليها ويكون لكل منهم نصيب ذكره واستقرت القواعد بينهم على ذلك فبادر مظفر الدين الى الموصل وأما جلال الدين فانه سار من تفليس يريد خلاط فأتاه الخبر ان نائبه ببلاد كرمان واسمه بلاق حاجب قد عصى عليه على ما ذكره فلما أتاه الخبر بذلك ترك خلاط ولم يقصدها الا ان عسكره نهب بعض بلدها وخربوا كثيرا منه وسار مجدا الى كرمان فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه الا أن مظفر الدين سار من اربل ونزل على جانب الزاب ولم يمكنه العبور الى بلد الموصل وكان بدر الدين قد أرسل من الموصل الى الاشرف وهو بالرقة يستنجده ويطلب منه ان يحضر بنفسه الموصل ليدفعوا مظفر الدين فسار منها الى حران ومن حران الى نصيبين فخرب بلد ماردين وأهلكه تخريبا ونهبا وأما المعظم صاحب دمشق فانه قصد بلد حمص وحماة وأرسل الى اخيه الاشرف يقول ان رحلت عن ماردين وحلب وأنا عن حمص وحماة وارسلت الى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل فرحل الاشرف عن ماردين وعاد كل منهم الى بلده وخربت اعمال الموصل واعمال ماردين بهذه الحركة فانها كانت قد اجحف بها تتابع الغلاء وطول مدته وجلا اكثر أهلها فأتتها هذه الحادثة فازدادت خرابا

(ذكر عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره اليها)

ويأوى الى مقصورة خبثه وضلاله * بجمل أحواله عيوب * ومعظم أفعاله ذنوب
يصلى فيخفض أركانه ويشهى فينصب سيقانه
يخاطب بالكاف اخوانه ويشتم بالزاى غلمانه
ويكفت للشرا كمامه ويسحب للاثم أردانه
ومن نادرة البلد * اعتقاده الاعتزال على وعيد الابد * ثم لا يبقى محظورا ومحجورا ولا يستبقى عملا موزورا * ومنكرا من القول وزورا

في هذه السنة في جمادى الآخرة وصل الخبر الى جلال الدين ان نائبه بكرمان وهو امير كبير اسمه بلاق حاجب قد عصى عليه وطمع في البلاد أن يتملكها ويستبد بها بعد جلال الدين عنها واشتغاله بما ذكرناه من الكرج وغيرهم وانه أرسل الى التتر يعرفهم قوة جلال الدين وملكه كثيرا من البلاد وان أخذ الباقي عظمت مملكته وكثرت عساكره وسار اليكم وأخذ ما بايديكم من البلاد فلما سمع جلال الدين ذلك وكان قد سار يريد خلاط فتركها وسار الى كرمان يطوي المراحل أرسل بين يديه رسولا الى صاحب كرمان ومعه الخلع ليطمئن ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعد للامتناع منه فلما وصل الرسول علم ان ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته فأخذ ما يعز عليه وصعد الى قلعة منيعة فتحصن بها وجعل من يثق اليه من أصحابه في الحصون يمتنعون بها وأرسل الى جلال الدين يقول اني أنا العبد والمملوك ولما سمعت بمسيرك الى هذه البلاد أخليتها لانها بلادك ولو علمت انك تبقى علي لحضرت بابك ولكني أخاف هذا جميعه والرسول يحلف له ان جلال الدين بتفليس وهو لا يلتفت الى قوله فعاد الرسول فعلم جلال الدين انه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لانه يحتاج أن يحصرها مدة طويلة فوقف بالقرب من اصفهان وأرسل اليه الخلع وأقره على ولايته فبينما الرسل تتردد اذ وصل رسول من وزير جلال الدين اليه من تفليس يعرفه ان عسكر الملك الاشرف الذي بخلاط قد هزموا بعض عسكره واوقعوا بهم ويحثه على العود الى تفليس فعاد اليها مسرعا

(ذكر الحرب بين عسكر الاشرف وعسكر جلال الدين)

لما سار جلال الدين الى كرمان ترك بمدينة تفليس عسكرا مع وزيره شرف الملك فقلت عليهم الميرة فساروا الى أعمال ارزن الروم فوصلوا اليها ونهبوها وسبوا النساء وأخذوا من الغنائم شيأ كثيرا لا يحصر وعادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط فسمع النائب من الاشرف بخلاط وهو الحاجب حسام الدين علي الموصل لجمع العسكر وسار اليهم فأوقع بهم واستنقذ ما معهم من الغنائم وغنم كثيرا مما معهم وعاد هو وعساكره سالمين فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم فارسل الى صاحبه بكرمان يعرفه الحال ويحثه على الوصول اليه ويخوفه عاقبة التواني والاهمال فرجع فكان ما نذكره ان شاء الله تعالى

(ذكر وفاة الخليفة الظاهر بامر الله)

في هذه السنة في الرابع عشر من رجب توفي الامام الظاهر بامر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد ابن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بامر الله وقد تقدم نسبه عند وفاة أبيه رضي الله عنهما فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والاحسان الى رعيته وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله ما فيه كفاية ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان الى الرعية فرضي الله عنه وأرضاه وأحسن متقلبه ومثواه فلقد جدد من العدل ما كان دارسا واذكر من الاحسان ما كان منسيا وكان قبل وفاته أخرج توقيعا الى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول لأمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم الى امام فعال أخرج منكم الى امام قوال فقرؤه فاذا في أوله بعد البسملة اعلموا انا لم نكن اهملنا

هاهو طمع بشهدي في مال
رجل كان انقطاع اليه
منذ زمان بأمان فاغرى به
وبيماله كقضيب من الآس
مياس * لعله فتكه كان
بأمه اذ هو رضيع * وعلى
جدالة الجزر صريع * ولقنه
استعداء الامير الاجل أبي
سعيد مسعود بن يمين الدوله
وأمين الملة عليه * وتحيز
الامر في معنى الانتصاف
اليه * فتنبه ذلك الامير
الالمعي * والسيد الاوذعي *
على غامض كيده * وباطن
ختله في صدره * فأمر بالكتاب

ولا أغضاؤنا اغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ما سلف من اخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة واظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسميه الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدرا كالاغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وانياب أسد مهيب تتفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه الى هواكم وتقزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبياطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ الا من اصر ولا ينتقم الا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في ارضه وامنائه على خلقه والا هلكتم والسلام

ولما توفي وجدوا في بيت في داره الوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لا حاجة لنا فيها كلها سعايات ولم ازل علم الله سبحانه مدولي الخلافة اخاف عليه قصر المدة تخبث الزمان وفساد اهله واقول لكثير من اصدقائنا وما اخوفني ان تقصر مدة خلافته لان زماننا واهله لا يستحقون خلافته فكان كذلك

(ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله)

لما توفي الظاهر بامر الله بويع بالخلافة ابنه الاكبر ابو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك في الخير والاحسان الى الناس سيرة ابيه رضي الله عنه وامر فنودي ببغداد بافاضة العدل وان من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان اول جمعة اتت على خلافته أراد ان يصلي الجمعة في المقصورة التي كان يصلي فيها الخلفاء فقيل له ان المطبق الذي يسلك فيه اليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار الى الجامع جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص ابيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير ولم يترك أحدا يمشي معه من اصحابه بالصلاة الى الموضع الذي كان يصلي فيه وسار هو ومعه خادمان وركبدارا لا غير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى اصلح له المطبق وكان السعر قد تحرك بعد وفاة الظاهر بامر الله رضي الله عنه فبلغت الكارة ثمانية عشر قيراطا فامر أن تباع الغلات التي له كل كارة بثلاثة عشر قيراطا فرخصت الاسعار واستقامت الامور

(ذكر الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد)

في هذه السنة في شعبان سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان ملك بلاد الروم الى بلاد الملك المسعود صاحب آمد وملك عدة من حصونه وسبب ذلك ما ذكرناه من اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين خوارزمشاه والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهما على خلاف الاشرف فلما رأى الاشرف ذلك ارسل الى كيقباذ ملك الروم وكانا متفقين يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد ويحاربه وكان الاشرف حينئذ على ماردين فسار ملك الروم الى ملطية وهي له فنزل عندها وسير العساكر الى ولايه صاحب آمد ففتحوا حصن منصور وحصن شمكاز اد وغيرها فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الاشرف وعاد الى موافقته فأرسل الاشرف الى كيقباذ يعرفه ذلك ويقول له ليعد الى صاحب آمد ما اخذ منه فلم يفعل وقال لم اكن نائبا للاشرف

الى في تعرف الحال * وتجنب جانب الاحتيال * والانتداب لاعداء الشاكي على خصمه * وايفائه حكم الله في أمه * فلما أحس أخو دلة المحتالة ان حدسه قد فال * وظنه استحال * وسعيه الى الشبور قد مال منع شهود الزور أن يصدعوا بالحق فيما بذلوا من خطوطهم ترغيبا * وترهيبا * فرضوا القول * واذعنوا على مسئلتهم العول * ومال المزور والمزور الى التوسط عن ارش المستباح دمها على ما تقتضي

يأمرني وينهاني فاتفق ان الاشرف سار الى دمشق ليصلح اخاه الملك المعظم وأمر العساكر التي له بديار الجزيرة بعساعدة صاحب آمد ان أصر ملك الروم على قصده فسارت عساكر الاشرف الى صاحب آمد وقد جمع عسكره ومن ببلاده ممن يصلح للحرب وسار الى عسكر ملك الروم وهم يحاصرون قلعة الكختا فالتقوا هناك في شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه من العساكر هزيمة عظيمة وجرح كثير وأسر كثير وملك عسكر كيقباذ قلعة الكختا بعد الهزيمة وهي من أمنع الحصون والمعاقل فلما ملكوه عادوا الى صاحبهم

(ذكر حصر جلال الدين مدينتي آني وقرس)

في هذه السنة في رمضان عاد جلال الدين من كرمان كما ذكرناه الى تفليس وسار منها الى مدينة آني وهي للكرج وبها ابو الى مقدم عساكر الكرج فيمن بقي معه من اعيان الكرج فحصره وسير طائفة من العسكر الى مدينة قرس وهي للكرج أيضا وكلاهما من احصن البلاد وامنعها فنازلهما وحصرهما وقاتل من بهما ونصب عليهما المجانيق وجد في القتال عليهما وحفظتهما الكرج وبالغوا في الحفظ والاحتياط لخوفهم منه أن يفعل بهم ما فعل باشياعهم من قبل بمدينة تفليس وأقام عليهما الى أن مضى بعض شوال ثم ترك العسكر عليهما يحصرونهما وعاد الى تفليس وسار من تفليس مجدا الى بلاد ابخاز وبقايا الكرج فأوقع بمن فيها فنهب وقتل وسبى وخرب البلاد وأحرقها وغنم عساكره ما فيها وعاد منها الى تفليس

(ذكر حصر جلال الدين خلاط)

قد ذكرنا ان جلال الدين عاد من مدينة آني الى تفليس ودخل بلاد ابخاز وكان رحيله مكيدة لانه بلغه ان النائب عن الملك الاشرف وهو الحاجب حسام الدين علي بمدينة خلاط قد احتاط واهتم بالامر وحفظ البلد لقربه منه فعاد الى تفليس ليطمئن أهل خلاط ويتركوا الاحتياط والاستظهار ثم يقصدهم بغتة فكانت غيبته ببلاد ابخاز عشرة أيام وعاد وسار مجدا على عادته فلو لم يكن عنده من يراسل نواب الاشرف بالاخبار فجئهم على حين غفلة منهم وانما كان عنده بعض ثقاته يعرفهم أخباره وكتب اليهم يحذرهم فوصل الخبر اليهم قبل وصوله بيومين ووصل جلال الدين فنازل مدينة ملازكرد يوم السبت ثالث عشر ذي القعدة ثم رحل عنها فنازل مدينة خلاط يوم الاثنين خامس عشره فلم ينزل حتى زحف اليها وقاتل اهلها قتالا شديدا فوصل عسكره سور البلد وقتل بينهم قتلى كثيرة ثم زحف اليها مرة ثانية وقاتل أهل البلد قتالا عظيما فعظمت نكاية العسكر في أهل خلاط ووصلوا الى سور البلد ودخلوا الربض الذي له ومدوا أيديهم في النهب وسبي الحريم فلما رأى أهل خلاط ذلك تذامروا وحرض بعضهم بعضا فعادوا الى العسكر فقاتلوهم فأخرجوهم من البلد وقتل بينهم خلق كثير وأسر العسكر الخوارزمي من امراء خلاط جماعة وقتل منهم كثير وترجل الحاجب علي ووقف في نحر العدو وابلى بلاء عظيما ثم ان جلال الدين استراح عدة أيام وعاود الزحف مثل اول يوم فقاتلوه حتى أبعدوا عسكره عن البلد وكان أهل خلاط مجدين في القتال حريصين على المنع عن أنفسهم لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد وما فيها من الفساد فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله ثم أقام عليها الى أن اشتد البرد ونزل شئ من الثلج فرحل عنها يوم الثلاثاء

درهم قيمتها خمسة دنانير * فلم ار دراية تحله وقفت بأن ديات الامهات على هذين العقدين * فما في الاسلام له ذكر معلوم * ولا في الفقه باب مرقوم * ولا عند أهل الكتاب أمر محتوم ولا في ديار أهل الشرك رسم مرسوم * ولا في فطر النفوس أن تنزل عن أمهاتها مقتولة بهذا الوكس * والثمن البخس ولا الخنانيص أو القرود لو نطقت ترضى عن واضعاتها بمثله ولم قد قلت وأقول

السبع بقين من ذى الحجة من السنة وكان سبب رحيله مع خوف الثلج ما بلغه عن التركمان الايوانية من الفساد ببلاد

(ذكر ايقاع جلال الدين بالتركمان الايوانية)

كان التركمان الايوانية قد تغلبوا على مدينة اشتروأرمية من نواحى اذربيجان وأخذوا الخراج من أهل خوى ليكفوا عنهم واغتروا باشتغال جلال الدين بالكرج وبعدهم بخلاط وازداد طمعهم وانبسطوا باذربيجان ينهبون ويقطعون الطريق والاخبار تأتى الى خوارزمشاه جلال الدين وهو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو أهم عنده وبلغ من طمعهم انهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز وأخذوا من تجار أهلها شيأ كثيرا ومن جملة ذلك انهم اشتروا غنما من ارزن الروم وقصدوا بها تبريز فلقيهم الايوانية قبل وصولهم الى تبريز فأخذوا جميع ما معهم ومن جملته عشرون ألف رأس غنم فلما اشتد ذلك على الناس وعظم الشر أرسلت زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل ونوابه فى البلاد اليه يستغيثون ويعرفونه ان البلاد قد خربها الايوانية وان لم يلحقها والا هلكت بالمرة فاتفق هذا الى خوف الثلج فرحل عن خلاط وجد السير الى الايوانية وهم آمنون مطمئنون لعلمهم ان خوارزمشاه على خلاط وظنوا انه لا يفارقها فلولا هذا الاعتقاد لصعدوا الى جبال لهم منيعة شاهقة لا يرتقى اليها الا بمشقة وعناء فانهم كانوا اذا خافوا صعدوا اليها وامتنعوا بها فلم يرعهم الا والعساكر الجلالية قد أحاطت بهم وأخذهم السيف من كل جانب فأكثروا القتل فيهم والنهب والسبى واسترقوا الحريم والاولاد وأخذوا من عندهم مالا يدخل تحت الحصر فرأوا كثيرا من الامتعة التى أخذوها من التجار بحالها فى الشذوات لم تحل هذا سوى ما كانوا قد حملوه وفصلوه فلما فرغ عاد الى تبريز

(ذكر الصلح بين المعظم والاشرف)

نبتدئ بذكر سبب الاختلاف فنقول لما توفى الملك العادل أبو بكر بن أيوب اتفق أولاده الملوك بعده اتفاقا حسنا وهم الملك الكامل محمد صاحب مصر والملك المعظم عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس وما يجاورها من البلاد والملك الاشرف موسى وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية ولما رحل الكامل عن دمياط لما كان الفرنج يحصرونها صادفه أخوه المعظم من الغد وقويت نفسه وثبت قدمه ولولا ذلك لكان الامر عظيما وقد ذكرنا ذلك مفصلا ثم انه عاد من مصر وسار الى أخيه الاشرف ببلاد الجزيرة مرتين يستنجده على الفرنج ويحثه على مساعدة أخيه الكامل ولم يزل به حتى أخذه وسار الى مصر وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية كما ذكرناه قبل فكان اتفاقهم سببا لحفظ بلاد الاسلام وسر الناس أجمعون بذلك فلما فارق الفرنج مصر وعاد كل من الملوك أولاد العادل الى بلاده بقوا كذلك يسيرا ثم سار الاشرف الى أخيه الكامل بمصر فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق فلم يستصحبه معه وأطال المقام بمصر فلا شك ان المعظم سار الى مدينة حماة وحصرها فأرسل اليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارهها فازداد نفورا وقيل انه نقل اليه عنهما انهما اتفقا عليه والله أعلم بذلك ثم انضاف الى ذلك ان الخليفة الناصر لدين الله رضى الله عنه كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن بمكة من الاستهانة بأمير الحاج العراقى فاعرض

انها ليست دية تؤدى أو ذمة * بل هى دية نسمة مسلمة * قد حقن الله دمها الا باحدى ثلاث نصا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهل يستجيز الترخص فى هذه الاحكام الا المستخف بدين الاسلام * اما ان المحكوم عليه لم يلتزمها الا بقوة مائة وعشرة * فقال المفجوع * المخدوع * تالله لا رضيت بهذا الغبن ولا شربت الدم الحرام باللبن * وهم بالرحيل * فى أمر القتيل فاغتيل * فلم يدر

عنه وعن أخيه الاشرف لاتفاقهما وقاطعهما وراسل مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين علي صاحب اربل لعلمه بانحرافه عن الاشرف واستمالته واتفقا على مراسلة المعظم وتعظيم الامر عليه فمال اليهما وانحرف عن اخويه ثم اتفق ظهور جلال الدين وكثرة ملكه فاشتد الامر على الاشرف بمجاورة جلال الدين خوارزمشاه ولاية خلاط ولان المعظم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل اليه وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام فرأى الاشرف أن يسير الى أخيه المعظم بدمشق فسار اليه في شوال واستمالة وأصلحه فلما سمع الكامل بذلك عظم عليه وظن ان اتفاقهما عليه ثم انهما راسلاه واعلماه بنزول جلال الدين على خلاط وعظما الامر عليه واعلماه ان هذه الحال تقتضي الاتفاق لعمارة البيت العادلي وانقضت السنة والاشرف بدمشق والناس على مواضعهم ينتظرون خروج الشتاء ما يكون من الخوارزميين وسنذكر ما يكون سنة أربع وعشرين وستمائة ان شاء الله تعالى .

﴿ذكر الفتنة بين الفرنج والارمن﴾

في هذه السنة جمع البرنس الفرنجي صاحب انطاكية جموعا كثيرة وقصد الارمن الذين في الدروب من بلاد ابن ليون فكان بينهم حرب شديدة وسبب ذلك ان ابن ليون الارمني صاحب الدروب توفي قبل ولم يخلف ولدا ذكرا انما خلف بنتا فملكها الارمن عليهم ثم علموا ان الملك لا يقوم بامرأة فزوجوها من ولد البرنس فتزوجها وانتقل الى بلدهم واستقر في الملك نحو سنة ثم ندموا على ذلك وخافوا أن يستولي الفرنج على بلادهم فثاروا بابن البرنس فقبضوا عليه وسجنوه فأرسل ابوه يطلب ان يطلق ويعاد في الملك فلم يفعلوا فأرسل الى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم وهذا ملك رومية امره عند الفرنج لا يخالف فمنعه عنهم وقال انهم اهل ملتنا ولا يجوز قصد بلادهم فخالفه وارسل الى علاء الدين كيقباذ ملك قونية وملطية وما بينهما من بلاد المسلمين وصالحه ووافقه على قصد بلاد ابن ليون والاتفاق على قصدها فاتفقا على ذلك وجمع البرنس عساكره ليسير الى بلاد الارمن فخالف عليه الداوية والاسبتار وهما جرة الفرنج فقالوا ان ملك رومية نهانا عن ذلك الا انه اطاعه غيرهم فدخل اطراف بلاد الارمن وهي مضايق وجبال وعرة فلم يتمكن من فعل ما يريد واما كيقباذ فانه قصد بلاد الارمن من جهته وهي اسهل مدخلا من جهة الشام فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستمائة فنهبها واحرقها وحصر عدة حصون ففتح اربعة حصون واركها الشتاء فعاد عنها فلما سمع بابا ملك الفرنج برومية ارسل الى الفرنج بالشام يعلمهم انه قد حرم البرنس فكان الداوية والاسبتارية وكثير من الفرنج لا يحضرون معه ولا يسمعون قوله وكان اهل بلاده وهي انطاكية وطرابلس اذا جاءهم عيد يخرج من عندهم فاذا فرغوا من عيدهم دخل البلد ثم انه أرسل الى ملك رومية يشكو من الارمن وانهم لم يطلقوا ولده فأرسل الى الارمن يأمرهم باطلاق ابنه واعادته الى الملك فان فعلوا والا فقد أذن له في قصد بلادهم فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده فجمع البرنس وقصد بلاد الارمن فأرسل الارمن الى الاتابك شهاب الدين بحلب يستنجدونه ويخوفونه من البرنس ان استولى على بلادهم لانها تجاور أعمال حلب فأمدهم بجند وسلاح فلما سمع البرنس ذلك صمم العزم على قصد بلادهم فسار اليهم وحاربهم فلم يحصل على غرض

أو كلته النار أم شربه الماء * أو النقطته الارض أو اختطفته السماء * فلله هما من دمين * ذهبا بطرا وبخصين * فقد اغيلة وسخرا * هذا والله الدين السليم أو العقد الحكيم * والامر القويم * والسمت المستقيم * والمبالاة بما وراء الجحيم * ومما يزيده أدام الله عز المشايخ وضوحا * ويفيد من هذه المقدمات وضوحا * ما كانت الاخبار تشاهد به من استهلاله عند الاشفاق من لواحق

فعاد عنهم حدثني بهذا رجل من عقلاء النصارى ممن دخل تلك البلاد وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض وانكر البعض

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة انخسف القمر مرتين أولاهما ليلة رابع عشر صفر وفيها كانت أعجوبة بالقرب من الموصل حامة تعرف بعين القيارة شديدة الحرارة تسمى الناس عين ميمون ويخرج مع الماء قليل من القار فكان الناس يسبحون فيها دائما في الربيع والخريف لانها تنفع من الامراض الباردة كالفالج وغيره نفعا عظيما فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء ففي هذه السنة برد الماء فيها حتى كان السابح فيها يجد البرد فتركوها وانتقلوا الى غيرها وفيها كثرت الذئاب والخنازير والحيات فقتل كثير فلقد بلغني ان ذئبا دخل الموصل فقتل فيها (وحدثني) صديق لنا له بستان بظاهر الموصل انه قتل فيه في سنة اثنتين وعشرين وستمائة جميع الصيف حيتين وقتل هذه السنة الى أول حزيران سبع حيات لكثرتها وفيها انقطع المطر بالموصل وأكثر البلاد الجزرية من خامس شباط الى ثاني عشر نيسان ولم يجر شيء يعتد به لكنه سقط اليسير منه في بعض القرى فجاءت الغلات قليلة ثم خرج الجراد الكثير فزاد الناس اذى وكانت الاسعار قد صلحت شيأ فعادت لكثرة الجراد غلت ونزل أيضا في كثير من القرى برد كبير أهلك زروع أهلها وأفسدها واختلفت أقاويل الناس في اكبره كان وزن بردة مائتي درهم وقيل رطل وقيل غير ذلك الا انه أهلك كثيرا من الحيوان وانقضت هذه السنة والغلاء باق واشتد بالموصل وفيها اصطاد صديق لنا أرنب فرآه وله اثنيان وذكر وفرج أنثى فلما شقوا بطنها رأوا فيها حريفين سمعت هذا منه ومن جماعة كانوا معه وقالوا ما زلنا نسمع ان الارنب يكون سنة ذكرا وسنة أنثى ولا نصدق بذلك فلما رأيناها علمنا انه قد حمل وهو أنثى وانقضت السنة فصار ذكرا فان كان كذلك فيكون في الارانب كالخنثى من بني آدم يكون لاحدهم فرج الرجل وفرج الانثى فاني كنت بالجزيرة ولنا جارية بنت اسمها صفية فبقيت كذلك نحو خمس عشرة سنة واذا قد طلع لها ذكر رجل ونبتت لحيتها فكان لها فرج امرأة وذكر رجل وفيها ذبح انسان عند نار أس غنم فوجد لحمه مر اشديد المرارة حتى رأسه واكارعه ومعلاقه وجميع اجزائه وهذا ما لم يسمع بمثله وفيها يوم الاربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة ضحوة النهار زلزلت الارض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية وكان اكثرها بشهرزور فانها خرب أكثرها لاسيما القلعة فانها انجفت بها وخرب من تلك الناحية ست قلاع وبقيت الزلزلة تتردد فيها ثمانية وثلاثين يوما ثم كشفها الله عنهم واما القرى بتلك الناحية فخرب اكثرها وفيها في رجب توفي القاضي جمال الدين ابو منصور المظفر بن عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري قاضي الموصل بها وكان قد اضر قبل وفاته بنحو سنتين وكان عالما بالقضاء عفيفا نزها ذا رياسة كبيرة وله صلات دارة للقيم والوارد رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا ولم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة أشهر

﴿ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر دخول الكرج مدينة تفليس واحراقها﴾

جنابانه على سلطان زمانه * وربعا باعمله ومكانه * حبس
مانسب اليه من ضياع * وعفا وربما * ودار ليتناهب
ذكره الاسماع * ويتقاصر
دونه الاطماع * حتى اذا
ماخلا جوه * واستقام على
ايقاع المراد شدوه * ندم
على ماعمل * ورجع فيما بذل
وفصل بالفسخ كل ما اجمل *
فكان هذا البلاغ يقرب
تارة من الامكان * ويبعد
أخرى حتى أغنى شخص
العيان * عن الخبر * وناب
شمس البيان * عن القمر *

في هذه السنة في ربيع الاول وصل الكرج مدينة تفليس ولم يكن بها من العسكر الاسلامي من يقوم بحمايتها وسبب ذلك ان جلال الدين لما عاد من خلاط كما ذكرنا قبل وأوقع بالايوانية فرق عساكره الى المواضع الحارة الكثيرة المرعى ليشتوا بها وكان عسكره قد أساؤا السيرة في رعية تفليس وهم مسلمون وعسفوهم فكاتبوا الكرج يستدعونهم اليهم ليملكوهم البلد فاغتنم الكرج ذلك لميل أهل البلد اليهم وخلوه من العسكر فاجتمعوا وكانوا بمدينتي قرص وآني وغيرهما من الحصون وساروا الى تفليس وكانت خالية كما ذكرناه ولان جلال الدين استضعفه الكرج لكثرة من قتل منهم ولم يظن فيهم حركة فملكوا البلد ووضعوا السيف فيمن بقي من أهله وعلموا انهم لا يقدرون على حفظ البلد من جلال الدين فأحرقوها جميعها وأما جلال الدين فانه لما بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم فلم يرمنهم أحدا كانوا قد فارقوا تفليس لما أحرقوها

وذلك حين بعث السلطان يمين الدوله وأمين الملة قاضي قضاته أبا محمد عبد الله بن محمد الناصحي الى ديار خراسان لتدارك أمورالاوقاف * وانتزاع ما اقتسمته أيدي التسلط والاختطاف * فرفع اليه خليفته وآنا حاضر * والى حقائق ما يرد و يصدر ناظر * ما تقرر عنده من احتجانه ما يقارب مائة ألف دينار عن أوقاف وضع عليها سمت التملك وسومة التغلب والتحجين كما عانيها أفواه أربابها

﴿ذكر ذهب جلال الدين بلد الاسماعيلية﴾

في هذه السنة قتل الاسماعيلية أميرا كبيرا من امراء جلال الدين وكان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجة وأعمالها وكان نعم الامير كثير الخير حسن السيرة ينكر على جلال الدين ما يفعله عسكره من النهب وغيره من الشر فلما قتل ذلك الامير عظم قتله على جلال الدين واشتد عليه فسار في عساكره الى بلاد الاسماعيلية من حدود ألموت الى كردكوه بخراسان فخرب الجميع وقتل أهلها ونهب الاموال وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وعمل بهم الاعمال العظيمة وانتقم منهم وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضررهم وطمعوا منذ خرج التتر الى بلاد الاسلام الى الآن فكف عاديتهم وقمعهم والقاهم الله ما عملوا بالمسلمين

﴿ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر﴾

لما فرغ جلال الدين من الاسماعيلية بلغه الخبر أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا الى دامغان بالقرب من الري عازمين على بلاد الاسلام فسار اليهم وحاربهم واشتد القتال بينهم فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين عدة أيام يقتل و يأسر فبينما هو كذلك قد أقام بنواحي الري خوفا من جمع آخر للتتر اذ أتاه الخبر بان كثيرا منهم واصلون اليه فاقام ينتظرهم وسنذكر خبرهم سنة خمس وعشرين وستمائة

﴿ذكر دخول العساكر الاشرفية الى اذربيجان وملك بعضها﴾

في هذه السنة في شعبان سار الحاجب علي حسام الدين وهو النائب عن الملك الاشرف بخلاط والمقدم على عساكرها الى بلاد اذربيجان فيمن عنده من العساكر وسبب ذلك ان سيرة جلال الدين كانت جائرة وعساكره طامعة في الرعايا وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقي وهي التي كانت زوجة اوزبك بن البهلوان صاحب اذربيجان فتزوجها جلال الدين كما ذكرناه قبل وكانت مع أوزبك تحكم في البلاد جميعها اليس له ولا لغيره معها حكم فلما تزوجها جلال الدين أهملها ولم يلتفت اليها لخفافته مع ما حرمته من الحكم والامر والنهي فأرسلت هي وأهل خوى الى حسام الدين الحاجب يستدعونه ليسلموا البلاد له فسار ودخل البلاد بلاد اذربيجان فملك مدينة خوى وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين وملك مرند

وكاتبه أهل مدينة نقجوان فمضى اليهم فسلموها اليه وقويت شوكتهم بتلك البلاد ولو داموا الملكوها جميعها انما عادوا الى خلاط واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل الى خلاط وسنذكر باقي خبرهم سنة خمس وعشرين ان شاء الله تعالى

﴿ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده﴾

في هذه السنة توفي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق يوم الجمعة سلخ ذي القعدة وكان مرضه دزسنطاريا وكان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده الملك العادل عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما وكان عالما بعدة علوم فاضلا فيها منها الفقه على مذهب أبي حنيفة فانه كان قد اشتغل به كثيرا وصار من المتميزين فيه ومنها علم النحو فانه اشتغل به أيضا اشتغالا زائدا وصار فيه فاضلا وكذلك اللغة وغيرها وكان قد أمر أن يجمع له كتاب في اللغة جامع كبير فيه كتاب الصحاح للجوهري ويضاف اليه ما فات الصحاح من التهذيب للازهري والجمهرة لابن دريد وغيرهما وكذلك أيضا أمر بان يرتب مسند أحمد بن حنبل على الابواب ويرد كل حديث الى الباب الذي يقتضيه معناه مثاله أن يجمع أحاديث الطهارة وكذلك يفعل في الصلاة وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات فيكون كتابا جامعا وكان قد سمع المسند من بعض أصحاب ابن الحصين ونفق العلم في سوقه وقصده العلماء من الآفاق فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم وكان يرجع الى علم وصبر على سماع ما يكره لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوءه وكان حسن الاعتقاد يقول كثيرا ان اعتقادي في الاصول ما سطره أبو جعفر الطحاوي ووصى عند موته بان يكفن في البياض ولا يجعل في اكفانه ثوب فيه ذهب وأن يدفن في لحد ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء ويقول في مرضه لي عند الله تعالى في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به ولما توفي ولي بعده ابنه داود ويلقب الملك الناصر وكان عمره قد قارب عشرين سنة

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة دام الغلاء في ديار الجزيرة ودامت الاسعار تزيد قليلا وتنقص قليلا وانقطع المطر جميع شباط وعشرة أيام من أذار فازداد الغلاء فبلغت الحنطة كل مكوكين بالموصلي بدينار وقيراطين بالموصل والشعير كل ثلاثة مكاكيك بالموصلي بدينار وقيراطين أيضا وكل شئ بهذه النسبة في الغلاء وفيها في الربيع قل لحم الغنم بالموصل وغلا سعره حتى بيع كل رطل لحم بالبغدادي بحبتين بالصنجة وربما زاد في بعض الايام على هذا الثمن وحكى لي من يتولى بيع الغنم بالموصل انهم باعوا خروفا واحدا لا غير وفي بعضها خمسة أرؤس وفي بعضها ستة وأقل وأكثر وهذا ما لم يسمع بمثله ولا رأيناه في جميع أعمارنا ولا حكى لنا مثله لان الربيع مظنة رخص اللحم لان التركمان والاكراد والكيلكان ينتقلون من الامكنة التي شتوا بها الى الزوزان فيبيعون الغنم رخيصا وكان اللحم كل سنة في هذا الفصل يكون سعره كل ستة ارطال وسبعة بقيراط صار هذه السنة الرطل بحبتين وفيها عاشر اذار وهو العشرون من ربيع الاول سقط الثلج مرتين وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله فأهلك الازهار التي خرجت كزهر اللوز والمشمش

دون التظلم بوعد دونه
وقراق السراب * ووعيد
عنده فراق الرقاب * حتى
درج عليها قرن بعد قرن
آيسين عن الانتصاف
وخلف من بعدهم خلف
قانعين من دونه بالكفاف *
فأوحى القاضي اليه بانعام
الاستقصاء على حكم أمانة
القضاء * فقام فيه وقعد
وأبرق وأرعد * وانتزع مالا
عظما من تحت أضراسه *
وحذره الافتضاح أن
تعرض لمراسه * وكان
قصاراه ان سكن وسكت *

والاجاص والسفرجل وغيرها ووصلت الاخبار من العراق جميعه مثل ذلك فهلكت به ازهار الثمار ايضا وهذا أعجب من حال ديار الجزيرة والشام فانه أشد حرا من جميعها وفيها ظفر جمع من التركمان كانوا باطراف أعمال حلب بفارس مشهور من الفرنج الداوية فاطاعا كبة فقتلوه فعلم الداوية بذلك فصاروا وكبسوا التركمان فقتلوا منهم وأسروا وغنموا من أموالهم فبلغ الى اتابك شهاب الدين المتولى لامور حلب فراسل الفرنج وتهددهم بقصد بلادهم واتفق ان عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداوية أيضا فاذعنوا بالصلح ورد وا الى التركمان كثيرا من أموالهم ومواشيهم وأسراهم وفيها فى رجب اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر وارادوا الاغارة على جزيرة ابن عمر وكان صاحب الجزيرة قد قتل فلما قصدوا بلاد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها سلكون ولقوهم من ضحوة النهار الى العصر وطال القتال بينهم ثم حمل أهل القرية على الاكراد فهزموهم وقتلوا فيهم ونهبوا امعتهم وعادوا سالمين

﴿ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه﴾

فى هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزمشاه وهو أخو جلال الدين من أبيه أخاه وخافه معه جماعة من الامراء واستشعروا منه وأرادوا الخلاص منه فلم يتمكنوا من ذلك الى أن خرجت التتر واشتغل بهم جلال الدين فهرب غياث الدين ومن معه وقصدوا خوزستان وهى من بلاد الخليفة فلم يمكنهم النائب بها من الدخول الى البلد خوفا أن تكون هذه مكيدة فبقى هناك فلما طال عليه الامر فارق خوزستان وقصد بلاد الاسماعيلية فوصل اليهم واحتمى بهم واستجار بهم وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر وعاد الى تبريز فاتاه الخبر وهو بالميدان يلعب بالكرة ان أخاه قد قصد اصفهان فالقى الجوكان من يده وسار مجدا فسمع ان أخاه قد قصد الاسماعيلية فلحقهما اليهم ولم يقصد اصفهان فعاد الى بلاد الاسماعيلية لينهب بلادهم ان لم يسلموا اليه أخاه وأرسل يطلبه من مقدم الاسماعيلية فاعاد الجواب يقول ان أخاك قد قصدنا وهو سلطان ابن سلطان ولا يجوز لنا أن نسلمه لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه أن يقصد شيأ من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا ومتى كان منه ما تكره فى بلادك فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ما تختار فأجابهم الى ذلك واستحلفهم على الوفاء بذلك وعاد عنهم وقصد خلاط على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر﴾

فى هذه السنة عاود التتر الخروج الى الرى وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا فى عددها كان أكثرها عليه وفى الاخير كان الظفر له وكانت فى أول حرب بينهم عجائب غريبة وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم وأبعده عنه واخرجه من بلاده فقصد خراسان فرآها خرابا فقصد الرى ليستغلب على تلك النواحى والبلاد فلقيه بها جلال الدين فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم جلال الدين وعاد ثم انهزم وقصد اصفهان وأقام بينها وبين الرى وجمع عساكره ومن فى طاعته فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس وهو ابن اتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه كما ذكرناه وعاد جلال الدين الى التتر فلقيهم فبينما هم مصطفون كل

وخشى اسوة أمثاله العنت * وأحضر الرجل طواغيت الشهود * وعذاريت الفسوق والمرود * وعقد بمشهدهم على شهاداتهم وثائق بوقفه كل ما ملك * واطلاقه على وجه الله جميع ما أمسك * يرى بما فعل ان التسمح بما تحت يده من قليل أو كثير * وزهيد وغفير * براءة عن الطمع فى مال لغيره * وقوف وعرض الى وجه القربات مصروف * فلم يتراخ الامد على هذا العقد الوثيق *

طائفة مقابل الاخرى انفرد غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الامراء على مفارقة جلال الدين واعتزلوا وقصدوا جهة سار وا اليها فلما رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين فانهزم التتر لهذا الظن وتبعهم صاحب بلاد فارس وأما جلال الدين فانه لما رأى مفارقة أخيه اياه ومن معه من الامراء ظن ان التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه فعاد منهزما ولم يجسر يدخل اصفهان لئلا يحصروه فمضى الى سميدم وأما صاحب فارس فلما أبعد في أثر التتر ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه خاف التتر فعاد عنهم وأما التتر فلما لم يروا في آثارهم أحدا يطلبهم وقفوا ثم عادوا الى اصفهان فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم فوصلوا الى اصفهان فحصروها وأهلها يظنون ان جلال الدين قد عدم فبينما هم كذلك والتتر يحصرونهم اذ وصل قاصد من جلال الدين اليهم يعرفهم سلامته ويقول إني متعوق أو يجتمع الي من سلم من العسكر واقصدكم ونتفق أنا وأنتم على ازعاج التتر ونرحلهم عنكم فارسلوا اليه يستدعونه اليهم ويعدونه النصرة والخروج معه الى عدوه وفيهم شجاعة عظيمة فسار اليهم واجتمع بهم وخرج أهل اصفهان معه فقاتلوا التتر فانهزم التتر أقبح هزيمة وتبعهم جلال الدين الى الري يقتل ويأسر فلما أبعدوا عن الري أقام بها وأرسل اليه ابن جنكزخان يقول ان هؤلاء ليسوا من أصحابنا انما نحن ابعدناهم عنا فلما أمن جانب جنكزخان امن وعاد الى اذربيجان

﴿ذكر خروج الفرنج الى الشام وعمارة صيدا﴾

وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم التي هي في الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد الى بلادهم التي بالشام عكا وصور وغيرهما من ساحل الشام فكثر جمعهم وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضا الا انهم لم تمكنهم الحركة والشروع في امر الحرب لاجل ان ملكهم الذي هو المقدم عليهم هو ملك الالمان ولقبه انبرور قيل معناه ملك الامراء ولان المعظم كان حيا وكان شهما شجاعا مقداما فلما توفي المعظم كما ذكرناه وولي بعده ابنه وملك دمشق طمع الفرنج وظهروا من عكا وصور وبيروت الى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسورها خراب فعمروها واستولوا عليها وازالوا عنها حكم المسلمين وانما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما وقد تقدم ذكر ذلك قبل مستقصى فعظمت شوكة الفرنج وقوي طمعهم واستولى في طريقه على جزيرة قبرس وملكها وسار منها الى عكا فارتاع المسلمون لذلك والله تعالى يخذله وينصر المسلمين بمحمد وآله ثم ان ملكهم انبرور وصل الى الشام

﴿ذكر ملك كيقباذ ارزنكان﴾

وفي هذه السنة ملك علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان وهو صاحب قونية واقصرا وملطية وغيرها من بلاد الروم ارزنكان وسبب ملكه اياها ان صاحبها بهرام شاه وكان قد طال ملكه لها وجاوز ستين سنة توفي ولم يزل في طاعة قلج ارسلان واولاده بعده فلما توفي ملك بعد ولده علاء الدين داود شاه فأرسل اليه كيقباذ يطلب منه عسكرا ليسير معه الى مدينة ارزن الروم ليحصرها ويكون هو مع العسكر ففعل ذلك وسار في عسكره اليه فلما وصل قبض عليه واخذ

والخذلان المشبه بالتوفيق * حتى قال لي وهو يشكو الوزير شمس الكفاه * وسماعه اباطيل السعاه * ماهو الا ان احل عقود املاكي هذه على طفرة الى العراق سالما عن خراسان واهلها وقالبا قرارة البلاد * ومباءة الطارف والتلاد * منها فقلت انا لله وانا اليه راجعون من شيخ هذه تقيته * ومالقط به على وجه

مدينة ارزنكان منه وله حصن من امنع الحصون اسمه كماخ وفيه مستحفظ لداود شاه فأرسل اليه ملك الروم يحصره فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه فتهدد داود شاه ان لم يسلم كماخ فأرسل الى نائبه فى التسليم فسلم القلعة الى كيقباذ وراد كيقباذ المسير الى ارزن الروم ليأخذها وبها صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلج ارسلان فلما سمع صاحبها بذلك ارسل الى الامير حسام الدين على النائب عن الملك الاشرف بخلاط يستنجده واظهر طاعة الاشرف فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر وكان قد جمعها من الشام وديار الجزيرة خوفا من ملك الروم خافوا انه اذا ملك ارزن الروم يتعدى أو يقصد خلاط فسار الحاجب حسام الدين الى ارزن الروم ومنع عنها ولما سمع كيقباذ بوصول العساكر اليها لم يقدم على قصدها فسار من ارزنكان الى بلاده وكان قد اتاه الخبر ان الروم الكفار المجاورين لبلاده قد ملكوا منه حصنا يسمى صنوب وهو من احصن القلاع مطل على البحر بحر الخزر فلما وصل الى بلاده سير العسكر اليه وحصره برا وبحرا فاستعاده من الروم وسار الى انطاكية ليشتى بها على عادته

الاستطلال وغيظ العجز
عن املاك الرجال بقيته *
هذا ومن فضل سماحته *
واساحة فيض راحته *
أن كل من ساكنه فى حلته *
على عمل يليه * أومال
يجبيه * كاله ماشاء جزافا *
ووزنه تبذيرا واسرافا *
استخفافا بشهاداتهم له
بجوده * وتخرقه حذو
الكرام بموجوده * حتى
اذا قضى الوطر منهم *
وملك بسطة الاستغناء
عنهم * تتبع عليهم صبابات

﴿ذكر خروج الملك الكامل﴾

فى هذه السنة فى شوال سار الملك الكامل محمد ابن الملك العادل صاحب مصر الى الشام فوصل الى البيت المقدس حرسه الله تعالى وجعله دار الاسلام أبدا ثم سار عنه وولى بمدينة نابلس وشحن على تلك البلاد جميعها وكانت من أعمال دمشق وهو الى الملك المعظم نخاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه فارسل الى عمه الملك الاشرف يستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه بجريدة فدخل دمشق فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه وارسل اليه الملك الاشرف يستعطفه ويعرفه انه ما جاء الى دمشق الا طاعة له وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد فاعاد الكامل الجواب يقول انى ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج فانهم لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضى الاعصار وممر الايام فان أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذى ادخره عمنا وأى وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم انهم ما يقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون الى غيره وحيث قد حضرت أنت فانا اعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذى يقال عنى انى قاتلت أخى أو حصرته حاشى لله تعالى وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية ونزل تل العجول نخاف الاشرف والناس قاطبة بالشام وعلموا انه ان عاد استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره لا مانع دونه فتردد الرسل وسار الاشرف بنفسه الى الكامل أخيه فحضر عنده وكان وصوله ليلة عيد الاضحية ومنعه من العود الى مصر فاقاما بمكانهما

﴿ذكر ذهاب جلال الدين بلاد ارمينية﴾

فى هذه السنة وصل جلال الدين خوارزمشاه الى بلاد خلاط وتعدى خلاط الى صحراء موش وجبل جور ونهب الجميع وسبى الحريم واسترق الاولاد وقتل الرجال وخرب القرى وعاد الى

بلاده ولما وصل الخبر الى البلاد الجزرية حرّان وسروج وغيرهما انه قد جاز خلاط الى جور وانه قد قرب منهم خاف أهل البلاد أن يجيء اليهم لان الزمان كان شتاء وظنوا انه يقصد الجزيرة ليشتي بها لان البرد بها ليس بالشديد وعزموا على الانتقال من بلادهم الى الشام ووصل بعض أهل سروج الى منبج من أرض الشام فاتاهم الخبر انه قد ذهب البلاد وعاد فاقاموا وكان سبب عوده ان الثلج سقط ببلاد خلاط كثيرا لم يعهد مثله فاسرع العود

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في هذه السنة رخصت الاسعار بديار الجزيرة جميعها وجاءت الغلات التي لهم من الحنطة والشعير جيدا الا ان الرخص لم يبلغ الاول الذي كان قبل الغلاء انما صارت الحنطة كل خمس مكاكيك بدينار والشعير كل سبعة عشر مكوكا بالموصلي بدينار

﴿ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر تسليم البيت المقدس الى الفرنج﴾

في هذه السنة اوّل ربيع الآخر تسلم الفرنج لعنهم الله البيت المقدس صلحا أعاده الله الى الاسلام سريعا وسبب ذلك ما ذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الانبرور ملك الفرنج من بلاد الفرنج داخل البحر الى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل وأفسدوا من يجاورهم من بلاد المسلمين ومضى اليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم وقوى طمع الفرنج بموت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق ولما وصل الانبرور الى الساحل نزل بمدينة عكا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة اخيه المعظم وهو نازل بتل العجول يريد أن يملك دمشق من صلاح الدين داود بن المعظم وهو صاحبها يومئذ وكان داود لما سمع بقصد عمه الملك الكامل له قد أرسل الى عمه الملك الاشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه فسار الى دمشق وتردّدت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الاشرف الى الملك الكامل واجتمع به فلما اجتمعا تردّدت الرسل بينهما وبين الانبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة فاستقرت القاعدة على أن يسلموا اليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده ويكون باقي البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين ولا يسلم الى الفرنج الا البيت المقدس والمواضع التي استقرت معه وكان سور البيت المقدس خرابا قد خرّبه الملك المعظم وقد ذكرنا ذلك وتسلم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك واكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه يسر الله فتحه وعوده الى المسلمين بمنه وكرمه آمين

﴿ذكر ملك الملك الاشرف مدينة دمشق﴾

وفي هذه السنة يوم الاثنين ثاني شعبان ملك الملك الاشرف بن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم وسبب ذلك ما ذكرناه ان صاحب دمشق لما خاف من عمه الملك الكامل أرسل الى عمه الاشرف يستنجده ويستعين به على دفع الكامل فسار اليه من

القدور * وخلالات الثغور * وقامات الاطراف * وصواحات الاصواف * وجعل المطعوم في زنة الذهب المصون * والمشروب في قيمة الجوهر المخزون * والدرهم الواحد قنطارا * وحديثا في دواوين الشرق مطارا * سحابة من خست آرومته * وريست على دمنة اللؤم جرثومته * فصدر عنه العامل * والجار والآمل * مغبونا مدة مقامه موضوعا * وشرابه في طعامه مغبوعا *

البلاد الجزرية ودخل دمشق وفرح به صاحبها وأهل البلد وكانوا قد احتاطوا وهم يتجهزون للحصار فأمر بازالة ذلك وترك ما عزموا عليه من الاحتياط وحلف لصاحبها على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه وراسل الملك الكامل واصطلحا وظن صاحب دمشق انه معهما في الصلح وسار الاشرف الى أخيه الكامل واجتمعا في ذي الحجة من سنة خمس وعشرين يوم العيد وسار صاحب دمشق الى بيسان وأقام بها وعاد الملك الاشرف من عند أخيه واجتمع هو وصاحب دمشق ولم يكن الاشرف في كثرة من العسكر فبيتاهما جالسان في خيمة لهما واذا قد دخل عز الدين ايبك مملوك المعظم الذي كان صاحب دمشق وهو اكبر أمير مع ولده فقال لصاحبه داود قم اخرج والا قبضت الساعة فاخرجه ولم يمكن الاشرف منعه لان ايبك كان قد اركب العسكر الذي له جميعه وكانوا اكثر من الذين مع الاشرف فخرج داود وسار هو وعسكره الى دمشق وكان سبب ذلك ان ايبك قيل له ان الاشرف يريد القبض على صاحبه وأخذ دمشق منه ففعل ذلك فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل الى الاشرف وسار فنازل دمشق وحصرها وأقام محاصرا لها الى أن وصل اليه الملك الكامل فحينئذ اشتد الحصار وعظم الخطب على أهل البلد وبلغت القلوب الحناجر وكان من أشد الامور على صاحبها ان المال عنده قليل لان أمواله بالكرك ولوثوقه بعمه الاشرف لم يحضر منها شيأ فاحتاج الى أن باع حلي نسائه وملبوسهم وضاقت الامور عليه فخرج الى عمه الكامل وبذل له تسليم دمشق على أن يبقى عليه الكرك وقلعة الشوبك والغور وبانياس وتلك الاعمال وان يبقى على ايبك قلعة صرخد وأعمالها وتسلم الكامل دمشق وجعل نائبه بالقلعة الى أن سلم اليه أخوه الاشرف حران والرها والرقة وسروج ورأس العين من الجزيرة فلما تسلم ذلك سلم قلعة دمشق الى أخيه الاشرف فدخلها وأقام بها وسار الكامل الى الديار الجزرية فاقام بها الى أن استدعى أخاه الاشرف بسبب حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط فلما حضر عنده بالرقة عاد الكامل الى ديار مصر وأما الاشرف فكان منه ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر القبض على الحاجب علي وقتله﴾

وفي هذه السنة أرسل الملك الاشرف مملوكه عز الدين ايبك وهو أمير كبير في دولته الى مدينة خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين علي بن حاد وهو المتولي لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الاشرف ولم نعلم شيأ يوجب القبض عليه لانه كان مشفقا عليه ناصحا له حافظا لبلاده حسن السيرة مع الرعية ولقد وقف هذه المدة الطويلة في وجه خوارزمشاه جلال الدين وحفظ خلاط حفظا يعجز غيره عنه وكان مهتما بحفظ بلاده وذابا عنها وقد تقدم من ذكر قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها ما يدل على همة عالية وشجاعة تامة وصار لصاحبه به منزلة عظيمة فان الناس يقولون بعض غلمان الملك الاشرف يقاوم خوارزمشاه وكان رحمه الله كثير الخير والاحسان لا يمكن أحدا من ظلم وعمل كثيرا من أعمال البر من الخانات في الطرق والمساجد في البلاد وبنى بخلاط بيمارستانا وجامعا وعمل كثيرا من الطرق وأصلحها كان يشق سلوكها فلما وصل ايبك الى خلاط قبض عليه ثم قتله غيلة لانه كان عدوه ولما قتل ظهر أثر كفايته فان جلال الدين حصر خلاط بعد قبضه وملكها على ما نذكره ان شاء

بما اقتنا مغابر آثامه * مخدوعا
عن شهادة خطت صحيفة
آثامه * قد خف فرجيه
بكتابديه * يباري في عدوه
السليك * وينادي لبيك
اللهم لبيك * وليست هذه
من آثاره * بأعجب من كون
أخباره * وسدول الاستار
دون اسراره * وتصويد
الانتقام من معقد أزراره *
غير ان لكل شيء أمدا *
ويأبى الله أن يفلح الظالم

الله ولم يمهل الله ايبك بل انتقم منه سريعا فان جلال الدين أخذ ايبك أسيرا لما ملك خلاط مع غيره من الامراء فلما اصطلح الاشرف وجلال الدين اطلق الجميع وذكر ان ايبك قتل وكان سبب قتله ان مملوكا للحاجب علي كان قد هرب الى جلال الدين فلما أسر ايبك طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب علي فسلمه اليه فقتله ويبلغني ان الملك الاشرف رأى في المنام كأن الحاجب عليا قد دخل الى مجلس فيه ايبك فاخذ منديلا وجعله في رقبة ايبك وأخذه وخرج فأصبح الملك الاشرف وقال قدمات ايبك فاني رأيت في المنام كذا وكذا

﴿ذكر ملك الكامل مدينة حماة﴾

وفي هذه السنة أو اخر شهر رمضان ملك الملك الكامل مدينة حماة وسبب ذلك ان الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر وهو صاحب حماة توفي على ما ذكره ولما حضرته الوفاة حلف الجند واكابر البلد لولده الاكبر ويلقب بالملك المظفر وكان قد سيره أبوه الى الملك الكامل صاحب مصر لانه كان قد تزوج بابنته وكان لمحمد ولد آخر اسمه قلج ارسلان ولقبه صلاح الدين وهو بدمشق فحضر الى مدينة حماة فسلمت اليه واستولى على المدينة وعلى قلعتها فارسل الملك الكامل يأمره أن يسلم البلد الى أخيه الاكبر فان أباه اوصى له به فلم يفعل وتردد الرسل في ذلك الى الملك المعظم صاحب دمشق فلم تقع الاجابة فلما توفي المعظم وخرج الكامل الى الشام وملك دمشق سير جيشا الى حماة فحصرها ثالث شهر رمضان وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه صاحب حمص وأمير كبير من عسكره يقال له فخر الدين عثمان ومعهما ولد محمد تقي الدين الذي كان عند الكامل فبقي الحصار على البلد عدة أيام وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سلمية يريد العبور الى البلاد الجزيرية حران وغيرها فلما نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين ونزل اليه من قلعته ولم يكن لذلك سبب الا أمر الله تعالى فان صلاح الدين قال لاصحابه أريد النزول الى الملك الكامل فقالوا له ليس بالشام أحصن من قلعتك وقد جمعت من الذخائر مالا حد له فلا أي شيء تنزل اليه ليس هذا برأي فأصر على النزول وأصروا على منعه فقال في آخر الامر اتركوني انزل والا ألقيت نفسي من القلعة فحينئذ سكتوا عنه فنزل في نفر يسير ووصل الى الكامل فاعتقله الى أن سلم مدينة حماة وقلعتها الى أخيه الاكبر الملك المظفر وبقي بيده قلعة بارين حسب فانها كانت له وكان هو الباحث بظلفه على حتفه

﴿ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها﴾

وفي هذه السنة أوائل شوال حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط وهي للملك الاشرف وبها عسكره فامتنعوا بها وأعانهم اهل البلد خوفا من جلال الدين لسوء سيرته واسرفوا في الشتم والسفه فاخذه اللجاج معهم وأقام عليهم جميع الشتاء محاصرا وفرق كثيرا من عساكره في القرى والبلاد القريبة من شدة البرد وكثرة الثلج فان خلاط من اشد البلاد بردا واكثرها ثلجا وأبان جلال الدين عن عزم قوي وصبر تحار العقول منه ونصب عليها عدة منجنيقات ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خرب بعض سورها فاعاد أهل البلد عمارته ولم يزل مصابرهم وملازمهم الى أواخر جمادى الاولى من سنة سبع وعشرين فزحف اليها زحفا متتابعا وملكها عنوة وقهرا يوم الاحد الثامن والعشرين من جمادى الاولى سلمها اليه بعض الامرا

ابدا * الا ان المال يغزر الماء * ويحقن الدماء * ويجمع الاهواء * ويدفع القضاء * ويستر العوار والعوراء * واقد بالغ أبو الفتح البستي حيث يقول

اشفق على الدرهم والعين
تسلم من العينة والدين
فقوة العين بانسانها
وقوة الانسان بالعين
غير ان المال متى سلب
الجمال * وأورث القيل
والقال * فهو وبال *
ولا الدين مطلوبا * والذنب
مكتوبا * والانف مجدوعا *
والبنان مقطوعا * فقبح
الله الاعراض * متى تدنست
الاعراض * والاموال *
متى لطخت السربال *
والاسلال * متى أعرت
الاوراك * والحراثب * متى
أبدت المعائب * فأتما موائده
ومطاعمه نخذوها مني اليكم
باسنا كما انفقت الاصابع *
واتسقت الكعوب الفوارع *
انه يغدو مع صفير العصافير

غدرا فلما ملك البلد صعد من فيه من الامراء الى القلعة التي لها وامتنعوا بها وهو منازلهم ووضع السيف في اهل البلد وقتل من وجد به منهم وكانوا قد قلوا فان بعضهم فارقوه خوفا وبعضهم خرج منه من شدة الجوع وبعضهم مات من القلة وعدم القوت فان الناس في خلاط اكلوا الغنم ثم البقر ثم الجواميس ثم الخيل ثم الحمير ثم البغال والكلاب والسنانير وسمعنا انهم كانوا يصطادون الفأر ويأكلونه وصبروا صبرا لم يلحقهم فيه أحد ولم يملك من بلاد خلاط غيرها وماسواها من البلاد لم يكونوا ملكوه وخربوا خلاط واكثروا القتل فيها ومن سلم هرب في البلاد وسبوا الحريم واسترقوا الاولاد وباعوا الجميع فتمزقوا كل ممزق وتفرقوا في البلاد ونهبوا الاموال وجرى على أهلها مالم يسمع بمثله لاجرم لم يمهله الله تعالى وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والتتر ماذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر عدة حوادث﴾

في أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام ونهبوا بلاده وأعماله واسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين فاخذوا الجميع ولم يسلم منهم الا النادر الشاذ والله أعلم

﴿ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والاشرف﴾

في هذه السنة يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان انهزم جلال الدين خوارزمشاه من علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج ارسلان صاحب بلاد الروم قونية واقصرا وسيواس وملطية وغيرها ومن الملك الاشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط وسبب ذلك ان جلال الدين كان قد أطاعه صاحب أرزن الروم وهو ابن عم علاء الدين ملك الروم وبينه وبين علاء الدين عداوة مستحكمة وحضر صاحب ارزن الروم عند جلال الدين على خلاط وأعانه على حصرها فخافهما علاء الدين فارسل الى الملك الكامل وهو حينئذ بحران يطلب منه أن يحضر أخاه الاشرف من دمشق فانه كان مقيما بها بعد ان ملكها وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين فاحضر الملك الكامل اخاه الاشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين اليهما متتابعة يحثهما على المجيء اليه والاجتماع به حتى قيل انه في يوم واحد وصل الى الكامل والاشرف من علاء الدين خمسة رسل ويطلب مع الجميع وصول الاشرف اليه ولو وحده فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار الى علاء الدين فاجتمعا بسيواس وسار نحو خلاط فسمع جلال الدين بهما فسار اليهما مجدا في السير فوصل اليهما بمكان يعرف بياسي حمار (٣) وهو من أعمال ارزنجان فالتقوا هناك وكان مع علاء الدين خلق كثير قيل كانوا عشرين ألف فارس وكان مع الاشرف نحو خمسة آلاف الا انهم من العساكر الجيدة الشجعان لهم السلاح الكثير والدواب الفارهة من العربيات وكل منهم قد جرب الحرب وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن علي وهو من الاكراد الهكارية ومن الشجاعة في الدرجة العليا وله الاوصاف الجميلة والاخلاق الكريمة فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر لاسيما لما رأى عسكر الشام فانه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ماملأ

على أطعمة يرتو عليها حشاه
كما حشي الدقيق جرابا *
واثقل الرصاص كعابا * فما
هو الا أن يذر ورس الشمس
على صلايات الجدران *
حتى كان اولاد البقر تطس
فؤاده * وكأن الظليم يدعى
فيه ميلاده * فيتغدى
بالفول سنة وعاده * وبما
يجانسه من عمل السوق
شهوة واراده * حتى اذا
طفح كالدلو لن متح كف *
وقبض الكف * على قرم
لا يطير داجنه * ولا تثنى
دون الجذب محاجنه * فاذا
انتصف النهار أو كاد *
والتحف الحرباء الالحاد *
عاد بطعام اليوم وهو
المتكاف * وما يقيم رسمه
التصلف * فاحتشى من
كل حلو وحامض * وامتلأ
من كل بكر وفارض *
حتى يخشى عليه في
الصفاق * من الانشقاق *
وفي العروق * من
البشوق * فيظل باقي النهار

صدره رعبا فانشب عز الدين بن علي القتال ومعه عسكر حلب فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر ومضى منهزما هو وعسكره لا يلوي الاخ على أخيه وتفرقت اصحابه وتمزقوا كل ممزق وعاد الى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم وعادوا الى اذربيجان فنزلوا عند مدينة خوي ولم يكونوا قد استولوا على شئ من اعمال خلاط سوى خلاط ووصل الملك الاشرف الى خلاط فرآها خاوية على عروشها خالية من الاهل والسكان قد جرى عليهم ماذكرناه قبل

﴿ذكر ملك علاء الدين ارزن الروم﴾

قد ذكرنا ان صاحب ارزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط ولم يزل معه وشهد معه المصاف المذكور فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب ارزن الروم أسيرا فاحضر عند علاء الدين كيقباذ ابن عمه فاخذه وقصد ارزن الروم فسلمها صاحبها اليه هي ومابتبعها من القلاع والخزائن وغيرها فكان كما قيل خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين وهكذا هذا المسكين جاء الى جلال الدين يطلب الزيادة فوعده بشئ من بلاد علاء الدين فأخذ ماله وما بيديه من البلاد وبقي أسيرا فسبحان من لا يزول ملكه

﴿ذكر الصلح بين الاشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين﴾

لما عاد الاشرف الى خلاط ومضى جلال الدين منهزما الى خوي تردد الرسل بينهما فاصطلحوا كل منهم على ما بيده واستقرت القواعد على ذلك وتحالفوا فلما استقر الصلح وبرت الايمان عاد الاشرف الى سنجار وسار منها الى دمشق فاقام جلال الدين ببلاده من اذربيجان الى أن خرج عليه التتر على ما نذكره ان شاء الله تعالى

﴿ذكر ملك شهاب الدين غازي مدينة ارزن﴾

كان حسام الدين صاحب مدينة ارزن من ديار بكر لم يزل مصاحبا للملك الاشرف مناصحا له مشاهدا جميع حروبه وحوادثه وينفق أمواله في طاعته ويبذل نفسه وعساكره في مساعدته فهو يعادي أعداءه ويوالي أولياءه ومن جملة موافقته انه كان في خلاط لما حصرها جلال الدين ولقي من الشدة والخوف ما لقيه بها وصبر الى أن ملكها جلال الدين فأسره جلال الدين وأراد ان يأخذ منه مدينة ارزن فقيل له ان هذا من بيت قديم عريق في الملك وانه ورث هذه ارزن من اسلافه وكان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم فعطف عليه ورق له وأبقى عليه مدينته وأخذ عليه العهود والمواثيق انه لا يقاتله فعاد الى بلاده وأقام به فلما جاء الملك الاشرف وعلاء الدين محاربين لجلال الدين سار شهاب الدين غازي بن الملك العادل وهو أخو الاشرف وله مدينة ميافارقين ومدينة حاني وهو بمدينة ارزن فحصره بها ثم ملكها صلحا وعوضه عنها بمدينة حاني من ديار بكر وحسام الدين هذا نعم الرجل حسن السيرة كريم جواد لا يخلو بابه من جماعة يردون اليه يستضيفونه وسيرته جميلة في ولايته ورعيته وهو من بيت قديم يقال لهم بيت طغان ارسلان كان لهم مع ارزن بدليس ووسطان وغيرهما ويقال لهم بيت الاحدب وهذه البلاد معهم من أيام ملكشاه بن ألب ارسلان السلجوقي فاخذ بكتمر صاحب خلاط منهم بدليس أخذها من عم حسام الدين هذا لانه كان موافقا لصلاح الدين يوسف بن أيوب فقصده بكتمر لذلك وبقيت ارزن بيده الى الآن فاخذت منه ولكل اول آخر فسبحان

يشكو هي معاويه * وخلاء خاليه خاويه * حتى اذا جنحت الشمس للاصيل * وهم الطفل على الليل بالتطفيل * أعيد عليه الطبائخ والغروف * وحشر اليه القراطف والقروف * ثم يؤتى لمبيته بالفانيذ كالاضابير مطوية * والطوامير مختومة مسجية * وربما تعار بعض ساعات الليل فينادي بالجوع * ويلاقي الطهاة بالقنوع * فيحاش عليه عجالة الوقت من مستودعات البساتيق * ومطجنات الطيور والفرانيق * فيتهجد عليها من غير قيام * ويتسحر منها بغير صيام * طعاما لا يشركه فيه غير الملائكة حاضرة * والكواكب من محاجر الظلماء ناظرة * فما الارض وهي الغاية في الالتقام والالتهام * ولا الدعص وهو النهاية في الاشتفاف والارتشاف * بأبلع منه

من لا اول له ولا آخر لبقائه

﴿ذكر ملك صونج قشيالوا قلعة رويندز﴾

وفى هذه السنة ظهر أمير من امراء التركمان اسمه صونج ولقبه شمس الدين واسم قبيلته قشيالوا وقوى أمره وقطع الطريق وكثر جمعه وكان بين اربل وهذان وهو ومن معه يقطعون الطريق ويفسدون فى الارض ثم انه تعدى الى قلعة منيعة اسمها سار وهى لمظفر الدين وقتل عندها أميرا كبيرا من أمراء مظفر الدين يعرف بعز الدين الحميدى فجمع مظفر الدين واراد استعادتها منه فلم يمكنه لحصانتها ولكثرة الجموع مع هذا الرجل فاصطلحا على ترك القلعة بيده وكان عسكر لجلال الدين خوارزمشاه يحصرون قلعة رويندز وهى من قلاع اذربيجان من أحصن القلاع وأمنعها لا يوجد مثلها وقد طال الحصار على من بها فأذعنوا بالتسليم فارسل جلال الدين بعض خواص أصحابه وثقاته ليتسلمها وأرسل معه الخلع والمال لمن بها فلما صعد ذلك القاصد الى القلعة وتسلمها أعطى بعض من بالقلعة ولم يعط البعض واستذلهم وطمع فيهم حيث استولى على الحصن فلما رأى من لم يأخذ شيأ من الخلع والمال ما فعل بهم أرسلوا الى صونج يطلبونه ليسلموا اليه القلعة فسار اليهم فى أصحابه فسلموها اليه فسبحان من اذا أراد أمر اسهله هذه قلعة رويندز لم تزل تتقاصر عنها قدرة اكابر الملوك وعظمائهم من قديم الزمان وحديثه وتضرب الامثال بحصانتها لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهل له الامور فملكها بغير قتال ولا تعب وازال عنها أصحاب مثل جلال الدين الذى كل ملوك الارض تهابه وتخافه وكان اصحاب جلال الدين كما قيل رب ساع لقاعد فلما ملكها صونج طمع فى غيرها لا سيما مع اشتغال جلال الدين بما أصابه من الهزيمة ومجىء التتر فنزل من القلعة الى مراغة وهى قريب منها فحصرها فاتاه سهم غرب فقتله فلما قتل ملك رويندز اخوه ثم ان هذا الاخ الثانى نزل من القلعة وقصد أعمال تبريز ونهبها وعاد الى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفا من التتر وكانوا قد خرجوا فصادفه طائفة من التتر فقتلوه وأخذوا ما معه من النهب ولما قتل ملك القلعة ابن أخت له وكان هذا جميعه فى مدة سنتين فأف لدنيا لا تزال تتبع فرحة بترحة وكل حسنة بسيئة

﴿ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر خروج التتر الى اذربيجان وما كان منهم﴾

فى اول هذه السنة وصل التتر من بلاد ماوراء النهر الى اذربيجان وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ماوراء النهر وما صنعوه بخراسان وغيرها من البلاد من النهب والتخريب والقتل واستقر ملكهم بما وراء النهر وعادت بلاد ماوراء النهر انعمرت وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم عظيمة وبقيت مدن خراسان خرابا لا يجسر أحد من المسلمين يسكنها واما التتر فكانوا تغير كل قليل طائفة منهم يغيرون ما يرونه بها فالبلاد خاوية على عروشها فلم يزالوا كذلك الى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين فكان بينهم وبين جلال الدين ما ذكرناه وبقوا كذلك فلما كان الآن وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ ومن الاشرف كما ذكرناه سنة سبع وعشرين ارسل مقدم الاسماعيلية الملاحدة الى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه

ويحثهم

لولا قضاء زاده ولا بأجرع
لولا قضاء فاده * ومن نادر
أمره فى المعاقرة انه يكتب
ضمنا فى التنقل من الصبوح
الى الغبوق * والتردد بين
الفجور والفسوق * فان
نشط للتنزه تبوأ مقاعد
الاكناف * كما تعود مقاعد
الاحقاف * فيهادى بين
اثنين حرضا فى جلدة شيطان *
وجيفة فى صورة أفعوان *
قد تجم بينهما انتوخ الفحل
للرمال * بل صنيع الداهيتين
بالفحال * وربما بقى فى
التمارض سنة أو اكثر
شفقا من تكلف الخدمة *
لولى النعمة * وتجشم المسير *
الى باب الوزير * فيشوعلى
التعليل مالا * ويحلو وجوه
الاطباء * وأصحاب الانماء *
فرها خفافا وبدرا ثقالا *
وليس هذا الاحتيال بأغرب
من اكتئاب الزمانة على
امتناع الطباع وشموس
النفوس دون الاصغاء
اليها * فضلا عن القرار عليها *

ويحثهم على قصده عقيب الضعف ويضمن لهم الظفر به للوهن الذى صاروا اليه وكان جلال الدين سيئ السيرة قبيح التدبير لملكه لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له الا عاداه ونازعه الملك وأساء مجاورته فمن ذلك انه اول ماظهر فى اصفهان وجمع العساكر قصد خوزستان فحصر مدينة ششتر وهى للخليفة فحصرها وسار الى دقوقا فنهبها وقتل فيها فاكثر وهى للخليفة ايضا ثم ملك اذربيجان وهى لاوزبك فملكها وقصد الكرج وهزمهم وعاداهم ثم عادى الملك الاشرف صاحب خلاط ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم وعادى الاسماعيلية ونهب بلادهم وقتل فيهم فاكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة وكذلك غيرهم فكل من الملوك تخلى عنه ولم يأخذ بيده فلما وصلت كتب مقدم الاسماعيلية الى التتر يستدعيهم الى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلاده واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد ثم قصدوا اذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم ولا يقدر على منعهم عن البلاد قد ملئ رعبا وخوفا وانضاف الى ذلك ان عسكره اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر وكان السبب أن غريبا أظهر من قلة عقل جلال الدين مالم يسمع بمثله وذلك انه كان له خادم خصى وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج فاتفق ان الخادم مات فاظهر من الهلع والجزع عليه مالم يسمع بمثله ولا المجنون ليلى وأمر الجند والامراء أن يمشوا فى جنازته رجالة وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس رجالة ومشى بعض الطريق راجلا فالزمه امراؤه ووزيره بالركوب فلما وصل الى تبريز أرسل الى اهل البلد فامرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم ففعلوا فانكر عليهم حيث لم يعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء اكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم امراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصى وانما كان يستصحبه معه أين سار وهو يلطم ويبكى فامتنع من الاكل والشرب وكان اذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا الى قلج ولا يتجاسر أحد يقول انه مات فانه قيل له مرة انه مات فقتل القائل له ذلك انما كانوا يحملون اليه الطعام ويعودون يقولون انه يقبل الارض ويقول انى الآن أصلح مما كنت فلحق أمراءه من الغيظ والانفة من هذه الحالة ما حملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره فبقى حيران لا يدرى مايصنع لاسيما لما خرج التتر فحينئذ فن الغلام الخصى وراسل الوزير واستماله وخدعه الى أن حضر عنده فلما وصل اليه بقى أياما وقتله جلال الدين وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها

(ذكر ملك التترعراغة)

وفى هذه السنة حصر التتر عراغة من اذربيجان فامتنع اهلها ثم أذعن اهلها بالتسليم على امان طلبوه فبذلوا لهم الامان وتسلموا البلد وقتلوا فيه الا انهم لم يكثروا القتل وجعلوا فى البلد شحنة وعظم حينئذ شان التتر واشتد خوف الناس منهم باذربيجان فالله تعالى ينصر الاسلام والمسلمين نصرا من عنده فما رأى فى ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو وقال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

(ذكر وصول جلال الدين الى آمد وانهزامه عنها وما كان منه)

فسبحان من خلق النفوس أطوارا * وجعل من الهموم انجادا وأغوارا * هذه من اعيان مساوى هذا الفاضل * العاطل * ولو سردت أمثالها لطال الكلام * وعال الابرام * ووراءها من دقائق الظلم المذموم * والدغل المكتوم * وثقل الحيزوم * والذل المبلول بلعاب اللوم مايربى على دقائق الابراج * وأجزاء جواهر الامشاج * والصغائر على الاصرار كبائر * كما زعب الشعور على الايام غدائر * ولقد أحسن ابن المعتز حيث يقول

خل الذنوب صغيرها
وكبيرها فهو التقى
لا تحقرن صغيرة
ان الجبال من الحصى

ومما اقتضى التنبيه على معايب المذكور ومعايبه * والفلى عن شمط عنائصه وذوائبه * مقابلته صنائع

لما رأى جلال الدين ما يفعله التتر في بلاد اذربيجان وانهم مقيمون بها يقتلون وينهبون ويخربون السواد ويجبون الاموال وهم عازمون على قصده ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف فارق اذربيجان الى بلاد خلاط وأرسل الى النائب بها عن الملك الاشرف يقول له ما جئنا للعرب ولا للاذى انما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم وكان عازما على أن يقصد ديار بكر والجزيرة ويقصد باب الخليفة يستنجده وجميع الملوك على التتر ويطلب منهم المساعدة على دفعهم ويحذرهم عاقبة اهمالهم فوصل الى خلاط فبلغه ان التتر يطلبونه وهم مجدون في أثره فسار الى آمد وجعل اليزك في عدة مواضع خوفا من البيات فجاءت طائفة من التتر يقصدون أثره فوصلوا اليه على غير الطريق الذي فيه اليزك فاوقعوا به ليلا وهو بظاهر مدينة آمد فانهزم منهزما على وجهه وتفرق من معه من العسكر في كل وجه فقصد طائفة من عسكره حران فأوقع بهم الامير صواب مقدم الملك الكامل بحران ومعه العسكر فأخذوا ما معهم من مال وسلاح ودواب وقصد طائفة منهم نصيبين والموصل وسنجار واربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردي والبدوي وغيرهم وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم وقبيح فعلهم في خلاط وغيرها وبما سعوا في الارض فسادا والله لا يحب المفسدين فازداد جلال الدين ضعفا الى ضعفه ورهنا الى وهنه بمن تفرق من عسكره وبما جرى عليهم فلما فعل التتر بهم ذلك ومضى منهزما منهم دخلوا ديار بكر في طلبه لانهم لم يعلموا أين قصد ولا اى طريق سلك فسبحان من بدل أمنهم خوفا وعزهم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء

(ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه في البلاد من الفساد)

لما انهزم جلال الدين من التتر على آمد ذهب التتر سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد فقاتلهم اهلها فبذل لهم التتر الامان فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم الا من اختفى وقليل ما هم (حكى) لى بعض التجار وكان قد وصل آمد انهم حزروا القتلى ما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل وكان مع هذا التاجر جارية من أسعرد فذكرت ان سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لها ولد سواه فلم يصغ الى قولها فمشت معه فقتلا جميعا وورثها ابن أخ للام فباعها من هذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما وان مدة الحصار كانت خمسة ايام ثم سار وامنها الى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك وسار وامن طنزة الى وادي القرب من طنزة يقال له وادي القريشية فيه طائفة من الاكراد يقال لهم القريشية وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة والطريق اليه ضيق فقاتلهم القريشية فمنعوهم عنه وامتنعوا عليهم وقتل منهم كثيرا فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا وسار وا في البلاد لا مانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا الى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين وأهل نصيبين بقلعة ماردين وغيرهم ممن جاور القلعة احتمى بها أيضا ثم وصلوا الى نصيبين الجزيرة فاقاموا عليها بعض نهار ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به وغلقت أبوابها فعادوا عنها ومضوا الى بلد سنجار ووصلوا الى الجبال من أعمال سنجار فنهبوها ودخلوا الى الخابور وفرقوا الى عرابان فنهبوا وقتلوا وعادوا ومضى

لى عنده ايام آل سامان
وبعدها في حق قضيته *
وعهد رعيته * وعيب
طويته * وسر أخفيته *
وشغل كفيته * وبر أوليته *
بأن كاشفني لمودة جمعتني
ووالده المغبط أبا المظفر
رحمه الله بعدا ولم يزح
له عظيم سيلها صفاء * ولا
لهيم ليلها انقضاء * وذلك
ان شمس الكفاة تدنى
لها ورته * وتقمص لي خيرا
بما شرته * مكافأة على
خدمتي دولة السلطان
يمين الدولة * وأمين الملة *
باليميني في شرح أخباره *
ومدح مقاماته في عديده
وأنصاره * فما زال يسري
اليه عني بنمية * كقطار
دية * ووقيعة * كسراب
بقيعة * على غفلتي دون
ما ينصبه لي من شرك *
ويهيجه من معترك * تمويها
له أني لحقه كافر * وعن
فرض محبته نافر * والى
حرموق بعين الكفاة *

طائفة منهم على طريق الموصل فوصلوا الى قرية تسمى المؤنسة وهى على مرحلة من نصيبين بينها وبين الموصل فنهبوها واحتمى اهلها وغيرهم بخان فيها فقتلوا كل من فيه (وحكى) لى عن رجل منهم انه قال اختفيت منهم ببيت قيسه تبن فلم يظفروا بى وكنت أراهم من نافذة فى البيت اذا أرادوا قتل انسان فيقول لا بالله فيقتلونه فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول لا بالله ومضى طائفة منهم الى نصيبين الروم وهى على الفرات وهى من أعمال آمد فنهبوها وقتلوا فيها ثم عادوا الى آمد ثم الى بلد بدليس فحصن اهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيرا وأحرقوا المدينة (وحكى) انسان من أهلها قال لو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لان الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ثم سار وامن بدليس الى خلاط فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكرى وهى من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة ارجيش من أعمال خلاط وهى مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا فى ذى الحجة واقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى القاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم حتى قيل ان الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده الى ذلك الفارس ولقد بلغنى ان انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الارض ولا تبرح فوضع رأسه على الارض ومضى التترى أحضر سيفا فقتله به (وحكى) لى رجل قال كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلا فى طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك فاخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا وأمثال هذا كثير

﴿ذكر وصول طائفة من التتر الى اربل ودقوقا﴾

فى هذه السنة فى ذى الحجة وصل طائفة من التتر من اذربيجان الى أعمال اربل فقتلوا من على طريقهم من التركمان الايوانية والاكراد الجوزقان وغيرهم الى أن دخلوا بلاد اربل فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك الاعمال وعملوا الاعمال الشنيعة التى لم يسمع بمثلها من غيرهم وبرز مظفر الدين صاحب اربل فى عساكره واستمد عساكر الموصل فساروا اليه فلما بلغه عود التتر الى اذربيجان أقام فى بلاده ولم يتبعهم فوصلوا الى بلد الكرخينى وبلد دقوقا وغير ذلك وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد هذا العدو عنهم وخرجت هذه السنة ولم تنحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل أو اختفى لم يظهر نفسه خوفا من التتر أو فارق البلاد الى غيرها والله أعلم

﴿ذكر طاعة أهل اذربيجان للتتر﴾

فى أول هذه السنة أطاع اهل بلاد اذربيجان جميعها للتتر وحملوا اليهم الاموال والثياب الخطائى والخوبى والعتابى وغير ذلك وسبب طاعتهم ان جلال الدين لما انهزم على آمد من

فى اسحاق صدر الوزارة
ماثل * وفى شعب الاختصاص
به والانقطاع اليه سائل *
اكذوبة لم يخلق الله
لها أساولا اذنبا * ولم يضرب
لها وتدا ولا طنبا * ودمنة لم
يهتد دمنة لنسور حوافرها *
ومصفوف كلاها وأباهرها *
حتى هاجه على كالليث
موتوراه والنمر محرجا
ومضرورا * فكم كدحت
حتى استنزلته عن حران
وشماس * وجهدت حتى
نجوت منه رأسا برأس *
وطفقت انشد وقد فارقته سالما
اذا نحن أبنا سالمين بأنفس
كرام رجت امر انخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنيمة انها
نؤب وفيها ماؤها وحياؤها
وأغرى بى بدر الملك بن شمسه
يمين الدولة فى عظيمة لولا ان
ألهمه الله الاناة * وأشعره
الحصاة * فنقر ونقب *
واستشف اعطاف البلاغ
فعل من جرب ودرب *
لثارت على منه داهية لا تبقى

التتر وتفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة واربل وخلاط مافعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وملوك الاسلام منحجرون فى الاثقاب وانضاف الى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فانه لم يظهر له خبر ولا علموا له حالا سقط فى أيديهم واذعنوا للتتر بالطاعة وحملوا اليهم ماطلبوا منهم من الاموال والثياب من ذلك مدينة تبريز التى هى أصل بلاد اذربيجان ومرجع الجميع اليها والى من بها فان ملك التتر نزل فى عساكره بالقرب منها وأرسل الى اهلها يدعوهم الى طاعته ويتهددهم ان امتنعوا عليه فارسلوا اليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب الابريسم وغيرها وكل شئ حتى الخمر وبذلوا له الطاعة فاعاد الجواب بشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدموهم عنده فقصده قاضى البلد ورئيسه وجماعة من أعيان اهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وهو الذى يرجع الجميع اليه الا انه لايظهر شيأ من ذلك فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائى فقالوا انه رجل منقطع ماله بالملوك تعلق ونحن الاصل فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صناع الثياب الخطائى وغيرها ليستعمل لملكهم الاعظم فان هذا هو من اتباع ذلك الملك فاحضروا الصناع فاستعملهم فى الذى أراد واووزن أهل تبريز الثمن وطلب منهم خركاة لملكهم ايضا فعملوا له خركاة لم يعمل مثلها وعملوا غشاءها من الاطلس الجيد الزركش وعملوا من داخلها السمور والقندر فجاءت عليهم بجملة كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيأ كثيرا ومن الثياب كذلك وترددت رسلهم الى ديوان الخلافة والى جماعة من الملوك يطلبون منهم انهم لاينصرون خوارزمشاه ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل الى الموصل واقام بها هو ورفقاء له ثم سافر الى الرى فى العام الماضى قبل خروج التتر فلما وصل التتر الى الرى وأطاعهم أهلها وساروا الى اذربيجان سار هو معهم الى تبريز فكتب الى أصحابه بالموصل يقول ان الكافر لعنه الله ما قدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لاتنقطع قلوب المسلمين فان الامر عظيم ولاتظنون ان هذه الطائفة التى وصلت الى نصيبين والخابور والطائفة الاخرى التى وصلت الى اربل ودقوقا كان قصدهم انهب انما أرادوا أن يعلموا اهل فى البلاد من يردهم أم لا فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وان البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم وهم فى الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام الا ان كان فى بلاد الغرب فان عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لانفسكم هذا مضمون الكتاب فانا لله وانا اليه راجعون ولاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم وأما جلال الدين فالى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر وكذلك الى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له على حال والله المستعان

(ذكر عدة حوادث)

فى هذه السنة قلت الامطار بديار الجزيرة والشام لاسيما حلب وأعمالها فانها كانت قليلة بالمرة وغلت الاسعار بالبلاد وكان أشدها غلاء حلب الا انه لم يكن بالشديد مثل ماتقدم فى السنين الماضية فاخرج أتابك شهاب الدين وهو والى الامر بحلب والمرجع الى أمره ونهيه وهو المدبر لدولة سلطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر والمربى له من المال والغلات كثيرا وتصدق صدقات دارة وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر فجزاه الله خيرا وفيها بنى أسد الدين

ولاتذر * ولا استطارت عباقية يضئ عليها الشعر والبشر * فمن الله تعالى بأن فضح القاضح فيما زوره * وكسف وجهه وكوره وأهواه فيما حفره * وخنقه بقوى ماضفره * وسخم وجهه بثؤر الافتعال * وكشف عورته لفحول الرجال * وجعله عبرة للغابرين بشرح هذه الاحوال * فمن قرأ هذه الفصول * فليحمد الله تعالى على السلامة من مثلها * والبراءة من فوادح الاوزار * وقوادح النار بها * وليعلم ان الاساءة تعقب على مرور الايام عباً ثقيلا * وغباء وبيلا * وخطباً جليلا * ولساناً كالحسام صقيلا * وقبح الله من نقص عمره على زيادة الآثام * ومساءة الانام * وحيازة الملام * ويرحم الله عبداً قال آمينا

(هذا آخر الكتاب المرسوم بالبيهقى لابى نصر العتبى رضى الله عنه وارضاه وجعل الجنة متقلبه ومثواه)

الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة قلعة عند سلمية وسماها سميس وكان الملك الكامل لما خرج من مصر الى الشام قد خدمه أسد الدين ونصح له وله أثر عظيم فى طاعته والمقاتلة بين يديه فاقطعه مدينة سلمية فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية وهى على تل عال وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهى بين جملة المدن المضافة الى حلب ودخلوا اليها وأخذوا منها غنيمة واسرى فسيرا تابك شهاب الدين اليهم العساكر مع أمير كان أقطعها فقاتل الفرنج وقتل منهم كثيرا واسترد الاسرى والغنيمة وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبى الشيخ الصالح وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمه فلو قال قائل انه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا فرضى الله عنه وأرضاه فانه من جملة شيوخنا سمعنا عليه الحديث وانتفعنا برؤيته وكلامه وفيها أيضا فى الثانى عشر من ربيع الاول توفى صديقنا أبو القاسم عبد المجيد ابن البجمى الحلبى وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب وكان رجلا ذا مروأة غزيرة وخلق حسن وحلم وافر ورياسة كثيرة يحب اطعام الطعام وأحب الناس اليه من يأكل طعامه ويقبل بره وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط ولا يقعد عن ايصال راحة وقضاء حاجة فرحمه الله رحمة واسعة

(ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة)

(خاتمة)

باسمك اللهم خير الاسماء وشكرك الجالب لمزيد النعماء والصلاة والسلام على خاتم الرسل الكرام وعلى آله أولى الفضل والاحتشام والسير المستقيمه والمناهج القويمه يقول المتوسل الى مولاه بالنبى المختار ابراهيم الدسوقى الملقب بعبد الغفار خادم تصحيح كتب العلوم والفنون بدار الطباعة ذات الطبع السليم المصون

تم بعون مبدع الاوائل والاواخر طبع كتاب التاريخ المعروف بالكامل للعلم الشهير الماهر النحرير العلامة أبى الحسن على المعروف بابن الاثير الذى ابتدأه من اول الزمان الى انتهاء سنة ستمائة وعشرين وثمان ثم اخترمته المنيه فأدركت الناس فيه الرزيه محرر الجمل والاساليب مصونا عن التحريف والتصحيف فى الكلمات والتراكيب على يد عصابه تشهد لهم عباراته بالاصابه اذا قابله على أصله المطبوع المحرف أريب كشف الله عن بصيرته فأنصف وكان طبعه بالمطبعة الكبرى العامره ذات التحريرات الباهره المشهورة بكمال الضبط ودقة الانظار فى سائر المدن والنواحى والاقطار المتوفرة دواعى مجدها المشرقة كواكب سعدها فى ظل من تعطرت بطيب ذكره الاندية وتضوعت بعاطر مدائحه الاثنيه رب المآثر التى لا تحصى والمحاسن التى لا تستقصى حسنة الليالى والايام بدر الولاة والملوك والحكام سلالة السراة الصناديد وارث الملوك الاماجيد الراقى بهممه الى كل مقام معتلى عزيز مصر اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على لازالت الايام منيرة بطلعة وجوده والانام متمتعة بكرمه وجوده ولا برح قرير العين منتعش الروح والعين بانجاله الكرام وأشباله الفخام لاسيما الوزير الشهير النبيل الاصيل رب المعارف المشهوره

والعوارف المشكوره والرأى والاصابه والدولة والنجابه من هو باحسن الثناء حقيق
سعادة محمد باشا توفيق رئيس المجلس الخصوصى ومن له بولاية العهد أوصى ثم سعادة الوزير
صنو الكمال ومظهر الجلال والجمال أسد العرين أشم العرنين مشير المعالى بدر الليالى
جوهرى الفطنة والرويه سعادة حسين باشا ناظر الجهاديه ثم حضرة ثالث الانجال من له
فى ميدان الفضل أفسح مجال المعدود فى صفة ميزان الرجحان من فحول الرجال العلية
الاذهان حسن الصفات والاسم ومن له من حسن الصيت أوفر قسم من انتعش به البهاء
انتعاشا دولتلو حسن باشا وكان طبعه الموثق وتمثيله المروق مشمولا بادارة من
خاطبته المعالى بايالك أعنى حضرة حسين بك حسنى ونظارة وكيله السالك جادة
سبيله من علیه أحاسن اخلاقه تثنى حضرة محمد أفندى حسنى وملاحظة
ذى الرأى المسدد حضرة أبى العينين افندى احمد وكان تمام تمثيله
وكمال تصويره وتشكيله فى أوائل ذى الحجة الحرام
من سنة ألف ومائتين وتسعين من هجرة خاتم
الانبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليه
وآله وصحبه وكل منتسب اليه
ماناح حمام وفاح
مسك ختام
آمين